نزار السامرائي



عشرون عاماً في سجون إيران



جسور للترجمة والنشر

في قصور آيات الله

عشرون عاماً في سجون إيران

نزار السامرائي



جسور للترجمة والنشر

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد جسور للترجمة والنشر

في قصور آيات الله: عشرون عاماً في سجون إيران/ نزار السامرائي.
٥٥٧ص.

ISBN 978-614-431-795-2

١. السامرائي، نزار ـ مذكرات.
أ. العنوان.
920

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن وجهة نظر جسور للترجمة والنشر»

الطبعة الأولى عن جسور، بيروت، ٢٠١٦

جسور للترجمة والنشر

لبنان ـ بيروت
josour.pub@gmail.com

إهـــــــداء

إلى من رحل من دون وداع ولم يبتسم للحظة اللقاء مع الأهل والأحبة...

إلى أولئك الذين مضوا في طريق الأبدية وقد فتحوا صدورهم لرصاص القتلة من أبناء بلدهم ومن بلد عدوهم في معسكرات الأسر ولم تبكهم البواكي، ومع ذلك ربطت عيونهم وكبلت أيديهم وهم في العالم الآخر، فلم ترع لهم كرامة الأموات...

إلى كل من توقعت أنْ يحتفل بي بعد عودتي ولم يفعل لأنّه مضى على طريق سنّة الحياة...

إلى من انتظرني كل هذه السنين ولم يتوقف عن الأمل بلحظة اللقاء...

وإلى من لم يترك دعاء إلا ردّدَه من أجل لحظة تلتقي فيها العيون وتتشابك الأيدي...

أقدّم هذا الجهد المتواضع، درساً من تجربة معمدة بالدم، رأيت أنّ أجيال العراق القادمة ستكون بحاجة إليها وتنتفع من دروسها، والقارئ الحصيف هو من سيخرج بالنتيجة.

المحتويات

تقديم

إذا جاز لي أن أسمي هذا الكتاب الذي كتبه الأستاذ نزار السامرائي، وأصنفه تحت عنوان «أدب الأسر» فإننا نرى فيه ما هو أكثر من الأدب، وأكثر من مذكرات شخصية، إنه بانوراما هائلة من المخزون الإنساني في مناح عديدة من الحياة، فعلى الرغم من تنويه الكاتب في بداية الكتاب إلى أنه لا يؤرّخ لمرحلة تاريخية، بل يكتب مذكرات إنسان رمت به الأقدار في سجون الأسر الإيرانية، فإن التاريخ، والجغرافيا، والتحليل السياسي، وتصوير المشاعر الإنسانية بقوتها وضعفها، عناصر تتزاحم في الكتاب، مما يجعل القارئ يحار في تصنيفه بين التاريخ والجغرافيا والأدب، وعلم النفس، والمذكرات الشخصية.

وما أشبه هذا الكتاب بمسرحية بطلها شخص واحد، لكنه يستطيع أن يستولي على إيقاع التشويق في نفس القارئ، والمشاهدين حتى النهاية من دون كلل أو ملل، بحيث يجعلك تقرأ مجريات هذه «المذكرات/التاريخ» بنهم شديد حتى تنتقل من واقعة إلى أخرى مدفوعاً بحب الفضول متسائلاً ماذا سيحدث؟ ماذا بعد؟

أما في الجانب الإنساني فقد استطاع الكاتب أن يقدم صوراً تعجز أجهزة التكنولوجيا الحديثة عن التقاطها، لأنها صور من داخل النفس الإنسانية، تسبر أغوارها، وتصف بدقة وشفافية كل انفعالاتها في ضعفها وقوتها.

ولا نستطيع أن نقفز عن قضية وظّفتها هذه المذكرات بشكل واضح، وهي الوطن بوصفه قيمة إنسانية متغلغلة في شخصية الفرد، لا مكاناً فقط ذا معالم جغرافية محددة، توجه آماله وتصرفاته حيال الآخرين، وخصوصاً عندما يكون هذا الإنسان في وضع حرج تطبق عليه الهموم والرزايا بأنيابها، فيتشبث بهذه القيمة العالية وكأنها حبل النجاة الوحيد الذي يمتد إليه في هذه الظروف العصيبة.

بهذا الزخم الهائل ينقلنا الأستاذ نزار السامرائي بين سجون الأسر والمنافي الإيرانية، فنرى الحقد بأبشع صوره، والوفاء في أجمل تجلياته، الحقد من جانب العدو حيال أناس هم ليسوا إلا جنوداً لوطنهم، لم يرتكبوا جنحة أو جناية تخل بالشرف، وإنما وجودهم في الأسر هو أعظم وسام يُعلَّقُ على صدورهم، فالجندي لا يصبح أسيراً إلا لأنه كان جسوراً وسباقاً في الدفاع عن ترابه وإنسانيته، ولو كان جباناً لاختبأ أو تراجع.

ونرى الوفاء جلياً بين زملاء ورفاق سلاح، فعلى الرغم من أن مصيبتهم واحدة نجدهم يشدون أزر بعضهم، يساعد القوي الضعيف، والمعافى السقيم، ويبقون على العهد حتى آخر اللحظات

في هذا الأسر المظلم والظالم، وبإزاء هذه المأساة الإنسانية فإننا لا نملك إلا أن نردد بيت أبي الطيب المتنبي:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

د. جاسر علي العناني

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

عشرون عاماً إلا شهرين في سجون إيران الرهيبة، فهي إذن ٢٣٨ شهراً، وهي أيضاً ١٠٣٢ أسبوعاً، وبالأيام هي ٧٢٤٥ يوماً بلياليها، فلنتأمل كم من الساعات هي، وبالتالي من الدقائق وثوانيها؟ من يضع الأرقام أمامه لا بد من أنْ يخرج بنتيجة واحدة، وهي أنّ حياة في وسط ضيق ووجوه تتكرر، وعذابات تفنن الآسرون بإيقاعها بأسرى سقط السلاح من أيديهم، كان يمكن أنْ تذهب بعقول أصحابها حتى بفرض أن تتوفر لهم كل مستلزمات العيش الطبيعي، وتتدفق فيه المعلومات والأخبار من دون انقطاع، أو يتوفر للجميع كل ما يحتاجونه من أسباب إدامة الحياة، أو أنّهم يزارون من قبل الأهل والأصدقاء، ولكن هذا كله لم يتح لنا فتم قطعنا عن أهلنا ومنع عنا الإعلام ورسائل أهلنا، فكنا نكرر ذواتنا ونجتر ذكرياتنا، ترى هل يطيق أحد أنْ يواصل حياته بشكل سوي في قلب المحنة مع عدو لئيم لا يتورّع عن أي شيء؟

ومع ذلك فقد عشناها بحلوِها ـ إنْ كان فيها حلوٌ غير النتيجة النهائية للصبر أي الحرية والعودة إلى أرض الوطن ـ ومرّها، وهو

ما كان مستمراً ونتقلّب على جمره عشرين عاماً إلا شهرين، ومن لم يحفظ الأشهر والأسابيع والأيام فليقرأ من جديد، أمّا من يريد معرفة الساعات والدقائق والثواني فليفعل وليتأمل. والله من وراء القصد.

نزار

مقدمة الطبعة الثانية

حينما دفعت بمسوّدة كتابي في قصور آيات الله إلى الناشر في طبعته الأولى، عشت قَلَقاً هو امتداد للقلق الذي رافقني طيلة عشرين عاماً من الأسر في المعسكرات الإيرانية، التي تعيد إلى الذاكرة سلوك الحكام الطغاة مع المضطهدين والمظلومين في العصور الغابرة، قبل أن يعرف الإنسان الضوابط الأخلاقية والدينية والقانونية للتعامل مع أسرى الحروب، ولكنني حزمت أمري بعد التوكل على الله وقررت طبع الكتاب، الذي سجل لنفسه صفة الكتاب الأكثر مبيعاً بعد أسبوع من نزوله إلى الأسواق، على الرغم من أن حركته بين الدول العربية تشبه إلى حد بعيد حركة الإنسان العربي عبر حدود رسمتها اتفاقية سايكس بيكو، فلم تتح للكتاب الفرصة للعرض إلا في بلد أو بلدين، بسبب الدور الإيراني الذي أراد طمس أساليب البطش التي مارسها مع الأسرى العراقيين، حتى بعد خمسة عشر عاماً على انتهاء الحرب بين البلدين، ولكن الرقابة الحدودية لمنع الكتاب من دخول بعض الأسواق العربية، عجزت عن فرض رقابتها على عرض تجربة الأسر التي وردت في الكتاب، عبر برنامج «شاهد وشواهد» الذي قدّمته قناة الرافدين، والذي يعدّه ويقدّمه الصديق العزيز والإعلامي المقتدر، الدكتور رافع الفلاحي،

في ثلاث عشرة حلقة استقطبت اهتمام المشاهدين، الذين وردتني منهم مئات الرسائل التي تطالبني بتأليف كتاب عن هذه المحنة، مما يعكس صورة محزنة عن توزيع الكتاب في الأسواق وخاصة في السوق العراقية؛ إذ لم يسمح له بعبور الحدود إلا تهريباً، كما أن التجربة الجاهزة التي طرحتها عن معاناةٍ ترافق فيها الدم مع القلق من المجهول وجوع وأمراض وقمل، كان يمكن أن تحصن المواطن العربي من الانزلاق وراء الشعارات الفارغة التي تطرحها إيران عن الثورة الإسلامية، وعن حوارات التقريب بين المذاهب، والتي لا تفهم منها إلا تنازل الآخرين لها عن قناعاتهم والالتحاق بركبها، كي تقبل بهم وصيفة ثانية أو ثالثة. إيران لا تفهم للحوار معنى إلا إذا صب في مصلحتها وأضاف إلى رصيدها مكاسب جديدة، أو وجدت أنها لا تستطيع الوصول إلى أهدافها بطريقة أخرى، على هذا كله واعتقاداً مني بأن هذا الكتاب يقدم تجربة ميدانية لكل العارفين بالخطر الإيراني، أو الذين ما زالوا مخدوعين ببعض صفحاته، عزمت على إعادة طبع الكتاب، مع إضافة بعض المعلومات التي حصلت عليها من مصادر مختلفة في زمن الحرية المنقوصة التي أعيش أيامها في المنافي، بعيداً عن الأرض التي أحب، والتي وهبها الله الحكمة وفصل الخطاب، أو مما وردني من زملاء الأسر المر الذين اتصلوا بي أو راسلوني بعد مشاهدة حلقات الرافدين، ممن عاش معي في زنزانات القهر الإيرانية، التي قهرها العراقيون بنصر من الله وإرادتهم وعزمهم وحبهم لوطنهم، وقبل هذا وأهم من كل هذا، بإيمانهم الخالص لله الواحد القهار وحده لا شريك له، والله من وراء القصد.

نزار

٢٠١٢/٣/٢٤

في قصور «آيات اللّٰه»

الفصل الأول

الحرب العراقية ـ الإيرانية
خط الشروع

الحرب العراقية ـ الإيرانية: هل كان بالإمكان تجنبها والركون إلى حل يرضي الطرفين ويجنب المنطقة والعالم ويلاتها وتداعياتها التي حولت منطقة الخليج العربي في واحدة من أخطر صفحاتها إلى ساحة حرب حقيقية فوق مياه الخليج، وهدّدت إمدادات النفط بأخطار جدية، مما أدى إلى استثارة قلق عالمي حول مستقبل الاقتصاد العالمي الذي يعتمد بنسبة عالية على النفط لإدارة ماكنته؟.

ومن هو القادر على أنْ يحقق ذلك الهدف سواء من الأمم المتحدة أو منظمة المؤتمر الإسلامي أو حركة عدم الانحياز أو الشخصيات التي تحظى باحترام البلدين؟ وكيف تستطيع إنجاز مثل هذه المهمة؟ فالحوار أصبح بين البلدين المتحاربين مستحيلاً بسبب الشعارات السياسية التي ترفعها إيران ليل نهار، وليس بوسع العراق القبول بها.

وهل كان بالإمكان تجنب المآسي الإنسانية والمادية التي رافقتها أو نجمت عنها ثم أضافت إلى المجتمع العراقي كما المجتمع الإيراني أمراضاً وعقداً وعاهات بعضها بدني والآخر نفسي، هي الإفراز الطبيعي لأية حرب، خاصة إذا كانت بحجم

حرب الثماني سنوات والنيران التي أشعلتها بين بلد يسعى لتثبيت أسس العلاقات الثنائية وفق ما حدّده القانون الدولي، وآخر يريد العودة بالعلاقات الدولية إلى عصور الغزو والتوسع خارج حدودها على حساب أراضي الدول الأخرى وإقامة الإمبراطوريات الكبرى إن لم تجد من يوقف زحف جيوشها؟

الحرب أتت على كل شيء مرت عليه أو بقربه، ودمرت ركائز اقتصادية كانت قائمة، أو مشاريع في طريقها أنْ تصبح شواهد في كلا البلدين، وعطّلت برامج التنمية فيهما على حد سواء، وخلّفت أمراضاً اجتماعية عصيّة على الحل.

قد تكون هذه الأسئلة من قبيل ما يصعب إعطاء جواب عنها بنعم أو لا، ما لم تتم متابعة دقيقة لظروف العلاقة المعقدة بين بلدين (العراق وإيران)، لم يختر أيّ منهما جيرة أزلية وأبدية من حيث الزمان كما هو حال جميع البلدان المتجاورة، وتصل حدودهما إلى ١٢٠٠ كيلومتر في حدود برية مشتركة، لم يشهد طرفاها في علاقاتهما الثنائية استقراراً إلا لفترات قصيرة وكأنها استراحات متحاربين لاسترداد الأنفاس والاستعداد لجولة جديدة، ثم لتعود إلى نقطة التوتر وبدرجة أشد مما سبق، على الرغم من وجود أسباب جدية وجوهرية تقضي بتطبيع العلاقات والوشائج، التي يمكن تلمّسها بسهولة في مختلف الميادين وخاصة الاقتصادية، وبإمكانها ربط أواصر وطيدة ينبغي أنْ تسود بين أي بلدين متجاورين، على أساس المصلحة المشتركة والمنافع المتبادلة واحترام خيار كل منهما وعدم التدخل في الشأن الداخلي.

ولما كانت هذه الموضوعات والأسئلة ليست محور هذا المؤلَّف ـ لأنّه مذكّرات شخصية عن مشاهدات ومعاناة بمعايشة

ميدانية ولتجربة سنوات الأسر الطويلة في السجون الإيرانية - فإنّ تركه إلى الباحثين في شؤون تلك الحرب يمكن أنْ يحقق نتائج أكثر أهمية، إلا أنّ هذه الإحالة لا تعني مصادرة حق أي طرف بمن فيهم صاحب هذه المذكرات في إصدار حكم شخصي يراه الأقرب إلى الحقيقة من دون أن يزعم أن رأيه هو الأقرب إلى العلم العسكري، أياً كان رأي الآخرين فيه، انطلاقاً من قناعة مؤكدة ومستندة إلى خبرة مستمدة من التجربة الطويلة في معسكرات الأسر على مدى عشرين عاماً إلا ستين يوماً، وتعاطٍ لملف العلاقات العراقية الإيرانية بشكل مباشر من خلال مواقع مختلفة في الإعلام العراقي لزمن طويل.

لذلك فقد يكون لزاماً عليّ أنْ أبادر إلى القول، وعلى الرغم من آلام الأسر التي سوف يستشعرها القارئ من متابعة فصول رحلة الألم هذه، بأنّ الحرب كان يجب أنْ تقع، ولم يكن بوسع أحد من العراقيين أنْ يمنع وقوعها، على الرغم من الجهد الطويل الذي بذلته القيادة العراقية لإقناع إيران، بأنّ إصرارها على نظرة الاستصغار للعراق ليست في محلها أبداً، لأنّ هذه النظرة هي التي أغرت الزعامات الإيرانية في مختلف العهود على التمدد فوق الأراضي العراقية، ثم الاسترخاء عليها، لذا لم يكن بوسع أحد منع تفجّر الموقف، ولأنّ آية الله الخميني كان يحمل اعتقاداً بأنّ هناك قوى من وراء الطبيعة ستقاتل إلى جانب جنوده، وأن الإمام الثاني عشر لدى الشيعة الجعفرية الإمامية، كان يمتطي صهوة جواده ويشهر سيفه في كل جبهات الحرب ليقاتل إلى جانب الإيرانيين، فقد أشاح بوجهه عن كل الدعوات التي أرادت منع الحرب قبل نشوبها، أو وقف عجلتها عن الدوران، بعد أنْ تحشّدت الجيوش على جانبي الحدود، واستعدّت المدافع والدبابات لساعة الصفر،

وبدأت حمم قذائفها تتساقط بلا توقف ومن دون تمييز، وخرج المقاتلون من مواضعهم ليصولوا على الخطوط الدفاعية لقوات العدو.

إنّ حرب السنوات الثماني ربما كانت هي الحرب الوحيدة التي لا بد من نشوبها، لأنّها ساعدت على استقرار طاولة العلاقات الثنائية على قوائمها، ومكّنت الإيرانيين من العودة إلى حجمهم الحقيقي، والنظر إلى جيرانهم بعين أخرى فيها من التوازن الحائل دون نظرة استصغار الآخرين، وخاصة العراق الذي ظلّ الإيرانيون ينظرون إليه باستصغار شأنه، والنظر إليه من شاهق إلى واد سحيق، على نحو كان يترك شعوراً بالاختناق لدى كل عراقي يفخر ببلده، ويشعر بأنّه وهب البشرية أعظم ما تفاخر به اليوم من معرفة تنفست نسمتها الأولى في بلاد ما بين النهرين، ونشرت أشعتها على ربوع المعمورة، ولعلّ في معاينة ميدانية محايدة للدور الإيراني في أثناء الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣ وبعده، وما أحدثه من مآسٍ إنسانية نتيجة المجازر التي ارتكبتها قوى وميليشيات تم تدريبها ورسم خارطة تحركها في إيران، ما يعزز القناعة بأنّ الحرب استطاعت أنْ تؤخر المشروع الإيراني في العراق ومنطقة الخليج العربي بل والعالم أجمع لمدة عشرين عاماً، وربما سيكون على العراقيين النهوض بدورهم هذا مرة أخرى لردّ المشروع الإيراني القومي إلى داخل الخارطة السياسية لإيران تمهيداً لنزع شعاراته الدينية.

فالإيرانيون ومنذ نشأة الدولة العراقية الحديثة ظلّوا يتصرفون معها وكأنّها أحد أقاليم الدولة الإيرانية المترامية الأطراف، خاصة وأنّهم (الإيرانيون) في ظل ظروف معروفة استطاعوا التأثير في قرار المرجعية الدينية في النجف، والتي كانت بصفة عامة من أصول إيرانية ما عدا استثناءات محدودة وقصيرة جداً، وتعاملوا معها

وكأنّها إحدى الدوائر الصغيرة الملحقة بالقصر الملكي، أو إحدى مديريات وزارة الخارجية الإيرانية، ولم تتغير النظرة بعد سقوط نظام الشاه، بل ربمّا اتخذت طابعاً أكثر تبعية لمركز صنع القرار السياسي والذي ارتكز على خلفية دينية أبوية، تفاقمت أكثر بعد اختراع الخميني لفكرة «ولاية الفقيه» لتكريس سلطته البابوية على الدولة، وحاول من خلالها أن يفرض الطاعة على كل شيعي في العالم، وللعراق في عقل الخميني أكثر من دافع إضافي لتصدير آخر صرْعة في تاريخ التشيع الإيراني.

صحيح أنّ الحرب هي ليست الخيار الأفضل في العلاقات بين الدول، وأنّها آخر صفحة من صفحات العمل السياسي، إلا أنّ بعض الدول التي تفتقد روح المسؤولية وتحلق عالياً في عالم أحلامها المريضة، تسعى إلى تجاوز حدود ما يمنحها مركزها من حقوق، وتفسر ما تظنه حقاً لها على أنّه واجب الأداء من قبل الآخرين، ومن هذه الخلفية التي عفّى عليها الزمن، رفضت الحكومة الإيرانية الجديدة الإقرار بالالتزامات التي فرضتها عليها اتفاقية الجزائر، الموقعة بين الرئيس الراحل صدام حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ وشاه إيران السابق محمد رضا بهلوي في آذار/مارس ١٩٧٥، والتي رسمت الحدود البرية والمائية بين البلدين، ونظّمت العلاقات بينهما استناداً إلى مبدأ راسخ في العلاقات الدولية، وهو مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للغير واحترام الاختيارات السياسية والاجتماعية، بل إنّ النظام الجديد في طهران بدأ يهدّد تلميحاً وتصريحاً، بإلغاء الاتفاقية المذكورة، باعتبارها من تركة نظام الشاه، وعلى طريق تحقيق هذا التمهيد اللازم لوضع تلك التهديدات موضع التنفيذ، شهدت المناطق الحدودية بين البلدين تصعيداً في نشاط الأجهزة الإيرانية، أدّت في مرحلة لاحقة إلى

تعريض عدد من المدن الحدودية العراقية إلى قصف مدفعي أجبر سكانها على الهجرة منها، بعد أنّ فقد كثيرون من أهلها حياتهم في ذلك القصف، وأحدث القصف دماراً واسعاً في المراكز الإنتاجية والخدمية، وألحق أضراراً جسيمة بالممتلكات.

ويبدو أنّ الحرب أصبحت الخيار الوحيد القادر على تأكيد قدرة كل من البلدين على فرض إرادته على الآخر، وبالتالي من أجل إعادة التوازن إلى كفّتي الميزان بين العراق وإيران.

وكي لا يؤخذ حديثي هذا على أنّ الحرب كان يجب أنْ تحقق هذا الهدف فقط، من دون سواها من وسائل العمل السياسي والدبلوماسي، فإنني أستدرك وأقول: إنّ مجيء نظام آية الله الخميني إلى الحكم في إيران قد أعطى طهران إحساساً جارفاً في القدرة على سحق الآخرين، والقدرة على التأثير في العراق بشكل خاص، وارتبط ذلك الفهم الخاطئ باعتقاد أكثر خطورة لدى الأوساط المحيطة بالخميني شخصياً، هو مقدار ما يتركه اسم الخميني من تأثيرات مدويّة في الشارع العراقي وفي البسطاء من الناس، وبشكل خاص تأثير شخصية الخميني في حوزة النجف وبالتالي مجاميع الشيعة في العراق والمنطقة، للتحرك على وفق ما يرسمه الخميني من خطط ويوجّه جماهيره عن بعد للتحرك على هديها. وهذا الاعتقاد الذي فيه قدر غير يسير من الواقع، وضع إيران على خط مواجهة متزايدة مع المحيط الإقليمي عموماً، ومع العراق بشكل خاص، وكل بلد كان يتصرف على أساس ما يصله من سخونة التهديد، من جهة وعلى أساس الاستعداد النفسي والميداني لمواجهة التحديات الخارجية. بعض الدول ترى في أن تؤدي دور الإسفنج الذي يمتص الصدمات أفضل ما تعرضه من بضاعة، والبعض الآخر كان يرى في تلك السياسة امتهاناً للكرامة

الوطنية وسيادة البلاد، وكان العراق يمثّل هذا النموذج.

وبالفعل فقد وقعت أحداث متفرقة في العراق نتيجة للتدخل الإيراني المتواصل في شؤون العراق الداخلية، وكان من الطبيعي أنْ يدفع ذلك بالحكومة العراقية إلى النهوض بمسؤولياتها القانونية والأخلاقية تجاه المواطنين، والتصرف بما يوقف ذلك التدخل أولاً، وليؤكد أنّ العراق قادر على التصدي لأية أخطار قد تتسرب إليه من حدوده الشرقية، فالإيرانيون ـ واستمراراً لنهج ظلّ متوارثاً من عهود غابرة حتى تكرس في العقيدة السياسية الإيرانية واعتمدته الحكومات المتعاقبة على الحكم في طهران في العصر الحديث ـ كانوا يجدون في الساحة العراقية الأرض التي تسترخي فوقها أرجلهم، ويستردون فيها أنفاسهم، حيثما اقتضت ضروراتهم أو أحلامهم ذلك.

ومن أجل تبرير هذا السلوك فإن الإيرانيين كانوا يفتعلون المشاكل والأزمات مع العراق، من أجل إيجاد الأرضية المواتية لإلغاء آخر اتفاقية بين البلدين، وفقاً لرغبة أكيدة تعشعش داخل العقول الإيرانية وبصرف النظر عن توجهاتها الدينية أو العلمانية أو القومية، في القضم التدريجي لأراض عراقية وضمّها عبر اتفاقيات لاحقة إلى الأراضي الإيرانية، ثم تبدأ اللعبة من نقطة الصفر، وكانوا يوظّفون في ذلك كل الأوراق المتاحة لهم والتي يمكن أنْ تكون طيّعة بأيديهم، مع ظرف سياسي صعب يعيشه العراق وهو متاح باستمرار بسبب نوعية البرامج الموجّهة ضد العراق من جانب قوى دولية تمثلها الولايات المتحدة مع قوى إقليمية تمثلها كل من إسرائيل وإيران، نتيجة لضغوط خارجية مستمرة عليه، وبذلك فإنّهم يهيّئون المناخ المناسب لإلغاء آخر معاهدة سارية بين البلدين، ليفرضوا معاهدة جديدة توفر الشرعية الدولية لما استطاعوا قضمه من أرض عراقية.

وهذا لا يدل على عبقرية المفاوض الإيراني وعجز المفاوض العراقي، بل هو نتاج لالتقاء مصالح دولية وإقليمية، وتحالفات ترى في إيران القوة التي يمكن الاعتماد عليها مهما تبدلت الظروف السياسية في مواجهة العرب الذين يتطلعون لإقامة دولة واحدة قوية. ظل العراق يعاني من نوايا إيران طيلة تاريخه الحديث، كوْن العراق كما يرى في نفسه ويراه الآخرون، قدرةً ودوراً عصّيين على التدجين والترويض، وعلى الرغم من ذلك كله فإنّ العراق تصرف مع النوايا الإيرانية بحكمة لا مزيد عليها، وبمزيد من طول النفس والأناة والصبر الجميل، ولكنّ هذا الذي أغرى الإيرانيين بمزيد من الطمع ووهم القوة، فقد ذهبوا إلى مدى أبعد في سياستهم المعهودة.

وقد أجاد الإيرانيون استغلال ظروفٍ داخليةٍ خانقةٍ كان العراق يمر بها على مدى عقودٍ طويلة بعد نشوء الدولة العراقية الحديثة عام ١٩٢١، وهو ما كان يحصل بين الدولة الفارسية والدولة العثمانية على مدى خمسة قرون على الأقل، لإحداث تغييرات متتالية في حدود البلدين، وفي كل مرة كان التغيير يتم لصالح إيران، وحتى في الظرف الذي وصلت فيه علاقات البلدين مرحلة التوقيع على نواة الأحلاف الإقليمية (حلف بغداد)، في منتصف عقد الخمسينيات من القرن الماضي، والذي ضمّ إلى جانبهما دولاً أخرى منها تركيا وبريطانيا، كان الإيرانيون ينظرون إلى كل خطوة يتمّ قطعها بين بغداد وطهران على أنّها تمهيد لمزيد من الكسب للطرف الأقوى والمستفيد على الدوام - أي إيران - ولانتزاع المزيد من التنازلات من الطرف الأضعف - أي العراق - وكانت إيران تلقى دعماً من أطراف دولية لا تريد العراق مستقراً ولا يريحها صعود العراق اقتصادياً وعسكرياً، وكان نوري السعيد يشكو من أن إيران تبقى هاجساً موجعاً للعراق.

وسقطت حكومات متعاقبة في العراق منذ عام ١٩٥٨، حينما سقط الحكم الملكي في العراق، وحدثت بعد ذلك سلسلة التغييرات السياسية والتي ترافقت مع عنف واضطرابات في مراحل معينة، واتسمت ظروف العراق لمدة عشر سنين بأعلى درجات التأزم السياسي، ولكن الشاه كان وحده الباقي في الحكم وهو نفسه الحاكم المطلق في جارة العراق الشرقية، وظلت علاقات البلدين في موضع الشك حيناً، وفي مواضع سوء الظن والتوتر في معظم الأحيان، وتحوّل عرش الطاووس إلى جرافة هائلة تسحق ما يواجهها، أو تجرف ما تظنه عقبة في طريقها.

وحينما سيطر على شاه إيران السابق هوس الحصول على الأسلحة المتطورة من الغرب عموماً ومن الولايات المتحدة خصوصاً، فإنّه لم يتبادر إلى ذهنه أو ذهن الأمريكان أنّ تلك الأسلحة كافية للتصدّي لقوات الاتحاد السوفياتي، أو حتى لمجرد عرقلة تقدّم تلك القوات السوفياتية، إذا ما وقعت ظروف طارئة توجب مثل هذا التقدّم، فالاتحاد السوفياتي ولوحده خلال الحرب الباردة، كان يكافئ التحالف الغربي بكامله الذي يضم الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية في إطار حلف شمال الأطلسي، في حجم القوة العسكرية تحت السلاح وخاصة في الأسلحة التقليدية، فالأمر إذن كان ينطوي على دوافع أخرى غير مواجهة الجار الشمالي، فللشاه طموح جموح بأنْ يصبح شرطي الخليج العربي والضامن لإمدادات النفط عبر مضيق هرمز من أية أخطار تتهدده، ووكيل الولايات المتحدة في المنطقة وذراعها الضاربة عند الضرورة.

وكانت عين الشاه وتقارير أجهزة استخباراته، وخطط رئاسة الأركان، وكذلك خطط التحالفات الدولية التي كانت إيران الشاه

جزءاً منها، كانت كلها تركّز على العراق ولا تنظر إليه كعدو محتمل على المدى البعيد فقط، بل كفريسة سهلة يمكن التهامها بين الوجبات، قبل أنْ يقوى عودها وتصبح قادرة على الدفاع عن نفسها، وعلى الدوام كانت إيران تقضم من الأراضي العراقية وتضيفه إلى ممتلكاتها، سواء من خلال الاتفاقيات والمعاهدات التي وقعتها بلاد فارس مع الدولة العثمانية، وبعدها مع الدولة العراقية التي تأسست عام ١٩٢١، أو بفرض الأمر الواقع على الأرض كلما وجدت ذلك متاحاً.

وكرس شاهات إيران المتعاقبون كل ما استطاعوا انتزاعه من الأراضي العراقية، ثم سقط محمد رضا بهلوي بثورة الشعب الإيراني التي اندلعت خريف عام ١٩٧٨ وانتهت في ١١ شباط/ فبراير ١٩٧٩، وجاء إلى الحكم آية الله الخميني في ظاهرة حيرت المراقبين الذين لم يجدوا تفسيراً لاختطاف تضحيات الإيرانيين من جانب التيار الديني، فقد هبّ الشعب الإيراني بكل قواه السياسية وشرائحه الاجتماعية، وربما كانت تضحيات المعمّمين في تلك الثورة هي الأقل بين ما قدمه الإيرانيون، وعلى الرغم من ذلك اعتقد الكثيرون أنّ النظام الجديد سيُجري مراجعة جدية لمجمل سياسات البلاد، ولا سيما علاقات إيران مع البلاد العربية عموماً، ومع دول الجوار ومنها العراق خصوصاً، فالشعارات الثورية الجديدة والمغلفة بلافتات إسلامية عريضة، والمناهضة للغرب وإسرائيل والتي باتت تطرح في طهران بقوة، أغرت بعض المراقبين للاعتقاد بأنّ حقبة مليئة بالتفاؤل ستطل على منطقة عاشت ظروفاً طويلة من التأزم وعدم الاطمئنان، وأنّ إيران ستحسم خياراتها الجديدة، وفقاً لهذا الفهم المستند على لغة المصلحة المشتركة والمبادئ التي يفرضها الدين الإسلامي، ولعلّ أعلى تلك الشعارات

صوتاً ما قيل عن تبنّي الكفاح المسلّح طريقاً لتحرير فلسطين، والتصدّي بحزم للتحالف بين إسرائيل والولايات المتحدة، وقامت السلطات الجديدة بإغلاق السفارة الإسرائيلية في طهران، وتحويل المقر المذكور إلى سفارة لفلسطين، حتى تحوّل هذا الحدث إلى أزمة سياسية تطرحها إيران والقوى المرتبطة بها، حيثما اقتضت ضرورات الجدل السياسي الذي لا يكاد أنْ يتوقف في المنطقة باعتباره أقوى الأدلة على وقوف إيران الجديدة مع الحق العربي في فلسطين، وكأنّ ذلك الشاهد المسكت لأية اتهامات تساق ضد إيران، أو كأن هنالك مقايضة جائزة في العلاقات الدولية، تسمح لإيران بابتلاع العراق وسط قبول عربي لأن إيران أغلقت السفارة الإسرائيلية في طهران، وأقامت علاقات دبلوماسية مع منظمة التحرير الفلسطينية، بعد أن حوّلت ملكية السفارة الإسرائيلية إليها.

غير أنّ إيران ظلّت تنظر إلى العراق بعين ملأى بالكراهية، ولم تشفع للعراق مواقفه الجدّية والحازمة ضد الأعداء أنفسهم الذين تقول إيران الخميني إنّها تحاربهم، في رفع اسمه من لائحة الأعداء الأكثر كراهية لإيران في العالم، وأخذت غيوم التأزم تتجمع تدريجياً في سماء المنطقة، حتى بدا وكأن مشاعر النظام السابق في طهران قد استردت عافيتها تماماً، بل بقوة دفع أكبر وأشمل وأعمق، وأصبح من المثير والمستغرب أنْ يسمع العراقي حديثاً عن أنّ طريق القدس يمر ببغداد من دون سواها، وكان محسوماً لدى كل عراقي أنّ الهدف لم يكن مقصوداً به القدس بقدر ما كان القصد بغداد، ومن هذه النقطة بالذات بدأ الافتراق الجديد بين الجانبين، فآية الله الخميني وبهذا الفهم العدواني التوسعي أراد لجيشه أنْ يضم بغداد إلى ممتلكاته، وكانت إحدى عينيه على النجف، ليحسم معها ما ظنّه صراعاً ظل حبيس الصدور زمناً طويلاً

بين مدرستين داخل الفقه الجعفري، واحدة تريد أن تخرج برداء عربي حتى إذا ظلت تفكر بطريقة أعجمية وترى نفسها مرتبطة بحلم غريب وظلّ عقلها قاصراً عن فهم الواقع العربي، وأخرى لا تريد للغة العربية إلا أن تكون جسراً تعبر عليه نحو الضفاف الأخرى، وتكرّس إمبراطورية فارسية العقل والقلب واللسان باسم الدين وتخضع العرب لموروث مستورد من قم ويلثغ العربية بنهايات تلوي حروف الضاد بلكنة فارسية ظاهرة كمواقد نوزروز في عتمة الليل الدامس أو بمعبد النار في يزد، لتعوّض إخفاقات من تحوّلت أرض العرب إلى مقابر لجنود غزوهم المحبط، ولعلّ إخفاق الشاه بتصدير ثورة التحديث أينع الحلم بتصدير الثورة الإسلامية فما كان من العرب إلا أن قالوا لموجات الغزاة هذه بضاعتنا ردت إلينا، وكانت عين الخميني الأخرى ترنو بانكسار لثيم على إيوان كسرى في المدائن، حيث كانت عاصمة الدولة الفارسية الساسانية التي أسقطها العرب المسلمون في معركة القادسية، في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب (ﷺ)، ويبدو أنه أراد كما كان جميع قادة بلاد فارس، الثأر للفرس من تلك المعركة، ولذا قال الخميني: إن طريق القدس يمر من كربلاء، وعلى ما في هذا الشعار من طائفية مقيتة ونزعة عدوانية وقفز فوق حقائق التاريخ والجغرافية، إلا أنه يجسد حقيقة المشروع التوسعي الفارسي؛ إذ يبدو أن الخميني على كثرة ما يزعم أنه قرأ التاريخ، فإنه لم يقرأ الخارطة الجغرافية والسكانية للعراق كما يجب فالعراق بلد متعدد المكونات ولا يمكن أن ينجح حكم العراق باسم طائفة أو مكون من أبنائه، هذا في حال كان مؤمناً حقاً في ما يقول، لأن معظم رجال الدين الإيرانيين لا يعطون القدس تلك القيمة التي حددها حديث الرسول (ﷺ)، حينما قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد: المسجد الحرام ومسجدي

هذا والمسجد الأقصى»، فهم يعتبرون أي مزار من مزاراتهم أكبر في قدسيته من المسجد الأقصى، ولكنهم يريدون المتاجرة السياسية باسم المسجد الأقصى وخاصة في الأوساط العربية، لأنهم يعرفون مكانته عند العرب وسائر المسلمين، ويعرفون أن هناك إجماعاً عربياً على الوقوف مع كفاح الشعب الفلسطيني من أجل تحرير أرضه بما فيها المقدسات الإسلامية من الاحتلال الإسرائيلي، ولهذا وجدوا في هذه القضية استثماراً سياسياً عالي المردود.

بهذا الخزين المتراكم من أطماع بلاد فارس في بلاد ما بين النهرين، وبهذه الأفكار المستلة من بطون أوهام الماضي ودهاليزه المظلمة، فتحت إيران في عهدها الجمهور، صفحة جديدة من صراع، ظن كثيرون أنّه مضى مع حقائب الشاه التي حملها معه حينما غادر عاصمة ملكه لآخر مرة قبل أنْ يسقط نظامه.

فإذا كانت الحرب آخر صفحة من صفحات الصراع السياسي، وتأتي كمرحلة أخيرة بعد وصول المفاوضات إلى طرق مسدودة بين الأطراف المختلفة، وإذا كانت الحرب في حقيقتها صراع إرادات بل كسر إرادات، فإنّ الحرب بين العراق وإيران أصبحت ممكنة، بل أصبحت وكأنها لا مناص منها بعد أن فشلت كل المساعي الدبلوماسية التي قام بها العراق لتجنيب البلدين الوصول إلى حافتها، ولأنّ ممهداتها جاءت في وقت أصبح الخميني على رأس النظام الجديد في إيران، والرئيس الراحل صدام حسين رحمه الله على رأس النظام في العراق، ربما كانت تلك مصادفة محضة أملتها الظروف الصحية للرئيس أحمد حسن البكر رحمه الله والذي أعلن عن تنحيه عن منصبه في منتصف تموز/يوليو ١٩٧٩، ولكنها جاءت في وقتها تماماً وخاصة فيما يتصل بطريقة إدارة العلاقات بين العراق

وإيران من قبل الرئيس البكر، الذي كان يتحاشى على الدوام إيصال التوترات الكثيرة التي انتابت علاقاتهما غير المستقرة على الدوام، إلى حد التصادم بين البلدين، على الرغم من كثرة الاشتباكات التي شهدتها مناطق الحدود الساخنة على الدوام، ولم تسهم في تبريدها كل الاتفاقيات الموقعة بين بغداد وطهران، ويرتبط التباين في أسلوب إدارة الدولة بين البكر وصدام حسين، إلى حد بعيد بفارق العمر بين الرجلين، والبيئة التي نشآ فيها، مع أنهما ينتميان إلى عشيرة واحدة، ثم إنَّ التربية العسكرية للبكر ومعرفته بويلات الحروب وما تخلّفه من كوارث اقتصادية وعائلية على المجتمع، وما تتركه على الجيوش من انعدام لحالة الضبط العسكري، بالإضافة إلى معاناة الجنود في مواضعهم، كل ذلك كان يدفع بالبكر إلى استبعاد خيار الحرب حتى اللحظة الأخيرة، واعتماد مبدأ التلويح بخيار القوة من دون الاضطرار للانجرار إلى استخدامها، ولكن هذا الخيار ليس هو الخيار الصائب على الدوام وخاصة مع بلد مثل إيران.

ومن نظرة سريعة على البناء النفسي لشخصية كلا الزعيمين - أي صدام حسين وروح الله الخميني - يمكِن الاستنتاج بأنّ البلدين يقتربان من مواجهة مؤكدة، فآية الله الخميني، ظلت تحتبس في صدره مشاعر كراهية وبغض لصدام حسين لم يستطع أي من دارسي شخصية الخميني المعقدة - والمنطوية على أحقاد قديمة لا تنسجم مع الوظيفة الأساسية لرجال الدين وخاصة المسلمين منهم، وهي التسامح وإفشاء السلام - من فهم كنهها على الرغم من استضافته في العراق طويلاً، وكان بإمكان صدام حسين إخراجه من العراق حتى من دون إبداء الأسباب لو أراد ذلك، كان الخميني يتطلع لاقتناص الفرصة لتنفيس مشاعره القديمة والمترسبة في أعماق

نفسه، بأية وسيلة متاحة حتى لو دفع الشعب الإيراني ثمنها الباهظ، فلم يردّ الجميل للبلد الذي استضافه، لا بل قابل ذلك بتفجير حرب مدمرة بين البلدين أتت على الأخضر واليابس.

كما أنّ الخميني عاش عقدة الصلات المتأزّمة التي ميّزت علاقاته بالمرجعية الشيعية في النجف، والتي لم تكن لتكترث لكثير من آرائه الفقهية والسياسية، بل كانت ترى فيه رجل سياسة أكثر منه رجل دين، هذه العلاقة المأزومة التي استمرت أكثر من خمسة عشر عاماً قضاها في النجف مع إحساس مرير بالتهميش، حددت معالم شخصيته وأضافت عاملاً قوياً إلى أسباب نزوعه إلى التطرف السياسي والديني الذي كان يتصف به.

ثم إنّه ظل أسير وهم سياسي، اعتمد في تكوينه على القياس، الذي يرفض الفقه الجعفري اعتماده كواحد من مصادر التشريع، من منطلق يبدو ساذجاً لأن إبليس عندما أمره الله سبحانه بالسجود لآدم، أبى منطلِقاً من قياس أن أصله من نار وأصل آدم من طين، فقد ظن الخميني استناداً إلى قياس أنّ خروج المجاميع الحاشدة لاستقباله في طهران، لدى عودته من باريس، يمثّل النصف الإيراني من حقيقة يمتد نصفها الآخر على امتداد التواجد الشيعي في العالم، وخاصة في العراق، حيث تتواجد مدن الشيعة المقدسة في كربلاء والنجف والكاظمية، وهو ما كان الخميني يعتبره جيشاً جاهزاً لتنفيذ أوامره بمجرد صدورها، فالأمر لا يحتاج إلى جهد كبير لتحريكه بالأساليب التي أدّت إلى إسقاط الشاه، وأنّ دوره لا يتعدّى المنفاخ الذي سيولد إعصاراً سيقتلع صدام حسين ونظامه، وبالتالي فإنّ ذلك سوف يتيح له أنْ ينتقم لنفسه مما لحق به من ذلّ لطرده من العراق أواخر عام ١٩٧٨، وهو ما كان يظنّه بأوامر مباشرة من صدّام حسين شخصياً، ومن ثَمّ فتح الباب واسعاً لنشر

تجربة دولته الجديدة التي أسماها بالجمهورية الإسلامية، على مبدأ تصدير الثورة الإسلامية ابتداء بالعراق، وإنقاذ الشيعة فيه من الظلم والحيف اللذين لحقا بهم على مر التاريخ، على وفق التصوير الإيراني للحالة العراقية.

ثم إنّ آية الله الخميني، استل من بطون كتب التاريخ والفقه لدى الشيعة مما ليس فيها، وخرج بنظرية ولاية الفقيه المطلقة التي تجعل منه حاكماً مطلقاً واجب الطاعة كنائب عن الإمام الغائب، وهو الإمام الثاني عشر عن الشيعة الجعفرية الإثني عشرية، وتعيد هذه النظرية إلى الأذهان نظرية التفويض الإلهي التي سادت أوروبا المسيحية في القرون الوسطى، لأنها تمنحه سلطة غيبية مطلقة لا يحق لأحد أنْ يجادله فيها، وهو ما وظّفه لخدمة الفكرة الأساسية التي تقدمه ناطقاً باسم الشيعة في العالم بأسره، وظل يعتبر ذلك واجباً دينياً شرعياً، لا يتخلى عنه إلا من تخلى عن معتقداته الدينية.

يقول رشيد الخيون في مقال له في صحيفة **الاتحاد** الصادرة في الإمارات العربية في عددها في ٢٠١٢/٥/٩: «لتسريع الثَّورة الإسلامية بالعراق، وبالتالي التوحد تحت راية الإسلام السياسي، كانت قيادة الثورة الإيرانية تلهب الأجواء بين البلدين، ذلك ما حذر منه شريعتمداري (هو آية الله كاظم شريعتمداري الذي مات في منزله بعد أن فرضت عليه الإقامة الجبرية). قال الرِّفاعي (السيد طالب الرفاعي): «أخبرني شريعتمداري: سيدنا أغا رفاعي حكومتنا هذه ستجرنا إلى حرب مع جارتنا الإسلامية العزيزة العراق... وهذا شيء ليس من صالح الجمهورية الإسلامية». عَقَّبَ الرفاعي قائلاً: «لم يبرز ذلك في الإعلام على الإطلاق، بل حدثني به تماماً قبل الحرب»، أي في صيف ١٩٧٩، والحرب نشبت في سبتمبر ١٩٨٠».

وهكذا نستنتج أن من قاد إلى الحرب وبشهادة شخصية إيرانية ذات مكانة كبيرة من داخل المؤسسة الدينية هي سياسات الخميني المعادية للعراق، والتي لم تنل رضى أبرز الزعامات الدينية الإيرانية، وإذا كان السيد طالب الرفاعي قد ذكرها في أماليه للسيد رشيد الخيون، فما أكثر الآراء التي ظلت حبيسة الصدور خشية من بطش الخميني ودمويته.

أمّا صدام حسين فقد شق طريقه في الحياة السياسية العراقية المعقدة في وقت مبكر من عمره من دون أنْ يجسّر له أحدٌ أو يساعده على تعبيد طريقه الوعرة، مع الكثير من التضحيات، ولم يكن صعوده إلى القمة سهلاً، فقد أطلّ على الحياة وكان والده قد غادرها مبكراً، فعاش قسوة حياة اليتم وصعوباتها، وكان يرى أطفال القرية يذهبون إلى مقاعد الدراسة، من دون أنْ تتاح له فرصة مشاركتهم حياتهم والحصول على المعرفة، إلا بعد أنْ وصل التاسعة من عمره، ولكنه عاش كثيراً من صعوبات الحياة حينما عاش في كنف زوج أمه إبراهيم الحسن، فلم يطق التعايش معه لشعور عال عنده بالكرامة وعزة النفس، فاضطر إلى مغادرة بيت والدته والانتقال إلى بغداد لإكمال دراسته الثانوية، هناك تعرف على عالم جديد يزخر بالتيارات السياسية التي تواجه حكومات العهد الملكي وخاصة مع صعود تجربة مصر بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر في مواجهة العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، فوجد أن الفكر القومي هو الأقرب إليه من بين كل التيارات الأخرى كالماركسية أو الدينية أو القطرية الضيقة، فانضم إلى صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي عام ١٩٥٧، وحدث التحول الكبير في حياة العراق عندما حصل التغيير الذي نفذّه الجيش في ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ بقيادة تنظيم الضباط الأحرار وقيادة جبهة الاتحاد

الوطني التي تأسست في ١٩٥٧ وهي السنة نفسها التي انضم صدام حسين فيها إلى صفوف حزب البعث، وكان البعث من مؤسسيها، وضمت إلى جانبه الحزب الشيوعي وحزب الاستقلال والحزب الوطني الديمقراطي، ولكن الزعيم الركن عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء سرعان ما انحرف بمسار الثورة عن خطها الذي رسمته لها قيادة تنظيم الضباط الأحرار، وانفرد بالسلطة بنزعة دكتاتورية، وأصبح مصطلح الزعيم الأوحد وهو الوصف الذي أسبغه الحزب الشيوعي على رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم يتردد في كل مكان من دون أن يلامس المشاعر الحقيقية للشارع العراقي، وانفضت القوى القومية عن قيادة الحكم الجديدة واستقال وزراؤها من حكومة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم، وسيطر الشيوعيون على الشارع السياسي، وارتكبوا مجازر مروعة في الموصل وكركوك وبغداد، فتحول صدام حسين من ذلك الطالب الصامت إلى كتلة ثورية تناضل لإعادة العراق إلى حاضنته القومية.

خلال هذه المرحلة بالذات انضم صدام حسين إلى المجموعة التي حاولت اغتيال اللواء الركن عبد الكريم قاسم الذي نال رتبته الجديدة في ذكرى تأسيس الجيش العراقي في ٦ كانون الثاني/يناير ١٩٥٩، ثم نال آخر ترقية له إلى رتبة فريق ركن في اليوم نفسه من عام ١٩٦٣ وهو العام الذي أطيح به يوم ٨ شباط/فبراير ١٩٦٣، نعم انضم إلى هذه المجموعة بعد أن وقع الاختيار عليه من قبل قيادة الحزب لما لمست فيه من شجاعة وإقدام وصلابة، وفي يوم التنفيذ أصيب في أثناء تبادل إطلاق النار، نتيجة الارتباك الذي وقع فيه المنفذون، وفشلت محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم، ولم يتردد كثيراً؛ إذ حزم أمره وقرر مغادرة العراق بصورة غير رسمية حتى دخل الأراضي السورية أيام الجمهورية العربية المتحدة؛ حيث أقام

مدة في سوريا ولكنه لم يجد الظروف التي توقعها، خاصة وأن حزب البعث العربي الاشتراكي الذي ولد في سوريا، كان ممنوعاً من ممارسة أي نشاط له في مسقط رأسه، ولأن للبعث قاعدة شعبية عريضة فقد كانت الأجهزة الأمنية تراقب أنشطته وتعتبر إعادة التنظيم خروجاً على قرار الحل، على ذلك قرّر ترك سوريا والتوجه إلى الإقليم الجنوبي من الجمهورية العربية المتحدة أي مصر التي كان يقيم فيها آلاف من الطلبة العرب والسياسيين من مختلف الجنسيات، فغادر إلى القاهرة، حيث التحق بكلية الحقوق المصرية، وهناك انغمر في قراءات فكرية وسياسية، وفي الوقت نفسه خاض غمار تجربة العمل الحزبي وسط اللاجئين السياسيين والطلبة العراقيين في مصر، وتعرض أكثر من مرة للملاحقة، لكنّه قطع إقامته هناك وعاد إلى بغداد بعد وصول حزب البعث إلى السلطة في ٨/ ٢/ ١٩٦٣ ظناً منه أنه سيسهم بدوره في إرساء تجربة حكم البعث في العراق، ولكن تجربة حكم الحزب كانت قصيرة جداً وتركت في نفس صدام حسين مرارة كبيرة، وطرحت عليه أسئلة عما إذا كان الخلل في البعث أم في البعثيين واستنتج أن انعدام وحدة القيادة في الحزب كان العامل الرئيس الذي أدى إلى سقوط التجربة.

وخلال الحقبة الممتدة من ١٨/ ١١/ ١٩٦٣ ـ وهو يوم الانقلاب العسكري الذي قاده الرئيس عبد السلام محمد عارف وأسماه الحزب بالردة التشرينية ـ إلى يوم التغيير الذي قاده الحزب في تموز/ يوليو عام ١٩٦٨، تعرّض صدام حسين للملاحقة والاعتقال أكثر من مرة، وكان يتقدم في سلم القيادة في الحزب بخطوات واثقة، وكان من القيادات الرئيسة التي خططت لثورة ١٧ تموز/ يوليو ١٩٦٨ وربما يذهب البعض إلى اعتباره مهندسها الأول،

وذلك عندما كان صدام حسين يحتل موقع نائب أمين سر القيادة القطرية للحزب، ومن ثَمّ أصبح نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة، وهو الموقع الذي رسم له مساراً قيادياً حاضراً بقوة في كل القرارات والتطورات التي شهدها العراق طيلة خمسة وثلاثين عاماً.

هذا الماضي وهذه التجربة الثرية وصعوبة الحياة أيام الطفولة والصبا والشباب التي عاشها صدام حسين، جعلت منه رجلاً مقداماً عنيداً إلى حدود لا يمكن الإلمام بأبعادها إلا لمن واكب عن قرب تجربة صدام حسين، هذا كله كان جزءاً من نسيج بناء شخصيته على مستوى القيادة السياسية، وكان طبيعياً والحال هذه أنْ يتعامل مع الأحداث التي تواجه العراق بأعلى درجات الحزم، ومنها التحريض الذي مارسه الخميني ضد حزب البعث وقيادة صدام حسين، وعينه في واقع الحال تنصرف إلى العراق رغبة في امتلاكه.

وهناك جانب قومي في عوامل إثارة النزاع، فإيران بصرف النظر عمن يحكم فيها، كانت ترى في العراق بصرف النظر عمن يحكم فيه، حاجزاً قوياً وسداً عالياً يقف مانعاً من إطلاق يدها في المنطقة وبخاصة منطقة الخليج العربي، وانطلاقاً من إحساس عميق بالدور القومي للعراق، فإنّ صدام حسين لم يكن ليتصور أنّ يتعرض أي قطر عربي لخطر واقع أو محتمل ويتعامل معه من دون اكتراث أو استعداد لدرئه، ولمّا كان شعار تصدير الثورة قد طغى على ما سواه من كل الشعارات التي تم رفعها في القرن العشرين من قبل الحركات الوطنية والقومية والأممية الدينية منها والماركسية، فإنّ التعامل مع الأخطار المحتملة والمترتبة عليه استدعى جهوزية تامة، ليس على مستوى القوات المسلحة فقط وإنّما على المستوى الوطني كله.

ولعلّ في الرسالة الجوابية والعلنية التي بعث بها آية الله الخميني إلى محمد باقر الصدر، ما ينهي أي شك حول الأخطار التي ستخيم فوق المنطقة، وعلى الحدود بين العراق وجارته الشرقية، فبعد أن خرج الخميني من العراق إلى منفاه في باريس، بقي آية الله محمد باقر الصدر على صلة به من النجف في العراق، يتلقى منه التوجيهات والأوامر، على الرغم من شبه إجماع في أوساط النجف، أنّ الخميني لم يكن يحمل رصيداً مؤكّداً من العلم الذي يجعله في موقع مكافئ لشخص مثل الصدر، إلا أنّ انتقال الخميني فيما بعد إلى طهران وسقوط الشاه، حسم معركة الخميني مع رجال الدين في النجف وقم بالمرتبة الأولى وليس ضد الشاه، فالسلطة ستجهزه بأدواتها الأسطورية كي يزيح من طريقه كل من يعتقده تذكيراً بماضٍ علمي متواضع، أو أنْ يكون عقبة أمام مستقبله كجرافة لا تقبل أية تفسيرات إلا ما يخرج من جوفه.

بعد أنْ استتبت الأمور للخميني في إيران، أبرق محمد باقر الصدر رسالة من يقرؤها لا يساوره شك أنّها رسالة من تحت إلى أعلى، من تابع يتذلّل لسيده ويستجدي منه الرضى ويستأذنه الموافقة على التحاقه به، ولكنّ الخميني يخيّب ظنه ويرفض استقباله في إيران، وعلى نحو يثير تساؤلاً مشروعاً عمّا إذا كان الخميني لا يطيق من كان ذا فضل عليه، وهو الشيء الذي فعله مع آية الله كاظم شريعتمداري الذي كان له الدور البارز في منح الخميني لقب آية الله، ولكن شريعتمداري مات حبيس منزله الذي فرض عليه الخميني الإقامة الجبرية فيه بعد نجاح الثورة الإسلامية. ويمكن تلمّس اللهجة المستخفة بمكانة الصدر حينما يطلق عليه لقب حجة الإسلام، على الرغم من أنّ الصدر كان قد حصل على لقب آية الله في وسط يتنافس على الألقاب بقوة دَفْعٍ غير معهودة في الأوساط

الأخرى بما فيها الدراسات الجامعية. يقول عادل رؤوف في كتابه **العمل الإسلامي بين المرجعية والحزبية** بالحرف الواحد: «ففي الدول ذات النِّسَب المرتفعة من الشيعة، يكشف جحد الخميني الصدر درجة الاجتهاد العليا عن جفاء مرتبك معهود في المنافسة بين العلماء»، ويشير رؤوف أيضاً إلى أنّ الخوئي كان قد بعث برقية إلى الخميني بعد سقوط الشاه، خاطبه فيها بلقب «حجة الإسلام» وليس بلقب آية الله، وهذا ما يعزّز التفسير السياسي لحصول الخميني على لقب آية الله لإنقاذه من بطش الشاه.

ويقول الخميني في برقيته للصدر: «بسمه تعالى سماحة حجة الإسلام والمسلمين الحاج السيد محمد باقر الصدر دامت بركاته، وردتني رسالتكم الشريفة وقد قرأتها بإمعان وتدقيق، وإنّكم تخبرونا فيها أنّكم عازمون على مغادرة العراق أنت وعائلتك الكريمة، أنا أقول لك لا تغادر، فإنْ أنت غادرت العراق وغيرك من القيادات الشريفة يغادر العراق من سيبقى ليقود الثورة؟ لا... أسألك بالله أنْ تغير فكرك فإنّ الفرج آت، وإنّ طريق الحسين لم يعبّد بالزهور بل كان مخضباً بالدماء الزكية، من جدك عبد الله الرضيع إلى جدك الحسين، فهل لك أنْ تترك نهج جدك وتفتش عن سبيل في هذه الدنيا الفانية؟ لكان أولى بجدك الحسين أنْ ينعم بها وما عرضه عليه يزيد بن معاوية، وتترك الثورة الحسينية المنتظرة في العراق، لم تتركها يا سيدي العزيز؟».

وبكلمات قاطعة يقول الخميني للصدر: لا مكان لك في إيران فيقول: «لا مكان لك إلا في العراق فإنّ الثورة آتية لا محالة، وإنّ جندك الميامين هم بانتظار تحرككم وتوجيهاتكم لطريق النصر وإعلاء شأن الإسلام، لا تنس أنّك حفيد الحسين، فالحسين لم يهرب من أرض كربلاء، وإنّ إيران تحت تصرفكم وهي مددكم

للثورة». هكذا خاطب الخميني الصدر وبلغة آمرة، ويبدو أنّه وفي غمرة نشوة نصره على نظام حكم الشاه، نسي تماماً أنّه هرب من إيران خوفاً من بطش الشاه، ولم يفكر حينها بتضحيات الحسين ولا بتضحيات جده عبد الله الرضيع، ولم يفكّر بالبقاء لقيادة الثورة ضد نظام الشاه، فكيف يأمر الناس بشيء ويأتي بخلافه؟

فهل تحتاج هذه الرسالة إلى تفكيك رموزها والتدليل على أنّ إيران بدأت فور سقوط نظام الشاه بتدبير المؤامرات ووضع الخطط ضدّ العراق تمهيداً لتصدير الثورة إليه ووضع الخميني قدرات الدولة الإيرانية تحت تصرف أدواتها للتدخل في العراق؟ وهل هناك شك بعد تفحص هذه الرسالة أنّ العراق كان يدافع عن نفسه ويريد تحصين بيته أمام إعصار عاتٍ يريد اقتلاعه من جذوره القومية؟ العراق لم يفكّر بالحرب ولم يخطط لها ولكنها جاءت كعاصفة هوجاء سوداء، كادت أنْ تأخذه على حين غفلة من الزمن وتطويه بين أخاديدها، لولا التحرك السريع الذي باشرته قيادة الرئيس صدام حسين وحزب البعث العربي الاشتراكي، لتدارك الخطر الداهم الذي يوشك أنْ يهوي فوق رأس العراق، ويهدم البناء العلمي والاقتصادي والاجتماعي الذي بنته سواعد العراقيين منذ وصول البعث إلى السلطة في عام ١٩٦٨، ومنه ينطلق بقوة دفع إلى الضفة الأخرى من الخليج العربي، ثم ينطلق بقوة لا يلوي على شيء لينشر أجنحته فوق الوطن العربي والعالم الإسلامي.

ثم إنّ إيران الخميني بادرت فور شعورها بإحكام السيطرة على مفاصل الدولة الإيرانية بعملية استعراض للقوة، من دون تقدير لتبعات ما تفعل، تاركة وراء ظهرها ما تفرضها عليها قواعد القانون الدولي، وميثاق الأمم المتحدة، والاتفاقيات الثنائية الموقعة بين البلدين، وكذلك الاتفاقيات الإقليمية، حتى بات سلوكها مثار

الكثير من علامات الاستفهام، وعما إذا أصبحت إيران رقماً خارج كل المعادلات السياسية وفوقها، فالحكومة الإيرانية بدأت بإثارة الكثير من عوامل عدم الاستقرار، في منطقة لا تحتمل أي قدر من أسباب الاضطراب، ومن ذلك ما طرحته من مواقف متناقضة لعدد من المسؤولين الإيرانيين في النظام الجديد، ونبش لذكريات كاد الزمن أنْ يمحو بعض صفحاتها أو سطورها، وإعادة فتح لملفات اعتقد كثيرون من المراقبين أنّها قد ختمت إلى الأبد، وهكذا وبعد أقل من خمس سنين من أول هدوء تعيشه العلاقات العراقية الإيرانية بعد توقيع اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥، عادت أسباب التأزم وبدرجة أكبر من ذي قبل لتطلّ برأسها من جديد، لتكون أكبر عامل لتهديد الاستقرار بين البلدين والمنطقة.

إنّ عدم التزام إيران بتنفيذ التزاماتها بموجب اتفاقية الجزائر لعام ١٩٧٥، والتصريحات التي أدلى بها المسؤولون الجدد الذين يفتقرون إلى الخبرة الكافية في إدارة علاقات بلادهم الخارجية، والخروقات الإيرانية لأمن العراق من الداخل وعبر حدوده أو بواسطة عملاء مجنّدين لتنفيذ العمليات الإرهابية في الداخل، كل ذلك كان كافياً لإيصال الوضع إلى أقصى درجات التأزم، ولعلّ الحدث الأكثر مغزى هو الذي تمّ فيه إسقاط طائرة حربية إيرانية من طراز أف فايف (F5)، بتاريخ ٤ أيلول/سبتمبر ١٩٨٠، أي قبل نشوب العمليات العسكرية الكبرى بعدة أسابيع، واحتفظ العراق بقائد الطائرة «حسين علي رضا لشكري» أسيراً لأنّه يعد أهم وثيقة على بدء إيران للحرب حتى تم إطلاق سراحه عام ١٩٩٨، إضافة إلى القصف الذي تعرضت له المدن الحدودية العراقية من جانب المدفعية الإيرانية ممّا أدى إلى موجة هجرة جماعية إلى المدن الآمنة والتي تمّ توثيقها بمذكرات رسمية مرفوعة إلى الأمم

المتحدة، ولم يكن أمام القيادة العراقية خيارات كثيرة لحماية مواطنيها في المناطق الحدودية، بل في الداخل أيضاً، سوى الاستجابة لما سعت إليه إيران بإصرار، وهكذا شهدت المناطق الحدودية معارك قوية، أخذت بالتطور حتى أصبح العراق في موقف كان عليه أنْ يتخذ قرارات صعبة، فكانت الضربة الجوية العراقية لعدة قواعد إيرانية، استطاعت إيران استيعابها بسبب عمقها الاستراتيجي، ففي ١٩٨٠/٩/٢٢ صدر عن مجلس قيادة الثورة بيان تحدث فيه عن محاولات إيران عرقلة حركة الملاحة البحرية وذلك بقصف البواخر التجارية العراقية والأجنبية، الداخلة إلى شط العرب والخارجة منه، وأعلنت إيران النفير العام وأغلقت أجواءها، مما أعطى مؤشراً للعراق على أنّ إيران حسمت خياراتها وقررت المضي في خيار المواجهة والتصعيد إلى حدوده العليا، وأعلن مجلس قيادة الثورة أنّ هذه التطورات جعلت من غير الممكن التعامل معها من دون قرار حازم؛ إذ صدرت الأوامر للقوات المسلحة لتوجيه ضربات رادعة لأهداف إيرانية منتخبة، حماية للعراق وسيادته من الخطر القادم من حدوده الشرقية.

وأصدرت القيادة العامة للقوات المسلحة البيان الرقم (١) عن الضربات الجوية في اليوم الأول للعمليات الكبرى في حرب الثماني سنوات، بعد أن ظلت عجلتها تدور على نطاق محدود في قاطع عمليات الوسط من الرابع من أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠.

وردّت إيران على الضربة الجوية العراقية في اليوم التالي بغارات جوية مكثفة وبأعداد كبيرة من طائراتها الأمريكية التي ورثتها من زمن الشاه وهي من عائلة (F) مثل: ٤ و٥ و١٤، والأخيرة مخصصة للأغراض البحرية ولكن إيران استخدمتها لضرب مدينة بغداد، وشملت أهدافاً غير عسكرية في بغداد والكثير من

المدن العراقية، وكأنها تريد القول بأنّ الهدف منها هو نزع معنويات المواطن العراقي، وفرض الهزيمة النفسية عليه بين أضلاعه وداخل بيته، ولكنها بالمقابل خسرت الكثير من طائراتها المقاتلة وخاصة من طراز فانتوم (F4)، وطياريها فوق المدن العراقية وخاصة بغداد، حيث كانت مستعدة للرد على تلك الهجمات التي كانت متوقعة.

الفصل الثاني

الحرب في مرحلتها الثانية

في ١٩٨٠/٩/٢٣، أي اليوم التالي للضربة الجوية التي نفذها سلاح الجو العراقي في عمق الأراضي الإيرانية ضد أهداف إيرانية منتخبة، اندفعت القوات العراقية داخل الأراضي الإيرانية لتحقيق أهداف عسكرية، حددتها القيادة العليا، كجزء من الضغط العسكري على إيران، لإجبارها على قبول الجنوح إلى السلم، وما يمكن أن يصدر عن مجلس الأمن الدولي من قرارات.

وفي اليوم نفسه، كانت الطائرات الحربية الإيرانية، ولا سيما طائرة الفانتوم الأمريكية الصنع، تشن غارات عنيفة، وخاصة على مدينة بغداد، مما أحدث ارتباكاً واضحاً في أوساط المواطنين عموماً والحزبيين بشكل خاص، لأنّهم كانوا قد تزودوا بمعلومات بأنّ الضربة الجوية العراقية الأولى أجهزت على جزء كبير من طائرات سلاح الجو الإيراني في القواعد الجوية، وأنّ تلك القواعد التي شملتها الضربة ألحقت بها دماراً واسع النطاق، لن يكون بوسعها العودة إلى العمل إلا بعد وقت ليس بالقصير. ونتيجة لهذه العوامل مجتمعة، فقد كان الأثر النفسي للغارات الإيرانية فاعلاً إلى حد أبعد بكثير من التأثير المادي لها، ولا شك في أن اتساع الرقعة الجغرافية لإيران وتوزيع قواعدها الجوية على بلد يصل طول

أرضه من بحر قزوين في الشمال إلى البحر العربي في الجنوب أكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر، سيعطي حماية ذاتية لطائراتها ومرونة عالية في خططها الحربية بعيداً عن جبهات القتال.

وعلى الرغم من أنّني لا أؤرخ للحرب العراقية الإيرانية ـ لأنّ ذلك من واجب قادة عسكريين استراتيجيين وعلى أعلى المستويات في العلوم العسكرية، ومن قبل أطراف محايدة ذات اختصاص في هذا المجال بعد أن توضع تحت تصرفها وثائق الحرب من طرفيها، ـ إلا أنّ هذا المؤلف سيضم صفحات فيها بعض المحطات المهمة من وجهة نظري والتي سأتوقف عندها، لأنّها أثّرت في مسار الحرب من جهة، وكان لها تأثير في طريقة تعامل الإيرانيين مع الأسرى من جهة أخرى.

لقد بدأت الحرب كحدث خطير استقطب اهتمام الصحافة العالمية من دون استثناء، سواء المطبوعة منها أو المرئية أو المسموعة، وكان محور تغطياتها بالخبر والتحليل وعلى صدر صفحاتها الأولى، ثم بدأ يتراجع تدريجياً، حتى بات لا يكاد يحظى إلا بسطور قليلة وفي الصفحات الداخلية لصحف من الدرجة الثانية في دول العالم الثالث، فالحرب دخلت مرحلة الحرب المنسية على مستوى المواقف الرسمية لمختلف دول العالم، وانعكس ذلك على الإعلام.

كان من البدهي، والحرب قد اندلعت في رقعة مثل منطقة الخليج العربي، الغنية بثروة العصر، والملأى بالحساسيات والتناقضات السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية حدّ التخمة والاختناق، أنْ تستقطب اهتماماً دولياً كبيراً على كل الصعد، خاصة وأنّ الحدود الفاصلة بين العراق وإيران بكاملها، بل الداخل

في كلا البلدين، أضحى ساحة لقتال ضارٍ خرج في أحيان كثيرة عن سياق ما كان معهوداً في الحروب التي شهدها العالم من قبل، وذلك بالإصرار على خيار الحرب وبخاصة من جانب آية الله الخميني، وإغلاق النوافذ أمام كل فرصة يمكن أنْ تؤدي إلى حل ينهي خلافات لم تنجح كل الاتفاقيات الموقعة بين البلدين في حسمها ومنع نشوب الحرب.

لكنّ القوى الكبرى الممسكة بأطراف خيوط اللعبة الدولية ألقت بكل ثقلها في هذه الحرب، فهي من جهة لم ترغب برؤية إيران مهزومة من قبل بلد مثل العراق، ويقوده رجل مثل صدام حسين، على الرغم من أنّ النظام الجديد الذي أقامه آية الله الخميني في إيران لم يكن مرغوباً فيه، لا على الصعيد الإقليمي لمنطقة خزان العالم النفطي ـ لأنه ومن قبل أن يثبّت أقدامه في السلطة بادرها بموقف عدائي في غاية الخطورة، من خلال شعار تصدير الثورة، الذي يعني فيما يعني إسقاط النظم القائمة وإقامة البديل المرتكز على بدعة ولاية الفقيه التي ابتكرها الخميني ـ ولا على الصعيد الدولي حيث فقدت القوى الكبرى نفوذاً كان محسوماً لها في إيران الشاه وباتت مصالحها مهددة من قبل نظام آية الله الخميني. لقد كانت إيران في عهد الشاه أقوى حليف للولايات المتحدة في المنطقة بعد إسرائيل، ومناصراً قوياً للسياسات النفطية الأمريكية فيما يتصل بالإنتاج والتسويق والتسعير، فالغرب كله أصبح بعد التغيير الدراماتيكي في إيران، بما في ذلك الدول التي لم تكن جزءاً من التحالف مع أمريكا، أطرافاً مشكوكاً بصدق نواياها تجاه خيارات النظام الجديد في طهران، ولذلك عوملت معاملة الموقف الأمريكي على حد سواء، من قبل الآلاف من الإيرانيين الذين كانوا لا يكلّون عن التظاهر في عموم المدن

الإيرانية، وكانوا يفرغون بعضاً من شحنات الكراهية بالسير بأحذيتهم فوق العلم الأمريكي، وكذلك الأمر بالنسبة إلى العلم البريطاني، اللذين تم رسمهما على أرضية معظم الطرق في المدن الإيرانية، ومن أغرب مفارقات هذا المشهد أن الاتحاد السوفياتي الذي كان الرابح الأكبر من غياب نظام الشاه، اكتشف بعد فترة وجيزة أن علمه مرسوم على الأرض إلى جنب أعلام إسرائيل والولايات المتحدة وبريطانيا، وأن هتاف «مرك بر» أي الموت، وهو شعار المتظاهرين الإيرانيين المحبب، كان ينصب بالتساوي على الاتحاد السوفياتي وأمريكا وبريطانيا وإسرائيل.

كما أنّ القوى الدولية من جهة أخرى لم تشأ رؤية إيران وقد عادت من جديد لتمارس دور شرطي دولي لمنطقة الخليج العربي، يفرض شروطه على دول المنطقة التي لم تكن قد بدأت بتطوير بنيتها الدفاعية، لأن العالم كان يتعامل مع ملف التسليح العربي استناداً إلى عدم الإخلال بنظرية الأمن الإسرائيلي، كانت هذه معادلة حرجة للغاية، لم يستطع العالم الخروج منها حتى اليوم، إذ يبدو أنَّ إيران التي استطاعت النجاة من مقص سايكس بيكو، بل والاستفادة من نتائجها حينما أصبحت القوة الأكبر أمام كيانات صغيرة تبذل أقصى جهدها للحفاظ على كياناتها الوطنية.

أما الاتحاد السوفياتي، فقد وجد نفسه فجأة أمام خيار صعب من مجموعة خيارات، كان عليه أنْ يحزم أمره إزاءها، فهو من جهة وجد في إسقاط الشاه - (وعلى الرغم من تحسن العلاقات بين موسكو وطهران في حقبة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، بما في ذلك إقامة مجمع أصفهان للحديد والصلب، وتزويد إيران بصفقة أسلحة سوفياتية متطورة بما فيها الدبابات) - فرصة نادرة للتخلص من تواجد أمريكي مباشر على حدوده الجنوبية أو على

الأقل جرّ إيران الشاه إلى سياسة متوازنة بين المعسكرين، ولذلك سعى الاتحاد السوفياتي وعبر كل القنوات السياسية السرية والعلنية بما فيها تنظيمات حزب تودة (الحزب الشيوعي الإيراني)، والإعلامية إلى إشعار إيران الجديدة بأنّها تستطيع أنْ تتكئ على الوسادة السوفياتية إنْ ارتأت ذلك ووجدت فيه ما يتناغم ومصالحها، ولكنّ السوفيات من جهة أخرى كانوا ينظرون بقلق عميق إلى احتمالات إيقاظ المشاعر الدينية للمسلمين في جمهورياتهم المترامية الأطراف، وخاصة في منطقة القوقاز والتي حافظت على هويتها الإسلامية على الرغم من كل محاولات التذويب التي تعرضت لها، فطهران كانت ترفع شعارات إسلامية في غلافها الخارجي، ولكنّها كانت تخفي وراءها طموحات مغايرة، ويبدو أن الاتحاد السوفياتي حذف هذا الاحتمال بعد أن وجد أن حركة التشيع التي تقود التجربة في إيران لن تجد لها رصيداً كبيراً في القوقاز السنيّة.

غير أنّ الواقع يشير إلى نوايا أخرى خفية تماماً، فالاتحاد السوفياتي يقاتل في معركته الخاصة في مواجهة التحالف الغربي، وهو مثقل بحلفاء وأتباع كانوا عالة عليه، وأرهقوا ميزانيته وأوصلوها إلى حافة الإفلاس، أي إنّ موسكو تطلعت إلى إيران على أنّها زبون قادر على دفع الفواتير التي تترتب عليه في مجالات التعامل الثنائي كافة، وخاصة في تسديد أثمان الصفقات العسكرية. هذا بالمقابل دفع الإيرانيين إلى النظر بريبة إلى نوايا التقارب السوفياتي، خاصة مع وجود حزب شيوعي عريق في تقاليده في النشاط السري هو حزب تودة، ولذا أحست الزعامة الإيرانية أنّ السوفيات يسعون لاستغفالهم واستغلال الشعارات المعادية للغرب التي رفعتها الزعامة الإيرانية الجديدة، ومع ذلك لم تتوقف

المحاولات السوفياتية أبداً عن إغراء إيران هذا البلد الثري في موارده وفي موقعه، والمجاور لهم وكسبه حليفاً أو صديقاً أو على الأقل دولة غير معادية، على الرغم من قيام السلطات الإيرانية بتنفيذ أحكام قاسية على زعامات حزب تودة بمن فيهم نور الدين كيانوري سكرتير عام الحزب، متجاهلة تدخلات سوفياتية لوقف عمليات التشهير والتي وصلت حدّ عرض كيانوري على شاشات الاعتراف التلفزيونية، مع أنّ السوفيات لم يغفلوا الآثار السلبية التي يمكن أنْ تنجم عن تحالف بين أيديولوجيتين متناقضتين بل ومتصادمتين أيديولوجية ترى في الدين أفيوناً للشعوب، وأخرى دينية ترى في الشيوعية كفراً وإلحاداً، وذلك لاحتمال انتقال عدوى المشاعر الدينية إلى سكان الجمهوريات الإسلامية السوفياتية المحاذية لإيران، ومع ذلك فقد حصل زواج المتعة المؤقت بين النظريتين المتصادمتين.

وحينما اندلعت الحرب بين العراق وإيران برز المأزق السوفياتي بأجلى صوره، فموسكو لم تكن راغبة فيها، فهي مرتبطة مع بغداد بمعاهدة صداقة وتعاون منذ ٩ نيسان/أبريل ١٩٧٢، والعراق استناداً إلى بنودها كان يطالب ويلح على التطبيق الفعلي والكامل لتلك البنود، وخاصة التزام السوفيات بتوريدات السلاح، الذي ازدادت الحاجة إليه بعد انتهاء عمر الكثير مما لديه منه وتحوله إلى كتلة من حديد الخردة، ونفاد المخزون الاحتياطي، فالاستخدام الواسع للسلاح أنهى قابليته على العمل الفعال أو قلص من كفاءته إلى حدودها الدنيا، وأتى على المخزون الهائل من العتاد الحربي، كما أنّ العراق كان حريصاً على الحصول على أجيال أحدث من الطائرات والدبابات والمدفعية، لمواجهة الاختلال في موازين القوى مع إيران، خاصة وأنّ الأخيرة تتفوق

في ثقلها السكاني وعمقها الاستراتيجي، وهذا ما حاول العراق معالجة آثاره في أمنه القومي، كونه جاراً لدولتين غير عربيتين، تحمل كل واحدة منهما موروثاً من المشاعر والخطط غير الودية للعراق.

هذا كله كان عبئاً سياسياً على الاتحاد السوفياتي، لأنّه مضطر إلى اعتماد ثنائية لا يمكن التستر عليها في علاقاته مع البلدين، فمطلوب منه أنْ يلوّح بيد الصداقة لإيران، بحثاً عن مستقبل واعد لالتهام التفاحة الإيرانية الناضجة والآيلة للسقوط على حد وصف نيكيتا خروشوف سكرتير عام الحزب الشيوعي ورئيس الوزراء السوفياتي السابق المعزول من منصبه منتصف الستينيات من القرن الماضي، والمطلوب من الاتحاد السوفياتي أيضاً وفقَ ما تقتضيه مصالحه أن يدعم عدوّ إيران وهو العراق المتحالف معه في المعركة الراهنة التزاماً بتعهدات واتفاقيات سابقة، فخذلان العراق سيفقد الاتحاد السوفياتي مصداقيته الدولية ويبعث برسالة إلى الدول التي تحتفظ بعلاقات صداقة معه، إلا أنه لا يفي بالتزاماته التعاهدية، وطالما خذلها في بداية الطريق، وللاتحاد السوفياتي في هذا الخصوص دروس كثيرة، وخاصة مع العرب، فقد خذل مصر في حرب الأيام الستة في عام ١٩٦٧ وما أعقبها حتى اضطر الرئيس المصري أنور السادات إلى طرد الخبراء السوفيات من مصر قبل حرب تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٧٣.

وإذا اتجهنا جنوباً فإنّ دول الخليج العربي التي سارعت لتأسيس مجلس التعاون الخليجي بعد نشوب الحرب بمدة وجيزة، في رسالة واضحة للعراق كي لا يذهب بعيداً في توقعاته بدعم منها له في حربه، هذه الدول على الرغم من كل ما كان يطفو على السطح، إلا أنها في واقع الحال لم تكن تعي جيداً عمق التهديد

الذي يمكن أن تتعرض له في حال هزيمة العراق أمام إيران، فقد كانت تحتفظ بعلاقات متينة مع إيران الشاه، تتجاوز في صميمها ما كان سائداً من قنوات اتصال لها مع العراق، انطلاقاً من نظرة ما تزال سائدة في تعامل هذه الدول مع رعايا الدول العربية بضوابط صارمة تفوق في قسوتها معاملة العمال القادمين من إيران ومن بقية دول آسيا، ولذا فإنّها رأت في التغيير الذي قاده آية الله الخميني ناقوس خطر يمكن أنْ يحدق بها لعاملين: **الأول** أنّ شعار تصدير الثورة لم يكن مجرد شعار ثوري للاستهلاك الجماهيري، وإنّما للتطبيق العملي وربما في منطقة الخليج العربي بالمرتبة الأولى بعد العراق، فإيران كانت على الدوام تتطلع نحو الغرب والجنوب وتتجنب النظر شمالاً أو شرقاً، **والثاني** أنّ بعض دول المنطقة وإماراتها تضم جاليات إيرانية كبيرة تم استقدامها في زمن المراهنة على الصداقة المشتركة مع الولايات المتحدة التي تجمع تلك الأطراف، والتي حصلت على جنسيات الدول التي تقيم فيها. هذا فضلاً عن وجود كتلة شيعية كانت تضع إيران في مرتبة المركز الذي تتجه إليه بوصلتها بصرف النظر عمن يحكم فيها، هذه الحسابات كانت موضوعة على الطاولة أمام القادة الخليجيين وإن بدرجات متفاوتة، إلا أن تحويل المخاوف إلى إجراءات وتدابير لردع إيران لم تكن ممكنة بسبب وهن البنية الدفاعية لدول الخليج العربي الست.

غير أنّ حسابات جديدة فرضت نفسها على خط المخاوف الخليجية، وهي انعكاس الموقف الدولي، وخاصة تأثير الولايات المتحدة، التي كانت ما تزال تحت تأثير الإهانة التي لحقت بها نتيجة احتجاز دبلوماسييها في ما تم الاصطلاح على تسميته «وكر الجاسوسية» ـ أي سفارة الولايات المتحدة في طهران ـ على مواقف الدول الخليجية، مما أدى مع اعتبارات أخرى لا صلة

لكثير من مفرداتها بمعاهدة الدفاع العربي المشترك، أو بالوشائج القومية على أية حال، إلى تقديم دعم خليجي خفي في معظم الأحيان ومعلن وقت الضرورة للعراق بهدف توجيه رسائل سياسية، مع حرص على حياد معلن بين طرفي الحرب.

وهكذا التقت مواقف الدول التي تنتمي إلى تكتلات متباينة فيما بينها، لأنّها وجدت نفسها مضطرة إلى الوقوف إلى جانب العراق ضمن حسابات غاية في الدقة والصعوبة في آن معاً، فالمطلوب أنْ يبقى العراق قوياً بحيث يستطيع صدّ إيران عن تطوير طموحاتها الحربية إلى أهداف بعيدة وحصرها في نطاقها العراقي، ومنعها من تحقيق أي نصر يمكن أنْ يحدث خللاً في موازين القوى، في منطقة سرعان ما تنتقل عدوى الزكام فيها إلى الأسرة الدولية كلها.

وفي الوقت نفسه ضبط معادلة إبقاء العراق ضعيفاً إلى الحدّ الذي لا يستطيع فيه أنْ يشكّل خطراً محتملاً على أية دولة في المنطقة كلها، خاصة وأنّ الخليج العربي هو منطقة المصالح الاستراتيجية للعالم عموماً، وللغرب والولايات المتحدة بشكل خاص، فهو خزان النفط الاستراتيجي الذي يمكن التحكم بكميات الإنتاج فيه عن بعد وضمان السيطرة على أسعاره.

في الثامن والعشرين من أيلول/سبتمبر ١٩٨٠ أصدر مجلس الأمن الدولي قراراً برقم ٤٧٩ جاء فيه: «يدعو مجلس الأمن الدولي العراق وإيران إلى التوقف فوراً عن استخدام القوة، وحل النزاع بينهما بالطرق السلمية، وبما ينسجم مع مبادئ العدالة والقانون الدولي، ويحثّ المجلس البلدين لقبول أي عرض للتوسط أو المصالحة من جانب الوكالات الإقليمية أو أي ترتيبات بالوسائل السلمية الأخرى وحسب اختيارهما».

وقد قبل العراق هذا القرار من دون تأخر، وأعلن بشكل منفرد إيقاف القتال ابتداء من ٥/ ١٠/ ١٩٨٠ ولغاية ٨/ ١٠/ ١٩٨٠ كفترة اختبار واستجابة لطلب الرئيس الباكستاني الجنرال ضياء الحق الذي باشر مساعيه لوقف الحرب، بصفته رئيساً لمنظمة المؤتمر الإسلامي، لكنّ إيران رفضت القرار، ورفضت مساعي الرئيس الباكستاني، وواصلت القتال وأخذت ترفع من سقف شروطها وقدّمت حزمة من هذه الشروط، من بينها إزالة نظام حكم الرئيس صدام حسين وتدمير حزب البعث، وتأسيس جمهورية إسلامية في العراق ودفع التعويضات ويلاحظ عدم الانسجام بين تلك الشروط، إذ كيف تستقيم المطالبة بإقامة جمهورية إسلامية مع دفع التعويضات؟ بل كيف تستطيع إيران المطالبة بالتعويضات وهي التي رفضت قرار مجلس الأمن الداعي إلى وقف إطلاق النار؟ ومن مشاهد الإصرار الإيراني على مواصلة الحرب حتى احتلال العراق، الفيض الهائل من أغنيات الحرب التي كانت تذاع ليل نهار في محطات الإذاعة والتلفزيون الإيرانية، وربما تعكس واحدة من هذه الأغاني حقيقة النوايا الإيرانية تجاه العراق، تقول الأغنية:

ببيش بسوئي جبهة ها   براي فتح كربلا

أي تقدموا نحو جبهات القتال من أجل فتح كربلاء، كناية عن احتلال العراق، وهذا ما يتطابق من حيث المضمون مع شعار: طريق القدس يمر في بغداد.

أما عن دور المهدي في نصرة الإيرانيين في الحرب، فقد شاعت أغنية أرادت ممارسة عملية غسل دماغ للشارع الإيراني بأنه ليس وحده في المعركة، وإنما يقف الإمام الغائب إلى جانبه، وبالتالي عليه أن يثق بأن النصر محسوم لصالح إيران، وعلى الرغم

من أن مثل هذه الأفكار تعطي دفعة معنوية مبكرة، إلا أنها بالنتيجة النهائية ستكون وبالاً على مطلقيها، لأنهم مطالبون بتأكيد مصداقية الأفكار التي يروجونها، تقول الأغنية:

إلشكري صاحب زمان أومادا باش بحر نبرد بي أمان أومادا باش،

ومعناها: يا فرقة صاحب الزمان - أي المهدي المنتظر - استعدي، لأن جبهة القتال غير آمنة، وهكذا حشدت إيران إلى جانب أحدث الأسلحة في الحرب، كل مخزونها من الأساطير والخرافات البالية.

حينذاك كان على العراق أنْ يطرح شروطاً مضادّة، وهذا ما حصل، فقد حدّد العراق شروطه التي ورد فيها استعداده للانسحاب الكامل وغير المشروط إلى الحدود المعترف بها دولياً، والتبادل الشامل والكامل للأسرى، وتوقيع اتفاقية سلام وعدم اعتداء بين البلدين، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية واحترام كل بلد لاختيارات البلد الآخر، وهذا ما سيجعل من البلدين عاملاً إيجابياً بما يؤمّن تحقيق الاستقرار والأمن للمنطقة، والخليج العربي بوجه خاص.

وبرفض إيران لقرار مجلس الأمن المرقم ٤٧٩، كانت الحرب قد دخلت مرحلة جديدة وفتحت جبهات القتال فمها على سعته لتبتلع الحشود المتواصلة، ولتلقي بها على رصيف الزمن، وبات من الصعوبة بمكان بل من العسير التكهن بالزمن الذي ستستغرقه والمدى الذي ستصل إليه.

ووضع كهذا، يمور بالصراعات ويمرّ بتناقضات خفية وظاهرة وصراعات حادة تحت غطاء هش من علاقات ظاهرية، لا تشي

بحقيقة ما يجري، كان من الطبيعي أنْ يراقب المرء مسرح الأحداث بدقة لمعرفة الكبير من تفاعلاته والصغير منها كي لا تحدث مفاجأة غير محسوبة.

في هذا الوقت استقبلت بغداد المئات من الصحافيين من شتى أرجاء العالم لتغطية ميدانية مباشرة لأحد أكثر الفصول الساخنة لهذا الصراع، وكما كان تصوّر القيادة بأنّ الحرب لن تكون طويلة وأنّ إيران ستستجيب لقرارات مجلس الأمن، فقد ساد التصور نفسه في أروقة وزارة الإعلام العراقية، ومن أجل تنظيم حركة الصحافيين الوافدين إلى العراق، وهم بأعداد تفوق القدرة على استيعابه وتوفير مستلزماته، خاصة وأنّ إيران التي كانت تعاني انكسارات على خطوط التماس في جبهة الحرب، لم تكن لتسمح بتوافد الصحافيين إليها لتغطية مسار العمليات الحربية، وهذا ما دفع بهم إلى البديل العراقي، لهذا كله كان لا بدّ من وضع خطة طوارئ للتعامل مع حشود الصحافيين، لهم القدرة على قراءة السطور غير المكتوبة، واستكشاف الحقائق من أخواتها أو بنات عمها، فتم تشكيل لجنة عليا للإشراف على حركة الصحافيين الذين ضاقت بهم فنادق بغداد، وتنظيم جولات لهم إلى جبهات القتال، وضمت اللجنة التي رأستها بنفسي، ممثلين عن المخابرات العامة، والأمن العام، والاستخبارات العسكرية، والتوجيه السياسي، ودائرة السياحة، ودوائر أخرى.

كان التصوّر السائد في وزارة الإعلام بشأن زمن الحرب استنساخاً لتصور أعلى في هرم القيادة، أي أنها لن تستمر طويلاً، ولذلك فقد جاء قرارها بالاستضافة الكاملة لمئات الصحافيين منسجماً مع اعتقاد بأنّ الحرب لن تستمر أكثر من شهر على أسوأ التقديرات، ونتيجة ذلك فإنّ الإسراف في كل شيء كان سيد

الموقف، ورأيت أنّ أمراً كهذا لا معنى له ولا يمكن تبريره، وينبغي له أنْ لا يستمر، لأنّ فيه هدراً لأموال بلد في حالة حرب، لا أحد يستطيع الآن اختيار زمن لنهايتها، وعزمت على التصرف المنسجم مع هذه الافتراضات، فالتقيت السيد لطيف نصيف جاسم، وزير الثقافة والإعلام، وشرحت له بالأرقام فداحة خطأ الاستمرار بالاستضافة المجانية، وحاولت انتزاع قرار منه بالتوقف عنها، إلا أنّني أخفقت في هذا المسعى، لكنني لم أفقد الأمل بأن أصل إلى نتيجة مرضية.

وبسبب الضيافة المجانية الكاملة فقد لاحظت أوجه إنفاق وإسراف وسوء استغلال من جانب بعض الصحافيين لتعليمات الاستضافة، حتى زحفت نحو المشروبات الكحولية ومن نوعيات عالية الثمن، وأفخر أنواع السجائر التي لا تتوفر في إلا في فنادق الخمس نجوم، والمياه المعدنية الفرنسية، والمكالمات الهاتفية التي تجاوزت مهمات التغطية الصحافية إلى الشؤون العائلية أو المشابهة لها وما يتعداها إلى قضايا أخرى، غير أنّ التفسير الذي يمكن أنْ يخرج به الصحافيون في حال وقف الاستضافة كان هو العامل الرئيس في تردد الوزير في وقفها.

ولما وصلت إلى طريق مسدود في جهودي لوضع حدّ لهذا التبذير، الذي بدا يتداخل مع مهمتي الأساسية في تنظيم عمل الصحافيين، بل ويؤثر عليها سلباً، قررت أنْ أبحث عن قناة أخرى يمكن أن توصل رأيي إلى مركز صنع القرار بشكل مباشر، لذا فقد عرضت الأمر على ممثل رئاسة المخابرات العامة في اللجنة، والذي كان برتبة رائد واسمه جعفر وربما لم يكن اسمه الحقيقي، ولم أكن لأكترث لهذه القضية، فما يهمني أن ننجز عملنا المشترك بأقل التصادمات، ولكنه ومن باب تثبيت الأمور في محلها كان

بمنتهى الخلق ويتعامل مع الجميع باحترام شديد، فأبدى تفهماً وحماسة لوجهة نظري، ووعد بنقلها إلى السيد برزان إبراهيم حسن التكريتي رئيس المخابرات العامة حينذاك، وبعد ساعات نقل لي طلب رئيسه بأنْ أعد تقريراً تفصيلياً بالنفقات وليوم واحد على سبيل المثال، كي يكون مؤشراً على التكاليف العامة، وبعد ذلك مباشرة طلبت من إدارة فندق المنصور ميليا تزويدي بقائمة آخر يوم، وأخذها الرائد جعفر ومضى بها إلى رئيس المخابرات الذي عرضها في الليلة نفسها على الرئيس صدام حسين مع مقترح محدد بمعالجة الموضوع، فوافق الرئيس صدام حسين على ما جاء في المقترح، وتم إبلاغي بذلك في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، وكان علي أنْ أتصرف بهدوء، خاصة وأنّ بعض الصحافيين قد تعودوا على نمط خاطئ من التعامل مع الاستضافة، هذا من جانب ومن جانب آخر لم يكن من الحكمة أنْ أشعر وزير الإعلام بأنّ الأمر قد تم بتحرك مني وعلى خلاف رغبته، ولذلك تريثت حتى تم إبلاغي من مكتب الوزير بالأمر، فدعوت الصحافيين المتواجدين في فندق المنصور ميليا والكائن في الصالحية، إلى لقاء عام في كبرى قاعات الفندق، لإبلاغهم بقواعد الاستضافة، وحينما التقيتهم ظن معظمهم أنّ الأمر ينطوي على جديد في السياسة أو الشؤون العسكرية، أريد إيصاله لهم كما جرت العادة، ولذلك كانت المفاجأة ثقيلة على البعض، ومن أجل التسهيل عليهم في تدارك النفقات الكبيرة فقد تم اعتماد الصيغة الجديدة من اليوم التالي للقاء المذكور، كي لا يقع عليهم حرج شديد فيما لو طبقنا شروط الضيافة الجديدة من يوم اللقاء المذكور، وتوسط البعض عند أصدقائهم من ذوي المواقع السياسية أو الحزبية أو الإدارية، للحصول على استثناء خاص من القرار، إلا أنّ التعليمات لم تسمح إلا لإثنين من الصحافيين

أحدهما يوغسلافي والآخر هندي لحسابات تتصل بكونهما من دول حركة عدم الانحياز، وبعد تدخل السيد طارق عزيز نائب رئيس الوزراء.

ومع مرور الوقت بطيئاً وثقيلاً، وصدور بيانات عسكرية من كلا الطرفين تخلو من أية إثارة، باستثناء بيانات تقطع الصمت بين آونة وأخرى متحدثة عن انتصارات وهزائم، وغنائم وخسائر، فإنّ الحرب فقدت بريقها ومغناطيسيتها، وبدأ الصحافيون يفقدون الرغبة في البقاء في العراق خاصة مع ترتيبات الاستضافة الجديدة، يضاف إلى ذلك أنّ التحول الذي طرأ على موازين القوى في الجبهات لصالح إيران، بعد أن استقرت القوات العراقية وأخذت مواضع دفاعية داخل الأراضي الإيرانية والتي كانت تتعرض على الدوام للقصف المدفعي وإغارة الدوريات القتالية، وهو ما يؤثر بشكل سلبي في معنويات القوات المدافعة، كان من الطبيعي ألا يُمَكِّنَ الوضع الجديد من ترتيب زيارات ميدانية للصحافيين للجبهات كما كان سائداً في بداية الحرب، وهذا ما دفع بالصحافيين إلى إدارة ظهورهم لحرب باتت مملة أكثر مما يجب ورتيبة أكثر مما ينبغي، وصحف غير مستعدة لتغطية تكاليف مهمات فقدت إثارتها، وباستثناء طائرات تقلع لترمي بحمولاتها فوق أهداف عسكرية أو حيوية، على جانبي الحدود ثم ليبادر كل طرف بإدانة استهداف المدنيين، لم تشهد جبهات القتال البرية الطويلة تطورات لافتة للنظر.

وتركّز القتال في القاطع الجنوبي، حيث المدن الكبيرة، الأقرب إلى خط الحدود ولهيب المعارك مثل البصرة والمحمرة، وحيث أصيب الإيرانيون بأكبر نكسة في المراحل الأولى من الحرب، ولهذا فإنّهم استماتوا في تعديل مسار المعارك من دون

جدوى، فالعراقيون تمسكوا بالإنجازات التي حققوها، بأسنانهم وقاماتهم المنتصبة بلا خوف، ولذا فقد تحول قاطع البصرة إلى معركة المحمرة حصراً، وحاول العراقيون تطوير هجومهم حتى عبادان أو الاستيلاء عليها، ولكنّ الخشية من وقوع خسائر كبيرة حال دون تنفيذ الخطة، لهذه الأسباب نقلتُ نشاط عمل لجنة الصحافيين إلى مدينة البصرة، واتخذتُ من فندق حمدان مقراً إدارياً وإعلامياً، وفي أحد الأيام اتصل بي المقدّم عبد المنعم السامرائي، ضابط التوجيه السياسي في الفرقة الثالثة، وقال: إنّ إنجازاً عسكرياً كبيراً حقّقته فرقته، وطلب أنْ أهيِّئ عدداً محدوداً من الصحافيين بما لا يتجاوز اثني عشر صحافياً لزيارة ميدانية للمنطقة.

ومن أجل اختيار صحافيين يمثلون أوسع تغطية لوكالات الأنباء والصحف وشبكات التلفزيون والراديو، وأكثرها انتشاراً وأسرعها وصولاً إلى أوساط المتلقين، دعوت إلى لقاء عاجل مع الصحافيين الذين اكتظت بهم أكبر قاعات فندق حمدان، واندفع المئات منهم يسألون عن حقيقة ما سمعوا من مصادرهم عن تطورات ميدانية، وسعوا لتأكيده من قبلنا، خاصة بعد النفي الإيراني على لسان حجة الإسلام صادق خلخالي، كانت القوات العراقية قد نجحت في عبور نهر الكارون إلى ضفته الشرقية.

لم تكن مهمتي يسيرة فالكل يرى في الحدث فرصته. كان عدد الصحافيين من غير العراقيين يقرب من ٣٠٠ صحافي، والحد الأقصى المسموح لنا اصطحابه معنا لا يزيد على ١٢ صحافياً بأي حال، تحدثت إليهم وطلبت منهم أنْ يرشحوا من بين صفوفهم العدد المطلوب، على الرغم من قناعتي بعدم وجاهة طلب كهذا، لأنّه الطلب المستحيل، فكل منهم يريد أنْ يذهب بنفسه، ولمّا امتدّ الجدل من دون التوصل إلى نتيجة نهائية، عزمت على الاختيار

بنفسي، خاصة وأنّ سيارتين فقط من نوع لاند كروزر وصلتا لنقلنا إلى منطقة الحدث.

وقع اختياري أولاً على الجنرال فريد سون المراسل الحربي لصحيفة الدايلي تلغراف التي تصدر في لندن، وكان قبل تقاعده أحد أعضاء أسرة التدريس في كلية سانت هيرست العسكرية البريطانية الشهيرة، وكذلك على مراسل هيئة الإذاعة البريطانية، ومراسل وكالة الأنباء الفرنسية، ومراسل وكالة يونايتد برس، وآخرين اكتمل العدد المطلوب بهم.

بعد رحلة وسط أجواء حربية وصلنا المقر الجوال لقيادة الفرقة المدرعة الثالثة، وكان بانتظارنا العميد الركن قدوري الدوري قائد الفرقة، ويبدو أنّه كان على معرفة قديمة بالجنرال فريد سون الذي تبادل معه حديثاً تحليلياً عن تطورات الحرب وخاصة في قاطع البصرة، وبعد ضيافة سريعة، حضر الرائد الركن سفيان التكريتي، ضابط استخبارات الفرقة، ثم صحبنا في جولة ميدانية، بدأت بعبور نهر الكارون بواسطة عبّارة عسكرية، لأنّ الجسر العسكري ينصب ليلاً فقط خشية تعرضه للقصف، وبعد عبورنا كانت أعمدة الدخان الأسود ترتفع عالياً من ألسنة لهب تلفح الوجوه عن بعد، قال سفيان التكريتي: «هذا أنبوب نفط خام تم اكتشاف وجوده بمحض الصدفة في أثناء القصف المدفعي، ونتيجة ذلك قطعت إمدادات النفط الخام عن مصفاة عبادان».

واصلنا تقدّمنا في الجانب الآخر من نهر الكارون عبر طريق ملتو محاذ لطريق الأحواز ـ عبادان، تارة نركب الطريق المعبّد وتارة أخرى ننزل منه نتيجة وجود قنوات ري تقطعه من الشمال إلى الجنوب. كانت عشرات الشاحنات المحملة بمختلف البضائع،

والحافلات المحترقة تقف على جانبي الطريق، وفي رحلة ملأى بالمخاوف والأخطار وصلنا محطة تلفزيون عبادان، ولأنّ المعركة تم حسمها قبل ساعات فقد كانت محطة توليد الطاقة الكهربائية ما تزال تعمل، وفي الفناء الخارجي إلى جانب سياج بناية التلفزيون جلس العشرات من الأسرى الإيرانيين بانتظار نقلهم إلى منطقة آمنة، دخلنا مبنى محطة التلفزيون، كان معظم أجزائها قد تعرض للتدمير في أثناء العمليات الحربية والقصف المدفعي اللاحق.

لم يكن الظرف يسمح بالبقاء طويلاً في محطة التلفزيون أو قربها، لأنّها وفقاً لتقاليد الحرب هدفٌ مسجلٌ لنيران مدفعية الإسقاط، لذلك طلب منّا الرائد سفيان التكريتي العمل بسرعة بهدف ترك المكان، وانطلقنا من هناك في الطريق العام باتجاه مدينة عبادان، وبعد مسير مسافة كيلومترين ونصف تقريباً توقفنا، إذ التقط مصور الـ بي بي سي (BBC) فيلماً عن المنطقة مع تقرير إخباري أعدّه مراسل هيئة الإذاعة البريطانية، ردّ فيه على ما قاله الشيخ صادق خلخالي، الذي كان قد نفى عبور العراقيين للكارون، وقال حينها: «إنّ دبابتيْن عراقيتيْن فقط حاولتا التقدم نحو الضفة الشرقية للنهر، إلا أنّهما دخلتا في مستنقع موحل»، وباختصار شديد تحدث مراسل هيئة الإذاعة البريطانية في تقريره المصور والذي ظهرت فيه متحدثاً عن المنطقة التي كنّا نقف فوقها فقال: «نحن الآن على مقربة من محطة تلفزيون وإذاعة عبادان، وعلى بعد حوالي كيلومتر ونصف الكيلومتر منّي تقف طلائع القوات العراقية المدرعة التي تحاصر عبادان من أكثر من جهة، وتبعد عبادان عن الموضع الذي أقف فيه بحوالي ثلاثة كيلومترات» ثم ذكر ساعة إعداد التقرير وتاريخ اليوم الذي أنجز فيه.

بعد هذه الجولة قفلنا راجعين إلى مدينة البصرة، وتم إرسال

الأخبار عبر الأقمار الصناعية وخاصة تقرير مراسل هيئة الإذاعة البريطانية الذي حسم المعركة الإعلامية لصالح العراق حينما أكد عبور القوات العراقية لنهر الكارون من مصدر محايد عن طريق البصرة ومنها إلى الكويت، فكان الحدث الأبرز في الأخبار العالمية في ذلك اليوم.

ثم سادت مرحلة هدوء، ولم يكن هناك ما يدعونا إلى البقاء في مدينة البصرة، التي كنا في زيارة لها في أثناء استيلاء القوات العراقية على مدينة المحمرة، بعد حرب شوارع ضارية، ولم يهدأ الوضع في تلك المدينة العربية التي استولى عليها والد شاه إيران حينما خدع الشيخ خزعل أمير المحمرة بدعوة على ظهر يخت، وفي أثناء زيارة صحافية للمدينة اندلع إطلاق نار بشكل فجائي، كنت ضحية له إذ أصبت في ساقي، وتم نقلي فوراً إلى مستشفى البصرة العسكري حيث تلقيت العلاج اللازم واستقطب الحادث اهتمام رجال الإعلام الذين شاركوا في هذه التغطية، فقد وجدوا في إصابة المُشْرِف على برامجهم في الجبهة العراقية حدثاً مغرياً بتغطية خاصة، ولهذا أخضعتُ لتصويرٍ من قبلهم ووجهت إليَّ أسئلة من قبل الصحافيين الذين مكثوا في الفندق عن ملابسات الحادث، وتساءلت في نفسي لماذا لا يحظى المقاتلون الذين يتعرضون لأخطار كبرى بمثل هذا الاهتمام؟ على الرغم من أنّ كثيرين منهم يفقدون حياتهم أو يتعرضون لإصابات تترك إعاقات كبيرة في أبدانهم غير قابلة للشفاء أبداً، وبعد أن انتهينا من مهمة البصرة حزمنا أمتعتنا وودعنا قاطع البصرة، الذي أصبح مركزَ العمليات الحربية طيلة الحرب، ومنها بدأ مؤشر التحوّل المؤقت لصالح إيران، ومنها أيضاً سجل العراقيون أعظم ملاحم الحرب في مراحلها النهائية، وفيها تم كسر إرادة القتال لدى الإيرانيين.

في تلك الفترة من الحرب زارت بغداد وفود وشخصيات كثيرة وعلى مستويات مختلفة من الأهمية، بعضها رسمي والآخر غير رسمي ولكنه أراد أنْ يغلّف رسميته برداء الاستطلاع الشخصي، كان من بين من زار العراق وكانت لي معهم جلسات طويلة المستشار العسكري للرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان، والسيد محمد حسنين هيكل، أما السيد ميشيل وعلى ما أظن أنه اسم مستشار الرئيس الفرنسي والذي كان قد التقى بالمرحوم عدنان خير الله وزير الدفاع وعدد من القادة العسكريين والسياسيين وبحث معهم تطورات الحرب واحتمالاتها المستقبلية، فقد استقبلته في مكتبي بوزارة الثقافة والإعلام، ودخلت معه بحوار طويل حول الأسباب التي منعت القوات العراقية من تطوير هجومها واحتلال عبادان، فقال لي: إنّه طرح هذا السؤال على جميع من التقاهم من المسؤولين العراقيين، فسمع منهم جواباً واحداً وهو الحرص على عدم تعريض القوات العراقية لمزيد من الخسائر، بالإضافة إلى حسابات دولية لاحتمالات الإقدام على خطوة كهذه، لم أشأ الخوض في التداعيات الدولية لاحتلال عبادان، ولكنّني ركّزت على موضوع الخسائر فقلت له إنّني متأكد أنّ خسائر العراق من احتلال عبادان ستكون أقل بكثير مما سيتكبده من خسائر فيما لو بقيت خارج سيطرته، ومع ذلك فأعترف بأنّني لم أحسب جوانب عسكرية أخرى غير الخسائر، وهي سبل إدامة القوات وطول خطوط مواصلاتها، ومعنويات المقاتل حينما يبقى في موضع دفاعي لزمن طويل تحت طرق نيران العدو.

في ١٩٨١/٩/٢٧ نجحت القوات الإيرانية بعد قتال مرير وبعد تحشيدات طويلة بعضها أمام أنظار القطعات العراقية الأمامية، وبعضها الآخر كان مباغتاً، وقبل وقت قصير من ساعة الصفر

نجحت في دفع القوات العراقية إلى الجانب الآخر لنهر الكارون، وحاولت القيادة العامة زج قوات الاحتياط العام وخاصة اللواء المدرع العاشر، لاستعادة الموضع الدفاعي المفقود في شرق الكارون، إلا أنّ الحسابات النهائية أكدت أنّ وجود قوات عراقية شرق النهر يعتبر خطأً مميتاً لقوة ستبقى رهن عمليات تعرض توقع بها من الخسائر ما يجعل منها مصيدة تحذف من موجوداتها في الرجال والمعدات وتدمر معنويات مقاتليها، مما سينعكس سلباً على سائر الوحدات القريبة منها، فهي في أحسن أحوالها قوة لا يمكن تعزيزها بالمزيد من الإمدادات، لأنّها بين فكّي كماشة، ويعتبر إيصال الإمدادات إليها مجازفة في كل ثانية ابتداء من اقترابها من مرمى المدفعية الإيرانية وعبورها نهر الكارون حتى وصولها إلى غايتها النهائية، فضلاً عن أنّ خشية عرب الأحواز من الاتهام بالانحياز إلى جانب العراق، دفعت بكثيرين منهم إلى التصرف بعداء تجاه أفراد الجيش العراقي واستغل بعضهم فرص الثقة التي تعامل بها ضباط الجيش العراقي معهم لإيصال المعلومات إلى الجانب الإيراني.

كان الإيرانيون يولون القضية الطائفية أهمية كبرى سواء ببرامج تربوية في مراحل الدراسة كافة، أو في تكثيف ما يسمى بواجبات الدعاة الدينيين، الذين قد يزيد عددهم في إيران على بضعة ملايين من المبلغين، فما يسمى بالحوزات العلمية في إيران وحتى في زمن الشاه كانت كمفاقس تطرح في الشارع سنوياً عشرات الآلاف منهم، فكيف والحكم قد أصبح بيد المعممين أنفسهم وأصبحت العمامة رافعة لكل طامح بمنصب أو دور أو مال، ولا سيما وأنهم يتطلعون لفرض المذهب الشيعي ليس على مستوى إيران أو المنطقة فقط، وإنّما على مستوى العالم الإسلامي، هذا كله جعل من

الانتماء المذهبي يتفوق على الانتماء القومي والولاء للوطن، وانتقلت هذه الأفكار التي تريد الكفر بالوطن إلى داخل الوسط الشيعي في العراق، إلا من جانب النخب المثقفة أو العشائر العربية الأصيلة التي تمسكت بالفكر القومي، وهذا هو الذي أسس لمشكلات شتى، كان يعاد إنتاجها طيلة سنوات الحرب بل وعلى مدى زمن سيستغرق حقباً لاحقة.

بعد عملية العبور المضاد لنهر الكارون والذي نفذته القوات الإيرانية، بدأت القيادة العراقية تتحسّب لخطر جدي بدأ يلوح في الأفق، فالحسابات التي تم اعتمادها لم تأت بالنتائج التي تم افتراض تحققها، إذن كان لا بد من إعادة نظر شاملة على المستوى الوطني سياسياً واجتماعياً وأمنياً، وعلى نحو خاص في الخطط الحربية على النطاق الاستراتيجي أو التعبوي، التي يشهدها كل قاطع من قواطع العمليات، وتأثير ذلك في القواطع الأخرى وتهيئة ما تحتاج إليه جبهات القتال من رجال وسلاح وعتاد حربي واقتصاد قوي.

إذن بدأت مرحلة جديدة وصعبة من تاريخ الحرب بين العراق وإيران، وقد تتطلب تضحياتٍ كثيرةً وصبراً طويلاً، ولأنّ التخطيط بدأ متأخراً وبطيئاً في الوقت نفسه، فقد كان لا بد إذن من قبول خسائر كبيرة ستشهدها جبهات القتال، مترافقة مع تضحيات جسيمة في المقاتلين والمعدات، نعم مالت الكفة لصالح إيران، وستشهد صفحات أكثر صعوبة ولزمن صعب أيضاً.

الفصل الثالث

ألوية المهمات الخاصة، والتوجه إلى الجبهة

قد يكون مملاً أنْ أكرر القول بأنّني لا أؤرخ للحرب، ولكن هذه هي الحقيقة، لأنّني لست مؤرخاً، ومن يفعل ذلك هم الذين وضعت تحت تصرفهم وثائقها كاملة، لدراستها بإمعان ومن دون تحيز، ومن دون خجل من عرض الحقائق، وبناء الاستنتاجات الصحيحة، فما يبنى على خطأ تكون نتائجه خطأ، وما يبنى على معلومات ناقصة لن تكون استنتاجاته كاملة. هذا غير أنني لا أصلح لتأدية دور المؤرّخ، لأنني منحاز أصلاً إلى جانب بلدي في حربه العادلة ضد إيران، لكن ما أدوّنه قد ينفع المؤرخين في معلومة أو أكثر في كتابتهم للتاريخ.

كما أنّني لن أدّعي بأنّني محلل عسكري، أو خبير بشؤون الحرب، كي أعطي آرائي بشأن المعارك التي شهدتها جبهات القتال على طول الحدود العراقية الإيرانية وأقيّم نتائجها، وأحياناً داخل حدود كل منهما، بل إنّ بعض المعارك قبلت انتقال الاشتباك من أرض بلد إلى أرض بلد آخر وخلال معركة واحدة، وهذه إحدى مفارقات الحرب.

وكما أنّ المشهد العسكري شهد مفارقات وتطوّرات دراماتيكية، فإنّ الوضع السياسي لم يكن أقل في درجته مما هو

عليه في الميادين الأخرى، فقد كان مقرراً لبغداد أنْ تحتضن مؤتمر قمة عدم الانحياز عام ١٩٨٢، ولهذا بدأت الحكومة العراقية بإحالة عقود إنشائية لتطوير مدينة بغداد كي تكون بمستوى الحدث، ولكنّ تطورات الحرب، وعمليات إرهابية نفّذها عملاء إيرانيون مثل حادث تفجير مبنى وزارة التخطيط، داخل مدينة بغداد، تركت ظلالاً قاتمة على فرصة العراق باستضافة القمة.

وتوقفت مشاريع كبرى كانت مدرجة في المنهاج الاستثماري، مثل مشروع مترو بغداد الذي أوشكت دراساته على الاكتمال وكاد أن يكون معلماً حضارياً كبيراً لها، وتمّ التعميم على وزارات الدولة كافة بأنْ تبقي ميزانياتها للعام ١٩٨١ بحدود ميزانية ١٩٨٠.

وهكذا بدأت الحرب تأكل ميزانية البناء وتوقفت حركته عن التوسع، وأخذت الفوائض التي تراكمت عام ١٩٧٩ والنصف الأول من عام ١٩٨٠ نتيجة الارتفاع المفاجئ والحاد في أسعار النفط والذي جاء خارج كل التوقعات، أخذت تتسرب في مسالك الحاجة لتأمين المزيد من السلاح والعتاد الحربي.

كانت موارد النفط من الضخامة بحيث فاقت قدرة البلدان المنتجة على الاستثمار في مشاريع تنموية، على نحو يضمن التوازن بين القدر الهائل من المداخيل والقدرة على إحداث النقلة النوعية في اقتصادات دول تعاني أصلاً تخلفاً مركّباً وعلى كل المستويات. كانت مرحلة تدفق مليارات الدولارات عن تصدير النفط قد بدأت في الأشهر الأخيرة من حكم الرئيس أحمد حسن البكر، ففي منتصف عام ١٩٧٩ خلف الرئيس صدام حسين الرئيس البكر، حينها تعاظم الأمل لدى العراقيين بنقلة اقتصادية للبلد ومعاشية لهم، تجعلهم يقطفون شيئاً من ثمار النفط الذي تم تأميمه في

الأول من حزيران/يونيو ١٩٧٢، ولكنّهم فوجئوا بإنشاء صناديق كثيرة لدعم الدول الأفريقية الفقيرة بشكل خاص، ونظر كثير من العراقيين بعدم ارتياح لهذه الخطوات، واعتبروها تبديداً لثروة هم أحق بمنافعها، وذهب بعضهم إلى النظر إليها على أنها محاولة من الرئيس صدام حسين لكسب التأييد الدولي للعراق بهدف إقامة منطقة نفوذ يمكن الرجوع إليها عند الضرورة. وعلى العموم فإنّ القروض التي منحت للدول الأفريقية لم ترد للعراق في ظروف الحرب مع إيران، أو الحصار الاقتصادي الخانق والظالم على العراق عام ١٩٩٠، عندما كان بأمس الحاجة إليها.

لم يكن لأسعار النفط المرتفعة أن تستمر على مستوياتها، ويبدو أنّ خطة لاستعادة أموال النفط قد تم وضعها في دوائر القرار الدولية وخاصة من جانب الدول ذات الاقتصادات الكبرى مثل الولايات المتحدة وأوربا الغربية واليابان، ولعل أقصر الطرق لتحقيق ذلك الهدف هو إطالة أمد النزاعات المحلية والإقليمية، لاستدراج عقود التسليح والتجهيز.

وكان مقرراً أيضاً عقد مؤتمر قمة الدول المنتجة للنفط في بغداد بمناسبة مرور عشرين عاماً على تأسيس منظمة أوبك والتي تشكلت في بغداد عام ١٩٦٠ بمبادرة عراقية رعاها الزعيم الركن عبد الكريم قاسم بعد أن تبنّى هذه الفكرة وزير النفط حينها محمد سلمان حسن، ولما كانت إيران عضواً فاعلاً في المنظمة لأنها من الدول المؤسسة، ولما كان التوتر في العلاقة مع العراق قد أزال إمكانية مشاركتها في القمة، فقد أصبح من المشكوك فيه عقدها أصلاً وخاصة بعد أن طفقت الخلايا الإرهابية التابعة لإيران بتنفيذ عمليات أدت إلى مقتل وإصابة العشرات وتسببت بإثارة القلق المشروع على مستوى الشارع العراقي.

كان الوضع السياسي قبل الحرب يوحي بأنّ للعراق رصيداً عالياً من الصداقات الحميمة مع دول أخرى ولكنها صداقات مدفوعة الثمن، ولكنّ الواقع كان يسير في اتجاه آخر، وحتى داخل الأسرة العربية لم يكن متاحاً الخروج بموقف داعم للعراق في حربه مع إيران، فحينما عقد اجتماع لمجلس الجامعة العربية، انفض من دون أنْ يوجه إدانة صريحة لإيران، أو أنْ يتعاطف بشكل واضح مع العراق، أيقن العراق ومن دون أوهام أنّه ماضٍ في طريقه منفرداً، وهذا هو الذي دفع بمندوب العراق الدائم في الجامعة إلى شجب موقف الدول الأعضاء في الجامعة العربية لعدم قطعها لعلاقاتها مع إيران بسبب عدوانها على العراق.

في ذلك الوقت لم يكن العراق قد قطع علاقاته التي ظلت مجمّدة مع إيران حتى صدور قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٥٩٨ في تموز/يوليو ١٩٨٧، حينها قطع العراق علاقاته مع إيران لعدم إعطاء موافقتها على القرار المذكور، فعلى الرغم من لهب نيران الحرب على طول الحدود وفي سماء البلدين وفي مياههما الإقليمية والمياه الدولية، فإنّ استمرار العلاقات الدبلوماسية التي لم يشأ أي من البلدين الإعلان عن موتها، كان أكبر مفارقات الحرب على كثرة مفارقاتها.

كان وضع الجبهات غير المستقر على حال ينعكس سلباً على الوضع الداخلي للعراق، وكذلك على علاقات العراق الخارجية، وأوضح من هذا وذاك على مجمل الوضع الاقتصادي للبلد، بسبب تقلص الإيرادات النفطية التي تحتل ركناً متيناً في تحريك ماكنة البلد الاقتصادية، نتيجة توقف الشطر الأعظم من الصادرات عبر الخليج العربي، خاصة وأن العراق لم يكن يمتلك قوة بحرية قادرة على الدفاع عن منشآته النفطية ومنصات تصدير النفط وسواحله ومياهه الإقليمية.

كان للعراق ثلاثة منافذ لتصدير نفطه، وكان هذا عامل مرونة فائقة لدوام الصادرات مهما واجه من ظروف صعبة، **الأول** هو منفذ الخليج العربي، عبر رصيف ميناء العمية (العميق)، ورصيف البكر، **والثاني** عبر الأراضي السورية، وفيه خطان الأول يذهب إلى ميناء بانياس السوري، والثاني إلى ميناء طرابلس اللبناني، ونتيجة نشوب الحرب فقد تعطل منفذ الخليج العربي تماماً، أمّا المنفذ السوري اللبناني، فأصبح عملياً معلقاً في مهب ريح العلاقات العراقية السورية، التي كانت تمرّ بمخاض عسير، منذ اتهام الرئيس الراحل صدام حسين، للرئيس السوري الراحل حافظ الأسد، بالوقوف وراء محاولة بعض أعضاء القيادة القطرية للحزب، ومجلس قيادة الثورة، لإسقاط نظام حكم الرئيس صدام حسين، مما أبقى علاقات القطرين الشقيقين المتجاورين، واللذين يحكمهما جناحان مختلفان لحزب البعث العربي الاشتراكي، في حالة عداء مزمنة وصراع طويل، واتخذت سوريا موقفاً مؤيداً بقوة لإيران في الحرب أدهش المراقبين حسني النية، وإن لم يكن مفاجئاً لمن كان يتعامل مع ظروف العلاقة بين البلدين من قنواتها السرية وليس من ظاهر ما كان يطرح على الملأ من حزم متفائلة وآمال عريضة، مما عمّق من الهوة بين البلدين، بحيث لم يعد ميسوراً ردمها وخاصة مع استمرار التأييد السياسي الصريح لإيران في الحرب. وخلال وجوده في العراق لتغطية تطورات الحرب قال لي صحافي بريطاني: «لا أحد يريد محوراً بين بغداد ودمشق، لأنه ليس في مصلحة الغرب ولا في مصلحة الشرق معاً، وكذلك بعض القوى الإقليمية، ويبدو أن سوريا العلوية ترى في إيران الشيعية حليفاً أقرب من بلد عربي يحكمه السنّة، وفي هذه البقعة يكمن واحد من أهم صراعات الزعامة في التاريخ العربي»، التفت الصحفي البريطاني إلي ورمقني

بعين لا تخلو من خبث السؤال، منتظراً رأيي في تحليله السالف، ولكنني صَمَتُّ بعد أن رأيتُ فيه وجاهةً تفوقُ القدرة على التصريح بها، نعم ربما كان هذا هو التفسير الأقرب إلى مزاج مرحلة سياسية سادت العراق وسوريا ولم ينجح الماضي المشترك في رأب الصدع فيها.

أمّا المنفذ الثالث، فهو الخط التركي المنتهي عند ميناء جيهان على البحر الأبيض المتوسط، والذي شكل مع خط النفط الاستراتيجي منظومة متكاملة لمرونة بلد يسعى لتعويض النقص في الإطلالة البحرية بشبكة أنابيب تجعل من المستحيل خنقه، ولم يُخْفِ المسؤولون السوريون امتعاضهم من هذا الخط، والذي اعتبروه دليلاً على تخلي العراق عن شعاراته القومية، خاصة وأنّ الخط ينتهي في ميناء جيهان الذي يقع في لواء الإسكندرونة السوري الذي تحتله تركيا، كما اعتبرته دمشق رغبة عراقية في حرمان سوريا من عوائد تصدير النفط، وتحويلها إلى تركيا، وعلى الرغم من أنّ هناك تكاملاً في عمل الخطين وليس تعارضاً، والخط الجديد ليس بديلاً عن الخط القديم، فقد وجدت هذه الآراء لها صدى لدى بعض الأوساط السياسية والإعلامية العربية، وخاصة التي تناصب العراق العداء، إضافة إلى أنَّ وقف التصدير عبر الخط السوري كان يتم بقرارت من أعلى المستويات في دمشق.

المهم أنّ الحرب وقعت في ظرف سياسي لم يكن فيه من إيجابيات التوقيت شيئاً، لأنّ إيران حشرت العراق في الزاوية التي لم تترك له خياراً آخر إلا ركوب قطار الحرب الذي سعت إليه طهران بكل قوة وعناد، مما يمكن حسابه لصالح العراق، فكان عليه والحال هذه أنْ يتخذ تدابير كثيرة لمواجهة الظرف الجديد،

فمن بديهيات الاستعداد لخوض الحرب في أي بلد البدء بسلسلة من الخطوات السياسية وعلى أعلى المستويات، وتقليص حجم القضايا العالقة مع الأطراف الأخرى بهدف تمتين علاقاته مع البلدان الأخرى التي يحتفظ معها بعلاقات ما، وفتح آفاق من أوجه التعاون معها، وتحويل الأطراف المحايدة إلى دول صديقة، وتحييد بعض الأطراف التي تتسم العلاقات معها بالحساسية أو يشوبها شيء من عدم الاستقرار، وعلى الرغم من أنّ الحرب كانت واقعة لا محالة، لأنّ طبولها كانت تقرع في طهران بقوة، وعلى الرغم من أنّ نبرة التهديدات الإيرانية - سواء من جانب كبار المسؤولين في الدولة، أو من قبل رجال الدين الذين لا يفقهون من علم السياسة شيئاً ويزحفون بقوة وسرعة نحو مواقع القيادة، في بلد يضطرب بشدة - كانت في تصاعد مستمر، مما قلص الخيارات أمام القيادة العراقية،على الرغم من ذلك كله، فإنّ الاستعدادات السياسية لم تصل إلى المستوى المطلوب، وما ينطبق على الجانب السياسي ينطبق بدرجة أخرى على الاستحضارات العسكرية، من قبيل تهيئة الجهد الطبي لمواجهة نتائج العمليات الحربية التي ستخلّف الكثير من الجرحى، وكذلك الحال بالنسبة إلى السلاح والعتاد الحربي، وهذا كله هو الذي سمح لإيران فيما بعد أنْ تقول بأنّ الحرب فرضت عليها، ويمكن الاستدلال على قصور برامج التوعية الشعبية باحتمال نشوب الحرب في أية لحظة أنّ تكتماً صارماً فرضته الدولة على عمليات القصف المدفعي الذي تعرضت له المدن الحدودية مثل البصرة خانقين ومندلي وزرباطية وبدرة، مع أنّ نزوحاً جماعياً من هذه المدن قد جرى قبل أيلول ١٩٨٠، وقد أدى ذلك إلى خسارة اقتصادية واجتماعية وسياسية كان بإمكان العراق كسب المعركة في جانبها الدعائي على الأقل على صعيد

الداخل والخارج لو أنه سمح بالتغطية الصحفية للظروف الناشئة - كما كانت السيدة أنديرا غاندي قد وظفت ظروف اللاجئين إلى أراضيها من باكستان الشرقية قبيل حرب عام ١٩٧١، والتي أدت إلى نشوب الحرب التي أدت إلى انفصال باكستان الشرقية التي أصبحت دولة مستقلة باسم بنغلاديش - لكان قد عبأ إلى جانبه الرأي العام الدولي ولكنه لم يفعل. وقد أذهب إلى القول: إنّ حرص القيادة العراقية على المعنويات الشعبية في الداخل، والذي كان دافع التعتيم على ما شهدته المدن الحدودية هو الذي أفقد العراق كثيراً من التأييد الخارجي وخاصة على مستوى دول الإقليم، حتى بدا وكأن العراق يتصرف وكأنّه في غنى عن الآخرين، وهذا ما لا تفعله حتى الدول الكبرى التي لا تستطيع فعل أي شيء لوحدها أو لا تريد ذلك، وما على الأطراف الأخرى إلا الجري وراءها لكسب ودّها، خوفاً أو طمعاً. ويرى بعض المهتمين بالشأن العراقي، أنّ إحساساً بدأ يتكون تدريجياً لدى بعض دول الخليج العربي. بأنّ الرئيس صدام حسين اعتمد سياسة العصا الغليظة معها، كي تقف إلى جانب العراق في الحرب، مشعراً إياها بأنّه لا يخوض معركة العراق فقط، بل معركة الدفاع عن الأمة العربية، في وجه برامج التوسع الإيراني، ومع أنّ هذه هي الحقيقة بعينها من دون مبالغة، فإنّ البعض من القادة الخليجيين، وبخاصة الكويتيين، أضمروا للرئيس صدام حسين، كراهية ستنمو مع الوقت، فالرئيس الراحل صدام تعامل في علاقات العراق العربية. من منطلق المصير المشترك، والنظر إلى أية قضية عربية على أنّها قضية تخص العراق بدرجة اختصاص البلد العربي بها نفسها، ويبدو أنّ هذا الفهم القومي لم يكن ليروق للكثيرين من الحكام العرب، والذي اعتبره البعض منهم سلوكاً عشائرياً لا ينسجم وروح العصر، وليس بوسع

مجتمعاتهم السائرة في طريق التحديث المنسلخ عن تراثه القبول بها.

وهنا يمكن تلمّس المأزق الجدي الذي وضعت الحرب دول الخليج العربي تحت ضغطه، بل ربمّا وجدت أنّ الحرب تقود إلى نتائج متضادة، فهي ترى في الحرب إضعافاً للعراق وإيران معاً، في الوقت الذي كانت تنظر بقلق وريبة إلى شعار تصدير الثورة الذي تبنّاه آية الله الخميني، فقد رأت دول الخليج العربي التي تقع على مرمى مدافع آيات الله في هذا الشعار تهديداً مؤكداً ينذر بإدخال المنطقة في مرحلة انعدام الوزن والاستقرار لا يستطيع أحد التكهن بالمدى الذي سيصل إليه، خاصة وأنّها ـ أي نظم الخليج ـ نظم حكم عائلية، تدفق عليها النفط على نحو مفاجئ ومن دون استعداد منها لتطويق آثاره السلبية، وخاصة تدفق العمالة الأجنبية، وخاصة الإيرانية، التي لم تكن كلها عمالة تشغيل، وإنّما في معظمها عمالة أدوار سياسية وأمنية، ترصد التطورات الجارية في مجتمع الخليج الجديد، وتنقلها إلى مراجعها، بهدف رسم الخطط الرامية للهيمنة على المنطقة إنِ استحالت السيطرة المباشرة عليها، وهذا ما يفسر نوعية الهجرة الإيرانية إلى دول الخليج العربية التي ظهرت فيها الثروة بشكل متسارع لم تعطها الوقت الكافي لتنظيم أمور الإقامة والهجرة، إضافة إلى أنّ تلك الهجرة المنظمة كانت قد تمت في عهد شاه إيران محمد رضا بهلوي الذي كان ينظر إليه خليجياً على أنّه الحليف القوي ضد أي خطر خارجي، بل وعصا التوازن مع العراق، ولكنّ أحداً لم يسأل نفسه عن أسباب هذا التدفّق الإيراني إلى دول الخليج العربي، فإيران بلد نفطي، ويمتلك قدرات زراعية كبيرة ومعادن مختلفة وقاعدة صناعية واعدة، ولديه خطط تنمية كبرى، فلماذا لا يتم توظيف هذه الموارد البشرية في تنفيذ برامج

التنمية الداخلية؟! هنا يبرز الدافع الحقيقي لهذه الهجرة والتي ترتبط بوجود أطماع إيرانية معلنة في أكثر من أرض عربية، ولعلّ قضية البحرين أوضح الأدلة على نوايا إيران لقضم أراضي الغير وضمها إلى ممتلكاتها كما فعلت مع الكثير من الأراضي العراقية، وكذلك غزو القوات الإيرانية للجزر الثلاث التابعة لدولة الإمارات العربية بعيد إعلان بريطانيا عن انسحابها من شرق السويس عام ١٩٧١.

أما نظرة دول الخليج إلى العراق فتتسم بكثير من الازدواجية والانتقائية، فالعراق على ما ترى هو الأخ الكبير، ولكنّه المستبدّ الذي لا يؤتمن شرّه والذي قد ينازع إخوته الثروة، ولذا فقد رأت في دعم صمود العراق بوجه الأخطار الإيرانية شرّاً لا بد منه، مع البحث عن طرف دولي يمكن أنْ يؤدي بالنسبة إليها دور الشرطي الذي يتدخل لصالحها عند الحاجة، وهذا ما حصل، ففي الوقت الذي فتحت موانئها لتجارة العراق بما فيها الحربية، وقدمت الدعم المالي والاقتصادي لإبقاء السوق العراقية في حالة انتعاش مزيف، كانت اتصالاتها مع الجانب الإيراني تعطي مؤشرات تؤكد ازدواجية التعامل الخليجي مع طرفي الحرب، ولكنّ ذلك كله تم على كراهة المضطر، وفي الوقت نفسه كانت الاتصالات بين أكثر من طرف خليجي والولايات المتحدة لتأمين أوضاع هذه الدول إذا ما تطلب الأمر مواجهة مع العراق.

ولأنّ الحرب أخذت مدى أكثر مما كان متوقعاً أو مرسوماً لها، كانت تطوراتها الميدانية تنسحب بداهة على جهاز حزب البعث العربي الاشتراكي، فقد كان عليه النهوض بمهمات من طراز جديد، وهي تهيئة المزيد من متطوعي الجيش الشعبي، وهو المليشيا الرسمية للحزب وللمواطنين القريبين في نظرتهم للوطن من نظرة البعثيين، وذلك لإرسالهم ضمن قواطع متكاملة إلى جبهات

القتال من أجل تحقيق هدفين معاً: **أولهما**: هدف معنوي، لرفع درجة الاستعداد القتالي لدى الجنود النظاميين المرابطين على خط النار، وذلك من خلال مشاركة متطوعي البعث لهم في المهمات الحربية، ولهذا الجانب بعده الحيوي بالنسبة إلى العسكريين من غير البعثيين في أنّ معركة الوطن يخوضها الجندي المحترف ضمن واجبه الوطني والمهني، أما المتطوع البعثي فإنّه يشارك فيها لاعتبارات وطنية صرفة ترتبط بقناعة مبدئية بصواب خيارات القيادة، فهو متطوع جاء إلى الجبهة من تلقاء نفسه.

أما الهدف الثاني: فكان لسد فراغ حقيقي في حاجة تلك الجبهات إلى دماء جديدة ومعنويات طازجة من الرجال، وكي يصرح الحزب بثقة أنّ أعضاءه ومؤيديه هم في طليعة المضحين، كما أنّهم في واجهة المسؤولية أيضاً، ولكنّ قواطع الجيش الشعبي التي كانت تضم شرائح عمرية غير متجانسة تتراوح بين الرابعة عشرة والسبعين من العمر، لم يكن ميسوراً والحال كذلك إخضاعها لتدريب عسكري متكامل، ولذا كانت تلقى لقمة سهلة القضم من قبل الإيرانيين.

هذا حفّز المستشارين العسكريين للقيادة السياسية إلى التقدّم بمقترح لتشكيل وحدات من أعضاء الحزب، يطلق عليها اسم «ألوية المهمات الخاصة»، فدعت القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي إلى عقد ندوات موسّعة للكوادر الحزبية من مستوى عضو قيادة فرقة في الحزب فما فوق، وكانت أول ندوة قد عقدت في قاعة الجامعة المستنصرية في تشرين الأول من عام ١٩٨١، وأدارها المرحوم طه ياسين رمضان، الذي كان يشغل حينذاك عضوية القيادتين القومية والقطرية للحزب،وعضوية مجلس قيادة الثورة، والنائب الأول لرئيس الوزراء، كنت حينها مديراً عاماً

لدائرة الإعلام الداخلي العامة، وكنت في جولة تفتيشية على فروع دائرتي في المحافظات الشمالية، ولهذا لم أحضر الندوة، ولم أسمع بنتائجها إلا بعد أن اطلعت على قرار القيادة القطرية للحزب بفصل أكثر من ١٠٠ حزبي من درجة عضو قيادة فرقة وشعبة، ويبدو أنّ القرار ترك أصداءه لدى الحزبيين في المناطق الأخرى، فبادروا إلى التطوع قبل فوات الفرصة.

وخلاصة القضية أنّ معظم الذين شملهم قرار الفصل إن لم يكونوا جميعاً قد فقدوا الإيمان بعدالة المعركة التي يخوضها بلدهم، ولكنّ طريقة العرض التي طرحت في أثناء الندوة لم ترتق إلى مستوى التصريح بأهمية تواجد القيادات الحزبية في الجبهة، فقد قيل: إنّ متطلبات جبهات القتال تقتضي وجوداً معنوياً للبعثيين، لأنّهم أصحاب قضيتين فيها: **الأولى** وطنية **والثانية** مبدئية بحكم الانتماء إلى الحزب، ولهذا قرر الحزب تشكيل ألوية المهمات الخاصة.

وأثارت هذه التسمية تصورات متباينة بشأنها وواجباتها، وأعطى المتحدث في تلك الندوة أعذاراً لأصحاب الظروف الخاصة كالمرضى والمسنين وغير ذلك مما يندرج تحت تفسير الظرف الاستثنائي، فالأمر وفق هذا الوصف هو تطوع اختياري حر، وهذا ما أثار التباساً لدى البعض حول حدود تفعيل مفهوم الظرف الاستثنائي، فاجتهدوا في أنّ الأمر ليس بالضرورة القصوى، ولم ينظروا إلى دواعي عقد الندوة الحزبية على هذا المستوى، ولذلك وقع البعض في خطأ التقدير السليم للموقف السياسي، إضافة إلى أنّ البعض الآخر دار في خلده ما راج من أنباء من الجانب الآخر للجبهة، إذ ترددت أنباء عن قيام المجندين الإيرانيين صغار السن بفتح حقول الألغام بأجسادهم، مما أثار لدى من حضر الندوة

مخاوف من أن يكون واجبُهم مماثلاً، ولذا فقد كتبوا أسماءهم تحت عنوان غير راغبين في التطوع، وهنا لا بدّ من القول إنّ الإيرانيين استطاعوا بدرجة أو أخرى التحكم بالقرار الفردي لبعض الحزبيين الذين جاء قرار فصلهم كصاعقة، لأنه وضعهم خارج صف المبدئيين، وفي الأجواء القلقة التي أعقبت القرار، حمّل كثيرون ممن شملهم الفصل من الحزب، المرحوم طه ياسين رمضان، مسؤولية ما حلّ بهم، واعتبروا أن عدم الوضوح في أسلوب الطرح هو الذي وضعهم في دائرة العتمة، خاصة أنّ المرضى الذين تطوّعوا تم صرفهم من معسكرات التدريب لاحقاً، بحيث بدا الأمر وكأنّه عملية اختبار لمبدئية البعثيين.

المهم، جاء تشكيل ألوية المهمات الخاصة ليبدأ مرحلة جديدة في إدارة الحرب، لمواجهة تطوّراتها الميدانية، على نحو بات ملحاً معه، رفدها بطاقات من طراز جديد، بصرف النظر عن امتلاكها قدرة القتال من الناحية الفنية الصرفة، وعلى الرغم من أنّ تنظيمات مدينة بغداد هي التي دفعت ثمن عدم التطوع، وأنّها هي التي شكلت أكثر عدد من ألوية المهمات الخاصة، إلا أنّ قرارات التكريم التي أصدرها الرئيس الراحل صدام حسين بمنح الألوية العشرة الأولى درجة حزبية أعلى، جاء وكأنه خطوة مقصودة لتشمل مدينة النجف، وكذلك مدينة الثورة في بغداد، وكأنّ في الأمر رسالة لمناطق بعينها أو تشجيعاً لها.

إنّ التنظيمات الحزبية في المحافظات عندما وصلتها أنباء العقوبات التي تعرض لها بعض الحزبيين من تنظيمات بغداد بسبب الملابسات التي رافقت الندوات الحزبية الخاصة بالتطوع، أخذت الأمر بعين الاعتبار وتصرّفت على هذا الأساس، فجنبت نفسها تكرار الخطأ، ولو أنّ الندوات عقدت في وقت واحد على مستوى

العراق كله، لكان بالإمكان إصدار حكم موضوعي على مبدئية البعثيين وإيمانهم بعدالة قضيتهم من دون اجتزاء أو تجنٍّ.

حاصل الأمر أنّ تنظيمنا الحزبي كُلف بتشكيل اللواء الحادي عشر، وتنظيماته من فرع أبي جعفر المنصور، الذي يضم مناطق من بغداد/الكرخ، إضافة إلى المحمودية، وتم اختيار السيد سالم الوهب، عضو قيادة الفرع، وأمين سر شعبة المحمودية، لإمرة اللواء، وأصبحت آمراً للسرية الأولى، في اللواء الذي يتألف من ست سرايا، وكل سرية تتكون من ١٦٥ مقاتلاً، وكان معاون آمر السرية، السيد رعد حماد شهاب، وضمن السرية الأولى عدد كبير من تنظيمات فرقة العدل وفرقة المنصور، كان لي صديق يعمل مترجماً في المؤسسة العامة للسياحة هو السيد رائد عمر العيدروسي، ولم يكن منتمياً إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، ولكن كان يمتلك حماسة عالية، فطلب مني تسهيل تطوّعه إلى صفوف لواء المهمات الخاصة الذي أنتسب إليه، وفعلاً تم إلحاقه به وقد وقع في الأسر وعاد بعد أكثر من عشر سنوات على ما أظن.

بعد استكمال تشكيل اللواء انتقلنا إلى المعسكر التدريبي في منطقة الورار قرب الرمادي، في ١٩٨٢/١/٣١، كانت الحياة في المعسكر تجربة جديدة لمن لم يسبق له تأدية الخدمة العسكرية، وهم غالبية المتطوعين، كانت الأعمار غير متقاربة بينهم، كان عمري يقترب حثيثاً من الأربعين، ومواكبة التدريب العسكري الشاق في عمر كهذا لا بد من أنْ يواجه صعوبات طبيعية مؤكدة، إلا أنّ الأمر تم حسمه في جانبه المبدئي، ولم تعد هناك فسحة لأية فكرة أخرى، ويجب توطين النفس على ما لا تطيق، وترويضها على ما لا يقدر عليه البدن، فهذا خيار يتصل بقيم الرجولة، والتطابق بين المعلن من المبادئ وخطوات التعبير عنها.

ونتيجة ما أفرزته تجربة الألوية العشرة الأولى من مشاكل فنية، وانعدام لحالة الانضباط العسكري، فقد تم مدها بضباط مهنيين تم استقدامهم من وحدات الجيش لمعالجة النواقص المؤشرة، وهذا ما تم بالنسبة إلى ألويتنا فور تشكيلها، كان المرحوم النقيب خليل موسى عكلة هو الضابط الذي تم تنسيبه إلى السرية الأولى وهو ضابط من الدورات الخاصة التي تم ترتيبها بعد ثورة ١٧ تموز/ يوليو ١٩٦٨، جيء به لتولي مهمة الإشراف على الشؤون العسكرية، في سريتنا وخاصة خلال المعارك، واتّسمت العلاقة مع النقيب خليل بمنتهى المودة والاحترام.

بعد انقضاء بضعة أسابيع على وجودنا في المعسكر، وحيث تتواجد في معسكر الورار القريب من مدينة الرمادي ستة من ألوية المهمات الخاصة، زار المعسكر الرئيس الراحل صدام حسين، وعلى الرغم من أنّ الرجل مفعم بالمعنويات العالية مهما ساءت ظروف المواجهة في جبهات القتال، فقد بدا عليه شيء من القلق المشروع على مصائر مقاتلين سيتم إرسالهم إلى جبهات القتال، ومعظمهم لم يتمّ إعداده على النحو الذي كان الرئيس الراحل يريده، والتقى مع المقاتلين في ساحة التدريب، وألقى كلمة كانت تقاطع بالهتافات، وفي أثناء الكلمة التي كانت تقاطع بهتاف: «بالروح بالدم نفديك يا صدام»، قال بلهجة حازمة: إنّ المقاتلين لا ينبغي لهم الهتاف وإنّما القتال، وفهمنا من هذا المقطع من حديث الرئيس أنه كان ينظر بكثير من القلق إلى واقع الجبهات وخاصة جبهة البسيتين التي ضرب العراقيون فوق أرضها صفحات جليلة من البطولة النادرة، واستمر اللقاء وقتاً غير قصير، وبعده استدعى الرئيس صدام حسين قادة المعسكر الحزبيين والعسكريين، وخلال هذا الاجتماع قرر الرئيس الراحل تعيين ضباط من الجيش العراقي،

كآمرين للألوية والسرايا، وتحويل المسؤولين الحزبيين إلى موجهين سياسيين، كل في الجهة التي كان آمراً لها، وأثار هذا القرار ردود فعل متباينة، فالبعض وأنا منهم شعر بالارتياح لقرار يضع الأمور في نصابها الصحيح حتى لو أنه جاء من دون دراسة معمقة، ولكنّ البعض الآخر نظر إليه من زاوية ثانية، لأنّه نزع سلطة القرار من الحزبيين وحوّلها إلى العسكريين، وكان الفضل الأول في هذا التحول يعود إلى المرحوم اللواء الركن دخيل علي الهلالي، الذي كان يشغل حينها منصب رئيس المؤسسة العامة للنقل البري، وكان عضو قيادة فرقة في الحزب، وكان موقعه قبل الزيارة مستشاراً عسكرياً لآمر اللواء، السيد سالم الوهب، ولكنّ الهلالي أصبح بعد الزيارة آمراً للواء ١١ مهمات خاصة، وفي حقيقة الأمر لم يعد لنا دور نؤديه منذ ذلك اليوم، إلا أنّ الاعتبارات الحزبية فرضت التزاماً يجب التقيد به في كل الظروف، فضلاً عن أنَّ الضباط المنتسبين لم يباشروا مهامّهم، ولذا بقينا في مواقعنا من الناحية العملية.

في الاجتماع المذكور تحدث الهلالي عن أوضاع التدريب والمستلزمات المطلوب توفيرها لمتطوعين لم يسبق لكثير منهم الخدمة العسكرية لأنّهم من صغار السن الذين لم يحن موعد التحاقهم بالجيش، أو لأنّ القسم الآخر من كبار السن الذين دفع كثيرون منهم البدل النقدي للحصول على إعفاء من خدمة العلم.

كان من المفترض أنْ تستمر التدريبات العسكرية لثلاثة شهور، إلا أنّ استمرار المعارك الطاحنة في معظم قواطع الجنوب الذي كانت إيران تنظر إليه نظرة خاطئة، بشأن إمكانية تحول ولاء سكانه لصالحها، في حال تمكن القوات الإيرانية من إحكام سيطرتها على المنطقة، وهذا ما دفعها إلى مواصلة الضغط على هذا القاطع،

وهذا بدوره أنشأ حاجة ملحة إلى دفع المزيد من المقاتلين إلى جبهات القتال، مما أدى إلى تقليص مدة التدريب إلى شهرين ونصف، بعد أنْ كان مقرراً لها ثلاثة شهور، وبذلك تم حذف بعض التمارين الأساسية، وهو النقص الذي أحسسنا بوطأته حينما انتقلنا إلى مواقعنا الدفاعية، في جبهة حرب تزيد على ألف ومئتي كيلومتر تشتعل على مدار الساعة بأشرس المعارك، ويتكبد الطرفان فيها خسائر كبرى، كانت في العراق ثقيلة على قيادتها السياسية بقدر ثقلها على ذوي الضحايا، ولكنّ إيران التي يبلغ عدد سكانها ثلاثة أضعاف سكان العراق، كانت تتعامل بقلة اكتراث مع خسائرها البشرية خاصة، بل وتنظر إليها باهتمام أقل من خسائرها المادية، وخاصة في الأسلحة والمنشآت الحيوية، ولا سيّما موانئ تصدير النفط وتكريره، والمقاتل وفق نظرة الولي الفقيه، ليس أكثر من آلة تحركها قيادته الدينية للوجهة التي تراها، وتقول: إنّ من يقتل فهو شهيد، ولهذا لم تكترث لآلاف من الذين دفعت بهم عنوة أو بعد جلسات شحن عاطفي ونفسي تذهب بهم بعيداً عن مواقع الإدراك، فيتحرّكون بآلية عمياء من دون معرفة حجم الأخطار المحدقة بهم، لفتح حقول الألغام بأجسادهم من الصبية الصغار الذين لا يعرفون ما هو الواجب المكلفين بتنفيذه.

وما كاد يوم الثلاثاء السادس عشر من آذار/مارس ١٩٨٢ يطل على المعسكر بفترة التدريب إلا وكانت أنباء التحرك إلى الجبهة في اليوم التالي قد انتشرت بسرعة كبيرة، كان قاطع الفكة هو وجهة لوائنا الذي بدأ استعداداته للحركة فجر اليوم التالي، ووضعت خارطة الطريق الذي سنسلكه، وعند مرورنا في بغداد ذهبت إلى مدرسة العدل الابتدائية التي تعمل فيها زوجتي كمعلمة، بعد توديعها وبقية المعلمات، واصلت طريقي، ولم أتمكّن من النظر

إلى عينيها لأنني كنت لا أريد رؤية دمعة واحدة في وداعي، وربما قالت لي بأن التوجه إلى الجبهة بات حقيقة واقعة، ولأنّ التحرك بأرتال عسكرية يستغرق وقتاً أطول، فقد استغرقت الحركة أكثر من اثنتي عشرة ساعة، حينما وصلنا مدينة العمارة، كان المطر يهطل بغزارة، من هناك حاولت البحث عن أحد أشقائي وهو محمّد، الذي كان قد أكمل خدمته العسكرية الإلزامية منذ مدة طويلة، ولكنّه لم يسرّح منها وواصل خدمة الاحتياط في إحدى وحدات الهندسة العسكرية، والتي تتخذ من العمارة معسكراً لها، كنت أعرف أنّ المعسكر يقع قرب الجسر الكبير الذي يربط بين ضفتي دجلة في المدينة، ومضيت إلى هناك حيث الظلام الدامس يخيم على المنطقة، لا يبدد جزءاً منه إلا برقٌ يومض وسط المطر الغزير، وعن بعد لاحظت ثلاثة أشباح سوداء تتحرك أمامي، لم أتمكن من إنارة مصابيح السيارة بسبب فرض نظام التعتيم الشامل في الشوارع وقرب الجسور، اقتربت من الأشباح الثلاثة، وحينما أنزلت زجاج السيارة وألقيت عليهم السلامَ، وقبل أنْ أبادر للسؤال عن أخي، إذا به يقفز إليّ مُرَحِّباً بحرارة، يا لها من صدفة قد لا تحدث حتى في الأفلام الهندية، ثم مضينا معاً إلى آمر الوحدة الذي رحّب بي بحرارة، كان معي في تلك الزيارة السيد رعد حماد شهاب وكان يعرف آمر السرية، الذي تحدث إلينا عن استعدادات كبيرة تعدّها قيادة الفيلق الرابع للقيام بهجوم إجهاضي في قاطع العمليات، لأن الإيرانيين يحضّرون لهجوم كبير، استطاعت الاستخبارات العسكرية الوصول إلى تفاصيله الدقيقة من محاور التقدم وساعة الصفر عبر وكلائها المزروعين في أدق المفاصل القيادية في إيران، وقال: إنَّ كلمة السرّ في الهجوم الإيراني ستكون: «يا زهراء»، طبعاً ظننا أن هذه المبالغات التي طرحها النقيب تحاول القول بأن استخباراتنا

لديها من الوسائل ما تستطيع به الوصول حتى إلى كلمة السر التي يبدأ بها الهجوم الإيراني الشامل، والتي عادة ما يتم إقرارها من أعلى المراكز القيادية، ولكنني بعد أن وقعت في الأسر تأكدت من دقة معلومات الضابط العراقي الذي يبعد مقر وحدته عن الجبهة بنحو ١٠٠ كيلومتر، وعجبت لبلد يستطيع تحقيق هذا الخرق ولا يستطيع اتخاذ الاستعدادات الكافية لسحق الهجوم، على العموم لم أطل البقاء فودعتهم وكان محمّد آخر شخص من أفراد أسرتي أراه قبل أن أذهب في رحلة الأسر الطويلة، حينما عدت إلى مركز تجمع اللواء كان الجميع في شغل دؤوب لاستكمال خطة الوصول إلى مواضعنا قبل الشروق، كي نجنب أنفسنا ومواضع القطعات العسكرية الأخرى ضرراً قد يلحق بها إذا ما رصد العدو تحركات غير اعتيادية في الموضع الدفاعي.

في اليوم التالي، تم توزيع سرايا اللواء ١١ مهمات خاصة، على وحدات الجيش العراقي المرابطة في القاطع، بواقع سرية مع كل فوج، وكان نصيب سريتنا مع السرية الأولى من الفوج الآلي ١٥، كان آمر السرية، وهو النقيب سامي سليمان، يحمل خلقاً رفيعاً وأدباً جماً، وحاول جهد طاقته التخفيف عن سريتنا أعباء معركة يعرف جيداً أنّها لم تعدّ لها على النحو الأكمل، وكان يرى في تشكيل ألوية المهمات الخاصة خطأ كبيراً، وأنّ الكثير من ضباط الجيش العراقي أساؤوا فهم دور هذه الألوية، وخططوا لتكليفها فوق ما تطيق، ولهذا ذهب بعضهم إلى جعل السرايا التي تجحفلت مع وحداتهم، كمصدات تحمي مقدمة وحداتهم، أي أنّهم وضعوها في الخسائر.

كان موضعنا في جبل المشداخ، ذلك الجبل الوعر، والذي فيه من القطوع ما يجعل أكثر الناس معرفة به يتيه فيها، لولا

الاستدلال بأسلاك الاتصالات الهاتفية التي نصبها الجيش لتغطية حاجاته الميدانية، فأصبحت دليل مواصلات وخطوط اتصالات في وقت واحد.

بعد أنْ استقر بنا المقام في المنطقة تم إبلاغنا بالواجب المناط بنا، وهو القيام بهجوم إجهاضي، لهجوم كانت القوات الإيرانية تعدّ له على قاطعي الشوش ودزفول، تم تحشيد قطعات لم تكن قد أخذت ما يكفي من التدريب للقيام بواجب على النحو الذي رسم لها، فالعملية كانت بحاجة إلى وحدات منتقاة من قوات النخبة وعلى أعلى مستوى من التدريب، ويبدو أنّ التنافس للحصول على امتيازات النصر، أو لأقل المتاجرة بمصائر المقاتلين، من قبل بعض القيادات الميدانية، كان يقف وراء قرار الهجوم الإجهاضي، فكل قائد ميداني كان يريد إثبات جدارته أمام الرئيس صدام حسين، والحصول على امتيازات النصر المتحقق، خاصة وأنّ ظاهرة مكاسب النصر التي رافقت العمليات التي شهدتها جبهات الحرب تحوّلت إلى عامل مساعد لقيام المقاتلين بواجبهم، يضاف إلى نداء يعتبره الكثيرون نداء الواجب الوطني، ولا سيما أن الحرب أخذت مدة أطول بكثير مما توقعها الجميع.

ذهب القادة الميدانيون في قاطع عمليات العمارة، أو هذا ما كان سائداً، إلى الاعتقاد بأنّ هجوماً استباقياً يمكن أنْ يحبط الخطط الإيرانية، كانت تفاصيل الخطة تقتضي التعرّض لأهداف تم تحديدها سلفًا، على أنْ تكون ساعة البدء به الساعة صفر من يوم التاسع عشر من آذار/ مارس ١٩٨٢ ، وتقدمت أرتال من الرجال الذين تمت المقامرة بمصائرهم، كجزء من تنافس غير متكافئ بالرتبة من جانب، وغير متكافئ في اعتبارات أخرى من جهة ثانية، بين هشام صباح الفخري قائد الفيلق الرابع، وثابت سلطان التكريتي قائد الفرقة العاشرة.

كان الهجوم الإجهاضي حتى من وجهة نظر مدنية مغامرة فاشلة، فبدلاً من أنْ يمنح القادة العسكريون قواتهم فترة راحة لمواجهة القوات المهاجمة من موضع دفاعي حصين، فإنّهم أخرجوا القوات العراقية من مواضعها من دون سبب وجيه، لتفقد الكثير من رجالها وأسلحتها والأهم منهما معنوياتها، ثم لتواجه بعد يومين فقط هجوم القوات الإيرانية في أوسع عمليات لها حتى ذلك الوقت، أطلق عليها الإيرانيون رمز «الفتح المبين» وبدأت بكلمة السر «يا زهراء»، وتوسّع الإيرانيون باعتماد هذا النمط من التحشيد الديني الذي يأخذ أبعاداً مذهبية.

وقبل أنْ أترك الهجوم الإجهاضي المفترض، والذي أوقف بشكل فجائي بعد ظهور علامات فشله، أجد أنّ الأمانة تقتضي الإشارة إلى أنّه خلّف خسائر جسيمة، خاصة في صفوف ألوية المهمات الخاصة، فعلى سبيل المثال لا الحصر، فإنّ السرية الأولى من اللواء ١١ مهمات خاصة الذي كنت أنتسب إليه، قدمت ثمانية شهداء ليلة ١٨ على ١٩ آذار/مارس ١٩٨٢ وحدها، هذا بخلاف عشرات الجرحى الذين أخرجوا من المعركة، ولم يكن ميسوراً إخلاء الشهداء أو الجرحى نهاراً، كان علينا الانتظار حتى حلول الظلام للقيام بتلك المهمة، واقع الحال كان يؤكد أنّ الجيش لن يستطيع تقديم المساعدة لنا لأنّه يعمل على إعادة تنظيم موضعه الدفاعي الذي تعرض لكثير من الفوضى، ولم نكن على دراية بمهمات كهذه من جهة، ولا بمسالك جبل المشداخ الوعرة من جهة أخرى، هذا أدّى على ما أظن إلى وفاة بعض الجرحى وما أنْ حلّ الظلام مضيت ومعي رعد حماد شهاب وفؤاد صفر، وبدافع أخلاقي طغى على الاعتبارات الأخرى، في «مجاهل» المشداخ اللعين، واصلنا البحث حتى ساعة متأخرة من تلك الليلة، عثرنا

على ثلاث جثث فقط وسط ظلام حالك، مع كثير من ضعف البصر الذي أعانيه منذ الصبا، الآن أمامنا مشكلة أخرى وهي نقل الجثث قبل بزوغ الفجر، لم تكن لدينا حمالات، ولم يكن كل واحد منا قادراً على حمل جثة بمفرده، ومع ذلك فقد نجحنا في نهاية المطاف بإخلاء الشهداء، وفي تشابك هذه التعقيدات المتراكبة، كان موضع سريتنا قد تغيّر، وتمت إعادتنا إلى المقر الخلفي، وتجحفلنا هذه المرة مع الفوج الثالث لواء ٩٦، والذي كان بإمرة العقيد الركن نريمان بكر سامي، وهو كردي سبق أنْ التحق بالحركة الكردية، وأعيد إلى الجيش وألحق بكلية الأركان العراقية التي كان يقال حينها إنّها لا تقبل في الانتساب إليها إلا البعثيين فقط، وما كدنا نستقر في المقر الخلفي إلا وصدرت إلينا الأوامر مجدداً بأخذ موضع دفاعي في جبل المشداخ.

عصر يوم الثلاثاء ١٩٨٢/٣/٢٣، وحينما كنّا في موضعنا الدفاعي الجديد، جاء أحد الضباط، وبعد أنْ سلم علينا خصّ السيد رعد حماد شهاب بسلام خاص، وطلب منه التهيؤ للذهاب معه لأمر عاجل، وبعد أنْ استحصل موافقة آمر لوائنا، اللواء الركن دخيل الهلالي، غادرَنا مع الضابط الذي حضر لهذا الغرض، ولم أرَ السيد رعد حماد شهاب منذ ذلك الوقت حتى عودتي إلى العراق من أسر استمر عشرين عاماً.

أثرت هذه التحركات العشوائية ـ وفق ما نتصور ـ في قدرات المقاتلين ومعنوياتهم، لأنّ الانتقال من المقر الخلفي إلى الموضع الدفاعي يتطلب وقتاً لا يقل عن أربع ساعات مشياً على الأقدام، وما كدنا نصل إلى المكان المحدد، ومن دون التعرف إلى الآمرين الجدد الذين سنعمل معهم إلا وكانت ساعة الصفر للهجوم الإيراني قد بدأت من دون إعطائنا فرصة التفكير بما علينا عمله

لمواجهتهم، بدأت النيران تنهمر علينا بغزارة، وبدأت أولى علامات تخلخل الموضع الدفاعي تظهر تباعاً، مما أغرى الإيرانيين لتطوير هجومهم على أساس ما تفرزه المستجدات الميدانية. كان جبل المشداخ في واقع الحال قد أصبح بحكم الساقط عسكرياً، لأنّ عملية إحاطة بعيدة قد نفذتها الدروع الإيرانية عبر منطقة الكثبان الرملية وفتحة الرقابية، بحيث تركت وراءها كثيراً من القوات العراقية المعزولة بلا إمداد أو إسناد أو وضوح في الموقف العسكري.

وحين لاح الضياء الأول من صباح الرابع والعشرين من آذار/ مارس ١٩٨٢، وجدنا أنفسنا مطوّقين من كل الجهات، ولم يعد بمقدورنا التراجع إلى الوراء، أو التقدم إلى الأمام أو إلى اتجاه آخر، بل إنّ البقاء على حالنا في الموضع الذي كنّا فيه سيغدو أمراً محفوفاً بمخاطر كبيرة جداً، ومع ذلك بقينا في أماكننا نقاوم بكل ما نملك من عناد وعتاد، لا الآمرون العسكريون قادرون على أخذ قرار يمكن أن يخفف من حجم الخسارة، ولا القيادة العسكرية لقاطع عمليات العمارة تعرف ما يجري وراء الأفق، ولا بغداد وضعت في صورة ما جرى، الكل أصيب بشلل تام منعه من التصرف المناسب في الوقت المناسب، هكذا كان حالنا، وكي أكون منصفاً مع نفسي ومع الذين عاشوا ظروف هذه المأساة الإنسانية، فإنّني أقرّ بأنّ لواءنا (اللواء ١١ مهمات خاصة)، والذي وصل إلى المنطقة التي كان يراد له أنْ يقاتل فيها يوم الأربعاء ١٧/ ٣/ ١٩٨٢ لم تتح لأي من أفراده التعرف إلى الأرض وتضاريسها، أو خرائط مواضعنا الدفاعية، أو مواضع العدو، ولهذا أرى من التجنّي تحميله أو تحميل أي من أفراده ومن دون استثناء أية مسؤولية في ما وقع، فالمعركة كانت معركة فيالق، وليست معركة

لواء متطوعين متحمسين لا يعرفون إلا القليل من فنون القتال، وسقط أفراد اللواء بين قتيل وجريح وأسير ووقعت أيضاً في الأسر يوم الأربعاء ٢٤/٣/١٩٨٢، وبقدر تعلّق الأمر بي شخصياً، لم أتمكن من تحديد الاتجاهات الأربعة في المنطقة التي قاتلنا فيها على الرغم من أننا بقينا فيها لمدة أسبوع واحد، وقد يشاركني في ذلك معظم الذين حملوا بنادقهم بإرادة وعزم، ولم تسقط بنادقنا إلا وهي بأعلى درجات الحرارة، وبقي الجميع على هذه الحالة حتى اللحظات الأخيرة من الحياة، أو حتى اللحظات الأخيرة من الحرية.

ويبقى في الذهن تساؤل: لماذا تأخّر الإيرانيون في التقدّم إلينا كل هذه الأيام خاصة بعد أنْ حسموا معركة دزفول، هذا السؤال طرحه العقيد عبد الله نجفي قائد الفرقة ٧٧ الإيرانية، في حديثه اللاحق مع الأسرى في دار السينما الموروثة من زمن الشاه في منطقة هفت تبة (أي التلال السبعة) والمملوء بالغطرسة الفارسية الحمقاء يوم زارنا في ٢٧/٤، حينما قال بالحرف الواحد: «لقد دوَّخنا العراقيون حينما أبقوا على الفرقة الأولى في مواضعها في الشوش على الرغم من سقوط دزفول، وهذا ما دفعنا للتريث في إدامة زخم الهجوم، لأنّنا توقعنا أنّ العراقيين يعدون لهجوم مقابل كبير، ولما لم يفعل العراقيون شيئاً لعدة أيام قلنا: إنّ التوقف مقتل المقاتلين، إذن علينا الاستمرار بخطتنا المرسومة مهما كانت النتائج، وهكذا انتقلنا إلى تنفيذ عمليات الشوش».

كان لديَّ إحساس داخلي يلح عليَّ بأنّ شيئاً سيئاً وكبيراً سيقع لي، كنت أرتاب من يوم الأربعاء من دون سبب معلوم، ولكنّني لم أكن لأتصور أنّ الأسر هو نصيبي، كنت قد قدمت افتراضات أخرى، ولكنّ الأسر لم يخطر لي على بال، وأين؟ في إيران!

ولم أكن لأتصور أنّ العراق سيتعرض لهذه المحنة الناجمة عن زلزال عسكري حاق به، فالجميع كانوا يعرفون أنّ إيران تحضّر لهجوم شامل على قاطعي الشوش ودزفول، وكما قلت في موضع سابق، فإنّ آمر سرية تجسير برمائيات مقرها في العمارة ـ كما مرّ الذكر ـ وهو برتبة نقيب فقط، وعندما زرته بحثاً عن أخي محمد الذي كان أحد منتسبي تلك السرية قال لي: إنّ الهجوم الإيراني الواسع سيقع متزامناً مع أعياد نوروز، بل ذكر لي الرمز الذي ستطلق به تلك العمليات وهو: «يا زهراء». نعم إلى هذا الحدّ كانت معلوماتنا دقيقة عن خطط الإيرانيين، ولكنّ ردود أفعالنا عادة للأسف الشديد قاصرة عن الارتقاء إلى مستوى الفعل، أو متأخرة عن ذلك بكثير، كان الخلل كبيراً وكانت مساحته واسعة إلى أبعد الحدود.

كان ضغط المعارك قوياً على القادة والآمرين، ولأنّ القيادة السياسية العراقية صمّمت بحزم على كسب الحرب مهما كان الثمن، فقد واجهت أي مظهر للتراخي أو الغفلة في التعامل مع الخطر الإيراني عموماً، وخطر العمليات العسكرية الكبرى التي تنفذها القوات المسلحة الإيرانية بشكل خاص بأعلى درجات الحزم. كان يبدو لغير الملمين بخلفيات الصراع مبالغاً فيه، ومن هنا يمكن أنْ نجد تفسيراً لأحكام الإعدام الميدانية التي نفّذت على عجل في بعض الأحيان، بالذين لم يتمكنوا من صد هجمات الإيرانيين، إما لتهاون في الاستعدادات، أو لأسباب أخرى ترتبط بتفاوت القدرة على اتخاذ الموقف الصحيح وقت الأزمات الكبرى، هذا كله أشاع أجواءً من عدم الوضوح في العلاقة بين القادة العسكريين وفق تسلسلها بالقدم العسكري الصارم، وحيثما وقع خلل في أحد قواطع العمليات، أو موضع من مواضعه، كان

التفكير ينصرف بشكل فوري إلى البحث عن كبش فداء تعلّق على رقبته أسباب الفشل.

كان معظم القادة الميدانيين يبذلون غاية جهدهم لإرضاء قياداتهم العليا وصولاً إلى القيادة العامة، لأنّ الجميع يعتقد بأنّ هذا المكان في ظلّ ظرف الحرب الاستثنائي تجتمع عنده أسباب الغنيمة، أو محاضر الحساب الصارم. وذهب البعض من القادة والآمرين إلى غايات بعيدة في التعامل مع مفردة الخوف من التقصير، وهذا بدوره أدى إلى بروز ظاهرة التنصل من تبعات الإخفاق وتعليقها حول رقاب الآخرين، وقد يكون الخوف من الإخفاق في المعركة وانتظار الحساب من بين أكثر الأسباب التي أدت إلى النكسات التي تعرضت لها جبهات الحرب، على الرغم من أنّ القيادة السياسية لم يكن أمامها خيارات واسعة للتعامل مع مثل هذه الأحوال.

ويمكن تحميل ظاهرة التنصل من المسؤولية، مسؤولية الإعدامات الميدانية لبعض القادة والآمرين بعد كل معركة خاسرة، ولو أنّ الدراسة الموضوعية كانت حاضرة في معرفة أسباب الإخفاق من أجل معالجتها، وعوامل النجاح من أجل تطويرها، لما برز الغضب الشخصي سيداً للأحكام، ولما تم إعدام الكثيرين لأخطاء لم يرتكبوها، أو لأخطاء لم تقع أصلاً أو لإخفاق يمكن أنّ تكون عقوبته السجن أو الإحالة على التقاعد، أو إنزال الرتبة، ولا أشك أبداً أنّ الخوف من النتائج ساعد الإيرانيين في هجماتهم كثيراً أكثر من شجاعتهم أو فطنتهم العسكرية، وفي الوقت نفسه ترك خوفاً من الحساب، مما أفقد القوات المسلحة بعض حماستها القتالية، خشية الوقوع في الخطأ، أو المحاسبة لخطأ لم يقع، وهذا ما نجد تفسيره في القرارات التي صدرت بعد تنفيذ أحكام

الإعدام في اعتبار بعض الذين اتهموا بالجبن أو التخاذل أو الهرب من ساحة المعركة شهداء للقادسية، ويرتبط بعض أسباب جزء من مثل هذا التحول باعتبارات نفسية واجتماعية، تتصل بامتدادات أسر من تمّ تنفيذ أحكام الإعدام بهم، يضاف إلى ذلك مراعاة الحقوق المالية اللاحقة لعائلة من يحمل صفة الشهيد.

هذه الصور كانت حاضرة في الذهن وإنْ بدرجة أقل شأناً مما هو قائم، غير أنّ افتراض الكمال في ما يحصل في جبهات الحرب افتراض يفتقد إلى الواقعية، لأنّه لا يستند إلى أساس، لا بدّ من وجود حلّ وسط بين الحسن المستحيل، والقبيح المرفوض، وحينما أقول: إنّ هذه الصورة لم تكن حاضرة بدرجة الوضوح نفسها في الحوارات الداخلية مع النفس والآخرين، خلال مرحلة الأسر في المعسكرات الإيرانية، فإنّ عندي من شواهدها الخاصة ما يدعم تصوري لمثالية ما في اندفاع الرجال إلى جبهات القتال أو فيها، وهنا تحضرني قصة إصابة أخي جمال، وكان جندياً في أحد أفواج اللواء العشرين في أثناء معركة قوية مع الإيرانيين في قاطع البصرة وكانت إصابته بالغة، وقد منح على أثرها إجازة مرضية وإكرامية مالية مناسبة، حضر إلى منزلي في بغداد بطريق عودته إلى سامراء، وحينما انتهت إجازته أخذه صديق لي إلى مستشفى الرشيد العسكري وتم تمديد الإجازة، ولمّا تكررت الحالة للمرة الثالثة انتفضت بوجهه وطلبت منه قطع إجازته على الفور والالتحاق بفوجه في الجبهة، فما كان منه إلا أنْ يخفي غضباً وراء ابتسامة غامضة، وقال: يا أخي هذا هو حال الجميع، لا أحد يفرط بإجازة تأتيه إلى عتبة داره.

وهناك واقعة أخرى قد تكون أبعد مدى في النظرة المثالية المفرطة إلى مسار الجهد المبذول لإسناد جبهات الحرب

بالمقاتلين، والقضية ترتبط بي شخصياً، فحينما تطوعت في ألوية المهمات الخاصة، كنت أصلاً منخرطاً في قواطع الجيش الشعبي المعدة لإرسالها إلى المناطق الأكثر حاجة إلى جهدها، ولم أدفع بأي عذر مما أمتلك من الأعذار المشروعة التي تعفيني من أي واجب من هذا القبيل، لقد عزمت على الأمر، واتخذت استحضاراته حتى النهاية، وفي تلك الفترة أيضاً كنت أشغل منصب مدير عام دائرة الإعلام الداخلي، وكنت قد استكملت إجراءات السفر، رئيساً لوفد العراق إلى مؤتمر اليونسكو الدولي الذي كان مقرراً أنْ يُعقد في عاصمة المكسيك، ومن هناك كنت سألتحق بالوفد العراقي لاجتماعات اللجنة العراقية الموريتانية المشتركة، للتعاون الاقتصادي والفني والتي يرأس جانبها العراقي السيد محمد فضل الحبوبي وزير الأشغال والإسكان حينذاك وكنت عضواً أصيلاً فيها وممثلاً للوزارة فيها، والتي كانت ستعقد في العاصمة الموريتانية نواكشوط، ووصل الأمر بالاستعدادات أنّ أخي مأمون وسكرتيري الخاص داود الزبيدي، استخرجا جواز السفر وتأشيرات الدخول (فيزا) في الدول التي أحتاج إلى المرور فيها وصولاً إلى مكسيكو سيتي، كما قاما بتحويل المبالغ اللازمة لي لهذه السفرة إلى مؤتمر مهم وبلد يغري كثيراً بدوافع السفر، ولكنّني وفي لحظة الاختيار الحاسم، ذهبت إلى وزير الثقافة والإعلام، السيد لطيف نصيف جاسم الدليمي، واعتذرت عن السفر مع رسالة موثّقة بهذا الخصوص، لأنّ الواجب الوطني والقومي، يدعوني إلى أنْ أكون في مكان آخر، وليس في المكسيك أو موريتانيا.

وإزاء تهرب البعض من المسؤولية كانت المرارة تملأ الحلق، ولكنّ المعركة وبصرف النظر عما يقع فيها من مخاتلة أو قتال بالنيابة، من الذين يريدون القتال بسواعد غيرهم، والتضحية بدماء

الآخرين، فهي معركة مصير يتحدّد فيها وجه العراق العربي، فإمّا أنْ يكون هكذا أو لا يكون أبداً. نعم كنّا نعرف من هم أولئك الذين تختلق لهم أعذار التنصل، ومن هم الذين يمتلكون الأعذار الحقيقية، ولكنّ البعض منهم يذهب إلى الحرب مختاراً، والبعض الآخر يساق إليها، والكل حينذاك يتساوى في مواجهة أحد الخطرين: الموت أو الأسر.

هكذا كنت أفكر، ولم أفقد المرتكزات الوطنية والمبدئية لحتمية وقوف العراقيين ومعهم العرب في خندق واحد بمواجهة النوايا الشريرة لإيران، ليس ضد العراق فقط وإنما ضد الوطن العربي، وصفحته الأولى الخليج العربي، وهكذا افترضت موقف الجميع، حتى من يختلف مع حزب البعث العربي الاشتراكي، أو لا ينظر بارتياح إلى الرئيس صدام حسين.

على العموم وكما قلت بدأ إطلاق النار على موضعنا الدفاعي في جبل المشداخ حوالى الساعة العاشرة من مساء يوم الثلاثاء ١٩٨٢/٣/٢٣، كان الرصاص ينهمر علينا من كل جانب وبغزارة، في واقع الحال، حينما أقول موضعنا الدفاعي، فإنّني أتجاوز كثيراً على العلم العسكري، ذلك أنّنا لم نتمكّن من إقامة المواضع المحصنة والمتاريس التي تحمينا من القصف المدفعي وقذائف الهاون، بل حتى الأسلحة الخفيفة، لذلك كانت مهمة المقاتلين العراقيين مهمة شاقة جداً، بل قد تكون المهمة المستحيلة بمواصفاتها حينذاك.

كان الظلام شاملاً، ونتيجة ضعف بصري فقد طلب زملائي مني، ومن أجل الاقتصاد في العتاد والذي قارب على النفاد، أنْ أتوقف عن الرمي، كان الجميع في شغل كبير لأنّهم على مسافات

متساوية بين الحياة والموت، بين النصر والهزيمة في تلك المعركة على الأقل، وسط هذه الأجواء أحسست بسائل دافئ ينساب فوق كفي الأيسر، وألم شديد لم أتبين حقيقته في ذلك الوقت.

حينما مددت يدي اليمنى لإسعاف اليسرى بما لدي من خرق، ألفيت أنّ إصبع الخنصر يكاد أنْ يكون معلقاً بكفي، وأنّ الدم ينزف من ظاهر كفي، إذن وجدت أنّ الإصابة أكبر مما كنت أتوقع، حاولت وحاول رفاقي معرفة ما حصل بدقة، أحد الضباط نبه إلى أنّ إشعال عود كبريت يعتبر مجازفة مميتة في هذه الحالة، كم كانت الساعة حينذاك، لا أحد يدري ولا أحد يستطيع مجرد النظر إلى ساعته... بدأ الوقت يسير ببطء شديد، وبدأ الفجر يزحف حثيثاً، وحينما أسفر الصبح عن وجهه من وراء الأفق، اكتشفنا فاجعة قد حلّت بموضعنا، فنحن مطوقون من جميع الجهات، جثث شهدائنا متناثرة في أرجاء المنطقة، كان أحد الشهداء يرقد قريباً داخل موضعنا الصغير، ربما قتل بنفس قذيفة الهاون التي أصابتني، ولكنّ المحير أنّ الفوضى التي عمّت المكان لم تدع أحداً ينتبه لذلك، كان الرمي من الأسلحة الخفيفة ما يزال مستمراً وإنْ كانت حدّته قد تقلصت كثيراً، ومن بعيد كانت رشاشة رباعية عراقية قد اقتلعت من مكانها، ولم يعد يرى أحدٌ من الجنود الذين كانوا في موضعها، ولكنّ بعض الأشلاء تناثرت في محيطها، فالموضع تم استهدافه بقذيفة آر. بي. جي. سفن (R.B.G.7).

وتدريجياً كان الرمي يقترب من نهايته، ولأنّ المقاتلين في هذا القاطع كانوا خليطاً من الجنود الجدد والشرطة والجيش الشعبي، وكلها قوات ضعيفة التدريب، أو غير مدرّبة أصلاً، وتمَّ جلبها على عجل، فقد كان طبيعياً تكبّدها خسائر غير متوقّعة، بل ربمّا تم وضعها جميعاً ضمن الخسائر، ولمّا لم يكن للمقاومة أي تأثير في

مجرى المعركة، بسبب تطويق الموضع الدفاعي بكامله، فقد كان طبيعياً أنْ تسلم مجاميع من هؤلاء المقاتلين نفسها، ولم يكن متاحاً معرفة صورة المأساة إلا بعد عدة أيام حينما استكملت مأساة الشوش بمأساة دزفول، والتي وقعت في ٢٧/ ٣/ ١٩٨٢.

وأرجع إلى اللحظة الفاصلة بين الكرامة وضياعها لعشرين عاماً، كان ذلك في ٢٤/ ٣/ ١٩٨٢، ففي حوالى العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين من ذلك الضحى الدامي والأسود، كنّا نتقدم برتلٍ الواحد وراء الآخر، كان عددنا في تلك البقعة حوالى أربعين شخصاً، بين صبي لا يتجاوز الرابعة عشرة من العمر وشيخ تعدّى عمره الستين، كان الجنود الإيرانيون، أو حرس الثورة يتكلمون بلا انقطاع، لم نكن نفهم شيئاً مما يقولون، وعدنا إلى لغة الإشارات، فهمنا أنّهم يريدون منّا أنْ نتقدم على أنْ نحافظ على مسافة لا هي بالقريبة التي تسمح لنا بالتخاطب، الذي قد يشكل خطراً على الجنود الإيرانيين، ولا هي بالبعيدة التي تحتاج إلى حراسات كثيرة، لم يكن ميسوراً توفيرها حينذاك، وكنّا كلما تقدّمنا إلى المجهول التحق بنا آخرون من سيئي الحظ والمنكودين، وفجأة علا الصياح من الحرّاس الإيرانيين، ثم انطلقت رشقة رصاص من بندقية آلية من نوع ج٣، سقط ضابط مضرجاً بدمه وفارق الحياة على الفور من دون أنْ يبكيه أحد، لأنّ الجميع هو مشروع لميتة مماثلة، كان الرجل سيِّئ الحظ لأنّه نسي في أجواء اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت، نزع مسدسه من حزامه، ولأنّه كان ضابطاً، وحينما كان يتحرك رافعاً يديه، كما هو حال الجميع، عاجله أحد الحراس الإيرانيين بزخةٍ من رصاص بندقيته الآلية.

لم أعرف في حياتي معنى للعطش كما شعرت به في ذلك اليوم التعيس، كان يوم الأربعاء وهو عندي من الأيام التي كنت

أتعامل معه بكثير من عدم الارتياح، آهٍ لو ألقي بنفسي في دجلة لأرتوي من مائها القدسي، وربما فاقم عطشي ترقبَ موتٍ مماثل لما تعرض له الضابط الشهيد، وعلى الرغم من التشدد الصارم في منع الأسرى من التحدث مع بعضهم، إلا أنّهم تناصحوا فيما بينهم لنزع أي سلاح قد يكون أحدهم نسيه، لأنّ السلاح يثير مخاوف الحرّاس الإيرانيين أكثر بكثير من حديث متقطع بين أسرى جدد، لم يعرفوا بعد ما هي الممنوعات على الرغم من كثرتها، ودفع كثيرون من العراقيين حياتهم وبقيت جثامينهم فوق جبل المشداخ، لمجرد الانتقام وخاصة من ضباط الجيش العراقي من قبل إيرانيين متعطشين للانتقام، تمتمت بالشهادتين وتساوت عندي كل الاحتمالات، وتوكّلت على الله، وتقدّمت يسبقني قليلون ويعقبني كثيرون، ولكنّ اللحظة التي نقلتني من عزّ الحياة إلى ذلها، مرت كما أراد الله لها، وتداعت في مخيلتي صور السفر الملغى، بدأت حدة الألم في يدي اليسرى ترتفع مع الوقت، ولكنّ ألم الظرف الناشئ كان يتصارع في داخلي مع ألم كفي، أحسست وكأنّ مسيرة الضياع قد بدأت، حينها بدأت أسترجع شريط حياتي، وهذا شأن كل من يقع في مصيبة تزلزل كيانه، وخاصة في المراحل الحرجة وهي الدقائق والساعات والأيام الأولى، أول ما ينتاب من هو بوضعي، هو شريط الماضي بحلوه ومره يمرّ سريعاً، وتتداخل فيه الصور، في بعضها ألم لما حصل، وهذا شأن كل من يمر بمحنة كهذه وأية محنة، ترى كيف ستتلقى والدتي النبأ، وهل ستطيق ذلك؟ والدتي التي فقدت الكثير من أولادها، مثنى، ونافعاً، وعبد الودود، ثم عليّاً ابن الثانية عشرة من العمر، فهل سيلتحق نزار بقائمة من رحل؟ لا بدّ من أنّها تساءلت مع نفسها أو بصوت عال مع نشيج مرير، ولا بدَّ من أنّها ستسأل عما إذا كان سيعود؟ ومتى يعود؟ أما

أبي هذا الشيخ الصبور الذي يأبى عليه إيمانه أنْ يظهر حزنه، كيف سيغالب مشاعره لحظة سماعه النبأ؟ وهو الذي قدّم للحرب أربعة من أبنائه ما زالوا يقاتلون بلا ملل، ومن ظَنَّه أبعدَهم عن أهوالها، إذا به أول ضحاياها من بين الأبناء، وما هو وقع الحادث على زوجتي؟ وقد تركتها وحيدة في الدار إلا من رعاية الله، ولم أتذرّع بها من أجل التنصل عن أداء الواجب، ترى ماذا ستقول؟ هل تعتقد أنني تركتها لمواجهة مقاديرها منفردة؟ وكيف ستواجه صعوبات الحياة وحدها؟ صور تمر وتختفي، وصور غيرها تبرز وتتداعى، آه لهول الذل ومهانة الأسر، آه من لوعة الخطوة الأولى على طريق ترجل فيه الرجال عن جياد الكرامة، ومع ذلك فلقد كانت الظروف أقسى منهم، وبعض من استشهد لم يكن يعرف أنه سيفعل ذلك، هناك الكثير من شهداء المصادفة وهناك الكثير ممن كان على استعداد لها، سلبت منه وألقي في مستنقع ذل الأسر، نعم إذا حاول العدو سلب الكرامة، فإنّه قد ينجح في الفعل المادي، ولكنّ الكرامة جوهرة نفيسة في نفوس الرجال، لن يتخلوا عنها وقت الاختبار حتى لو دفعوا حياتهم ثمناً لها. . . إنّ أحداً لم يختر الأسر طريقاً للنجاة لأنّه رديف الذل، صحيح أنّ البعض فضل هذا الخيار، وهؤلاء يندرجون تحت عناوين شتى، منها ما هو مفروض من دون إرادة ومنها الجبن وبعضها السأم من مضي عجلة الحرب في مسالكها، من دون أنْ تبزغ بارقة أمل بخلاص قريب، ومنها من يتقاطع مع أسباب الحرب، ولهذا فمن الصعب أنْ يصنّف الأسرى على لائحة واحدة.

كل هذا لا يغيّر من الواقع شيئاً، وليفكر كل أسير بالطريقة التي تحلو له أو تريحه، فالكارثة ألقت بظلالها على الجميع، وها هي حياة من نمط جديد تطلّ برأسها بقوة ومن دون استئذان، ومن

حقّ كل واحد أنْ ينحو المنحى الذي يريد، فلم يعد هناك ما يشدّ المواطن مع وطنه، إلا ما يحمله من التزام وقيم أخلاقية، ولعلّ هذا هو الامتحان الحقيقي لمعادن الرجال، وليس ما يدعونه «سيف القانون» كانت أسئلتي كثيرة وعميقة، بعمق الصدمة وحجم الدهشة، أحقاً أنا أسير؟ وإلى أين أسير؟ أم أنا في حلم مرعب؟ أمدّ يدي لأتلمس الجرح، فيتلاشى ألمه مع ألم رحلة العذاب التي لم يدر بخلد أكثرنا تشاؤماً أنّها ستطول إلى الزمن الذي بلغته، لم يذق أحد منّا طعم النوم منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة، وما نمته قبل ذلك كان يختلط بدوي القنابل.

كنّا نسمع أنّ طائراتنا تنفّذ من الطلعات الجوية ما لا يمكن إحصاؤه، حسناً، أين كانت عندما كنّا بأمس الحاجة إلى القليل من جهدها؟ وأين ألقت بأحمالها؟ هل في الأمر مبالغة أو كذب؟ ومن يكذب على من؟ هذه الأسئلة ما كان لها أنْ تطفو على السطح لولا مرارة الظرف الذي مررنا به، الشعور بالهزيمة إحساس من الداخل يمزق الصدر، والغريق يتشبث بقشة يظنها قادرة على إنقاذه من غرق مؤكد.

ترى هل تستطيع قواتنا المحمولة جواً أنْ تنفّذ عملية كبرى لإنقاذنا؟ وحتى هذا التساؤل هو إفراز لمعايشة أفلام السينما الأمريكية، يا لها من أحلام مريضة، فأمر كهذا لا يتسنّى حتى لأكثر الجيوش تطوراً في العالم أن تنجزه. وتداعت الأسئلة، ولم يبق سؤال بقصد البحث عن إجابة أو من دون البحث عنها إلا مرّ على الخاطر، ثم يتلاشى مع الضجر.

أي الهمَّين هو الأكبر في لحظات الانسحاق: الهمّ الشخصي لعذاب الذل والأسر والجوع وفراق الأهل، أم همّ الوطن المهدد

والذي تفجر الخوف عليه في الصدور فطفح فوق الأحداق؟ وهل انتهت الحرب بالنسبة إلى الأسير؟ مأساة تلتصق بالأخرى أو تجري وراءها، أحقاً تلاشت كل الآمال التي رسمتها لحياتي وهكذا دفعة واحدة وخاصة أنّني حتى قبل عدة شهور كنت أظن أنّني قد وضعت قدمي على بداية الطريق، وإذا بهذا الطريق ينتهي بقطع من شاهق إلى واد سحيق؟ وهل جاءت حينذاك يدٌ لتلقي بي من هناك إلى مصير مجهول أو مأساة معلومة؟ وهل امتدت يدٌ لتخلط حياتي بمزيج من الدم والجفاف؟

كنت أقطع خطواتي المتعثّرة في مسالك جبل المشداخ الوعرة بتثاقل مرير نحو مصير أعرف الكثير من صوره المأساوية، وانقطعت في تلك الساعات صلتي بالحياة، وعليّ أنْ أرتّب حياتي الجديدة مع الظرف الذي أنا فيه أو الذي سأعيشه، كانت على جوانب خط سيرنا عشرات الجثث لعراقيين وإيرانيين، وكان هناك بعض الجرحى، ومن يسعفه الحظ من العراقيين يقيّض له من ينجده ويضمّد جراحه ثُم ينقله إلى منطقة آمنة، فيها مراكز طبّية ميدانية، أما الإيرانيون فكانوا ينقلون تباعاً من قبل لجان إخلاء متخصّصة فهم المنتصرون في هذه المعركة وهم المسيطرون على تضاريس أرضها، في حين أنّ الجريح العراقي الذي تفوته صدفة العون الإنساني من المسعفين الإيرانيين الذين أصمّوا آذان الناس بالحديث عن إنسانية مزعومة، أو من عراقي آخر فإنّه ينزف بلا توقف حتى الموت، فالكثير من الضمائر تعلقت على مشاجب الدم والموت، وأحياناً الانتقام، من دون ثأر مباشر إلا لإشباع رغبة القتل، والتي تتحرك بآلية عمياء لتطفئ شهوة التلذذ بلون الدم عند من توفرت بيده أداة القتل وعلى الطريقة الإسلامية المدعومة بفتوى الولي الفقيه، فيسهم في التعجيل بمصير الجريح، ويرسله على الفور إلى

عالم الأبدية، هذا ما عايشته ورأيته بعيني في تعامل الحرس الثوري الإيراني، وحتى جنود الجيش الذين يحاولون الحصول على تزكية من الحرس بأنّهم لا يقلّون عنهم تفانياً في الدفاع عن «بيضة الإسلام» المهدّدة، فإنهم لم يتورّعوا عن الإقدام على تنفيذ جرائم لا تقل وحشية عن شقيقاتها جرائم أفراد الحرس، وهذا ما كان يغرس في النفوس أحقاداً من غير الممكن تجاوزها مهما طال الزمن بل قد تتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل، كنت أتساءل مع نفسي لماذا يفعل البعض ذلك وهم يدّعون أنّهم مسلمون؟ والإسلام يحرّم الإجهاز على الجريح، هذا ما مرّ بخاطري على الرغم من معرفتي الأكيدة أنهم لا يعرفون من الإسلام إلا الاسم وربما أحسّ البعض من الإيرانيين بهذا التساؤل الذي ظلّ يختلج في الصدور، فقال البعض منهم: إنّ الجرحى يتألمون ولا مجال لعلاجهم أو نقلهم، ولذا فإنّ قتلهم هو رحمة بهم، كان علينا تقبل كل ما يطرح علينا فلا خيار وقد تتوقد ضحكة مكتومة، فالكل مرشح أنْ يكون جريحاً وينال رحمة الحراس.

لم أعرف بالضبط كم من الوقت مضى، ونحن نسير إلى المجهول، ففي لحظة وصول الحرّاس إلى كل واحد ممن وقع في الأسر، كانت عمليات البحث في جيوب الأسرى، أو ما يلبسون من ساعات أو مصوغات، كنت أحمل مبلغاً من المال وساعة ثمينة، وجهاز راديو صغير ولكنّه من نوع جيد، انتزعها الإيراني مني على الفور، كان يسير أمامي ضابط برتبة نقيب في الجيش العراقي، تم انتدابه للعمل في ألوية المهمات الخاصة، هو النقيب طالب مناجد وهو من أبناء الفلوجة، وفي أثناء سيرنا، وكان عددنا يقرب من أربعين أسيراً، مررنا بعسكري عراقي ملقى على الأرض، هرول نحوه أحد أفراد الحراسات الذين كانوا يقودوننا في مسالك

المشداخ الوعرة، ووقف إلى جانب رأسه، وصوب فوهة بندقيته نحو هذا المسكين الذي كان يتلوى من الألم، عرفنا أنّ إصابته بين ساقيه، وأنّ إحدى خصيتيه قد بترت، وحصل تمزق حاد في المنطقة وكان يتألم ويستنجد، من حسن حظه أنّ أحد الحراس كان من عرب الأحواز، فتحركت في داخله أسباب الترابط العربي، وعطلت فتاوى القتل التي كانت تصدر من طهران وقم ومشهد بلا توقف، حينما وصلنا عنده مباشرة، تحادث الأحوازي مع الحرس المرافق لنا، أشار الأخير إليّ أنْ أحمله على ظهري، ماذا؟ وهل يقدر ظهر أثقلته هموم الساعات الأخيرة، وجرح كفّ اليد اليسرى، وسهر طويل أنْ يحمل شيئاً؟ لا بدّ من إسناده بتشبيك الكفين حتى يكون بالإمكان حمل شيء، وكيف سأشبك كفاً مع آخر معطل؟ كرر الحارس الإيراني الأمر، فهمنا أنّه يريد أنْ يقول: إذا كنتم تريدونه حياً فعليك أنت بالذات حمله، استجمعت كل ما أحمله من بقايا قوة، مع حافز لإنقاذ عراقي جريح، من دون أنْ أعرف اسمه أو المدينة التي ينتمي إليها، توكلت على الله، وأنا أكبر الأسرى في هذه المجموعة عمراً، وأنا الوحيد بينهم الذي كنت جريحاً، ولإحساس بوحدة الجرح كان يجب أنْ أضرب لهم مثلاً في التآزر والتعاضد في الظروف العصيبة، ولحسن حظي في هذا المقطع فقد كان الجريح نحيفا جداً، حملته بعد أنْ ساعدني النقيب طالب مناجد، ولقد حاول أنْ يحمله بدلاً مني، وطلب من الحرس الإيراني ذلك، ولكنّ الأخير أصر على أنْ أحمله أنا فقط، حينذاك تأخر طالب في السير وأصبح ورائي، كان الحمل يزداد ثقلاً مع مرور الوقت واستمرار المسير، وبدأت أفقد ما اختزنته من قوة، ولكنّ عزيمتي ظلت محافظة على رصيد يكفي لتحمل هذه المسؤولية، التي دونها قتل هذا الأسير الذي انقطع عن الأهل

والأصدقاء نعم كانت قواي تخور أمام الزمن، خاصة وأنّني نزفت الكثير من الدم، غير أنّ المسافة كلما طالت، كلما تعمقت عزيمتي بأنّ الباقي من الطريق يتقلص تباعاً، لكنّ طالباً لم يكن ليحتمل مشاهدة هذه المعاناة، وكذلك بقية الأسرى من دون محاولة تقديم العون لي في حمل الأسير، ولو لمسافة قصيرة، ولكنّ العسكري الإيراني حافظ على تصلبه.

طيلة الوقت كان الجريح لا يتوقف عن الدعاء لي بكل ما تعلمه من أمه، وعلى أبواب الأضرحة من أدعية، بالسلامة وطول العمر.. ووو.. كنت أشعر بصدقه في كل ما يتمتم به في أذني القريبة من فمه، ويلح على عدم التخلي عنه، ولأنّ الطريق التي كنا نسلكها تمر عبر مرتفعات جبل المشداخ ووديانه الوعرة، كان طالب مناجد، وحيثما كنّا نصل إلى منطقة تسلق فإنّه يدفعني بقوة إلى أعلى كي أتمكن من حمل نفسي وما أحمل، وفي مرة شارفت قدراتي على النفاد، طلبت إذناً باستراحة أسترد أنفاسي وشيئاً من قوتي، أنزلت الجريح برفق، ووضعته حيث لا يتألم، ولم أعرف كم مضى من الوقت قبل أنْ تصدر إلينا الأوامر باستئناف المسير، ولكنّني أحسست أنّها رمشة عين، وتساءلت مع نفسي، لماذا كان الزمن يمر مروراً سريعاً حينما نريد له أنْ يطول؟ ولماذا يطول زمن العذابات حينما نريده أنْ يمر مرَّ السحاب؟

وواصلت المسير، وبعد حوالى أربع ساعات، بين صعود ونزول في أخاديد المشداخ، وجلوس وسير، لاحت بارقة أمل بلحظة الفرج الآني، فالمرء يعيش أحياناً محنة تنسيه ما هو أصغر منها، بل أحياناً لشدة وطأتها تمنع مجرد التفكير بما هو أكبر منها، خاصة إذا كان ضغطها المباشر لم يبدأ بعد. ومن بين كل المعالم والشواخص برزت أمامي خرقة بيضاء تحمل هلالاً باللون الأحمر،

مرفوعة على سارية ملتوية فوق خيمة رثة، يا لها من لحظة عظيمة، إنّها بشارة خير لمن أوشك أنْ يتهاوى فتحامل على جرحه وجرح من يحمل على ظهره، بل هي ساعة عرس للمحمول أكثر منها لي لأنّه سيجد قليلاً من الضماد أو المسكنات، حينما أصل سأنتصر على بدني وطاقتي المحدودة، وبقدر أكبر سأنتصر على العسكري الإيراني ومن خلفه مؤسسته، حينما تعمد إيذائي بمهمة سأبقى أعتز بأنّني أنجزتها، وحينما أصل إلى الخيمة سأضع جندياً عراقياً وأتركه هناك، كنت أعرف أنّ الألم سينتهي في لحظة ما، ولكنّ السعادة بما فعلت ستبقى خالدة معي، ففي ساعات الأزمة في أثناء خطوات الأسر الأولى، وأنْ أعاني جرحاً نازفاً، تركته ورائي، تمكنت من إسداء خدمة لعراقي كان معلّقاً بين الموت والحياة، وكان بأمس الحاجة إلى يد تزحزحه عن خط التلاشي وتقرّبه من الأمل، وحتى لو أنّ الرجل فقد حياته بعد ذلك فإنّ تلك إرادة الله التي لا رادّ لها، ولكن المهم أنْ يباشر كل إنسان بما هو صحيح، وحسبي أنّني حاولت إنقاذ حياة عراقي من موت محقّق، وتركت ما وراء ذلك إلى الله ﷻ.

وصلنا إلى الخيمة متهالكين تماماً، بل ربما كنت في آخر ما اختزنته من طاقة، وتحادث الجنود الإيرانيون مع بعضهم، وبلغة الإشارات فهمت أنّ مهمتي انتهت عند الخيمة، جاء بعض الجنود وساعدوني بوضع المصاب على الأرض، ثم ضمّدوا لي جرحي، وهناك تركت الجريح العراقي، تمهيداً لنقله إلى المستشفى وعيناه ترنو نحوي بالشكر من دون أنْ يتمكّن من التحدث معي بعد ذلك، واصلنا مسيرتنا تحت حراسة مشدّدة، وحين وصلنا إلى أحد المقرات الخلفية للجيش الإيراني، تم توزيع بعض كسرات من خبز يابس، وشيءٍ من الجبن، وقليلٍ من التمر، آه أيها التمر أين كنت

عنّا؟ بل أين كنا عنك يا تمر العراق؟ الآن فقط عرفنا من أنت وماذا تعني للجياع، لقد كنا غافلين عنك، ولم نقدرك حقّ قدرك، حتى أصبحت الآن على هذه الدرجة من المكانة لبشر وضعوا قدمهم الأولى على طريق الحرمان وشظف العيش، طلبنا قليلاً من الماء، كان الماء شحيحاً أيضاً، كنّا قد شربنا في الطريق من برك بقايا المطر وما اختلط معه مما يختلط به من أوساخ وفضلات، كان العطش الذي يشعر به الأسير لا يشبهه شيء إلا عطش الأسير، فهو عطش تختلط فيه الحاجة الطبيعية لجسم الإنسان، نتيجة ما أفرزه من عرق يتفصد حتى في أكثر الظروف برودة، مع عطش القلق المشروع من المجهول، والخوف من التهديد المتواصل من مجموعة من المراهقين الحاملين لبنادق أقصر من أجسامهم بقليل، ولا يعرف أحدٌ ما الذي يغضبهم وما الذي يريحهم، فالآسر والمأسور ينتميان إلى عالمين مختلفين، حدودهما اللغة المختلفة والجغرافية السياسية الملأى بكل أسباب العداء، والتاريخ الذي يغذي كل تلك العوامل بقوة الوضع الراهن.

كانت مجاميع الأسرى تصل تباعاً، وبعد اكتمال العدد المقدر من قبل المشرفين على الموقع تمّ إحصاؤنا، وحشرونا في شاحنة صغيرة (بيك أب)، بعد أنْ عصبوا عيوننا، وربطوا أيدينا إلى الخلف بإحكام، وبعد وصولنا إلى مكان آخر لم نقدّر الوقت الذي أمضيناه حتى وصلنا إليه، كانت هناك جلبة وهينمة وزعيق وصياح، اختلطت الأصوات مع بعضها، والإيرانيون محبّون للسلطة بشكل مخيف، وها هي الفرصة قد جاءت لتعطي كل واحد منهم، بصرف النظر عن مستواه الثقافي أو البيئة التي جاء منها، ليتحكم بمصائر رجال كانوا حتى ساعات من أعزّ الرجال وأعظمهم كرامة، وعند إنزالنا وفتح عيوننا وأيدينا، بدأ وقع السكين يحز في أبداننا حتى

العظم، كانت المحنة أكبر مما كنّا نتصور حتى تلك اللحظة، وقد تكون المأساة أكبر لو اطلعنا على الحقيقة كلها، المهم أنّ حشود الأسرى تجمعت في بقعة صغيرة من الأرض، على شكل مُسيّجات دائرية، داخل مُسيّج كبير بالأسلاك الشائكة، أدخلنا تباعاً، جاء معمم يتحدث العربية بصعوبة، كان البعض ما يزال يحسن الظن بهؤلاء، قال كناية عن السلام الذي فرضه الإسلام على المسلمين: «عليكم لعنة الله»، أهذه هي البداية؟ حسناً كيف ستكون حياتنا تحت سطوة أشخاص مثل هذا المعمم؟ فهل هذا مبلغ علمه عن الإسلام الذي أطال الحديث عنه وعن مظلومية الشيعة؟ وهل ينطبق فهم الإسلام عند جميع الذين ارتدوا العمائم في إيران كما عكسه هذا المعمم؟ أسمعنا هذا المعمم الكثير مما لا يليق بقلم أنْ يسطره، واستدعاني لاستنطاق ابتدائي، ما هو اسمك؟ وما هي رتبتك ومن أية مدينة أنت؟ وهنا يأتي السؤال الأهم على الإطلاق... هل أنت سني أم شيعي؟ كان يتحدث بلهجة عربية متعثرة وكأنها أحوازية على الرغم من أن شكله فارسي قطعاً، حينما قلت له أنا سني، لم يتمالك نفسه وأطلق للسانه أن يقذف أوساخه كما اختزنها جوفه، ولكن المفارقة أنَّ أحد الأسرى وكان شيعياً وكان على مقربة منا وكان يسمع الأسئلة والأجوبة، وحينما جاء دوره للاستنطاق، أراد أن يتخلّص من مسلسل الأسئلة الفائضة عن اللزوم، قال له أنا شيعي، فما كان من المعمم إلا أن أطلق قذائفه على الأسير وقال له: لعنة الله عليكم شيعة العراق، أنتم أنجس من سنة إيران، وهكذا فقد حسم هذا المعمم أن سنة إيران نجسون أولاً وأن شيعة العراق أكثر منهم نجاسة ثانياً، وبعد أنْ أفرغ المعمّم ما في جوفه من قيح ولم تهدأ نفسه بعد، جاء شخص يحمل دفتراً كبيراً، ومعه مترجم فقال: «الضباط يرفعون أيديهم»،

كان يجلس إلى جانبي ضابط تربطني به صداقة متينة، فقال لي: «أنت مدير عام في وزارة الإعلام، وموقعك في لواء المهمات الخاصة بموقع ضابط فأنت آمر لسرية في الجبهة، ومن الأفضل أن تحمي نفسك بين الضباط الذين يتحلون بقواعد ضبط عالية»، رفع يده وقال لي: «أرجوك ارفع يدك» على الرغم من أنّني أعرف الكثير من الضباط الذين أخفوا أنفسهم بين الجنود، لأنّ الإيرانيين كانوا ينفذون إعدامات ميدانية بالضباط، رفعت يدي في وقت كانت الشمس تودع نهاراً طويلاً وراء الأفق.

تم نقلنا مرة أخرى إلى باحة كبيرة مسقوفة ملحقة بمعمل للسكر، في منطقة «هفت تبة» أي التلال السبعة، كان المئات من الأسرى قد أجلسوا على الأرض، وكان بعض الطعام والماء يوزع عليهم، عقارب الساعة تسير ببطء شديد، أصوات صليات الرصاص من البنادق الآلية، المنطلق بين آونة وأخرى تبدد سكون المنطقة، قاطعاً ضوضاء المأسورين، والذين تبدلت حياتهم، وسلب هول الفاجعة منهم القدرة على ترتيب أفكارهم وأحاديثهم، كانت أصواتهم تعلو بلا سبب، وتختفي بلا سبب، البعض أخفى رأسه بين ركبتيه وأجهش في بكاء مرير ولكنّه صامت.

كان الإيرانيون في الجانب الآخر قد فقدوا توازنهم وبات سلوكهم أقرب إلى الجنون، هم في عرس جاء إليهم على غير ميعاد، قبل أربعة أيام عاشوا عيدهم القومي الأكبر، يوم نوروز أي اليوم الجديد، وهو عيد رأس السنة الإيرانية، فجاءت إنجازات جبهة الشوش دزفول بهذه المفاجئات لتتركهم يترنحون من فرط السعادة التي هبطت عليهم دفعة واحدة، فها هم اليوم يقتادون الآلاف من الأسرى العراقيين إلى عالم الذل والمجهول، كان أحد مذيعي الإذاعة الإيرانية يحمل جهاز التسجيل ويجري مقابلات مع

الأسرى، وكان المصورون من مختلف محطات التلفزيون قد جاؤوا لتغطية هذا الحدث الكبير، فالنصر يستقدم الأضواء، والهزيمة تبحث لها عن ظلمة تختفي وراءها، جاء المذيع الإيراني، وكان يحب أنْ يناديه الآخرون بالحاج عباس، وتوجه نحوي مباشرة بسؤال عن الاسم والرتبة وتاريخ الأسر ومحله، ثم توسع بالحديث، وإذا به يسألني من هو المعتدي؟ أيقنت أنّ الأمر ينطوي على عار إذا أعطيته ما يريد، ولكنّ الدخول في مواجهة في أول يوم من الأسر سيعني أنّ الرحلة كلها ستحفل بالمتاعب، حاولت الدوران حول الموضوع، قلت إنّ لجاناً دولية تبحث في الأمر منذ فترة، ولم تتوصل بعد إلى تحديد المعتدي، فهل أستطيع أنْ أفعل ذلك، امتعض من هذا الرد، كان يريدني مشاركته رأيه، تقدمت خطوة أخرى بعد أنْ ألحّ فقلت: «إنّ العراق يعتبر إيران هي المعتدية»، كرر السؤال: «وأنت ما هو رأيك؟» قلت: «أنا عراقي»، بعد ذلك قطع التسجيل وأطلق لسانه بما اختزن من مفردات بذيئة تعافها النفوس الأبية.

في ١٩٨٢/٣/٢٦ تمَّ نقل جميع الضباط ـ وكما قلت سابقاً كنت معهم ـ من معمل السكر إلى إحدى دور السينما في هفت تبة، كان البرد شديداً، ولم تكن هناك فرشٌ وأغطية، احتل كلّ واحد منا أحد مقاعد صالة السينما، أصبح المقعد فراشاً للنوم، وكرسياً للجلوس، جاء الإيرانيون بأجهزة تدفئة كهربائية، تم توزيعها في ممرات الصالة على نحو دعائي يريد القول: إنّ الكهرباء متوفرة بل مبذولة حتى للأسرى، وليس كما يتصور البعض بأنّ الحرب أثرت في إمدادات الكهرباء في البلاد كما كان الإعلام العراقي يتحدث.

في قاعة السينما، حولنا الإيرانيون إلى مشهد مسرحي، تأتي

إليه الوفود من كل أنحاء إيران، وبعد أنْ تلقي علينا نظرة، وكأنّنا مخلوقات جاءت من كوكب آخر تغادر، لتفسح المجال لوفود أخرى، وفي اليوم التالي جاء العقيد عبد الله نجفي قائد الفرقة ٧٧، والتي خاضت معارك الشوش دزفول، وكان طبيعياً أن تتناسب مشيته ووقفته مع إنجازات فرقته، ألقى كلمة في الأسرى وكان قد تخرج في كلية حربية في الهند هي نفسها التي تخرج فيها اللواء الركن سعدي طعمة الجبوري، واعترف بتفوق سعدي عليه، ولكنّه استغرب منه ذلك الموقف المشلول في أثناء المعركة؛ إذ لم يتمكن من إدارتها على النحو الذي ينقذ ما تبقى من القوات وهي بالآلاف، قدّرت أنّ هذه المواساة هي درجة عالية من الزهو التي يعيشها أي قائد عسكري يشعر أنّه حقق أكثر بكثير مما كان يتوقع.

بدأ الضباط بالحديث عن قناعاتهم الحقيقية حول إدارة العمليات، سواء بصفحاتها الميدانية، أو ما يرتبط بإدارة المعركة بصفحتها الاستراتيجية، أي إنّهم بدؤوا يتحدثون عن دور القيادة العامة للقوات المسلحة، وهنا وفي الساعة المأزومة، كان طبيعياً أنْ يختلط السخط مما آل إليه وضعهم في الانتقال من عزّ العراق ووجاهة الرتبة وما تمثّله لهم اقتصادياً واجتماعياً، إلى ذلّ الأسر وما سيترافق معه من عوز وحرمان وجوع، البعض منهم أخذ مساحة أوسع بكثير من الرتبة التي يحمل، وتقمّص دور القادة الكبار، فأخذ يحرّك الفيالق والفرق، ولكنْ في ظل ظرف الغضب الذي يستطيع الآن طرحه من دون خوف من توقع الحساب، وفي هذه الظروف تختلط سورة الغضب مع انفلات المشاعر التي يمكن أنْ تأخذ تفسيرات في غير محلها فآراء الغضب قد لا تعبّر عن القناعات المستقرة، وساعة الهزيمة تفرز انكساراً نفسياً آنياً، ولكنْ مع مرور الوقت سرعان ما يعود الاستقرار والتوازن النفسي، إلا

للقلة التي كانت تضمر مشاعر أخرى، ظلت حبيسة في الصدور، وعندما لاحت أول فرصة للتنفيس عنها ظهرت بصورتها الحقيقية، وعلى العموم كان البعض يقول: إنّ القيادة العامة هي التي شلّت إرادة ومبادرات القيادات الميدانية، وعطلتها عن التحرّك الذي قد يؤدي إلى معالجة خروقات بسيطة قد تتوسع ما لم تتخذ تدابير سريعة لتطويقها، وقد يصبح علاجها في حال التأخير بالبت فيه أمراً في غاية الصعوبة، البعض ذكر بأنّ تبديل موضع سرية لم يكن متاحاً حتى لآمري الألوية، بل إنًّ البعض يقول: إنّ ذلك غير متاح حتى لقادة الفرق، وعلى الرغم من أنّ في هذا الحديث مبالغة لا تخفى على بقية الضباط، إلا أنّ الوقت لم يكن مناسباً للدخول في جدل لا يغير من مرارة المشهد شيئاً، آخرون مضوا إلى أبعد من ذلك بكثير، فقالوا: إنّ الرئيس صدام حسين مدني ولا خبرة له في شؤون الحرب، وكان يفترض تحديد استراتيجية العراق من جانب مجلس للأمن القومي في حال وجوده أو تأسيسه في حال عدم وجوده، وإعطائها للجهات العسكرية من أجل وضعها موضع التنفيذ، ولكنّ الرئيس صدام حسين تدخل في أدق تفاصيل المعارك، حتى إنّه أمر على ما قال البعض بأنّ «الانسحاب» كصفحة من صفحات المعركة قد تم إلغاؤه من دروس المعاهد العسكرية في العراق، استناداً إلى فرضية أنّ العراقي يتقدم، ويرجع من يطرح وجهات النظر هذه إلى أنّ الرئيس صدام حسين لم يحط نفسه بضباط ركن من طراز متميز، لأنّ مثل هؤلاء قد يعترضون على ما يرونه خارجاً عن سياقات العلم العسكري، ويدعي من يدافع عن هذا الرأي أنّ الرئيس صدام أبقى الحل والعقد بيد أعضاء المكتب العسكري لحزب البعث العربي الاشتراكي، ومعظمهم من غير الضباط، أو من نواب الضباط الحربيين وهم

خريجو الدورات الخاصة التي أعدت على عجل بعد ثورة ١٧ تموز/يوليو ١٩٦٨ ودخلها طلبة فاشلون في إكمال دراستهم الثانوية فتمّ قبولهم استناداً إلى الانتماء للحزب في دورات قصيرة ومنحوا بعدها رتبة نائب ضابط حربي، وأخذوا مواقعهم بين الضباط ونالوا الترقيات حتى وصل بعضهم إلى رتبة عالية، مما ترك تحسّساً متبادلاً ومؤكداً بينهم وبين الضباط، وخاصة الكبار منهم، ويقول من يطرح هذا الرأي إنّ القيادات الحزبية كانت تتدخل في أثناء المعارك، ولما كان النصر يتطلّب إضافة إلى الشجاعة والإقدام خبرة عسكرية عالية، وليس درجات حزبية عالية، فقد كان طبيعياً أنْ نخسر المعركة، وظل الكثير من نمط هذه الأحاديث، غالباً لدى ضباط الركن، وإن اتخذ في المراحل اللاحقة خطاً بنائياً وليس متذمراً فقط.

بقينا في دار السينما خمسة أيام، كان المزيد من الضباط الأسرى يجلبون إلى الموقع، وفي ظروف المحنة تنشأ صداقات صميمية وأصيلة، كان الأقرب إلي في تلك الظروف الملازم الأول عامر الدليمي، هو ضابط احتياط ولكنّه متطوع في ألوية المهمات الخاصة، ومن هنا نشأت علاقة رفقة لم تعكّرها ظروف الأسر القاهرة التي هزّت علاقات الأخ مع أخيه، والأب مع ابنه. كان عامر مثالاً للشهامة والمروءة والشجاعة، وامتدت الرفقة معه حتى يوم الأسر الأخير؛ إذ عدنا إلى العراق معاً، هناك ضابط آخر هو الملازم ثائر عدنان الراوي، كان يفور وطنية وحباً للعراق وللرئيس صدام حسين، كان رياضياً نشيطاً وشجاعاً بلا حدود، ولكنّ هذا البطل الوطني رحل في مرحلة لاحقة، في آخر معسكر تم نقلنا إليه قبل أن نعود إلى الوطن، أصيب بجلطة قلبية بعد أن تعرض لحفلة تعذيب ليلية تم كسر أحد أضلاعه فيها، ولم تتحسن صحته بعدُ

أبداً، ولأنّنا كنّا في معسكر خاص بالأسرى المعاقبين، فقد كانت الخدمات الطبية متناسبة مع هذا الوصف، فالقتل يتمّ معنا من دون إطلاق للنار، وخاصة أنّنا كنا في الوقت الضائع من مرحلة الأسر، كان معنا ضابط آخر جمعتنا نحن الأربعة رفقة الأسر الطويلة، هو الملازم الأول حبيب حسن حبيب السامرائي، الذي أصيب هو أيضاً بجلطة قلبية، ولكنّه أفلت منها، وعاد إلى العراق قبل الغزو الأمريكي عام ٢٠٠٣ بيومين.

لأعد إلى قاعة السينما، ففي بعض مشاهدها ما لا يجب المرور عليه مروراً عابراً، كان أحد عناصر الاستخبارات الإيرانية يذهب ويجيء بلا توقف، وكأنه يبحث عن صيد مناسب، كان يرصد الوجوه والرتب، البعض كان يحاول إخفاء رتبته بانحناءة وكأنه يصلح وضع حذائه، أو يبحث عن شيء تحت مقعده، ولكنّ الخوف نشر ظلاله في أجواء القاعة، في إحدى المرات كان عامر هو هدف عنصر الاستخبارات، طال وقت التحقيق، حينما عاد عامر كان مظهره ينبئ عن نوعية التحقيق الذي تعرض له، فقد تعرض للضرب والركل من جانب المحققين.

كانت الخطوة الأولى لتنظيم حياتنا الجديدة مطلوبة بإلحاح، فهناك واجبات يجب أنْ توزع على الأسرى، هناك عملية توزيع الطعام، وغسل الأواني، وحتى تسهيل عملية الذهاب إلى الحمامات لقضاء الحاجة، فعدد المراحيض لا يكفي لخدمة عُشْر الموجودين، ولأنّ النفوس في أعلى درجات الاضطراب والقلق والترقب، فقد أصبح حتمياً إيجاد قواعد يمكن احترامها من الجميع، خاصة من أناس كان واجبهم إصدار الأوامر ولكنّهم فجأة أصبحوا يتلقّون الأوامر من ضباط أقل منهم رتبة، ولأنّ التجربة السابقة للإيرانيين في التعامل مع الأسرى أوجدت صيغة «الأرشد»،

أي الضابط الأقدم، فقد طلبوا ضابطاً ينقل إلى الأسرى توجيهات الإيرانيين ويعكس مطالب العراقيين، فتمَّ اختيار المقدم داود سلمان ميشان، وهو أحد آمري أفواج اللواء ٩٦، ليكون أول أرشد عراقي نتعامل معه، ولتصبح هذه «الوظيفة» محوراً لكثير من الصراعات التي عاشها الأسرى في مختلف المعسكرات التي أقاموا فيها، لما رأى فيها البعض من امتيازات التعامل المباشر مع الإيرانيين، وخاصة في جانب القضايا الإدارية، انتظمت الأمور، وتم اختيار أصغر الضباط عمراً ورتبة للنهوض بالواجبات المطلوبة.

في ١٩٨٢/٤/١ تم نقلنا إلى معسكر مؤقت في مدينة الأحواز، كان في الأصل مدرسة، وتم تحويلها إلى مركز استنطاق متقدم للأسرى مرتبط بمقر «خاتم الأنبياء» الذي يتولّى قيادة العمليات في القاطع الجنوبي من الجبهة، وفي هذه «المدرسة» بدأت عمليات تحقيق شاملة، وعلى موازاتها بدأت أولى خطوات الفرز السياسي، وكان لمهمات التحقيق وما يرافقها من أجواء نفسية متوترة، الدور الأكبر في تعميق الهوة بين خطين ظهرا بوضوح: **الأول** خط التمسك بالعراق والمواطنة الأبية، **والثاني** خط الانحياز للعدو.

وضع المحققون أمام كل أسير حوالى سبعين سؤالاً، كانت دائرة شمولها، عمر الأسير وأفراد أسرته من يوم ولادته وحتى ساعة وقوعه في الأسر، وبسبب الفرز الذي حدث وخاصة لأسباب طائفية بدأ سيل المعلومات عن حياة الأسرى، والوظائف أو الوحدات التي خدم فيها ورتبته الحقيقية، لأن البعض من الأسرى أخفى رتبته الحقيقية، أو أنكر كونه ضابطاً، والبعض الآخر غيّر لقبه، ومع هذه الأجواء الإرهابية، وحيث معظم الأسرى من الضباط ذوي الرتب الصغيرة، من الذين يفتقدون الخبرة والتجربة،

كان طبيعياً أنْ يقع البعض في بعض الأخطاء، والتي قد تؤثر في السلوك اللاحق لمن يرتكب الخطأ.

وتضافرت مع الجهد الإيراني مجهودات عدد من الأطباء المجندين ضمن وحدات الجيش العراقي، كانوا منذ الساعات الأولى قد حسموا أمرهم واختاروا الجانب الآخر من معادلة المواجهة، ولهؤلاء تبريرات لهذا الانحياز، فالبعض منهم متذمر من نظام الرئيس صدام حسين، منها ما يتصل بخدمتهم في الخطوط الأمامية، أو بطريقة تعامل الآمرين معهم، وكأنهم يريدون أنْ يبقوا طبقة من العسكريين فوق القانون، أو أنهم يمنّون على وطنهم أنّهم حصلوا على شهادات الطب، في حين أنّ الوطن هو الذي يمنُّ على أبنائه أنْ فتح أمامهم فرص التعليم المجاني، وبالتالي عليهم أنْ يعيدوا شيئاً من دَيْن الوطن الذي بذمتهم، وهذا ما هو حاصل في بلدان الأرض جميعاً، وليس نظاماً مبتدعاً في العراق وحده.

هناك فئة أخرى كانت قد ارتبطت في وقت سابق بحركات دينية سياسية، وفي بعض الأحيان يحسّ البعض من الضعفاء بشعور بالتقصير في اتجاه معين، ولأنّ بعض الأطباء لم يؤدوا الفرائض الدينية، فقد عاشوا شيئاً من تأنيب الضمير لهذا التقصير، فانساقوا بمزيج من تلك العوامل، إضافة إلى الروح النقابية للمهنة الواحدة والتعاضد الوظيفي، فقد اندفع معظم الأطباء في سلوك فيه الكثير من التنكر لفضل العراق وقيادته، ذلك أنّهم اعتقدوا أنّ عدم الارتياح الشخصي تجاه الرئيس صدام حسين سيكون سبباً في اتخاذ خط سياسي يمكن أنْ يقود إلى الخيانة بالتدريج. لقد قاد الأطباء تياراً أثار تجاههم كثيراً من عوامل الغضب والنقمة إذ إنّهم ألحقوا ضرراً جسيماً بوحدة الأسرى، وأدخلتهم في دوامة عنف ومشاكل كبرى، حولت حياة الأسرى إلى جحيم، من المعارك اليومية،

والشكوك القاتلة، فلم يعد الأسير يثق إلا بأضيق حلقات المقربين، خاصة وأنّ سيل المعلومات يتدفّق دونما توقّف على الإيرانيين، مما فاقم من محنة الأسر التي تحتاج وحدها إلى صبر نبي، ومن أين نأتي بزمن المعجزات؟

وهكذا وقع الشرخ، الذي كان يكبر مع الوقت، وأصبح الأسرى مجاميع تتقاتل فيما بينها بقسوة، أصابت الإيرانيين بالدهشة، على الرغم من أنّهم كانوا يغذونها بكل ما كان لديهم من مكر وخديعة، إذ وجدوا فيها أقصر الطرق للوصول إلى ما يريدون من معلومات، وأفضل وسيلة للانتقام ممن أتعبهم في جبهات القتال، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل أخذت عمليات غسل الدماغ والترغيب بمعاملة جيدة، وأرزاق مختلفة عما يقدم لعموم الأسرى، مقابل ذلك هناك الهراوة المرفوعة فوق رؤوس «المخالفين» وبدأ الإيرانيون بحصاد نتائج خططهم، وبتناغم واضح مع الأطروحة الطائفية، وأخذوا وعبر واجهات أقحموا فيها اسم العراق بتجنيد المئات من الأسرى للقتال ضد بلدهم وجيشهم، وأغرب ما في تلك الحماسة التحول الذي برز عند بعض متطوعي ألوية المهمات الخاصة والجيش الشعبي، ومن درجات حزبية مختلفة والانتقال من خندق العراق إلى الخندق الإيراني، وقد ترافق ذلك مع اشتداد الهجمات الإيرانية الكبرى على العراق، وتحقيق انتصارات ملموسة فيها، مما ولّد إحساساً غريزياً لدى البعض من ذوي القلوب الواهنة والعزيمة الضعيفة أنّ يوم حسابهم من قبل الإيرانيين آت لا محالة.

البعض الآخر وكنتيجة للظروف المستجدة، فإنه يحاول إيجاد الملاذ الآمن بالعودة إلى الأصل الديني ليأخذ اطمئنانه بذكر الله سبحانه، ويلاحظ على هذه الشريحة أنهم كانوا من الذين فرطوا في

العبادات، وكأنهم يريدون تعويض ما فاتهم، ولما كانت العبادات تقود تلقائياً إلى البحث عن التفاصيل والتفرعات، ورغبة في التكفير عما مضى، تبدأ رحلة المحاسبة الصعبة مع الذات، فيكون الغلو ملازماً للعبادات، ولكن ذلك قد يقود إلى ابتعاد عن الأصول الصحيحة، ومع العبادات كانت الممارسات السياسية تجرّ للأسف إلى التطرف في استخدام الشدة مع الأسرى أو حض الإيرانيين عليها، رغبة في إثبات صدق الولاء الجديد، أو كانعكاس غريزي لحالة أن من يسقط في الخطيئة فإنّه يحرص على إسقاط الجميع، وإيصالهم إلى النقطة التي وصل إليها، وهكذا تحقّق خرق لصف الأسرى الذين بدا وكأنهم لم ينتقلوا فقط عبر خط الحدود البرية إلى جبهة الحرب، وإنما أصبح هذا الانتقال المادي، وكأنه نقلة فكرية كاملة في حياة الأسير، فطفق يتصرف على نحو غير متوازن، ومثير للإشفاق في كثير من الأحيان، بسبب انعدام السيطرة على الأفعال والأقوال، بحيث يخيل للمرء أنّ بعض الأسرى وفي اللحظات الأولى للأسر، يوشكون على فقدان بوصلتهم، والتحول إلى الجانب الآخر بانقياد آلي يعطّل مدارك العقل، وربما يمثّل الخطأ الأول الذي يرتكبه الأسير، محلاً لضغوط وابتزاز من قبل السلطات الإيرانية، لتوسيع دائرة الخطأ وتحويله إلى خطيئة، بلغة التهديد والضغط النفسي والبدني، والتلويح بخطورة النتائج المترتّبة على الخطأ الأول أمام السلطات العراقية، ولهذا تبدأ مرحلة الإغراءات اللاحقة، وتتعامد هذه مع جهد نفّذه ضباط كبار في التأثير في بقية الأسرى، ساعدت عليه انكسارات الجيش العراقي الذي كان يوحي بأنّ العراق خاسر للحرب وساقط تحت المظلة الإيرانية لا محالة، وبالتالي فإنّ من يريد الحفاظ على حياته، عليه أنْ يبادر وبشكل فوري، للالتحاق بركب من استبدلوا الولاء للعراق بالولاء لإيران.

لقد ارتكبت الجهات العراقية المسؤولة عن التوجيه السياسي خطأً جسيماً لما تبثه من رسائل إعلامية عبر ما يوضع تحت تصرّفها من إمكانات الدولة، فاستمرار الحديث عن قسوة الإيرانيين في معاملة الأسرى، وقتلهم من دون تمييز، جعل العراقي يعيش هاجساً، لازمه حتى وهو في أعلى درجات نشوة النصر، ماذا سيكون مصيره لو وقع أسيراً لدى الجانب الإيراني؟، وكان مجرد التفكير بأمر كهذا يشل المدارك العقلية للكثير من المقاتلين العراقيين، فيصبح موزّعاً بين احتمالات الموت بلا جثة أو قبر، أو الإعاقة، أو الأسر، إذن هذه المخاوف أو التخويفات جعلت الأسير العراقي في لحظات الأسر الأولى يضع الموت أمامه كخيار وحيد، ولذا تتدافع لدى البعض من الأسرى أفكار متنازعة حول الطريق المناسب للنجاة، ولهذا يصبح البعض صيداً سهلاً، يمكن أنْ يبذل كل شيء مقابل الاحتفاظ بطعم الحياة، وإذا ما أخطأ فإنّ هذا الخطأ سيلازمه داخل نفسه ومع بقية الأسرى، ففي أية خصومة ومهما كانت تافهة الأسباب، فإنّ عار الخطأ الأول يصبح مادة الشتائم الرئيسة في العراك الذي سيتطور مؤكداً، وتبدأ تهديدات فجة بما يمكن أنْ يلاقيه الأسرى على يد زملائهم بعد العودة إلى العراق قبل الوصول إلى المحقق العراقي.

بل إنّ هناك خيالاً خصباً لدى عدد من الأسرى المجردين من سلاح الماضي النظيف، والمتصيدين للهفوات الصغيرة، وإعطائها تفسيرات تنسجم مع خطط الابتزاز أو التسقيط المخطط له من قبل أسرى لا تنعدم الوسيلة لديهم في الارتباط مع الجانب الإيراني، وهكذا فإنّ الظروف الضاغطة والتي عاش الأسرى تحت وطأتها ذات مناشئ مختلفة، فإضافة إلى المعاناة اليومية من أذى مقصود، وتجويع وحرمان من أبسط الضروريات الإنسانية، كان هناك عدو

للأسرى من بين صفوفهم وهو الشك، مما يعقّد العلاقة فيما بينهم.

وفي المدرسة التي أريد لها إعطاء دروس للعراقيين بالصبر والتحمل، عانى الجميع، إضافة إلى عوامل الرعب، من تجويع من نوع خاص، فالخبز كان يجمع لهم من صناديق القمامة، وفضلات المطاعم، وقد نمت عليه البكتريا والفطريات، فتحول لونه إلى الخضرة، فعافته النفوس على الرغم من قسوة الجوع وألمه، ومن يشتكي عليه توقع الأسوأ، ولكنْ لمن يشتكي؟ هل يشتكي لعلي أفشاري؟ وهو المعبأ بكل أسباب الحقد على العراق، وهو إضافة إلى مشاعر الكراهية، يمتلك معرفة بالعراقيين بتفاصيل مذهلة، فقد عمل خياطاً في مدينة البصرة، وتمّ تسفيره من العراق لأنّه من التبعية الإيرانية، فترك ذلك جروحاً عميقة في نفسه، واستغل السلطات التي منحت له كمسؤول عن مركز الاستنطاق المتقدم للإيقاع بالأسرى والانتقام ممن يرفض التعاون: علي أفشاري رجل ضخم الجثة بشكل لافت للنظر وهيئته تشي بروح شريرة، كان يحمل من الصلاحيات المطلقة المخولة له من «مقر خاتم الأنبياء» ما لم يحمله أحد من الضباط الإيرانيين، واستغل ذلك كله للإثراء من «الغنائم الحربية» فكان يصادر كل ما يجده لدى الأسرى من أموال وساعات وخواتم وأسلحة وغيرها من المقتنيات الشخصية، أو داخل المقرات السابقة للجيش العراقي من تجهيزات مما يمكن الاحتفاظ به، كان متوحشاً في طريقة التعامل مع الأسرى ولا يتردّد عن أبشع طرق التعذيب للوصول إلى غايته، وكان يعاونه في ذلك مجموعة من محترفي القتل والجريمة منهم من حملة الجنسية العراقية الهاربين ومنهم من المسفّرين الإيرانيين من العراق.

في إحدى الليالي وبعد منتصف الليل وإذ كنت في نوم عميق، استيقظت على يد تضرب على قدمي بقوة ولكنْ من دون صوت،

فتحت عينيّ، كان الجندي الإيراني يؤشر لي أنْ أنهض، بادرني هل أنت نزار السامرائي؟ قلت نعم، ثم أومأ لي أنْ أتبعه، تعوذت بالله من الشيطان الرجيم ومن شرور الإيرانيين ومن يتعاون معهم من الخونة العراقيين، ومضيت وراءه، دخلنا الدفتر، أي المكتب الذي تتواجد فيه قيادة المعسكر، كان هناك عدد من الشباب الذين يرتدون الملابس العسكرية، وأمام المنضدة الكبيرة جلس أحدهم، أشار إلي بالجلوس على سرير حديدي، سألني ما اسمك، أخبرتهم باسمي ولقبي الخاص وهو غير اللقب المعروف به، ما وظيفتك قلت أنا محام، لم أكمل الميم إلا وكانت ضربة تهوي على وجهي، مع سيل من الشتائم، لقد علمنا أنّك أحد كبار منتسبي وزارة الإعلام العراقية وأحد كتاب الصفحة الثالثة في جريدة الثورة، نفيت ذلك نفياً قطعياً، وقلت هناك اشتباه في الأسماء، مدّ الرجل الجالس وراء المكتب يده إلى أحد الدواليب وأخرج مجموعة من الصحف وألقاها أمامي، كانت مجموعة من أعداد جريدة الثورة التي كنت قد كتبت فيها عن الحرب العراقية الإيرانية، حاولت أنْ أنفي، لكن محاولاتي ذهبت أدراج الرياح، في ختام اللقاء قال المسؤول في المكتب: «من حسن حظك أنك لم تهاجم الإمام شخصياً، ولو أنّك فعلت لدفعت ثمن ما كتبت»، بعد تحقيق استمر لحوالى أربع ساعات أمرهم قائلاً خذوه، واقتادني أبو إياد إلى مكان جديد وقال إياك والتحرك، إنّك ستذهب الآن إلى قاعة الحاج فارس، وهي قاعة من أسماهم بالتوابين وقال تذكّر بأنّك تحت الرقابة، ممنوع عليك الاتصال أو التحدث مع أحد، حديثك مع فارس، وفارس هذا ضابط برتبة رائد من أبناء مدينة الموصل، عمل على ملاك جهاز المخابرات العراقية، في مجال تدريب العناصر الأحوازية على فنون القتال، وحينما تم سحب انتدابه حمل

في قلبه الكثير من الضغينة، وبمجرد وصوله إلى الحافة الأولى البعيدة عن مرافئ الوطن، غيّر جلده وأصبح الأثير عند الإيرانيين، يبدو أنّه كان مسبوقاً بالمعرفة بحلولي ضيفاً على قاعته، ولمّا كان مستحيلاً على الجميع قبول من يذكرهم حتى بصمته بعارهم، فقد طلب جميع سكنة القاعة من فارس إبعادي عنهم، كانت القاعة صفاً طلابياً في الطابق العلوي، ويرتبط ببقية الصفوف بشرفة أو ممر عرضه حوالى ثلاثة أمتار، في نهاية الشرفة نصبت خيمة، استقر فيها أحد الضبّاط المصابين بمرض جلدي ويبدو أنّ جماعته قد عزلته لهذا السبب، هو الملازم سعود، اخترت أنْ أساكنه على معايشة ناكري جميل الوطن، على الرغم من أنّه كان واحداً منهم، ولكنّ واحداً إذا لم يجد أحداً يتحدث معه فسوف يصمت، وليس مثل أكثر من ثلاثين فوهة شتائم وبذاءات كان يمكن أنْ أسمعها فأجيب فأتحمل تبعات ذلك، أو أصمت وتتعاظم المحنة وضيق الصدر، كنت أذهب إلى المرافق الصحية برفقة شاهد، يراقب حركاتي وسكناتي، وحتى مكان سقوط نظراتي، فينقل لفارس ما وقع، والذي بدوره يوصلها حزمة كاملة للإيرانيين، لذلك حرصت على أنْ أجنب نفسي وزملائي متاعب لا مبرر لها، ولكنّ ضابطاً من أبناء سامراء هو الملازم الأول مشتاق طالب خلف، كان الوحيد الذي يعودني ولا يلتزم بتعليمات فارس والإيرانيين، سألته يوماً ومن منطلق الشكّ طريق اليقين، لماذا تأتي إلي ولا تخشى عواقب ذلك؟ أجابني ضاحكاً ضحكة ذات مغزى وكأنه فهم شكوكي ومخاوفي، لا تخش مني شيئاً، والحاج فارس وافق على زياراتي لك.

لم يستمر الحال طويلاً في المنفى الأول لي في عالم الأسر؛ إذ فتحت كوة في الفضاء المحيط بي هناك، ففي ١٩٨٢/٥/٢١ تم

إبلاغنا بأنّ علينا الاستعداد للنقل إلى مكان آخر، كنّا في تلك الأيام نسمع دويَّ المدافع التي تهزّ الأرض تحتنا، ومن كان يخرج ليلاً كان بإمكانه رؤية الوميض الذي يحوّل الظلام إلى نهار، كانت عمليات الطاهري قد بدأت قبل مدة، وكان صوت المدافع يبتعد رويداً رويداً، حتى إذا بدأ ينحسر، كنّا في طريقنا إلى محطة قطار الأحواز عبر شوارع هذه المدينة العربية المهملة، على الرغم من أنّها تمدّ إيران كلها بنسغ الحياة.

الفصل الرابع

في القصر الأول/قصر فيروزة

كان يوم الحادي والعشرين من أيار ١٩٨٢ عادياً في ساعاته الأولى، ولكنّ حركة غير عادية بدأت تفرض نفسها على أجوائه، الحافلات بدأت تصطف أمام المدرسة، في ظروف كهذه تتوتر أعصاب الجنود الإيرانيين إلى حدود لا تحتمل، يعتقدون أنّ العراقي قادر على القفز في الفضاء الخارجي، أو الغوص في باطن الأرض والهرب من قبضتهم أو ربمّا هم يفتعلون ذلك من أجل التضييق على الأسرى، ويبدأ الإيرانيون جميعاً بالزعيق والصياح، وتضيع المسؤوليات، فمن هو المأمور ومن هو الآمر؟ لا يستطيع الأسير معرفة ذلك، وقف الأسرى في طابور طويل، كان أبو إياد، وهو ضابط صف عراقي هارب إلى إيران بعد أن فقد بوصلته الوطنية لحساب العصبية الطائفية، وربما فعل ذلك لأنه لا يطيق تأدية الواجب الذي تفرضه عليه مهنته كجندي انخرط في الجيش العراقي للدفاع عن أرضه ضد أي عدو، مهما كان دينه أو مذهبه ومهما كانت لغته، ولكنه فقد شجاعته في بداية الطريق وبدل جلده ولم يكتف بذلك بل ذهب بعيداً في إيذاء أبناء وطنه من الأسرى، كان أبو أياد الرجل الثاني في معسكر المدرسة، يقف عند البوابة الخارجية، وإلى جانبه صناديق سجائر، يقول عنها المدخنون إنها من أردأ النوعيات في العالم إطلاقاً، وتسمى «أشنو ويزة»، كان

يسلم لكل أسير علبة منها، «أشنو» هي قمة الجبل المطلة على العاصمة الإيرانية طهران، أمّا «ويزة»، وحرف الزاي هنا يلفظ كأنه حرف جيم بالعربية وبلهجة بلاد الشام، وهي كلمة معناها «الخاص»، كان الأسرى يتندرون لهذه الخصوصية، وعمّا إذا كانت تخص الأسرى فقط؟

ولأنّ الأسير يفتقد فرصة الانتقال إلى الحالة القانونية طالما بقي في هذه المدرسة فقد استبشر الأسرى عموماً بقرار النقل، وظنوا أنّهم سيغادرون ظروف الاعتقال الضاغطة، وأنّ دنيا جديدة داخل الموت الذي يعيشون فيه توشك أنْ تقبل عليهم بعد أن انشقّت عنهم قبورها، ولهذا كان التدافع للوصول إلى مقدمة الطابور سيد الموقف، وحينما ارتقى البعض درجة باب الحافلة نظر إليه من بقي على الأرض على أنّه ذو حظ عظيم، وأنّ الدنيا قد فتحت له أبوابها، حينما تقدمت نحو البوابة الخارجية للمدرسة قال لي أبو إياد: «لقد أفلتّ، ما زال لديك بقية من حظ»، وتقدم السيد علي المشهداني، وهو مدني تم منحه رتبة مقدم مؤقت، وأصبح آمراً للواء المهمات الخاصة التاسع، فتصدى له أبو إياد ومنعه من التقدم، وأخبره أنّه ممنوع من السفر ولم نعرف في حينها ما هي أسباب المنع التي أبلغت للمشهداني وإنْ كنا على بينة من أن الوشايات التي كانت تصل إلى الإيرانيين من الأسرى الخونة منذ الأيام الأولى لم تكن توفر معلومة صغيرة أو كبيرة إلا أوصلتها لعلي أفشاري، وربما تطوع بعض الخونة لذكر اسم أم الأم والأخت والزوجة، في محاولة للتأثير النفسي في الأسير في التحقيق.

علي المشهداني صديق قديم من أيام الوظيفة من الإذاعة والتلفزيون، وبعد فراق طويل في زحمة الطريق لأن كل واحد منا

ذهب في اتجاه وظيفي التقينا في جبهة الشوش وبعد ذلك في أيام الأسر الأولى، ولهذا اعتصرتني حرقة ألم لمنعه من السفر معنا ولكن أحداً لن يتمكن من نجدة أخ أو رفيق أو صديق، ومضيت في رسم صور سوداوية وقلقة عن بقائه في قبضة علي أفشاري.

نقلتنا الحافلات من المدرسة إلى محطة قطار الأحواز، كنا ننظر إلى شوارع المدينة العربية البائسة في كل شيء، وجوه أهلها الشاحبة، وجدرانها الآيلة للسقوط وشوارعها الحزينة وبيوتها المزدحمة بالكآبة، كانت الأحواز تتعرض لغزو فارسي ممنهج يهدف إلى إلغاء طابعها العربي ومسخ هويتها القومية، نظرنا إلى كل الأشياء بعيون أتعبها الانتظار، وفِكر موزّع بين قنوط مميت وأمل متجدد، هو من طبيعة النفوس السوية، كانت نظراتنا شاردة غير مكترثة لما نجتازه من مشاهد نعبرها بسرعة، فالمدينة أسيرة مثلنا، وشوارعها تحكي قصة الإهمال المتعمد الذي تعيشه المنطقة المنتزعة من جذورها العربية والتي تموت تخلفاً وبؤساً لتمنح الحياة لإيران من نفطها.

كان خيالنا قد سبقنا إلى طهران، فهناك فرصة للالتقاء بلجان الصليب الأحمر، وهناك الفرصة في الكتابة للأهل وطمأنتهم مع أنها لا تقرب البعد. ترك القطار محطة الأحواز في الثانية ظهراً، يجر عرباته بتثاقل وسأم، مررنا بمناطق متنوعة التضاريس، وشاهدنا نتائج ضربات العراقيين على جانبي السكة، ولمس الجميع يقيناً قابلية الكذب التي يتصف بها المسؤولون في «الجمهورية الإسلامية»، في قلب حقائق الحرب ونتائج العمليات، فالدمار الذي لحق بمصانع كانت تمد جبهات القتال بأسباب الديمومة، كان من الدقة بحيث لا يدع مجالاً لسؤال مشكك، لم نكترث لما صادفنا في الطريق من مدن فلسنا في سياحة أو رحلة

استجمام، كنا نعيش هواجس القادم من الأيام وعما إذا كان لآمالنا شيءٌ من النصيب.

وبعد رحلة طويلة ومملّة، بدأت مشارف طهران تلوح في أفق النوافذ، كانت أحياء جنوبي طهران من الفقر ما لا يمكن أن تصدّقه عين لبلد كانت مداخيله من النفط والغاز ما كان بإمكانه أن ينشر خيراً كثيراً على طول إيران وعرضها، وبهذا سقطت مزاعم الشاه التنموية عند أول اختبار، كان الشاه مهووساً بتكديس الأسلحة وبرامج ذات طابع استعراضي مظهري، كانت أكواخ الصفيح الصَّدِئ تتثاقل في عكس أشعة الشمس الساقطة عليها، كانت تحكي بإصرار قصة الفجوة الإنسانية في إيران النفط والثروات الأخرى التي تحتكرها الأقلية التي كانت مقرّبة من الشاه، ثم تلقفتها حاشية رجال الدين المقرّبين من الخميني، وحرمت منها غالبية الشعب الإيراني، والهوة بين التنمية الاقتصادية والاجتماعية ما لا يمكن رسم حدوده، وهذا هو بالدرجة الأساسية الذي سمح للخميني أنْ يتاجر بأحوال الفقراء حينما كان في المعارضة، ثم بدمائهم بعد أن أصبح الحاكم بأمره لا ينازعه في الحكم أحد، ومن دون مشقة يمكن مشاهدة البؤس والفقر في الأبنية والوجوه والملابس الرثة التي يرتديها فقراء الضاحية الجنوبية لطهران الذين تكلم نيابة عنهم كل الثوار الذين تعاقبوا على المشهد السياسي الإيراني.

في ضحى اليوم التالي، كان القطار يدخل بحركة قليلة وبضجيج عال مدينة طهران، كانت عيوننا تتصيد كل ما أسوَدّ في عاصمة البلد الذي حاربنا، ولذا فقد رأينا كل شيء على أسوأ صورة وربما أسوأ مما تمنينا، وحينما بدأ القطار يقترب من محطة طهران الرئيسة، كنّا نقرأ الكراهية والشماتة بنا في معظم عيون من

كان في المحطة، كانت معارك المحمّرة على أشدّها، وكان يحق لسكان طهران البعيدين عن مآسي الحرب تصوير الأمر أو تصوره وكأنّه نزهة محدودة التكاليف. حينما وصلنا إلى محطة طهران يوم ١٩٨٢/٥/٢٢ كانت القوات الإيرانية على وشك دخول مدينة المحمّرة التي كانت القوات العراقية قد دخلتها بعد أسابيع من نشوب الحرب، وكان يتم نقل الآلاف من الأسرى العراقيين من الجبهات إلى الخطوط الخلفية، ولذلك اعتقد من شاهدنا من الإيرانيين بأنّنا من أسرى المحمّرة، ويبدو أنّ الإيرانيين تعمّدوا في توقيت نقلنا من معسكر الأحواز إلى طهران لإحداث هذا التصور وإعطاء دعم للمعنويات التي حطمت جزأها الأعظم قابلية القتال المتميز الذي أظهره العراقيون، إضافة إلى أنّ الإيرانيين أرادوا إخلاء المدرسة لاستقبال كبار الضباط الذين تمَّ أسرُهم في المحمّرة وإبقاؤهم فيها تحت عين علي أفشاري، ولأنّ العراقيين قاتلوا في معركة المحمّرة الأولى عام ١٩٨٠ بشكل أذهل عدوهم، ولأنّهم كبدوا القوات الإيرانية خسائر لا يمكن للذاكرة الإيرانية أن تنساها، فقد ترك كل ذلك نحتاً في النفوس الإيرانية المنكسرة، وجروحاً عميقة في جسد العسكرية الإيرانية سيظل يلاحقها أبد الدهر، وانعكس ذلك على شكل تثقيف عدائي تجاه العراقيين، لمسنا جانباً منه في إشارات كنّا نفهمها جيداً وعبارات لم نكن تعلمناها بعد، من جانب الناس الذين جاؤوا إلى المحطة، ليذهبوا إلى سبيلهم أو تم استقدامهم لهذا الغرض، وركّز الإعلام الإيراني على أنّ هؤلاء الأسرى هم أسرى عمليات الطاهري والمحمّرة على الرغم من أنهم ليسوا بحاجة إلى مثل هذا الادّعاء، فالأسرى عراقيون أياً كانت الساحة التي تمّ أسرهم فيها، ولكن هدف الرسالة كان يتركز على أن أسر المقاتلين العراقيين مستمر منذ

بداية العام الإيراني الجديد الذي يبدأ عادة في ٢١ آذار/مارس من كل عام، وانطلت الكذبة على الشارع الإيراني الذي كان بحاجة ماسة إلى ما يعوضه عما يتكبده من خسائر في الأرواح لا يمكن أنْ تكافئ نتائج العمليات التي نفذتها إيران، ابتداء من عمليات شرق الكارون في ١٩٨١/٩/٢٧، وما أعقبها من عمليات تمهيدية لما بعدها، حتى وقعت كارثة الشوش ودزفول، بدءاً من ٢١/٣/ ١٩٨٢ إلى ١٩٨٢/٣/٢٧، ثم لتأتي ثالثة الأثافي أي عمليات الطاهري والتي انتهت باستعادة القوات الإيرانية لمدينة المحمّرة، لتكتمل صورة المحنة التي عاشها العراق، قيادة وجيشاً وشعباً، فقد جاءت نتائج العمليات الثلاث لتضيف غروراً أعمى إلى رصيد الإيرانيين على غرورهم، وليصرّوا على مواصلة الحرب ظنّاً منهم أنّهم قادرون على تحقيق النصر في الحرب، وبخاصة أنَّ الخميني الذي كان يعاند جميع المسؤولين الإيرانيين في إصراره على الحرب كان يريد دليلاً على أنه يحقق الكثير من الإنجازات الميدانية.

على الرغم من ظروف الحرب، فإنّ محطة القطار المركزية في مدينة طهران والتي ورثها النظام الجديد من عهد الشاه ككثير من الأبنية العامة، كانت تحتفظ برونقها وبريق أرضيتها ونظافة فنائها كلّه، وقد يكون مردّ ذلك إلى أنّ العاصمة الإيرانية بعيدة عن دوي المدافع، بل بعيدة عن قصف الطائرات، وكذلك يرتبط بتفشّي ظاهرة البطالة التي لا تعالج إلا بالذهاب إلى الجبهات، أو العمل في الأشغال البلدية وغيرها من الأعمال الخدمية، في المستشفيات، مما يسدّ الرمق ويوفر لقمة عيش تلقفتها أفواه المدافع بدلاً من ملايين الأفواه الجائعة.

ويبدو أنّ العمق الاستراتيجي للعاصمة الإيرانية هو الذي أغرى الزعامة الدينية والسياسية في إيران بالإحساس بالاطمئنان الزائف

من أي خطر ناجم عن العمليات الحربية أو القصف الجوي أو الصاروخي، ظنّاً منها أنّ الأمور ستبقى على ما هي عليه إلى نهاية المطاف، فصمّوا آذانهم عن كل دعوة لوقف إطلاق النار، على خلاف بغداد القريبة من الحدود حدّ الصداع الذي يدمر الرؤوس.

كنّا نرغب في الخروج سريعاً من جو المحطّة لأنّه كان يضيف إلى إحساسنا بالقهر إحساساً مضاعفاً بالذل. أقام عسكريون إيرانيون أحزمة حولنا، وهؤلاء شغوفون إلى حدّ الموت بسلطة إصدار الأوامر، وجاءت هذه الفرصة لهم، ولهذا لم نعرف من الذي يمتلك سلطة اتخاذ القرار في ذلك الوقت العصيب وخشينا أن يتلذذ إيراني جاهل بعذاباتنا ويقرر إبقاءنا مدة أطول في المحطة، مرت هذه الفكرة سريعاً وتلاشت بسرعة أكبر، لأن الإيرانيين يريدون وضع أسراهم وراء القضبان بأسرع وقت والتخلص من المسؤولية التي قد تترتب على فرار أي واحد منهم، وبعد زمن ذكّرنا بساعات الأسر الأولى، بدأ الأسرى يغادرون المحطة تباعاً، ولأننا في بداية عمر الأسر فلم تعصب عيوننا ولم تربط أيدينا، حملتنا الحافلات من المحطة، في الطريق منها إلى عالم آخر، كنّا نتطلع إلى شوارع المدينة وأرصفتها مما لا ينبئ عن طاحونة حرب تدور على طول خطوط الجبهة، كانت بعض أحياء طهران تحمل لمسات جمال خاص بقدر ما سمعنا عنها قبلاً، ولكنّ رؤيتها في ظرف كهذا يفقد العين لذة اكتشاف عناصر الجمال فيها، ومعظمنا تفاجأ بما تتوفر عليه المدينة من مسحة جمال ونظافة يعززها موقع بين حلقة مكتملة من الجبال التي تطوّقها من كل الجهات، هذه الحالة لا تنسجم مع ظروف بلد يخوض حرباً لا تُبقي له إلا القليل من الموارد لينفقها على تجميل العاصمة.

في غير العراق لا تأخذ الاتجاهات مواقعها الصحيحة في الذهن، لا ندري هل يعود ذلك إلى عدم التعود على المنطقة أم أنّه عامل نفسي قابل للزوال بمرور الوقت؟ المهم أنّ الحافلات كانت تجتاز الشوارع الفسيحة، ثم بدأت تلك الشوارع تضيق تدريجياً، حتى تحوّلت إلى أزقّة وممرات. أخيراً توقفت في باحة خارجية لا ندري ماذا تخفي وراء جدران الأبنية المنتشرة على جوانبها، قالوا لنا: «لقد وصلنا» تهيَّأنا للنزول، إنّه المعسكر الذي اختاروه لنا، كان عددنا يقرب من ٣٥٠ أسيراً من الضباط، لم نكن نحمل من المتاع إلا القليل والذي لا يساوي شيئاً في قيمته المادية، ولكنّ حاجات الأسرى قد تستقدم الكثير ممّا لا قيمة له، بعد تفتيش دقيق تعرّض له الأسرى بأبدانهم وما يحملون، بدأنا بالدخول إلى «قصر فيروزة» نعم هذا هو اسمه، ويا له من اسم يذكّر بالقصور وأحجار الفيروز، ويتركنا في حلم مع أغنية «شايف البحر شو كبير» لفيروز، ولكنْ أي قصر وأي فيروز؟ كان القصر سجناً موروثاً من زمن الشاه كما محطة القطار، ككل الأشياء الجيدة والقبيحة على حدّ سواء وشأنه شأن بقية المرافق الأمنية، فقد تمّ إنجازه وفقاً لتصاميم أمريكية، على الرغم من أنّ إيران لا تنقصها الخبرة والإبداع في تشييد صروح المعتقلات وزنزاناتها المعتمة فلا أحد ممن حكم في هذه البلاد إلا وله تاريخ حافل في قمع الخصوم من القوميات والمذاهب الأخرى، إذن بماذا يحلم الأسير أكثر من الإقامة في قصر من الفيروز؟ بعد مدة قصيرة عرفنا أنّ هذا القصر أقيم خصيصاً لمعارضي شاه إيران وخاصة منظمة مجاهدي خلق العنيدة، والتي كان لتضحياتها الدور الأكبر في تصدع جدران نظام حكم الشاه، ووجدنا على الجدران كتابات بالدم لبعض عناصرها، وبعد مجيء الخميني إلى السلطة على أكتاف الآلاف من الإيرانيين، عاد الشاه

الجديد بعمامة هذه المرة لسياسة سلفه في ملاحقة مجاهدي خلق، فخصص لهم سجنَ إيفين الرهيب وسجوناً استحدثت بفتوى دينية بعد أن كانت تبنى بقرار ملكي يرتدي القبعة الأمريكية وربطة العنق الفرنسية.

يتألف قصر فيروزة من مقطعين، في الأول أربع زنزانات غير متساوية المساحة وتتراوح أبعادها بين أربعة أمتار عرضاً وخمسة أمتار طولاً، والبقية تقل عن ذلك ببضع عشرات من السنتيمترات، تتصل مع بعضها بممرّ يؤدي إلى المرافق الصحية، وتفصلها عن الممرّ قضبان حديدية سميكة مثل الأنابيب يمكن إغلاقها عند الحاجة، تخرج من الجدران الخلفية لها روابط من الحديد من أجل ربط السجناء «المشاغبين»، ويفصل كل مقطع عن الآخر ممرّ مغلق تعشعش على أحد جانبيه عشر زنزانات انفرادية، أبعادها أقل من مترين عرضاً، وحوالي مترين طولاً. أمّا المقطع الثاني فيتألف من خمس زنزانات غير متساوية المساحة أيضاً، ولأنّ الشاه كان يرفع شعاراً إسلامياً أيضاً، فلم يفتْه أنْ يخصص غرفة في المقطع الثاني لغسل الموتى بموجب التقاليد الإسلامية، من الذين يسقطون تحت التعذيب الوحشي كي يبرّئ ذمته من مسؤولية عدم تجهيز الميت بما أمر به الدين الإسلامي، ويتم ترتيب لقاء السجناء مع أسرهم في الزمن الماضي، عبر أجهزة هاتفية خاضعة للرقابة وبغرف متقابلة، تفصل بين السجين والذي يزوره نافذتان زجاجيتان محكمتا الإغلاق، وهي ترتيبات شبيهة بالسجون الأمريكية.

بدأنا بدخول الباحة الداخلية لقصر فيروزة، كان الجنود يشرفون على توزيعنا على الزنزانات بحسب طاقتها الاستيعابية التي تتراوح بين أربعين وخمسين أسيراً. الأسرّة رصفت فوق بعضها في ثلاثة طوابق، دفعني أحد الجنود إلى «الغرفة» رقم واحد مع عدد

من الأسرى، أخذ كل واحد منا سريراً وألقى كل واحد منّا بنفسه عليه بعد طول سفر وطول انتظار على غير ما تشتهي أنفسنا، وبعد هنيهة بدأ كل منّا بترتيب أوضاعه، فقد وجد مكاناً يستقر فوقه، كانت تجربتنا في المدرسة بالأحواز قاسية بحكم كونها وضعتنا أمام دخائل الناس وما يبطنون، فالرجال لا يمكن اكتشاف معادنهم من دون اختبارات وتجارب شاقة، ولكنْ هل كنا بحاجة إلى الأسر كي نعرف من يحافظ على عراقيته ومن ينزعها في أول امتحان؟

بدأ الفرز بين صنفين من الأسرى: **الأول** هم العراقيون الذين حافظوا على عراقيتهم ولم يبيعوا وطنهم مهما بلغت التضحيات، والثاني هم الذين لا يملكون ولاء صميمياً للعراق، أو أن ولاءهم مرتبط بالثمن الذي يحصلون عليه، وبين هذين الصنفين صنف ثالث، لا هم لهؤلاء ولا لهؤلاء، يظهرون ما لا يبطنون ويميلون مع الكفة الأرجح، ولكنّ تعسف التعامل معهم أدّى إلى خروجهم من جلودهم نتيجة ما صادفوه من صدود وصل إلى حدّ الاحتقار، مما دفع الطرف الآخر أي عملاء إيران للتحرك عليهم، بتخويفهم من حساب ما بعد العودة وكانوا يعرضون عليهم خيرات كثيرة منها إطلاق سراحهم في حال عدم سقوط العراق بيد الإيرانيين، وحتى يحصلون على حريتهم هذه يمنّونهم بالراحة في معسكرات الأسر مع تمييز لهم بالمأكل والملبس وتوفر الإعلام، وكذلك عرضهم على الصليب الأحمر، ففقدنا الكثير من العراقيين الذين خانتهم الشجاعة المطلوبة في ظرف الأسر والذين أردنا منهم الارتقاء بموقفهم إلى الحالة المثلى التي يجب أنْ تتحلى بها النخب والطليعة الواعية والقادرة على تحمّل تبعات مواقفها. على العموم لم نكن متفقين على موقف واحد من هؤلاء بعد خسارتهم، منا من اعتبر ذلك كسباً حقيقياً للتخلص من الأدران التي علقت بنا وكانت عوناً

علينا، ومنهم من كان ينظر إلى الأمر على أنه خسارة لمواطن عاش ظرفاً قاسياً مع عدو متوحش بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ، ولأن قدرات الرجال في مواجهة الخطوب ليست متساوية فقد تضعف بعض العزائم عند منتصف الطريق.

انعكست تلك التجربة على حياتنا الجديدة في قصر فيروزة منذ اللحظات الأولى، فقد تجمّع المتقاربون في المواقف السياسية مع بعضهم، فكانت الغرفة الأولى على ما يصفها الطرف الآخر غرفة عمليات وقيادة، في حين تجمّع من كنّا نطلق عليهم وصف «الخونة»، ومن يطلق عليهم الإيرانيون اسم «التوابين» في الغرفة الرابعة، وكانت هي غرفة العمليات والتخطيط لإسقاط الأسرى بالترغيب أو بأبشع وسائل التعذيب، ولا أحد يعرف ما مسوّغات تسمية الخونة بالتوابين، ربّما هي مستمدة من تاريخ الكوفة وثورة التوابين الذين أحسّوا بعد فوات الوقت أنهم خذلوا الحسين بن علي (عليهما السلام) في واقعة الطف، هل يشعر من قاتل مع بلده أنّه ارتكب خطيئة ثم تاب عنها أم هي محاولة إيرانية لتكريس عقدة الذنب الأبدية عند العراقيين الذين اصطفوا معها بأنّ عليهم بذل كل ما يختزنون من الولاء كي يتأكد صدقهم؟ لقد أنبتت بذرة الأحواز شوكاً وحسكاً أدمى العيون والقلوب قبل الأرجل التي سارت عليهما، ومضى البعض ممن ارتبط بجهاز الاستخبارات الإيرانية في محطة الأسر الأولى، في طريق التعاون معها وإيذاء أبناء الوطن تحت لافتة التديّن حيناً والتمذهب معظم الأحيان، وأخذت الاتصالات طابعاً علنياً بعد أنْ كانت تتمّ خفية وعلى استحياء، فما كان يحصل في الأحواز سرّاً وفي جنح الظلام وبكثير من الخجل والتردّد، صار يتم على الملأ وأمام أعين الناظرين، ويفاخر به البعض من أجل إغراء ضعيفي الإرادة والعزم

من الأسرى للانخراط في الركب باعتباره عملاً عادياً، ولا ينطوي على خروج على قيم المواطنة وقوانين البلد، وهكذا أخذت اللقاءات الجماعية والفردية مع ضباط الاستخبارات الإيرانية، والذين يأتي كثيرون منهم بلباس رجال الدين، ويتمّ نقل أدقّ المعلومات عن تفاصيل الحياة اليومية للأسير بما في ذلك التافه منها إلى الجانب الإيراني، كي يوقع المحقّقون الإيرانيون الأسير في دائرة الدهشة، لما يملكونه عنه، بما في ذلك معلومات شخصية لفترة ما قبل الأسر.

يوم وصولنا إلى قصر فيروزة كانت معارك المحمّرة الضارية تقترب من نهايتها، المسؤولون عن المعسكر على عادتهم، وهذا ما لمسناه طيلة مدة الأسر، كانوا يوفرون لنا جهاز تلفزيون حينما تميل كفة المعارك لصالحهم، كي نعرف ما يحققون من إنجازات ميدانية، بهدف إهارة معنويات من بقي واقفاً بعزة الوطن أمامهم، وربط مَنِ انهار منهم بقوة إلى عربة الخيانة، وضع الإيرانيون جهاز التلفزيون في الممر الرئيس أمام بوابة الغرفة التي نقيم فيها، كان صوته عالياً إلى حدّ غير معقول، بل ومثيراً للأعصاب، كانت الأخبار تخرج من مصدر واحد، ومهما بلغ مستوى الخسارة التي تكبّدها العراق، في معارك الطاهري والمحمّرة، فهي ويقيناً، ليست بالصورة التي يقدّمها إعلام منحاز ومتخلف في آن معاً، ولكنّه يعتمد أسلوب التهريج الغبي والضخ المتصل لما يعتبره حقائق، وبسبب الوضع القلق للأسرى فإنّ جانباً مهماً من الوصلات الإعلامية تأخذ طريقها لتستقر عند فراغ القلق المميت الذي يعيشه الأسير المطوّق من كل مكان، وبعد أن ينتهي «عرس النصر» يتم سحب جهاز التلفزيون.

كنت أعرف أنّ جهاز راديو ترانزستور صغير كان موجوداً بحوزة أحد الأسرى، هذا الجهاز في العراق لا يزيد سعره على

دينار واحد، ولكنّه في الأسر يعادل كل ما يملك الأسرى من مال ومصوغات ذهبية، فهو للأسير رئة يتنفس بها، أو حبل سري يربطه بالوطن، قد تم توفيره للأسرى من طرف أحد الجنود العربستانيين في الأحواز، لعامليْن: **أولهما** لأنّه كعربي يتعاطف معنا، **والثاني** بحكم الحاجة المادية التي يعانيها العرب في إيران، غير الاضطهاد القومي والمنع من التحدّث بلغتهم القومية أو ارتداء العقال والكوفية، ولكنّ السؤال هل استطاع من كان جهاز الراديو بحوزته أنْ يمرره من بين كل تلك الإجراءات المشددة وحواجز التفتيش المتتالية؟

كان الأمر بحاجة إلى ضربة حظ كبيرة أو لأعصاب حديدية، تسمح بتمريره كي نحافظ عليه، إنّه جهاز لا قيمة له في عالم الأحرار، ولكنّه في السجون يغادر محتوياته المعدنية ليتحول إلى نافذة بحجم الأمل، لكل من يريد أنْ يطل على الوطن والأهل، عبر أية إذاعة عراقية، أو على الأقل إذاعة من طرف ثالث يمكن أنْ تنقل للأسرى أخبار الوطن من غير الوسط الإيراني، فالأسرى يريدون صوتاً يرفع عنهم ضغط الدعاية الإيرانية الصاخبة والكاذبة، كانت هناك لازمة موسيقية، تشدّ الأعصاب وتصك الآذان، فأي صوت آخر لا بدّ من أنْ يحمل لنا جانباً آخر مما يحصل في جبهات الحرب، وربما يقترب من بلسم لجروح غائرة، يضغط عليها الأسرى الصابرون، من ذوي العزيمة والذين لا تخيفهم انكسارات بعض الجبهات، لأنّهم واثقون من أنّ النصر حليف بلدهم طال الوقت أم قصر، بعد اتصالات سريعة تيقّنا من أنّ الراديو قد وصل بسلام بفضل فطنة النقيب عبد الستار العامري، وبدأت الأخبار تتدفق بسرية وقنوات تمَّ تنظيمها بحذر شديد.

بعد وصولنا إلى قصر فيروزة التقينا فيه بقلة من الأسرى

العرب، من قاطع للجيش الشعبي تمَّ تكوينه من تنظيمات حزب البعث العربي الاشتراكي، من بين وجوهه البارزة السيد عمر شبلي من لبنان والذي ستكون له محطات مضيئة في حياة الأسرى الذين عاشوا معه في معسكرات الأسر، كان واحداً منهم في الحقوق، ومتقدماً عليهم في المهمات الصعبة، هذا ما سمعته من كل من رافقه في معسكر «آراك مخصوص»، وعلى الرغم من أنّني لم ألتقه فقد حملت له تقديراً عالياً عن بعد. ومن العراقيين الذين التقيناهم في قصر فيروزة، الدكتور مضر النوري، وهو مدير عام دائرة المياه الجوفية في وزارة الري، والذي جاء مع قاطع العرب للجيش الشعبي كموجّه سياسي، كان رجلاً صلباً في مواقفه في ساحة الأسر، غيوراً على وطنه لا يبخل بالنصيحة، وكانت لنا بعد سحب العرب من معسكرنا وإبقائه معنا جولات مشتركة في مقارعة الإيرانيين والأسرى الذين ضعفوا ولم يتمكنوا من مواصلة الشوط.

كان آمر معسكر قصر فيروزة من أكراد إيران، وكان في معاملته للأسرى مهنياً، ولم يحاول تسييس محنتهم بمعاناة مضافة، ولكنّ بعض جنوده كانوا يحملون كثيراً من الضغينة تجاه الأسرى، لفقدان قريب، أو إرضاء لسلطة تسعى لأذى الأسرى، ومن يفعل ذلك فهو يريد إبعاد شبح التوجّه إلى جبهات الحرب، مع ما يحمله ذلك من نذر شرّ مؤكّد عليه وعلى أفراد أسرته، ولهذا لم يتمكّن آمر المعسكر أنْ يفرض على جميع جنوده نمطاً سلوكياً مهنياً باستمرار، فقد كان بعض هؤلاء يستغلون غيابه، وينفسون عن أحقادهم، وحينما يعرف آمر المعسكر بالقضية تقدم له الرواية بما يضع الأسير في قفص الاتهام، وتدعم شهادات الجنود لبعضهم البعض موقفهم المشترك، وتضيع الحقيقة بين دهاليز التعاضد «الوطني» ضد الأعداء.

وفي ضحى يوم جديد من أيام الأسر التي ستطول كثيراً، تجسد تضامن الجنود الإيرانيين ضد الأسرى عموماً، وضدّ أحد الضباط وكان برتبة ملازم أول، واسمه نبيل، إذ تعرض لاعتداء بالسبّ والشتم وتوجيه الإهانات من قبل الجنود الإيرانيين من دون أي مبرر، بل لمجرد إعطاء درس لعموم الأسرى بأنّهم بمتناول ألسنة الجنود وأيديهم وهراواتهم وعصيهم الكهربائية، بعدها لم يعرف أحدٌ كيف تطوّرت الأحداث بشكل متسارع، خاصة وأنّ روح الأسرى ما تزال ملأى بكبرياء الوطن وكرامة الرتبة العسكرية، المفعمة بالاعتداد بها وبالنفس، انطلقت صيحات الرفض من كل مكان ولم يعد بالإمكان تهدئة النفوس الغاضبة، وتعطلت قدرة العقلاء في السيطرة على سلوك القوم، وأسوأ ما في القيادة أنْ تخضع لسلطة العاطفة الفوّارة لدى القواعد، وهذا ما حصل بالفعل، ولا أحد يدري من أين خرجت أول دعوة للإضراب، ولكنّها وخلال ثوان كانت تتردد صوتاً قوياً وبإيقاع متناسق، نعم للإضراب عن الطعام، لا للإهانات، نعم لمجيء بعثة الصليب الأحمر الدولي، والتي لم تصل إلينا أبداً، حتى اليوم الذي تفاجأنا برؤية فريق من البعثة، يستقبلنا عند نقطة «قصر شيرين» الحدودية خلال عملية التبادل التي عُدنا فيها إلى الوطن بعد عشرين عاماً من الأسر.

حينما أدخل الجنود قدور طعام الغداء، كانت دعوة الإضراب عن الطعام قد تحوّلت إلى قرار شبه جماعي، ولم تنفع محاولات ضباط الصف الإيرانيين في إقناع الأسرى الذين وجّهت إليهم إهانات بالغة في التراجع عن قرار لم يعرف أحد من اتخذه، ومن يمكن أنْ يقرر التراجع عنه، ولذلك رفض الأسرى تسلم حصصهم من الطعام، وجاء آمر المعسكر وكان برتبة رائد في الجيش

الإيراني، وتحرك على نحو عاجل، ووعد بمعاقبة الجنود الذين أساؤوا للأسرى، وحذّر الأسرى من أنّ المضي في مشروع الإضراب سيلحق ضرراً يصعب علاجه، ووعد أيضاً بالعمل من أجل جلب الصليب الأحمر إلى المعسكر، وهمس بأذن عدد من الأسرى أنّه سيكون من الخاسرين أيضاً لأنه كردي ويعرف مدى الثقة به من جانب رؤسائه، ومضى الوقت ولم يتم حلّ هذه المعضلة، ومضى الأسرى في إضرابهم.

وجاء آمر جديد للمعسكر هو النقيب مهدي كايهاني، كان معتوهاً متعجرفاً أو هكذا أمر أنّ يتصرف مع الأسرى، وبدأ بسلسلة تضييقات على الأسرى، كان يتعمد استخدام عبارات جارحة مع الجميع، حتى إذا كان الخطأ شخصياً وصغيراً، وقدم الدعم لمن خرج عن الخط الوطني وذهب إلى الجانب الإيراني «تائباً»، وتنشّطت خطوط الاتصال بين الإدارة الإيرانية ومجموعة الأسرى الذين فقدوا البوصلة أو الشجاعة أو كليهما معاً، وانتقلت من السرّ إلى العلن لقاءات المجموعة القيادية للأسرى الخونة مع المعممين الإيرانيين والعراقيين ومع رجال الاستخبارات الإيرانية، وأصبحت العلاقة تنظيمية، ويتمّ في أثناء لقاءات شبه يومية إيصال التوجيهات حول كيفية التعامل مع الأسرى وأساليب «الكسب الإيماني»، بإثارة الكوامن الطائفية عند الشيعة بالتركيز على أطروحة الظلم والإقصاء، اللذين سلطا على الطائفة، منذ بدء الحكم الملكي حتى لحظة السقوط في الأسر، ويركّز التحريض على أنّ أسباب الخوف والتردد قد انتهت وأنّ من يخاف من «صدّام»، على الرغم من بعد المسافة وعلى الرغم من الحماية التي توفرها سلطة الأسر، فهو محارب لدولة الله في الأرض، وكان من يرفض من الأسرى الانخراط في سلك الخيانة يتّهم بأنّه خائف عن بعد وتنظّم ضده

حملة إشاعات وتلفيقات بهدف إسقاطه، ومن ثَمّ يتعرّض لضغوط قاسية بهدف تدمير معنوياته، وتحطيم قواعد صموده، أمّا الأسرى السنّة، فتركّز عليهم حملة دعائية تجعلهم في مركز المسؤولية عما لحق بالشيعة من اضطهاد مزعوم، ثم يتركون في موقف المدافع عن النفس لأنّهم متهمون بكل شيء، وعليهم أنْ يُكَفّروا عن جرائم لم ترتكب أصلاً أو في أسوأ الظروف لم يرتكبها أي أسير إنْ كان قد وقع منها شيء، وتذهب الأفكار بالكثيرين مذاهب شتى، وتتحول إلى كوابيس مفزعة، إلا من حزم أمره وقرر المضي إلى نهاية الشوط مهما كانت نتائج الطريق، فأولئك لم يعبؤوا لما يدّبر بالليل أو بالنهار من طرف أعداء العراق.

ومع الوقت كان الضعفاء يتساقطون، ولكنّ أعدادهم بقيت في حدها الأدنى إذا ما تمت مقارنتهم بالثابتين على مواقفهم، لأنّ الأسرى الوطنيين كانوا بالمقابل يتحركون بقوة، ولكنْ بصمت لدحض دعايات الساقطين على قارعة الطريق، ولم يذهب أحدٌ إلى جزئيات ما يتم طرحه من بضاعة كاسدة في سوق الأسرى، وإنّما كان التركيز على المبادئ الوطنية التي تجمع العراقيين كافة على حبّ الوطن وتحمّل تبعات الموقف الوطني ونبذ الأفكار الطائفية.

بعد أنْ هدأت جبهات الحرب بعد عمليات المحمّرة، كانت المؤشرات تؤكد أنّ الإنجازات التي حققتها القوات الإيرانية منذ خريف ١٩٨١ حتى نهاية ربيع ١٩٨٢، سيتم دعمها بإنجاز أكبر من الناحيتين العسكرية والنفسية، وكانت كلّ الدلائل تؤشر باتجاه الحلم الإيراني باحتلال مدينة البصرة، ولم يكن القادة الإيرانيون يخفون نواياهم تجاه البصرة، وتم إبلاغ الخونة من الأسرى بأنّ عليهم الاستعداد لدخول القوات الإسلامية لمدينة البصرة، وذلك من خلال إشارات يوصلها جنود الحراسات إليهم لأنّ ذلك سيتم في

أثناء ساعات النوم، وفي هذه الأجواء التي تضافرت فيها على الأسرى هموم الأسر ومعاناة البعد عن الأهل، لتضاف إليها هموم الوطن الذي يراد له أنْ يستباح، وما يمكن أنْ يعكسه أي إنجاز إيراني في جبهات القتال على الأسرى أنفسهم، كان المعسكر يعيش استحضارات لزيارة مهمة سيقوم بها ضابط كبير، هو رئيس لجنة شؤون الأسرى في القيادة العسكرية الإيرانية، وهو العقيد نور الدين شريف عسكري، كان الجنود يذكرون اسمه مع كثير من الخوف، كنّا نعتقد أنّ هذا جزء من حملة التعبئة النفسية لتدمير معنويات الأسرى من أجل جرهم إلى صفّ من التحق بالجانب الإيراني.

وفي وقت مبكر من صباح أحد الأيام، نودي على الأسرى بالاستعداد لزيارة مهمّة، كنّا على اطلاع على جوانب من تفاصيلها عبر قنوات مائلة، تمّ تنظيف المعسكر من قبل الأسرى، وقف الجميع في ساحة العرض الصباحي بصفوف نظامية، قالوا لنا: إنّ الضيف قد وصل، وقالوا أيضاً: إنّ عدداً من الأسرى قد خرجوا من المعسكر للالتقاء به، ولكنّ الضيف لم يدخل على الرغم من مرور وقت طويل على وصوله، وعلى الرغم من مضي وقت ليس بالقصير على خروج «القيادة التنظيمية للأسرى الخونة»، كان الوقت على الكثير من الأسرى قاسياً، كانت الحراسات قد تعزّزت في السطوح التي تحيط بباحة المعسكر على نحو لافت للنظر، وأخيراً سمعنا صرير الأبواب، وأصوات ضرب الأقدام بالأرض دليلاً على التحية العسكرية التي يؤدّيها الجنود، دخل شريف عسكري وكان محاطاً بمجموعة كبيرة من المعممين والمدنيين إضافة إلى الضبّاط والجنود، كانت تظاهرة استعراضية قصد منها أنْ تدخل في روع الأسرى أنّ هذا الضيف يمتلك مفاتيح إيران، حاولت أنْ أسترجع في ذاكرتي اسم شريف عسكري، من عملي في الإعلام طيلة

سنوات، قلبت ذاكرتي يميناً وشمالاً، فلم أعثر له على أثر حتى بين رجال الخط الأخير بين القادة العسكريين في إيران، على الرغم من أننا كنّا في الإعلام نتابع قضايا أسرانا في إيران باهتمام شديد.

كانت صفوفنا تزيد على ثلاثين صفّاً، في كلّ صفّ عشرة من الأسرى، وقف أمام الجميع وبدأ يتحدث بلغة عربية ولهجة عراقية، لا يمكن تمييزها عن أي عراقي، ولكنّه والحمد لله اعترف بأنّه إيراني، بل شتم العراقيين، لأنّهم أهل الكوفة التي خذلت الحسين ثم غدرت به كما قال، وقال لنا أنتم من بقاياها، كان مرافقوه يستمعون حديثه ويخفون ضحكاتهم بمناديل جاهزة في حالتي البكاء المفتعل والضحك الساخر، قدّرت حينها أنّ الأمر لا يعدو كونه مسرحية كوميدية، يراد منها إلحاق الأذى بالأسرى، ولم يترك شأناً سياسياً أو عسكرياً أو دينياً إلا وتحدث عنه، كان بذيء اللسان كما لو كان من سفلة القوم ولا أشكّ أنه منهم، وبعد أنْ أزكم أنوف الأسرى برائحة الموت عبر لغة التهديد أخرج من جيبه قائمة دونت فيها بعض الأسماء، وبدأ بتفتيش صفوف الأسرى صفّاً صفّاً، وكان ينظر إلى أسماء الأسرى المثبتة على صدورهم، وبين فينة وأخرى يُخْرِج من الصف أحد الأسرى ويأمره بالوقوف أمام الجميع، كنت واقفاً في الصف التاسع عشر، بعد أنْ أنجز تفتيش الصف السادس شعر على ما يبدو بشيء من الإحباط لأنّه لم يجد الاسم الذي يبحث عنه، فنفد صبره تماماً، ومن ذلك الصف نادى بأعلى صوته: «نزار السامرائي، أين أنت؟» ومن مكاني أيضاً أجبت: «نعم»، قال اخرج، قالها وقد فتحت من جوفه بالوعة تدفقت منها فنونٌ من الشتائم المبتكرة مما تعافه الأذن والذوق والأخلاق وتهديدات ووعيد بالويل والثبور وعجبت لمن يحمل رتبة في جيش بلد يزعم أنه يقدم تجربة رائدة في المثل العليا والقيم الإنسانية

والإسلامية أن يحفل قاموسه بذلك المزيج السوقي من أقذر ما ينطق به لسان إنسان سوي وشريف، وتأكد لي أن العقيد نور الدين شريف عسكري لا يحمل من اسمه لا الدين ولا نوره، ولا الشرف ولا قيمه، ولا العسكرية ولا نبلها، وتوالت الأسماء المطلوبة مما كتب الأسرى «التوّابون» الذين التقوا به قبل وصوله إلى ساحة العرض، ووصل الرقم إلى تسعة عشر أسيراً، تجمعنا أمام الأسرى، ثم جاء إلينا وبحركة استعراضية، وجّه حديثه باللغة الفارسية التي كنّا لا نفهم منها شيئاً، إلى جنود الحراسات على سطوح المعسكر، ترجموا لنا ما قال: «افتحوا النار على كل من يتحرك، أو يحاول أنْ يفعل شيئاً ينذر بخطر»، بعد أنْ أنهى تعليماته للجنود، بدأت حفلة نهارية من الضرب، من قبل ضابط يحمل رتبة عقيد وهي أعلى رتبة في الجيش الإيراني في ذلك الوقت وفي واحدة من الضربات التي تلقيتها منه سقطت نظارتي الطبية على الأرض وتحطمت، وعندما وجد في جيبي مصحفاً صغيراً قال ساخراً عبد الرحمن بن ملجم كان يحمل مصحفاً أيضاً، ولو أنّ شريف عسكري كان قد أمر جنوده بضرب الأسرى لمرّ الأمر علينا كغيره مما لاقيناه في الأسر حتى هذا اليوم، ولكنْ أنْ يقوم بالضرب بيده، وهو يرتدي بزته العسكرية، ويستهدف أسيراً سقط السلاح من يده، فليس في ذلك شيء من القيم العسكرية، أو الشجاعة الشخصية أو الرجولة، ولكنّ هذا ما حصل وهذه هي قيم الفرس عبر التاريخ، المهم بعد انتهاء حفلة الضرب تحت أشعة الشمس، أمر شريف عسكري بوضعنا في الزنزانات الانفرادية، بعد أنْ أخذ كل واحد منا نصيبه المقدر من التعذيب، مكافئاً للتصور المنقول عنه من خونة الأسرى إلى الإدارة الإيرانية، كان من بين من شملتهم قائمة شريف عسكري رائد فلسطيني في الجيش العراقي

هو محمد نجيب أبو الهيجاء، وكان عراقياً بقدر ما يحمل كل عراقي من شرف الانتماء إلى الوطن، على الرغم من أنّه كان قد خسر وطنه فلسطين وها هو اليوم يخسر الثاني، وفي الزنزانات الانفرادية، بدأنا تجربة حياة جماعية من نوع جديد، نتقاسم فيه الألم والرزق والأرق ونتناوب فيه النوم بسبب ضيق المكان وندرة الفُرش.

كانت تجربة الإيرانيين مع الأسرى مزدحمة بالخطايا والأخطاء الاستراتيجية والأخلاقية ولأنّ الأسير معلّق بين الحياة والموت، كان عليه أن يوظف كل فرصة تسنح له من أجل خرق الجدران السميكة التي أقامها الإيرانيون من حوله، الإيرانيون على سبيل المثال لم يحسنوا عزل الأسرى الجدد عن الأسرى القدامى، وكانت تنقلات الأسرى بين المعسكرات المنتشرة في معظم الأراضي الإيرانية تتيح قدراً عالياً أمام الأسرى للتعرف إلى أحوال بعضهم وتبادل المعلومات عن أسمائهم، وأتاح ذلك فرصة إيصال أسماء الكثير من الأسرى المحجوزين أو المغيبين إلى ذويهم وبالتالي إلى الحكومة العراقية، ومن ثَم إلى اللجنة الدولية للصليب الأحمر عن طريق الأسرى الذين تتاح لهم فرصة الكتابة لأهلهم، هذا السلوك الخاطئ انسحب على وجودنا في الزنزانات أيضاً، إذ لم تلتفت سلطة المعسكر إلى أنّ الاتصالات بين نزلائها، وبقية أسرى المعسكر كانت كفيلة بإيصال الأخبار إليهم والتواصل معهم، فبدا الإجراء وكأنه عقوبة للتضييق على «المشاكسين» والتنكيل بهم وإرهاب بقية الأسرى، هذا كله أتاح لنا الحديث المباشر مع أصدقائنا وتبادل المعلومات معهم، وإيصال قناعاتنا إليهم لنشرها في المعسكر، وتسلّم النشرة الإخبارية المستلمة من إذاعة بغداد أو إذاعة صوت الجماهير بواسطة الترانزستور، وأطلّ علينا شهر

رمضان المبارك ونحن داخل السجن والأسر، وكانت إطلالة رمضان هذه السنة خلال شهر تموز، وكان وقعه النفسي على الكثير من الأسرى ثقيلاً جداً، لأنّه أول رمضان في حياتهم الجديدة، وما كان أحدهم ليذهب به الخيال إلى أنْ يتكرر رمضان في الأسر لعقدين من الزمن، ولكنهم استعدوا لتأدية فريضة الصيام على أحسن ما تكون العبادة في هذا الظرف العصيب، فهم يرون أن عبادتهم ستحسب لهم عند الله بأجر كبير.

على مدار سنوات الحرب كان الإيرانيون يتعمدون توقيت هجماتهم الكبيرة مع المناسبات الوطنية العراقية مثل عيد الجيش في ٦ كانون الثاني/يناير أو ٨ شباط/فبراير أو ٧ نيسان/أبريل أو ١٤ و١٧ تموز/يوليو، لأنهم يفترضون أنَّ الجيش قد يتفرغ جزئياً للاحتفال بتلك المناسبات، وبالتالي ستؤثر سلباً في استعداداته أو ردود فعله لمواجهة العمليات التي تباشرها القوات الإيرانية، هذا في جانب، وهم يريدون تحويل تلك المناسبات إلى زمن للحزن والبكاء ولطم الصدور، بدلاً من طابعها الاحتفالي من جانب آخر، وما أن بزغ فجر ١٤ تموز ١٩٨٢ حتى كانت المارشات الحربية التي تبثها الإذاعة والتلفزيون الإيرانيان تملأ ساحات المعسكر عبر مكبرات صوت معدّة لنقل أخبار «الانتصارات» السريعة، وهي المارشات نفسها التي سمعنا جانباً منها خلال الأيام الأولى لأسرنا، واستمرت في عمليات المحمّرة، وهكذا أضيف إلى الأسرى همّ جديد عليهم أنْ يوطنوا أنفسهم على قبول نتائجه على وطنهم، وعليهم هم أنفسهم أيضاً، خاصة وأنّ المسؤولين الإيرانيين كانوا يرهّبون الأسرى الرافضين للسقوط بأنّ السلطات الإيرانية ستسلمهم إلى «الحكومة الإسلامية» في العراق بعد «تحريره» ليحاكَموا كمجرمي حرب، كان لا بدّ من تفعيل دور الراديو، لأنّنا

لا نثق بما ينقله إعلام الدولة الإيرانية، كنّا أكثر الناس معرفة بمدى الكذب الذي يبثه لأننا كنا على صلة مباشرة بما يحصل أمامنا، كنّا نحاول سماع كلمة صادقة واحدة منه ولم ننجح، أوصلنا رسالة عاجلة إلى الشخص المكلف بالاستماع أن يتابع أخبار الجبهات من إذاعة بغداد أو إذاعة صوت الجماهير، كان عليه أنْ يتصرف بأعلى درجات الحذر في هذا الوقت الحرج بالذات، فالخونة وصلت إليهم إشارات غامضة عن وجود راديو، واعتبروا أنّ استمرار المعنويات المرتفعة بين الأسرى وسخريتهم مما يبثّه الإعلام الإيراني يعود إلى وجود هذا الجهاز السحري، وكان علينا إذن أنْ نخفيه عن الإيرانيين بكل ما نملك من وسائل، وهو إلى حدّ ما تدبير سهل، ولكنّ الأمر الصعب هو وجود الجواسيس من بين الأسرى أنفسهم، وقد يمثل البعض منهم دور الوطني، ولكنّه مرتبط مع الإيرانيين عبر تنظيمات الأسرى الخونة وبواسطة ارتباط خيطي غير مكشوف، وهذه أقسى حالة يواجهها مواطن حين يجد في مواطن آخر خطراً عليه أكبر من خطر العدو.

عاش «التوّابون» جواً احتفالياً بما حصل في الخطوط الأمامية للقوات العراقية في قاطع البصرة، وبالتالي ما حلّ بوطنهم في بدايات الهجوم الذي تعرض له قاطع شرقي البصرة، وأطلق الإيرانيون على عمليتهم الجديدة اسم «عمليات رمضان»، اندفعت أرتال الجيش والحرس الثوري الإيرانيين معبّأة بالإنجازات السابقة، وكأي هجوم مدبر حقّقت العمليات في صفحاتها الأولى تقدّماً ملموساً، في البداية كانت مجاميع «البسيج» أي متطوعي الحرس الثوري الإيراني، الذي كان أفراده يقدّمون كوقود مجاني لمعركة غير قادرين على إيقاد نيرانها، تفتح الثغرات في الخطوط الدفاعية العراقية، ومعروف أنّ هذه المجاميع تضم في صفوفها أبناء

الطبقات المسحوقة من الإيرانيين الذين تقطع عن عائلاتهم حصصاً غذائية مدعومة من الدولة، ما لم تدفع بواحد من أفرادها للتطوع في صفوف البسيج، ولهذا يمكن رؤية الباحثين عن لقمة العيش في المدن، يجدونها ممزوجة بالدم في جبهات الحرب.

كان هدف الخطة يقضي بالوصول إلى جسر خالد بن الوليد كي يتم قطع خطوط مواصلات وإمداد القوات العراقية المدافعة شرق الجسر الاستراتيجي الواقع على شط العرب، لم يخفِ الإيرانيون هدف العمليات، إذ أكدوا مراراً أنّ الهدف منها هو احتلال البصرة، وعزل قوات شط العرب المرابطة على ضفة النهر الشرقية عن سائر القوات الأخرى، وبعد إحكام السيطرة على البصرة يكون الهدف اللاحق الزحف على مراحل نحو بغداد، والتي ظنوا أنّها ستسقط بمجرد سقوط البصرة نتيجة انتقال الولاء الشعبي من النظام الوطني إلى النظام الجديد القادر على كسب ولاء الشيعة، في مدن الجنوب الواحدة تلو الأخرى، كانت المعارك في بداياتها الأولى، وكانت الأخبار تصلنا تباعاً من مصدرنا الخاص.

وذات يوم وحيث كانت المعارك على أشدها في قاطع عمليات البصرة، قيل لنا إنّ ضيفاً سيزور المعسكر، وسيأتي إليكم في الانفراديات، وجاء محمد تقي المولى، وهو تركماني من مدينة تلعفر، وينتمي إلى مكتب الحكيم أو ما سمي فيما بعد «المجلس الأعلى للثورة الإسلامية» وهو التنظيم الشيعي الذي تم تشكيله بأمر من آية الله الخميني، وفي البداية ترأسه الإيراني محمود هاشمي شاهرودي، الذي أصبح فيما بعد رئيساً لمجلس القضاء الأعلى في إيران، وكان المتحدث الرسمي باسم المجلس باقر محسن الطباطبائي الحكيم، وكان محمد تقي المولى هو المسؤول عن اللجنة العسكرية في المجلس، أي إنّه يشغل منصب «وزير الدفاع»

وقد أدى أدواراً لا تقل سوءاً عن أدوار العناصر القيادية في المجلس بإيذاء الأسرى الوطنيين، وفعلاً جاء إلينا حاملاً حقيبة من التهديد والوعيد، بالويل والثبور لمن «لا يعود» إلى عقله ويفكر بواقعية، ووعود وردية لمن يستجيب لندائه، وأكد أنّ «نظام صدّام» سيسقط في غضون أيام، ولما لمس منّا عدم تصديق لهذه الفكرة الساذجة عاد إلى التهديد، وطلب منه البعض التحوّل عن الموضوعات السياسية إلى قضايا الأسرى الأساسية، مثل حقوق الأسرى على وفق ما رسمته اتفاقيات جنيف المنظمة لحقوق الأسير، وطلب آخرون عرض الأسرى على لجنة الصليب الأحمر الدولي. وما كاد المتحدث يكمل جملته الأخيرة، إلا وانتفض «أبو علي» وهذا ما كان المولى يعرف به، قال: أنتم ضيوف الجمهورية الإسلامية ولستم أسرى، حقوقكم في الإسلام أعظم بكثير مما تقدّمه هذه المنظمة الصليبية، وقرأ علينا: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، قلنا له: حسناً، نريد مراسلة عوائلنا، قال وهو يغادرنا: «إنكم ستعودون إلى عوائلكم قبل مجيء أوراق الرسائل إليكم، أو قبل وصولها إلى ذويكم لأنّ القوات الإسلامية تتقدّم من دون مقاومة»: قال ذلك والفرح يتقطّر من بين عينيه من دون قدرة على ضبط مشاعره بانتصار مؤكد لإيران على العراق، ولم نرَ هذا الكذّاب بعدها في الأسر والحمد لله، ولكنّني فوجئت به رئيساً للجنة الحج ولم أتفاجأ حينما أصبح عضواً في مجلس النواب عن قائمة الائتلاف «العراقي» الموحد في زمن الاحتلال الأمريكي للعراق.

على العموم، لم يكذب المولى حينما قال: إنّ القوات الإيرانية تتقدّم داخل الأراضي العراقية من دون مقاومة، فالخطة التي وضعتها القيادة العسكرية العراقية كانت قد أعدّت فخّاً محكماً

للقوات الإيرانية بالسماح لها بالاندفاع بسرعة، وهيّأت قطعات رمزية عراقية مدرّبة على تأدية دور انسحاب قسري كي تستدرج قوات العدو للوقوع في الفخ المنصوب لها بين فكّي كماشة أطبقت على آلاف الجنود والبسيج والحرس الإيرانيين. الإعلام الإيراني لم يفقد الأمل بعد، أو لم يكن ممكناً إمداده بآخر تفاصيل المعارك الضارية التي يشهدها قاطع شرق البصرة، وبين ذهول القيادة العسكرية التي ركبها غرور أحمق، بعد معارك الشوش ودزفول والمحمّرة، وبين مراهنة غبية للزعامة الدينية في سهولة السيطرة على العراق، ودور الكومبارس الذي كانت القيادات العسكرية الإيرانية مجبرة على تأديته على مسرح الحرب الساخنة في ميادين القتال، أو السياسية في مجال العلاقات الدولية، كان الإيرانيون يتلقون أقسى ضربة عسكرية منذ بدء المسار الجديد للحرب بعد معركة شرق الكارون في ١٩٨١/٩/٢٧، ويحاولون استيعاب دروسها، ولكن ذلك لم يتحقق، فالزعامة الإيرانية كانت بحاجة إلى مزيد من الدماء لتسفك قبل أن تذعن للأمر الواقع.

لم يأخذ الإيرانيون قرار العراق بالانسحاب من الأراضي الإيرانية بعد معركة المحمّرة في ١٩٨٢/٥/٢٤ بالحسبان لخططهم الحربية اللاحقة، فقد أكملت القوات العراقية انسحابها من الأراضي الإيرانية في نهاية حزيران/ يونيو١٩٨٢، أي أنّ العراقيين سيقاتلون داخل أراضيهم، وحينذاك سيتأكد كل من وصل إلى قناعة راسخة بأنّ إيران تسعى لاحتلال العراق وضمّه إلى ممتلكات إمبراطورية قوضت أركانها جيوش المسلمين القادمة من الأرض نفسها، وبالمقابل فإنّ قتال العراقيين سيأخذ طابعاً أكثر شراسة من ذي قبل. ثم إنّ نتائج المعارك السابقة قلّصت الخطوط الدفاعية الطويلة وجعلتها أكثر تماسكاً، ومكّنت القيادات الميدانية من

معالجة القشرة الرقيقة التي كانت تميّز خطوط العراق الدفاعية، وتجعل من الخطوط الأمامية صيداً سهلاً لأي هجوم مدبّر، لأنّ تلك المواضع بلا قوات احتياطية جاهزة للتدخل عند الضرورة.

لقد جاءت «عمليات رمضان» لتؤكد أنّ إيران جادّة وإلى أبعد الحدود في شعار تصدير الثورة، وأنّ العراق هو ساحة الاختبار الأولى لهذا الشعار، ولذا وقف العالم بذهول أمام جدية الخميني في نواياه باحتلال العراق، كان الرأي العام العالمي بحاجة إلى بعض الوقت ليستفيق من ذلك الذهول، وليتعامل مع الشعارات الإيرانية على أنّها حقائق راسخة في رأس آية الله الخميني، وهكذا تم تأشير فرق جوهري في أسباب العراق لخوض الحرب عن دوافع الخميني، وتهيئة الأرض لنشوبها، فالرئيس الراحل صدّام حسين كان يسعى بكل قوة لدرء خطر تمدّد إيران الخميني، على أرض ظلّ ينظر إليها على أنّها جزء من إيران التاريخية نعم كان العالم يستمع إلى الأطروحات الإيرانية بشأن ضمّ العراق إلى جمهورية الخميني الإسلامية من دون اكتراث لها، لأنّه ينظر إليها على أنّها ديماغوجية سلطة ثيوقراطية، تحاول تلمّس طريقها وسط حقل ألغام في ليلة دامسة الظلام، ولهذا نظرت الأسرة الدولية إلى نوايا إيران على أنّها شعارات حرب سرعان ما تتلاشى بمجرد تغيير مسارها. كان الدعم الدولي للعراق بحدوده الدنيا، فكانت «عمليات رمضان» سبباً في بداية مرحلة جديدة من التعامل الدولي مع الحرب، وخاصة من الدول العربية، وعلى الأخص دول الخليج العربي، التي نظرت فيما بعد إلى النوايا الإيرانية تجاه العراق على أنّها خطوة أولى على طريق ابتلاعها هي الأخرى وبالتدريج، ولهذا السبب ولغيره من روابط قومية وتداخل عشائري وعوامل الالتصاق الجغرافي وقفت دول الخليج العربي إلى جانب العراق من دون

مواربة، وبدأت المعونات المالية والاقتصادية تصل إلى العراق بشكل منتظم، هذا الموقف الداعم للعراق، كانت له تأثيرات إضافية، غير منح الاقتصاد العراقي قدرة المطاولة في زمن الحرب، ولعلّ هذه التأثيرات أبعد مدى من جانبها الاقتصادي.

لقد تعاملت إيران بنزق وانفعال شديدين، سياسياً وأمنياً مع الموقف المعلن الجديد لدول الخليج العربي، مما أوشك أنْ يجعل من هذه الدول هدفاً محتملاً لخطط إيرانية، بدأت بواكيرها تطفو على سطح الإعلام الإيراني، وبلغة تخلط بين المتاح والمستحيل، على صعيد القانون الدولي، لإقليم يمتلك حساسية عالية وخصوصية متميزة لدى القوى الاقتصادية الكبرى في العالم، تلتقي عنده مصالح الشرق والغرب معاً، هذا بدوره أنتج اصطفافاً قوياً ضد نوايا إيران المعلنة ليس تجاه العراق هذه المرة، وإنّما تجاه دول الخليج العربي التي وجدت نفسها في قلب الأزمة من دون أنْ ترغب في ذلك أو تخطّط له، هذه العوامل مجتمعة قدمت خدمة جليلة لموقف العراق في التصدي لأطماع إيران التوسعية في الأراضي العراقية وفي منطقة الخليج العربي، وبدءاً من تموز/يوليو ١٩٨٢ دخلت الحرب العراقية الإيرانية مسارها الثالث، وهو بداية الانكسارات الإيرانية في أية عملية عسكرية تم التحضير لها.

كان محمد تقي المولى يتحدّث بآمال عريضة أو وفقاً لخطة معدة، لتدمير معنويات من يعتقده الإيرانيون قادة الأسرى من أجل إسقاط بقية الأسرى، وكانت أخبار إذاعة بغداد أو صوت الجماهير تصلنا بانتظام في أثناء وجبة السحور، ويتم توزيعها بشكل شفهي، من دون أنْ يعرف أحد مصدر هذه الأخبار، وإنْ كانت هناك خيوط تطفو على السطح، نتيجة ثرثرة البعض ومباهاة البعض الآخر، نعم مباهاة حتى في ظروف الأسر الضاغطة.

بعد إخفاق عمليات شرق البصرة التي أطلق عليها الإيرانيون اسم «عمليات رمضان» هدأ الصخب الإعلامي، وانخفض سقف الأمنيات الإيرانية التي كانت معلّقة عليها، وبدأ الحديث عن مراحل لها، وما كاد التاسع والعشرون من تموز/يوليو ١٩٨٢ يلفظ أنفاسه الأخيرة، إلا وكان العراق يزف بشرى النصر الكبير، ويبعث السيد عزت إبراهيم الدوري نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ببرقية تهنئة إلى الرئيس صدام حسين، يهنئه فيها بسحق الهجوم الإيراني وردّ القوات المهاجمة على أعقابها، بعد تكبيدها خسائر وصفت بأنها هائلة بالجنود والمعدات، وهكذا أطل عيد الفطر المبارك، وهو أول عيد نعيشه في الأسر وكأن النصر جاء هدية للأسرى ليخفف عنهم محنة الأسر.

عطلة العيدين (الفطر والأضحى) في إيران يوم واحد لكل منهما، وحجتهم أنّ عيد الفطر للصائمين فقط، وعيد الأضحى لحجاج بيت الله الحرام فقط، وأنّ للإيرانيين عيداً مذهبياً يأخذ كل اهتمامهم ويمنحونه قدسية تفوق قدسية العيدين، وهو عيد الغدير الذي يقولون إن الرسول الأكرم (ﷺ) قد أوصى فيه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالولاية. وأهمية الاحتفال به هو الطابع الانقسامي الذي يفرق المسلمين ويمزقهم شيعاً وأحزاباً.

أما العيد الآخر، فهو عيد قومي يخص الفرس وهو نوروز أو اليوم الجديد، وإن كان الأكراد يعتبرونه قضية تخصهم ولا صلة للفرس بها، وتبدأ بهذا اليوم السنة الفارسية التي تغير اسمها بعد مجيء الخميني للحكم فأطلق عليها اسم السنة الهجرية الشمسية، على حين أنها جزء من إرث الشاه السابق، وترتبط ببدء التاريخ من دولة قورش.

على كل حال كان الأمر بإطلاق سراحنا من الزنزانات الانفرادية قد صدر قبل يوم واحد من عيد الفطر المبارك، وحينما خرجنا احتفى بنا بقية الأسرى وعشنا لحظتها وكأننا بين أهلنا.

أقيمت صلاة العيد في باحة المعسكر، وأمَّنا في الصلاة الملازم الطبيب عبد المجيد غربي المشهداني وهو من أبناء مدينة الموصل، وفي الخطبة بكى واستبكى وذرف دموعاً غزيرة، وذكّر الأسرى بأبنائهم وأهلهم، والعزّ الذي كانوا فيه، والذل الذي أحاق بهم في معسكرات الأسر الإيرانية، ولعن الإيرانيين ومعاملتهم غير الإسلامية وغير الإنسانية للأسرى مما ظل محتفظاً به من مخزون البناء الفكري الذي عاشه في العراق، والغريب في أمر المشهداني هذا، أنّه بعد مدة قصيرة للغاية انخرط في صف «التوابين»، وحوّل مذهبه إلى المذهب الجعفري الإثني عشري بعد أنْ كان شافعياً منافحاً عن مذهبه، وقد تكون هذه جزءاً من التقية المعتمدة أراد بها حماية نفسه، غير أن التقية حينما تزيد عن حدود الذوق تنقلب إلى سبة تجعل صاحبها هدفاً يرمى بكل الأقوال والتقولات على العموم في زيارة لي لمستشفى الأسرى في شهر محرم الحرام طلباً للعلاج من مرض في القلب ألمّ بي، شاهدت المشهداني وقد ارتدى قميصاً أسود وبنطلوناً من اللون نفسه، إمعاناً في تأكيد صدق تحوّله إلى مذهب آل البيت كما يحلو لبعض الشيعة أن يصفوا مذهبهم.

تعمقت الانقسامات بين الأسرى، وبات من المستحيل رأب الصدع بين من هو مع الوطن ومن هو مع عدوه، لأنّ ما كان يمارسه الأسرى الخونة «التوّابون» في إلحاق الأذى ببقيّة الأسرى يقع تحت طائلة القانون، وفي وقت الحرب، مما لا يملك أحدٌ حق التغاضي عنه في أي ظرف، وكان الاحتقان قد وصل إلى مداه الذي لم يعد ممكناً معه السيطرة على مشاعر الأسرى الوطنيين.

في ١٤/٨/١٩٨٣ وبعد التعداد الصباحي، وقع احتكاك بين اثنين من الأسرى: الأول وطني والثاني باع نفسه لإيران، وتطوّر ثم تحول إلى اشتباك بالأيدي، ثم بالقضبان الحديدية المستخدمة في إقامة الطوابق الإضافية للأسرة، وتوسع نطاق الاشتباكات بلا هوادة، كان إسماعيل حمادي شقيق الدكتور سعدون حمادي، من أكثر المساهمين فيها بشجاعة، كان الجنود الإيرانيون يراقبون المشهد من نقاط الحراسة المقامة على أسطح السجن، وحينما بدأ الوضع على وشك أنْ يخرج عن السيطرة، بادر الجنود إلى إطلاق العيارات النارية في الهواء، في محاولة لتفريق المتشاجرين والذين سالت منهم دماء غزيرة من الطرفين، وبعد وقت قصير دخل إلى ساحة العرض الخاصة بالتعداد الصباحي للأسرى ضباط الصف المسؤولون عن المعسكر، أمروا الأسرى بالدخول إلى قاعاتهم الداخلية على الفور، وحذّروا من يخالف هذا الأمر بأقسى العقوبات، ثم جاء آمر المعسكر النقيب مهدي كيهاني وبدأ على الفور بإصدار التعليمات لجنوده لضبط الأمن بكل الوسائل المتاحة، كان الضابط العراقي الذي فرضه الإيرانيون علينا ممثلاً لنا باعتباره الضابط الأقدم، ولم يكن هو أقدم الضباط أو «الأرشد» كما يسمى بالفارسية، هو الرائد فارس الجادر، وهو من سكان مدينة الموصل، وسبق أنْ عمل مع المخابرات العراقية، مسؤولاً عن تدريب العربستانيين على الكفاح المسلح ضد السلطات الإيرانية لاسترداد حقوقهم وخاصة تقرير المصير، على حدّ ما كان يزعم، ولكنّه انقلب في الأسر ومنذ الأيام الأولى إلى وحش كاسر ضد الأسرى الوطنيين، ولهذا فقد نال ثقة الإيرانيين بجدارة، وحينما التقى كيهاني بالجادر كانت صورة الأحداث تأخذ ما رسمته ريشة الجادر المغرضة لكيهاني، على الرغم من أنّ الأخير محمّل بأحقاد

تطفح من بين عينيه وشفتيه بصور مستمرة، وبدأت حفلات التعذيب لعدد كبير من الأسرى، البعض له صلة مباشرة بالحدث، والبعض الآخر وجهت له تهمة التخطيط والتحريض، وطرف ثالث لا صلة لهم بالأمر بأي شكل من الأشكال، باستثناء أنّهم يحتفظون بعلاقات صداقة مع بعض من اعتبر مخططاً أو منفذاً، وجاءني المترجم العراقي ومعه بضعة جنود إيرانيين، واقتادوني عبر البوابة الرئيسة للمعسكر إلى بناية خارجية، هي مقر آمر المعسكر، وبمجرد دخولي إلى إحدى الغرف، رأيت فارس الجادر، واقفاً إلى جانب مهدي كيهاني، وانهال عليّ الأخير ضرباً ولكماً ورفساً، وبشتائم لم أكن حتى ذلك الوقت قد عرفت معانيها بالعربية، قال لي أحدهم - ربما كان فارس أو المترجم لأنني وسط الذهول من هذا الترحيب الساخن، لم أتمكن من تذكر كل تفاصيل المشهد -: تمدّد على خشب السرير الحديدي (المصنوع في أمريكا) وحينما فعلت ذلك، سحبني الجنود من قدميَّ بقوة فأخرجاهما من تحت القضبان الحديدية للسرير، وتم ربطهما بإحكام إلى السرير، كي لا أتمكن من إبداء أية حركة، وبدأت طقوس الضرب، تارة بعصا غليظة وتارة بكابل كهربائي متين يتناوب فيهما جنديان من المدربين على هذه الفعاليات، وعلى أخمص القدمين، وبقوة كأنها صدمات كهربائية صاعقة تلسع مركز الدماغ وهذه العملية يطلق عليها العراقيون اسم «فلقة»، مع كل ضربة كنت أردّد بصوت مكبوت «الله أكبر»، لا أدري كم كان نصيبي من كرم الإيرانيين، كما لا أدري فيما إذا عدلوا بين جميع المعاقبين، ربّما وصلت في العدّ إلى الخمسين، وتوقّفت عن إدراك ما يحيط بي، بعد انتهاء مراسم «تكريم أحد ضيوف الجمهورية الإسلامية» اقتادني جنديان إيرانيان لمساعدتي على المسير، فقد أصيبت قدماي بالشلل، وتعطّلت

ساقاي عن القدرة على تحمل الحركة، أخذت الرحلة طريقاً آخر غير الذي جئت منه، رجعت مرة أخرى إلى زنزانة الحجز الانفرادي الجماعي، بعد حوالى ساعة جاء الدكتور مضر النوري بالطريقة نفسها التي وصلت فيها إلى هذه الزنزانة الانفرادية كانت إصابته بأخمصي قدميه مؤلمة جداً، تركت آلامي ومضيت أعمل لقدمي الدكتور النوري مساجاً يسمح بحركة الدم في عروقهما، كان العدد في الزانزانات هذه المرة كبيراً، حشر كل عشرة أسرى في زنزانة واحدة لا تكاد تسع لأكثر من اثنين، واكتظ الممر بحوالى عشرين آخرين، وحينما أطلّ الصباح لم يكن أحدُنا ليعرف كيف قضى ليلة منتصف آب/أغسطس في بناية مغلقة من الإسمنت، كانت الآلام قد سلبتنا قابلية الإحساس بما يحيط بنا، باستثناء ألم نفسي بنا بسبب عراقيين غادروا الصف الوطني ولم يتوقفوا عند هذا الحدّ، بل أوغلوا في أبناء وطنهم السابق تنكيلاً وتعذيباً، ولأنّ بعض الأصدقاء ممن يؤثرون السلامة نفضوا أيديهم منّا وتنكروا لنا ولو بسلام فقد آثروا عدم المرور بقرب بوابة الحجز الانفرادي توخياً للسلامة وبرودة الأرض كما يقال، وذات يوم لاحظنا ونحن في مقرنا الجديد أنّ الأسرى لم يخرجوا إلى باحة المعسكر، فاستنتجنا أنّ زيارة لمسؤول إلى المعسكر ستتم هذا اليوم. مع منتصف النهار كان الأسرى يخرجون من قاعاتهم، واحدة بعد أخرى، ثم جاء دورنا، كان الفرز قد وصل منتهاه، حيث لاحظنا أنّ الأسرى الخونة قد احتلوا ركناً من المعسكر، وقد ارتفع عددهم بسبب الخوف، وأن الأسرى الوطنيين احتلوا الجانب الآخر.

وبعد انتظار طويل دخل المعسكر العشرات من العسكريين والمدنيين ومعهم بضعة معممين، قالوا لنا: إنّ محكمة النظر في

مخالفات الأسرى قد جاءت لتنظر في أحداث الرابع عشر من هذا الشهر، وبدأت المرافعات باستدعاء المشاركين بصورة مباشرة في الشجار، وبعد حوالى ساعتين دخلت الهيئة إلى الساحة الداخلية للمعسكر، وأخذت تنادي المعاقبين ولم أكن من بينهم لأن الذين تمت معاقبتهم بالفلقة لن يعاقبوا مرة أخرى، وهذا منتهى الكرم!! كان الجلد في الساحة الداخلية لقصر فيروزة وعلى سرير حديدي على ظهر الأسير بالكابل الكهربائي الغليظ وليس بالسوط الشرعي، ولا بالكيفية المحددة شرعاً للإمساك به خاصة وأنّ المحكمة قدمت لنا على أنّها محكمة شرعية إسلامية، كانت الأسلاك الكهربائية قد نزع عنها من نهاية الكابل غلافها المطاطي لتبرز الرؤوس المعدنية المدببة على هيئة نافورة، فتنتزع اللحم من الجلد وتترك نزيفاً راعفاً، من دون أنْ يتحرك المعمم لإيقاف الجلد، كان المعمم برتبة حجة الإسلام وكان يتناول شيئاً من الطعام مع آمر المعسكر وصيحات الأسرى من الألم ترتفع إلى أعالي السماء، كان الأسرى الخونة وإمعاناً في الابتعاد عن جو الوطن، يكبّرون فرحاً مع كل سوط ينزل على ظهر الأسير، ولم ينس المعمم أنْ يوجه تحذيراً بلون الدم إلى كل من يتصدى «للتوابين»، وقال: هذا درس لكل من لا يريد أنْ يعرف بأنّه أسير في الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

وذات صباح تم اختيار ٢٨ أسيراً وإبلاغهم بقرار النقل إلى معسكر آخر، وأعطونا وقتاً قصيراً للاستعداد للسفر، وكان اسمي أول الأسماء في القائمة، ولكن تبين أن الرقم قد تقلص إلى ٢٤ اسماً فقط بعد أن تم حذف أربعة من الأسماء، من دون أن نعرف أسباب ذلك.

وأسماء المجموعة وبحسب القدم العسكري:

١ ـ الرائد الركن أحمد شكر سعيد.

٢ ـ الرائد غائب ياسين سهيل الدوري.

٣ ـ الرائد الركن موفق محمد صديق.

٤ ـ الرائد محمد نجيب أو الهيجاء وهو فلسطيني.

٥ ـ الرائد عيسى حسن عيسى.

٦ ـ الرائد راشد ذياب خلف.

٧ ـ الرائد حنين عباس حسن.

٨ ـ النقيب حسين علي هيلان.

٩ ـ النقيب أحمد عبد الله صالح.

١٠ ـ النقيب منعم كريم حسين الطائي.

١١ ـ النقيب عبد الستار جواد كاظم العامري.

١٢ ـ النقيب نوري سعيد شويش العبيدي.

١٣ ـ النقيب عباس شوكت طربوش.

١٤ ـ النقيب عبد الرضا جاسم سوداني الياسري.

١٥ ـ النقيب سعود إبراهيم أحمد عللو.

١٦ ـ الملازم الأول مؤيد قاسم محمد العبيدي.

١٧ ـ الملازم الأول حسين حمادة عبد الله الجبوري ضابط احتياط وهو خريج كلية الآداب، قسم الدين.

١٨ ـ الملازم الأول عامر هادي حمد الدليمي ضابط احتياط، خريج تجارة.

١٩ ـ الملازم الأول حبيب حسن حبيب السامرائي ضابط احتياط، خريج كلية القانون.

٢٠ ـ الملازم الأول سرّاء إسماعيل إبراهيم ضابط احتياط، مهندس زراعي.

٢١ ـ الملازم مشتاق طالب خلف السامرائي.

٢٢ ـ الملازم ثائر عدنان سعيد الراوي.

٢٣ ـ الدكتور مضر محمد علي النوري.

٢٤ ـ نزار فاضل حسون السامرائي.

الفصل الخامس

في الطريق إلى خراسان

في ١٩٨٢/٩/١، كان قصر فيروزة يموج بحركة غير اعتيادية، كنّا مجموعة من أربعة وعشرين أسيراً، تضم في صفوفها الرجال الذين ربطت بينهم رفقة الموقف والوطن والرجولة، إلا ما طرأ عليها من استثناءات محدودة نتيجة صعوبة مواصلة الطريق، أو لأمراض لم يتمكن الجميع من التعامل معها بالحزم نفسه، سيشملهم النقل إلى معسكر آخر، ولكنّنا لم نبلّغ باسمه أو المنطقة التي يقع فيها، كان الجميع يعرفون أنّ عملية عزل كان يجب أنْ تحصل بين طرفي معادلة داخل محيط الأسرى: طرف قليل العدد غسل يديه من نعمة الوطن عليه، ويلقى دعماً استثنائياً من الإيرانيين، وبالمقابل أغلبية، معظمها صامت، وفيها طليعة أو نخبة، رأت أنّ الصمت عن الحق في ظرف كالذي يمر به الأسرى، وكذلك الوطن، يشكل انحيازاً بالنتيجة إلى جانب العدو، شاء من يختاره أم أبى، وكي تبعث الحيوية في النفوس كان لا بد من تحمّل تبعات ذلك، ولذلك ركبت طريق المخاطرة بالنفس، صوناً للآخرين من عار السقوط.

كان الطبيبان المجنّدان جبار عبد الزهرة ويحيى ياسين يقودان التيار «التائب»، وأوصلا لنا رسالة شفهية بأنّهم طلبوا من الإيرانيين

النقل لكل جماعتهم من المعسكر، ويقرب عددهم حينذاك من ٥٠ أسيراً، أو استبعاد «قيادات» الخط المقاوم لأنّ الحياة المشتركة لم تعد تطاق، ولأنّ الخطة تقتضي إسقاط أكبر عدد من الأسرى، فقد كان نقل «التوابين» إضاعة لفرصة «الكسب» لأنّ الهدف ليس توفير الراحة لقيادة التوابين بقدر ما تتلخص في إتعاب الأسرى لالتقاط النطيحة والمتردية، ولهذا فقد كان القرار باستبعاد الطرف الآخر يعطي فرصة نموذجية لمزيد من الاختراق.

فالنقل إذن عقوبة «تأديبية» للخط الأول من «مثيري» المشاكل تخطيطاً وتنفيذاً، وظنّ الكثيرون أنّ قصر فيروزة سيعود إلى هدوئه بعد فرز «المشاغبين»، راود معظمنا شعور بأنّ البعض من الوطنيين الذين لا يشوب وطنيتهم شكّ لم يأتوا معنا وإنْ تمنَّوا ذلك، ولكنّ البعض لمجرد الرغبة في تجنب امتحان ليس الأسر ساحته ظلّ منزوياً، على الرغم من أنّ الأسرى لم يختاروا المواجهة، بل فرضت عليهم بالقوة، ولكنّ إحساساً عميقاً كان راسخاً بأنّ الغالبية العظمى من الأسرى اعتصر قلوبهم فراق أصدقاء أعزّاء، فضلاً عن أنّهم رفاق درب قد عركتهم التجارب والمحن، والبعض أحس بخطر داهم سيقبل على الجميع، وأنّ خط الدفاع الأول قد أخرج من المعادلة.

كان عددنا أربعة وعشرين أسيراً، جمع كل منّا صرّة صغيرة، وضع فيها أسمالاً من الملابس الداخلية، وبعضاً ممّا تبرع به الأسرى الباقون في قصر فيروزة، من سكر وسجائر أو أي شيء يعبّر عن المحبة والامتنان، وتعبيراً عن التمسك بروح المواطنة والرفقة التي لن تقطعها ثنائية المكان، لأنّ صداقات الظرف العصيب كظرف الأسر، أعمق وأصدق وأنقى عند الكثيرين من سواها من الصداقات الطارئة.

كان الأسرى قد منعوا من الاتصال بنا منذ الليلة الماضية، وحصر الجميع في غرفهم، وبقينا ننتظر في باحة المعسكر، كنّا نفتش من قبل كل جندي جديد يدخل المعسكر، أو ضابط صف، هذا يجسد عقدة الدور الذي يزعمه الجميع لأنفسهم، ولا أحد يدري من هو المسؤول فعلاً، فالكل مسؤول ولا أحد مسؤول في وقت واحد، ومع تجمع عدد كبير من الجنود عرفنا أنّ لحظة الرحيل قد دنت، وبدأت عملية تفتيش دقيقة، لم يسلم وعاء إلا وتم نفض محتوياته، ثم بدأ تفتيش الأسرى أنفسهم، سلّمنا أمرنا لله، ودفعنا إلى حافلة وسط حراسة مشددة، وانطلق الركب ولم يربطوا أعيننا وإنْ كانوا قد ربطوا أيدينا، وهذا أمر هين إزاء عزل للإنسان عن الحياة حينما تعصب عيناه. كان قصر فيروزة يختفي عن الأنظار من ورائنا رويداً رويداً، وكانت شوارع طهران تبدو لنا لغزاً محيّراً، واتجهت الحافلة بنا إلى المجهول، وبعد رحلة قصيرة فيها من القلق والترقب أكثر مما فيها من الخوف - ولكنّنا كنا نمضي في طريق لم نأسف على ما قدمنا فيه من تضحيات - توقفت الحافلة أمام بوابة كنّا قد غادرناها قبل بضعة شهور، هي محطة القطار المركزية لمدينة طهران، ولكنّنا لم نعرف إلى أين نحن ذاهبون، ولم نكن قادرين على تغيير وجهتنا، كنّا نتحرك باستسلام لقدرنا.

كانت المحطة مكتظة بالمسافرين، فسعة الرقعة الجغرافية لإيران تجعل من القطار واسطة النقل الوحيدة، القادرة على الإيفاء بمستلزمات الراحة والأمان، وبما يتناسب مع الدخل العام للفقراء فضلاً عن أن الطرق الخارجية لم تكن في حال مناسبة للتنقل بالسيارات، ونتيجة للحالة التي جئنا بها، أصبحنا هدفاً لعيون الجميع، حجزت لنا عربة كاملة هي العربة الأخيرة من القطار، كي

يمنع الاختلاط بنا، وعرفنا أنّنا متجهون إلى مشهد، عاصمة إقليم خراسان، ويبدو أنّ هناك توقيتات لقطارات المسافات البعيدة، إذ تتحرك مع الثانية بعد الظهر كي تصل وجهتها مع ضحى اليوم التالي، اخترق بنا القطار أراضيَ زراعية، وجبالاً ليست عالية، ومناطق رملية، ولم يصادفنا نهر على الطريق فإيران لا أنهار فيها إلا بما ضمته إلى أراضيها من أقاليم دول أخرى كما هو الحال مع نهر الكارون في إقليم الأحواز العربي، كان القطار يتلوى في طريقه كأفعوان خرج لتوه من سبات طويل، إذ كنّا نستطيع رؤية بدايته في بعض الانحناءات، فالطرق جبلية، والأنفاق فيها لا تكاد تذكر، وهذا يجعل سرعته في حدها الأدنى، كنّا نقتل الوقت الممل بالنظر وراء الأفق البعيد، كان يشاركني بالقيد الحديدي المرحوم الرائد غائب ياسين سهيل الذي توفاه الله في حادث سيارة بعد عودته من الأسر، وعلى الرغم من أنّ الجنود الإيرانيين كانوا مبلّغين بأوامر صارمة بمنع اختلاط المسافرين بنَا، إلا أنّ العشرات من ركاب القطار كانوا يتحدّون الجنود إمّا كمشاعر إنسانية لا يمكن مقاومتها، أو تعبيراً عن معارضة مكظومة لنظام الخميني، أو لفضول التعرف إلى من يقتل أبناءهم، أو للتعبير عن شماتة غير متاحة في كل الأوقات، كان الإيرانيون يدخلون العربة المخصصة لنا، القليل منهم كان يحمل مشاعر عدائية، لكنّ معظمهم كان يسلّم علينا بودٍّ وألم لما نحن فيه والبعض بدافع الفضول، وكانوا يدخلون بحوارات تبدو ساخنة مع الجنود وإنْ كنّا نجهل تفاصيلها، الكثير كان يريد أنْ يقدّم لنا شيئاً من الأطعمة أو الفاكهة أو الحلوى، وحينما كان الجنود يرفضون ذلك، فإنّ النساء والشيوخ كانوا يتحدّونهم، وأمام إصرارهم كان الحراس يستسلمون للأمر الواقع ويأخذون هدايا الإيرانيين، ولأن النسوة كنّ يتابعن مآل تلك

الهدايا، كان بعضها يصل إلينا على كراهة من الجنود، لم نكن في وارد من يبحث عن تفاحة خراسانية أو أي شيء آخر، ولكن هذه المشاعر تبقى مخزونة في ذاكرة الواثقين بأنفسهم ولا يخشون من سرها إثباتاً للحقيقة، كنّا منشغلين بمعاناتنا، وخاصة الحاجة إلى الحمام، عن التفكير بقابل الأيام، فالجنود يتوقعون أنّ كل من يريد الذهاب إلى حمام القطار، وكأنّه سيقفز منه ويهرب في هذه الأرض المفتوحة، وتشدّد الجنود معنا ليلاً على نحو حولوا سفرنا هذا إلى جحيم، البعض منّا أخلد إلى النوم، والبعض الآخر ارتبط نومه برفيقه في القيد، وبعد سفر استغرق نصف النهار والليل كله، كنّا نقترب من مشهد، استغرقت رحلتنا حوالي عشرين ساعة، كان القطار في نهايتها يقطع المراحل الأخيرة من رحلته بتثاقل، ويمر بمنحنيات فرضتها الطبيعة، وبدأ القطار يضغط على كوابحه، فاستعد الركاب للنزول، ودبت حركة غير اعتيادية عند أناس جاء كثير منهم مدفوعين برغبة كامنة في زيارة ثامن الأئمة الإثني عشر عند الشيعة، وهو علي بن موسى الرضا.

بعد أنْ أوشكت عربات القطار أنْ تفرغ من ركابها تهيَّأنا للنزول منه، وجدنا المحطة حسنة التنظيم، جميلة التصميم، نظيفة الأرض على الرغم من شدة الازدحام وهي موروثة من زمن الشاه، جلسنا على أرائك ثابتة في الفناء الرئيس للمحطة، ولم يطل انتظارنا هناك، إذ قدمت حافلة متوسطة الحجم، فركبنا فيها ومعنا جنود الحراسة، ومضت تقطع بنا الشوارع والطرقات الضيقة في مدينة بعيدة بأكثر من ألفي كيلومتر عن جبهات القتال، وأجواؤها لا تشي بشيء من رائحة البارود، طرقها معبّدة جيداً وأرصفتها كذلك، ومشجّرة بتناسق ينسجم مع أهميتها الدينية عند الإيرانيين.

من بعيد لاحت لنا القبة الذهبية، تعكس أشعة الشمس في يوم

صاف، كان الطريق المحيط بالقبة دائرياً حولها من كل الجهات، مررنا بجزء من ذلك الطريق سريعاً، ثم خرجت بنا الحافلة إلى أحد الطرق الجانبية، وبعد وقت قصير مالت بنا الحافلة، وتوقفت عند حاجز للبوابة الخارجية لمعسكر الفرقة ٧٧ والتي يطلق عليها الإيرانيون اسم الفرقة الذهبية أو فرقة ثامن الأئمة، وبعد ترتيبات سريعة مع حرس الباب النظامي للمعسكر وقراءة القوائم التي دونت فيها أسماؤنا، اندفعت الحافلة في الطرق الداخلية للمعسكر، وأخيراً توقفت، وبدأت الأحداث تتسارع.

بدأنا بالنزول من الحافلة، اصطففنا على مقربة منها، وقف ضابط ضخم الجثة فيه ملامح قاسية، وكأنّه وحش يهم بالتهام فريسته، ووقف معه عدد من الجنود وضباط الصف، كان يحمل بيده سلكاً كهربائياً غليظاً (كابل)، كان ينقل الكابل من يد إلى أخرى بحركة استعراضية، يريد بها زرع الهلع في نفوس «الضيوف الجدد»، تحرك الجنود نحونا وفكوا قيودنا وأعادوا ترتيب صفوفنا على نحو يسهّل مهمة سيدهم، بدأ الضابط وكان يحمل رتبة ملازم أول لا تناسب عمره ولا هيئته، وعرفنا فيما بعد أنّ اسمه محمد علي معاوني وكان آمراً للكامب الثاني للأسرى في مقر الفرقة ٧٧، بدأ بتفتيشنا من دون انتظام وكأنّه يخشى أنْ يفلت أحدنا أو جزء منه من قبضة وحش تزيّا بزي إنسان، وأخفى همجية وراء أسوار إنسانية ميتة، كانت ضرباته القوية بالسلك الكهربائي تستقر على أي جزء من أجسام الأسرى، وصل مرحلة من الهيجان، بدأ بقراءة الأسماء، حينما وصل إلى اسم الدكتور مضر النوري، ظنّ أنه طبيب فقال بصوت عالٍ جداً: «دكتور سوف أضربك إبرة لم يسبق لك أن ضربتها لأحد»، كان من العسير على أحد إعطاء تفسير للحالة التي تتفجر في داخل محمد علي معاوني، إلا أنّها محاولة

للانتقام الأعمى، ولإدخال الرعب في قلوبنا، لم يكن أي منا يعرف متى تهوي عليه ضربة «الكابل» مستهدفاً بذاته، أو لمجرد نوع الثقة من قلوب هذه المجموعة المشاغبة من الأسرى، كانت تلك اللحظات تنقل آلامها على الجميع بهدف إشباع نزعة الترهيب التي يتوارثها هؤلاء القوم إذا جاءت السيول إليهم بالمسؤولية مهما كان حجمها، ويبدو أنّ صدمة اللحظة الأولى قد تحقّقت له، كي يتمكن من إطباق سيطرته على المعسكر الخاص، والذي يضم أكثر من ٦٥٠ أسيراً، ينحدرون من مدن العراق كافة ومن أعراقه وقومياته ومذاهبه وأديانه، وتم انتقاؤهم من بين آلاف الأسرى، لأنّهم على وفق التفسير الإيراني، مشاغبون من الدرجة الأولى، ولم يتوقف التعذيب على الضرب الاعتباطي إلا بعد أنْ تعب من حفلة الضحى، جلس قليلاً وهو يخزرنا بعين يتطاير منها حقد لئيم، وبدأ يقرأ القائمة من جديد، واختار من بيننا المرحوم الرائد الركن أحمد شكر شاهين والذي توفي بجلطة قلبية في معسكر «خرابة ناصر شاه» في قمصر كاشان، وكان للإهمال وتأخر تقديم الإسعافات السريعة دور مؤكد في حصول الوفاة. تعرض الرائد الركن أحمد لضرب وحشي أثار غضب بعض الجنود الإيرانيين أنفسهم، أي وحش يختفي تحت البزة العسكرية التي كانت رمزاً للمروءة والرجولة والفروسية في كل مكان إلا في إيران وإسرائيل، ومن أين جاء بكل ما يحمل من ضغينة ليفرغها على رؤوس رجال لم يعد لهم دور في المعارك، ولم يعد السلاح بأيديهم، ترى هل فكر ذات يوم ماذا كان سيفعل أو يقول لو أنّ الأمر كان معكوساً؟

تم إدخالنا إلى فناء المعسكر الداخلي، وأمر الأسرى بالاصطفاف لمشاهدة الحفلة الجديدة التي ستقام أمام الجميع، فآمر المعسكر يجد لذته في مثل هذه الفعاليات؛ إذ يقيمها كلما تمت إضافة نزلاء جدد للمعسكر.

وكان الظهر يقترب حثيثاً، فأمر معاوني بسرير حديدي، أوقفونا إلى جانب الجدار وكان معاوني ومعه جنوده يتناوبون تحويلنا إلى أكياس للتدريب على الملاكمة، والكاراتيه، وفي أثناء ذلك، كان الجنود يسحبون أحدنا ويلقون به على السرير وعلى بطنه، ويأتي أحد الجنود المفتول العضلات، ويأخذ الكابل من سيده، ويبدأ الجلد بلا رحمة أو إنسانية، كان تسلسلي ثالثاً في مهرجان الألم، وكما فعلت في قصر فيروزة، كنت أردد مع كل ضربة الله أكبر بصوت مسموع عن قرب، ومن بعيد كان صوت أذان الظهر يصل إلينا، وتداخلت تكبيرات المعذَّبين مع مقطع «حيّ على خير العمل»، وكان الجلد متواصلاً، لا أدري هل كانت محض مصادفة أن يتزامن الجلد مع أذان الظهر ومع مقطع حي على خير العمل، وبعد أنْ أحصيت خمساً وعشرين جلدة نزعت مني لحماً كثيراً ودماً، حسبتها أطول فترة حوار بين السوط وظهر رجل، توقف الضرب، عجبت ففي الإرادة متسع من التحمل، ووقف معاوني فوق رأسي، وتوقعت الأسوأ وصاح: «شما نظامي، بشن» لم أفهم شيئاً مما قال على وجه الدقة، على الرغم من أنّ معنى العبارة مفهوم لو قيل بشكل تعليمي، ولكنّ العبارة وردت وأنا في وضع صعب، ثم إنّه قالها وبلع مخارج الكلمات، ولما تأخرت بالنهوض سحبني بشدة ودفعني نحو الجدار، وجاء من بعدي دور الرائد الركن أحمد شكر شاهين، والذي تعرض لقسوة لا مثيل لها قبل قليل، وتعرّض لشبه إغماء، ولما انتهوا منه لم يتمكن من الحركة، فجاء به الجنود، وأوقفوه إلى جانبي، فأمسكت به خشية عليه من أنْ يتعرض لجولة جديدة فيما لو سقط أرضاً، واستمرت هذه الفعالية إلى آخر واحد منّا، وكان السوط لا يكف عن الارتفاع والهبوط حتى اختلط الدم بالدم.

ولم يشبع نهم معاوني من منظر الدم المتدفق بغزارة من الأجساد المتعبة، بل واصل مهرجان تنفيسه عن حقد دفين، فأمر بدفعنا كقطار عربة تسحب الأخرى، ولكنْ في عملية فيها من نذالة الفعل ما يبقى مستيقظاً في ذاكرة تستنهض حقداً مضاداً، إذ أمرنا معاوني أنْ نقف طابوراً ويمسك كل واحد بأذن الذي أمامه، ولأنّ الأخير لا يمسك بأذنه أحد، فقد تولى جندي إيراني ضربه بنعل مطاطي على رأسه طيلة المسيرة من الفناء إلى الزنزانة المخصصة لنا، كنا في آخر رصيد من قدرة الحركة وكان الأسرى الآخرون ينظرون إلى ما يحصل لنا بغضب وألم ومرارة، يمكن قراءتها من الوجوه الشاحبة والأبدان التي أرهقها هزال نتج من عدم التعرض للشمس، وجوع حوّل الأسرى إلى هياكل عظمية. نعم على الرغم مما كنّا نعانيه من شعور بالضيم والقهر من هذه الممارسات الوحشية التي ترافقت مع أذان الظهر، وفي إيران التي تطرح نفسها بلداً يريد بعث القيم الإسلامية إلى الحياة، وإذ يتكرر «حيّ على خير العمل» بعد «حي على الفلاح»، كنّا نؤمن بأنّ ما لحق بنا من عدونا طالما يأتي من عدو فإنّه لا ينال من كرامتنا وإن نال من أجسادنا، ثم إنّه يعكس حقيقة ما يحصل في جبهات الحرب وخسائر يتكبّدها الإيرانيون، كان الأسرى القدامى مشفقين على قادتهم من هذه المعاملة المستلة من أساليب أكثر الأقوام تخلفاً ووحشية، ومع ذلك فإنّ البعض القليل من الأسرى، ربمّا يكون قد شعر بشيء من الشماتة بما حصل مع الضباط، بسبب نوعية العلاقة بين الضابط والجندي والتي تتسم بالضبط العسكري الحازم الذي من دونه يفقد أي جيش في العالم قدرته على إنجاز واجباته التي يأتي الموت في مقدمتها، هذا الإحساس الذي توَلد لدى البعض قد لا يكون دقيقاً ولكنّه إنْ صح فهو يدعو للأسف نتيجة تغليب النظرة

المهنية الضيقة على أكبر القضايا الوطنية، وحتى في أكثر الأوقات حاجة لتغليب الوطني على الشخصي والمهني.

مع الوقت عرفنا هذا السجن، كان يتبع السافاك السابق وكان مخصصاً لمعارضي الشاه وإنْ بقي سابقاً في أساليبه، وهو يحمل الرقم (٢) أو (كامب دو)، وهو تابع للفرقة (٧٧) من الجيش الإيراني، إذن هناك سجن آخر يحمل الرقم (١) وهذا ما تأكد لنا فيما بعد، ولكنّ نزلاء المعسكر المذكور يعيشون ظروفاً مثالية في كل شيء، في المراسلة مع الأهل، وفي التجوّل المفتوح تحت أشعة الشمس، وفي نوعية الطعام، ومنذ اللحظات الأولى تعرفنا إلى أسماء ثلاثة من الوحوش بالزي العسكري الإيراني، الأول هو آمر المعسكر الملازم أول محمد علي معاوني، أما الآخران فهما جنديان فشلا في اجتياز دورة تدريبية للجودو والكاراتيه، فوجدا في الأسرى فرصتهما للتعويض عن الإحساس بعار الإخفاق، الأول اسمه تيموري، والثاني بولادي، كلاهما قصير جداً، وهذا أضاف إلى عقدة الفشل في الدورة سبباً مضافاً إلى عامل الحقد على كل من يزيدهما طولاً ولو بسنتمتر واحد، وقد أذاقانا مرارة الأسر مضاعفة، وحينما التقينا بالصليب الأحمر لأول مرة بعد عشرين عاماً من الأسر، وأخبرناه عن المعسكر المذكور، نفى توفر أية معلومات عنه، وعلى الرغم من أنَّ الوقت كان قد فات، فإنَّ ذلك يعكس إخفاقاً من جانب الصليب الأحمر في إدارة ملف الأسرى العراقيين، وكذلك إخفاقاً من جانب أجهزة الاستخبارات العراقية في جمع المعلومات عن معسكرات الأسرى وتوصيلها إلى اللجنة الدولية للصليب الأحمر، حتى بفرض أنَّ هناك من داخل القيادة العراقية من ينظر إلى قضية الأسرى على أنها ظاهرة لا تستحق التعاطف والمتابعة، فهي قضية سياسية وإعلامية يمكن للعراق أن

يكسبها في معركته ضد إيران ولكنه لم يفعل، وتبقى هذه الفكرة تهيّج كثيراً من مشاعر الحزن والألم في نفوس الأسرى وعائلاتهم لما اعتبروه تجاهلاً لهم.

ألقى بنا حراس المعسكر في حجرة أبعادها أربعة أمتار بأربعة أمتار، لم يكن الوقت يسمح بالانتظار، كان علينا اقتسام المكان مع محيط الغرفة، بل كان يفترض استغلال أقل من ثلاثة جدران، ففي الأول باب الغرفة الذي ينتزع حوالي متر، والثاني وتتوسطه نافذة بنيت بالطابوق ولم يحكم إغلاقها، وضعت تحتها صفيحة للتبول، فالمعسكر الذي يقيم فيه أكثر من ستمئة وخمسين أسيراً، يوجد فيه مرحاضان فقط، أي أنّ الأسير الواحد لا تتاح له فرصة قضاء حاجته إلا مرة واحدة كل ثلاثين ساعة، ولمدة لا تزيد على دقيقة واحدة. كان وضع الصفيحة أشبه بالمسرحية، إذ إنّ الحراس أبلغونا بأنّ آمر المعسكر لا يعرف بأمرها، ولو عرف لمنعها، ولذلك فإنّهم يجازفون وعلى مسؤوليتهم الخاصة بإبقائها، وعلى ذلك فإنّ علينا تفريغها قبل التفتيش الصباحي، وإذا غضب جندي علينا لأي سبب أو من دون سبب. فإنّ هذه الصفيحة تختفي عقوبة لنا، وهذا ما كان يدفع الكثيرين منّا إلى الامتناع عن شرب الماء احترازاً للنتائج، وهذا فاقم من وضع مرضى المجاري البولية، وأصاب الأصحاء بهذه الأمراض، أمّا قضاء الحاجة، فقد كان مأساة كاملة لنا، لأنّ التوقيتات المخصصة للضباط محددة ولا يمكن تجاوزها، فرض الكثير من الأسرى على أنفسهم تحديد كمية الطعام الذي يتناولونه علاجاً لهذه المعضلة، على الرغم من قلة كمية الطعام أصلاً.

آمر المعسكر يأتي كل صباح، ويتنقل بين الأسرى كالطاووس، ولكنّه كان يتحول إلى كائن ضعيف أقرب إلى الفأر منه

إلى الإنسان، حينما يزور المعسكر معمّم من المعمّمين ومهما كانت رتبته، كان يصدر أوامره أمام الجميع: «اجلبوا اليوم مئتي حصة من الطعام»، ويرتفع الرقم وينخفض تبعاً لمزاجه الخاص، وربما يؤثر في قراراته وضعه العائلي أو الوظيفي، ولكنّ الزيادات على كثرة ما يردد أرقامها لا تصل إلى نصف عدد الأسرى الموجودين في المعسكر، ومن قبيل تحريضنا على أسرى المعسكر الآخر كانوا يقولون لنا إنّهم يأخذون حقكم، وحتى بفرض صحة هذا القول وهو صحيح إلى حد ما للأسف الشديد، فالمسؤولية لا تقع على عاتقهم، بل يتحمل الجانب الإيراني مسؤوليتها، فهم يريدون عبر هذا الأسلوب إقناع البعض «بالإكراه» بطلب النقل إلى «كمب يك»، وكذلك زرع الشكوك بين الأسرى.

واجهتنا في هذا المعسكر معضلة حقيقية على الصعيد الإنساني، فالطعام الوارد إلينا وعلى قلته كان يصل إلينا مليئاً بالشوائب، ولكنْ أية شوائب، قد تكون عسيرة على التصديق، وقد تكون نتيجة تصرف فردي من آمر المعسكر محمد علي معاوني، وقد تكون بأوامر منهجية لمعسكرنا بالذات، ولست هنا في محاولة لرسم صورة قاتمة من المبالغة، ولكنْ من عاش في ذلك المعسكر عاش تفاصيلها يوماً بعد يوم، هذه المعضلة كانت تتلخص بإلقاء كميات من الأوساخ، بما في ذلك ضمادات المرضى من شاش مليء بالدم والقيح وما شابه ذلك، أو برمي قطع من الأحذية التالفة لجنود المعسكر في قدور المرق المخصص لمعسكرنا عقاباً لأسراه، لمّا لاحظ المكلّفون بتوزيع الطعام هذه الشوائب المثيرة للتقزز، أخبروا محمد علي معاوني بالأمر، فتظاهر بالغضب وتوعد باتخاذ أقسى الإجراءات ضد المهملين، ولكنْ حينما تكررت الحالة تغافلوا عنها، وتوقفت معرفة الأسرى بالأمر، وحينما جاء إلى هذا

المعسكر جندي عراقي أسير معاقباً من الكامب الأول، وكان يعمل بالمطبخ، أخبر الأرشد بأنّ «معاوني» هو الذي كان يأمر برمي القاذورات في طعام أسرى الكامب الثاني، ولكنّنا واجهنا الأمر بصبر وعناد، وكان الجميع حينما يسألون عما إذا كان الطعام كافياً، فإنّهم وبصيحة واحدة وببطون خاوية، يجيبون بنعم، وكنّا نرى في الأمر امتحاناً لإرادتنا، وتحدّياً لغطرسة الإيرانيين الجوفاء، وعلاجاً لحالة الحصار الذي نعيشه.

المهم أنّ الحياة في وسط ضيّق ومغلق، وفيه من الضغوط ما لا يمكن حصره أو التكهن بالمبتكر منه، كان لا بد من أنْ تفرز الكثير من الإشكالات الثنائية والجماعية، فالطبائع المتباينة، والأمزجة المختلفة، كانت تفرض حتمية التحلي بخاصية تحمّل الآخرين مهما تقاطعت الأمزجة، فالسجون أكثر مكان يوفر المناخ المناسب لبروز مكنونات الإنسان، لأنّ من العسير أنْ يعيش الإنسان بأكثر من وجه في سجن واحد وفي وقت واحد، أو يواصل التحكم بمشاعره إلى ما لا نهاية، أو أن يتقمّص شخصية أخرى ولوقت طويل وثقيل، ولهذا كان ذوو التجربة الأوسع والعمر الأكبر هم من كان يقدم أكبر التضحيات بتحمل تصرفات الأقل منهم عمراً وتجربة، مع أنّ هذا سيضيف الكثير من الأعباء والمعاناة إليهم، إضافة إلى عبء سجن استثنائي بكل المقاييس بل وخلافاً لكل المقاييس، وكانت فورات اختلاف الانحدار الطبقي والعائلي للأسرى، واختلاف مستوى الثقافة والمعرفة، إضافة إلى عوامل ضاغطة أخرى تطل علينا بين فترة وأخرى لتترك خلفها أعصاباً متعبة، وعيوناً غائرة لا تعرف أين تتجه: هل إلى عدوّ لم يغادر موقع العداوة على الرغم من انتهاء العمليات الحربية بالنسبة إلى الأسير من الناحية العملية ـ إذ ظل هذا العدو ينظر إلى الأسرى

بهذه الصفة ـ أم إلى أسرى يضغط الزمن عليهم، وخاصة أولئك الذين كانوا يقضمون الزمن، والحرب لا تريد أنْ تضع أوزارها عن أكتافهم؟

كان ذلك الإحساس أعمق لدى الذين لم يبدؤوا حياتهم الاجتماعية، ولم ينشئوا لأنفسهم نواة عائلة أو أساساً لحياة جديدة، وكانت المحنة أكبر عند من تزوج توّاً أو باشر بخطوبة بقيت معلقة بين عقد شرعي ومجرد كلمة قيلت في ظرف لم يعد قائماً، انفعالات كهذه والقلق على الأهل لعدم وصول خبر يعطي شيئاً من الطمأنينة.

كانت الأيام تمرّ متشابهة في ما يلقاه الأسرى من عنتٍ وشدّة، وكنا نعود إلى الله في كل أمورنا، وكنا نستمد من الآية الكريمة: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥] لتخفيف وطأة الأيام علينا، ومع الوقت كان الأسرى في طريقهم إلى أنْ يعرف بعضهم بعضاً على نحو تفصيلي، ولم يكن بوسع أحدٍ منهم مهما أوتي من قدرة على التخفّي أنْ يستمر بتقمص شخصية أخرى، أو إخفاء شيء من طبائعه، وحتى تفاصيل حياة كل واحد منّا على الصعيدين الشخصي والعائلي، أصبحت صفحة مكشوفة أمام الجميع، وكذلك الحال مع الأمنيات والطموحات والآمال لمستقبل أيامه فيما لو لم يقع في الأسر، وكذلك التعديلات الداخلة على برامجه المستقبلية، على الرغم من أنّ آمال الكثيرين كانت تتقلص أو تتلاشى، وكل يوم يمرّ كان يحذف جزءاً من طموحات المستقبل، خاصة بعد أنْ دخلت الحرب نفقاً طويلاً، ولا بارقة نور في نهايته يمكن أنْ تعطي أملاً لأحد منهم.

ولأنّ الوقت مملوء بأزمات توحي بنهاية قريبة وحتمية لحياة

كل واحد منّا وبطرق متشابهة أو متقاربة بين جدران أربعة، ورفاق درب فرضت وجودهم ظروف استثنائية، وغربة قسرية، فلعل الكثير من الأسرى بدأ باستعادة شريط حياته، هل قصّر مع أحد من والديه ولم يعطهما حقهما من البر والرعاية كما أمر الله سبحانه؟ وهل أساء لزوجته وأولاده وإخوته وأقاربه؟ وهل ظلم أحداً من أقاربه وأصدقائه؟ ترى أين ارتكب خطأ أو خطيئة استحق بسببها هذه العقوبة الربانية؟ وهل هناك متسع من الزمن للتكفير عنها أو تصحيح المسار؟ وإذا حال دون ذلك الأسر وتقطّع الأسباب، فهل يكفي الندم والألم للمغفرة؟ كثيرة هي الأسئلة التي يسترجع الأسير سالف أيامه ويستدرج ذاكرته كي تعرضها أمامه، يطرح بعضها بصوت عال مع أصدقائه الخالصين، وكثير منها يبقى حبيس العقل اليقظ، ولكنّ النوم كفيل بإطلاق بعضها من سجنها، فقلّة هم الذين لا يتحدثون أثناء النوم فيكشف المستور، وغير هذا هناك الفرص الضائعة أو تعثّر الحظ، أو الإخفاق هنا أو هناك، ولم يتصادف أنْ أعطى أسيرٌ نقص الكفاءة والخبرة سبباً في الإخفاق، فالجميع يتحدث عن الخبرة والكفاءة والإخلاص، ولكنّ الفرصة ضاعت منه لأنّ من بيده زمام الأمور لا يحكم بالعدل في وضع الرجل المناسب في المكان الجدير به، وهناك من يحمّل سوء الحظ جزءاً من المسؤولية، لم أسمع طيلة عشرين عاماً أحداً ألقى باللائمة على نفسه في إخفاق، سواء ما يتصل بحياته السابقة أو ما جرى في جبهات القتال، كل واحد منّا كان حريصاً على طرح أحسن ما عنده من بضاعة، وهذا أمر طبيعي في سلوك الأفراد والجماعات.

كان الأسر جامعة للحياة من دون كليات أو مقاعد دراسية، التجربة غنية وفيها أهمّ الشهادات التي يمكن أنْ يحصل عليها الإنسان، الجميع طلبة والجميع أساتذة، والحاذق النابه من يستطيع

أنْ يكونهما معاً كي يتزود بالمعرفة التي لم تسعفه حياته السابقة للحصول عليها، وينقل ما يريد مما اختزنه للآخرين، وخاصة بعد أنْ تعطلت سبل المعرفة، فالكتاب أي كتاب ممنوع من الوصول إلينا، ولذا كانت الخبرات تنتقل وتكتسب من المخزون الذاتي للأسرى، وليس كل من يمتلك معرفة في أحد حقولها قادراً على نقلها أو راغباً في ذلك، وبالمقابل ليس كل من يريد الحصول على المعرفة قادراً على اكتسابها، فالقدرات الشخصية في الأخذ والعطاء متفاوتة وبدرجات تبدو مذهلة أحياناً.

لم يكن الوضع على هذه الدرجة من السلاسة دائماً، فلكل أسير خلفية ترسم مسار سلوكه وخارطة طريقه؛ إذ كانت المشاعر تتأزم لأي سبب من الأسباب بين شخصين، لتجد الأزمة نفسها قد تحولت إلى همّ للجميع، نتيجة التعاطف المتقابل مع طرفي المشكلة، وكنّا نعيش على أعصابنا لساعات طويلة، وأحياناً لعدة أيام، وفي مثل هذه الظروف يبرز دور العقلاء الذين يحظون باحترام أطراف الخصومة، إمّا لعمر أو لرتبة أو لمكانة، لكن هذا كله لم يكن ليمنع فينا لحظة الحلم بالفرح، كان هناك من يمتلك طراوة الصوت وحسن الأداء، وكنّا نستضيف أم كلثوم أولاً للرد على معاناتنا المريرة، بل رأى البعض في الغناء تعبيراً عن قدرة الأسير على مواجهة الضغط النفسي وتحمّله بل وتحويله إلى طقوس فرح، حتى إذا كان الغناء ممزوجاً بالنشيج، ولأنّ الغناء كان محرّماً على المواطن الإيراني، رأى البعض أنّ في دخول منطقة المتعة الممنوعة مغادرة نفسية للسجن إلى أجواء يحلق كل واحد في الفضاء الذي يريد، فضلاً عن كونها مغامرة قد ندفع ثمناً جماعياً لها.

من الطرائف الجميلة التي مررنا بها أننا كنا نتواصى بتسليم

أمرنا لله، وذلك بحثّ من لم يكن يؤدي الفروض الدينية أن يؤديها، وخاصة الصلاة، وبعد أن نجح أحد الأسرى بإقناع صديقه بأن يصلي بعد عدة شهور من المعاندة، على أمل أن يستجيب الله لدعاء أي منا بالفرج القريب، جاء صديقه بعد أسبوع واحد من بدئه الصلاة مستغرباً أن الفرج لم يأت، قائلاً ها أنا أؤدي الصلوات الخمس منذ أسبوع ولم يطرأ شيء على أوضاعنا، فلماذا أواصل الصلاة إذن؟ في واقع الحال كانت طرفة كبيرة كنا كلما نتذكرها نبتسم وربما نضحك بصوت عالٍ.

عندما وصلنا المعسكر الجديد صادروا كل شيء كنا نحمله، الملابس والقليل من السكر، وعلب السجائر ولأنّني لم أدخّن يوماً في حياتي فلم أكن لأعرف ماذا يعني فقدان السيجارة بالنسبة إلى مدخّن مزمن، وهنا سكنت عبرات المدخّنين بل تأزمت النفوس لهذه العقوبة الاستباقية، وحينها بدأت أعرف وقع هذه العقوبة على المدخّنين، ومما ضاعف من معاناتنا أنّ المنطقة التي أصبحنا فيها منطقة باردة جداً في إيران، كانت درجات الحرارة تنحدر إلى ما تحت الصفر بكثير، ونزلت الثلوج أواخر عام ١٩٨٢ في مدينة مشهد عاصمة إقليم خراسان مبكراً، وكنّا من أبرز ضحاياها، كنّا نطالب بتوفير البطانيات بالحصة المُقَرّة، ولكنّ العقوبة المفروضة علينا لم تكن لتسمح بخطوة من هذا القبيل، كان هنا نائب ضابط إيراني متعاطف مع الأسرى، اسمه رضواني ويبدو أنه متعاطف مع منظمة مجاهدي خلق الإيرانية المعارضة لنظام الشاه ومن بعده لنظام الخميني، وعدنا بأنْ يجد لنا حلاً مناسباً، وفي يوم جمعة جاء إلينا، وأبلغنا بأنّ هناك كميات من البطانيات التي تعود لجنود إيرانيين من الفرقة ٧٧ قتلوا في الجبهة وتم جلبها إلى معسكر الفرقة، وقال بإمكانكم الاستفادة منها، تشاءم البعض، ولكنّ قسوة

البرد لم تترك لنا مجالاً طويلاً لاتخاذ القرار فليس، الوقت للتفاؤل أو للتشاؤم بل لمواجهة الجنرال ثلج، ذهب مع رضواني أربعة من غرفتنا بحسب طلبه، تأخر رفاقنا كثيراً، ولمّا عادوا لم يأتوا بشيء، تساءلنا أين الإغاثة؟ أجابونا بأنّ البطانيات ملطخة بالدم الممزوج بالأطيان، وأنّها أخضعت لعملية غسل مناسبة، وبعد أنْ تجف سوف تُجلب وتُوزع بالقرعة التي اختارها الأسرى أسلوباً لتوزيع حصصهم من كل شيء.

ولكن هذه المعاناة الإضافية ليست كل ما كان علينا مواجهته، مع التعذيب والتجويع والمحاصرة، فقد وجدنا أنّ معاوني، أمر بنصب مصباح بقوة (٤٠) فولت، إنْ لم يكن أقل من ذلك، كانت خطة معاوني إضعاف بصرنا تدريجياً إلى درجة العمى، ولكنّ المصيبة الأكبر كانت في القمل، قليلون جداً من جيل الأسرى العراقيين من عرفوا القمل يوماً في حياتهم قبل الأسر، فالتطور الاقتصادي والاجتماعي الذي عاشه العراق لم يسمح لهذه الحشرة اللعينة البغيضة بالبقاء في العراق، منذ زمن بعيد ولم تتجسد معاناتنا إلا بعد أنْ حللنا «ضيوفاً على الجمهورية الإسلامية»، كما كان يحلو لهم أنْ يطلقوا علينا، المهم أنّ القمل أضيف إلى عوامل الألم والأذى التي يعيش الأسرى تحت وطأتها، ولكنّ العراقيين الذين يرون في معايشة القمل أمراً معيباً، لم يكن أحد منهم ليبوح بوجود هذا الزائر الخفيف الوزن، الثقيل في جانبه النفسي، المدمر في تأثيراته البدنية، كان واحدنا يعيش عذاباً مضافاً إلى ما نلقاه يومياً على أيدي تيموري وبولادي، وقائدهما محمد علي معاوني، ومكابدة الزنزانة المظلمة الرطبة المعطرة برائحة اليوريا، كان النور الخافت يمنع رؤية مجاميع القمل التي عاشت على دمائنا، وسلبت منّا أي شعور بالراحة، فكانت تتحرك على أجسادنا وكأنها مناشير

حديدية، وهذا ما وفّر للقمل حرية التحرك من دون قدرة أي منّا على اصطياده.

إذا رأى أحدنا زميلاً له جالساً فوق بطانيته وقد كشف عن جزء من جسمه، فمعنى ذلك أنّه يبحث عن القمل، وهذا ما يشجع الآخر ليقوم بالشيء نفسه، ووصل الأمر حداً لا يمكن التعامل مع ظاهرة القمل بالكتمان، فلم يعد هناك مبرر للخجل من وجوده، فلسنا في منازلنا لنتحمل مسؤولية وجوده، فقررنا التعاون للحد من تأثيراته، ولسان حالنا: «ما لي أكتم قملاً قد برى جسدي» مع شديد الاعتذار لأبي الطيب المتنبي، آهٍ كم هو مريع أنْ تشقَّ هذه الحشرة اللعينة طريقها بين الجلد وأغطية من أسمال بالية.

ومع ذلك فإنّ حياة جماعية من الألفة والتعاون كانت تفرض نفسها علينا بقوة المصلحة المشتركة، لأنّ حياة ضاغطة بهذا المستوى لا يمكن أنْ تعاش إلا بتنازل الجميع لبعضهم البعض عن جزء من الخصوصيات، وأحياناً كلها أمام إرادة التعايش المتقارب من حيث الضغوط، ولهذا لم يكن مسموحاً للأربعة والعشرين أسيراً أنْ يحتكموا لغير لغة الإخاء، على الرغم من أنّ هناك تفاوتاً بين ما يحمله البعض من مدارك وقدرات ذهنية وبين ما يحمله البعض الآخر.

وجد الآسرون قضية يستطيعون من خلالها التحكم بأعصاب الأسرى، وهي قضية التدخين، وما يفترض من حصة معلومة من عدد السجائر المخصصة لكل أسير، وكانت هذه الحصة تخضع لمزاج آمر المعسكر، وما أكثر ما منعها لعدة أسابيع، وبسبب التأثير المعروف، للامتناع القسري عن التدخين، كان مجتمع الأسرى يتحول إلى مرجل يغلي بالمشاعر، ويمكن أنْ تبرز مشكلة لأتفه

سبب، وأحياناً من دون سبب، إدارة شؤون الأسرى عرفت ما لهذه القضية من تأثير على أعصاب المدخنين، وبالتالي مجتمع الأسرى ككل، فأجادت توظيفها وتمكنت من خلالها استدراج الخطوات الصغيرة من التنازلات السياسية لبعض الأسرى الضعفاء، وبمرور الوقت يجد ذلك الأسير نفسه وقد انحدر إلى مواقف لا يستطيع التحرر منها، فأصبح مضطراً بعدها إلى أنْ يغرد خارج سربه، وبالنتيجة كان التقاطع السياسي يتحول إلى تقاطع على صعيد العلاقة مع بقية الأسرى، فيا له من تأثير مدّمر لهذه السيجارة، وهي من أردأ ما ينتج في معامل التبغ في أي مكان في العالم، ويبدو أن الإيرانيين لم يخططوا لقطع السجائر عن المدخنين بصورة نهائية، لذلك لم توفرها إدارة شؤون الأسرى بصورة منتظمة، لأنها تريد أن تبقي على مفتاح تتحكم بواسطته بأمزجة الأسرى.

كنّا نتعرض لنوع آخر من العقوبات وهي الزيارات الليلية للحرس الخفر، إذ يدخل أحدهم بصورة فجائية، وهو يحمل مصباحاً يدوياً ويركزه على عيني أي أسير، هذا النور القوي سيجبر أثقل الناس نوماً على الاستيقاظ، وحينذاك سيتهم بعدم الالتزام بتعليمات المعسكر التي تلزم الجميع «بإطفاء النور» أي النوم عند الساعة التاسعة من مساء كل يوم، ولا أحدَ يدري من هو أو من هم الذين ستقع عليهم حصة العذاب هذه الليلة التعيسة، ولاحظنا أنّ بعض الأشخاص يقع عليهم الاختيار بصفة متكرّرة لنيل العقاب الانتقائي، مما يعزز الاعتقاد بأنّ شيئاً ما يختفي وراء ذلك، من قبيل الاعتقاد بوجود تعليمات بذلك، أو أنّ المزاج الشخصي لجنود الحراسات الداخلية بعدم الارتياح لهذا الشخص أو ذاك هو الذي يقف وراء الاستهداف المتكرر، الذي لا يوزع العقاب بعدالة، أو على الأقل لمن يرتكب المخالفة المفترضة.

كما قلت جاء شتاء ١٩٨٢ في خراسان مبكراً وقاسياً، إذ وصلت درجات الحرارة إلى ما دون الصفر، في بداية تشرين الأول/أكتوبر، وعرفنا بعد أنْ جاء الصبح وانتشر ضوء الشمس في الآفاق أنّ الثلوج قد تساقطت بغزارة، الطقس البارد جداً ينعكس سلباً على الأسرى مرتين، مرة بمعاناتهم من وطأته، ومرة أخرى حينما يلجأ القمل إلى أبدانهم المتعبة بحثاً عن الدفء. وعلى الرغم من المحنة فإنّ مجتمع الأسرى لا يخلو من لمسات إنسانية فيها من الطرافة بقدر ما فيها من الألم واللوعة والعذاب، فقد أصيب الملازم عامر الدليمي بنزلة برد شديدة رفعت حرارته إلى حد الخطورة، وبسبب وجود بطانيتين عند كل أسير فقد اتفقنا على أنْ يتشارك كل اثنين من الأسرى على فرش اثنتين وجعل الباقيتين غطاء، كان شريك عامر هو الأسير حسين حمادة الجبوري، رقد عامر في الفراش أكثر من أربعة أيام، وحينما بدأ يتماثل للشفاء، وفي جلسة سمر قال حسين: إنّه حزين لأنّه سيفقد المدفأة التي كانت بحوزته.

بعد عدة أيام من وجودنا في قفص الثلج، سحب الإيرانيون الدكتور مضر النوري ووضعوه في زنزانة انفرادية ضيقة داخل الزنزانات المنتشرة وسط المعسكر، وكان قد نال معي حصته من الفلقة في قصر فيروزة، ومن الجلد الوحشي لدى مجيئنا إلى مشهد، وكذلك سحبوا النقيب حسين علي هيلان التكريتي، لأنّ البعض من الأسرى الذين اصطفوا مع الإيرانيين لفقوا له تهمة إيذاء الأسرى الإيرانيين عندما كان ضابط الاستخبارات في اللواء الذي يعمل فيه قبل وقوعه في الأسر، وانقطعت أخباره عنا تماماً، وكان دمث الخُلُق ودوداً في علاقاته مع الجميع، وعندما عدت من الأسر كان أول شيء فعلتُه عند نقطة الحدود هو الإبلاغ عن هيلان. كان

الرجل يحمل خلقاً راقياً ويتدخل في فض الخصومات بين الأسرى الآخرين، وبعد عدة سنوات وصلتنا أخبار باستشهاده بعد حفلة تعذيب همجية تعرض لها على أيدي الجلادين الإيرانيين الذين تفننوا في إيقاع الأذى بالأسرى، وقال زميل له في المعسكر نفسه الذي استشهد فيه إنّ هيلان وبعد أن أيقن أنّ الإيرانيين قاتلوه حتماً عزم على الانتحار بضرب واحد من زمرة التعذيب بأية وسيلة متاحة له حتى لو اضطر إلى قتله، وهذا ما حصل فعلاً، وقبله كانوا قد سحبوا الرائد الركن غضبان الخزرجي، واختفت أخباره أيضاً.

في أحد الأيام زار زنزانتنا الجماعية أحد رجال الاستخبارات الإيرانيين، وكانت كنيته أبا محمد، كان يحمل كيساً صغيراً من الورق الأسمر، فتحه وقال هناك رسائل وردت من العراق، وفي حركة استعراضية ساذجة بدأ بقراءة أسماء بعض الأسرى الذين وردتهم رسائل من أهلهم، لم نناقشه على الرغم من أننا نعرف بأن أحداً لم يرسل لنا شيئاً، فلا أحد من عوائلنا يعرف عن مصيرنا شيئاً. وبعد أن انتهى من قراءة ما كان بحوزته من أسماء مد يده في الكيس مرة أخرى وأخرج نماذج رسائل من الصليب الأحمر وقال اكتبوا لعوائلكم رسائل بأسرع وقت وسآخذها من أجل تسليمها للصليب الأحمر، لا خسارة إذا كتبنا، ولكن بعد مدة وحينما كلف بعض الأسرى بتنظيف غرفة ملحقة بمكتب آمر المعسكر وجد مئات من الرسائل التي كتبها الأسرى في صندوق كرتوني وقد ركنت في زاوية مهملة وقد تعرضت للتلف والتآكل. ربما ومن تحليل سريع لهذه الحالة، لا بد من أن نخرج بأن إدارة شؤون الأسرى كانت تسعى لزرع الشكوك بين الأسير وأسرته، وخاصة في حال تكرار توزيع نماذج الرسائل وعدم إرسالها إلى

ذوي الأسرى، فتثور ثائرة الأسير غضباً على أهله لأنهم نسوه في محنته، وحقاً كان هذا الأسلوب من بين أكثر الأساليب لؤماً، فقطع أخبار الأسير عن أهله، بل منعهم من أن يعرفوا بأنه أسير أصلاً، كان عملاً وحشياً انفردت به الجمهورية الإسلامية الإيرانية، كما لم تفعل ذلك حتى المافيات وعصابات الجريمة المنظمة.

في بدايات عام ١٩٨٣ سمعنا خبراً عن قيام فرنسا بتأجير العراق خمس طائرات، من نوع سوبر أتندارد، وهي مقاتلة بحرية وتحمل صواريخ من طراز أكزوزيت، الموجّهة ضد الأهداف البحرية عادة، ترك هذا الخبر أسئلة حائرة ونقاشات حامية بين الأسرى وهل تحمل معنى الانحياز الفرنسي الصريح إلى جانب العراق في الحرب؟ الجواب نعم قطعاً، لم يكن أحدٌ منّا يحمل معلومات عن هذا النوع من الطائرات حتى الضباط من صنف مقاومة الطائرات كانوا يجهلون خصائص هذه الطائرات، وأكثر ما أثار فضول الجميع التعرف إلى المغزى السياسي لخطوة فرنسا ذلك أنّها قامت بسابقة غير معهودة في عالم العلاقات الثنائية أو الدولية عندما أجّرتها للعراق، خاصة وأنّ الطائرات حربية، ولو كانت طائرات مدنية لما توقف أحد عند الموضوع لأنّه شائع في عالم الطيران المدني، فهي إذن لا بدّ من أنّها مؤجرة كي يستخدمها العراق لضرب حركة النقل البحري الإيراني، ولا سيما صادراتها النفطية التي تشكل العصب الرئيس لمواردها المالية، وبالتالي قدرتها على مواصلة مشترياتها من السلاح من مختلف المناشئ، بصورة رسمية أو عبر طرف ثالث أو من السوق السوداء، وتوسّع نطاق الحرب فعلاً ودخلت حرب الناقلات لتذكّر العالم بأنّ حرباً طاحنة وسط خزان النفط الرئيس للعالم توشك أنْ تشعل حريقاً لا يمكن إطفاؤه، وأنّ الوقوف موقف المتفرج لا يعفي المنتظرين من

دفع الثمن، ولكنّ إيران ردت على ذلك باستهداف الناقلات العربية، كالسعودية والكويتية، والدولية بضربات انتقامية، وأجمل ما كان يخرج به رفسنجاني تعليقاً على تلك الحوادث هو أنْ يقول: إنها رسل السماء، ولا يستطيع مداراة ابتسامته التي تصدر عنه من دون إرادة منه كلما أراد تمرير كذبة سياسية، ولهذا كان الأسرى الذين يمتلكون وسيلة إعلام، حينما يشاهدون رفسنجاني خطيباً، يؤكدون أنّ الابتسامة لا تفارقه أبداً.

ذات يوم جاء جندي إيراني وهو يحمل رزمة من الألبسة كانت موضوعة في أكياس، وألقى بها إلينا، وحينما فتحت وتم توزيعها على المرسل إليهم، كانت لي حصة منها، إذ أرسل لي النقيب صلاح العاني، بيجامة ومنشفة حمام ومبلغاً من المال كان كبيراً بمقاييس الأسر وحاجة الأسير إلى بعض المال لتسيير أمور يمكن أنْ يحصل عليها من حانوت فقير ومتنقل ترتبه إدارة كل معسكر لتمتص ما عندهم من مبالغ، وكانت للآخرين إرسالياتهم أيضاً، وهي في مغزاها أكبر من قيمتها المادية بكثير، فالكل بحاجة إلى كل شيء، وعندما يؤثر الأسير وبه خصاصة فذلك هو تجسيد روح المشاركة المعبّرة عن إيمان كامن.

حتى ذلك الوقت لم نكن نعرف شيئاً عن المرتّب المخصص لكل أسير وفق الضوابط التي حددتها اللجنة الدولية للصليب الأحمر، ولكنّنا في ضحى أحد الأيام دعينا لتسلم مرتباتنا، وفعلاً تسلم كل واحد منا مبلغاً ضئيلاً من الريالات، أو التومانات التي هي عملة وهمية لا وجود فعلياً لها، فالريال هو العملة الرسمية، ولكنْ تعارف الإيرانيون على تسمية كل عشرة ريالات توماناً واحداً، كان المسؤولون الإيرانيون يتلاعبون بعالم الأرقام استناداً إلى هذا الفارق، فإذا أرادوا تقليص خسارهم في أي مجال ولا

يريدون له أن يبدو كبيراً في نظر الشارع، يعمدون إلى ذكر المبلغ بالتومان، وإذا أرادوا المبالغة بالأرقام كأن يكون حجم ميزانية إعمار أو تعليم أو إنفاق على مشاريع تنموية أو ما شابه ذلك، يذهبون إلى الريال ويعتمدونه كرقم لإنفاقهم.

لقد حددت اللجنة الدولية للصليب الأحمر رواتب الأسرى بحسب رتبهم، مقدرة بالفرنك السويسري، وعلى الرغم من ذلك فإنّ تقدير سعر الصرف يتم من قبل جهة إيرانية من دون تدخل من الصليب الأحمر، الذي ظل عاجزاً عن التعامل مع ملف الأسرى العراقيين ومغلوباً على أمره، وبعد أنْ تسلمنا راتباً واحداً فقط، أبلغنا أنّ مجلس الشورى الإسلامي الإيراني، اجتمع برئاسة هاشمي رفسنجاني، واتخذ قراراً بتحسين ظروف الأسرى وتعديل رواتبهم على أسس إسلامية، ولم يكد موعد دفع الرواتب المتأخرة يأزف إلا وأصيب الأسرى بصدمة جديدة داخل أسرهم، إذ تم تحديد راتب كل أسير بـ(٤٠٠) ريال فقط، وسكتت اللجنة الدولية للصليب الأحمر مرة أخرى، ولم نعرف متى ستنبس ببنت شفة؟

بعد أنْ أمضينا شهرين في الغرفة الصندوق المغلق، فتحت كوة من الرحمة والفرج ففي ١٩٨٢/١١/٣٠، جاءنا تيموري وقال بلهجة آمرة حازمة: «وسائل جمع كن» أي اجمعوا حاجياتكم، وتدافعت الأفكار، وعلت الوجوه تساؤلات كثيرة إلى أين وجهتنا هذه المرة؟

ولم يستغرق جمع الحاجيات الشخصية وقتاً طويلاً لقلتها، ولأنّنا كنّا مدفوعين برغبة استطلاع الآتي، حتى إذا كان أسوأ من الحالي، فليس لنا الخيار في أمرنا من شيء، ثم إنّ التغيير بات مطلوباً على أية حال.

حينما دخلنا القاطع الذي «يرقد» فيه ثمانية وأربعون ضابطاً أُسِروا في معارك سابقة ـ وقد تمّ عرضهم على اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وهذا من بين الأخطاء الفادحة التي يرتكبها بلد يريد إخفاء أعداد من الأسرى ـ تدافع الجميع للترحيب بنا ومساعدتنا، وفي القاطع الذي نقلنا إليه كان المكان ضيقاً إلى حدود بعيدة؛ إذ يتألف من ثلاث غرف متداخلة مع بعضها، ولها باب واحد يربطها بخارجها، الغرفة الأولى كانت أشبه بالمراحيض العامة؛ إذ اصطفت إلى جانب جدرانها علب معدنية فارغة، يتبول فيها «سكان هذه الجزيرة» لمواجهة محنة «نظام النوبة الصارم» الذي يخضع له أسرى «الكامب الثاني»، لم يكن الوضع يسمح بامتيازات أكثر مما هو متاح، ولهذا تم حذف الغرفة الخارجية، وغالب الظن أنّ الأمر جاء على غير ما تمنى كثيرون من «السكان الأصليين»، واضطر الجميع إلى إعادة ترتيب فُرُشهم بما يسمح باستيعاب الضيوف الجدد، ولهذا بدأ بعضنا وأنا منهم بإصلاح جزء من الغرفة الخارجية لتحويلها من مراحيض متنقلة إلى مأوى للنوم، وجدنا أنّ المرحاض الخارجي المجاور للغرفة يسرّب إليها مياهاً قليلة، والأمر بحاجة إلى إصلاح، وفعلاً تمَّ إنجاز مهمة تحويل المرافق الصحية إلى فندق، ونظفنا الأرضية وتمَّ توزيع المكان، وكانت هناك مشاعر متناقضة لدى القدامى، فالبعض شعر بالارتياح كي يحتفظ بما لديه من مساحة، والبعض الآخر شعر بحرج لأنّه فقد مرحاضاً كان يساعده على تحمل أعباء «النوبة العامة».

وجدنا في مقرّ إقامتنا الجديد أنّ القمل والجوع والرطوبة والبرد قواسم مشتركة يتساوى فيها الجميع، ولكنّنا بدأنا نحصل على فرصة حمام عام، في حمام الفرقة ٧٧، في كل أسبوع مرة واحدة، وفضلاً عما يمنحه الحمّام من راحة بدنية ونفسية للإنسان،

فإنّه في ظرفنا كان له أهمية أكبر في إبعاد القمل عن أجسادنا يوماً واحداً، إضافة إلى توفر مراحيض كثيرة في الحمام العام، ومن الطريف في مكاننا الجديد أنّ صلاة الفجر أصبحت مفروضة علينا، المهم يأتي الجندي الإيراني ويراقب الالتزام بتأدية هذه الفريضة، وعندما قلنا بأنّ هذه الصلاة باطلة لأنّها تؤدى من دون وضوء، قال لنا الجنود غير مهم، لأنّ هذه أوامر من أجل إيقاظكم مبكراً، ولم يقتصر الأمر على صلاة الفجر، بل كان واجباً علينا تأدية صلاة الظهر من دون وضوء أيضاً، وكان علينا الاستماع إلى محاضرة ساذجة يأتي أحد المعمّمين المبتدئين، وليشرّق بنا ويغرّب من دون بوصلة في بحار الاختلافات الفقهية بين المذاهب الإسلامية، مما لم تحسمه صراعات يزيد عمرها على ١٤٠٠ سنة، وكلما تواصل البحث فيها حتى من قبل أكثر العلماء فقهاً وورعاً وتقىً كانت هوّتها تزداد اتساعاً، وحينما يتدخل بعضنا لتصحيح بعض المفاهيم الملتبسة عند المحاضر كان يعتذر ويبرر ذلك بأنّه لم يدّعِ العلم وأنّه يحاضر فينا لأسباب مادية إذ يحصل مقابل ذلك على أجر زهيد من الدائرة السياسية الأيديولوجية في الجيش الإيراني، وكان يشكو لنا من أنّ أسرته باتت تعاني القمل الذي ينتقل إليه من فُرُش الجنود التي نصلي عليها، ولما لم تكن لمعظمنا ثقة بإمامته للصلاة، فقد كنا نعيدها في وقت لاحق.

لم تكن تلك هي الظروف الضاغطة وحدها التي يقاسي منها الأسرى، بل برزت عوامل جديدة وأخذت تفرض نفسها عليهم في الوسط الجديد، أو يفرضونها هم على مجتمع الأسرى، وبدأت الخطوة الأولى في حفر خندق بين «القدامى» و«الجدد»، فالقدامى يطرحون أنفسهم على أنّهم الأكثر خبرة في معرفة ظروف الأسر،

والرتبة الأعلى عندهم، فهم والحال هذه هم المهيّؤون «للقيادة»، وعلى الجدد القبول بهذه الحقائق. كان إطاراً عاماً لتقسيم الأسرى، وليته كان الفرز الوحيد، فقد برزت على السطح تكتلات فرعية وفق عوامل أملتها اعتبارات العمر المتقارب والرتبة الواحدة، أو الدورات في الكلية العسكرية، وكان الصراع الأكثر انسجاماً مع الشخصية العسكرية، التي تحاول التعويض عن أمجاد البزّة وعصا التبختر والتحية المفروضة، بقدم يفرض نفسه على بقية الأسرى، مع غياب أدواته المدعومة بقوة القانون، فالوضع يستند الآن إلى قوة الإقناع ومتانة السلوك والصلابة بوجه الضغوط الإيرانية والمحافظة على البوصلة الوطنية أكثر من أي معايير وضوابط قانونية، ولكنّ عقدة الرئاسة التي يعيشها عدد ضئيل من الضباط كانت تثير الإشفاق في أحيان كثيرة، فالكل في الأسر يخضع لسلطة جندي إيراني لا يحسن غسل يديه بعد ذهابه إلى الخلوة، وعلى الكل إطاعة أوامره من دون نقاش، ولكنْ حينما يمضي الجندي الإيراني بعيداً تبرز تناقضاتنا على السطح، وحينذاك سيتحرك البعض من الأسرى، ولنوازع خاصة، أبعد ما تكون عن قدسية الرتبة العراقية، في النفخ في مكانة الضابط الأقدم، لأنّهم في واقع الحال، استطاعوا التسلل إليه، ورسم تحركاته على وفق ما يؤمّن لهم امتيازات الظرف الخاص، فوقفوا مدافعين عن زعامة الضابط الأقدم، على الرغم من أنّ الرجل لم يستشعر يوماً أنّه يمتلك أدواتها، وبالمقابل كان هناك إحساس عميق بأنّ المعركة الحربية قد انتهت بالنسبة إلى الأسير من لحظة سقوط البندقية من يده، وأنّ المعركة أصبحت سياسية تتطلب مهارات خاصة في إدارة صفحاتها، حماية للأسرى بالتعاضد المتبادل وليس بالوصاية المفروضة من

الرتب الأعلى التي قد لا يصمد بعض حامليها، مما قد يجر وراءه آثاراً سيئة على مجتمع الأسرى، يستغله بعض أصحاب النوايا والأغراض المقصودة، لإسقاط الآخرين تحت لافتة أنّ الكبار اختاروا طريقاً فيجب الاقتداء بهم. وهنا برزت قضية دور التنظيم الحزبي في مجتمعات الأسرى، والتي ركّزت على مقولة إنّ الضباط فشلوا في إدارة المعركة الحربية في ميادينها، وبالتالي فإنّ تسليم القيادة لهم بمعركة من طراز جديد يعد تفريطاً بمصير الأسرى، ولم تخلُ هذه الدعوة كسابقتها قضية القدم العسكري من نزاعات لا صلة لها بالموقف الوطني والمبدئي، وتنطبق عليها احتمالات سقوط الكبار من القادة الحزبيين، وما يجرّه من توظيف لإسقاط الآخرين، التنظيم الحزبي كان يريد انتزاع دور المسؤولية من القدم العسكري في وسط لا قيمة فيه لأي قدم، ولكنْ هناك رغبات في إذكاء صراعات جعلت الأسرى يدفعون ثمنها باهظاً.

هذه الأوضاع كانت كفيلة بتفجير المشكلات بين الأسرى لأتفه الأسباب، وهذا هو مجتمع السجون عموماً، ومجتمع الأسرى بشكل خاص، وأخذت الاصطفافات الخاطئة تبرز للعيان، ومن بين هذه الاصطفافات الانتماءات الطائفية والعرقية والعشائرية والمدائنية والمناطقية، وكذلك الانتماء إلى صنوف الجيش أو الدورات في الكلية العسكرية، وظلّ الجوع والقمل والتعذيب في هذا المعسكر هموماً مشتركة لأسرى فرقتهم المشارب المختلفة.

أطل علينا يومُ ١٩٨٣/٢/٨ بارداً جداً، كانت عناقيد الجليد تتدلى من السقف المعدني للقاعة التي حشر بها أكثر من ٦٥٠ أسيراً حشراً، كان منظر الجليد على قسوة البرد خلاباً ويرسم

أشكالاً فنية مختلفة، وما أنْ تنادى الجميع للنهوض حتى بدأت الأخبار تتوالى عن بدء عمليات عسكرية كان مرسوماً لها أنْ تقترب في قاطع شرقي العمارة، كانت بدايات العملية قد حققت نجاحات موضعية، كان الحشد المعنوي لها كبيراً، حضر في مقر القيادة المتقدم كل من مير حسين الموسوي، رئيس الوزراء الإيراني حينذاك، وباقر الحكيم رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وجزّار الأسرى بلا منازع، وشخصيات عسكرية وسياسية، كانت فرضية النتائج توحي بأنّ باقر الحكيم سينتقل إلى مكان ما داخل الأراضي العراقية لتولي مسؤولية التنسيق مع القوات الإيرانية التي ستواصل تقدمها من مدينة العمارة شمالاً حتى بغداد، ولما أخفقت القوات الإيرانية في تحقيق أهدافها من ساعاتها الأولى تم إطلاق اسم «والفجر التمهيدية» عليها، وبسبب الخسائر الجسيمة بين جنود الجيش وأفراد الحرس ومتطوعي التعبئة «البسيج»، في تلك العملية التي استغرقت بضع ساعات من بدئها، فقد كان لزاماً على الأسرى أنْ يدفعوا ثمن هذا الإخفاق، وخاصة الضباط منهم، وبدأت العقوبة بتجميعنا في مكان واحد، وتتلخص بالنهوض والجلوس المتناوب وبأوامر من جندي إيراني، وإمعاناً في إيذاء الضابط فقد استدعى الإيرانيون جندياً عراقياً لإصدار الأوامر، ولكنّ الجندي العراقي الذي وجد في ذلك امتهاناً لشرف العسكرية العراقية، كان ينفذ العقوبة أيضاً على الرغم من أنّ ذلك لم يكن مطلوباً منه، وهذا ما جلب له غضب الإيرانيين وفرضوا عليه عقوبة قاسية، واستمروا بتنفيذ عقوبة الضباط، حتى وصل العد إلى أكثر من ١٠٠ نهوض وجلوس وعندها بدأ البعض من المرضى وكبار السن بالتساقط، وكان هؤلاء يتعرضون للضرب والركل حتى ينهضوا

ويستأنفوا تنفيذ عقوبتهم، وبقي البعض منّا لعدة أيام لا يستطيع الوقوف أو المشي نتيجة التمزق العضلي الذي أصاب أرجلنا، كان واضحاً أنّ العقوبة جاءت للتنفيس عن خسائر تكبدتها الفرقة ٧٧ ومعظم جنودها من خراسان.

الفصل السادس

صخرة الموت

تقلبت بيننا الأيام سريعة تارة وبطيئة جداً معظم الأحيان، وما أنْ أطل علينا يوم الثاني والعشرين من شباط ١٩٨٣، إلا ودبّت حركة غير معتادة في المعسكر، وتمّ إبلاغنا بأنّ أمراً قد صدر بنقلنا إلى معسكر آخر، وتتجدّد الآمال بفرج موضعي على الأقل في حياتنا، وظننا أنّ شيئاً من ذلك على وشك أنْ يتحقق، عصبت عيوننا بإحكام، ووضعت القيود في أيدينا إلى الخلف، واقتادنا الجنود تباعاً إلى الحافلات وتحركت بنا تباعاً، كان الطريق أطول من حقيقته كثيراً، فالإنسان حينما يعزل عما يحيط به، ويكبّل بأغلال قاسية وإلى الخلف، لا يفكر حتى بالحرية، بل بالخلاص مما هو فيه آنياً.

المعسكر الجديد وكما عرفنا لاحقاً هو قلعة تاريخية تم بناؤها بين العشرات مثلها، على مسافات متساوية على طريق زوار المراقد الشيعية، بين مشهد والمدن الإيرانية، وتم إنجازها قبل أكثر من ٣٠٠ سنة، والمسافة بين واحدة وأخرى مسير نهار على ظهور الدواب، والقلعة التي تمّ تحويرها على أيدي الأسرى أنفسهم إلى معسكر للأسرى، تسمى قلعة «سنك بست»، أي الصخرة الصماء، والتي أصبح اسمها فيما بعد «صخرة الموت»، لما لاقاه الأسرى

فيها من فنون التعذيب والقتل المتعمّد بالأمراض والإهمال. تقع القلعة على مسافة ٤٠ كيلومتراً إلى الغرب من مدينة مشهد مع انحراف قليل إلى الجنوب، لا يمكن وصف القلعة من الخارج، لأنّنا دخلناها مرتين معصوبي الأعين وتركناها مرتين ونحن كذلك، أمّا من الداخل فهي فناء مربع تحيط به قاعات مختلفة المساحات وغرف كثيرة، وفي البعض منها مرابط للدواب والغرف الصغيرة التي تنتشر على جوانب فناء القلعة. ترتفع عن مستوى سطح الأرض بمتر تقريباً، وكانت مخصصة لعلية القوم يوم كانت خانات لزوار أضرحة أئمة الشيعة، أما القاعات الكبيرة فهي لعامة الناس.
المدخل الرئيس للقلعة بوابة كبيرة جداً من حيث الارتفاع والعرض، إلى جانبي الممر الرابط بين المدخل والفناء، توزّعت أربع قاعات كبيرة وغير متماثلة في السعة، المهم كان نصيبنا من التوزيع قاعة حملت الرقم (٥)، وفيها تم إسكان الضباط وضباط الصف، وكان العدد الكلي للجميع ١٥٦ أسيراً، تم عزل الحمامات والمرافق الصحية بجدار، وهذا الإجراء أصبح معتمداً من أجل ألا يختلط الأسرى مع بعضهم بحمامات خارجية، كان ذلك أهم مكسب يمكن أنْ يحصل عليه أسير في إيران، ولكنّ مشكلة حقيقية بدأت تتفاقم مع الوقت، وهي تلوث المياه التي كنا نحصل عليها من بئر قديمة تمت إعادة تأهيلها وسط الباحة الرئيسة للمعسكر، وتجهز القاعات بماء الشرب والاستخدامات الأخرى، فمع أكثر من ٢٥٠٠ أسير في منطقة صغيرة، كانت بالوعات حماماتهم تسرّب التلوث إلى تلك البئر المُتْعَبة، ومع الزمن كانت النتائج تظهر تدريجياً على أوضاع الأسرى الصحية، فأمراض الكلى والجهاز البولي أصبحت شائعة عند معظم الأسرى، إضافة إلى أمراض الجهاز الهضمي وحالات الإسهال العادي والدموي، غير أنّنا كنّا نعيش فرحاً حقيقياً

بتخلصنا من القمل، حيث إن إدارة المعسكر بدأت توزع علينا مساحيق التنظيف الكفيلة بالقضاء على هذه الحشرة اللعينة.

حينما استقر حالنا بعد بضعة أيام في سنك بست علمنا أنّنا كنّا المجموعة الثانية التي تنقل إليها، كانت أول مجموعة من الأسرى من معسكر قوجان، والذي شهد مواجهات في شباط/فبراير من عام ١٩٨٣ بين الأسرى العزّل إلا من الإيمان بالله والوطن وبين جنود مدجّجين بالسلاح، فتح أحدهم النار على أسيرين كانا يتمشيان في الساحة المخصّصة للأسرى في أوقات محدّدة، فقتلهما على الفور مما أثار غضب رفاقهما الذين عبّروا عن ذلك بالهتاف للعراق، ورفضوا الدخول إلى القاعات الداخلية، وكادوا أنْ يحطموا جدران الأسلاك الشائكة المحيطة بفناء ساحات التجوال اليومي للأسرى، وهذا قد يعني تطور الظرف بحيث يتحول إلى خطة لهرب جماعي على ما يعتقد الإيرانيون، ومجرد أنْ تبرز هذه الفكرة على طاولة أي مسؤول إيراني، فإنّ دواراً سيشلّ قدرته على التفكير، وسيضرب على مكتبه بقبضته بحثاً عن معين، ولهذا استدعت إدارة المعسكر كبار المسؤولين من رجال الدين والعسكريين من مشهد التي لا تبعد كثيراً عن قوجان، ولما رأى المعممون وسمعوا من الأسرى مباشرة هتافاتهم للعراق والرئيس صدام حسين جنّ جنونهم، واعتبروا ذلك تحدياً لا يمكن السكوت عليه، لأنّه قد يغري بقية الأسرى على انتهاج سبيله في التعامل مع إدارة المعسكرات الأخرى، ولذلك أصدروا أوامرهم بفتح النار باتجاه الأسرى الغاضبين، فسقط حوالى ستين أسيراً مضرجين بدمائهم، هذا غير مئات الجرحى. وبعد أيام معدودات كانت أول دفعة من المعاقبين من قوجان في طريقها إلى سنك بست، مفتتحة عهداً جديداً من الألم والمعاناة الطويلة لرجال العراق المخلصين،

الذين أخطأتهم الفرصة للشهادة في المعركة، أو أخطأتهم فرصة الاضطلاع بأدوار في مقدمة مسيرة البناء لعراق طموح، وليطبّق عليهم هاشمي رفسنجاني خطته القاضية بحرمان العراق من فرصة زيادة سكانه عن طريق تعطيل سبعين ألفاً من رجاله في السجون وهم في ذروة القدرة على الإنجاب، وينقل عن رفسنجاني قوله: إن هذا العدد الكبير من الأسرى كانوا سيزيدون عدد سكان العراق بحدود نصف مليون كاره لإيران خلال العشرين سنة التي أشار إليها الخميني لبقاء الأسرى في إيران.

بعد عدة أيام من استقرارنا في القاعة الخامسة دخل قاعتنا إثنان من الأسرى الذين سبق لنا أنْ عرفناهما في قصر فيروزة، إنّهما من الأطباء الكثيرين الذين تمّ أسرهم في عمليات الشوش ودزفول، رحب بهما الجميع وخاصة من كانت عنده علاقة سابقة بهما، **الأول** هو الدكتور ريسان كاظم سفاح وهو من أبناء الناصرية، **والثاني** هو الدكتور فلاح حسين هوي وهو من سكان مدينة الثورة ببغداد، ارتبنا بنقلهما المفاجئ إلينا، فالأصل عند الأسرى الشكّ لحين الوصول إلى اليقين، وتلقفهما الأسرى بالترحاب بصرف النظر عن أسباب النقل، وبعد سؤالهما عن أسباب ذلك أجابا بأنّ قصر فيروزة، وبعد نقل المجموعة الأولى منه ـ أي مجموعتنا ـ تعرض لضغوط قاسية من الأسرى الذين باعوا أنفسهم للشيطان، ولهذا فقد تم التأشير علينا أنّنا ممن يجب أنْ يلتحق بالمجموعة الأولى، وهذا ما كان، رحبنا بهما لهذا السبب ولسبب إضافي، وهو أنّ قاطعنا بل معسكرنا كله لا يتوفر على طبيب يمكن أنْ يشخص أوضاعه الصحية، وسط جو الإهمال العام الذي تعيشه معسكرات الأسرى المغلقة، وربّما هذا ما وضعه الإيرانيون في حسابهم في توزيع الأطباء على مختلف المعسكرات،

وخاصة أنّ إيران تشكو من نقص شديد في مجال الخدمات الصحية الوقائية والعلاجية، وانشغال معظم كادرها الطبي في الحرب. ومن المصادفات التي تدعو إلى التأمل أنّ الدكتور ريسان كان يستدعى في أوقات مختلفة خارج قاعتنا، وحينما يعود إلينا يتحدّث لنا عن أنّ ضباط المعسكر وجنوده كانوا يأتون إليه بمرضاهم للتطبب عنده لأنهم مقتنعون بأنّ الطبيب العراقي أفضل مستوى من الطبيب الإيراني، وكان يصرف لهم الدواء من الصيدلية الفقيرة المخصصة للأسرى، ولم يتوقف الأمر عند ذوي منتسبي المعسكر في طلب الفحص والمعاينة، بل تعداه إلى القرية الزراعية المجاورة لسنك بست، إذ كانوا يجلبون أطفالهم ونساءهم لطلب العلاج المجاني، وكذلك فعل كلّ جندي أو ضابط صفّ أو ضابط ممن يريد أنْ يُسدي خدمة لصديق، أو أنْ يستعرض قوة سلطانه أمامهم فيبادر إلى جلب من يريد لغرض العرض على طبيب عراقي مبدع كما كانوا يصفونه. كان ريسان يحمل اندفاعاً وإقداماً في التعامل مع الحالات المرضية التي تُعرض عليه، وكان فلاح من الناحية العلمية وباعتراف ريسان أدق من زميله، ولكنّه يتصف بالحذر الشديد في التعاطي مع أية حالة تعرض عليه، وفي معظم الأحيان يترك المهمات الطبية للدكتور ريسان الذي تستهويه المهنة ويحبها كثيراً ويرغب بتطوير مهاراته من خلال وجوده في معسكرات الأسر معتبراً وضعنا مشابهاً لوضع الجثث التي يدرس عليها طلبة كليات الطب في أثناء درسهم لعلم التشريح.

بدأنا نعتاد حياتنا الجديدة في هذه القلعة الصندوق، لأنّنا في كل شيء كنّا نقارن بينها وبين الكامب الثاني. لم يعد لحياتنا قبل الأسر دور في رسم المقارنات، أصبحت جزءاً من الماضي الذي نحلم بالعودة إليه، ليس أكثر من مجرد حلم، وحتى الأحلام إذا

أحسّ الإيرانيون بها فإنّهم لا بد من أنْ يعاقبوا من يمتلك القدرة على الحلم في زمن أوصدوا كل الأبواب والنوافذ عليه.

في قاطعنا أخذت التناقضات تطفو على سطح العلاقة بين الأسرى، ولأسباب إضافية عما شهدناه قبلاً؛ إذ برز موضوع التنظيمات الحزبية محوراً قوياً في شطر الأسرى الوطنيين إلى صفين، وقد يكون لافتاً للنظر أنّ إقامة التنظيمات الحزبية على الدوام، كان يتم بمبادرة من البعثيين المنحدرين من جنوب العراق، وكان الأسرى من سكنة تكريت وما جاورها، يقفون ضدّ هذه الفكرة بقوة، ويعتقدون أنّ القدم العسكري هو المرجعية الوحيدة للأسرى، هذا كان يثير الكثير من علامات الاستفهام والتعجب لدى كثير من الأسرى ونحاول أن نجد له أجوبة شافية ولكن من دون جدوى، ومع ذلك انشغل كثيرون في إيجاد تفسيرات له، فذهب البعض إلى أنّ الإيمان الصافي بفكر الحزب هو الذي يقف وراء إقامة التنظيم الحزبي، وآخرون كانوا يرون أنّ البعض من القيادات الحزبية في الأسر كانوا من ذوي الرتب الصغيرة وبالتالي فهي لا تتيح لهم المنافسة المتكافئة، ولذا اختاروا طريق التنظيم الحزبي لفرض وجهات نظرهم، وطرف ثالث عزا ذلك إلى ضعف الشخصية لدى من لا يستطيع بالحجة تمرير رأيه، فحاول الاستعانة إما بقوة الحزب وهيكلية التنظيم، أو بالرتبة العسكرية لبسط سيطرته على الأسرى، والتلويح لمن لا يقدم فروض الطاعة، بأنّ العودة إلى العراق ستعرضه لمخاطر جمة، وستحرمه من المكاسب والامتيازات التي تنتظر الأسرى بعد عودتهم، وبالمقابل فإنّ الطرف الآخر كان يعتقد أنّ أبناء محافظة صلاح الدين، يحتمون بقربهم من القيادة فهم لا يخشون المساءلة بعد العودة، ولهذا استنكفوا عن العمل الحزبي بعدما أمنوا من العقاب، والبعض الآخر ظن أنّ حزبيي

المنطقة الوسطى ولأسباب طائفية كانوا يجهدون أنفسهم لإخفاء درجاتهم الحزبية، وهذا ما فسح المجال للخط الثاني أنّ يتقدم الصفوف، ويسدّ ثغرة في ساحة الأسر ضمن دائرة صنع القرار، وفي كل الأحوال عاش الأسرى وسط أجواء من القلق، فمن لم يرتبط بالتنظيم يخشَ عواقب ذلك بعد العودة إلى العراق، ومن ارتبط بات في قلق من تسرب المعلومات إلى الإيرانيين، وما يمكن أنْ يعرّضه ذلك لأخطار جدية جسيمة، ولا شكَّ أنّ أسباب الاختراق الاستخباري الإيراني كانت متنوعة، تبدأ بالتخويف بالإعدام إلى درجة الاقتراب من التنفيذ الوهمي مع ما ينجم عن ذلك من رعب بأقصى درجاته، أو محاكاة الأسرى للمقاربة الطائفية التي يطرحها المعمّمون، الذين كانوا يكثرون من زياراتهم وأحاديثهم مع الأسرى، بأحاديث تلامس المشاعر المختزنة في أعماق النفوس التي تنطوي على ثنائية معقدة تظهر ما لا تبطن، وتخفي في قرارتها حقيقة قناعاتها، وتظهر ما يرضي السلطان وهكذا طفحت الانقسامات بين الأسرى، والتي حولت حياتهم الضيقة والمحدودة في تنوّعها، واهتمامات الأسرى فيها إلى عالم مضغوط في علبة صغيرة، تخلّلته مصادمات دموية أحياناً، كان من الضروري بل الحتمي البحث عن مرجعية تفصل في اختلافات الأسرى وخلافاتهم، خاصة وأنّ ذوي الرتب الكبيرة لم يرغبوا لأسباب كثيرة في الظهور في الواجهة، لأنّ في ذلك ثمناً يجب أنْ يدفعوه إذا حصل لدى الجانب الإيراني أدنى شكّ بصدور توجيه أو إشراف منهم، فالإيرانيون، وخاصة استخباراتهم، كانت تراقب المعسكرات الخاصة والمغلقة عن كثب من الخارج وحتى من الداخل، وتوظّف معلوماتها في تسليط ضغوطها عليهم، وخاصة إذلال الضباط الكبار أمام من هم أدنى منهم رتبة وضباط الصف المتواجدين مع الضباط في مكان واحد.

ذات يوم من شهر أيار/مايو ١٩٨٣ جاءت إلى المعسكر كميات كبيرة من التجهيزات من الصليب الأحمر الدولي، تحتوي على بيجامة شتوية وصابونة تركية الصنع وفرشاة أسنان مع أنبوبة معجون، ومنشفة صغيرة، انطلقت تفسيرات بلا حدود، ولأنّ الأخبار مقطوعة عنّا، فقد ذهب البعض إلى أنّ ذلك الحدث دليل على أنّ تبادلاً للأسرى بات وشيكاً، حسناً إذن لماذا لم يأت الصليب نفسه؟ ولكن سقف الطموحات كان ينخفض تدريجياً، إلى أنْ أيقن الجميع بأنّ الأمر ليس أكثر من التفاتة من اللجنة الدولية للصليب الأحمر الدولي، وبناء على دفع من الحكومة العراقية، وبأموال عراقية خالصة تم شراء تجهيزات كان متاحاً إيصال بعضها للأسرى، باسم الصليب الأحمر، مع المعرفة المؤكدة بأنّ بعضها سيذهب إلى بيوت المعمّمين من «مكتب الحكيم»، الذي تحول فيما بعد إلى المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، ولمن ارتبط به من الأسرى الخونة.

وبعد عدة أسابيع من ذلك وفي يوم مشمس استيقظ الجميع على نشاط غير عادي وحملات تنظيف للمعسكر، وقرب الظهر تمَّ إبلاغنا بالاستعداد لاستقبال ضيف كبير سيزور المعسكر وأمرونا بارتداء البيجامات الجديدة، وكانت من لونين، أصفر وأخضر، وحينما جلس حوالى ألفين وخمسمئة أسير في باحة المعسكر، بدت الباحة وكأنّها لوحة تجريدية، وبعد ساعة من الانتظار، وصل العميد ظهير نجاد رئيس الأركان المشتركة للقوات المسلحة الإيرانية، وخاطب الأسرى بلغة معتدلة، ولكنّه حثهم على العودة إلى رشدهم، والتوبة عما ارتكبوه من أعمال ضد إيران، وغادرنا ولم تنعكس زيارته علينا سلباً أو إيجاباً.

لم يستمر وجود الضباط مع ضباط الصف في الكامب

الخامس في سنك بست طويلاً؛ إذ إنّ آمر المعسكر العقيد إسماعيل سباه دوست، وبحكم كونه من الضباط القدامى في الجيش الإيراني في عهد الشاه، وجد في هذا الاختلاط مخالفة لاتفاقية جنيف الخاصة بالأسرى، ولأنّه يعني احتمال تعرض الضباط لإهانات غير محسوبة، ولهذا تصرّف بحكمة حينما تحرّكت في داخله النزعة العسكرية، فقرر أو استحصل قراراً بعزل الضباط عن ضباط الصف، ولذا جاء يوم الثاني والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣، محطة جديدة في حياة الأسرى من ضباط الجيش العراقي؛ إذ تم إبلاغهم بالاستعداد لمغادرة المكان، ولما كنت مع الضباط بحكم كوني آمر السرية الأولى من اللواء ١١ مهمات خاصة، فقد خرجت من القاعة مع الخارجين، كان عددنا ٧٢ أسيراً، ألقت سفينة المعاناة مراسيها في قاعة صغيرة المساحة، لا يتجاوز طولها تسعة أمتار، وعرضها لا يزيد على أربعة أمتار ونصف، وتم رصف الأسرة فيها بثلاثة طوابق فضاقت الممرات على الجميع، وتمّ عزل الحمامات عن القاعة الرئيسة، وتم تقسيمها إلى مرحاضين وحمامين، وبسبب نوعية الطعام المقدّم إلى الأسرى، والتي كانت غنية بالبقوليات وكذلك المرق الأخضر من بعض الأعشاب، التي كان الأسرى يسمونها بمرقة الحشيش، فقد أدى ذلك إلى ازدحام على المرافق الصحية على مدار اليوم.

في قاطعنا الجديد كان علينا تنظيم أمورنا لوحدنا، فحتى قبل ساعات كنّا في مكان مختلط ومتعدد الأعمار والرتب، وصغار السن والرتب لم يكونوا ليسمحوا لمن هو أكبر منهم سناً أو رتبة أنْ يتولى مسؤوليات التنظيف أو توزيع الأرزاق، لذلك بادرنا فوراً وبالإجماع على اختيار الملازم الأول وليد عبد الكريم ممثلاً لنا ومشرفاً على تنظيم شؤوننا كلّها، وهي المهمة التي يطلق عليها

الإيرانيون اسم «أرشد» أي الأقدم، ولأنّنا كنّا نريد توزيع الأسرّة من دون إحساس بالغبن أو الغلبة فقد تم اعتماد مبدأ القرعة، وهي قانون الأسر المقدس الذي يقطع أي اجتهاد، إذ لا اجتهاد في معرض القرعة، واتفقنا على أنْ نباشر في اليوم التالي تنظيم شؤوننا الداخلية منعاً لأية تجاذبات، فالمشكلة الشخصية التي تبدأ بين اثنين سرعان ما تتطور وتتوسع تبعاً لمقدار التدخلات من الأطراف الأخرى، فكل طرف لا يجد الحكم في مصلحته سيعدّه على الفور انحيازاً للطرف الآخر، وهكذا تأخذ كرة الثلج بالتضخم، لذلك فقد بدأنا في الصباح الباكر من اليوم التالي في توزيع الواجبات الداخلية، وهي توزيع الأرزاق بالمرتبة الأولى، لأنّه أكثر الموضوعات حساسية؛ إذ يجب أنْ يكون المتبرع بتأدية هذه المهمة أميناً عادلاً مع الجميع، يحمل بعض الدراية في هذا الشأن، لكنّ الشرط الأخير مستحيل تماماً؛ إذ ليس هناك من تولى توزيع الأرزاق حتى في منزله، ولهذا تم الاكتفاء بالحرص على التوزيع العادل من دون محاباة، وبعد الطلب المتكرر والإلحاح فالكل في تردّد من أي واجب، هناك حاجز التردد من بعضنا البعض، تقدم الدكتور ريسان والنقيب أحمد عبد الله، وبعد نقاش قصير مع الأرشد، تم الاتفاق على أنْ يتولى ريسان توزيع المرق، ويتولى أحمد توزيع الرز، وتم حلّ مشكلة واحدة وبقيت مشلكة نظافة القاطع، نادى الأرشد هل من متبرع؟ ولما لم يجد أحداً مستعداً لتأدية مهمة التنظيف، فقد وجدنا أنّ الحل هو أنْ يتولى الجميع هذه المهمة، كي لا يبقى واحد منا متعالياً على الآخرين بأنّهم ينظفون وهو لم يوسخ يده بعمل ما، حقيقة الأمر تكمن في هذه النقطة بالذات، وفي نهاية المطاف تقرّر أنْ يتفق كل اثنين معاً، ليشكّلا فريق عمل للتنظيف الذي يشمل غسل القاعة أو تنظيفها،

وغسيل قدور الطعام وجلبها وإخراجها، وكذلك تنظيف الحمامات والمراحيض، وهنا كانت أكبر المعضلات التي واجهت معظمنا، ولكنْ لم نتخلص من التردد في القيام بها إلا بعد خفارات عديدة، وبعد أنْ دارت الخفارة على الجميع أربع مرات.

بعد أنْ رقدت الحرب في واحد من توابيت النسيان، على الرغم من ضراوتها في ميادين القتال، استفاقت الأسرة الدولية ممثّلة بمجلس الأمن من غفوة، لم يعهدها بها المجتمع الدولي، وبعد أنْ كان حلم الأسرى بالعودة إلى الوطن مع استمرار الحرب مستحيلاً، تناهت إلى أسماعنا أنّ مجلس الأمن الدولي اتخذ قرارات جديدة وإن كانت على فواصل زمنية غير متقاربة، بشأن ما أسماه بالمسألة المعنونة «الحالة بين العراق وإيران»، وهذه هي اللازمة التي رافقت قرارات المجلس في كل ما يتصل بالحرب بين العراق وإيران، فقد جاءت القرارات الأخيرة مخيبة لآمال هؤلاء التعساء المنسيين، إذ جاءت خالية تماماً من أية إشارة إلى قضيتهم، على الأقل حتى من باب التعاطي الإنساني مع مأساتهم الإنسانية أو لتسجيل موقف أمام التاريخ، لقد كان بين الأسرى المئات من المعاقين ومن مرضى الحالات المستعصية والمزمنة، كنا نأمل أنْ تبذل الأسرة الدولية والمنظمات الحقوقية والإنسانية، وخاصة اللجنة الدولية للصليب الأحمر، جهوداً جدية مع إيران خاصة، والتي تتمسك بالأسرى عندها تمسك الأعمى بأحد شبابيك الأضرحة عند الإيرانيين السذّج، لا حبّاً بالأسرى وإنّما إيغالاً بالتنكيل بهم وإهانة كرامتهم، وتعذيب عائلاتهم، وتوظيف قضيتهم سياسياً، ومحاولة ابتزاز العراق بهم.

وبعد تشغيل الطائرات الفرنسية المؤجرة للعراق من أجل منع إيران من تصدير نفطها، رداً على ضرباتها العسكرية لمنشآت تصدير

النفط العراقي، وانقطاع صادرات النفط العراقي من البحر الأبيض المتوسط عبر ميناءي بانياس وطرابلس بسبب قرار الحكومة السورية بوقف تصديره، أصبحت إمدادات النفط من منطقة الخليج العربي إلى العالم تحت متناول نيران المتحاربين، فقد وجدت الدول المستهلكة الرئيسة للنفط أنّ اقتصادها يوشك أنْ يصبح أهم ضحايا الحرب، ولهذا تداعت الدول الكبرى الأعضاء في مجلس الأمن الدولي لعقد جلسة لمجلس الأمن، وهذا ما تم فعلاً، وبعد مداولات سريعة صدر قرار مجلس الأمن المرقّم ٥٤٠ والمؤرخ في ٣١/١٠/١٩٨٣، والذي ركز على قضية الملاحة الآمنة في الخليج العربي، وذلك بسبب زحف نيران الحرب المنسية إلى منطقة المصالح الاستراتيجية للدول الغربية الكبرى.

ويمكن أولاً أنْ نلاحظ أنّ القرار لم يشر إلى قضية الأسرى بشكل صريح، وإنْ كان قد لمّح إليها بشكل عابر مع القضايا المرتبطة بالقانون الإنساني الدولي، وهذا نقص معيب في تجاهل الأسرة الدولية، ممثلة بأعلى سلطة معترف بها، لأهم قضية إنسانية تمَّ خلالها انتهاك حقوق الإنسان على مرأى ومسمع الأمم المتحدة، وهي قضية الأسرى الذين تم نسيانهم كما أصبحت الحرب قضية منسية هي الأخرى.

كما يمكن أنْ نلاحظ أنّ القرار أعطى جلّ اهتمامه لقضية الملاحة البحرية في منطقة الخليج العربي، ومن هنا يمكن أنْ نتفهم الدوافع التي حدت بطرفي النزاع إلى تهديد حرية حركة ناقلات النفط، لأنّ تلك الرسالة هي الوحيدة التي يستطيع العالم الغربي قراءتها من دون عناء ومن دون حاجة إلى مترجم، فالعراق يسعى لممارسة الضغط على إيران كي تجنح إلى السلم كما وافق منذ البداية، وإيران تريد معاقبة المجتمع الدولي لأنّه لا يوافقها على

خططها لإسقاط النظام الوطني في العراق واحتلاله.

وأخيراً فإنّ الأسرى حينما يسمعون بأنّ قراراً جديداً قد صدر عن مجلس الأمن فإنّهم يطرحون سؤالاً فورياً فيما إذا كان هناك تلويح لمعاقبة أي طرف لا يستجيب للقرار، لأنّهم يعرفون أنّ إيران هي التي كانت ترفض أية دعوة دولية لوقف القتال، لأنّها واثقة أنّ العالم كان يريد للمعركة أنْ تستمر من دون نهاية، وأنّها بمأمن من أي عقاب دولي يواجه تحدّيها للقرارات الدولية، وهي لم تهدد كل قرارات مجلس الأمن الطرف الذي يرفض الالتزام بها بعقوبات، ولو من باب التلويح بعصا مكسورة.

في المدة التي انقضت علينا ونحن نصارع ثقل الوقت، ومع الإحباط الذي يصاب به الأسرى مع كل قرار جديد لمجلس الأمن، ومع محن التعامل الإيراني المتوحش، كان رو نواز وهو ضابط استخبارات الأسرى يزور معسكراتهم بلا توقف، وكان يبذل جهداً خارقاً من أجل إحداث شرخ في ثقة الأسرى ببعضهم، كانت جبهات الحرب تحمل لنا الكثير من الصور، بعضها يجعلنا نحلّق عالياً في سماء العراق، ونسمو فوق أنوف الإيرانيين، وبعضها يعصف بنا ويقتلع البعض منّا من جذوره ويلقي به على الرصيف الآخر، المعارك كثيرة والجبهات ظلّت ساخنة حتى في مناطق تساقط الثلوج، ونتيجة لظروف جبهات القتال، وظروف المعسكرات فقد شهد معسكر سنك بست أول عملية نقل جماعي من الأسرى عام ١٩٨٤، وصل إلى ما يقرب الخمسمئة أسير، تمّ نقلهم من دون مقدمات، بعد لقاءات جمعتهم مع رو نواز، بصورة فردية أو على الأقل مع أعداد منهم، وتمَّ جلب عدد مقارب لهم من المعاقبين من المعسكرات الأخرى، وقد أثارت هذه العملية الكثير من الإغراء لدى البعض في التخلص من ظروف القهر ومحاولات

الإذلال والتغييب التي يعانيها أسرى سنك بست.

وتواصلت اعتداءات إيران على حركة الملاحة البحرية تحدّياً لقرار مجلس الأمن المرقم ٥٤٠، وكان المجتمع الدولي يعرف جيداً أنّ إيران هي التي كانت تضرب بالصواريخ والطائرات ناقلات النفط الكويتية والسعودية من أجل ممارسة المزيد من الضغط عليهما لوقف دعمهما للعراق في الحرب، وكانت السعودية تعرف ذلك وكذلك الكويت، وبدلاً من التصدي لتوسيع إيران نطاق الحرب، والإعلان الصريح عن دور إيران في هذه الصفحة، كان البلدان يبحثان عن أشكال دعم خارجي لهما في صد شرور إيران عنهما، فكان التساؤل المرير: لماذا إذن تكديس هذا الكم الهائل من أحدث الطائرات والأسلحة المتطورة؟ أليس لمثل هذا اليوم؟ والأغرب من كل هذا أنّ مجلس الأمن الدولي حدّد الطرف الذي يهدّد حركة الملاحة البحرية للدول غير الداخلة في النزاع في المياه والممرات الدولية، وهذا ما ورد في قرار مجلس الأمن الدولي المرقم ٥٥٢ والصادر في ١حزيران/يونيو ١٩٨٤.

ويمكن ملاحظة أنّ قرار المجلس لم يتمكن من تسمية إيران في بنود قراره وإنْ كان ذلك مفهوماً من سياق الشكوى المقدمة من دول مجلس التعاون الخليجي، كما يمكن أنْ نلاحظ أنّ القرار لم يرفض تهديد ملاحة الدول الداخلة في «الأعمال العدائية»، أي إنّه أطلق يد كل من العراق وإيران في ضرب السفن المتّجهة إلى موانئهما داخل مياههما الإقليمية، واستطاع العراق أنْ يشلّ قدرة إيران على تصدير نفطها، وتوغّلت طائراته الحربية إلى أبعد نقطة في جنوب الخليج العربي لضرب جزيرة خرج الإيرانية، وهنا يمكن أنْ نضع اليد على أسباب الحقد الذي تحمله المجموعات الخاصة التي أرسلتها إيران إلى العراق بعد الاحتلال الأمريكي لتصفية

طياري القوة الجوية العراقية الذين نفذوا تلك الضربات أو لم ينفذوا شيئاً منها، وإيكال بعض من تلك المهمات إلى مليشيات جيش المهدي وفيلق بدر وبقية العصابات والمليشيات التي شكلتها إيران للتحكم بمقادير العراق.

لقد وقف مجلس الأمن عاجزاً عن تسمية من يهدد الملاحة البحرية في الخليج العربي، على الرغم من أنّه يقرّ بأهميتها للسلم والأمن الدوليين ودورها الحيوي في اقتصاد العالم، وبالمقابل فإنّ بعض دول الخليج استبدلت مواجهة إيران بالتودد إليها تجنّباً لشرورها، فكانت في ذلك وتحت لافتة الحكمة تقدم تنازلات جوهرية من سيادتها الوطنية لمجرد دفع الأذى عن نفسها، ولعل سلطنة عمان تجسد هذا النموذج في الضعف والهوان، وفي الجانب الآخر كان هاشمي رفسنجاني حينما يتحدث عن إصابة ناقلة نفط عربية أو أجنبية تنقل النفط من الكويت أو المملكة العربية السعودية، لا يتورع عن الكذب على الرغم من أنّه كان يلقي خطبة صلاة الجمعة، إذ يقول: «إنّ رسلاً من السماء هي التي جاءت وضربت هذه السفن»، ثم يطلق ضحكته التي تتداخل مع أية كذبة يفتريها. وهذا النمط من البناء الديني والسياسي الذي تعتمده الزعامات الإيرانية، كان يقصد منه الضحك على ذقون السذّج من الناس، ليوهمهم بوقوف العناية الإلهية إلى جانب «الإمام»، وكي يتهكم على دول الخليج العربي التي لم تستطع رفع صوتها بالشكوى العلنية من إيران، بل راحت تتحرك سرّاً لجلب الحماية لنفسها، ومع أنّ مجلس الأمن حذر من اتخاذ إجراءات فعالة في حال عدم الالتزام بالقرار، إلا أنّ الوقائع اللاحقة أكدت كذب المجلس، أو الجهات المهيمنة عليه وازدواجية المعايير المعتمدة كأساس للتعاطي مع الملفات الدولية المختلفة، لأنّها أرادت

للحرب أنْ تستمر، ولنأخذ مقارنة بين مسلسل القرارات بالجملة التي اتخذت ضد العراق منذ آب/أغسطس ١٩٩٠ وحتى نيسان/أبريل ٢٠٠٣، وبين التراخي الذي طبع قراراته ضد إيران التي احتلت أراضيَ عراقيةً خلال سني الحرب.

حينما يصلنا شيء متناثر من أخبار العراق أو قرارات مجلس الأمن الدولي نحاول درس مغازيها وأهدافها، ولكنّنا كنّا في كل مرة نصدم بجدار من الصمت الدولي والتجاهل الذي كان يميز قرارات الأمم المتحدة، خاصة وأنّنا كنّا نعتقد بجزم بأنّ الأمين العام للأمم المتحدة خافير بيريز ديكويلار كان منحازاً بالفطرة ضد العراق، كنّا نبحث عن سبب يدعوه إلى ذلك الموقف ولكنّنا لم نجد ما نريد، وكان هذا يزيد من قنوط البعض، لأنّ دور الأمين العام كرجل محايد يمكن أنْ يعطيه مصداقية لأحكامه، حتى إذا اتسمت بانحياز فاضح، لأنّ الحياد والانحياز موضوعان نسبيان، تصعب عملية الفرز بينهما، خاصة إذا كان المتهم الرجل الدولي رقم واحد.

كانت أيامنا متشابهة، والسنون تمر بطيئة وثقيلة، وإذا تجاوزنا ما يحصل بيننا، فإنّ الظروف الخارجية كانت تضغط علينا بقوة، إذ لا خروج إلى الهواء الطلق إلا لدقائق معدودات لغرض إجراء التعداد اليومي، ولا جديد يصلنا من أخبار الحرب أو العراق، ولا أخبار عن الأهل تمنحنا قوة دفع للأمام وصبر لزمن قادم، ولكن هذه المعاناة الإضافية تحرق صدورنا بالهمّ، مَنْ رحل ومَنْ بقي ومَنْ جاء؟ ولكنْ لا جواب على هذه الأسئلة المكبوتة، فلا رسائل ولا صحف ولا أجهزة إعلام، فكنّا متوقفين عند اللحظة التي انتهت فيها حريتنا يوم الأسر على حين كان العالم يسير، وكأنّ ساعة كل أسير حينما انتزعت من يده لحظة وقوعه في الأسر، توقفت الأرض

عن الدوران حول نفسها أو الدوران في محورها، وكان مجرد التفكير بهذه الأفكار يثير الكثير من الهواجس ويعتصر القلوب، كان الكامب الذي نقلنا إليه يحمل الرقم (١٥) وفيه انطوت من عمرنا أكثر من سنتين، تقلبت بين اليأس والأمل، والتعاضد أحياناً والتقاطع أحياناً أقلّ، ومن دون مقدمات أحس الأسرى المولعون بالرصد اعتماداً على السمع بأنّ شيئاً جديداً بدأ يطرق أبواب المعسكر، كانت الأبواب محكمة الإغلاق، ووضعت أمامها بطانية لضمان عدم استراق النظر، وبدأنا نسمع وقع أقدام تتحرك بلا توقف، وبعد ظهيرة السابع من كانون الثاني/يناير ١٩٨٥، دخل جنود الحراسات الداخلية إلى قاطعنا وأبلغونا بالاستعداد للرحيل، وأمهلونا أقل من ساعة واحدة لجمع حاجياتنا، وقبل الغروب كانت الأيدي تربط إلى الخلف، والعيون تعصب بقوة، ونقاد كما في كل مرة بلا إنسانية لنلقى في حافلات متعبة وتتحرك بصعوبة، وتقل أناساً تعبت أجسادهم كثيراً، ولكنّ إرادتهم ظلّت متيقظة.

الفصل السابع

سياحة إلى مازدوان ضمن إقليم خراسان

من دون أن نعرف إلى أي مجهول جديد نحن متجهون، ومن دون أن نعرف أسباب السياط الساخنة التي تنهال علينا فتصيب منا الرؤوس أو أي جزء تصل إليه ولتترك بصماتها التي لن تمحيها السنون، ومن دون أن نعرف أسباب صراخ الجنود الذين كانوا يزعقون بلا توقف، وفيما إذا كانوا يؤدون دوراً مسرحياً أو أمنياً مفروضاً عليهم أن يؤدوه، ومن دون أن نعرف كم ستستغرق رحلة الألم هذه مع عيون معصوبة بقوة تضغط على العيون والأعصاب، وأيد مكبلة إلى الخلف في حافلة عتيقة أكل منها الدهر آخر ما تبقى لها من متانة، كانت الحافلة تقطع الطريق ولا تعبأ لما يجري في أحشائها من تراجيديا ملاعب الموت في أثينا في عصورها القديمة، من يصدر من الأسرى تأوهاً لضربة سوط أو ركلة جندي أو لكمة متوحشة، فإن نصيبه سيتضاعف في طريق الآلام أو يؤخذ إلى ركن قصي بعد الوصول ليتم تدريبه على تحمّل الصعاب، كنا مثل شكوة اللبن الذي يختض داخلها من دون توقف. الطريق الموصل إلى منطقة صالح آباد من سنك بست كما عرفناه لاحقاً يمر متعرجاً بين هضاب وسهول، ونحسّ بذلك من حركة الحافلات ولم يكن متاحاً

التعرف إلى تفاصيلها، لأنّ العيون أعصبت بإحكام، ولأنّ الليل كان قد ألقى بظلامه على الأرجاء، ثم إنّ ما يثيره القيد من أوجاع لا يترك فرصة للاطلاع على مناظر الطريق وإنْ كانت على درجة عالية من الجمال على فرض أنَّ العيون تنظر بحرية، ولم يدُر بخلد أحد منا أنْ يسأل كم استغرقت الرحلة الجديدة، والتي لا نعرف سبباً لها، فالتنقلات عادة ما تتمّ دونما سبب مفهوم من قبل الأسرى، وإنْ حاول أحدهم البحث عنه فقد يعثر على أشياء أخرى تزيد من تعبه ومعاناته، ولكنْ هل صحيح أنّ جميع التنقلات كانت من دون سبب؟ هذا ما كان يحتل حيزاً حيوياً من تفكير الإيرانيين، فهم يعيشون هاجس الاختراق العراقي لمنظومتهم الأمنية وعلى أعلى المستويات، ولهذا وعلى الرغم من اتساع رقعة إيران فإنّها كانت تضيّق عليهم على نحو لا يصدّق، ولهذا كانوا يشعرون أنّهم وحيثما نقلوا الأسرى فإنّ عيون العراقيين لهم رصد بلا انقطاع، في هذا التصور شيء من الصحة ولكنْ حتى في حال معرفة العراق بواقع أسراه، فماذا تراه قادراً على فعله، وهل أن كل معلومة استخبارية يمكن التعامل معها ميدانياً؟ وهل أمكن تنفيذ عملية إنقاذ واحدة للأسرى العراقيين من المعسكرات القريبة من الحدود؟ ولكنّ هواجس إيران كبيرة وأكبر من الواقع والخيال معاً، وما سيعني أنّنا عرفنا في أية منطقة أو أي معسكر، وماذا يمكن أنْ يضيف إلينا من رغيد العيش سواء عرفناه فوراً أو بعد وقت طويل، من دون أنْ تتاح لنا فرصة توظيف المعلومة، بما تتطلبه ظروف الأسر وبهامش المناورة التي تسمح به تلك الظروف. المهم بعد رحلة تضافرت فيها أسباب القلق مع إهانات الجنود وصلنا إلى معسكر تابع لأحد ألوية الفرقة ٧٧ الإيرانية، تمّ حشرنا في قاعة ضيقة ومنعوا علينا الاتصال ببقية الأسرى الذين كانوا في قاعة ملاصقة لقاعتنا، وعلى

الرغم من ذلك وجد الأسرى طريقاً لتبادل الأحاديث والمعلومات مع الجنود وضباط الصف عبر فتحات كانت مخصصة لأجهزة التدفئة التي كانت قد اقتلعت من أماكنها على عجل قبل وصولنا إلى المعسكر، ومع أنّ الأحاديث لم تحفل بشيء مهمّ إلا أنّها كانت تنتشر بين الأسرى انتشار الأحداث الكبيرة، كان الفراغ مميتاً وكنا بحاجة إلى أي شيء جديد يلوّن أيامنا القاتمة، حتى إذا كان عسيراً على القبول.

كانت الثلوج تغطي أرضية المعسكر وطرقاته، وحينما تفتح لنا الأبواب لنوبة الحمامات التي تبعد عن قاعة النوم بحوالى ١٠٠ متر، كان الكثيرون يسارعون للوصول، ولأنّ الثلج يتصلب في الصباح، فقد تعرض الكثيرون للسقوط فوقه مما تسبب لهم ببعض الإصابات، كان طريقنا إلى المرافق الصحية يمر عند نوافذ قاعة الجنود، وكان الحراس الإيرانيون يبحثون لهم عن ضحية لإنزال العقاب الانتقامي به وردع الآخرين. ذات يوم وفي التعداد الصباحي، أخرج الجندي الإيراني اثنين من الأسرى من الصف بحجة التحدث مع أحد الأسرى في قاعة الجنود، كانت درجة الحرارة تقرب من عشر درجات تحت الصفر وبدأت حفلة صباحية فيها من الوحشية والقسوة ما لا يمكن وصفه أبداً، ومما ضاعف من الألم أنّ الضرب بالعصا كان يتم في هذا الجو البارد، كنا ننظر بانكسار إلى زميلينا من دون أنْ يستطيع أحد منّا مدّ يد المساعدة، ويبدو أنّ هذه من بين أهم الغايات التي يتوخاها الإيرانيون من هذا النوع من العقوبات المرئية، كان البرد يعتصرنا بلا رحمة، فما بالك والضرب بكل قوة الجندي على كفّ الأسير وبعصا من الخيزران، وقد تدخّل أرشدنا من دون جدوى، وبعد أنْ انتهت الحفلة دخلنا القاعة وكل منّا يحمل شيئاً من اللوم للنفس، ولكنّ

التلاوم كان قد انفلت بين الجميع، وظنّ البعض أنّ الضابطين قد تحدثا فعلاً مع الجنود الأسرى، وسمعنا الكثير من الخطب الحماسية والمواعظ الحكيمة، ولكنّ المشاعر كانت قد انفلتت، وكان طبيعياً والحال هذه أنْ تخدش كلمة من هنا وأخرى من هناك مشاعر البعض ممن يرون أنّهم أخذوا ما هو فائض عن الحق من الإهانة الإيرانية، وبالتالي فهم ليسوا بالوضع الذي يسمح لهم بتجرع المزيد من رفاق المحنة، وكادت أنْ تقع أكثر من مشكلة لولا تدخل حكماء الظرف العصيب، ومن حسن الحظ أنّ من تعرض للعقوبة وهما حبيب السامرائي وعامر الدليمي كانا يحظيان بمكانة طيبة لدى معظم الأسرى، ولذلك طلبا من الجميع التسامي فوق الجرح، فليس معقولاً أنْ نعاقب أنفسنا بأيدينا بعد أنْ أخذنا نصيبنا من عدوّنا بلا رحمة.

فيما بعد عرفنا اسم المنطقة والمعسكر الذي يقع في منطقة المثلث السوفياتي ـ الأفغاني ـ الإيراني، وأقيمت في عهد الشاه السابق كجزء من استراتيجية التحالف الغربي قاعدة عسكرية إيرانية، للأمريكيين حضور كبير فيها، من حيث الإشراف على عمليات التجسس الإلكتروني على الاتصالات السوفياتية، وتحرك القطعات، لأنّ الولايات المتحدة أدخلت في روع إيران الشاه أنّ خطر الشيوعية يعدّ أكبر تهديد لإيران وبقية دول المنطقة، على حين أنّ الاستراتيجية الأمريكية كانت قد نجحت في تلك الحقبة في تطويق الاتحاد السوفياتي بحزام من نظم الحكم الحليفة لواشنطن تحت لافتة معاداة الشيوعية، ومن ميزات هذا المعسكر أنّه ينام بين سلسلة جبال تطوقه من كل الجهات، ولا يستطيع أحد رؤيته إلا بعد أنْ يصل إلى مسافة قريبة جداً منه، لكن هذا ليس معناه أنّ السوفيات يجهلون ما يجري وراء الحدود، فعيونهم تنتشر بكثافة في

طول أرض جارهم الجنوبي وعرضها، وأقمارهم التجسسية تجثم فوق صدور سكان الأرض وتكاد هي وشقيقتها الأمريكية تخنقهم وتحصي عليهم أنفاسهم، إذن لماذا هذا التكتم؟ هل المقصود به أبناء الوطن؟ هذا سؤال ظل يلح بإصرار، عمّن نتحصن؟ وعمّن نخفي أسرارنا؟ إذا كان أعداؤنا أحياناً هم مصدر سلاحنا، وأحياناً أخرى أصدقاؤنا يوم توقيع الصفقة، ولا ندري هل تستمر الصداقات أم أنّ المواقف متقلبة والمصالح هي الثابتة على الدوام؟ ومع ذلك يبقى الاحتراز مطلوباً أمام من لا صلة له بأية منشأة حتى لو كانت لصنع الآيس كريم.

للمعسكر حمّاماته المخصصة لمنتسبيه، ولكنّنا لم نتمكن من الوصول إليها، ولكنّ تأسيسات المياه كانت تأتينا بمياه عيون دافئة تصلح للاستحمام من دون حاجة للتسخين، غير أنّ وجودنا في قاعة مغلقة فرض علينا التعامل مع الأمر بقليل من التحدي، المغاسل كانت مصفوفة قرب المراحيض، ولذا كان لا بدّ لمن يريد الاستحمام أنْ يباشر ذلك في الهواء الطلق، ووسط أكوام من الثلوج، كان منظر الثلج يبعث على قشعريرة قوية، ولكنّ درجة حرارة الماء كانت تعادل مفعول الثلج وما يثيره من قشعريرة، تدافع الكثيرون للاغتسال مما أوجد حالة من التزاحم الشديد الذي كان يتعارض مع وقت النوبة، ثم إنّ الإيرانيين لم يرق لهم التصرف الذي اعتبروه منفلتاً للأسرى، ولذلك منعوا الاستحمام منعاً باتاً، ونتيجة ذلك كادت الفتنة أنْ تنشب أظفارها بين الأسرى، وتدخّل العقلاء مرة أخرى، وركزوا على أنّنا يجب أنْ نفوّت على عدونا التلاعب بتفاصيل حياتنا، لأنّ ذلك هو ما يسعى إليه، وبعد أنْ هدأت النفوس، أوكلنا الأمر للأرشد للاتصال بالجانب الإيراني لحل هذه المشكلة، وهذا ما تم فعلاً وأصبح الاستحمام بحاجة إلى

ترخيص مسبق، وكان الأمر يتم بالتناوب وبعد الحصول على موافقة الجانب الإيراني.

حاولنا الحصول على تفسير لهذا النقل الفجائي إلى المعسكر الجديد، مددنا مجساتنا في كل الاتجاهات، لكنّنا لم نحصل على نتيجة، ليس لأنّ الإيرانيين عصيون على الاختراق، بل لأنّ أحداً منهم لم يكن يعرف سبباً له، وفي أجواء كهذه تنتعش الإشاعات والإشاعات المضادة، ويتم تلفيق الكثير من الأخبار بهدف رفع المعنويات أو إهارتها، الأسرى في هذا المعسكر على رأي معظمهم نهر متدفق من المعنويات العالية، ويمكن أنْ يصدّروا منها للجهات الأربع، ولهذا كان من حق البعض أنْ يمتعض إذا علم أنّه كان ضحية لخبر كاذب يرمي إلى رفع المعنويات، لأنّه يشعر أنّ ذلك إهانة لصموده، وتحت هذا العنوان كانت بعض الأخبار تمر من دون تصديق، وقد يكون من حقنا أنْ نفترض أنّ تسفيهها كان ثمرة مواقف ضعيفة لم ترغب بسماع أخبار قوة العراق، وتأكد لنا كثير من هذا النوع من الأسرى، ممن سقط في مرحلة لاحقة من استمرار الحرب إلى ما يشبه الحلقة المفرغة التي تبدو وكأنها بلا نهاية، وحينما نطرح فكرة أنّ ذلك لا يستوجب التراخي، كانت الآراء الأخرى تركّز على مكاسب الأسرى الخونة الذين سقطوا في مراحل مختلفة من الأسر.

كانت أزمة الطعام ما تزال قائمة، فبعد أنْ كانت أرزاقنا اليومية تأتي إلينا من مسافة تقرب من أربعين كيلومتراً في أثناء وجودنا في قلعة سنك بست، بات علينا انتظار وصولها من مسافة قد تصل إلى ٢٠٠ كيلومتر أي من معسكر الفرقة ٧٧ في مشهد، وما أكثر الأيام التي تعرضت الشاحنات العسكرية فيها لحوادث منعتها من إكمال رحلتها، من معسكر الفرقة ٧٧ إلى معسكرنا

الجديد، وبالتالي بقينا من دون أن نتناول طعامنا ليوم كامل، كانت ملاكات المعسكر الحالي قد زج بها الحرب، وبالتالي فإنّ المتبقين ليست لهم القدرة على إعاشة حوالى ٢٥٠٠ أسير، ثم إنّ النقل إلى مازدوان كان مؤقتاً وفق ما رأت لجنة شؤون الأسرى التي يرأسها الحاج نظران، الذي يشغل منصب أمين عام المجلس الأعلى للأمن القومي الإيراني، فليس هناك حاجة إلى إدخال تعديلات على خطة الإسكان والإعاشة لأسرى تم نقلهم لفترة قصيرة، ولكن أخطر وجوه لجنة الأسرى القبيحة كان رو نواز وهو ضابط استخبارات هذه اللجنة، ويقال إنّه كان سبباً في إسقاط الغالبية العظمى من الأسرى الذين سقطوا نتيجة الأساليب التي اعتمدها في التعذيب النفسي والبدني مع الأسرى، والتنقل بين الترغيب «البرمكي» والترهيب «الخراساني»، كان يعمل معظم وقته في مكتبه، ولكنّه حينما كان يجد حاجة ماسة إلى معاينة ميدانية فإنّه لا يتردد في أنْ يشد رحال سفره على طول الساحة الإيرانية التي تتوزع عليها معسكرات الأسر، كان أسلوبه التحقيقي معروفاً من جميع الأسرى بسبب الهالة التي أضفاها الأسرى أنفسهم عليه، فهو القاسي بلا حدود ولا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه، وهو في الوقت نفسه الحاذق القادر على قراءة أفكار الأسير ومعرفة أسراره من دون صعوبة، ونتيجة لهذه الدعاية المجانية التي قيلت فيه، فقد كان الكثيرون ينتابهم قلق الانتظار والترقب، يفوق كثيراً حقيقة ما يواجهون في أثناء التحقيق نفسه، كان من النادر أنْ يضرب أحداً من الأسرى بيده، ولكنّ كل ما تعرض له الأسرى من التعذيب كان يخرج من رأسه أو مكتبه على شكل تعليمات محددة وبالأسماء، وكذلك أوامر الحجز بالانفرادي، لقد كان موضع ثقة الزعامة الإيرانية الدينية والسياسية، وحقاً أعطى هذه الثقة حقها من التفاني والتفنن في تنفيذ مهماته.

ولأنّ وجودنا في هذا المعسكر كان مؤقتاً فقد حرص الإيرانيون على إشغالنا بتفاصيل يومية مرهقة بلا انقطاع، بحيث لا يجد الأسير فسحة من الوقت للتفكير أبعد من الرقعة الجغرافية التي يقطن فيها وسط أسوار متعاقبة. كانت الأبواب تغلق مع الغروب، وكان على من يحتاج إلى المرافق الصحية الانتظار المرير إلى ضحى اليوم التالي، مع كل ما يرافق ذلك الانتظار من آلام ومعاناة، ومضاعفات صحية، سواء بالجهاز الهضمي أو بالجهاز البولي، وفعلاً عانى الكثير من الأسرى هذه الأمراض والتي تحوّلت إلى أمراض مزْمنة استوطنت في أبدانهم، وكجزء من حلّ هذه المعضلة تمّت العودة إلى الحلول السحرية في استخدام الصفائح المعدنية لمعالجة الحالات السريعة، ولكنّ الأمر تطلب ترتيب جدول بالخفارات المكلّفة بحملها وتفريغها في اليوم التالي، وفاقم من المشاكل هذه تكرار وصول وجبات الطعام الفاسدة، والتي تسببت في حالات إسهال شبه جماعية، لم يكن بوسعنا رفض أية وجبة خشية رد الفعل الإيراني الذي سيكون بأعلى درجات الغضب، وقد توجه للأسرى تهمة التحريض على الإضراب، وقد حاولنا مرة رفض وجبة عشاء فاسدة، ولكن نتائج ذلك الرفض كانت باهظة، وتأكد حتى لأكثر الأسرى بساطة مع الوقت أنّ الإيرانيين يريدون إبقاء الأسرى في أضعف حال، إلى الحد الذي يبقون على حياتهم فقط، من أجل يوم التبادل الذي لا بد من أنْ يأتي ذات يوم، وفي الوقت نفسه يحرصون على تجريدهم من عناصر القوة البدنية التي قد تدفع بهم إلى أفكار خارج محيط المعسكرات، وهكذا انشغل الأسرى بتفاصيل همومهم اليومية، ولم تكن هناك صلة تربطهم مع العالم، بل حتى مع خارج المعسكر، وكان الإيرانيون يفرضون ضوابط صارمة على اختيار نوعيات الجنود

العاملين في أوساط الأسرى، ومع ذلك وضعوا بعضهم رقيباً على بعض، ويحصل من يتمكن من اكتشاف خرق للجنود من طرف الأسرى على تلطيفات متنوعة أولّها إجازة طويلة خارج السياقات المتّبعة داخل المؤسسة العسكرية الإيرانية يقضيها بين أهله، وهذا ما عقّد من جهودنا في استمالة الجنود. ثم إنّ سقوط بعض الأسرى أو ضعفهم في أثناء جلسات التحقيق، كان يكشف خطوط تعاون بعض الجنود الإيرانيين الذين يتم إغراؤهم بالمتوفر من المال وبعض الحلي الذهبية التي تمكّن مالكوها من إخفائها عن أعين الإيرانيين على الرغم من تكرار التفتيش، وبشكل خاص حالات التفتيش الفجائية.

لم يطلْ وجودنا في هذا المعسكر الذي من خلال إسكاننا فيه تأكّدنا أنّنا لن نبقى فيه طويلاً، ولكن كان في مقدورنا أنْ نلاحظ ما يجري لبقية كامبات الأسرى، ولهذا حينما باشر الإيرانيون صباح يوم ١٩/٢/١٩٨٥ بنقل الأسرى على دفعات، كنّا نلحظ الحركة في المعسكر، وإنْ كانت التفاصيل البعيدة لا تظهر على شاشة العين، ومرت العملية بطيئة بحكم الاحترازات الأمنية الواجب اتخاذها في مثل هذه الظروف، فنحن نعرف ما يعنيه فرار أسير واحد من قبضة آسريه، وبسبب المسافة البعيدة بين المعسكرين فقد تأخر نقلنا إلى ما بعد المغيب بأكثر من ساعة، لم نكن في البدء نعرف وجهتنا، وربما تكون عودتنا إلى معسكرنا السابق في سنك بست آخر شيء نتوقعه أو نفكر فيه، نودي علينا وبشكل ينم عن كثير من انفلات الأعصاب، وتمّ حشرنا تباعاً في حافلات متعبة ومن نوعيات قديمة جداً، بعد أنْ تم عصب عيوننا وربط أيدينا إلى الخلف، وانطلق الرتل مخلّفاً وراءه معسكراً نائماً في أحضان وادٍ عميق، توقعنا أنّنا قضينا فيه دهراً نتيجة ما عانيناه من صنوف الأذى، والضغط الذي

لم نجد له سبباً، فتمنّى الكثيرون العودة إلى سنك بست، على الرغم من قسوتها، وعلى الرغم من كل ما أصابنا فيها من محن، تصعب على تصديق من يحمل عقلاً سوياً.

الفصل الثامن

العودة إلى صخرة الموت

يبدو أنّ بعض الأمنيات قابلة للاستجابة السريعة، ولكنّها سرعان ما تتحول إلى همّ جديد، ترتفع الأيدي تضرعاً إلى الله ﷻ، لرفعه عن الأسرى الذين كانوا يتعرضون لظلم فادح من عدو جاهل وحاقد، لا أحدَ قادرٌ على وضع حدّ له في نهايات القرن العشرين، أسوأ ما في هذه الرحلة أنّ الظلام المفروض علينا يعزلنا عن كل ما يحيط بنا، فيندفع الجنود بتفريغ شحنات الكراهية دونما سبب، كانت رؤوسنا هدفاً لضربات بقبضات الأيدي، وبشكل فجائي يضاعف من وقع الضربة، وإذا تجرّأ أحدٌ منّا على إصدار آهة ألم، فإنّ ذلك سيكون سبباً بمزيد من الأذى، يفاقم من وطأة ذلك الأيدي المربوطة إلى الخلف.

مضت الحافلات بطيئة، ولمّا توقفت بعد زمن قدّرنا أنّه مساوٍ لزمن الذهاب، إذا بنَا أمام أحد احتمالين: إمّا أنْ نكون قد أعدنا إلى معسكرنا السابق في قلعة «سنك بست»، أو أنّنا سنحل «ضيوفاً» على معسكر في مشهد مركز محافظة خراسان، وما أكثرها في تلك المنطقة، لسنك بست بوابة خشبية كبيرة جداً ومن النوع القديم، وتم استحداث فتحة صغيرة فيها على هيئة باب حديدي، يسمح بمرور شخص واحد فقط، ولا يتم فتح عصابة العينين خارج تلك

البوابة، ولهذا كان الجنود الإيرانيون يقتادون الأسرى واحداً واحداً، ويدفعون بهم إلى الممر المفضي إلى الباحة الداخلية ثم يتلقفه الجنود الآخرون، ويفكّون وثاقه وعينيه، وقف حوالى ستة عشر جندياً إيرانياً في صفين على جانبي المدخل الرئيس، وقد أمسك كل واحد منهم بسوط من الأسلاك الكهربائية الغليظة، ونظموا للأسرى العائدين حفل استقبال مبتكر، فبمجرد مرور الأسرى بين صفّي الجنود تنهال السياط عليهم من كل مكان، ومن دون تحديد موقع الضرب؛ إذ لا يهم أين يصاب الأسير في رأسه أو أي مكان آخر، فذلك غير مهم، وإذا فقد حياته فما أيسر تبرير الوفاة على الإيرانيين، كان بعضنا يحمل أسماله على رأسه، والبعض على ظهره، فكانت درعاً مخففاً لوقع الضربات القاسية، ولم نعرف تفسيراً لتلك الحفلة، فنحن نقلنا من دون طلب منّا وأعدنا من دون طلب منّا أيضاً فلماذا هذه الاحتفالية؟ كان الجنود يصرخون بأعلى أصواتهم على الأسرى بالجري السريع، وكاد الممر أنْ يصبح كابوساً مرعباً وطويلاً على الرغم من أنّ طوله قد لا يتجاوز العشرة أمتار، البعض من الأسرى ذهبوا في اتجاهات مختلفة وعلى كافة أنحاء الساحة الداخلية للمبنى الذي كنّا نعيش فيه لفترة طويلة. وبعد أنْ استقر بنَا المقام في القاعة الصغيرة نفسها التي كنّا قد غادرناها قبل شهر ونصف، وكانت العيون مشدودة إلى الفراغ، قال أحد الأسرى وبذهول: «هذه القاعة تشبه القاعة التي كنّا بها»، كان لم يستفق حتى تلك اللحظة من وقْع ما لاقيناه من ترحيب على طريقة الإسلام الإيراني، لم يكن ميسوراً على أحد منّا تنظيم رد فعله على اكتشاف هذا الأسير، ضحك البعض على الرغم من شدة الألم، وتهكم آخرون، ولكنّ النتيجة كانت واحدة فنحن عدنا من دون أنْ نعرف لماذا، كما ذهبنا من دون أنْ نعرف لماذا،

وفي كلتا الحالتين لم يكن لنا رأي في ما يجري من حولنا على الرغم من أنّه يخصنا بالدرجة الأولى.

لم تتغير التعليمات في تلك الليلة، فقد كان علينا أنْ نخلد إلى نوم مصطنع، حتى إذا غادر الكرى أعيُن الجميع. وفي اليوم التالي كان علينا أنْ نبحث عن جواب محدد للسؤال المُلِحّ، لماذا ذهبنا ولماذا عدنا؟ البعض اعتقد أنّ الأمر كان ينطوي على انفراج سياسي بين العراق وإيران نتيجة تدخلات إقليمية أو دولية، ولكنّ التفسيرات كلها، المتشائم منها والمتفائل، تحطمت على جدران قلعة سنك بست الحجرية.

كان عام ١٩٨٥ حافلاً بالأحداث الكبيرة والخطيرة، سواء ما يتصل بتطورات الحرب، أو على مسار قضية الأسرى، ففي ما يخص وضع جبهات الحرب تمكنت إيران من تحقيق إنجازات ميدانية مهمة، مثل تطوير هجماتها في جزر مجنون العراقية الغنية بالنفط، هذه المكاسب هي التي دفعت بهاشمي رفسنجاني، رئيس مجلس الشورى الإيراني آنذاك وممثل الخميني في مجلس الدفاع الأعلى، إلى المطالبة بنفط المنطقة، والذي تبلغ كمياته كما صرح رفسنجاني، ثمانية مليارات برميل، واعتبرها حلاً لمشكلة التعويضات التي تطالب بها إيران وعلى الرغم من أنّ الإيرانيين قدّموا خسائر كبرى في معارك مجنون، إلا أنّهم في واقع الحال لم يجدوا الموازنة السليمة بين أهمية الهدف المراد تحقيقه والخسائر التي يتكبدونها من أجل ذلك، وأقام الإيرانيون جسراً داخل هور الحويزة، أسموه جسر خيبر وصولاً إلى جزيرتي مجنون الشمالية والجنوبية، ولم نستطع تبيّن مواقع القوات المتحاربة طيلة مدة الأسر.

وبالمقابل فقد حاولت إيران التمدد برياً في قاطع العمارة وعبور نهر دجلة ولكن يقظة العراقيين أحبطت الخطة الإيرانية، حيث تكبّدت القوات الإيرانية آلاف القتلى، وتمّ حسم المعركة في ١٧/٣/١٩٨٥، وفي اليوم التالي أعلن العراق حسم معركة الحويزة، ومع استعادة العراق لعنصر المبادأة والمبادرة في جبهات القتال، أعلن الرئيس صدام حسين أربعة شروط لإنهاء الحرب، تبدأ بوقف فوري لإطلاق النار، وانسحاب قوات البلدين إلى الحدود الدولية، وإطلاق سراح شامل للأسرى، وأخيراً بدء المفاوضات.

وفي الثاني من أيار/مايو ١٩٨٥ تمكنت شقيقة علي خامنئي من الهرب إلى العراق والالتحاق بزوجها المعارض لنظام حكم خميني في إيران، واقع الحال أن شقيقة خامنئي الذي كان يشغل منصب رئيس الجمهورية لم تستقطب اهتماماً واسعاً، وذلك لأن منصب خامنئي لم يكن ذا وزن أو قيمة في النظام السياسي السائد في طهران.

وشهدت حرب المدن تصعيداً لافتاً، فإيران تمكّنت في ١٠ حزيران/يونيو من ضرب بغداد بصواريخ أرض - أرض من نوع سكود السوفياتية الصنع، تبرّع بها الزعيم الليبي العقيد معمر القذافي لإيران لضمان تفوّق إيران في الحرب، ولم تعرف دوافع القذافي لتسليح إيران هل هي حساسية موقفه من الرئيس صدام حسين أم هناك دوافع أخرى؟ أين تبخرت شعاراته القومية كي يقف ضد بلد عربي مع بلد أجنبي ولم يلبِّ الحد الأدنى من مستلزمات الموقف العربي المطلوب والذي حدّده ميثاق جامعة الدول العربية ومعاهدة الدفاع العربي المشترك؟ وكيف يستطيع المواءمة بين ما كان يدعيه لنفسه من وراثة تاريخ الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وحمله

للواء القومية العربية بعد رحيل عبد الناصر؟ إذن تلك كانت مفارقة الزمن العربي الرديء الذي عبث من دون سبب بدماء العراقيين.

الحاصل أن ضرب بغداد بالصواريخ الليبية تركت تأثيرات سياسية على الموقف الرسمي العراقي، فقد سحب العراق اعترافه بالنظام الليبي في ٢٦/٦/١٩٨٥، وقرر سحب بعثته الدبلوماسية من طرابلس، وقرر طرد البعثة الدبلوماسية الليبية من بغداد رداً على التحالف الاستراتيجي بين إيران وليبيا.

كما أن الضربة تركت تأثيرات نفسية وأمنية في سكان عاصمة الرشيد، مما تطلّب معالجة عاجلة من جانب الدولة لهذا الخلل في موازين القوى بين البلدين، وانتقال القدرة إلى إيران للتحكّم بالمزاج السياسي السائد في بغداد، صحيح أن الاتفاقيات التي وقّعها الاتحاد السوفياتي مع الحكومة الليبية بشأن تجهيزها بالأسلحة تفرض عليها قيوداً بشأن نقلها إلى طرف ثالث، وصحيح أن كمية الصواريخ التي أهداها القذافي إلى إيران كانت محدودة العدد، إلا أن الصحيح أن استخدام صاروخ واحد كان كفيلاً بإحداث التأثير النفسي المطلوب على مستوى الشارع العراقي، ومن غير المعروف كم بقي من الصواريخ الجاهزة للانطلاق نحو أهدافها في بغداد. وهذا الغموض يترك حيرة قلقة وارتباكاً في معرفة مكان الضربة القادمة، والصواريخ على العموم من الصواريخ المتوسطة المدى لأن بغداد لا تبعد كثيراً عن خط الحدود الدولية بين البلدين.

ومن أجل موازنة حالة الردع الإيراني تم استخدام طائرات ميغ ٢٥ الروسية الصنع وطائرات الميراج F1 الفرنسية الصنع، في ضرب مدينة طهران بالذات، ولكنّ الضربات الصاروخية كانت ذات

تأثيرات نفسية مدمّرة وأبعد مدى من القصف الجوي، وهذا ما دفع بالعراق وبقوة إلى تطوير صناعة الصواريخ حتى تصل إلى طهران من أجل إعادة توازن الرعب بين الطرفين المتحاربين.

كما أنّ هذا العام كان عام تصعيد حرب الناقلات، وكادت المواجهات تستدرج دول الخليج العربي إلى معركة مباشرة بعد أنْ نأت بنفسها عنها واكتفت بتقديم الدعم للعراق ليدافع عنها، فكانت حرب الدم العراقي والنفط الخليجي، ونجحت إيران بابتزاز دول الخليج القريبة وخاصة الكويت التي مارست أعلى درجات النفاق السياسي، إذ أرادت الإمساك بالعصا من وسطها خيارها الأمثل، والاحتفاظ بأفضل العلاقات مع الطرفين المتحاربين.

أما على صعيد قضية الأسرى فقد علمنا فيما بعد بأنّ نقلنا من سنك بست إلى مازدوان، وعودتنا إلى القلعة «سنك بست» كانت نتيجة لوصول وفد تابع لمنظمة الأمم المتحدة، لدراسة أوضاع الأسرى العراقيين في المعسكرات الإيرانية، بعد تعرّض أسرى معسكر كركان - «ومعنى الكلمة بالعربية هو الذئاب» - لفتح النار من قبل الجنود الإيرانيين، وكالعادة وقوفاً إلى جانب الخونة من الأسرى وبأوار من جهات دينية وعسكرية عليا، ومقتل عدد منهم أمام سمع وبصر مندوب اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وهو الحادث الذي قتل فيه عدد غير قليل من الأسرى، وأخفي آخرون في زنازين سرية مع تعذيب تم الكشف عن تفاصيله لاحقاً، وكانت النتيجة أن خسرت إيران سمعتها السياسية على الصعيد الدولي، ومع ذلك فهي لا تكترث للمواثيق والأعراف الدولية. كان معسكر كركان في ١٠/١٠/١٩٨٤، على موعد مع زيارة لفريق من الصليب الأحمر، يقول علي عزيز العبيدي في كتابه **شهداء بلا أكفان**: «كان الأسرى المخلصون ينتظرون مثل هذه الزيارات بفارغ الصبر وعلى

أحرّ من الجمر، فقد بات من الضرورة التخطيط المسبق للاستفادة القصوى من هذه الزيارة في استلام من لم يستلم من الأسرى وعرض مشاكلهم وسوء معاملتهم عليه، وقد رافق هذا الخبر خبر آخر التقطته وسائل الأسرى المخلصين مفاده أنّ المرتدين وبدعم من الإيرانيين سيفشلون هذه الزيارة وسيحولون دون تحقيق أهدافها من خلال طرد وفد المنظمة، وهذه الحالة سهلة جداً على هؤلاء، ولا سيما أنّها تكررت في معسكرات أخرى كمعسكر مهر آباد الجنوبي مثلاً».

ويمضي العبيدي في سرد القصة ويقول: «تدخل مجموعة من حاملي الحقائب الأجنبية بإحاطة من الإيرانيين عن بعد، تبدو على وجوههم مسحة العافية بينما تطغى على وجوه الأسرى سحنات الموت، همّاً وجوعاً وعذاباً، وما هي إلّا لحظات حتى قام أحد الخونة المكلفين بأدوار شريرة ـ هو ح. م ـ بالاندفاع بسرعة هاجماً على أحد أعضاء وفد منظمة الصليب الأحمر، إذ استطاع أنْ يمزق الأوراق التي كانت في يده والتي سجّل فيها بعض المعلومات عن المعسكر، علماً أنّ أحد العناصر التي تقود العمل المنظم، كان أوصل لوفد الصليب عند دخوله معلومة عما يصدر من هؤلاء ضدهم وقد أجابوه أنّهم يمتلكون حصانة دبلوماسية، فرّد عليهم بأنّ إيران لا تعرف للحصانة الدبلوماسية معنى، وهنا أعطيت الإشارة بالهجوم المباغت على مصادر الشر، من تلك الأدوات التي توجهها الإدارة الظالمة، فماجت ساحة المعسكر بعملية قتال بالأيدي بين الأسرى الشرفاء وبين العناصر الخائنة، وكانت بداية ذلك ما قامت به المجموعة المكلّفة بحماية أعضاء الوفد، واحتدم الصدام واستمر بتواصل غريب أمام أنظار الإيرانيين ووفد الصليب الأحمر، وراحت الساحة تفور بالغضب مما حدا بجماعة الصليب إلى الفرار للخلاص بأنفسهم».

ويضيف العبيدي في سرد قصة كركان فيقول: «وقد كان من نتائج هذه الملحمة التاريخية التي قدّم فيها الأسرى الطيبون مجموعة من الشهداء أنْ وصلت أنباء هذه المجزرة إلى كلّ العالم، وتصاعدت صيحات الاستنكار وقامت القيادة المناضلة في العراق بالطلب من الأمين العام للأمم المتحدة بإرسال لجنة لتقصي الحقائق عن مجزرة كركان الرهيبة، وبالفعل فقد وصلت عقب تلك الأحداث بأيام قلائل لجنة لتقصي الحقائق، وبعد جولة في عدة معسكرات بعد معسكر كركان قدمت تقريراً من ٤٠٠ ـ ٤٥٠ صفحة».

بعد تلك الحادثة تعالت المطالبات من قبل العراق والمنظمات الإنسانية والحقوقية لتدخّل الأمم المتحدة بثقلها الدولي مباشرة بعد أنْ منعت الحكومة الإيرانية اللجنة الدولية للصليب الأحمر من ممارسة واجباتها المعتادة مع الأسرى العراقيين، في المعسكرات التي كانت تفتقد لأبسط الشروط المعتمدة من طرف الصليب الأحمر، في الوقت نفسه الذي كانت الحكومة الإيرانية ترفع شعاراً براقاً ورنّاناً، عن معاملة الأسرى العراقيين، باعتبارهم ضيوف الجمهورية الإسلامية، لكن إيران صمت آذانها عن كل النداءات التي أطلقتها المنظمات الدولية ومما شجعها على تجاهل دور المنظمات الدولية، أن أياً من هذه المنظمات لم ترتق في مواقفها إلى الحد الأدنى المطلوب منها أن تقفه إلى جانب قضية الأسرى العراقيين التعساء الذين تحولوا إلى حقل تجارب لأسوأ الممارسات الموغلة في الوحشية والتخلف.

جاءت زيارة الوفد الأممي المؤلف من خمسة أعضاء هم ١ ـ البروفيسور ولفرام كارل أستاذ القانون الدولي في جامعة سالسبورغ في النمسا، و٢ ـ البروفيسور نوركل أوبساهل أستاذ القانون الدولي

في جامعة أوسلو في النرويج، و٣ ـ المايجر جنرال رافائيل أنجل فالي هورتا وكان مستشاراً للوفد وهو من فنزويلا، و٤ ـ رينون ستيفان مدير الأمانة العامة للأمم المتحدة، و٥ ـ فرانسيس فيذاريل من مكتب الشؤون السياسية للأمم المتحدة، بناء على طلب العراق، وحاول الوفد بكل ما يمتلك من مناورة وذكاء أنْ يحصل على أية معلومة تقوده إلى معسكر سنك بست، باعتباره معسكر النخبة المنتقاة من أكثر الأسرى عداء لإيران، ويضم بعض القيادات العسكرية والحزبية والإدارية العليا.

ولقد علمنا فيما بعد أنّ أسرى معسكر سمنان الصحراوي ـ وهو معسكر لا يبعد كثيراً عن طهران ـ وكذلك أسرى بقية المعسكرات الذين تجمعت لديهم معلومات متناثرة عن سنك بست، قد زودوا الوفد الدولي باسم معسكرنا ومكانه، دعمت ما لديه من معلومات استقاها من الحكومة العراقية، بل إنّ كل أسير افترق عن رفيق له في أحد معسكرات الأسر ظن أنّه في سنك بست ولهذا أعطى اسمه للوفد الدولي الذي كان خافيير بيريز ديكويلار أمين عام الأمم المتحدة قد بعثه لتقصي الحقائق عن أوضاع الأسرى العراقيين في غياهب الزنازين الإيرانية، والحق أنّ ديكويلار كان قد وقف موقفاً منحازاً ضد العراق في كل تحرك للأمم المتحدة، وربما يكون هذا منبعثًا من موقف شخصي لا صلة له بحقائق الحرب ومجرياتها.

ثم علمنا فيما بعد أيضاً أنّ الوفد قد جاء إلى سنك بست كما توقع الإيرانيون واحترزوا له، ولكنّه لما لم يجد أحداً من الأسرى، بل وجد أسرّة حديدية وفُرُشاً بأكثر من ٢٥٠٠ قطعة، لم يستغرب أنْ يتصرف الإيرانيون على هذا النحو، لأنّ الوفد أحيط علماً بمواصفات الرجال المحتجزين في المعسكر المذكور، وتظاهر

أعضاء الوفد بقبول الرواية الإيرانية، لأنّهم يعرفون جيداً أنّهم إنْ تصرفوا خلاف ذلك فسوف تفشل مهمتهم على أقلّ تقدير، ولهذا فقد قص علينا رفاق من الأسرى تم نقلهم إلينا بعد أكثر من سنتين على زيارة الوفد، أنّ رئيسه كان يحرص على تسلم الطلبات التي يقدمها الأسرى إليه في لقاءات مغلقة، وأنّه كان يخفيها تحت «البيريه» العسكرية التي يضعها على رأسه، لأنّه كان يخشى أنْ تكتشف من قبل الإيرانيين ويعرفون كاتبيها، ويتعرضون نتيجة ذلك لظلم وعقوبات قاسية، ومع أنّ ذلك كان يترك انطباعاً مريراً لدى الأسرى، بشأن إمكانية نشوء حالة سياسية تفتح لهم باباً للخلاص، فإنّه في واقع الحال أغرى الكثيرين بالتفكير بأنّ ما يعانيه الأسرى في كل مكان يجب أنْ يتم عزله عن النوايا السياسية للدول المتصارعة. وما كان يثير في نفوسنا إحساساً مضاعفاً بالمأساة أنّ بعض زملائنا الأسرى الذين جاؤونا من معسكرات مفتوحة بعد أن عوقبوا لسبب أو لآخر، أخبرونا بأنّ ممثلي الأمم المتحدة أخبروهم بأنّ العراق يتعامل بمهنية عالية مع اللجان الدولية، وأنّ الأسرى الإيرانيين في العراق يلاقون معاملة أفضل مما تقرره لائحة جنيف الخاصة بالأسرى، وأنّ الصليب الأحمر يمارس فعالياته معهم بحرية تامة، على العموم كان البعض منّا يدعو الحكومة العراقية عن بعد بأنْ تحذو حذو إيران في منع الصليب الأحمر من زيارة معسكرات الأسرى، ولكنّ البعض الآخر كان يعتقد بأنّ إيران ليست مكترثة بما يحصل لأسراها ولا ينبغي لأسير أن يحمل ضغينة لأسير مثله، وإنْ كانت تحرص على توظيف أي نقص يعانونه لشنّ حملة كراهية ضد العراق، وبالتالي اعتقد الكثيرون على الرغم من مأساتهم أنّ استمرار العمل بمهنية كالذي ينتهجه العراق هو الصحيح فهو سلوك الدول المتحضرة، وليس الرد عليه بروح انتقامية تعكس همجية وتخلفاً.

وكان من نتيجة مجيء الوفد الدولي لإيران، وزيارته إلى معسكرات الأسرى، واطلاعه على المعاملة القاسية التي يتعرضون لها، وإضاعة حقوقهم المنصوص عليها في اتفاقية جنيف المنظمة لوضع الأسرى في أقفاص الدول الآسرة، أنْ شنّت المنظمات الحقوقية والإنسانية والدولية حملة منسقة دعت فيها إيران إلى تعديل معاملة الأسرى، ولكنّ الحكومة الإيرانية ظلت تصرّ على أنّها تطبق معاملة إسلامية على الأسرى تفوق في إيجابياتها حقوقهم التي تطالب بها لجنة الصليب الأحمر، وكان الإيرانيون يجاهرون أمامنا بأنّهم يرفضون تطبيق لوائح صليبية لأنّهم جمهورية إسلامية، لكنّ اللجنة العليا المختصة بشؤون الأسرى والتي يرأسها الحاج نظران أمين عام مجلس الأمن القومي الإيراني، كانت ترد على تلك الحملات بتصعيد حالات الأذى المسلطة على الأسرى، فبالإضافة إلى سياسة التجويع تمّ استهداف كامب الضباط بعقوبات مبتكرة، وحينما عُدْنا إلى سنك بست، كان الشتاء ما يزال في أوج عنفوانه، فالمنطقة باردة في فصل الصيف أصلاً، أما شتاؤها فتنخفض درجات الحرارة فيه إلى ما تحت الصفر بكثير في معظم أشهره، كانت الساحة الخارجية تمتلئ بالثلج المتساقط، ويتعذر على الجميع الحركة فيها، كان التعداد في مثل هذه الظروف يتمّ يومياً في الخارج، ويتعمد المسؤولون عن هذا البرنامج التأخر في الوصول حتى تستنزف قدرتنا على المطاولة، وتصبح الأرضية أكثر قسوة عندما ينصهر الثلج ويتحوّل إلى جليد أملس، فلا يتمكن أحد من الثبات فوقه، وهناك يتم اقتناص أي خطأ يمكن أنْ يرتكبه أسير متعب أو مريض، ويتحرك فوق أرض لا ثبات فوقها إلا لمن لبس حذاء مخصّصاً لمثل هذه الحالة.

وتنوعت أساليب التعذيب في مثل تلك الظروف القاسية؛ إذْ

يتمّ اختيار بعض الأسرى من كبار السن أو المرضى، ويساقون ليلاً حفاة، ويؤمرون بالجري حول الساحة لمدد تتراوح بين نصف ساعة وساعة كاملة، وهناك من يؤمر بحفر خندق داخل أكوام الثلج، ويتم إجباره على خلع ملابسه إلا قطعة واحدة فقط، ويلقى في هذا الخندق لمدة لا تقلّ عن عشر دقائق، وأحياناً تصل إلى ضعف هذه المدة، وأحياناً يؤتى بصفيحة فارغة وتوضع فوق رأس الأسير، ويبدأ جندي إيراني بالطرق عليها بقوة بقضيب من حديد وكأنه طبّال، حتى يفقد الأسير وعيه، ثم يلقى المعاقبون في قاعتنا وهم متجمدون تماماً، ومن حسن الحظ أننا كنّا نلجأ إلى معالجة الحالات القادمة إلينا بالتدليك المستمر، لعدم توفر البدائل الأخرى، وقد ثبت علمياً أنّ هذه الطريقة أسلم في إعادة الحياة تدريجياً لجسم الإنسان، ثم يبدأ الغائبون عن الوعي باسترداد وعيهم، ويكون أول سؤال لهم أين أنا؟ وأين كنت؟ وبعد زمن وحينما يعود إلى وعيه الكامل وتعود الحياة لتدبّ في أوصاله يستذكر ما جرى له وسط مرارة وألم كبيرَيْن.

وكما قلت فإنّ الإيرانيين لم يحسنوا تطبيق قواعد عمل استخباري ناجح مع الأسرى باستثناء اعتماد القوة والبطش سواء بصورة مباشرة من قبلهم أو من قبل من سقط في مستنقع خيانة الوطن وارتمى في حضن أعدائه، فقد نقل لنا أسرى من معسكرات أخرى قصصاً مفزعة عما يجري في معسكرات التفكيك، وهي المعسكرات التي يتواجد فيها عتاة «التوابين» مثل معسكر تختي والذي كان يموج في ممارسات ومهرجانات التعذيب في أبشع صورها على مدار ساعات اليوم بلا انقطاع، وتختي ملعب رياضي موروث من عهد الشاه، وتحول في أثناء الحرب إلى معسكر للأسرى، وفيه شهد باقر الحكيم استعراض قواته ممن أسقطهم من

الأسرى إما بقوة الشحن الطائفي وإما بقوة الرعب والتعذيب، وهذه القوات أصبحت تعرف فيما بعد بميليشيا فيلق بدر والتي دخلت العراق عام ٢٠٠٣ مع قوات الغزو الأمريكي ـ البريطاني ثم زعم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية أنه حولها إلى منظمة غير عسكرية، وقد مارست القتل على الهوية بعد الاحتلال الأمريكي للعراق.

ونعود إلى المعسكر والذي يختص بإسقاط الأسرى وخاصة صغار السن بعد تعريضهم لأهوال من التعذيب، وحكى لنا أحد الخارجين منه أنّ اثنين من الأشقاء تمّ أسرهما من أحد قواطع العمليات في الجنوب، وكان أبوهما هو الآخر أسيراً قبلهم بعدة سنوات، وقد تم إسقاطهما في حفرة «التوابين» وكان والدهما وطنياً متين الإيمان بعدالة قضيته، فطلبه ولداه إلى معسكر تختي ليعيش معهم، وعندما جاء طلبا منه الانضمام إليهما ولكنه رفض بإباء، فتعرض إلى تعذيب شديد على أيدي جلّادي المعسكر المذكور، ولما لم يخضع لتلك الضغوط، وبدلاً من تدخّل ولديه لوقف التعذيب عنه، تبرعا في «إعادته إلى جادة الصواب» فكانا يتناوبان على جلده بالكابلات الكهربائية في جريمة لا تمت إلى الإنسانية أو الإسلام أو الأخلاق أو القيم بأية صلة، وهما في حمأة الشعارات الطائفية نسياً أو تناسياً ما جاء في سورة لقمان وسورة الإسراء من حضّ على طاعة الوالدين حتى في حالة الاختلاف في الدين أو المجاهدة على الشرك بالله، فكان الوالد يحتسب عند الله ويفوّض أمره له، وكان هذان العاقان يحظيان لفعلهما الرذيل هذا، بحماسة من «المبلّغين الإسلاميين» الإيرانيين في المعسكر، وفي يوم من أيام المحنة همس في أذن رفيق له أنه يتمنى العودة سالماً ليتأكد من زوجته فيما إذا كان هذان الضالّان هما منه فعلاً.

وقصص التعذيب في هذا المعسكر فوق طاقة الإنسان للتخيل،

هناك ضابط أصرّ على موقفه الوطني، ولم يخضع لكل محاولات الضغط والترغيب، ولم يجدوا غير ربطه على عمود الكهرباء، وحوّلوه إلى ما يشبه لعبة القُرص الذي ترمى إليه الأسهم، ولكن بسرنغات مع إبرها بعد أن توضع فيها مواد قذرة كالبراز أو القيح أو ما شابه، ثم يتبارى التوابون وبإشراف من الجنود الإيرانيين على رمي هذه السرنغات على جسده، وبعد أن تغرز في جسده يكمل الرامي زرق محتوياته داخل جسمه، وكان عمر هذا الأسير قصيراً بعد هذه الممارسة الموغلة في وحشيتها، والتي حظيت بمباركة المشرفين على معسكرات الأسرى من الإيرانيين وقيادات التوابين.

كانت الأخبار ممنوعة علينا، وكنا نتشبث بكل الوسائل المتاحة للحصول على خبر يعطينا قليلاً من الأمل بغد قريب أو بعيد، ولكن عدم توفر شيء نعطيه ثمناً لجندي إيراني كي يوفّر لنا جهاز راديو، مع جشع أولئك الجنود، كان يحول دون ذلك خاصة وأنّ الجنود على يقين مطلق بأننا نمتلك الكثير من المصوغات الذهبية التي نخفيها ليوم العودة، ولذلك انتشرت التحليلات السياسية، ومعها أصبحت ظاهرة تفسير الأحلام لدى الكثيرين ممن يحسنون بعض قواعد التفسير، ومن الطارئين على هذه الوظيفة، أكثر الظواهر انتشاراً في صفوف الأسرى، كل من وجد في نفسه القابلية على ترتيب الأفكار والحديث بهذا الأمر، استقطب إليه عدداً من الأسرى الذين يفضون إليه بما رأوه في أحلامهم، ثم تبدأ الأسئلة، متى رأيت الحلم؟ وهل كنت على طهارة؟ وهل هو بعد صلاة الفجر أم قبلها؟ وبعد أنْ يخرج «المفسر» بما توصل إليه من استنتاجات، تجد الأسرى وقد تحلقوا في تجميع ما سمعوا، وخلال دقائق معدودة لا يكون الحلم إلا وقد وصل أبعد زاوية، مع إضافات وتعديلات، تنسجم ونوعية الهدف المطلوب من توجيه الحلم.

ويبدو أنّ اللجوء إلى الأحلام حقيقة تاريخية تعود إلى أقدم العصور الإنسانية، ولعل ارتباط السجون بالأحلام كان قد فرض نفسه على المسلمين بشكل خاص، وأتباع الديانات الأخرى، من قصة النبي يوسف بن يعقوب (عليه السلام)، فقد جسدت تلك القصة التي أفردت لها سورة كاملة بالقرآن الكريم، وهي سورة يوسف، حقيقة كوْن الحلم جزءاً من حياة الإنسان، يؤثّر في حياته بقدر أو بآخر، ولهذا فقد وضع المسلمون منذ بدء الدعوة الإسلامية مناهج واضحة المعالم لتفسير الأحلام، وهذا ما شدّ الأسرى الذين عرفوا التدين والالتزام بالعبادات في وقت متأخر إلى التعلق بالتفسير الديني للأحلام، حتى أصبح الحلم مصدرَنا الوحيد للأخبار، وأصبح المفسرون وكالات أنباء تعمل على مدار يوم الأسرى، وبثقة فائقة قال أحدهم: إنّ سيدنا يوسف دعا للسجناء أنْ تصلهم الأخبار مهما بلغت أساليب التعتيم، وأنّ الله ﷻ قد جعل ذلك حقّاً ثابتاً لهم، ليس هذا وحده وإنّما كان الأسرى يستبشرون إذا شاهد أحدهم هدهداً، فالهدهد بشير خير وحامل الأنباء منذ زمن سيدنا سليمان (عليه السلام)، وبين خبر يفرض نفسه علينا بإرادة إيرانية مخطط لها ليحكي إنجازاً حربياً إيرانياً، وإشاعة وردية يسرّبها الأسرى لتدحض ما يسربه العدو، وانحدار سقف الآمال بفرج قريب، كان عام ١٩٨٥ يقترب من نهايته ليلفظ أنفاسه الأخيرة، مسجّلاً استمرار المبادأة الإيرانية في جبهات القتال في القاطع الجنوبي للعمليات من دون إحراز أي تقدم ميداني، وعلى الرغم من ضخامة الخسائر الفادحة التي يتكبّدها الإيرانيون، فإنّ حماقة الخميني ودمويته وإصراره على تحقيق النصر بأي ثمن، ونزعته الفردية المتسلطة في اتخاذ القرارات، كل ذلك، لم يجعله يستمع إلى نصائح مستشاريه المقرّبين من المسؤولين الإيرانيين، سياسيين وعسكريين، وضرب

عرض الجدار تقارير مجلس الدفاع الأعلى، ومجلس الأمن الوطني، التي كانت تجمع على أنّ إيران لا تكسب الحرب، وأنّ استمرارها سيقود البلاد إلى كارثة مؤكدة على كل الأصعدة، اقتصادياً وبشرياً وعسكرياً، ولكنّ كراهية الخميني وبغضه الشخصي للرئيس صدام حسين، ونداء التوسع الإمبراطوري الجديد تحت شعار تصدير الثورة التي تؤمن بولاية الفقيه، أصمّت أذنيه عن سماع نداءات كلّ طوائف الشعب الإيراني، وأغمضت عينيه عن رؤية الحقائق كما هي.

صحيح أنّ الإيرانيين كانوا هم المبادرين بالهجمات الكبيرة منذ خريف عام ١٩٨١ وحتى هذا الوقت، إلا أنّ القوات العراقية التي تعرضت إلى ضغوط هائلة، وتكبّدت خسائر جسيمة في الرجال والمعدات، كانت تقاتل بضراوة وبلا هوادة، وبعناد القيادة العراقية المتمثّلة بالرئيس صدّام حسين الذي كان يرى في المشروع الإيراني خطراً لا يتهدّد النظام في العراق أو العراق نفسه، بل هو بداية زحف لن يتوقف إذا لم يجد جداراً صلباً يقف بوجهه ويوقفه عن النقطة التي انطلق منها، ثم إنّ القوات العراقية كانت تخوض حرباً دفاعية وداخل أراضيها ضد قوات عدو يريد التقدم داخلها، وبالتالي فهي تقاتل قتال المضطرين، وليس قتال المعتدين الإيرانيين الحالمين بطموحات التوسّع الإقليمي على حساب أرض العراق التي ظلّوا ينظرون إليها على أنّها الخاصرة الرخوة التي بإمكانهم التمدد فيها وعليها متى سنحت لهم الفرصة، أو اقتضت الحاجة إلى ذلك، ولكنّهم في واقع الحال وعلى الرغم من شنّ الهجمات المتصلة كانوا يصطدمون بجدران صلبة، وتضاعف من قوتها مع مرور الزمن.

تواصلت زيارات «رو نواز» مع لجنة شؤون الأسرى التي لم

تكن تدرس ظروفهم الإنسانية بقدر ما كانت تضيّق عليهم بعد كل زيارة، فظروفهم لم تكن خافية على أحد ليحاول معالجة سلبياتها، بل إنّ معاناة هؤلاء المعذبين هي نتاج برامج يرسمها هذا الفريق بنفسه بناء على توجيهات سياسية ودينية من أعلى المراجع، ويتابع أمر تنفيذها حرفياً وبدقة متناهية، ومع الوقت كان الضعف النفسي خاصة مع الوهن البدني يتسرب إلى البعض، وكان الإيرانيون متحفزين لالتقاط أول إشارة من هذا القبيل، فيتقدمون برداء المنقذ، في رسائل موجهة إلى الصامدين أكثر منها مكافأة لمن اعتراه الضعف، ولذا فكما شهد عام ١٩٨٤ نقل عدة مئات من الأسرى من سنك بست، فقد تكرر المشهد مرة أخرى عام ١٩٨٥ أيضاً، وبعدد مقارب لمن رحل، ومماثل لمن حلّ محلّهم، والإيرانيون يتحدثون عمن ضعف، ولا يذكرون الطرف الآخر من المعادلة، وهم أولئك الذين صعّدوا من رفض الخضوع للعدو في معسكراته، والذين عوقبوا فاستحقوا المجيء إلى سنك بست.

وكما استقبل الأسرى عام ١٩٨٥ بتساقط غزير للثلوج، فقد ودعوه بالطريقة نفسها، وكما أنّ المناسبات الوطنية التي يحييها العراقيون كانت تتزامن مع «حملات» إيرانية كبيرة، فقد توقّعنا أنْ تتكرر الصفحات نفسها.

ولكنّ يوم السادس من كانون الثاني/يناير ١٩٨٦، والذي يصادف ذكرى تأسيس الجيش العراقي مرّ بسلام هذا العام، ولكنّ العام نفسه كان هو الذي شهد ما مجموعه أكبر المعارك البرية في تاريخ الحرب، فلم يكد الثلث الأول من شباط/فبراير يشارف على نهايته إلا وكانت معركة الفاو قد اندلعت، وسط أجواء مشحونة من الهواجس والشكوك، بدخول أطراف دولية في صرف انتباه القيادة العسكرية العراقية عن محاور التقدم الجديد للقوات الإيرانية، وذلك

من خلال الصور الملتقطة بواسطة الأقمار الصناعية الأمريكية لمسرح عمليات القاطع الجنوبي، تلك الصور أكدت أنّ الهجوم سيقع على قاطع شرقي دجلة، في محافظة ميسان من أجل قطع طريق بغداد العمارة بصرة، ومنع الاتصال والتعاون بين الفيلق الرابع والفيلقيْن الثالث والسابع، ولكنّ المخادعة كانت قد انتهت، حينما فوجئ اللواء ١١١ مشاة، بعبور طلائع القوات الإيرانية لمياه شط العرب من ضفته الشرقية، بعد أنْ حشدَت آلياتها وأفرادها في بساتين النخيل في منطقة عبادان وما جاورها في الجانب الشرقي من شط العرب.

كانت الخلافات بين الإدارة العامة للاستخبارات العسكرية العراقية والقيادات الميدانية العراقية قد وصلت ذروتها بسبب إصرار الأولى على أنّ الهجوم المنتظر سيكون على محور أهوار العمارة، اعتماداً على تصور مسبق لا يقبل المعارضة حتى في هذا المجال الذي تترتب على الخطأ فيه تداعيات خطيرة، تصور يعتمد التحليل المكتبي مع دراسات أكاديمية بعيدة عن الميدان وما يجري فيه من مستجدات، لا تأخذ الحقائق الميدانية المتدفقة من خط النار الأول بنظر الاعتبار، فتكون الأخطار الناجمة عنها أكبر من الأخطاء الصغيرة التي أدت إليها: ثم إنَّ صور الأقمار الصناعية الأمريكية التي قيل بأنها سربت كي تخدع العراقيين في حرب يراد لها أنْ تكون طويلة جداً، وأنْ تنتهي بلا غالب أو مغلوب هي التي دفعت بالاستخبارات العسكرية على تبني وجهة النظر التي تقول بأن الهجوم واقع على قاطع شرقي العمارة، على حين أنّ القيادات الميدانية كانت واثقة من أنّ الهجوم واقع على الفاو لا محالة استناداً إلى عمليات استطلاع نفذتها مفارز الاستطلاع العميق داخل الأراضي الإيرانية، ولما انحازت القيادة العامة للقوات المسلحة

إلى رأي الاستخبارات العسكرية نتيجة تصور أنَّ قطع طريق بغداد - البصرة يعتبر من وجهة نظر استراتيجية أكثر الاحتمالات قبولاً، ولقربه من طريقة تفكير الزعامة الدينية الإيرانية لأنّ نتائجه إن تحقّق النصر السريع للقوات المندفعة على هذا المحور ستعزل البصرة إنْ تحقّقت، وقد تمّ رسم الخطط على أساس الاستعداد لتدمير الهجوم المرتقب في الخطوط الأمامية من دون السماح لصفحاته اللاحقة بالتحقّق. وضعت قوات الحرس الجمهوري والقوات المدرّعة التابعة للفيلقين الرابع والسابع، والقوة الجوية وطيران الجيش في حالة استنفار كاملة، ومع هذا الجهد تمّ نقل بطاريات المدفعية من الضفة الغربية لشط العرب بكاملها إلى المكان المفترض للهجوم المرتقب، ولم يبق تحت تصرف الألوية المتبقية من قوة الإسناد ما يعرقل هجوماً بالحجم المقدّر له، ناهيك بتدميره، ومنذ الصباح الباكر للثامن من شباط/فبراير ١٩٨٦، كانت مكبرات الصوت المزروعة على جدران معسكر سنك بست، تزعق بكل قوتها مشيرة إلى بدء حملة جديدة وناجحة، في قاطع الفاو.

وبين ذهول المدافعين بألوية احتياط غير مكتملة العدد، لا تتوفر لها الأسلحة الكافية، وفي منطقة ملحية وعرة وخطوط مواصلاتها قريبة من رصد العدو، ولبعد القوات الاحتياطية، مرت ساعات طويلة قبل معرفة المحور الرئيس لتقدم القوات الإيرانية، ونتيجة لسرعة اندفاع أفراد قوات المشاة الإيرانية، إذ لا قيمة لحياتهم في نظر قيادتهم، فقد تم عزل القوات القليلة المتواجدة في منطقة الفاو عن بعضها، وبدأت الفوضى تسود على المنطقة وعلى تحركات يائسة ومرتبكة للوحدات الرمزية الماسكة بأرض المنطقة، فكان ذلك سبباً بإلحاق المزيد من الخسائر بها، ولما استيقظ القادة

الميدانيون من هول المفاجأة، صدرت الأوامر على عجل للقوات بالانتقال الفوري إلى منطقة الفاو عبر مسالك غاية في الوعورة، وسط بساتين النخيل وعلى مقربة من الضفة الغربية لشط العرب، كان الوصول إلى ساحة المعركة يتطلب وقتاً من أجل التيقن من أنّ الفاو هي وجهة الهجوم الحقيقية، وليست مناورة لإشغال القوات الرئيسة في هجمات مخادعة لإضاعة المحور الرئيس، فضلاً عن أنّ القوات التي أتعبها التنقل خلال الأيام الأخيرة، كان عليها أنْ تنقل معها المئات من بطاريات المدفعية الثقيلة وكتائب الدروع، ثم إن عودة ألوية فعالة إلى منطقة كان آمروها يرون البقاء فيها للدفاع عنها، وأجبروا على مغادرتها مكرهين قبل أيام قليلة، لا بد من أن يترك في النفوس شيئاً من المرارة والألم.

هذا كلّه هو الذي أتاح للقوات الإيرانية العابرة أنْ تقيم رأس جسر على ضفة شط العرب الغربية، ولتنقل خلال أقل من أربع وعشرين ساعة عشرات الآلاف من أفراد الحرس ومتطوعيه (البسيج)، وتنقل الأسلحة المضادة للدروع والطائرات. لقد وصلت طلائع الهجوم الإيراني إلى المقرات الخلفية للتشكيلات والوحدات، وقاتل منتسبو اللواء ١١١ حتى الطلقة الأخيرة، وحينما وصل الإيرانيون كانت بنادق الجنود العراقيين ساخنة كحرارة النيران المنطلقة منها، ومع ذلك فإنّ احتلال الإيرانيين على المنطقة أوجد ظرفاً اختلطت به صور البطولة مع صور الهزيمة، وضربت الفوضى في المنطقة أظفارها، وهذا هو الذي مكّن الإيرانيين من بسط سيطرتهم على المنطقة، وعرقلة تقدم قوات الهجوم المقابل لأكثر من سنتين، ولحق نتيجة ذلك المزيد من الخسائر بصفوف قوات النخبة العراقية التي أرادت استرداد المنطقة من محتليها، ونتيجة لردود الفعل المصرّة على طرد الغزاة بأسرع وقت، كانت القوات

العراقية تقع فريسة سهلة لقوات احتلت أرضاً، وأقامت فيها تحصينات قوية، إلى أنْ وجدت القيادة العامة للقوات المسلحة أنّ تحرير الفاو بقدر ما يحمل من قدسية وقوة دفع معنوي عالية للمقاتلين العراقيين ولإرسال رسالة تطمين للمحيط العربي، فإنّه يجب أنْ يراعي الخطط العسكرية التي تحقق الهدف بأقل قدر من الخسائر، ومع ذلك فإنّ أرض الفاو شهدت سقوط أكثر من ستين ألف شهيد عراقي، من ساعة احتلالها إلى يوم تحريرها، وبعد أكثر من سنتين من احتلال حوّل الإيرانيون اسمها إلى الفاطمية ودفعوا فوقها ثمناً باهظاً لم يتناسب من ناحية السوق العسكري مع الأهمية العسكرية للهدف الذي تمّ احتلاله، لقد حرص الإيرانيون على تحقيق أي إنجاز عسكري له بريق إعلامي كبير مهما تكبدوا فيه من خسائر.

كانت هذه أكبر ضربة معنوية تصيب العراق وتصيب الأسرى معاً، وإذا كانت معارك الشوش ودزفول والمحمرة معارك قاسية الوقع في دلالاتها العسكرية، فإنّ معركة الفاو فاقت ذلك المعنى، لأنّها أكبر مدينة عراقية معلومة الاسم والتاريخ تسقط بأيدي الإيرانيين، فضلاً عن أنّ الاحتلال تمَّ بعبور مانع مائي، يفترض به أنْ يعزز من وضع المدافعين عنها، كان شعور الإحباط قوياً وقاسياً في آن واحد، فجّر في معسكرات الأسرى الكثير من المشاكل والانكسارات النفسية والسياسية، وأسقطت المئات منهم في حبائل عدوهم، فالإيرانيون إذا حققوا نصراً تعاملوا مع الأسرى بكل ما يمتلكون من قسوة وتعالٍ وغدر وخديعة، وإذا هزموا تعاملوا معهم بروح انتقامية وكأن الأسرى هم المسؤولون عن تلك الهزيمة، كان هذا في تصورنا، ولكن ما كنا نخشاه هو أنْ تخور العزائم لدى البعض من الضعفاء، خاصة وأنّنا في وسط عسكري، فسيجد كلّ

ضابط ركن فرصة لاستعراض خبرته وعلمه العسكري أمام من هم أقل منه رتبة، وانطلقت المشاعر الحبيسة من عقالها، بعضها من دافع الخوف على العراق، وبعضها الآخر من الخوف من الإيرانيين وتنفيساً عن نوازع حبيسة، وإذا كانت معارك الفاو قد هدأت بعد حوالي ثلاثة شهور، فإنّ ذيولها على الأسرى ظلت مخيمة فوق معسكراتهم حتى بعد انتهاء الحرب، بل ربما عاد كثير من فصولها معهم بعد العودة إلى العراق.

تعاملت إيران مع إنجازها العسكري في الفاو على أنّه حقيقة سياسية ستتكرس عبر الزمن، وقد قاست على تجاربها السابقة في قضم أجزاء من الأراضي العراقية، وتثبيت ذلك في اتفاقيات غير متكافئة تفرضها على العراق في ظروف شاذة، وتجاهلت الزعامة الدينية الإيرانية نتيجة ضيق الأفق السياسي للخميني الإشارات الدولية المختلفة بعدم السماح لها بابتلاع العراق وضمّه إلى ولاية الفقيه، كانت تعتبر تلك الرسائل مجرد عبارات يصوغها كتّاب محترفون، تتداخل عندهم الأمنيات مع الوقائع، ولهذا وجدت الأسرة الدولية بأنّ معركة الفاو ونتائجها المفاجئة قد قرعت ناقوس الخطر للمجتمع الدولي المتحضر والمتمدّن، بأنّ هناك طرفاً دولياً خرج من مجاهل القرون الغابرة وليذكّر بغزوات جنكيز خان وهولاكو والجنرال مود، ويريد فرض قيّمه وتقاليده على العالم، ويطالبه بالاعتراف بشرعة الغاب طريقاً لإعادة صياغة المواثيق التي مرت عليها عقود طويلة من الزمن، ولم تكن إيران لتعرف أنّ «نصرها» في الفاو هو الذي سيؤدّي إلى كسر العمود الفقري للقوة العسكرية الإيرانية كلها، وذلك من خلال طرق متواصل وبلا هوادة من كل فوهات النار العراقية على بقعة ضيقة من الأرض حصرت إيران آلاف المقاتلين فيها، فلا هي استطاعت تطوير هجومها

والتوسع وصولاً إلى البصرة ولا هي انسحبت قبل فوات الأوان، المهم أنّ العالم شعر بقوة الصدمة التي أحدثها «نصر» الفاو الإيراني، ولهذا سارعت الدول التي تستشعر خطراً مباشراً من التوسع العسكري الإيراني إلى التحرك السياسي على كل المحاور المتاحة للجم هذه الاندفاعة القوية، فكان أنِ استجاب مجلس الأمن لهذه الإرادة، إذ عقد مجلس الأمن الدولي جلسة في ٢٤/ ٢/١٩٨٦، وأصدر قراره المرقم ٥٨٢ وتحدّث فيه عن مسارات الحرب العراقية الإيرانية، وأبدى القلق من استمرار وقوع الخسائر بين الطرفين، وأشار فيه إلى تهديد الملاحة الدولية في منطقة الخليج العربي.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي تلتفت الأسرة الدولية إلى محنة الأسرى، فطالبت في الفقرة الرابعة من قرار مجلس الأمن بإجراء عملية التبادل، ولكن عدم وجود شرط جزائي مع ذلك النص اليتيم يؤكد أنّ العالم الغربي استطاع أنْ يجرّ معه كل المنظمات الدولية والإنسانية والحقوقية للتعامل مع قضايا العالم الثالث، بما فيها الإنسانية كقضية الأسرى، بكثير من اللامبالاة ومن موقف المتفرج الذي يعرف بحجم المعاناة التي يعيشها الأسرى العراقيون في معسكرات الأسر الإيرانية الرهيبة، خاصة وأنّ زيارة فريق الأمم المتحدة والذي شكّله الأمين العام بعد أحداث معسكر كركان المكلّف بالتحقيق بالمجزرة التي ارتكبتها القوات الإيرانية بحق الأسرى، ولهذا مرّ النص كما لو أنّه لم يأت أصلاً، وبعد هذا القرار مضت أكثر من أربع سنوات قبل أنْ تتمّ أولى عمليات التبادل وبمبادرة عراقية أحرجت الإيرانيين، ولكنّ ملف الأسرى بقي شاهداً على وحشية التطبيقات السياسية في طهران، على الرغم من البريق اللامع للشعارات الإسلامية التي تزدحم بها واجهات الطرق

والأبنية الحكومية والصفحات الأولى للصحف الإيرانية وتلوكها ألسنة المسؤولين الإيرانيين بلا استثناء وخاصة خطباء الجمعة في مصلّى طهران المركزي؛ إذ تمّت إعادتنا في ٢٢ كانون الثاني/يناير عام ٢٠٠٢، مقابل إطلاق حوالى ١٦٩ ضابط استخبارات في الحرس الثوري الإيراني، تسللوا إلى العراق في ما يسميه الإيرانيون بالانتفاضة الشعبانية عام ١٩٩١ ونسميه نحن العراقيين بصفحة الغدر والخيانة، كما احتفظ الإيرانيون بمجاميع أخرى من الأسرى إلى ما قبل يوم واحد من بدء عدوان ١٩ آذار/مارس ٢٠٠٣، فالنص الذي جاء في قرار مجلس الأمن ضعيف إلى أبعد الحدود، لأنّه يحاول معالجة أزمة في دول العالم الثالث، وبالتالي فقيمتهم عند المشرّع الغربي لا تساوي قيمة الفرد الغربي على كل حال.

إيران تعاملت مع قرار مجلس الأمن الدولي المرقم ٥٨٢ كما تعاملت مع القرارات السابقة باستخفاف كامل، وتجاهلته ولم تكلف نفسها مجرد قراءته القراءة المتأنية، ذلك أنّها وضعت ومن خلال أحقاد الخميني على القيادة العراقية هدف الانتقام بالدرجة الأولى عن طريق احتلال العراق وضمه إلى الإمبراطورية الإيرانية الجديدة ولكن بإلباسها رداء الإسلام خيارها الوحيد، على الرغم من أنّ أهداف الأمم والدول لا تحركها الأحقاد، بل تحركها عوامل التواصل والتلاقح الحضاري، المتطلع لبناء علاقات إنسانية أساسها الاحترام المتبادل والمنافع المشتركة.

ولو أنّ إيران استجابت لواحد من قرارات المجتمع الدولي وقررت الانسحاب من أية أرض عراقية احتلتها، حتى إذا انطلقت في تلك الاستجابة من قراءة عقلية وواقعية لتوازن القوى، ومدى قدرتها على الاحتفاظ بمكاسبها العسكرية الميدانية من عدمها،

لكانت حققت مكاسب سياسية تخلّد ذلك الإجراء، ولاستطاعت المتاجرة بها على مرّ التاريخ، ولتمكّنت أيضاً من مساومة العراق على كل شبر تقرر الانسحاب منه، ولكن الحماقة المركّبة التي تطبع سلوك الزعامة الإيرانية أعطت للعراق فرصة تاريخية لتأكيد كل ما كان يطرحه من قناعات عن أطماع إيران في العراق كله، واستعدادها لخرق كل قواعد القانون الدولي، واستعدادها لتدمير نفسها من أجل تحقيق ذلك الهدف المستحيل، ولهذا جاء العناد الإيراني الأعمى في التعامل مع إرادة المجتمع الدولي فكان الفرصة التاريخية للعراق في إلحاق الهزيمة الساحقة بالمشروع الإيراني المستند إلى مبدأ تصدير الثورة، وتأكيد أن إيران لا يمكن أن تأتي إلى منطق الحوار المتكافئ في إقامة علاقاتها الخارجية وخاصة مع العراق.

ولمّا كنّا أكثر الناس معرفة بالطبائع الإيرانية والهوة السحيقة التي تفصل بين الشعارات الوردية والتطبيقات السوداء، فقد تعاملنا مع النتف القليلة التي وصلتنا من هذا القرار من دون أنْ تبعث في نفوسنا شيئاً من الأمل، ومضينا نلوك طعم المرارة من معركة الفاو، وما تتركه غطرسة الإيرانيين وتبجحاتهم خصوصاً مع الأسرى فقد حاول الإيرانيون بكل طاقتهم وكل ما يملكون من أسباب الانتقام إلحاق أكبر قدر إضافي من الأذى بالأسرى، كانت أكداس الثلج ما تزال متجمعة في ساحة المعسكر، ومن دون سابق إنذار جاءتنا الأوامر للخروج وبأقصى ما نقدر عليه من سرعة، كانت عادة الجنود تفريغ أحقادهم بآخر مجموعة تغادر القاعة، ولكن ذلك اليوم شهد توزيعاً عادلاً للظلم والوحشية على الجميع، ذهب بعضنا إلى الاعتقاد أنّ هزيمة منكرة قد لحقت بالإيرانيين في إحدى جبهات القتال، بل ذهب بعضنا إلى أبعد من ذلك حينما جزم بأنّ

العراق استعاد الفاو، سرت في نفوسنا راحة حتى بفرض غيبية هذه الفرضية، وبدأ الأسرى بالوقوف في أماكنهم، كانت الكابلات الكهربائية موزعة على الجنود ومعهم ضابطهم، وبشكل فجائي انسحبوا إلى المنصة العالية وبدأ الضابط يفرغ ما في جوفه، لم نعرف ما هي أسباب الغضب الذي سيطر عليه، فأطلق أوامره والتقطنا منها كلمة «صد أو سد» أي مئة، وبدأ الإيعاز «انهض اجلس» كثير منّا خرجوا بأقل الملابس، وبعد أنْ أنجزنا الكثير من العدد المطلوب بدأ الإعياء يظهر على الجميع، أكمل معظمنا تنفيذ العقوبة، وحينما عُدْنا إلى القاعة بدأت أشعر بألم شديد في صدري، وحينما وضعت إصبعي على موضع نبض القلب لاحظت اضطراباً فيه، وعندما فحصني طبيب أسير معنا من دون مستلزمات، قال لي: هناك نبضة شاردة وعليك التعامل مع الحالة باهتمام، لم أعرف معنى دقيقاً للنبضة الشاردة وهل هناك مصطلح طبي بهذا المعنى؟ ولكن الأمر كان موجعاً في ساعاته الأولى، ولم نعرف أبداً سبباً لتلك العقوبة التي لم يفاجَأ بها الأسرى لسبب أو دونه.

هذا تعاملهم مع الأسرى، أمّا مع العراق والعالم عموماً فقد بدا وكأنّ عرش الطاووس قد عاد ليحتل مكانه، ولكنْ هذه المرة في حسينية جمران، وارتفع سقف الخطاب السياسي الإيراني عالياً في سماء الخليج العربي، وانطلقت أول صيحة للتمدد على مساحات الغير، والدخول عنوة إلى الحدائق الأمامية، بعد أنْ كان متعذّراً التسلل إلى الفناء الخلفي، بالشعارات الدينية تارة والمنظمات الإرهابية تارة أخرى، ولذا لم يتردّد هاشمي رفسنجاني، رئيس مجلس الشورى، وممثّل الخميني في مجلس الدفاع الأعلى، أنْ يخاطب دول الخليج العربي بلغة ما بعد الفاو، ونبرتها تختلف إلى حدّ بعيد عن نبرة ما قبل الفاو، ووجّه خطابه إليها مجتمعة عبر

الكويت بقوله: «لقد أصبحنا الآن جيراناً مباشرين» أي إنّه كان يرسم لها مسار ما تمليه عليها اعتبارات جيرة البلدان الصغيرة لبلد كبير، فكانت تلك أسوأ رسالة تصدر من طهران منذ أنْ أطلق الخميني شعار تصدير الثورة، وأظن أنّ بعض دول الخليج العربي أخذت تلك الرسالة على محمل الجد، ويبدو أنّ تلك الرسالة قد تركت مخاوف جدية لدى دول الخليج العربي، وتناقضت تصرفاتها، فالبعض رأى في إظهار الخضوع لإيران قبل فوات الأوان يمثل أفضل الخيارات المتاحة، ولكن البعض الآخر رأى في تعزيز دعم العراق الجواب العملي على غطرسة إيران، وعكست الحالة الجديدة قلق دول الخليج العربي المتزايد فتوجهت إلى الدول الكبرى الصديقة لها، وهي الدول الأعضاء دائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي لدرء الخطر القادم، فرسالة رفسنجاني ليست موجهة إلى العراق هذه المرة، فقد أكدت ما كان العراق يقوله لدول الخليج العربي من أنّ خط الدفاع الأول عن هذه الدول هو العراق، ولكنّه وبيقين هو الخط الأخير أيضاً.

ذات يوم أحضر لنا جندي إيراني واحدة من صحف ما تسمى بالمعارضة العراقية في إيران، ولها صحيفتان الأولى واسمها **الشهادة** والثانية واسمها **لواء الصدر**، وكان في الأخيرة موضوع عن دائرة الإعلام الداخلي التي كنت أشغل وظيفة مديرها العام قبل الأسر، كان كاتبها يكنّي نفسه بأبي نغم، وهو فهد جدوع وكان ضابطاً مجنداً وتم استقدامه إلى لوائنا اللواء ١١ مهمات خاصة كضابط مخابرات، وهو في الأصل موظف في وكالة الأنباء العراقية، وفي موضوعه قال: إنّ مهمة دائرة الإعلام الداخلي هي محاربة الكتاب الإسلامي، وإنّ مديرها العام نزار فاضل حسون السامرائي هو الذي يشرف على ذلك، وهو أسير حالياً في أحد

معسكرات خراسان، إذن أعطى اسمي كاملاً ولفّق لي تهمة لا تستند إلى أساس وهي محاربة الكتاب الإسلامي، وحرّض السلطات الإيرانية عليّ، مع تأشير المعسكر الذي أحتجز فيه، كانت صلتي به طيبة خلال وجودنا في معسكر التدريب، بل كان يتملقني كثيراً لمعرفته بمركزي الوظيفي، ولا أعرف سبباً دعاه إلى هذا الموقف إلا سقوطه والذي يدفعه إلى دائرة الأمنيات الخائبة بألا يرى صامداً في معسكرات الأسر، كان بإمكانه أن يختار ما يشاء من طريق سياسي أو طائفي، ولكنْ أنْ يجعل من أذى زميل سابق له في الوظيفة وفي اللواء عربوناً لقبوله في سلك الخيانة، فذلك مؤشر دقيق على الهبوط القيمي كسلوك مطلوب من كل من يسقط في حبائل الإيرانيين، تعاملت مع الحدث بقلق مشروع بكل تأكيد ولكن لم أسمح لهذا القلق أن يطفو على السطح، أما رفاقي الأسرى فقد أصابهم الجزع عليّ بسبب المقال التحريضي، وعلى العموم كان هذا المقال ولو أن الاستخبارات العراقية تقرأ بصورة جيدة لكان كافياً اعتماده كوثيقة تعد الدليل القاطع على وجودي في الأسر، ليس من شخصنة الأمر ولكن من قبيل تأكيد تلاعب إيران بمصائر الأسرى وإخفائهم عن العيون، ولكن يبدو أن انشغال أجهزة الاستخبارات بقضايا أخرى أكثر إلحاحاً كان يفوّت عليها وعلى العراق الكثير من الحقائق القابلة للتوظيف ضد إيران.

وفي هذه الأثناء وتحديداً في يوم ١٩٨٦/٥/٢، تناقلت وكالات الأنباء العالمية، أن شقيقة علي خامنئي رئيس الجمهورية قد نجحت في الفرار من إيران والتحقت بزوجها المعارض والمقيم في العراق، وعلى الرغم من أنَّ الحادث لا قيمة له على توازن القوى العسكرية بين البلدين، إلا أنه عكس بشكل فائق الدلالة أنَّ الزعامة الإيرانية وعلى أعلى مستوياتها ليست بعيدة عن الاختراق

السياسي وانشقاق المقربين منها، ومع أننا لم نطلع على طريقة توظيف الحادث في الإعلام العراقي، إلا أنه يبقى كبيراً بكل مقاييس دول العالم الثالث من جهة، إضافة إلى أنه أحرج رئيس الجمهورية الذي لم يتمكن من ترصين بيته ضد التصدعات السياسية، وخاصة أنَّ خامنئي كان يعيش جواً من الصراعات والمؤامرات مع منافسيه الراغبين بالبقاء قريباً من الخميني وإزاحة خصومهم من الطريق وخاصة غريمه هاشمي رفسنجاني، وكان البلدان يتحينان الفرص لتوظيفها فيما يحرج الطرف الآخر في معركة امتدت من جبهات الحرب حتى وصلت استوديوهات الإذاعة والتلفزيون ومكاتب تحرير الصحف.

بعد احتلالهم للفاو لم يكن الإيرانيون بحاجة إلى «حملة» جديدة قبل أنْ يستكملوا استحضاراتها، بحيث تعزّز من إنجازهم في الفاو، أو على الأقل لا تفقده أو تقلص جزءاً منه، ولهذا ظلّ الإيرانيون حريصين على استدراج القوات العراقية إلى معارك في منطقة الفاو العصية على تحرك الآليات، والتي يعوّض بها العراقيون الفارق في أعداد المقاتلين، بحكم الفارق في عدد السكان بين البلدين المتحاربين، كان كل همّ الإيرانيين جرّ العراق إلى معركة يحاول من خلالها استرداد الفاو لإيقاع أكبر الخسائر بقواته ولإرسال رسالة سياسية للشعب العراقي وقيادته وللعالم بأن إيران قوة لا تغلب مما قد يهير المعنويات ويترك آثاراً نفسية مدمرة، وكما أنّ إيران تجنبت فتح جبهة جديدة، فإنّ العراق وإنْ ظلّ يطرق بلا هوادة بالمدفعية البعيدة المدى والصواريخ والطيران على مثلث الموت في مدينته المحتلة، فإنّه توقف عن تنفيذ عمليات متسرّعة في القاطع، انتظاراً لخطة محكمة تستطيع تحريرها، كي يكسر العمود الفقري للقوات الإيرانية، ويصادر كل ما جمعته من معنويات في

معاركها منذ أيلول عام ١٩٨١، ولكن كلاً من العراق وإيران كان يخطط بدأب وبجهد وطني شامل لمعركة تحطيم إرادة القتال عند الطرف الآخر، ولهذا مضى عام ١٩٨٦ حتى نهايته من دون تحقيق أية إنجازات عسكرية إيرانية، لكن شهر كانون الأول/ديسمبر منه، لم يشأ أنْ يرحل من دون أنْ يشهد القاطع الجنوبي للعمليات، وبالتحديد على جزيرة أم الرصاص الواقعة في شط العرب هجوماً، كان يراد له تحقيق بعض المكاسب المساعدة للتواصل مع احتلال الفاو والانتقال للهجوم النهائي، الذي وضعت إيران مصير الحرب كلّها في كفته، وهو هجوم نهر جاسم في قاطع البصرة أيضاً، الذي شنته قواتها في كانون الثاني/يناير من عام ١٩٨٧، لقد حشدَت إيران لإنجاح هذا الهجوم كل رصيدها ومدخراتها، سياسياً وعسكرياً وبشرياً واقتصادياً، وراهنت عليه بكل مستقبلها في الحرب، وكان معروفاً أنّ الخسارة فيه لأي من طرفي المعادلة كان سيعني الهزيمة النهائية في الحرب كلها، فالإيرانيون لم يركّزوا على قاطع البصرة بالذات عبثاً، فهي أقرب مدينة عراقية إلى الحدود المشتركة، ثم إنّها ثاني أكبر مدينة في العراق وهي مركز أهم محافظة في الجنوب، وهي إطلالته البحرية. هذا على صعيد الجغرافية، أمّا في التاريخ فهي أول مدينة بنيت في العراق بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ بعد الفتح العربي الإسلامي للعراق، واقتصادياً فقد وضع فيها العراق أكبر مشاريعه الصناعية الاستراتيجية كما أنّها مدينة إنتاج النفط العراقي، ومركز الصناعات النفطية والبتروكيمياوية ومجمّع الحديد والصلب، والتي إنْ تأثر إنتاج النفط فيها فسوف تتعرض مداخيل العراق إلى ضربة جدية، وهي المحرك الثاني لعوامل القوة في مواجهة إيران، كما أنّ البصرة من وجهة نظر الإيرانيين، المنطقة التي تمثل ساحة الاختبار الأولى لصلاحية

الطريق لمرور عربة ولاية الفقيه إلى العراق ومنه إلى البلدان المجاورة، يضاف إلى ذلك أنّها إطلالة العراق الوحيدة على البحر، وهي خطّ امتداده البري على دول الخليج العربي، التي تمثل الهدف اللاحق لمفهوم تصدير الثورة الذي جاء به الخميني، انطلقت الصيحات الإيرانية بهستيريا محمومة تبشّر بأنّ البصرة باتت الهدف الثاني لزحف القوات الإيرانية، وقال قائد القوات الإيرانية في جبهة الجنوب: إنّ القوات الإيرانية قد تغيّر وجهتها في غضون الأيام القليلة القادمة وتتجه جنوباً بدلاً من الاتجاه إلى بغداد كما كان مرسوماً من قبل، وفي هذا التصريح إشارة واضحة إلى أنّ الكويت هي المقصودة.

وكما تحدث لنا بعض الضباط الذين أسرتهم القوات الإيرانية في مراحل مختلفة من عمليات نهر جاسم، فإنّ الجيش العراقي أعدّ للإيرانيين مفاجأة قاسية، كانت أكبر من تصور القادة العسكريين الإيرانيين ومن تخطيطات الخميني وأركان حربه في جمران، لقد تحطمت الهجمات الإيرانية الواحدة تلو الأخرى على جدار فولاذي من خيرة تشكيلات الجيش العراقي وفرقه وفيالقه، كان المطلوب من كل لواء أنْ يدافع عن موضعه لساعات، ثم يعوض بالبديل الذي جاء من خارج ساحة المعركة، وهو مجهز بأحدث ما يحتاج إليه في المعركة وبمعنويات طازجة، وهكذا كانت الساعات تمضي على العراقيين في ساحة الحصاد الأكبر بمزيج من نشوة النصر، والتصميم على تحطيم أحلام الزعامة الإيرانية الدينية، ثم لتصطبغ مياه الأنهار والجداول على المشارف الشرقية لشط العرب بلون الدم ولتنتشر أشلاء القتلى، ومن عجب فقد اختلطت دماء المدافعين العراقيين بدماء من جاءهم غازياً وطامعاً، لقد راهن الإيرانيون بكل ما لديهم من مجهود بشري وعسكري واقتصادي على معركة نهر

جاسم ووضعوا كل مدخراتهم في لعبة القمار الأخيرة التي اعتقدوها جالبة للنصر، وراهن العراق على أنّ هذه المعركة يجب أنْ تضع النهاية الوحيدة للحرب، وهي تدمير إرادة القتال عند الإيرانيين، وإيصالهم إلى حافة اليأس من جدوى استمرار الحرب.

واتصلت المعارك أسابيع طويلة ربمّا هي أطول أيام الحرب، خسرت فيها إيران خيرة وحداتها القتالية، وعادت تلعق جروحاً غائرة في عمق الوجدان الإيراني، وخرج العراق منها وهو على ثقة بأنّ نهاية الحرب لصالحه باتت مسألة وقت، وأنّ الإيرانيين الذين استنزفوا أنفسهم في معارك كبرى لا طائل تحتها قد حددوا لأنفسهم طريق النهاية التي يتجرعون فيها طعم الهزيمة المُرّة، وفي هذه العمليات تمَّ أسر ضابط عراقي يحمل أعلى رتبة عسكرية منذ بدء الحرب حتى هذا التاريخ، والضابط الأسير هو المرحوم العميد الركن جميل أحمد حسين البياتي والذي اغتالته ميليشيا جيش المهدي بعد الاحتلال الأمريكي بأربع سنوات، وكان آمراً لأحد الألوية في المنطقة التي قاتلت حتى نفد عتادها تماماً، وحاولت السلطات الإيرانية التأثير في معنويات المقاتلين العراقيين في جبهات الحرب، وعلى الشعب العراقي كله، وعلى الأسرى العراقيين الذين كانوا حقل تجارب لأسوأ ما يمكن أنْ تبذله الحرب النفسية لإسقاط الرجال عن صهوات جيادهم. نعم كان هناك ضابط كبير برتبة لواء ركن هو المرحوم دخيل علي الهلالي، ولكنّه كان متقاعداً منذ سنوات طويلة، وكان يشغل وظيفة مدنية هي رئاسة المؤسسة العامة للنقل البري، وإنّما جاء إلى الجبهة آمراً للواء الحادي عشر مهمات خاصة والذي كنت آمراً للسرية الأولى فيه، ومع ذلك فبقي المرحوم الهلالي يحظى بتقدير عالٍ من قبل جميع الأسرى، وينظر إليه كضابط كبير في الجيش العراقي برتبة لواء ركن ويجسد القيم العسكرية العراقية.

وبعد معركة نهر جاسم «الحصاد الأكبر» بدأت معركة خفية وراء الكواليس في إيران بين الزعامات الدينية والسياسية والعسكرية، وداخل المؤسسة العسكرية بين الجيش والحرس، وكل طرف من هذه الأطراف يحمّل الآخرين مسؤولية الخسائر التي تكبدتها إيران من دون مبرر في حرب كان ينبغي لمن بيده الحل والعقد أنْ يعرف متى يوقفها ويحقن دماء أبناء بلده، وكان معروفاً أنّ الأصابع الخفية كلها ستشير إلى الخميني شخصياً، باعتباره المعاند الوحيد الذي رفض كل دعوات الركون إلى منطق السلام، ولكنّ أحداً لم يكن ليجاهر بهذه الحقيقة، لأنّها مرادف منطقي لمعنى التغييب، وكثيرون هم الذين لاقوا هذه النهاية المأساوية من بين الوجوه التي لمعت سريعاً، وأفلَت أسرع من ذلك، ضمن الطاقم الذي حكم مع «آية الله روح الله الخميني»، بعد نجاح «الثورة الإسلامية» في إيران والتي اختطفها الخميني من أيدي أبطالها الحقيقيين من مجاهدي خلق، وبسبب ذلك فقد ارتفعت الأصوات في صراع الديكة الصغار، ونشر غسيل كثير من الفضائح والأوساخ، الجيش من جانبه كان يشكو من أنّ قادة الحرس لا يفهمون في العلم العسكري شيئاً ويقاتلون بطرق بدائية تجعلهم هدفاً للنيران العراقية، وأنّهم بما يمتلكون من حظوة عند رأس النظام لأنهم حُماته، كانوا يورطون الجيش في معارك خاسرة، وكانوا سبباً في تكبيد الجانب الإيراني المزيد من الخسائر، وإذا ما حاول كبار ضباط الجيش تعديل صفحة من صفحات معركة ما، فإنّ الحرس قد يضعهم في قفص الاتهام بتهمة الخيانة العظمى، وعدم الإيمان بأفكار الثورة الإسلامية، أما السياسيون فإنّهم يلقون بتبعات النكسات العسكرية على العسكر أنفسهم من دون تمييز بين الجيش والحرس، لأنّ ذلك هو الطريق الذي يبعد أي سجال عن الزعامة

الدينية في حسينية جمران، وبدأت أيام وأسابيع وأشهر عام ١٩٨٧ تمشي مترنّحة في إيران، وكأنّ ضربة بمطرقة فولاذية هوت على رأس المؤسسة الحاكمة في طهران، ولأنّ النكسة أكبر من أنْ تستطيع كل أدوات الكذب هناك من تغطيتها، بدءاً من خطباء الجمعة في العاصمة الإيرانية وسائر المدن الأخرى، وانتهاء بالدائرة الأيديولوجية السياسية في القوات المسلحة، ومروراً بأجهزة الإعلام الحكومية من صحف وإذاعة وتلفزة، فقد كان الواجب يقتضي أنْ يتم تعويض الهزيمة الميدانية بنصر على الورق وعلى هواء شبكات التلفزيون، ولهذا كانت معسكرات الأسر ساحة اختبار جديد للنوايا، وكأنّهم أسروا يومهم هذا.

وفي ٢٠ تموز/يوليو ١٩٨٧ أصدر مجلس الأمن الدولي قراره المرقم ٥٩٨ وهو القرار الذي توقفت الحرب استناداً إليه بعد أنْ أخفقت كل مساعي إيران لكسب الحرب، وبعد أنْ أيقنت أطراف دولية كثيرة أنَّ إمكانية إيران لحسم الحرب لصالحها لم تعد واردة، في حين كان السوفيات والصينيون يرغبون بالاستمرار بلعبة المسك بالعصا من وسطها، فإيران سوق كبيرة لا يستطيع أي طرف دولي تجاهل قيمتها التجارية لصفقاته في مجال إعادة بناء ما دمرته الحرب، وهي العقود اللاحقة لصفقات السلاح الضخمة، أما الأمريكيون فلم يكن بوسعهم الدفاع عن الصفقة التي وقّعها ماكفرلين مستشار الرئيس الأمريكي لشؤون الأمن القومي، خلال زيارة أريد لها أنْ تكون سرية، ولكنّها لم تلبث أنْ تحولت إلى فضيحة مدوية لإدارة الرئيس رونالد ريغان، كما أنّ إيران لم يكن بوسعها المكابرة في نفي حصولها على أسلحة إسرائيلية بعد أنْ تم الكشف عن سقوط طائرة أرجنتينية فوق أراضي الاتحاد السوفياتي كانت تحمل شحنة كبرى من السلاح الإسرائيلي، ولما سئل هاشمي

رفسنجاني عن ذلك قال: إنها عملية تسوية لديون قديمة، وعلى الرغم من هذا الدعم المتعدد الأطراف الذي تلقته إيران، وعلى الرغم من العمق الاستراتيجي الذي تمتلكه، وعلى الرغم من المرونة العالية التي تمتلكها في التجنيد بسبب عدد سكانها الذي يزيد على ثلاثة أضعاف سكان العراق، فقد لازمت الإخفاقات الاستراتيجية كل العمليات التي نفذتها، حتى وإنْ حققت بعض النتائج الميدانية والتي لم يكتب لها الثبات طويلاً على الأرض.

حينما كانت الزعامة الإيرانية تعيش نشوة نصر ما كانت تسدّ أذنيها عن كل دعوات السلام، وحينما كانت تعيش واقع الهزيمة كانت تأخذها العزة بالإثم، فتعتبر أية استجابة لنداءات السلام هزيمة سياسية أكبر من الهزيمة العسكرية، وهذا هو وحده الذي أطال أمد الحرب أكثر مما كان يجب، ولكنّها وبعد انكساراتها في شرقي البصرة، نهاية عام ١٩٨٦، في عمليات أم الرصاص التي أطلق عليها العراق اسم عمليات اليوم العظيم، وبداية عام ١٩٨٧، في نهر جاسم التي سمّاها العراق بعمليات الحصاد الأكبر، ورفساتها الأخيرة في جبهات القتال، لم تعلن موقفاً محدداً من قرار مجلس الأمن الدولي الجديد، كان موقفها يتسم بغموض متعمّد، فهي لا تريد القطع برفض معلن للقرار، فتخسر ما تبقى لها من دعم خارجي، ولا هي - وفي ضوء معرفتنا لشخصية الخميني المعقدة، والتي جبلت على عناد لا يرتكز على أساس واقعي، قادرة - على الاستجابة لمنطق الحكمة ودعوة الدين الإسلامي: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، أو: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، وقرار دولي متكامل في تأمين مصالح طرفي الحرب، فأطلق الخميني لمسؤولي الحكومة بمماطلة، هي على العموم الطابع الذي يميز الشخصية الإيرانية

الدينية المركبة، ولم يكن أي يوم يمر إلا وكان يحمل أكثر من تصريح، فيه من التناقضات والتسويف الممل، كان الجميع على قناعة بأنّهم غير قادرين على تحقيق النصر، ولكنّ الخميني الجاهل بالحسابات الدولية والحسابات العسكرية المجردة والجاهل بحسابات قدرة إيران الاقتصادية على إدامة حرب من وزن الحرب مع العراق، كان يصرّ على شيء خلاف ما تسمح به قواعد القانون الدولي والعلاقات بين دول العالم، وهذا ما أوجد نزاعاً صامتاً داخل المؤسسة الإيرانية الحاكمة، ظهر بعض تفاصيلها على ألسنة مسؤولين حمّلوا الخميني مسؤولية استمرار الحرب وما لحق بإيران من دمار، وهكذا انتهى عام ١٩٨٧ من دون موافقة إيران على قرار مجلس الأمن آنف الذكر، والذي وافق عليه العراق بعد وقت قصير من صدوره.

مع اقتراب عام ١٩٨٧ من نهايته شعرنا بأنّ وليد عبد الكريم بات أكثر تذمراً من ذي قبل، بسبب اتصالات يجريها بعض الأسرى من دون علمه ومن دون أنْ يُطلعوا زملاءهم على ما كان يدور في تلك اللقاءات، فقد كنا قد وضعنا لأنفسنا قانوناً ثابتاً ألا يجري أحد أي اتصال مع الجانب الإيراني بمعزل عن الأرشد، وعدم الخوض في حوارات مع الجانب الإيراني من دون حضوره، وهذا ما كان بمنزلة الضمانة الأكيدة للمتصل من جهة ولاستقرار بقية الأسرى، ولكنّ البعض كان يتحرك بتكتيكات تثير الكثير من الشبهات، خاصة وأنّ الإيرانيين كانوا بعد بعض اللقاءات الفردية يقدمون على استدعاء أسير أو أكثر ويطرحون عليه أسئلة عن وجود تنظيم حزبي لحزب البعث، حتى بفرض الثقة المطلقة بصاحب اللقاء الأول، إلا أنّ أبسط خصومة ستؤدي إلى طرح هذا الملف وبكثير من التشكيك، ومن أجل أنْ يحمي وليد نفسه وبقية الأسرى

من تبعات ما قد يقع، فقد أعلن في صباح أحد الأيام عن عزمه على عدم الاستمرار بعمله كأرشد للقاطع، ويبدو أنّه قد نسّق موقفه هذا مع المقدم عادل الداوودي، واندفع الأسرى المشفقون على استمرار وحدة حياتهم المشتركة في مساعيهم لثني وليد عن موقفه الذي وجدناه نهائياً، حينذاك بدأت حركة قوية من أجل البحث عن بديل، وبين التمنع والرضى وافق الرائد راشد على أنْ يحل محل الملازم الأول وليد، فكانت تلك الخطوة أول تصدع خطير في حياة أسرى سنك بست، فالأسرى كانوا ينظرون على الدوام إلى قاعة الضباط نظرة خاصة ويستمدون العزيمة والمعنويات والموقف منهم، الرائد راشد من أول دورة عسكرية للضباط تم قبولها في الكلية العسكرية العراقية بعد ثورة ١٧ تموز/يوليو ١٩٦٨، وعمل زمناً في لواء الحرس الجمهوري، ولمّا تم نقله من هذا اللواء إلى إحدى الوحدات العاملة في الخطوط الأمامية اعتبر ذلك طعنة له، وأثرت في قناعاته وسلوكه وطريقة إدارته للحديث، كان من يستمع إليه لا يحتاج إلى وقت طويل حتى يلمس التشكيك في كل شيء في مسيرة العراق، ومع ذلك فكونه عضو قيادة فرقة في الحزب، وكونه كان يدعو إلى ما يسميه بالمنطق الواقعي في التعامل مع الجانب الإيراني، فإنّ البعض وجدوا في حديثه حرصاً على سلامة قاعة الضباط من المشاكل مع الجانب الإيراني، في حين رأى آخرون في تلك الأحاديث خطوة أولى على طريق مكّن من نسف الكثير من المسلّمات التي يراها الأسرى من المقدسات، المهم تسلّم راشد الأرشدية، وأطل زمن جديد على قاعتنا الصغيرة وسائر المعسكر، وفي هذه الأثناء كان الإيرانيون قد جلبوا إلى قاطعنا ثلاثة من الرفاق أعضاء قيادات الشعب في الحزب، هم أبو العلا وأبو عقيل وأبو منال وجميعهم يحملون رتبة نقيب مؤقتة، كونهم

من آمري السرايا في لواء المهمات الخاصة من النجف، وقد جاؤوا نقلاً من معسكر كركان الذي شهد المجزرة الإيرانية للأسرى أمام أنظار فريق من اللجنة الدولية للصليب الأحمر، لم يكن راشد يرتاح لوجودهم في قاطعنا، لأنّهم قد يعملون على تشكيل تنظيم حزبي فيه، وهو الخيار الذي ظلّ يقاومه منذ البداية ودخلنا معاً في مواجهات كبيرة بسبب هذا الخلاف الجوهري، كان النقيب حمزة على معرفة ببعض الإسعافات الأولية التي تدرّب عليها في أثناء فترة تدريب إلزامية، على كل من يحصل على درجة عضو في حزب البعث، أنْ يمضي ستة أشهر مع وحدات الجيش، كان الدكتور ريسان قد سُحب من قاطعنا هو والدكتور فلاح، وتم إسكانهما في إحدى الغرف الصغيرة في المعسكر، كي يقدما الخدمة الطبية للجميع، ومن أجل ضمان عدم تسرب المعلومات لقاطعنا حينما يلتقي مع مرضى القواطع الأخرى، ويبقى معنا من دون رقيب، لذلك كان جندي إيراني يرابط في غرفة الطبيب لمنعه من الحديث إلا في الشأن الصحي، وهناك أقام الدكتور ريسان غرفة للعمليات الجراحية، لا تتوفر فيها أبسط الشروط الصحية، وقد ذهب ريسان كثيراً في إجراء العمليات لحالات ليست مستعصية، ومع انعدام التعقيم والوقاية المطلوبة، أصيب أكثر من شخص بالكنكري الذي أوشك أنْ يودي بحياتهم، عند ذاك أصدر الإيرانيون أمراً لريسان بالتوقف الفوري عن إجراء العمليات الجراحية نهائياً بصرف النظر عن حجمها.

بدأ راشد بمباشرة عمله من دون أنْ نعرف الكثير مما يدور خارج قاعتنا، وتعددت الاتصالات الخارجية، ومن دون مقدمات وفي صباح أحد الأيام فتح باب القاعة فدخل جنديان ونادى أحدهما على كل من «أبو العلا وأبو عقيل» وأبلغهما بجمع

حاجاتهما، وخلال خمس دقائق كانا خارج قاعتنا وأصبح من غير المسموح لنا التحدّث مع أي منهما، وحينما تساءلنا لم نحصل على جواب، وإنْ كان راشد قد قال بأنه طلب بقاء سيد حمزة في قاطعنا للحاجة إلى خدمات طبية، وبالفعل فقد أسهم سيد حمزة أو أبو منال ـ وهكذا كنّا نكنيه ـ بتخفيف آلام الأسرى من دون كلل أو منّة.

استمر حال الأسرى هكذا حتى بداية عام ١٩٨٨، وفي هذه الأثناء زار معسكرنا رجل ضخم الجثة، أكل البهاق معظم وجهه، وكان مرتدياً ملابس رجال الدين الشيعة، وقد وضع على رأسه عمامة سوداء، قدّمه لنا آمر المعسكر على أنّه «العلامة آية الله علي البدري»، بدأ البدري حديثه قائلاً: «أنا علي البدري من سامراء»، شعرت بدوار عنيف وبالإهانة من هذا الذي يدعي أنّه من مدينتي سامراء، كيف يمكن أنْ يخون ابن مدينتي وطنه؟ قد يتآمر إذا ما وجد أنّ التوجهات السياسية لا تنسجم مع ما يراه، ولكنّه حتى في هذه الحال لا يرتبط مع قوى خارجية، فكيف إذا كان الأمر عمالة لإيران في زمن الحرب؟ إذن هذا انتحال ملفّق لاسم عشيرة سامرائية عراقية عربية أصيلة أراد به التأثير في معنويات الأسرى، كان رفيقي في الأسر عامر الدليمي، يعرفه جيداً ويعرف ماضيه، قال عامر: إنّ هذا الدعيّ كان يمتلك محلّاً لبيع إطارات السيارات في منطقة الكرادة الشرقية وارتبط مع الاستخبارات الإيرانية وكان يزوّدها بمعلومات تفصيلية عن الجهد الحربي العراقي بواسطة جهاز اتصال خاص، وحينما بدأت الشكوك تدور حوله فرّ في جنح الظلام وعند مداهمة بيته في وقت لاحق وجدت أسلحة مختلفة الأنواع.

بدأنا بمحاورته بلغة تحدٍّ عالية وما طرحه من أفكار حاول فيها

أنْ يسوّق لفكرة التعاون مع الجانب الإيراني، وتناوبت مع آخرين في تعرية أكاذيبه ودعاواه، كان يستجدي من يصطف إلى جانب إيران في حربها، وقال: إنّه لن يصاب باليأس مهما طال الزمن من أجل كسب أسير واحد فقط، فأقسم الأسرى أمامه أنّهم لن يقاتلوا بلدهم وأنّهم سيقاتلون إلى النهاية أعداء وطنهم، وتحوّلت الساحة الخارجية إلى منابر اختلطت فيها صيحات الحقّ الصادرة من الأسرى بتهديدات علي البدري، وآمر المعسكر العميد إسماعيل سباه دوست وتحركّات حرّاس المعسكر المنتشرين داخله من دون سلاح، والمنتشرين فوق أسطحه وهم مدججون بالأسلحة، ويبدو أنّ المسعى الذي جاء به علي البدري، تارة باسم معرفته للطب، وتارة بحديثه المزعوم عن نجاحه في تحويل الأزهر في مصر إلى مذهب أهل البيت وهو ما أدّى إلى التآمر عليه وإخراجه من مصر، ومما قاله متبجّحاً إنّه لو بقي عاماً واحداً آخر في مصر لأعادها كلّها إلى التشيّع على حدّ زعمه، كان حضور علي البدري جزءاً من خطة شاملة اعتمدتها الزعامة الإيرانية لإسقاط الأسرى العراقيين، في مستنقع الخيانة في الوقت الضائع من الحرب، فقد تحدّث علي خامنئي (مرشد الثورة الإيرانية حالياً)، والذي كان يشغل منصب رئيس الجمهورية، وخطيب جمعة طهران، عن وقائع مستلة من معسكرات الأسرى العراقيين، فأعطى إحصائية لا أحد يعرف كيف توصّل إليها ومن أين جاء بها، فقال: إنّ أكثر من ثمانين في المئة هم الأسرى التوابون، وأنّ خمسة في المئة ما زالوا يحاربون الجمهورية الإسلامية في معسكراتها بشراسة أكثر مما كانوا يفعلون في الجبهات، أما الباقون فهم محايدون ويقضون وقتهم بانتظار انتهاء الحرب، ونتيجة لما وقع في زيارة علي البدري لمعسكرنا فقد اشتدت الضغوط على الأسرى، فصمد من صمد وتهاوى من

تهاوي، كان هناك معمّم آخر يتكلم العربية باللهجة العراقية وبلكنة فارسية، يقدم نفسه باسم «أحمدي»، كان يأتي بحجة عقد لقاءات نقاشية مع الأسرى، وكي يضيّع الهدف على عموم الأسرى فقد كان يستدعي عينات عشوائية من الأسرى، كما يلقي الصياد بشبكته ليخرج فيها كم غير متجانس من الصيد، استغرق عمله عدة أشهر، كان البعض ممن يستدعى لمقابلته يقدم رواية غير صحيحة عما دار من حوار معه، فيشير البعض إلى أنّ الحديث تركّز على الرياضة والاهتمامات الثقافية والاختصاص الدراسي، كان أحمدي يشيع جواً إرهابياً بالوعيد لكل من يرفض التعاون معه، ويجزل الوعود لمن يبدي الاستعداد للتعاون، أي الاستعداد للوشاية ببقية الأسرى، ونجح أحمدي في نهاية المطاف في كسب البعض، ونتيجة لذلك فقد افتتح الإيرانيون كامباً جديداً، وأعطوه الرقم (١٨)، وخرج من قاطعنا بعض من أتعبه طول الطريق أو خانته الشجاعة وخذله الصمود، ومن باب إغراء الآخرين على الالتحاق بالقاطع المذكور، فقد تمّ تجهيزه بتلفزيون مفتوح على مدار الساعة، وبدأت وجبات الطعام الخاصة تقدّم للأسرى فيه، كان عددهم لا يزيد على الثلاثين، من مجموع أكثر من ٢٥٠٠ أسير في سنك بست، وكان بقية الأسرى ينعتونهم بالخيانة وبأصوات عالية في أثناء التعداد الخارجي، أصابنا الحزن على بعض الأسرى الذين التحقوا بالقاطع (١٨) لأننا تعشمنا بهم الصمود حتى النهاية، خاصة أنّ زمن الأسر أصبح بحكم المنتهي وأنّ بعضهم بحسب تقديرنا لا يمكن أنْ يلقوا بأنفسهم في أحضان الإيرانيين، ولكن زادهم نفد على ما يبدو قبل أوانه، وهناك من توقعنا أنّه جاء معنا عن طريق الخطأ، أو أنّه لغم مزروع في حقلنا، ولهذا لم نأسف عليه حين نزع لباس الوطنية وظهر عارياً على حقيقته، كان أحمدي يواصل زياراته للمعسكر،

وكان يستدعي جميع صنوف الأسرى، لأنّ تقارير الاستخبارات كانت توفر «للمبلّغين» أدقّ المعلومات عن كل أسير بهدف التعامل معها بما يخدم خطط اختراق صفوف الأسرى، كان أحمدي يرسل على الضعفاء لتهديدهم وإسقاطهم، وكان يستدعي من يتمتع بالصلابة لغرض الانتقام منهم. في أحد الأيام جاء إلى قاطعنا جندي إيراني، كان يحمل ورقة بيده ونادى باسمي، خرجت معه مستعيذاً بالله من شر الشيطان الرجيم ومن شرّ كل شياطين الإنس، وهذا الوحش الذي يرتدي العمامة البيضاء عدواناً على قيم الإسلام، حينما دخلت غرفة التحقيق مرّ في خاطري بيت شعر لا أعرف لمن هو ويقول:

إنّ الأفاعي وإنْ لانت ملامسها عند التقلب في أنيابها العطب

لم يكن هذا التصور عندي فقط، بل هو حكم كل من استدعاه أحمدي الذي كان يتحدث في كل شيء، محاولاً إعطاء انطباع عند الأسرى بأنّه عارف بكل القضايا، الدينية منها والدنيوية، يتحدث في الاقتصاد والسياسة والفكر والفلسفة وحتى السينما والمسرح، فإنّ لأحمدي رأياً نقدياً فيهما، انتابتني رغبة بالتقيؤ من الخليط العجيب من الأفكار غير المتجانسة التي كان يجترها.

كنت أظن أنّ في جعبة أحمدي شيئاً جديداً، ولكنّه في النتيجة كان يكرر الأسئلة نفسها التي سمعناها من الإيرانيين في لحظات الأسر الأولى وظلت تتكرر على أسماعنا طيلة سنوات الأسر، ثم يصل إلى السؤال الأساسي، لماذا حاربتم الجمهورية الإسلامية؟ وحينما يأتيه الجواب إنّنا لم نحاربها، وإنّما هي التي حاربتنا وأننا دافعنا عن بلدنا، فإنّه كان يستشيط غضباً، ولا يعرف أحد من أين تخرج الشتائم البذيئة، بذل كل ما في طاقته من أجل أن يضيف

أسيراً واحداً إلى «نزلاء الكامب ١٨»، ولكنّه كان يصطدم بجدران صلبة عصيّة على الاختراق، ولهذا كان كل من يخرج منه يضع في حسابه أنّه سيدفع ثمن ذلك، لأنّه سيعرض نفسه لتعذيب على أيدي جنود تمّ إفراغهم من الرحمة والإنسانية، وتحوّلوا إلى مجرد أدوات تمارس التعذيب من دون أنْ تعرف لماذا تفعل ذلك، إنّها الطاعة العمياء للأوامر العسكرية، وسيرى كل واحد منهم نفسه في قادم الأيام وقد احترف أبشع مهنة، وهي أذى الغير، ونتيجة اعتيادها تصبح أقرب إلى الهواية منها إلى المهنة.

ومن بين الموضوعات التي طرحها علي بصيغة سؤال مباشر: لماذا لا يؤمن البعث بالإسلام منهجاً؟ هو يريد مني أن أقر له بلساني أنني بعثي، على الرغم من أن ملفي أمامه يحتوى على كل المعلومات التي قدّمها بقية الأسرى عني، قلت له: هذا أمر يرتبط بقيادة الحزب وليس بي، لم يعجبه جوابي، فقال بلهجة غاضبة: وأنت ماذا تقول؟ حاولت قدر استطاعتي أن أبعد عن نفسي الدخول في قضية لا تقدّم ولا تؤخر على الأقل في موضوع صمود الأسرى، قلت إن عالم اليوم على المستويين السياسي والاقتصادي يجعل من المستحيل للإسلام أن يطبق تعاليم السماء، فالكذب هو القاعدة السائدة في العمل الدبلوماسي والعلاقات بين الدول، وكثير منها يتحدث عن أمور لا يطبقها بل ينكر بتصريحات علنية مواقف كان قد اتخذها، ولما كان الكذب محرماً قطعياً في الإسلام فإن الدخول في عالم الدبلوماسية يقتضي واحداً من أمرين: إمّا اعتماد القيم الإسلامية في العلاقات الدولية، وهذا معناه وقوع هزات جدية في علاقة البلد الإسلامي مع الآخرين، وإمّا أن يقتبس من الدول الأخرى آليات عملها وممارسة المناورات والخديعة، وأما على المستوى الاقتصادي، فإنَّ اقتصاد العالم يقوم اليوم على المعاملات

الربوية والتي تسيطر عليها بنوك دولية كبرى تتحكم بحركة الاقتصاد العالمي، فكيف يستطيع الإسلام حلّ هذه المعضلة؟

الواقع أنه تركني أتكلّم وفق التصور الذي طرحته، وربما كان يريد أن يطلع على مفاهيم خارج جدران الأسر، ولكنه في نهاية اللقاء قال: إن هذه المعضلات يحلّها كتاب **اقتصادنا** لمحمد باقر الصدر الذي حوّله بعض المعممين إلى إنجيل يحمل حلولاً لكل ما يصادفهم.

في ربيع عام ١٩٨٨ وتحديداً في منتصف آذار/مارس شهدت مدينة حلبجة معركة ستكون لها تبعات لن تزيلها الأيام، بل على العكس تضيف إليها المزيد من الفصول والقراءات المغرضة، وتحوّلت إلى كرة ثلج متدحرجة تتضخم مع كل وقت يمر، تبدأ القصة حينما بدأ الإيرانيون زعيقهم وصراخهم عبر مكبّرات الصوت، وأعلنوا أنهم احتلوا مدينة حلبجة (حلب الصغرى)، وأنّ المواطنين استقبلوا القوات الإيرانية بتقديم الفاكهة والخضراوات للجنود الإيرانيين، وفي ذلك اليوم فتحوا لنا جهاز التلفزيون لبعض الوقت، بدأت العملية عبر نهر «سيروان»، وجنّد الاتحاد الوطني الكردستاني الذي يتزعمه جلال الطالباني، كلّ إمكاناته ووضعها تحت تصرف قيادة العمليات الإيرانية، فقامت العناصر المسلحة من الاتحاد الوطني الكردستاني بالتحرك خلف القطعات العراقية لضربها بالظهر، وبعد معارك غير متكافئة تمكّن الإيرانيون من احتلال مدينة حلبجة، لأنّ العراق كان مشغولاً في التحضير لمعركة أخرى وهي معركة تحرير الفاو، كان الإيرانيون يعرفون ذلك جيداً، ولهذا أرادوا التأثير في خططه الاستراتيجية بمعارك ليست ذات قيمة سوقية، وإنّما تحمل بريقاً ودوياً دعائياً أكثر مما تتركه من آثار على النتائج النهائية للحرب، أعلن الإيرانيون أسر أعداد كبيرة من

المقاتلين العراقيين، من بينهم اللواء الركن علي حسين عويد العلكاوي، قائد الفرقة المكلّفة بالدفاع عن قاطع حلبجة، وكان العلكاوي الضابط الأعلى رتبة الذي تمّ أسره طيلة حرب الثماني سنوات ممن هم في الخدمة العسكرية، مع التذكير بأن اللواء الركن دخيل الهلالي حينما وقع في الأسر في معركة الشوش عام ١٩٨٢ كان ضمن ألوية المهمات الخاصة وليس عسكرياً على ملاك الجيش، ووقع العلكاوي في الأسر في الوقت الذي كانت فيه إيران تفقد قوتها تدريجياً، كان قاطع العمليات الذي تدافع فيه فرقة العلكاوي مستهدفاً من قبل ميليشيات الطالباني المتعاونة مع إيران وقت الحرب، وهذا هو الذي أعطى إغراء لإيران أنْ تنقل عملياتها من القاطع الجنوبي إلى الشمال، فضلاً عن توفر هدف استراتيجي فيها وهو سدّ دربنديخان الذي لو اقتربت منه أو تحكمت فيه فإنّها ستلوي ذراع العراق بتهديد كارثي مدمّر وذلك بإغراق المدن التي تقع على حوض نهر ديالى وحوض دجلة وخاصة مدينة بغداد.

ومع اللواء الركن العلكاوي تمّ أسر هيئة أركان فرقته، واستعرض التلفزيون الإيراني الحكومي تصريحات الأسرى كما فعل مع كبار الضباط الذين تمّ أسرهم في عمليات نهر جاسم مطلع عام ١٩٨٧، وحاول التأثير في معنويات العراقيين في الداخل وكذلك في الأسرى الذين لم يكونوا ليعرفوا استحضارات بلدهم على جبهة الفاو.

وفي يوم ١٩٨٨/٣/١٦ أخذت الأحداث مساراً آخر، إذ اختفى الحديث عن النصر المزعوم وحل محلّه حديث معجون بلغة المأساة، كانت لغته المفتعلة واضحة لا تخفى على المراقب الحصيف، وردت أول إشارة إلى ضربة كيمياوية لمنطقة العمليات وهي مدينة حلبجة العراقية، ومن دون تأخير فقد عرض التلفزيون

الإيراني مشاهد مروّعة من المدينة المنكوبة، وحاول الإيرانيون التنصّل من المسؤولية المباشرة في الضربة الكيمياوية، وإلقاء تبعاتها على العراق، ولكنّ معهد الدراسات الاستراتيجية التابع لكلية الحرب الأمريكية أصدر تقريراً مطلع ١٩٩٠ أكّد فيه أنّ فحص التربة ومخلّفات الضحايا تؤكد أنّ إيران هي المسؤولة من دون شك عن هذه الكارثة، كما أنّ ستيفن بيليتير، وهو كبير المحللين السياسيين في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، بعد مشاركته مع فريق عمل ميداني متخصص في التحقيق، صرّح بأنّ معظم ضحايا حلبجة سقطوا بفعل سلاح ينتمي إلى غاز هايدروجين السيانيد، والعراق لا يمتلك هذا النوع من الغازات، وإنّما يمتلك غاز الخردل، الذي لم يعثر له على أثر في حلبجة، وهكذا حمّل إيران المسؤولية في قتل من قتل في هذه المدينة، ثم إنّه أكد بأنّ عدد القتلى كان بالمئات وليس بالآلاف.

ويبقى السؤال المهم والذي يراد له أنْ يغيّب وسط ضجيج أملته أغراض سياسية يرتبط بالحملة التي قادتها الولايات المتحدة على العراق قبل دخوله للكويت وفي أثناء وجود قواته هناك تمهيداً للعدوان الثلاثيني عليه، واستمر بعد حرب الخليج الثانية وحتى غزو عام ٢٠٠٣، هذا السؤال: ماذا جاء بالقوات الإيرانية إلى حلبجة ومن ثم لتحتلها وتهدد أمن العراق الوطني وتعرّض أمن حوض نهر دجلة بكامله لأفدح الأخطار إذا ما تمكنت من الوصول إلى سدّ دربنديخان؟

تشدّد الإيرانيون معنا وخاصة في مجال وصول المعلومات إلينا، وأغلقوا كل المنافذ بوجوهنا، حملنا الأمر على أساس التجارب السابقة، ولكنّ الأحداث كانت تتسارع في جبهات القتال، كان ربيع عام ١٩٨٨ فصلاً ليس ككل ما سبقه من فصول منذ بدء

الحرب، بدأت التحولات الدراماتيكية تشقّ طريقها إلى ساحات المواجهة لتصنع للعراقيين وبأيديهم مجداً بانتصارات متلاحقة على كل المحاور، وربّما كانت بدايتها اللامعة في القاطع الجنوبي الذي أرادته إيران ساحة لسحق قوة العراق العسكرية وتحطيم إرادته السياسية، لكنّ العراق ومنذ اللحظة التي توقف فيها عن ردود فعله المتسرعة لاسترداد الفاو بدأ بخطة واسعة لتدريب قواته، وتوسّع الجيش من ١٢ فرقة إلى ضعف هذا الرقم في أقل من ست سنوات، وكان على العراق أنْ يتحرّك على الصعيد السياسي والدبلوماسي ليوضح للعالم أجمع أنّ إيران هي التي رفضت كل دعوات الأمم المتحدة لوقف إطلاق النار، بل إنّ الزعامة الإيرانية كانت تتعامل باستخفاف شديد مع دعوات العراق لوقف مؤقت لإطلاق النار خلال شهر رمضان من كل سنة، بل إنّ الإيرانيين كانوا يردون على دعوات العراق تلك بتنفيذ أكبر عملياتهم في هذا الشهر الفضيل، وعندما أيقن العراق أنّ الإيرانيين كانوا يسيئون فهم دوافعه لتلك المبادرات صمّم على أنْ يجعل من شهر رمضان بالذات شهراً لبداية الحسم النهائي، وهذا ما كان، فإيران التي كانت تصرّ على ابتلاع العراق، ما كان بالإمكان جعلها تفهّم حقيقة قوتها وقوة العراق إلا في ساحات المعارك، وبالفعل بدأ العالم يتفهم عدالة الموقف العراقي، حينما انطلقت جحافله وفي شهر رمضان بالذات لتحرير مدنه تباعاً من دنس المحتلين الذين لم يحسنوا قراءة صبر العراقيين.

كنا غائبين عن معرفة ما جرى في ليلة ١٦/١٧ نيسان/أبريل عام ١٩٨٨، حيث مزقت أرتال الجيش العراقي بخطة متقنة إلى أبعد الحدود، وشجاعة فائقة في التطبيق، الخطوط التي أقامها أكثر من ثلاثين ألف عسكري إيراني، أقاموا لأنفسهم أقوى التحصينات

خلال أكثر من سنتين من عمر احتلال الفاو، ولكنْ كل شيء انهار في يوم أو بعض يوم، وألهبت خطة تحرير الفاو حماس العراقيين وعززت ثقتهم بقدراتهم التي لا يحدّها حدّ ولا يستوعبها فضاء، وبعد أنْ حطم العراقيون في ساعات معدودات كل ما بناه الإيرانيون من تحصينات وآمال على احتلالهم للفاو خلال سنتين من الاحتلال الفعلي وسنوات طويلة من التخطيط الجدي والتحشيد البشري والاقتصادي ولكل مؤسسات الدولة، انطلقوا في خطط متعاقبة وبثقة عالية بالنفس في تحرير المناطق الأخرى التي احتلّها الإيرانيون في مرحلة انعدام الوزن التي مرّ بها العراق، حينما تجسَّدت أمامه أطماع إيران بلا مواربة مطلقة كل ما اختزنه الوجدان الإيراني من نزعة توسع وتسلط على حساب العراق، ولم تكن الزعامة الدينية لإيران لتخفي أنّ خطة احتلال الفاو كانت قد تمّ استخراجها من أحد أدراج رئاسة الأركان العامة لعهد الشاه، أطلق العراق على عمليات تحرير الفاو اسم رمضان مبارك، لأنها تمّت خلال شهر رمضان والجنود الذين زحفوا لتحرير بقعة من وطنهم تناولوا طعام السحور على عجل، وقرروا ألا يفطروا إلا بعد سحق الإيرانيين وطرد من يتبقى منهم من الفاو، بدأت أخبار الإيرانيين مرتبكة عندما فتحوا لنا التلفزيون ذات يوم، استمر فتح التلفزيون لعدة أيام على البرامج العربية الموجّهة من التلفزيون الإيراني، كانت هناك رسائل في الإعلام الرسمي تحاول التقليل من قيمة الفاو، وتحاول أنْ تدخل في روع المتلقي أنّ هناك إجراء ترتيبات لتحسين الموضع الدفاعي في القاطع الجنوبي، حتى جاء أحد أيام الجمعة فوقف فيها هاشمي رفسنجاني خطيباً، وفي لحظة انفعال مرة، انطلقت من فمه عبارة كان لها دوي في قاعتنا، قال: «حسناً فقد فقدنا الفاو»، ولم يكد يكمل عبارته إلا وكان صوت الأسرى واحداً ومنطلقاً من

اللاوعي ومن المشاعر الحبيسة الله أكبر، نعم الله أكبر فقد عاد الحق لأهله، وعادت إيران إلى حجمها الحقيقي، وعادت ابتسامة، قد تكتمل قريباً بعودة إلى ربوع الوطن والأهل.

وهكذا كان انتصار الفاو مؤشراً على خط الانتقال في مسار الحرب، وكان الخطاب السياسي العراقي في غاية الدقة والإتقان حينما كان يربط بين النصر باعتباره الطريق إلى السلام، لأنّه هو الذي سيرغمها على قبول قرار مجلس الأمن المرقم ٥٩٨.

ولأنّ للإيرانيين سلوكاً واحداً مع المقاتل العراقي في جبهات القتال أو في معسكرات الأسر، فقد نقل لي الصديق الدكتور خالد المعيني ما رآه حينما دخل الفاو مع القوات التي حررت هذه المدينة العراقية، كان المعيني ملازماً مجنداً، ويشغل منصب آمر رعيل هندسة في كتيبة هندسة ميدان فرقة المشاة ١٤ (قوات الحمزة) والتي ساهمت في معركة تحرير الفاو ضمن قطعات الفيلق السابع، يقول: «بعد أيام من تحرير الفاو وأثناء تدقيق مواضع الجيش العراقي القديمة التي استولى عليها الإيرانيون سنة ١٩٨٦، كانت جثامين الجنود العراقيين الذين استشهدوا في مواضعهم القتالية أثناء الهجوم الإيراني، وقد عثرنا عليها ولم يكلّف الإيرانيون أنفسهم عناء دفنها على وفق ما تأمر به تقاليدنا الإسلامية، بل تركت كما هي وقد تيبست جلودهم على عظامهم وكانوا ما يزالون يرتدون خوذهم ومستلزماتهم القتالية بما فيها أقنعة الوقاية من الحرب الكيمياوية، لقد تم ضرب تلك المواقع بالقنابل اليدوية»، ويضيف المعيني أنّ القوات التي حررت الفاو كان لديها أوامر صارمة بدفن قتلى القوات الإيرانية وتحت دوي القنابل، ومما سرده أنّ القوات العراقية بعد أن استقرت في مدينة الفاو، وعلى الرغم من مرور أكثر من ٤٨ ساعة على انتهاء المعركة، فإنّ الطاقة الكهربائية

المجهزة للفاو كان مستمرة من دون توقف، ومن دون أنْ نعرف مصدرها، وبعد التحري تبيّن لنا أنّ الفاو كانت تجهّز بالكهرباء من مدينة عبادان على الضفة الشرقية لشط العرب، وأنّ هذه المدينة تم إخلاؤها تماماً من القوات ومن سكانها، لإحساس طافح بالخوف من احتمال عدم اكتفاء القوات العراقية بتحرير الفاو، وبعد أنْ اطمأن الإيرانيون بأن القوات العراقية لن تعبر إليهم، عادوا إلى مدينة عبادان، وأوقفوا مولدات الكهرباء عن تجهيز الفاو بالطاقة الكهربائية.

أعقبت عملية رمضان مبارك عمليات توكلنا على الله، والتي استكملت القوات العراقية فيها زحفها لتطهير كل الأراضي العراقية التي احتلتها إيران، من قاطع العمليات في الجنوب حتى آخر بقعة وقعت في أسر القوات الإيرانية.

كل هذا كان غائباً عنّا تماماً إذ لم نكن نعرف عنه شيئاً أبداً، وذات يوم جلب لنا أحد الجنود الإيرانيين جريدة **كيهان العربي**، ولشدّة ما فاجأنا أنّنا قرأنا فيها مقالاً افتتاحياً موحياً بوضع جديد في جبهات القتال، كان مختصره: «ما وقع أخيراً في جبهات القتال يطرح سؤالاً محدّداً: هل أنّنا وصلنا إلى هذا الحدّ من الضعف أم أن العراق وصل إلى هذه الدرجة من القوة؟»، ومضت **كيهان العربي** قائلة: «إنّ المعارك التي حصلت في قواطع العمليات في البصرة والعمارة كانت معارك لم يعد بإمكاننا الدفاع فيها عن مواقعنا».

عشنا هذا الجو المفعم بالعزّ لبلدنا الذي خرج من عنق الزجاجة وحقّق نصراً لامعاً في حرب أرادها العالم بلا غالب أو مغلوب، ولكنّه أصرّ على أنْ يقف شامخاً من بين الركام، وينهض

بحركة بناء كبرى وعلى الرغم من ظروف الحرب، ليمسك بخيوط الشمس، ويؤكد للعالم أنّ الحضارة الإنسانية استكملت دورتها، وعادت إلى موطنها الأصلي الذي انطلقت منه أول مرة، فحيثما يبزغ فجر الحرف وتدور العجلة لأول مرة ويدور معها التقدم، ويضع ابن هذه الأرض أول تشريع لتنظيم حياة الإنسان، يتواصل العطاء، ويشعّ على أرجاء المعمورة وعياً ومعرفة بكل ميادينها، وتتكامل حلقات التطور.

ولكنّنا حينما تلمسنا ما نحن فيه من بؤس وذل تساءلنا عما إذا كنّا في حلم لم نستطع استيعابه، أم هي الحقيقة التي تحكي لؤم عدو لم يرتق إلى مستوى التعامل الإنساني، ويبتلع مرارة الهزيمة ويعامل الأسرى بالحد الأدنى الذي يحمل الكفاف من روح العصر، بل على العكس من ذلك حاول أنْ يبصق مرارة الهزيمة بوجوه الأسرى، محمّلاً إياهم جزءاً مهماً من مسؤولية الهزيمة التي غرق في بركتها تماماً، فهو يحاكم ماضيهم في جبهات القتال، ولا ينسى صمودهم بوجه محاولاته لإسقاطهم والتي لم تتوقف حتى الساعة الأخيرة، ومع ذلك فإنّ أملاً بالحرية لم يفارق مخيّلة أحدنا في أيام اشتداد المعارك، فهل يصح أنْ نعدم الأمل وقد حقّق العراق هذا النصر العظيم؟

تراكمت الصور في أذهان الأسرى وتدافعت بقوة، وتداعى بعضها بقوة تصورات جديدة، كان كل واحد منّا يأخذ استراحة ويختلي مع نفسه، وإذا توصل إلى فكرة ما بادر إلى طرحها بصوت عال، مقتفياً خطوات أرخميدس حينما نادى بأعلى صوته: وجدتها، وهكذا انشغل الأسرى بالتأمل والأفكار الوردية، وبدأ الجميع يخططون لمشاريع المستقبل في بلادهم بعد عودة باتت أوضح من شروق شمس يوم جديد، البعض عاش تساؤلات

متزاحمة بشأن وضعه العائلي: من تبقى من أفراد الأسرة؟ من رحل؟ من حل ضيفاً جديداً؟

قدّر البعض أنّ ثماني سنوات كانت كافية لأسر بمواصفات ما يحصل في معسكرات الأسر الإيرانية لأن يطلق سراحنا، بعضنا أمضى أقل من ذلك، ولكنّ الجميع سيعودون في وقت واحد على كل حال، أحس البعض ممن ارتكب أخطاء مبدئية، وخاصة مما يرتبط بإلحاق الأذى ببقية الأسرى بتأنيب ضمير حادّ، فانزوى عن الباقين، بل وفضّل عدم المشاركة بالفرحة الغامرة بالنصر واحتمال العودة القريبة، والبعض الآخر تعامل مع هذه الانفعالات بتعالٍ وشماتة، ولكنّ العقلاء منّا نظروا إلى الأمر على أنّه أزمة إنسانية وأنّ الوطن أكثر تسامحاً من الجميع ومع الجميع، وأنّ ترك هذه الصفحات المثيرة لأسباب التأزم للجان التحقيق بعد العودة هو الحل الأمثل الذي ينصف الجميع، فالوطن كبير وتصغر عنده الصغائر من الهفوات والأخطاء التي ترتكب لضعف إنساني، أو قلة تجربة في الوقوف وجهاً لوجه مع العدو، مع سلطة مطلقة في جورها لهذا العدو، حاولنا التخفيف من معاناة من كان يحمل هواجس خوف من حساب ما بعد العودة، ولم نكن ندّعي شيئاً من دون قناعة، بل كان يقيننا أنّ الوطن أكثر تسامحاً منّا جميعاً، ولكنّ تسامحه يقف عند حدود الأذى اللاحق بالأسرى نتيجة وشايات الضعفاء أو الخونة، الذين تسلّقوا على أجساد رفاق الأمس، واستسهلوا الانحياز إلى صفوف الأعداء في زمن الحرب، ضد وطنهم وإخوانهم الأسرى، كي ينعموا بالراحة المغموسة بعذابات الوطنيين، كان هذا شغلنا في تلك الأيام، فنحن مسؤولون عن كل عراقي لاعتبارات معظمها يرتبط بعائلته المباشرة، وحواشيها من عائلات الأقارب، خاصة في بلد مثل

العراق حيث الروابط العائلية القوية والمتشابكة، من دون أنْ يعني ذلك أننا لسنا حريصين على الأسير الخاطئ بهدف إصلاحه وإعادة دمجه في المجتمع من دون اجترار آلام الماضي. ثم إنّ سمعة العراق بين دول العالم، قد تتعرض لشيء من اهتزاز المصداقية إذا كثر فيه سقوط الأسرى في مستنقع الخيانة، كنّا نتدارس فيما بيننا كل هذه الأمور التي أرّقتنا كما أرّقت الأجهزة الأمنية ومراكز البحث العلمي في العراق، بعد عودة الدفعات الأولى من الأسرى إلى العراق واطّلاعها على حقائق أوضاع الأسرى في إيران، كنّا نريد الخروج بحلول لا تغري ضعفاء النفوس على التعامل مع الهوية الوطنية باستخفاف، وتحاول أنْ تأخذ الظروف الإنسانية القاسية التي عاشها الأسرى بنظر الاعتبار وتوظفها لتسويغ إضعاف روح المواطنة، كنّا نظن أنّ عودتنا باتت قريبة جداً للوطن، على الرغم من المخاوف التي تثيرها معرفتنا الأكيدة بنمط السلوك الإيراني الرسمي عبر التاريخ، فهم الذين علّموا الناس من بعدهم المماطلة واختراع الأسباب للتنصل من أي التزام أخلاقي أو قانوني، ويعدّون ذلك شطارة الحاذقين، وليس ضرباً من سوء الطويّة، والمخاتلة وخبث المقصد والغرض، لقد دوّخوا حتى ميكيافيللي وهو في قبره في أساليب التفاوض والحوار، وقد يقف لهم احتراماً لأنهم ابتدعوا ما لم يتوصل إليه من أساليب، فلا يعرف الطرف المقابل ماذا يريدون وماذا يرفضُون وما هي الأسس التي يعلّقون عليها آمالهم لإطالة حوار الطرشان، ولا يستطيع أحد أنْ يحصل منهم على حقّ أو باطل، لأنّهم وكما وصفهم المقداد بن الأسوَد الكندي في رسالة طويلة وعميقة الفهم بعيدة الغور بعث بها إلى عمر بن الخطاب، يعرض فيها خواصهم بعد أنْ أمضى بينهم ردحاً من الزمن: لا يعطون شيئاً إلا إذا كان

بالقوة، وهذا طبع البهائم والعبيد، بل إنّهم بالقوة يعطون أكثر من المطلوب منهم.

وفي أحد الأيام جاءنا جندي إيراني من القلة المثقفة التي عملت في الحراسات الداخلية اسمه حسيني، سألنا سؤالاً من دون مقدمات: من منكم يعرّف الاستعمار؟ فتبرّع الكثيرون للإجابة بأنّنا جميعاً ضحايا الاستعمار ظنّاً منهم أنّه يريد الحديث عن أسباب الحرب، ولكنّه هزّ رأسه رفضاً، وقال الاستعمار باختصار شديد هو ما أضطر إلى معايشته على مدار ساعات اليوم في بيتي، حينما أسمع أمي وأبي يقرآن القرآن في صلاتهما باللغة العربية أو حينما يتردد صوت الأذان بالعربية ثلاث مرات في اليوم، وحينما يعتقد الناس أنّ صلاتهم لن تقبل ما لم يتوجهوا إلى مكة في جزيرة العرب، هذا هو الاستعمار الذي لا تحرر منه أبداً، لا ندري ما الذي دفعه لهذا الحديث ولكنّه أعطانا تصوّراً عن نمط تفكير طبقة المثقفين الإيرانيين.

وتلاحقت عمليات الجيش العراقي لتطهير أرض الوطن من دنس المحتلين الإيرانيين، مستغلاً حالة الانهيار الكامل الذي وصلت إليه إيران سياسياً واقتصادياً، وقبل هذا وذاك، بل والأهم منهما معاً انهيار إيران عسكرياً، وهكذا تلاحقت انتصارات العراق على طول الجبهات وكنس الجيش العراقي أرضه من كل القذارات التي تسللت إليها، حينذاك تراجع الخميني عن قناعاته وقراراته السابقة مرغماً، وأعطى موافقته للحكومة على أنْ تبلّغ مجلس الأمن الدولي بموافقتها على قراره المرقم ٥٩٨ بعد عام كامل من تاريخ صدوره، هذا لم نكن نعرف شيئاً عنه إلا بعد زمن طويل سيأتي الحديث عنه في وقته.

وعلى عادتنا بمتابعة الحياة في الساحة الكبرى لسنك بست، من وراء باب حديدي وبطانية موضوعة فوقه، علمنا أنّ حركة غير معتادة قد بدأت في المعسكر، كان ذلك اليوم هو ١٩٨٨/٧/٢٧، وحينما مضى الجميع في طريق كنّا نجهله، جاء دورنا لكي نلحق بالركب الذي تخلّف عنه القاطع ١٨ وهو القاطع الذي استقر فيه البعض ممن ضعف في منتصف الطريق، ولا ندري أين أخذ الإيرانيون أسرى القاطع ١٨ ومتى، المهم أن الكلّ ذهب إلى الوجهة التي وقع اختياره عليها عن يقين أو عن ضعف أو حيلة المضطر، وإنْ كنا على يقين أنّ بعض من ذهب هناك أنظف من بعض ممن بقي معنا.

الفصل التاسع

إلى مازدوان مرة أخرى

ذات صباح من أيام تموز/يوليو ١٩٨٨ بدأت الحافلات بنقل حثيث لأكثر من ٢٥٠٠ أسير من تعساء الحظ الذين كتب عليهم الأسر في بلد يمارس أسوأ معاملة للأسرى على مرّ التاريخ، ولكنْ إلى أين ستكون وجهتنا هذه المرة؟ لا يستطيع أحدٌ التكهّن في بلد العجائب، نعم أليس هو بلد سابور ذي الأكتاف؟ ألم يقتل ذلك الملك الفارسي الظالم الأسرى العرب بطريقة وحشية ما يزال التاريخ يتحدّث عنها باشمئزاز بعد أنْ خلع أكتافهم؟ ولهذا سمي بذي الأكتاف. نعم ها هو التاريخ يعيد نفسه بأبشع صفحاته، الملك القديم من الأرض والطينة نفسيهما والجديد كذلك، والأسرى من الأرض والطينة الأخرى أيضاً.

حينما تحركنا كانت درجات الحرارة في ذروتها في هذه المنطقة الشمالية الشرقية من إيران، والتي عادة ما تشهد شتاءات باردة جداً، ولكنّها أيضاً تحمل حرارة قاسية تحت أشعة الشمس لمن لا يمتلك وسائل الوقاية منها، وصلنا إلى منطقة تبدو وكأنّها صحن منخفض وسط مرتفعات تحيط من كل الجهات، وكأنّ نسيمات الهواء ممنوعة من الوصول إلى أبنيته الحجرية ومع الزمن وجدنا أنّ هذا المكان حقل ذباب كبير، وحينما تذهب الشمس

وراء الأفق تتلون الجدران والسقوف بلون أسود مقزز للنفوس، وتبدأ معركة من نوع جديد مع هذا الطائر اللعين، ومع ذلك فلا بد من متابعة الرحلة الجديدة من بداياتها.

مثل كل مرة كنّا آخر القواطع التي يشملها النقل، القسوة نفسها تتكرر أيضاً، الجنود في حالة استنفار وجلبتهم تشق الآفاق، يزعقون بوجوه بعضهم وبوجوه الأسرى دونما سبب، يتحركون في كلّ الاتجاهات، كان كل واحد منهم في تلك الساعة قائداً ومقوداً، لا أحدَ منّا يعرف ممن يتلقى الأوامر والتعليمات، ولأنّ الجيش ما زال من بقايا عهد الشاه، فإنّ الضباط «المستكبرين» يترددون في إعطاء رأي خشية مخالفته من ضابط صف «مستضعف»، على مقاييس الزمن الخميني، الجنود وضباط الصف هم من يصدر الأوامر، ولكنّهم ونتيجة التسابق لكسب رضى سلطان الدنيا ومالك مفاتيح الآخرة، فلا نعرف لهم رأساً أو ذنباً، كانوا يصرخون بلا توقف من أجل التحرك السريع من دون أنْ نعرف لماذا تأخّروا كي يطلبوا منا تعويض الزمن الفائت، قالوا: إنّ علينا أنْ نستعد للرحيل خلال ربع ساعة فقط، انتهى الوقت المحدّد ولكنْ بعد أكثر من ساعة فتح علينا الباب، خرجنا بالتتابع وسط صراخ الجنود الإيرانيين وصياحهم وشتائمهم وركلاتهم، تجمعنا في الساحة الداخلية لمعسكر سنك بست، وبدأت عملية تفتيش ما نحمل من وسائل تافهة لمن كان خارج أسوار القيد ولكنّها من أثمن ما بقي لمن كان خارج أسوار الزمن من متاع، لا يوجد نظام يوحّد الممنوعات أو المسموحات، كل شيء بحسب مزاج الجندي، ما يصادره جندي من أحد الأسرى يسمح بمثله جندي آخر، وأمضينا وقتاً طويلاً في تفتيش غامض الأهداف والمرامي، عن أي شيء يبحث الجنود الإيرانيون؟ لا أحدَ يستطيع المجازفة بالتخمين، ويبدو

أنّها لعبة يقصد منها إزعاج الأسرى ليس غير، وبعد التفتيش انتظرنا وقتاً قبل أنْ يأتي الجنود بقطع من القماش السميك والمخصّص لربط العيون وجاؤوا كذلك بالأصفاد المخصّصة لتقييدنا، وفتح الباب الحديدي الصغير بعد أنْ عصبت عينا كل أسير، وكبلت يداه إلى الخلف، وتعاقبنا في طابور واحد، كان الأول منّا يقوده جندي إيراني وبه يمسك من يليه وهكذا، وحينما يصل أحدُنا إلى الباب الحديدي يتولى جنديان اقتياده حتى يجتاز تلك البوابة، ومن هناك يلتقطه جندي آخر ويوصله إلى الحافلة، كان عددنا قريباً من سبعين رجلاً، ولهذا كانت حاجتنا إلى حافلتين فقط، حينما كنّا نجتاز الممر الفاصل بين ساحة المعسكر والباب الحديدي الصغير في البوابة الخارجية الخشبية الكبيرة كان جهاز راديو وعبر مكبرات صوت يبث المارشات العسكرية، وبين مقطع وآخر يدخل المذيع الذي حلّق في دنيا الحماسة ليطلق سطراً أو اثنين ثم تعود إسطوانة الأناشيد لتدور بأقصى سرعتها، ومع تلك الضجة التي كنّا نسمعها، ولأنّ تلك المارشات والأناشيد كانت مرادفة «لحملة» عسكرية إيرانية كبرى، حقّق فيها الإيرانيون إنجازات ملموسة، فقد توقّعنا أنّ الأمر مثل ما كان يقع قبلاً، كان المذيع يقطع المارشات ويقدّم بعضاً مما يأتيه من بيانات، أو تعليقات لإثارة حماسة المواطن الإيراني الذي يئس من الحرب بعد أنْ أثقلته أكثر من قدرته على التحمل، ولا سيما وأنّ زعامة بلده هي التي ركبت سفينة العناد والبغي وسط بحر متلاطم الموج ورفضت كل دعوات الجنوح إلى السلم، وفي مقطع من البيانات الحماسية للمذيع التقطنا ما يفيد بشن غارات جوية إيرانية متتالية على مواقع «العدو» في جبل المشداخ، وكم يبعث هذا الاسم من ذكريات مريرة في الذاكرة ما يزال طعمها

ماثلاً في الفم حتى اليوم، ولكنْ هل استرد المقاتلون العراقيون هذا الجبل من الإيرانيين كي يتعرض لغارات إيرانية؟

لم يكن بوسع أحدٍ أنْ يتحدث مع رفيق له بشأن ما سمع، ربّما حصل خلط في أسماء المناطق، وذهبت بي التصورات إلى اسم المشداخ لأنّه ما يزال عندي حفرة عميقة في المسيرة الإنسانية الخاصة، حتى وإنْ كان جبلاً على الأرض الفاصلة بين بلدين. نعم كان حدّاً فاصلاً بين مرحلتين من حياتي أكثر من كونه خط حدود فاصلاً بين جيشين متحاربين وبلدين يفترض بهما أنْ يجعلا منه فناراً لعلاقات تواصل لا جداراً للقطيعة، ولكنْ أنّى يتأتى ذلك وإيران وبصرف النظر عمن يحكم فيها تسعى لجعل العراق «مشتملاً» ملحقاً بها! وأغيب عن هذه الذكريات المرة وأتساءل متى سنصل إلى مقامنا الجديد؟ كي أتوثق من دقة ما سمعت خاصة وأنّني كنت ما أزال أحبو في مجال اللغة الفارسية، فالمسؤولون الإيرانيون يتطيّرون إذا علموا أنّ أسيراً يحاول تعلّم لغتهم، لأنّهم يفسّرون خطوة كهذه على أنّها «مخطط فرار» يتيح الفرصة لمن يجيد الفارسية الاندماج في الأوساط الشعبية حيثما تمكّن من التنقّل، وبهذا فقد أضافوا إلى جهدهم في منع إعلامهم عنّا منعنا من تعلم اللغة الفارسية على خلاف الأمم الأخرى التي تبذل الأموال من أجل نشر لغتها وإعلامها بين الأمم الأخرى، وليتصوّر متابعو أوضاع الأسرى العراقيين في إيران مع أي قوم عليهم أنْ يتعايشوا؟

كانت الشمس من خلال أشعتها التي يتسلل منها القليل عبر النوافذ المضللة بستائر بالية وغير نظامية، تشي بأنّنا نتجّه إلى منطقة ليست غريبة علينا، هي ربما معسكر مازدوان الذي هجّرنا إليه بداية عام ١٩٨٥، بهدف إخفائنا عن بعثة الأمم المتحدة المكلفة بالتحقيق في المجازر التي تعرضت لها معسكرات الأسرى، ولأنّ التساؤلات

كبيرة عما سمعناه في اللحظات الأخيرة في سنك بست، فضلاً عن التساؤلات الإنسانية المشروعة لمعرفة ما ستؤول إليه حياتنا الآتية والتعسة في إيران، فقد بدا الطريق أطول من حقيقته بكثير، ومما يضاعف من هذا الشعور أنّ الحافلات التي تصدر أصواتاً تنم عن قدم في الخدمة، وآلام ربط الأيدي إلى الخلف، والضغط الذي يزداد عليها كلّما حاول أحدنا التخفيف من آلامها، وما يسبّبه عصب العينين من عزل عن العالم الخارجي، وما يثيره في النفس من هواجس الخوف من المجهول، مع ضربات بالأيدي على الرؤوس المسندة إلى المقاعد الأمامية، أو رفسات بالأرجل دونما مبرّر، بل لمجرد إشباع رغبة في الانتقام من عراقي آخر في جبهات الحرب ما يزال يلحق بهم خسائر فوق تصورهم.

وفي نهاية المطاف وكما ينتهي كل شيء انتهت رحلتنا الطويلة إلى المعسكر الجديد، توقفت الحافلة قبل أنْ يرفع الجنود العصابات عن أعيننا، صعد جندي إلى الحافلة وبدأ بفتح الأصفاد تباعاً، كان هناك عدد من الجنود ينادون علينا بالبقاء في أماكننا، وبعد زمن قصير قالوا لنا: ارفعوا الأغطية عن أعينكم، كانت بمثابة عودة للحياة بعد انقطاع عنها، وجدنا أنفسنا في المعسكر نفسه الذي جلبونا إليه قبل ثلاثة أعوام ونصف، انطلقت في رؤوسنا عشرات أو مئات الأسئلة، هل جاءت لجنة جديدة؟ هل تحركت قضيتنا أخيراً؟ هل نهض جملها؟

بعد أنْ عرفنا المكان المخصص لنا مضينا إليه مسرعين، كان كل واحد منا يسأل رفيقه عما سمعه من الراديو أثناء النقل، وحينما اجتمعنا في مكان واحد كان هذا أهم تساؤل مشترك، ومضت التحليلات بعيداً، منهم من قال: إنّه فهم أنّ القوات العراقية وصلت مرة أخرى إلى جبل المشداخ، والبعض الآخر قال: إنّ

المعارك شديدة على محاور من ضمنها هذا الجبل الذي نختزن في ذاكرتنا له الكثير من الذكريات الممزوجة برائحة الذل، وانصرفنا إلى الأمور الأخرى على أمل العودة إلى جبل المشداخ وأخباره في الغد.

على الرغم من أنّنا كنا متفقين على أنّ الأماكن يجب أنْ توزع وفق ما يتفق عليه الجميع، وبإشراف «الأرشد» الذي هو المكلّف من قبل الإيرانيين، وبقبولنا تنظيم حياتنا الداخلية، والوسيط بيننا وبين الجانب الإيراني يعرض عليهم مشاكلنا ويقدم لهم طلباتنا وخاصة في مجال علاج المرضى، وينقل إلينا تعليمات الجانب الإيراني، كان إحساسنا بأنّ إقامتنا في مازدوان كأختها مطلع عام ١٩٨٥، ولهذا لم يكترث الأسرى بتنظيم أوضاعهم في المحطة المؤقتة. كان القاطع الذي تم نقلنا إليه يتألف من ثلاث غرف صغيرة وفناء يرتبط به مرحاض داخلي واحد، وكانت هذه أول صدمة لنا لأنّنا عانينا من هذه المعضلة طويلاً وفي محطات كثيرة في الأسر.

المهم حصل الاتفاق على تقاسم الغرف على قدر استيعابها، كخطوة أولى على طريق تقسيم الأسرى عليها لاحقاً، كان من المناسب أنْ يلتقي الأسرى الأكثر قرباً من بعضهم في مكان معين، وهذا الذي حصل؛ إذ جمعتنا أصغر الغرف وكان استيعابها بحدود ستة عشر أسيراً، وكانت نسب الأعداد متوازنة مع مساحات الغرف، بالنتيجة حينما أردنا فرش الأرضية بالبطانيات وجدنا أنّ حصة كل واحد منا لا تزيد على ثلاثين سنتمتراً عرضاً في أحسن الظروف، وكانت هذه الحالة قاسماً مشتركاً بين الغرف الثلاث، وكان على الجميع ترتيب أوضاعهم على أساس هذه الحقيقة وإنْ كنا نعزّي أنفسنا بأنّنا باقون لزمن قصير، ولا حاجة بنا إلى فتح

أبواب الخلاف على مصراعيه، ومثل المرّة السابقة كانت أرزاقنا تأتي من مشهد وتستغرق في وصولها حوالي ساعتين من الزمن الذي لا قيمة له، ولأنّ عيون الماء في المنطقة دافئة فقد كنا نبرّدها بلف قطع من القماش حول قناني بلاستيكية بعد تبليلها بالماء، ولكنّ الإيرانيين وكعادتهم كانوا يلاحقون هذا الابتكار ويمنعونه ويصادرون القناني، وكانت المياه المتدفقة من العيون تجمّع في حوض مرتفع ويتم توزيعها على أرجاء المعسكر من قاعات وحمّامَات ومزارع، وفي موسم الصيف يستخدم الجنود الإيرانيون ذلك الحوض للسباحة وغسل الملابس والأواني، وعلينا جرّاء ذلك أنْ نتلقى كل غريب من المواد الملوثة التي يلقيها مستخدمو الحوض من الجنود، ومن أجل معالجة الأوساخ العالقة بالماء فقط من دون الكائنات المجهرية الحاملة لمختلف الأمراض، فقد كنّا نضع قطعاً من القماش الأبيض على فوهة الحنفية لإزالة الشوائب منه، وكم كنّا نجد منها؟ إنّه منظر مقزز للنفوس ولكنْ لا حيلة للمضطر إلا التعامل مع الحالة كما هي.

وبدأنا يوماً جديداً لزمن لا أحد يعرف متى ترسي سفنه على شاطئ معلوم، وبقيت الأسئلة تتقافز من الأفواه إلى العيون والآذان، ما الذي جاء بنا؟ كنا نضغط بقوة على الملازم الأول وليد عبد الكريم الذي فرضنا عليه العودة أرشداً لقاطعنا، كي يبذل جهداً استثنائياً من أجل الحصول على جواب لهذا السؤال المحيّر، وللأسف الشديد نحن أعطيناهم الجواب من نوع السؤال، هل يشبه مجيئنا هنا مجيئنا قبل ثلاثة أعوام ونصف؟ فيأتي الجواب سريعاً من دون عناء: نعم هو كسابقه، على الرغم من أنّ من أجاب لم يكن موجوداً معنا في ذلك الوقت، وكانت الأخبار التي يحصل عليها الأرشد تعلن على الجميع أولاً بأول، على الرغم من أنّ

الكثير منها كان يواجه بعزوف شديد، خاصة تلك الأخبار المتفائلة التي كان الكثير منّا يعتقد أنّها تقع في خانة التهدئة ورفع المعنويات، ولهذا حينما جاء آمر المعسكر يوماً ليسرّب حزمة من الأمل في حديث غامض الدلالات وبعبارات تحمل كل المضامين وأضدادها، لم يستطع أحدنا أنْ يتوقع أنّ أياماً معدودات مرت على موافقة إيران الرسمية على قرار وقف إطلاق النار، كانت إدارة المعسكرات تخشى انفلات الوضع الأمني بين الأسرى أنفسهم، خاصة وأنّ سنوات القهر قد ألقت بظلالها القاتمة على علاقاتهم مع بعضهم، وتركت خدوشاً بل جروحاً عميقة في نفوسهم لما لقوه من عذابات ما كان لكثير منها أنْ تقع لولا أبناء جلدتهم، ولذا فكان كل آمر معسكر حريصاً على ألا تقع عمليات انتقام لا يمكن منعها، وخاصة من الذين تعرضوا للأذى ويرون من عذّبهم يتنقل بحرية معهم، هذا كان يحصل في المعسكرات المفتوحة، وخاصة من قبل البعض الذين سقطوا في الوقت الذي كان الإيرانيون يقتربون من الإقرار بالهزيمة، فأصبحت المزايدة لغة التعارف عند هؤلاء، وطريقاً لتبرير الضعف والانهيار الذي يكافئ الخزي والهوان.

منذ الأيام الأولى لمجيئنا إلى المعسكر القديم الجديد بدأ النقيب حمزة «أبو منال» حركة قوية ونشيطة من أجل إقامة تنظيم حزبي في قاطعنا، وربطه مع التنظيم المنتشر في كل القواطع ويرتبط بالسيد سالم الوهب ـ عضو قيادة فرع «أبو جعفر المنصور» لحزب البعث العربي الاشتراكي قبل الأسر وكان الموجه السياسي للواء ١١ مهمات خاصة الذي كنت أنتمي إليه ـ واقع الحال لم أكن متحمساً لقيام التنظيم أو للانخراط فيه في حال قيامه ولكنّني بالمقابل لا أقف ضده ولم أعلن ذلك علناً كي لا أزيد من حالة

الانقسام، وكي لا يستغل موقفي من قبل أشخاص يتخذون موقفاً عدائياً من الحزب، كما أنّني لم أتخذ أية خطوة عملية للوقوف ضد الحالة التنظيمية على الرغم من معرفتي بما يمكن أنْ يجره علينا من اختلافات وإشكالات لا يحتمل وضعنا إضافتها إلى رصيدنا المتراكم من الأزمات، وتجربتي السابقة مع الضباط تؤكد ذلك؛ إذ يصعب عليهم التنازل لأي طرف عن اعتزازهم برتبتهم بما في ذلك حزب البعث، وقد يطرحون الكثير من الذرائع والحجج لهذا الرفض، بل قد يختلفون مع بعضهم على الكثير من الشؤون، ولكنّهم في نهاية المطاف يلتقون على نقطة واحدة وهي النظرة العسكرية التي تحمل بعض التعالي على الآخرين بل يتعالى بعضهم على الآخر وفقاً لما تحدّده اعتبارات القِدم العسكري، كانوا قد اختاروا المقدم عادل الداوودي ضابطاً أقدم، وهو فعلاً كان أقدم الضباط الموجودين في القاطع الذي التحقنا به في مطلع أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢ وما زلنا معاً. بدأت حالة من التذمر تنتاب البعض من الضباط الذين فكّروا بأنّ مرحلة جديدة من الصراع قد تطلّ على الأسرى المتعبين، خاصة وأنّنا كنّا نظن أنّ بقاءنا في هذا المعسكر هو مجرد إخفاء مؤقت جديد لنا كما حصل في عام ١٩٨٥، ولذلك بدا التردد بادياً على الكثيرين، ولكنّ حمزة مضى في خطته بقوة وعزم، وكان يوماً مختلفاً ذلك الذي وصلت فيه رسالة من السيد سالم الوهب عبر قاطع الجنود اللصيق بقاطعنا، إذ بارك الوهب للسيد حمزة جهوده ومباركته لها في إقامة تنظيم حزبي، محذّراً من الوقوف ضد الخطوة هذه. وأهمية هذه الرسالة تأتي من كون اسم الوهب كان قد استخدم من قبل، لحظر العمل الحزبي في الأسر استناداً إلى أحاديث منسوبة له جاءتنا نقلاً غير مكتمل الحلقات، ولمّا كان موجوداً بنفسه الآن وعلى مقربة منّا وجاءت رسالة مباشرة

منه، فإنّ الحديث سينصبّ على التشكيك بصحة نسبتها إليه، وبعد أنْ قرأ السيد حمزة الرسالة تراوحت ردود الفعل بين الحماسة للتفاعل معها والانتظار الحَذِر، لكنّ أحداً لم يبادر للإعلان عن رفض صريح، وحتّى المقدّم عادل الذي استخدم اسمه فيما مضى لرفض النشاط الحزبي قال: إنّه يعتبر نفسه جندياً في جيش الحزب وإنّه على استعداد لتلقّي الأوامر من السيد الوهب، حينذاك هدأت بعض النفوس القلقة وتحمّس البعض، وتم اختيار أول منظمة من أعلى الدرجات الحزبية المعتمدة في العراق، وكانت كمنظمة رأسية يتولى مسؤوليتها «أبو منال» وتضم كلاً من حبيب السامرائي وعامر الدليمي وصاحب هذه السطور، وأصبحت جزءاً من الحالة التنظيمية على الرغم من تحفظي عليها، وتم اختياري نائباً لمسؤول التنظيم، وتم إبلاغ الوهب بالتشكيلة وأقرها بدوره، وباشرت عملها من دون أنْ تكون هناك قضايا تحمل أهمية استثنائية يمكن أن تباشرها فعلاً أو حتى مجرّد التفكير بقيامها.

كان إحياء المناسبات الدينية والوطنية أحد مظاهر التخفيف عن الضغوط التي يتحمّلها الأسير، وكنّا نقوم بمثل هذه الفعاليات حتى قبل نشوء التنظيم الحزبي، ولكنّ دخول التنظيم الحزبي على خط الإشراف على هذه الفعاليات أضفى عليها طابعاً جماعياً ومشاركة حماسية، وخاصة من قبل الشباب: كانت مثل هذه الفعاليات محاولة لإبقاء الربط محكماً بين الأسير ووطنه، وكذلك لكونها تضفي شيئاً من تغيير نمط الحياة الرتيبة في عالم الأسرى الجامد على صخرة ميتة.

كانت حياتنا في المعسكر القديم الجديد مزيجاً من ضيق المكان حدّ الاختناق وخاصة في أثناء النوم، مع حر قائظ صيفاً حد العرق، وبرد قارس شتاء حدّ التجمد يطول أكثر من وقته

بكثير، وذباب لا يعرف نوماً فهو يحلق في سماء غرفنا دونما انقطاع ويحدث طنيناً لا يهدأ على مدار الساعة، وغربة تعصر قلوبنا وتضيق علينا سبل العيش، وجوع ومرض وانعدام أسباب القضاء عليها، هذا كله لا بدّ أنْ ينعكس على علاقات أسرى طواهم النسيان وأكل من عمرهم الدهر سنين طوالاً.

ومع الوقت كانت تردنا بعض الأخبار وكان من بينها أنّ مجلس الأمن الدولي كان قد اتخذ ثلاثة قرارات جديدة بشأن ملف علاقات الحرب العراقية الإيرانية، كان أول القرارات قد اتّخذ بعد اجتماع للمجلس في ١٩٨٨/٥/٩ أي قبل ثلاثة أشهر من بدء وقف إطلاق النار، وأخذ القرار الرقم ٦١٣ وكان أعضاء المجلس قد أعربوا عن «قلقهم البالغ لأنّ قرار ٥٩٨ والذي له طابع إلزامي لم ينفّذ بعد»، وناقش أعضاء المجلس في جلستهم التي صدر فيها قرار ٦١٣ تقرير البعثة التي أوفدها الأمين العام للتحقيق في ادّعاءات استخدام الأسلحة الكيميائية في الحرب.

لقد شهدت سنة واحدة منذ صدور قرار مجلس الأمن الدولي المرقم ٥٩٨ حراكاً واسعاً بعد أنْ أصبحت صورة نهاية الحرب ماثلة للعيان من أجل إجبار إيران على قبول وقف إطلاق النار، لأنّها إنْ لم تستجب فإنّ نتائج أي إطالة لأمد النزاع ستتحمله وحدها، عسكرياً واقتصادياً واجتماعياً، وفوق هذا وذاك عزلة دولية، حين تتحدى إرادة الأمم المتحدة والمجتمع الدولي، ومع أنّ إيران كانت سترضخ للتوقف عن المضي في رحلة الموت من تلقاء نفسها، فإنّ الأمين العام للأمم المتحدة خافيير بيريز ديكويلار، المنحاز بالفطرة ضدّ العراق، حاول أنْ يوظف وقف إطلاق النار وكأنه إنجاز شخصي له، ما كان له أنْ يتحقّق لولا جهوده، والمراقب المنصف يعلم أنّ الأمين العام لم يبذل جهداً صادقاً طيلة

بقائه في منصبه، لإشعار إيران أنّ طموحاتها في احتلال العراق في غير محلها، وأنّ العالم لا يمكن أنْ يوافق على ذلك، هذا في حال عجز العراق عن الدفاع عن نفسه، ثم إنّ ديكويلار لم يبذل جهداً صادقاً في أكثر القضايا وضوحاً في هذه الحرب، وهي قضية الظلم الذي تعرض له الأسرى العراقيون في إيران، ومحاولات تغيير قناعاتهم بالقوة، وفي هذا الشأن وضعت تحت تصرفه آلاف الوثائق، ولكنّه لم يشأ إزعاج إيران بأي قدر، فالقرار الجديد لم يشر إلى ضرورة إلزام الطرفين بتنفيذ كل مواد القرار ٥٩٨ وخاصة قضية الأسرى، فهل يتوقع منه أنّ يتصرف بحزم في قضايا غامضة، ثم لنلاحظ نص الفقرة (٣) من القرار ٦١٣، والتي توقعت من الطرفين الامتناع عن استخدام الأسلحة الكيميائية، أي أنّ مجلس الأمن الدولي لم يعف إيران من مسؤولية استخدام هذه الأسلحة، ولكنّ المجلس بعد عام ١٩٩٠ ودخول الجيش العراقي للكويت، وبعد أنْ صادرت الولايات المتحدة مجلس الأمن وجعلت منه أحد مكاتب الخارجية الأمريكية وجرّته لإصدار القرارات المتتالية ضد العراق، ركّز في سياسة مفهومة المقاصد على استخدام عراقي مزعوم للأسلحة الكيميائية خلال الحرب العراقية الإيرانية وفي حلبجة بالذات.

ولم يكتف مجلس الأمن بهذا القرار، فقد أصدر قراراً آخر برقم ٦١٩ وبتاريخ ١٩٨٨/٨/٩ أي بعد يوم من بدء سريان وقف إطلاق النار، واستماتت في أنْ ينسب استجابة إيران لقرار ٥٩٨ إلى ما بذل أعضاؤه أو الأمين العام من جهود ومساع، في حين أنّ المجلس والعالم يعرفان جيداً بأنّ ما بذل من جهود سياسية ودبلوماسية طيلة سنوات الحرب ما كان لها أنْ تؤثّر في موقف آية الله الخميني من موضوع النزاع أصلاً، لولا قدرة العراق

العسكرية التي أوصلت إيران إلى حافة الانهيار والخميني إلى هاوية اليأس. والمتابعون لملف الحرب وتطوراتها حينما اطلعوا على رسالته التي وجّهها إلى الشعب الإيراني والرأي العام العالمي، والتي تنمّ عن إحساس مريع بالإحباط والقنوط مما آلت إليه الحرب من نتائج كارثية على إيران نفسها تلمّسوا هذه الحقيقة عن كثب، ولو أنّه كان على يقين بأية نسبة من قدرة إيران على المطاولة في الحرب لما أقام للرأي العام وزناً، فهو من نمط الزعماء الذين يعطون أنفسهم حقاً في سَوْقِ الناس جميع الناس في بلده أو في أي بلد آخر إلى ساحات الموت، من دون أنّ يرف له جفن، من أجل أنْ يحقّقوا له حلماً مستحيلاً أو صعباً، فالرجل والحق يقال كوّن حول نفسه فريقاً يردّد ما يقول حتى إذا كان الشيء ونقيضه في غضون دقائق وبدؤوا النفخ في صورته حتى شعر أنه عظيم زمانه وأزمان من سبقه ومن يأتي من بعده، فهو الإمام المعصوم الثالث عشر فيما كان يريد أنْ يكرّس من قناعات في الشارع الإيراني، ويمكن الاستدلال على ذلك من ملاحظة عابرة كانت تمر كل يوم في إيران، فمن المتعارف عليه في إيران الخميني، أنّ الجمهور حينما يذكر اسم الرسول الكريم محمّد (ﷺ)، فإنهم يصلّون على النبي مرة واحدة ويسكتون، أما إذا ذكر اسم الخميني فإنّ الحشد يضجّ بثلاث صلوات متتالية، وكان الخميني يعرف ذلك ويسكت عنه بمعنى أنّه يجيزه، صحيح أنّ الصلاة هي على النبي وآله، إلا أنّ الرمزية في اختصاص الخميني بثلاث صلوات يعطيها معنى التبجيل للخميني بدرجة أكبر من سواه، بما في ذلك الرسول الكريم، وهذا ما صنع منه نصف إله في مجتمع يفقد القدرة على التحرّر من الأوهام والأساطير، وحينما اضطر الخميني إلى الموافقة على قرار وقف إطلاق النار، فقد وجّه رسالة طويلة جداً إلى

الشعب الإيراني تعّرض فيها لقضايا كثيرة جداً، لعلَّ أهمها ما يرتبط بقضايا العقيدة الدينية التي يحاول تكريسها في إيران، وأقلها تماماً موضوع تلك الموافقة، التي جاءت بلغة بلاغية حقّاً، قال فيها: «فتعساً لحالي إذ لا زلت حياً حتى اضطررت للموافقة على قرار وقف إطلاق النار وكأنني أتجرع كأس السم»، هي رسالة طويلة كما هو شأن ما يدونه رجال الدين الذين حولتهم المصادفة إلى زعماء لدول وشعوب، وركّز فيها على الحديث عن موضوعات لا علاقة لها بالحرب، بل أعطى جهده لأمور أخرى من قبيل قضية المواجهات التي حصلت في مكة المكرمة قبل عام من توجيه رسالته، وحاول أنْ يعالج أزمة فرضت نفسها على الشارع الإيراني نتيجة الهزيمة التي لحقت بإيران في الحرب، ولماذا لم يقف المهدي المنتظر إلى جانب إيران في حربها، خاصة وأنّ الإعلام الإيراني كان يحاول أنْ يدخل في روع المواطن الإيراني البسيط أنّ المهدي المنتظر والذي يراقب الأحداث عن قرب، وظلَّ الخطاب السياسي والإعلامي الإيراني طيلة زمن الحرب يركّز على أنّه يقاتل مع الجنود الإيرانيين أو يمدهم بالعزيمة والتسديد، ولطالما أظهر الإعلام الإيراني صوراً مموهة للمهدي مرتدياً الملابس البيضاء، ممتطياً جواده الأشهب، وشاهراً سيفه، ويقاتل في كل الجبهات في وقت واحد، ولمّا خسرت إيران الحرب كان لا بدّ للخميني من أنْ يبرر عدم وقوف المهدي إلى جانب القوات الإيرانية في حرب الملة ضد أعدائها، فقد اهتزت قناعات الناس بوقوف المهدي إلى جانب الإيرانيين في حربهم، بل ذهب كثيرون منهم إلى التشكيك بمصداقية وجود المهدي أصلاً، أو بعدالة الحرب التي أصروا على مواصلتها ضدّ العراق، وراهنوا فيها على المدد الغيبي الذي يؤدي فيه المهدي المنتظر الدور الأكبر في جلب النصر لهم، وكم كنت

حريصاً على الحصول على هذه الرسالة بعد عودتي من الأسر، ولكنّ ظروف العراق الصعبة قبيل العدوان وانشغالاتي الكثيرة في ترميم أوضاعي الخاصة، لم تتح لي الفرصة للبحث عن تلك الوثيقة ولا وصية الخميني لأجهزة الدولة الإيرانية، بكيفية التعامل مع الأسرى العراقيين، والتي قيل الكثير عن مضامينها القبيحة والدموية، وكان الخميني صادقاً هذه المرة في ما قاله عن تجرع السّم إذ إنّه كان قد مات وبمرض في جهازه الهضمي بالذات، بعد أقل من سنة على تلك الموافقة الصاغرة وظهر على شاشة التلفزيون الإيراني وقد خارت قواه وفقد القدرة على معالجة تأثير السم المعنوي على جسده، وأخيراً عثرت عليها في كراس قديم على أحد أرصفة الكتب القديمة في دمشق، وهي تحت عنوان **خطاب إمام الأمة إلى الضمائر الحية**، وسأثبت نصها كاملاً في ملحق الوثائق في الصفحات الأخيرة من الكتاب كي يطّلع عليها العراقيون الذين لم يعايشوا حقبة الحرب، وكي تبقى ماثلة أمام المهتمّين بملف الحرب العراقية الإيرانية.

لقد ساح الخميني في رسالته وذهب في قفار بعيدة كحاطب ليل، وأبحر في محيطات أبعد من دون بوصلة، وكأنّه يريد أنْ يصرف انتباه المواطن الإيراني الذي دفع ثمناً باهظاً جرّاء عناده شخصياً حينما أصرّ على صمّ أذنيه عن كل الدعوات لوقف الحرب، فكان يقول: «لن أوقف الحرب إلا بسقوط صدام حسين»، هذه الرسالة المملوءة بالحشو الكاذب والمخادع ومحاولة تخدير أبناء الشعب الإيراني بالشعارات الدينية، والتكرار الممل، ركّزت على قضايا كثيرة لا صلة لها بأهمّ مواضيعها، وهو موافقته على قرار مجلس الأمن الدولي المرقم ٥٩٨، لأنّ الخميني كان يجتر مناسبات وأفكاراً اعتقد أنّها قادرة على تركيز انتباه المواطن

الإيراني نحو زاوية أخرى، هذا المواطن الذي سيلج بالسؤال: «لماذا دفعنا كل هذا الثمن من دماء أبنائنا ومن أموالنا في حرب كنّا نعرف سلفاً أنّنا لن نكسبها؟ ثم قررت أنت وحدك المضي بالحرب من دون نتيجة، ولأنّك لم تذهب إلى ساحاتها ولم ترسل أحداً من أبنائك أو أفراد أسرتك، فقد كنت على استعداد للقتال إلى الأبد، وحينما بدأت الصواريخ العراقية تقترب من حسينية جمران، عرفت حينذاك فقط هول نيران الخطوط الأمامية فبدأت التراجع المقترن بكأس السم» وبعد كل هذا السم يقول للإيرانيين: احفظوا حقدكم في صدوركم! فهل يتصرف من يحرص على شعبه على هذا النحو، وإلا فهل يصدّق عاقل أنّ حادثة وقعت قبل عام وسقط فيها بضع عشرات من الإيرانيين الذين حاولوا إثارة الشغب في موسم الحج تستحق إفراد هذا القدر من الاهتمام في هذه الرسالة المملة حد الاختناق؟ في حين أنّ حرباً طاحنة كانت ما تزال مستمرة منذ ثمانية أعوام، وحصدت من الإيرانيين مئات الآلاف، يمرّ عليها هذا المرور العاجل ومن دون اكتراث لآلام الملايين من أبناء الشعب الإيراني، إنّه الاستغفال التام لعقول الإيرانيين والاستهانة بدمائهم وأموالهم. الخميني الذي يزعم أنّه وجد مصلحة في الموافقة على القرار الدولي نسي أنّه هو الذي قال بعد معارك المحمرة عام ١٩٨٢: «إنّ صدام ميت وحتى لو جاء عيسى الحي فلن ينقذه أو يحييه أبداً»، بهذه العقلية الساذجة والمناورة والدموية حكم الخميني إيران، وما يزال نهجه قائماً حتى يومنا ويسعى ورثته لتحقيق أهدافه ذاتها وإنْ كان البعض يحاول تغيير الأساليب أو التحرر من ذلك الإرث الثقيل، ولكن الرسالة تبقى مؤشراً على نهج بدائي في التعامل مع قضايا الشعب الحيوية.

لقد كان مفهوماً لماذا حمل الخميني كل هذا الغضب الجارف

والحقد على المملكة العربية السعودية، والذي حاول مداراته بالتجمل بالصبر، لقد راهن على انتزاع بيعة معلنة من المسلمين الذين جاؤوا إلى الديار المقدسة لتأدية مناسك الحج عام ١٩٨٧، حينما اصطدمت نواياه وخطط أتباعه بقرار السلطات السعودية في اتخاذ القرار الحاسم في منع احتلال بيت الله الحرام من قبل مسيّرين مسلحين مرسلين لهذا الغرض، ولو اضطرت إلى اللجوء إلى القوة استناداً إلى الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١]، وهكذا جاء سلوك السلطات السعودية متطابقاً مع نصوص القرآن الكريم في منع الفتنة، فالحجاج الذين أرسلتهم حكومة الولي الفقيه في طهران إلى الديار المقدسة لم يكن هدفهم إعلاء كلمة الدين بقدر ما كان إعلاء اسم الخميني وفرض نهجه المنحرف على بلاد المسلمين، انطلاقاً من أقدس بقعة عندهم وهي الكعبة المشرفة. وكان الخميني وبعد فشل تلك الخطة بأيام قد تحدث أمام حشد مرتّب من أنصاره، منددأ بمعالجة السلطات السعودية لتلك الفتنة، وأكد حينها أنّه لو قدّر له أنْ ينسى ما سمّاه: «جرائم صدام في الحرب، فإنّه لا يمكن أنْ ينسى جريمة آل سعود في قتل الحجاج الإيرانيين داخل الحرم المكي» ولهذا فقد عقد العزم على إلحاق مكة المكرمة والمدينة المنورة بملكه عندما تحيّن الفرصة المناسبة.

لقد جاءت رسالة الخميني لتحمل بين سطورها يأساً من جانب الخميني بإمكانية تحقيق النصر في حربه ضدّ العراق، وخاصة بعد عمليات نهر جاسم والتي كسرت العمود الفقري للقوات الإيرانية، وما أعقبها من إخفاق إيراني مدوٍّ في عمليات الجنوب، التي كان يراد منها احتلال البصرة وفرض الأمر الواقع على العراقيين، نتائج تلك المعارك أدت إلى عودة المبادأة إلى القوات العراقية، والتي

حققت انتصارات متلاحقة على طول جبهات الحرب والتي انتهت في نهاية المطاف برضوخ الخميني وتجرّعه كأس السم.

المهم تقول وثيقة صادرة عن مجلس الأمن بأنَّ القرار ٦١٩: إنّه وفي الجلسة ٢٨٢٣ والمعقودة في ٨ آب/أغسطس ١٩٨٨، ناقش المجلس البند المعنون «الحالة بين إيران والعراق»، وفي الجلسة ذاتها دعا الرئيس باسم المجلس ممثل جمهورية إيران الإسلامية ليحتل مكاناً إلى طاولة المجلس وفي الجلسة ذاتها دعا الرئيس باسم المجلس ممثل العراق ليحتل مكاناً إلى طاولة المجلس، وفي الجلسة ذاتها أدلى الأمين العام بالبيان الآتي:

«إنّ أعضاء مجلس الأمن على علم بأنّني قمت خلال الأسبوعين الماضيين بنشاط دبلوماسي كثيف يهدف إلى التوصل إلى تنفيذ قرار المجلس ٥٩٨ لعام ١٩٨٧ المؤرخ في ٢٠ تموز/يوليو ١٩٨٧، ونتيجة لتلك الجهود وممارسة للولاية التي عهد بها المجلس إليّ، فإنّني أطلب الآن إلى جمهورية إيران الإسلامية والعراق أنْ تنفذّا وقف إطلاق النار وأنْ توقفا جميع الأعمال العسكرية في البر والبحر والجو، بدءاً من الساعة ٣ بتوقيت غرينتش يوم ٢٠ آب/أغسطس ١٩٨٨، وقد أكّد لي طرفا النزاع أنّهما سينفذان وقف إطلاق النار على هذا النحو في إطار التنفيذ الكامل للقرار ٥٩٨ لعام ١٩٨٧، كما أنّ حكومتَي جمهورية إيران الإسلامية والعراق قد وافقتا على توزيع مراقبين تابعين للأمم المتحدة في الوقت والتاريخ المحددين لوقف إطلاق النار، وسأوجه إلى جمهورية إيران الإسلامية وإلى العراق دعوة رسمية لإيفاد ممثليهما إلى جنيف في ٢٥ آب/أغسطس لإجراء محادثات مباشرة تحت رعايتي، وأنا بصدد إرسال رسالتين بهذا الخصوص إلى الطرفين، وفي التاريخ المحدد لوقف إطلاق النار سأؤكد أنني بصدد

الاضطلاع بالأعمال التحضيرية اللازمة الرامية إلى تنفيذ الولاية المسندة إلي بموجب فقرات القرار ٥٩٨ لعام ١٩٨٧، لا سيما الفقرات ٤، ٦، ٧، ٨، وإني ألاحظ أنّ النشاط العسكري قد انخفض في الأيام القليلة الماضية، غير أني أود بهذه المناسبة أنْ أناشد جميع الأطراف المعنية، كأقوى ما تكون المناشدة، أنْ يمارسوا أكبر قدر من ضبط النفس وأنْ يمتنعوا من الآن فصاعداً عن القيام بأي عمل عدائي في البر أو البحر أو الجو في الفترة السابقة على بدء سريان وقف إطلاق النار، وأود أنْ أعرب عن بالغ تقديري للجهود التي بذلها الطرفان وأعضاء المجلس وغيرهم خلال الأسابيع الماضية، وإني لواثق من أنّه سيكون بإمكاني أنْ أعوّل على استمرار التعاون من جانب ممثلي جمهورية إيران الإسلامية والعراق عندما نجتمع في جنيف، وإنّ استتباب السلم من جديد سيتيح لشعبَي البلدَيْن كليهما إحراز انتصارات أعظم بكثير من الانتصارات الحربية».

وفي الجلسة ذاتها أدلى رئيس المجلس لذلك الشهر بالبيان الآتي:

«بعد مشاورات أجراها المجلس أذن لي بالإدلاء بالبيان التالي: يرحب مجلس الأمن بالبيان الذي أدلى به الأمين العام لتوه فيما يتعلق بتنفيذ قرار المجلس ٥٩٨ لعام ١٩٨٧، والمؤرخ في ٢٠ تموز/يوليو ١٩٨٧، بشأن النزاع بين جمهورية إيران الإسلامية والعراق، ويؤيد المجلس ما أعلنه الأمين العام من أنّ وقف إطلاق النار الذي طولب به في هذا القرار سوف يصبح ساري المفعول في الساعة ٣ بتوقيت غرينتش من يوم ٢٠ آب/أغسطس ١٩٨٨، وأنّ محادثات مباشرة ستبدأ بين الطرفين تحت رعايته في ٢٥ آب/ أغسطس، ويؤيد المجلس أيضاً النداء الذي وجهه الأمين العام إلى

كلا الطرفين بممارسة أكبر قدر من ضبط النفس ويتوقع منهما الامتناع عن جميع الأنشطة العدائية في الفترة السابقة على بدء سريان وقف إطلاق النار، ويكرّر المجلس تصميمه على تنفيذ قراره ٥٩٨ لعام ١٩٨٧ تنفيذاً كاملاً بوصفه كلاً لا يتجزأ، ويؤكد من جديد كامل مساندته للجهود المتواصلة التي يبذلها الأمين العام لبلوغ هذه الغاية».

«وفي الجلسة ٢٨٢٤، المعقودة في ٩ آب/أغسطس ١٩٨٨، ناقش المجلس البند المعَنون «الحالة بين إيران والعراق» تقرير الأمين العام بشأن تنفيذ الفقرة ٢ من قرار مجلس الأمن ٥٩٨ لعام ١٩٨٧، وفي الجلسة ذاتها دعا الرئيس باسم المجلس ممثل جمهورية إيران الإسلامية ليحتل مكاناً إلى طاولة المجلس، وفي الجلسة ذاتها دعا الرئيس باسم المجلس ممثل العراق ليحتل مكاناً إلى طاولة المجلس».

وهكذا ولد القرار ٦١٩ والمؤرخ في ٩ آب/أغسطس ١٩٨٨.

ويمكن أنْ نلاحظ أنّ مجلس الأمن كان متعجّلاً جداً في عقد جلسته هذه، إذ لم يمر أسبوع على بدء سريان وقف إطلاق النار بين البلدين، بعد حرب اكتنفتها تعقيدات شتى، وأخذت زمناً طويلاً جداً، بسبب إصرار إيران على أنْ يحقق لها المجتمع الدولي، ما عجزت عن تحقيقه في ساحة القتال، على حين أنّ مجلس الأمن نفسه كان قد تجاهل هذه الحرب سنين طويلة حتى سمّاها المراقبون بالحرب المنسية، فكيف تحرك في كل هذا النشاط ليصدر ثلاثة قرارات في غضون شهر واحد؟

وكان موضوع استخدام الأسلحة الكيميائية من بين الموضوعات التي ظلت إيران تصر على إدراجها على لائحة طلباتها

التعجيزية، كما أنّ هذا الموضوع كان من بين المسائل التي دخلت عليها ملابسات كثيرة، وخاصة ما يتصل بمدينة حلبجة، فوكالة المخابرات المركزية الأمريكية أكدت أنّ نوعية الغازات المستعملة كانت من عوامل السيانيد، وهو ما لم يكن العراق يمتلكه في أي وقت من الأوقات، وحينما يشير القرار بصراحة إلى أنّ «هذا الاستعمال ضد الإيرانيين ازداد شدة وتوتراً»، إنّما يمارس دوراً تحريضياً ضد العراق، الهدف منه خلق المزيد من التوتر بين البلدين نتيجة إحساس إيران بوهج هذا النصر السياسي، وعلى العموم فإنّ إيران ما كانت لتقدر على غير ما قدرت عليه في حرب الثماني سنوات، ولكنْ هل تبرع أحد من أعضاء مجلس الأمن ليسأل نفسه: هل استخدم العراق فعلاً الأسلحة المحظورة في الاتفاقيات الدولية؟ وإذا كان استخدمها حقّاً فهل تمّ ذلك داخل أراضيه التي احتلها جيش معادٍ يريد ضمّها إلى أراضيه؟ قد لا أكون متجاوزاً الواقع حينما أقول: إنّ من حق أية دولة في العالم أنْ تستخدم أسلحة الردع الاستراتيجي لدرء الأخطار الخارجية المحدقة بها والتي تستهدف استقلالها وسيادتها ووحدة أراضيها، وخاصة كنوع النوايا الإيرانية تجاه العراق ومنطقة الخليج العربي، شرط وقوع الاستخدام داخل أراضي الدولة التي تضطر إلى استخدام هذا النوع من الأسلحة ضدّ القوات الغازية، مع الصعوبات الفنية التي قد ترافق عمليات التحقق من مواضع استخدامها، وإلا فإنّ الكثير من الدول التي تمتلك عمقاً استراتيجياً وثقلاً سكانياً وإحساساً بعناصر القوة والتفوق ستتنفس داخل الأقاليم المجاورة كلما أرادت التوسع على حساب جيرانها، وأمثلة التاريخ القريب والبعيد شاهدة على أنّ إيران كانت على الدوام تتمدد على حساب الأراضي العراقية والتي ما تزال عشرات الآلاف من الكيلومترات مستلبة، ويراد استلاب

المزيد، وماذا يتوقع من يدفع بمئات الآلاف من المغفلين والسذج من البسيج وحرس الثورة أنْ يحصل لهم وهم يتقدمون داخل أراضي الغير، هل تتوقع أنْ يتم استقبالهم بالورود؟

ثم هل نسي العالم أنّ الولايات المتحدة كانت أول دولة في العالم استخدمت السلاح الذري وخارج أراضيها؟ وهل حقق مجلس الأمن الدولي أو أية منظمة حقوقية في ما استخدمته الولايات المتحدة من أسلحة كيميائية أو بيولوجية في حروبها في كوريا والهند الصينية وخاصة سلاح اليورانيوم المنضّب في العراق؟ وكذلك ما تفعله إسرائيل في حروبها ضدّ الدول العربية واستخدام الأسلحة المحرّمة دولياً، أم أنّ منطق الأقوياء الذين يحقّ لهم كل شيء، والضعفاء الذين يحرّم عليهم كل شيء؟

المهم نعود إلى أوضاعنا في المعسكر، كان الجنود الإيرانيون وعلى الرغم من كل القيود والرقابة المتبادلة المفروضة عليهم، وتعدّد أشكال الرقابة المتبادلة بينهم جميعاً، فإنّ بعضهم كان على استعداد للتعاون في كثير من الأمور وخاصة ما يدرُّ عليهم مردوداً مالياً، كان ذلك لافتاً لنظرنا ولا بد من أنّه يؤشر على تحوّلٍ عندهم، هل هي النفس الإنسانية المجبولة على الخير والتي لا يلوّثها إلا الموقف السياسي والأوامر الصارمة ببث الرعب في النفوس أم هو فخ منصوب لنا لجرّنا إلى طلب شيء ما من جندي إيراني فيذهب للتبليغ عنّا من أجل الحصول على ما يسميه الإيرانيون «تشويق» أي تكريم أو تلطيف كإجازة يقضيها بين أهله ويتخلّص من مخاطر الجبهة وويلاتها؟ ولم يدُر بخلد أحدنا أنّ شيئاً جديداً وضع حداً لمخاوف الجنود من الذهاب إلى جبهات القتال، فتلك الجبهات كانت كما علمنا فيما بعد قد هدأت مدافعها، وبردت بنادقها، ومن كان يموت فيها كان يموت في أجله، ولم

يعد من الذين يحتفى بهم في مسيرات جماعية في مختلف المدن الإيرانية بهدف إذكاء روح الكراهية في الشارع الإيراني ضدّ العراق.

أطلّ يوم ١٤ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٨٨، وكنّا قد علمنا من الأسرى المتأخرين أنّ هذا اليوم أصبح من المناسبات التي يحتفل بها العراقيون، ويجدّدون البيعة فيها للرئيس صدام حسين. ومختصر القضية أنّ الخميني وفي إحدى خطبه في حسينية جمران كان قد زعم أنّه يمثل شيعة العراق، فرد الرئيس صدام حسين على ذلك بالدعوة إلى عقد استفتاء لمعرفة موقف العراقيين، فكان أنْ خرجت مدينة الثورة في تظاهرات حاشدة تعلن ولاءها للرئيس صدّام حسين، وانتقلت التظاهرات إلى كل مدن العراق وخاصة المدن ذات الأغلبية الشيعية، مؤكدة بيعتها الراسخة للرئيس، وأصبح ذلك تقليداً سنوياً في العراق.

كان معظمنا ينظر إلى صدّام حسين على أنّه رمز لصمودنا وإرادة وطننا، بل إنّ البعض ممن كان لا يحمل للرئيس صدام هذه المشاعر في العراق كان يجاهر بها أمام الإيرانيين، ويتلقّى بسبب ذلك الكثير من الأذى، وأذكر مرة أنّ شيوعياً كان قد استدعي للتحقيق بتهمة ولائه للرئيس صدّام حسين، فرد عليهم قائلاً: «ولمن تريدون أنْ أعطي ولائي؟ نعم أنا أحب صدام حسين»، ولهذا فقد أجمع الأسرى الوطنيون جميعاً بمن فيهم غير البعثيين على أنّ إحياء هذه المناسبة يعتبر موقفاً وطنياً يشارك فيه الجميع، جمعنا السكر ومستلزمات المناسبة مما نملك، وانطلق الحفل بكلمة للحزب، بعث بها السيد سالم الوهب وألقاها السيد عبد الأمير مهدي «أبو لينة» والذي تحوّل منذ ذلك اليوم إلى عريف لكل احتفالاتنا لأنّه مقتدر من حيث إمكانية الخطابة، فضلاً عن كونه يحمل درجة رفيق

حزبي، وكان وطنياً قاوم الضغوط التي تعرض لها في المعسكرات السابقة، وكان قد جاء إلى سنك بست منقولاً من معسكر سمنان الصحراوي وجاء إلى قاطعنا بعد نقلنا إلى مازدوان، وبعد كلمة الحزب توالت الفعاليات الأخرى؛ إذ ألقى الشاعر المقتدر والذي تفتقت مقدرته الشعرية في الأسر، النقيب الشهيد جمال أدهم الحمداني - والذي استشهد في أثناء تصديه لإنزال جوي نفذته القوات الأمريكية المحمولة جواً في أواخر آذار/مارس ٢٠٠٣، والحمداني من أبناء مدينة الصينية التابعة لقضاء بيجي - قصيدة لاقت تجاوباً عالياً، وحقاً كانت قصيدة مملوءة بالمشاعر والأحاسيس الوطنية الجياشة والولاء للوطن والرئيس صدام حسين، وكان النقيب جمال الحمداني يتحفنا هو والملازم ناظم غازي في المناسبات الوطنية بقصائد لا يتوقع سامعها أنّ شاعرها نبغ في محنة الأسر فصقلت موهبته وألهبت روحه الشعرية، كما كان النقيب عبد الرضا جاسم الياسري يتحفنا بقصائده من الشعر الشعبي وكم كان حيوياً لو أنّنا تمكنّا من جمع شعر الأسر وآدابه الأخرى ولو فعلنا لأتحفنا الشعر العراقي بتجربة لها خصوصيتها وأجواؤها.

وتواصلت حياتنا في معسكرنا الجديد برتابة ومن دون مفاجآت وإنْ عكّرتها بعض المنغّصات الصغيرة. وخلال هذه المدة تسلّم واجبات الحراسة الداخلية جندي إيراني من إقليم بلوشستان، اسمه علّاوي وكان يتصرف بطريقة توحي وكأنّه من عالم آخر لا صلة له بإيران، كان منفتحاً علينا بشكل دفعنا إلى حذر مضاعف، كان يغنّي معظم الوقت وبصوت عالٍ جداً، وكان يعرض علينا جلب ما نريد وخاصة جهاز الراديو، ولما انتهت نوبته في الحراسة يومذاك، اندلع نقاش ساخن بيننا، منّا من اقترح الموافقة فوراً على العرض، ومنّا من رفض العرض فوراً فنحن ضحايا الكمائن الشريرة التي كان

ضباط الاستخبارات ينصبونها لنا، وهناك من ارتأى التعامل مع هذا العرض بحكمة، خاصة وأنّنا مقطوعون عن العالم منذ سنين طويلة، كان علّاوي يعرف هواجسنا ولهذا حاول أنْ يعطينا من العهود الغليظة ما يطمئن قلوبنا، ومن أجل ذلك تطوّع لجلب بعض الحاجيات الصغيرة مثل أمواس الحلاقة ومرايا صغيرة ومقصّات، كان يخفيها بطريقة تدعونا أحياناً إلى مزيد من الشكّ بأنّه يريد الإيقاع بنا، ومضت أسابيع وهو يكرر الطلب بأنْ نعطيه ما نمتلك من قطع ذهبية لشراء الراديو، إذن هو مكلّف بمعرفة ما إذا كان بعضنا ما زال يمتلك قطعاً ذهبية أو لا، نعم هناك من يمتلك بعضها مثل خاتم الزواج وهو يعتزّ به، وهناك من يمتلك مصوغة على هيئة مصحف مع سلسلة من الذهب أعطيت له من أمّه أو زوجته كحرز لحمايته من الأخطار، فكان اعتزازه بها مضاعفاً، وتفنّن الأسرى في إخفاء مقتنياتهم وخاصة في الصابون بعد حفر مكمن لقطعة الذهب فيها ثم استخدامها مرة أو مرتين كي تضيع آثار الحفر ثم يحتفظ بها حتى لو انقطع الصابون لمدة طويلة، ولهذا فقد عاد بعضهم إلى العراق وهو يحمل معه ما استطاع أنْ يخفيه سنين طويلة، وتحدّث علّاوي بثقة عن نهاية الحرب والاتصالات الجارية بين البلدين لتبادل الأسرى، سلّم بعضنا بالأمر ولكنّ الشكوك ما تزال تساور الكثيرين، سلوك الإيرانيين معنا فيه تبدّل بسيط ومتدرّج، ولكنْ من أجل الحفاظ على الانضباط في معسكرات الأسرى كان الإيرانيون يعاودون الضغط بقسوة ووحشية، لمجرد إثبات أنّنا ما نزال أسرى عندهم، وأنّهم قادرون على تحديد نمط المعاملة التي يريدون، ولكنْ لماذا يتمّ نقلنا إلى هذا المنفى إذا كانت الحرب قد وضعت أوزارها؟ وهل يسعون لإخفائنا كما فعلوا في المرة السابقة؟ هذه الأسئلة كانت تتزاحم أمامنا من دون

جواب، ما عدا ما يتسرب إلينا من كلمة من هنا وكلمة من بعيد أو إشارة يفسّرها المتفائلون على وفق ما جبلوا عليه، وبالتالي تقودنا هذه الأسئلة إلى إسقاط فرضية أنّ الحرب انتهت، ونعود إلى الظن بأنّ تحسن المعاملة عائد إلى الخشية من أنْ ينفّذ بعض الأسرى عمليات هروب يمكن أنْ تكون سبباً بفقدان أمر المعسكر لوظيفته أو حتى رتبته.

ومع حلول يوم الشهيد في الأول من كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٨٨، وهو اليوم الذي أعدم فيه الإيرانيون أكثر من١٦٠٠ أسير عراقي في منطقة البسيتين في ١/١٢/١٩٨١ بعد توثيق أيديهم إلى الخلف، وأمر المعمّمون جنودهم بفتح النار على هؤلاء الأسرى. البسيتين التي يطلق عليها الإيرانيون اسم بستان، وهي من مدن إقليم الأحواز الذي احتلته إيران وضمته إليها في عهد رضا خان والد الشاه محمد رضا بهلوي، كنّا قد استكملنا طرق إرسال البريد واستلامه مع السيد سالم الوهب، وفي كل مناسبة كانت تصل إلينا كلمة موحدة، وتذهب إلى بقية القواطع ونسمّيها كلمة الحزب، كان قاطعنا قد استعد لهذه المناسبة كون اليوم يرتبط بقتل الأسرى بدم بارد بعد أنْ سقط السلاح من أيديهم، وبوحشية لا يمكن افتراضها عند الحيوانات المتوحشة، فكيف يتأتى لرجل يضع فوق رأسه عمامة، ويتحدث عن الإسلام وتسامحه أنْ يقتل جنوداً تمّ أسرهم وتجريدهم من أسلحتهم، ومعظمهم من المسلمين ومن الشيعة، وكأنّ الجريمة هذه كانت رسالة إلى شيعة العراق بأنّهم مطلوبون وبدرجة متقدمة، لأنّ وحدة المذهب توجب عليهم الامتناع عن مقاتلة شيعة إيران، بل دولة الشيعة الوحيدة في العالم، وصلت الرسالة إلى العراقيين الذين لم يتعاملوا مع الحرب على أنّها حرب طوائف، بل حرب وطن تراد مصادرته، ضدّ بلد لم يُخفِ أبداً نية

الزحف غرباً، وكأنّ العراق هو جاره الوحيد، كانت جارات إيران الشمالية جزءاً من الاتحاد السوفياتي، وكذلك الحال بالنسبة إلى أفغانستان التي احتلها السوفيات في عام انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وكانت تركيا النموذج العلماني ذا النهايات المدببة في تفسيره المنحرف للعلمانية، ولكنّ الخميني تجاهل كل تلك الحقائق وركّز نظره بكل ما يستطيع على العراق فقط، حتى كان هذا النمط من السلوك مثيراً لتساؤلات بقيت حائرة من دون جواب، كان بعض الأسرى وقبل وقوعهم في الأسر على ما كانوا يقولون، يشكون في حجم كارثة البسيتين، والبعض الآخر يشكك فيها برمتها ويعتبرها مجرد دعاية سياسية اختلقها الإعلام العراقي لأغراض سياسية، ولكنّهم وبعد أنْ عاشوا في كنف «المعاملة الإسلامية الإيرانية لضيوفها» من أسرى الحرب العراقيين، شعروا بكثير من الألم أنّهم شككوا ببلدهم لحظة واحدة، وخاصة في موضوع الحرب مع إيران.

بعد الساعة العاشرة صباحاً لا يعود ثمة وجود لجنود الحراسات الداخلية بين القواطع، ولهذا كنّا نوقّت أية فعالية وطنية بعد مغادرتهم تجنباً لأية مشكلة مع الجانب الإيراني الذي يتربص لإلحاق الأذى بنا، وحوالى العاشرة والنصف كنّا نتجمع في واحدة من القاعات، ودعا أبو لينا الجميع إلى الوقوف وقراءة سورة الفاتحة على شهداء العراق والأمة العربية، وبعدها ألقى كلمة الحزب التي أرسلها الوهب، وألقيت قصائد لشعراء الأسر بالمناسبة، كانت شهادات تمجّد الرئيس صدام حسين والجيش العراقي، وشهداءه وخاصة من سقط في البسيتين.

في المعسكر الجديد كنّا نتمتع بفرصة التمشّي في الساحة القريبة من قاطعنا، الملحق أصلاً بقاعات كبيرة وضع فيها الجنود

وضبّاط الصف، وهي ساحة مسيّجة بسياج من الأسلاك الشائكة والمتكررة لأكثر من خط، ويبدو أنّهم أعادوا نصبها بعد وقف إطلاق النار، بعد رفعها حينما انتهت استضافتنا في المعسكر في شباط/فبراير ١٩٨٥، وتم ترك فسحة لحركة جنود الحراسات بين كل خطين، أحد الجنود كان يقف بمواجهتنا ويعطي إشارات كثيرة، كنّا نفهم القليل منها، ولكنّنا كنا نشك في مصداقية هؤلاء الجنود، مرة وقف ورفع يده فوق رأسه عدة مرات، ثم أخرج منديلاً أبيض، ثم طوّح بيده كناية عن سقوط شيء وأشار بيده إلى حجم كبير، كرّر هذه الإشارة وحينما كنّا نعطيه إشارة عدم الفهم ونستفسر منه بأيدينا أيضاً أدار وجهه ومضى، حينما دخلنا فسرنا أنّ استدارة اليد عدة مرات فوق الرأس تشير إلى أنّ عمامة بيضاء سقطت، وهي كبيرة، هل هو هاشمي رفسنجاني؟ من يأتي في مخيلة الأسرى غيره؟ واقع الحال أنّا لم نقدّر أنّ العمامة التي سقطت كانت لآية الله العظمى حسين علي منتظري الذي كان الوسيط الدائم في خلافات رفسنجاني وعلي خامنئي، وكان الإعلام يطلق عليه ألقاب أمل الإمام والأمة، ونائب الإمام ووريثه في كرسيه الكبير، على الرغم من أنّ نفوذه بدأ بالتناقص منذ اكتشاف ما سمي بمؤامرة محمد هاشمي، والذي كان يشغل منصب مدير مكتب منتظري، وهو صهره في الوقت نفسه، فقد حاول منتظري أنْ ينشر مظلته فوق رأس هاشمي، ووضع حواجز بينه وبين المحقّقين، ولكنّ الخميني حينما وصلت إلى مسامعه معلومات عن تدخّل منتظري، أصدر توجيهاته بالمضي قدماً في التحقيق: «بالغ من بلغ التحقيق» على حد ما جاء في رسالته الغاضبة، كما هو شأنه في معظم الأحيان، فكانت القشّة التي قصمت ظهر منتظري.

لم يتوقف الجندي عن إرسال الرسائل بالإشارة، بعد مدة أدّى

الحركة نفسها حول رأسه، إذن هي عمامة ولكنّه لم يخرج منديلاً أبيض هذه المرة بل أشّر على حذائه الأسود، وبدلاً من أنْ يؤشر نحو الأرض أشّر إلى السماء بمثل إقلاع طائرة، هذه المرة كانت العقدة أكبر من سابقتها، هل غادر أحد من العمائم السوداء إلى الخارج؟ مثلاً هل ذهب إلى العراق؟ يا له من خيال خصب، بعد أيام خرج بعض زملائنا إلى مضمد المعسكر للحصول على الدواء، قال أحدهم: «رأيت العلم الإيراني منكّساً»، تعالت صيحات: اللهم نكّس علم إيران دوماً، ليست هذه هي القضية، وإنّما معرفة ماذا جرى؟ بعد حوالى أسبوع استدعى الضابط الخفر الإيراني، الملازم الأول وليد عبد الكريم إلى مكتبه، لم يكن هناك سبب ما لأي استدعاء سابق لأي منا، اعتدنا مثل هذه الأمور وكانت ثقتنا عالية بوطنية وليد وبقدرته ومن خلال لغته الفارسية على استدراج الإيرانيين إلى نزع ما في رؤوسهم من معلومات، ولكنّ وليداً تأخر كثيراً هذه المرة، لم يكن طبيعياً أنْ يتأخر من يستدعى، إلا إذا كان تحقيقاً يتخلّله تعذيب بدني، ولكنّ سبباً محدداً لم نتوقع حصوله كي يتعرض وليد بالذات لأمر كهذا، ولا سيّما أنّ الإيرانيين كانوا يراعون وضع الأرشد وما يجب أنْ يتوفر له من احترام كي يتمكن من تأدية عمله بمرونة إلا أنّنا وضعنا في اعتبارنا أسوأ الاحتمالات، وبعد ساعات ظلّت عيوننا معلقة بالنوافذ دخل وليد، أحسسنا أنّه يريد أنْ يحلق بعيداً، كان وجهه يضحك، كل شيء فيه يضحك حتى ملابسه كانت تشاركه فرحة تتقافز أمامه، ماذا حمل لنا من بشارة في هذه العودة الضاحكة؟ لا بد من أنّ العودة إلى الوطن باتت وشيكة جداً، أشار إلى الجميع أنْ يتجمعوا في أكبر غرفة في القاطع، تدافع الجميع فالأمر ينطوي على فرحة كبيرة، تحدث وليد فقال: «أرجو ألا ترفعوا صوتكم حينما أنتهي من

حديثي ـ همس زميلي في أذني: لقد حلت ساعة الفرج ـ استمر وليد في حديثه، قال لي ضابط الخفر: لقد زال كابوس مرعب من فوق رؤوسنا ورؤوسكم، ستعودون إلى بيوتكم قريباً، ادع لي إذا زرت ضريح الحسين، أعتذر عن كل ما بدر مني تجاهكم فأنا مأمور ومراقب، قال وليد للضابط الخفر: هل قلت إننا سنعود؟ قال: قريباً، فقد رحل رجل دين من الرؤوس الكبيرة والتي أدت إلى هذه الكراهية بين بلدينا، فسألته هل مات الخميني؟ قال الضابط: نعم، وقال لنا وليد نهضت إليه وقبلته، وقال: لم أعرف لماذا قلت له: تهانينا ومع ذلك لم يحتجّ الضابط على ملاحظتي» ولم يكد وليد ينهي عبارة مات الخميني إلا وكان قاطعنا يضج في وقت واحد وبأصوات مختلفة كل منّا عبر عن مشاعره بطريقته الخاصة، على الرغم من أنّنا كنا إزاء مشهد موت ولكنّنا كنّا نعرف أنّنا ضحايا الرجل الذي رحل، وكنّا نأمل بأنْ تتغير أحوالنا بعد ذلك، وبعد أنْ هدأت النفوس بدأت التحليلات السياسية عما سيقع في قابل الأيام، وهل نعود قريباً إلى الوطن حيث الأهل والأحبة والذكريات؟

بعد يوم الشهيد مرت ذكرى تأسيس الجيش العراقي وذكرى ثورة ٨ شباط/فبراير وذكرى تأسيس حزب البعث التي تصادف في ٧ نيسان/أبريل، وقد أحييناها جميعاً بحماسة كبيرة وانضباط عال ومن دون أن يشعر الإيرانيون بها، وفي صباح ربيعي جاءتنا رسالة من سالم الوهب تطلب منّا توفير ما نجود به من قطع ذهبية، لأنّ الفرصة باتت مناسبة لشراء راديو وتأمين بطارياته، كان هذا خبراً مريحاً لنا إذ بتنا على وشك أنْ نحقق صلة مع وطننا ونعرف الحقيقة، هل توقفت الحرب أمّ أنّ الطائرات تذهب وتأتي كما كان إسماعيل سباه دوست يكرر أمامنا؟ هل هناك حلي ذهبية؟ وإذا

كانت موجودة هل هناك استعداد للتبرع بها؟ أسئلة جديدة وضعتنا على محك اختبار جديد معسكر فيه أكثر من ٢٥٠٠ أسير ملتصقين بوطنهم، لا بدّ من أنْ يكون بعضهم يمتلك مما نريد قطعة أو أكثر، وبالفعل في قاطعنا تبرع عدد من مالكي القطع الذهبية بما يتوفر لديهم، بعد بضعة أيام كانت نشرة إخبارية كاملة تصل إلينا ويتولى قراءتها أبو لينا. وكم ذهلنا حينما عرفنا عن يقين أنّ وقفاً لإطلاق النار قد بدأ سريان مفعوله عند منتصف ليلة ١٩٨٨/٨/٢٠، وأنّ الموافقة الإيرانية حصلت في ١٩٨٨/٨/٨ بعد أنْ وصلت إيران إلى درجة الزحف على الركب إنْ لم تكن البطون في جبهات الحرب.

ولم يرد ذكر لقضية الأسرى في البيان، ولو أنّنا كنا اطلعنا على نصه في حينها لأصبنا بصدمة قاسية من دون أدنى شكّ، لأنّنا سنعتقد أنّ بلدنا قد تجاهلنا وتجاهل معاناتنا، وهذا قد يرجع إلى البرامج الخاصة بالأسرى الخونة، والتي كان التلفزيون الإيراني الناطق باللغة العربية والموجّه إلى العراق بشكل خاص، والتي كانوا يكيلون فيها الشتائم لوطنهم وقيادتهم، ويبدو أنّ ذلك أدّى ببثّها على مدار ساعات بثه إلى تصور في العراق أنّ الأسرى جميعاً على هذه الشاكلة.

وعلى الرغم من أنّ قرار مجلس الأمن الدولي ٥٩٨ الذي وضعت الحرب أوزارها استناداً إليه قد أشار بوضوح إلى تبادل للأسرى، إلا أنّنا لم نسمع ما يعزز آمالنا بتبادل وشيك، فإيران هي إيران، ومن يظن أنّها قابلة لتغيير أساليبها فهو لا يزال يعيش في عالم آخر، فهي تساوم حتى اللحظة الأخيرة من الزمن المتاح، وتوحي أنّها على وشك إيصال الأزمة إلى حافة الهاوية، ثم تتراجع مع حزمة كبيرة من مزاعم نصر لا وجود له إلا في خيال زعمائها،

لا تعطي شيئاً من دون أنْ ترغَم عليه، ولما كان قرار مجلس الأمن لم يتضمن تدابير عقابية للطرف الذي لا يلتزم بكل بنوده وفي سقف زمني محدد، فعلى العالم أنْ يتعامل مع النموذج الإيراني الأسوأ في العالم، لأنّهم كمن وصفهم الله ﷻ، الذين ﴿يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]: عادت إيران لممارسة لعبتها المفضلة في مماطلة مسجلة باسمها بامتياز، معتبرة ذلك شطارة سياسية ودليلاً على ديناميكية دبلوماسيتها وقدرتها على الإمساك بخيوط اللعبة حتى حافة الهاوية، ثم إيقاف العربة قبل أنْ تتهاوى في أعماق سحيقة، كيف تطلق الأسرى وهم ضمانتها الأكيدة لما تبيته ضدّ العراق؟ ولهذا كان طبيعياً أنْ يبقى الكثير من الأسرى ثمانيَ سنوات في أثناء دوران دولابها، وخمسة عشر عاماً بعد أنْ وضعت أوزارها، كانت الاتصالات بين العراق وإيران شبه مجمّدة، ولم ينجح القليل منها في زحزحة حجارة الأسرى عن مكانها، لم يكن الكثيرُ منّا ليتوقع أنْ تستمر محنتنا أكثر من بضعة أشهر على بدء سريان وقف إطلاق النار، ولما كانت الحرب قد انتهت قبل أنْ نعرف بذلك بحوالى عام من الزمن، فقد قرّرنا استقطاعه من العمر المحسوب، ولهذا بدأت ساعة التوقيت بالدوران منذ اليوم الأول لعلمنا بتوقف الحرب، ولكن من أمن العقاب أساء الأدب، كنّا نجد تجسيده في سلوك إيران في كل مفردة من تحركها السياسي، فقد أيقنت أنّ العالم لم ينظر بارتياح لما حقّق العراق من نصر عسكري ناجز، ولهذا فقد شهدت دبلوماسية الغرف المغلقة، جهوداً محمومة من أجل تفريغ النصر العراقي من مضمونه وقوته ومنع تحويله إلى نصر سياسي مهما كان الثمن، لأنّ البلدين يحتلان مكانة نفطية دولية متقاربة على الصعيد الدولي، ولإيران أرجحية وخصوصية في حزام «الفتن الدينية» الذي حرصت أمريكا على

تطويق الاتحاد السوفياتي به، وهي خطة تم اعتمادها كجزء من مشروع أمريكي كوني لإهارة القطب السوفياتي، وإزاحته عن الخارطة الدولية، خاصة وأنّ الشعار الديني الذي ترفعه إيران الخميني، وعلى الرغم من العداء المعلن بين واشنطن وطهران، فإنّهما أوجدتا قاعدة متينة للتعاون غير المتفق على مفرداته وسط بحر من الكراهية المعلنة، ولم يكن الموقف الإيراني المعلن والمضاد لإسرائيل ليترك كثيراً من الهواجس لدى الأمريكيين والإسرائيليين، فالخطر العراقي المجرّب عملياً في أكثر من حرب عربية إسرائيلية ما كان يدع فرصة للتحوط أمام خطر وهمي كما تحاول إيران أنْ تسوّق لشعاراتها المعادية لإسرائيل، من أجل الحصول على مواقع متقدمة في الشارعين العربي والإسلامي، لأنّ إسرائيل تعي جيداً من أين يأتي الخطر الحقيقي، استناداً إلى حقائق الأرض في تاريخ قريب، وإلى المخزون الموروث من تراث الأجداد الذين بنوْا قواعدهم التربوية على أنّ الخطر قادم من العراق، وأنّ بابل ستعود من جديد لتقوض أركان دولة إسرائيل، كان ذلك أهم دوافع الموازنة القلقة بين الاستراتيجية الأمريكية في الوقوف ضد إيران مرحلياً، بسبب ما تركته عملية احتجاز الدبلوماسيين الأمريكيين في سفارة بلادهم في طهران، وليس لتقاطع في نظرة «ثورة» الخميني تجاه أمريكا، وإنّما بسبب قبول الولايات المتحدة للشاه لاجئاً في أراضيها، وهذا ما أثار سخط الخميني على حكومة الرئيس جيمي كارتر، ومع عداء غربي مستحكم لأي توجه عربي للتلاقي لتفعيل خطة أو برنامج، سواء على مستوى ثنائي أو جماعي، لأنّ خطوة كهذه تمثل وفقاً لحسابات الغرب عموماً، والحسابات الأمريكية خصوصاً، خطراً جدياً مباشراً على منظومة المصالح الاستراتيجية لها معاً، ولهذا

وجدت أمريكا وما تزال تجد في الدور الإيراني بيضة القبان للمحافظة على التوازن الإقليمي في منطقة الشرق الأوسط.

لذلك لم يكن مستغرباً على المهتمين بالشأن السياسي الإقليمي أن تبقى إيران التوأم المدللة للغرب بعد إسرائيل، وكان هذا يجد مصداقيته في الحذر الشديد الذي يميز تعامل الأمم المتحدة وسائر المنظمات والوكالات المتخصصة التابعة لها، وسائر المنظمات الدولية الأخرى في التعاطي مع أية قضية خاصة بإيران، أو أنّ لإيران صلة بها من قريب أو بعيد، وهكذا جاءت قرارات مجلس الأمن الدولي بشأن الحرب العراقية الإيرانية ناعمة الملمس من دون نهايات مدببة، فقد حرصت كل تلك القررات على استخدام أقصى درجات التهذيب والاستجداء، ولم تضع شرطاً جزائياً ضد الطرف الذي سيتمرد على بنودها كلاً أو جزءاً، ولهذا كان طبيعياً أنْ تتفتق الذهنية الإيرانية التدميرية عن وضع آلاف المعرْقلات على أية خطة نظرية أو خطوة تطبيقية للتوصل إلى حلول عملية، وخاصة لمشكلة الأسرى الذين تعرف الأمم المتحدة حجم المأساة التي يعانونها نتيجة عمليات التعذيب المنهجية التي أخضعوا لها طيلة زمن أسرهم: نعم حينما بدأت الأخبار تتدفق علينا ونعرف الدهاليز المظلمة التي كان الإيرانيون يريدون جرّ العراق إليها وابتزازه في قضية الأسرى بالذات والتي ترتبط بهم وبعائلاتهم، مع كل ما يتركه ذلك من انعكاسات اجتماعية وسياسية، يمكن أنْ تطرح شكوكاً عما إذا كان العراق قد حقّق النصر المطروح في الخطاب الإعلامي الرسمي، مع عجزه ميدانياً عن استرداد أبنائه من الظلم الذي يتعرضون له في إيران، بدأ الكثيرون منّا بالاقتناع بأنّ الإيرانيين يحاولون تعويض هزيمتهم في ساحات الحرب، بانتصارات جوفاء في غرف الحوار الذي لم يحدّد له سقف زمني، يصار بعده إلى

فرض عقوبات على الطرف الذي يعرقل تطبيق المعادلة الدولية التي حددها مجلس الأمن بتبادل الأسرى، على حين أنّ إيران كانت تناور على الفقرات الأخرى وتقدم مطالب خرافية وغير مقبولة.

أنْ تكون الحرب في عنفوانها، وأنْ تتعرض المدن للقصف المتبادل، وأنْ يسقط قتلى وأسرى من الجانبين فتلك نتائج أية حرب، ومن يمضي لا يكترث للزمن أو بعبارة أدق لا يؤثر فيه الزمن، بل قد ينحت الزمن في أهله مسالك للنسيان، أما الأسرى فإنهم يتطلّعون إلى الزمن الذي تبرد فيه البنادق وتهدأ المدافع، كي تفتح لهم من ظهر الغيب كوة للأمل بعودة إلى الوطن والأهل والأحبة، ولكنْ أنْ تنتهيَ الحرب وتقضم السنون عمر عشرات الآلاف من الأسرى، فذلك هو جهد البلاء الذي وقع على رؤوس هؤلاء التعساء عبر التاريخ، فتحوّلت حياتهم بعد وقف إطلاق النار إلى محنة متصلة وهمّ مقيم ومأساة تتجوّل بينهم في كل وقت، بل حوّلت أحلامهم إلى مرارة أشدّ، وعانى المرضى آلاماً مروّعة جرّاء ما تنهشه الأيام من أعمارهم، وفارق الحياة مئات من الأسرى لأمراض نتجت من ظروف الأسر، والبعض الآخر توفي نتيجة نوبة قلبية طارئة وحادة، وهذه الحالات كانت تسبّب لنا احتقانات نفسية شديدة وخاصة عند مرضى القلب الآخرين، ولهذا تعاهدنا على عدم إطلاع هؤلاء على أخبار الوفيات عند مرضى القلب، وبدأت أوضاع الأصحّاء تسوء مع الوقت، لقد تجاهلهم الوطن ونسيَهم الأهل، وأغفلتهم المنظمات الإنسانية والحقوقية الدولية، وإيران أغلقت قلبها عن أية خفقة إنسانية، وأغمضت عينيها عن كل خير تزعمه ليل نهار، ومن مفارقات المشهد أنّ إيران حافظت على وتيرة كذب ومغالطة لم يجرؤ على مثلها قراصنة البحر وعصابات الجريمة ومافيات المتاجرة بالدم، إذ حرصت على الزعم بأنّ الأسرى هم

ضيوف مكرّمون على الجمهورية الإسلامية، ولم يعرف التاريخ مضيفاً يصرّ على الاحتفاظ بضيفه، ثم يجوّعه ويذله ويعذبه ويهينه أكثر من ثلاثة وعشرين عاماً بلا انقطاع.

أخذ قطار الزمن يسير ببطء شديد بعد أنْ عرفنا أنّ الحرب قد توقفت، مزاج الأسرى تبدل كثيراً، على الرغم من أنَّ الأمل لم ينقطع بوقوع مفاجأة في أي وقت، ولكنّ شيئاً من ذاك لم يكن ميسوراً في إيران، وإيران بالذات، مرت علينا المناسبات التي أحييناها أواخر عام ١٩٨٨، وكل عام ١٩٨٩ ولكنْ بحماسة أقل، ولم نكن نشأ لنفتعل حماسة مفروضة على الجميع، فالأعصاب مشدودة إلى نهايات أوتارها، وإذا كانت أخبار الوطن حيوية عند البعض، فأخبار العودة إلى الوطن عند البعض الآخر أكثر أهمية، وهذه وطنية مؤكدة وليس من حق أحدٍ أنْ يشكّك بدوافع من يريد العودة إلى أهله، غير أنّ الذهاب إلى الشاطئ الإيراني بذريعة الرغبة في العودة إلى العراق كان يخفي بين ثناياه استعداداً نفسياً وسياسياً للانحياز ضد العراق مهما كانت التفسيرات نزيهة في ظاهرها، وهذا ما أكدته التجربة الطويلة للأسر مع بضعة آلاف ممن أطلق عليهم الإيرانيون اسم «التوابين»؛ إذ تحوّل الكثير من هؤلاء إلى هراوات وسياط بلا رحمة وخناجر مسمومة بإصرار عجيب، في أجساد بقية الأسرى الذين حافظوا على انتمائهم الوطني، ولا أحدَ يعرف سبباً محدداً لاختيار هذا الاسم لخونة الوطن والمبادئ، هل هو استنساخ تجربة ثورة التوّابين في تاريخ الكوفة أم أنّهم اعترفوا بأنهم ارتكبوا من الخطايا والكبائر مما تحتاج إلى توبة كي يستحقوا المغفرة؟ ومن غريب ما سمعنا أن بعضاً ممن انضم إلى هذه القافلة الرديئة الصيت والسمعة والسلوك قد تمّ تزويجهم بما يطلق عليه في إيران اسم التائبات من عاهرات طهران.

كانت الأخبار تصلنا تباعاً وبنشرة يومية مكتوبة وعبر القواطع الأخرى، وعلى الرغم من إعادة تحريرها وتوظيفها على نحو يخلو من المهنية والحرفية، وعلى الرغم من التدخل في نصوص الكثير من مفاصلها الأساسية، فإنّها كانت ذات قيمة عالية تماماً، خاصة لمن كان يستطيع قراءة ما بين السطور، كانت النشرة تضعنا في قلب أحداث العراق وخاصة ما يرتبط بقضية الأسرى، واليوم الذي لا يصلنا شيء عن موضوع الأسرى تخيّم على قاطعنا كما هو شأن بقية قواطع المعسكر أجواء مشحونة بالتأزم والقلق وترقّب القادم من الأحداث، ووصلنا خبر مقتضب عن قرار جديد لمجلس الأمن الدولي برقم ٦٥١ وبتاريخ ٢٩ آذار/مارس ١٩٩٠، وأزعجنا كثيراً أنّ القرار لم يشر صراحة إلى موضوع تبادل الأسرى، وهنا تجسّدت أمامنا صورة الخلل الفادح الذي اعترى القرار ٥٩٨ لمجلس الأمن والذي لم يهدّد بفرض عقوبات محددة على الطرف الذي يمتنع عن التنفيذ الحرفي لبنوده، كما همّنا كثيراً أنّ بلدنا لم يتابع هذا الملف بصورة مستمرة، وفي قراءة لاحقة لنصوص القرار ٦٥١ نلاحظ إغفال قضية الأسرى تماماً.

كان طبيعياً أنْ يترك القرار آنف الذكر مشاعر غاضبة عندنا اعتقاداً منّا أنّ التعامل مع الإيرانيين يتطلب تعايشاً معهم إنْ لم يكن أسيراً فشيء قريب من الأسر، إنّ افتراض الوضوح من الجانب الإيراني يعد ضرباً من السذاجة والخيال أو الغفلة السياسية، ما كان يجوز أنْ يبقى لها أثر في العراق، لأنّه أكثر بلد عانى ويلات الخبث والتحايل على النصوص والتأويل في التفسيرات الواردة في الاتفاقيات المكتوبة والموقعة بين البلدين، مما يستمدّ أصوله من تبرير للكذب على الغير ومنحه صفة الشرعية الدينية، بفتوى من معمّمي إيران، والذين يحسبون ذلك إتقاناً لقواعد العمل السياسي

والدبلوماسي، لذلك كانت آلامنا مركبة من أنّنا ضحايا مباشرون لما اعتبرناه حسن نية بلدنا.

في هذه الأثناء ضرب زلزال مدمر إيران، وامتدّ الدمار من منطقة قزوين التي كانت مركز الزلزال إلى عدة محافظات فأوْقع عشرات الآلاف من القتلى ومئات الآلاف من المصابين والمشرّدين، وخلّف دماراً غير مسبوق في بلد خرج لتوه من حرب أصرّ على عدم إنهائها حالماً بنصر مستحيل. كان من بين المدن التي طالها الزلزال مدينة منجيل، وفيها معسكر كبير للأسرى العراقيين، وكانت الكارثة قد أتت على كل مبانيها ما عدا معسكر الأسرى الذي تعرض لشرخ بسيط لأحد جدرانه من دون أنْ يؤثر في أي من الأسرى، ومن مفارقات الحدث أنّ الشيخ هاشمي رفسنجاني حينما زار منطقة الكارثة واطلع على معسكر الأسرى قائماً من دون خدش، وسأل عن هذا البناء الصامد وأجيب بأنه معسكر للأسرى، أمر بنقل الأسرى على جناح السرعة وتهديم البناء لبنائه مجدداً، لأنّ الشعب الإيراني إذا عرف حجم الكارثة وصمود هذا البناء وحده، فإنّه وضمن الجو العاطفي الذي يحيط بتقاليده تاريخياً ومع تداعيات الصورة القائمة، فإنّه سيتخذها مزارا دون أدنى شكّ، فعلاً تم نقل الأسرى اعتقاداً بأنّهم يمتلكون كرامات عند الله ﷻ، ما استوجب إخفاء معالمها قبل أنْ تصعب السيطرة على نتائجها، فلم يكن قرار النقل إذن نابعاً من مشاعر إنسانية أو ضوابط أخلاقية، أو من التزام بقواعد القانون الدولي واتفاقية جنيف المنظمة لمسألة أسرى الحرب، وسما العراق فوق الجرح وبعث الرئيس صدام حسين رسالة مواساة للزعامة الإيرانية بهذا المصاب. كان هاشمي رفسنجاني قد شغل منصب رئاسة الجمهورية بعد موت الخميني واستبعاد حسين علي منتظري من موقع الزعامة

الدينية (ولاية الفقيه) في إيران، ووضعه تحت الإقامة الجبرية في منزله، وصعود علي خامنئي إلى موقع القيادة الدينية والسياسية في البلاد، على الرغم أنّه لم يكن مستوفياً لشرائط المرجعية، إلا أنّ الخميني هو الذي أوصى له بخلافته، وتناسى شطحاته القديمة بشأن الولاية المقيّدة للفقيه والتي جلبت عليه غضباً خمينياً جارفاً، ومن مفارقات تلك الواقعة أنّ من نظّر لمفهوم الولاية المطلقة هو الذي أقصي من فرصة إشغال مقعدها بتهمة عدم الإيمان بها جملة وتفصيلاً، وليحل محله من جاهر بتقييدها في خطبة صلاة الجمعة، أمر الرئيس صدام حسين بإرسال شحنات مساعدات الإغاثة العاجلة من أدوية وخيم وبطانيات، بلغ وزن الإرسالية الأولى ٧٢ طناً، حملتها ثلاث طائرات على جناح السرعة، ورد الرئيس الإيراني هاشمي رفسنجاني الذي دشن عهده بهذه الكارثة على بادرة العراق برسالة كان من بين عباراتها: «لقد أديتم بل تخطيتم موجبات حسن الجوار» هذه الأنباء كلها كانت تردنا تباعاً عن طريق الراديو الصغير، وانتعشت آمال الأسرى مجدداً بأنّ الكارثة التي حلّت بإيران ستزيل العقبات التي تكدست في طريق حلّ نهائي لقضيتهم، فالخطاب السياسي بين البلدين توسع في مضامينه وارتفع في مستواه إلى أنْ وصل إلى الرؤساء، إذن وبهذا الود البليغ العبارة ماذا بقي كي يتفق البلدان على حل عاجل لأزمة إنسانية كانت تضغط على حكومتي البلدين لتجاهلهما مأساة عشرات الآلاف من الأسرى، وتضغط بدرجة أكبر على عائلاتهم على نحو أثر في حياتها، بل وأحدثت تغييرات اجتماعية عقّدت من تفاصيل حياة أفرادها لاحقاً؟ فنتيجة لقطع صلة كثير من الأسرى العراقيين مع ذويهم بواسطة رسائل الصليب الأحمر الدولي، أو بأية واسطة أخرى قطعت عائلات كثيرة الأمل ببقاء أسراها على قيد الحياة، ونتيجة لتقاليد

اجتماعية قروية محافظة من الناحيتين الدينية والاجتماعية، أو مجتمعات مدنية منفتحة على نحو واضح كان من غير الممكن بقاء النساء المخطوبات أو المعقود عليهن، بل حتى المتزوجات ولديهن أبناء على ذمة رجال لا أحد يعرف فيما إذا كانوا موجودين على قيد الحياة، أو أنّهم قتلوا في أثناء المعارك الطاحنة التي شهدتها جبهات القتال، وتم دفنهم من دون هوية أو ظلت جثثهم في أرض المعركة أو في المنطقة الحرام بين قوات البلدين من دون أنْ يتمكن أحد من إخلائها، فتزوجت المئات من النساء اللائي تنطبق عليهن هذه الصفات، وبعضهن زوجن من أشقاء أزواجهن الأسرى من دون إرادة منهن أو رغبة، وهذه كانت من أعقد المعضلات التي واجهها الأسرى بعد عودتهم، فكانت محنة إنسانية مستعصية على الحل، فإن استمرت الحياة الزوجية الجديدة فإنّها ستقام على أشلاء أسرة قديمة ربما أثمرت أولاداً سيجدون في عودة والدهم بارقة أمل لهم من ذل اليتم، ولكن ذلك سيعني طرح تساؤلات مريرة عن وفاء الأم التي تنكرت لزوجها وهو في أكبر محنة صادفها في حياته، حتى وإنْ كان الزواج الجديد قد تم بالإكراه، فلا بد من أنّ الزوجة التي تحن إلى ذكريات زوجها العائد من رحلة الأبدية ستترك على زواجها الحالي الكثير من أسباب التأزم في ظرف قد لا يكون زوجها القديم راغباً فيها بعد أن اقترنت برجل جديد وأنجبت منه. ولعل من أسوأ ما سمعنا عن مثل هذه القصص المأساوية أنّ أسيراً من الذين احتجزتهم إيران في المعسكرات المخفية، تفاجأ يوماً بدخول أسير جديد إلى القاعة نفسها التي يتواجد فيها، وإذا بالأسير الجديد شقيقه الذي يصغره بعامين، الذي ما أنْ رأى شقيقه حتى أجهش ببكاء مرّ: ماذا جاء بك إلى الأسر؟ الجواب يأتي سريعاً هو الذي جاء بك قبلي، وكان اللقاء بينهما مزيجاً من رغبة

في إطفاء شوق قديم، وتأنيب ضمير لسرّ لا يعرف كيف يتعامل مع فصوله، ولا كيف يوصله إلى شقيقه، كانت زوجة الأسير الأول وبعد أنْ وصل أهلها وأهل زوجها إلى نهاية درب الأمل بمعرفة مصير زوجها المفقود في إحدى المعارك الكبرى وصلت إلى طريق مسدود أيضاً مع مساعي العائلتين بشأن ترغيبها بالزواج من شقيقه، خاصة وأنّها كانت مسؤولة عن تربية طفلين هما ثمرة ذلك الزواج التعيس، كما أنّ الدولة العراقية كانت تحضّ على الزواج من أرامل شهداء الحرب، وأمام إصرار أبيها وعمها، لم تجد مناصاً من الخضوع لإرادتهم في زواج لم تكن لها رغبة فيه، اعتزازاً بذكريات زواجها الأول وحرصاً على أولادها الصغار. مرّ لقاء اليوم الأول بسلام بعد أنِ استغرق الحديث عن الأهل والزوجة والأولاد الساعات الأولى منه، لم يلاحظ الأسير القديم أنّه حينما يسأل أخاه عن زوجته وأولاده فإنّه يغص بكلمة ويتلعثم بأخرى ويجهد في مواصلة الحديث، ويسعى لإدارته إلى وجهة أخرى، ولكنّ الحقيقة كانت ستصل إلى الأخ الأكبر مهما حاول القادم الجديد إخفاءها، وكم كان الوقت تعيساً حينما وصلت المعلومات إلى الرجل الذي فقد زوجته لصالح شقيقه، الذي وقع في الأسر أيضاً، ترى كم هي تعيسة الحظ تلك الزوجة التي أرسلت بزوجين تباعاً إلى معسكرات الأسر في إيران، وكم انعكس ذلك على علاقات زوجيها الشقيقين واللذين ما زالا على قيد الحياة ولم تحصل على طلاق من أي منهما، ترى هل هناك أسير إيراني واحد عانى حجب رسائله عن أهله فحصل له ما حصل لهذين الشقيقين وغيرهما؟

إذن كانت الآمال معلقة بنتائج الحراك السياسي الذي أعقب كارثة الزلزال التي ضربت مناطق شاسعة من شمال إيران، ولكنّ

إيران استطاعت استدرار عطف العالم عليها نتيجة الصور التي خرجت إلى العالم، وحكت للعالم هول الفاجعة التي حلّت بالبلد، والعجز المروّع الذي عالجت به ذيول الكارثة، وبدأت المعونات تنهال على إيران ومعها بدأت الحواجز التي انتصبت في أثناء الحرب تنهار تباعاً، ونحن بحكم تجربتنا وخبرتنا بإيران كنّا نشعر بكمد شديد لأي انفتاح دولي على إيران، والتي ستوظف ذلك في تعاملها مع جميع ملفات الحرب مع العراق، ولهذا توقعنا أنّ الضغط على إيران سيتوقف، هذا إنْ كان العالم يمارس ضغطاً حقيقياً على إيران لحل المشاكل العالقة مع العراق، فكانت كارثة الزلزال زلزالاً على الأسرى أيضاً، على الرغم من أنّنا توقعنا أنّ الحكومة الإيرانية وبسبب ما لحق بها من دمار ستحاول التخفيف عن نفسها، وذلك بحل قضية الأسرى فتكسب تعاطف ذويهم، وتختزل إنفاقاً هائلاً كان مخصصاً لهم، ومع استقرار التربة التي تعرضت للاهتزاز المميت كانت قضيتنا تدخل مرحلة سبات أخرى لا أحد يعرف متى ستتحرك.

تميزت أخبار العراق بعد انتهاء الحرب بصعود لافت للنظر في مكانة العراق الدولية وقدراته الذاتية، سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، ما كان يمر أسبوع إلا وكنا نسمع عن إنجاز علمي أو ميداني، أو افتتاح واحد من المشاريع العمرانية أو التنموية الكبرى، فمن إطلاق قمر العابد إلى تجربة صاروخ تموز١، إلى إنتاج طائرة الإرضاع الجوي أو طائرة المراقبة، مروراً بوضع الحجر الأساس لمشاريع إروائية كبرى إلى افتتاح أخرى، أحداث متسارعة كانت تفرض علينا جواً نفسياً مشحوناً بالمعنويات العالية وانتظار المزيد منها، كنّا مدفوعين بقناعة راسخة أنّ من يخرجنا من الأسر هو العراق القوي وليس النوايا الطيبة عند الإيرانيين لأنّهم وببساطة لا يمتلكون أي

قدر من النوايا الطيبة، لا تجاهنا كأسرى ولا تجاه وطننا العراق، مع كل خبر عن منجز علمي أو اقتصادي كنا نقترب من الحدود، أو هكذا كان يخيل إلينا، غير أنّ الهدف كان يبتعد كسراب كلما ظن المرء أنّه أمسك به اتضح أنّه يمضي إلى الأمام بسرعة قاصده نفسها، ومع النشوة الجارفة في معنوياتنا كنّا ننظر بقلق إلى تبعات هذا الصعود، هل تسمح به الدول الكبرى؟ هل يسمح العالم للعراق أنْ يمتلك المدفع العملاق؟ وهل يسمح له بامتلاك القدرة التقنية على إنتاج صواريخ يصل مداها إلى إسرائيل؟ وماذا يقول حتى جيران العراق من الأشقاء والأصدقاء على حدّ سواء عن الذي يجري في العراق الجديد؟

تمّ الإعلان خلال هذه الفترة عن ولادة مجلس التعاون العربي، الذي ضمّ كلاً من العراق ومصر واليمن والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية، رأى البعض في هذا التكتل عودة إلى زمن المحاور الذي ميّز العلاقات العربية، في حين رأى فيه آخرون أنّه قد يحوّل العراق إلى بقرة حلوب، لدول كلها فقيرة الموارد، فمصر على سبيل المثال بلد يعاني تفجراً سكانياً لم تنفع معه كل التدابير الوقائية، وبالتالي فقد يتيح الاتحاد العربي لمواطني مصر على سبيل المثال الاستفادة من موارد العراق الكبيرة وخاصة في مجال الطاقة، للإثراء المجاني وإفقار العراق، أما اليمن فهو بلد معتدل السكان ولكنّه شديد التخلف، وهذا ما قد يجعله يبحث عن وسادة يتّكئ عليها في بلاد الرافدين، أمّا الأردن فهو بلد لا موارد طبيعية فيه، ولا صناعة تمنحه قوة اقتصادية تؤهّله للمشاركة على قدم المساواة، ولا زراعة دائمة نتيجة شح المياه الصالحة للري مع أنه كان سبّاقاً في استثمار موارده البشرية، فحقّق مستويات متقدّمة في مجال التعليم وتهيئة الكوادر المتخصّصة في مختلف المجالات، فهل أراد

العراق أنْ يكون مصرفاً مركزياً للدول العربية؟ وهل يصلح مثل هذا النموذج في تطبيقات الوحدة العربية؟ وهل على طرف واحد أنْ يقدّم ما عنده وعلى الآخرين الاكتفاء بتلقي ما يفيض عند الشقيق الغني؟ طرف ثالث نظر إلى التجربة الجدية على أنّها ولادة للدولة العربية الواحدة، حتى مع غياب سوريا فقد توقع هؤلاء أنّ دمشق ستكتشف مزايا هذه التجربة وتأتي إليها بمحض إرادتها.

وعلى العموم فقد أعطى انتصار العراق في الحرب مع إيران قوة دفع هائلة لمكانته إقليمياً وعربياً ودولياً، وتبعاً لذلك فقد أصبح الرئيس صدام حسين قائداً على مستوى دولي لا تستطيع دولة ما تجاهله، ومما عزز من ذلك أنّ وفداً من مجلس الشيوخ الأمريكي زار بغداد في خضم هذا البروز لمكانة العراق وصدام حسين، وكان من اللافت أنّ عضواً في الوفد قال للرئيس صدام حسين: إنه إذا كان على استعداد لإعادة النظر بموقف العراق المعلن من جوهر قضية الشرق الأوسط، فإنّه وبما يمتلكه من مؤهلات سيصبح الزعيم الذي لا يجارى في المنطقة على الإطلاق، إذن هي رسالة مفتوحة للرئيس وللعراق، وجوهر قضية الشرق الأوسط هو القضية الفلسطينية، والمطلوب هو إعادة النظر بالموقف المعلن، ولكنّ صدام حسين أجاب الوفد بأنّ البيوت تدخل من أبوابها وأنّ مفتاح القضية الفلسطينية بيد السيد ياسر عرفات، والذي يتخذ من بغداد مقراً له، إذن كان العرض مرفوضاً منذ لحظة إطلاقه، وهذا بكل تأكيد ما سيجلب للعراق المزيد من المتاعب اللاحقة.

في هذه الأجواء وصلنا نبأ بأنّ مؤتمر القمة العربي سيعقد دورته الجديدة في بغداد، وقدّرنا أنّ ذلك سيترافق مع اعتراف عربي بدور قيادي للعراق يتناسب مع حجم التضحيات التي قدمها العراقيون دفاعاً عن بلدهم وعن الوطن العربي بوجه محاولات

إيران تصدير ثورتها بالقوة إلى العراق كخطوة أولى، ولتصبح الدول العربية الأخرى، ولا سيما دول الخليج العربي، لقمة قابلة للقضم دفعة واحدة، ولكنّ هواجسنا بأنّ بعض العرب من أركان النظام الرسمي العربي، بقدر ما كانوا يتخوّفون من هزيمة العراق لآثارها المدمرة على نظمهم، وفق ما يحملون من قناعات غير قابلة للتراجع، فإنّهم كانوا وفي الوقت نفسه يخشون من نصر كاسح للعراق، كانوا يريدونه نصراً يمشي على عكازة مستعارة من النظام الرسمي العربي نفسه، هذا إذا فرض النصر عليهم ولكنّهم في أحسن حالات تعاطفهم مع العراق في حربه الطويلة، كانوا يريدون الحرب بلا غالب أو مغلوب، أما وقد تحقّق النصر على الرغم من كل الاحترازات المعلنة والخفية، فقد بات ملحّاً البحث عن أقصر الطرق القادرة على ترويض عراق ما بعد الحرب، وامتصاص زخم قوته بكل الوسائل المتاحة، المشروعة منها وغير المشروعة، في مثل هذه المشاعر المتعارضة حدّ التقاطع، حضر ملوك ورؤساء وأمراء عرب، وبعضهم يبحث في كيفية تفجير المؤتمر من الداخل، والآخر لم يشأ أنْ يسجل ذلك باسمه، بل واصل تكبير المخاوف من خطر عراق منتصر يقوده صدام حسين، ومع ذلك فكاد مؤتمر القمة العربي أنْ يتوج صدام حسين ملكاً على عرش ظل شاغراً منذ أنْ حاول الشريف حسين أنْ يملأه ولكنّه أخفق في ذلك، ولكنّ صدام حسين حقّق أول نصر عربي في التاريخ الحديث من دون أنْ يشوبه شيء من بقع التنازل، وبدأت جلسات مؤتمر القمة العربي وسط أجواء انقسام واضح، بين أكثر من معسكر، فمن جهة كان العراق ومعه أطراف كانت تتراصف معه في كل ما يطرح، وبعضها يخفي نوايا أخرى غير ما يقول، وهناك أطراف تقف ضدّ العراق في كل ما يطرح، وبعضها أكثر قرباً منه من تلك التي تصفّق له

بحرارة، وبين هذا وذاك جهات آثرت مراقبة المشهد بقليل من الاكتراث، وبعض الأسى لما تراه يتمّ تحت الطاولة من تبادل لمنافع جزئية على حساب الكل العربي، وأحياناً لصفقات فيها من التضحية بكل شيء من أجل إرضاء طرف يراقب عن كثب ويرسم الخطوة تلو الأخرى لتنتشل نجاحاتها أي إخفاق قد يواجه برامج الكبار في منطقة يأبى الكثير من زعمائها النمو كما تقتضي سنن الطبيعة والحياة.

ودخل العرب القمة وخرجوا منها من دون أنْ يشعر عربي واحد بأنّ شيئاً قد تغيّر في سمائه أو أرضه، ربما يكون قد تمتم مع نفسه ببضع كلمات حتى هو لم يفهمها على وجه الدقة، ولكنّه منّى نفسه بفرصة لاحقة قد تأتي في الزمن المنظور وقد تتأخر كثيراً، هذا بفرض أنّ الأمور ستسير على سككها وليست على سكك الآخرين، الأسرى كانوا أكثر الناس إحباطاً من نتائج قمة العرب في بغداد العرب، كانوا يظنون أنّ ملفهم سيتحرك تبعاً لعلوّ مكانة بلدهم عربياً وإقليمياً ودولياً، مما سيدخل تعديلاً ما على موقف إيران من العلاقات مع العراق ومع العرب، تعاملنا مع الحادث الذي وقع في موسم الحج، وفسرته إيران إهمالاً سعودياً متعمّداً وذهب ضحيته عدة مئات من حجاج بيت الله الحرام، نتيجة انقطاع التيار الكهربائي في أحد الأنفاق وما سببه من تدافع أدّى إلى كارثة محزنة، ولكنّ إيران ألحقته بموقف السلطات السعودية في موسم الحج السابق، في أثناء محاولة الحجاج الإيرانيين السيطرة على الحرم المكّي الشريف ومبايعة الخميني من هناك إماماً للمسلمين كافة، والذي أدّى إلى مواجهات انتهت بمقتل عدد منهم، حينها ردّت الحكومة السعودية بقوة على إيران، وورد في أحد فقرات ردّها ما يشير إلى تطابق مع الموقف العراقي ضد العداء

الإيراني للإسلام والعروبة، فتساءل البيان السعودي عما إذا كانت إيران تحتاج إلى قادسية ثالثة كي تعرف حدودها، أي أنّ المملكة العربية السعودية كانت تهدد إيران بقوة العراق، وهكذا كان العراق ينظر إلى نفسه أيضاً باعتباره جداراً عالياً يصدّ كل الأخطار التي تهدّد الأمة ولكنْ ليس شرطياً مأجوراً للآخرين، تعاملنا مع الواقعة بكثير من الثقة بالنفس والوطن، وكنّا كمن يمسك بقشة في بحر هائج متلاطم الأمواج قد تنقذه وتذهب به إلى شاطئ الأمن، ولكنّ السعودية على ما يبدو كانت تريد توظيف جهد العراق ورصيده في مواجهة ما تشعر أنّه تهديد لها، من دون أنْ تسعى لتقديم شيء للعراق ووقفت ضد رغبة عراقية في الانضمام لمجلس التعاون الخليجي، وربما كانت هذه الإشارات جزءاً من جهد منسق لدفع العراق إلى شعور بقوة أكثر مما يمتلك حقّاً، وتلاشت آمالنا ومراهنتنا على جهد جماعي يمكن أنْ يضغط على إيران بهدف إطلاق سراحنا، وعلّقنا آمالنا على فرصة أخرى يمكن أنْ تأتي أو لا تأتي، ماذا يمتلك الأسير لنفسه غير الصبر وتوطين النفس على التعامل مع الأحداث يوماً بيوم إنْ تمكّن من الحصول على أخبارها، وربما ذهب بعضنا إلى قبول فكرة الحرمان من معرفة الأخبار، لأنّ التعامل اليومي معها يمكن أنْ يتسبب بصداع مزمن لا خلاص منه إلا بالحرية، ومع الأيام أخذت تلوح بالأفق بوادر أزمة كبرى، لن تنحصر آثارها في العراق فقط وإنّما ستجر ويلات عليه وعلى المنطقة، كانت الهموم العامة تترادف بتزامن عجيب مع الهموم الخاصة، ففي هذه الأثناء بدأت أشعر أنَّ بصري بدأ يضعف كثيراً، وكأن غشاوة بيضاء على نظارتي، كنت أنظف النظارة التي هي من مخلّفات زمن الحرية، وتم كسرها من قبل نور الدين شريف عسكري في أيام الأسر الأولى في قصر فيروزة، ويبدو أنّ

نتائج الضرب المبرّح الذي تعرّض له رأسي في التعذيب الذي تعرض له عموم الأسرى وأنا منهم، كي لا أقول أنا في الطليعة منهم، قد بدأت آثاره تطفح على سطح حياتي في هذا المعسكر.

في خطابه في الذكرى السنوية لثورة ١٧ تموز/يوليو عام ١٩٩٠، تحدث الرئيس صدام حسين عن خطة لإضعاف العراق تتبناها دول مجاورة له، تنكّرت لدوره في حمايتها، وكان مما قاله: «إنّ الصوت ليس من أقوى الإيمان في التصدي للمنكر» ووردت تلميحات أنّ المقصود هو الكويت، وفهمت من عبارة «أقوى الإيمان» أنّ التدرج في التعامل مع حديث الرسول الأكرم (ﷺ)، يقتضي الانتقال إلى اليد بعد أنْ تم تجاوز القلب واللسان، وكان من مهماتي حينذاك طرح ما عندي من معلومات عن تاريخ الكويت والعلاقات السياسية بين نظامها والعراق.

يحكي تاريخ سلخ الكويت عن العراق قصصاً تواصل فيها سفك الدماء وانتهاك الحرمات وقتل الأشقاء، وهو على العموم تجسيد لصراع الباطل المستند إلى القوة الغاشمة مع الحق الواضح الذي لا يضع الاحترازات اللازمة لتجنّب الأخطار، ومن ينظر إلى الخارطة ويتطلع إلى موقع الكويت لا يمكن أنْ يساوره شكّ بأنّ الكويت جزء من أرض العراق اقتطع يوم كان العراق كله ملحقاً بدول أخرى، إمّا بالتبعية السياسية أو بالتحكم بمراكز صنع القرار، أو بالتحكم بالأرض والسيادة والقرار.

كانت الكويت جزءاً من ولاية البصرة، ولكنّها وبسبب اشتغال أهلها في البحر، بصيد السمك واللؤلؤ والتجارة، فقد بحثوا عن حراس يحفظون منازلهم ويرعون شؤون أسرهم في أثناء غيابهم في البحر لزمن يطول أو يقصر تبعاً لما تجود به رحلاتهم، فوجد أهل

الكويت مبتغاهم في أسرة الصباح التي قدمت إلى المنطقة في وقت متأخر.

كان ينبغي لأسرة الصباح أنْ تختار من بين أبنائها ممثلاً لها يتولّى نيابة عنها تحديد أجور أتعابها لقاء ما تقدّمه من خدمات مختلفة لسكان الكويت، وكأي أسرة في البداوة، مهما ضؤل شأنها وصغر حجمها وقل عديدها، كان هذا الشخص وبشكل تدريجي يمتلك أدوات ومفاتيح مختلفة للنفوذ وسط بيئته، بالفطنة تارة أو لعمره تارة أخرى أو لجنوحه إلى استخدام القوة لإزاحة منافسيه من الطريق فأصبح للحراس حراسٌ ولخدم القوم خدمٌ، كما حصل في تاريخ أسرة الصباح، إذ ورد في **تاريخ الكويت** لمؤلفه عبد العزيز الرشيد، ما يأتي: «كان الشيخ السادس منهم ـ أسرة الصباح ـ قد توفي وترك ثلاثة أبناء هم محمد وجراح ومبارك، وقد اختلفوا فيما بينهم على إرث أبيهم، واتفق اثنان هما محمد وجراح واختلف معهما الثالث وهو مبارك، واستحكم الخلاف على قائمة حساب تحتوي على عشرين ليرة عثمانية، وسيف يتكلف إصلاحه تسع ليرات، وبند ثالث غير محدد».

وبدأ الخلاف بين الإخوة بمشادة على قائمة الحساب، ثم انتهى إلى أنّ جراح دخل سوق الجزارين في الكويت، وصاح منادياً أصحاب الدكاكين: «إياكم أنْ تعطوا مبارك شيئاً، فقد تبين أنّه من المفلسين وأنّ عليه ديوناً عظيمة». ويقول عبد العزيز الرشيد في كتابه المذكور: «بعد هذا الحادث صمم مبارك على التضحية بأخويه على مذبح الغضب والانتقام، صمم على هتك حرمتهما وقطع رحمهما وإسالة دمائهما».

ثم يصف عبد العزيز الرشيد حادثة قتل مبارك لأخويه فيقول:

«في ليلة من ليالي ذي القعدة المظلمة سنة ١٣١٣ هجرية ـ الموافق لسنة ١٨٩٦ ميلادية، بعد أنْ مضى هزيع من الليل وبعد أنْ هجع القوم، نهض مبارك مسرعاً فقتل أخويه محمد وجراح، يسانده ابناه جابر وسالم، ولفيف من الخدام، وجعل من كان معه أقساماً ثلاثة، هو لأخيه محمد، وجابر وبعض الخدام لجراح، وابنه الثاني سالم وبعض الخدام حراساً في صحن الدار».

«صعد مبارك تواً إلى محمد فأيقظه من نومه، وبعد أنْ انتبه أطلق عليه البندقية ولكنّها لم تجهز عليه، فاستغاث الأخ بأخيه، وذكّره بما له من الحق والحرمة، فما وجد ذلك الصوت المحزن، ولا ذلك الاستعطاف الحار سبيلاً إلى قلب مبارك الذي امتلأ حقداً وغضباً، فصوّب إليه البندقية ثانية متصامماً عن سماع النداء حتى تركه لا حراك فيه يتخبط بدمه ويجود بنفسه العزيزة».

«أما جابر فذهب إلى عمه في حينه فألفاه يقظاناً وزوجته إلى جانبه، فسدد البندقية إليه، ولكنها لم تنطلق، فعاجله عمه بالقبض عليه وكان له من زوجته ساعد ومعين، وكادا يتغلبان عليه لولا مبادرة أحد الخدام إلى مساعدة جابر بتصويب بندقية إلى نحره فأرداه صريعاً، ووقفت زوجته عليه تبكي وتنوح وتندب».

وبعد هذه الواقعة الدموية بين أفراد الأسرة الواحدة والتي بقيت تقليداً لأفرادها في الاحتكام إلى القوة والاستعانة بالعبيد والخدم ضد الأشقّاء، نصّب مبارك نفسه حاكماً على الكويت، وهكذا تحوّل حراس عائلات صيادي مدينة الكويت إلى حكام على من استجلبهم عسساً وأجرَاء لمهمات يومية خلال الغياب الطويل في البحر.

ولمّا كانت الكويت جزءاً من ولاية البصرة كان طبيعياً أن يلوذ

ذوو الضحايا بها وبسلطاتها للاقتصاص من القاتل، ولكنّ بريطانيا استبقت محاولات القاتل الشيخ مبارك للحصول على موافقة السلطنة العثمانية على فعلته وتعيينه قائم مقاماً لقضاء الكويت، فوقّعت اتفاقية حماية للشيخ مبارك، بتاريخ ١٨٩٩/١/٢٣، وبهذه الاتفاقية رهن الشيخ مبارك مستقبل الكويت كلها، والتي سكنها برضى أهلها حارساً لهم ولعائلاتها وممتلكاتهم، لبريطانيا بشكل تام من دون الرجوع إلى رأي من استقدمه للخدمة فيها، وظلت قضية الكويت منذ ذلك التاريخ سكيناً في الخاصرة العراقية، وظلت بريطانيا تقاوم كل محاولات المسؤولين العراقيين بمن فيهم الذين جاءت بهم لحكم العراق لاستعادتها، فالملك فيصل الأول الذي أقرّه الإنكليز على عرش العراق لم يوافق أبداً على خط الحدود الذي رسمه السير بيرسي كوكس مفوض حكومة الهند ومندوبها السامي في الخليج العربي، وبعد رحيل فيصل الأول ومجيء الملك غازي، تغيّر الخطاب الرسمي حيال قضية الكويت، ولم يكتف الملك الشاب بالمطالبة العلنية باستعادة الكويت للوطن الأم، وإنما أنشأ إذاعة كان يشرف عليها وتبث برامجها من قصر الزهور، وكانت تذيع برامج تدعو إلى عودة الكويت إلى العراق، وهذا هو الذي أثار غضب الإنكليز عليه، ولكنّ الملك غازي قتل في ظروف غامضة في عام ١٩٣٩، ومن بين الافتراضات التي وجدت لها رواجاً كبيراً أنّه قتل بسبب مطالبته بعودة الكويت إلى وطنها الأم.

ولكن الذين ساهموا بقتل الملك غازي، لم يجدوا مبرراً لتراجعهم عما دعا إليه، ليقينهم بسلامة موقفه وصواب المبررات التي ساقها وقتل بسببها، فتشير الوثائق البريطانية إلى أنّ آخر محاولة ملكية هي التي طرحها نوري السعيد رجل بريطانيا القوي على ما كان يعرف عنه، عند قيام الاتحاد بين العراق والأردن عام

١٩٥٨، حينما رأى أنّ الأمر يمكن أنْ يحل بأسلوب يحفظ حقوق جميع الأطراف، وذلك بضم الكويت إلى الاتحاد الهاشمي، ولأنّ بريطانيا كانت على استعداد للتضحية بأقرب حلفائها من أجل إبقاء الكويت كياناً «مستقلاً» ومرتبطاً بها، فإنّها وعلى ما يبدو وجدت في ثورة ١٤ تموز/يوليو ١٩٥٨، حادثاً سعيداً على الرغم من آلامه أنقذها من مأزق كاد أنْ يحشرها في زاوية الخيارات الصعبة.

ولم تتوقف مطالبات العراق بالكويت بعد سقوط النظام الملكي ومجيء حكم اللواء عبد الكريم قاسم، والذي أصدر قراره الشهير بتعيين الشيخ عبد الله السالم الصباح، قائم مقاماً لقضاء الكويت براتب مقداره (٥٠) ديناراً في الشهر، وذلك حينما حصل الاتفاق البريطاني مع الصباح على «استقلال الكويت» وحرّك قاسم وحدات من الجيش العراقي إلى محافظة البصرة، وعطّل العراق قبول الكويت في الأمم المتحدة لوقوف الاتحاد السوفياتي إلى جانبه وتهديده باستخدام حق النقض الفيتو ضد قبوله، ولعلّ أكبر مفارقات المواقف السياسية المتلونة التي يحفل بها تاريخ العراق، أنّ عدنان الباجحي عضو مجلس الحكم الانتقالي زمن الاحتلال الأمريكي، والذي وقف ضد سياسات الرئيس الراحل صدام حسين وخاصة ما يتصل بقضية الكويت، كان يوم أعلن اللواء عبد الكريم قاسم ضم الكويت إلى العراق، ضمن بعثة العراق الدائمة في الأمم المتحدة، وهو الذي وقف أمام مجلس الأمن مدافعاً عن حق العراق في الكويت وكان من بين ما قاله: «إنّ الكويت ليست الآن ولم تكن في أي وقت في الماضي دولة مستقلة وقانونياً وتاريخياً، فإنّ الكويت كانت باستمرار جزءاً لا يتجزّأ من ولاية البصرة العراقية». ومن يعرف كفاءة الباجحي وبراعته ومهنيته العالية لا يمكن أنْ يصدق أنّه قال كل ذلك انصياعاً لأوامر قاسم، وإنّما

لقناعة كانت حاضرة حينها بقوة، فما الذي جعله ينزع لباسه ويرتدي قناعة مستوردة؟

وتعرض اللواء عبد الكريم لمحاولة اغتيال في أيلول/سبتمبر ١٩٥٩، وكان من بين فريق منفذي العملية صدّام حسين، والذي نجح في الإفلات من ملاحقات أجهزة الأمن، وهرب إلى سوريا ومنها إلى مصر، وأقام هناك حتى سقوط حكم اللواء عبد الكريم قاسم، في ٨ شباط/فبراير ١٩٦٣، حينما جاء حزب البعث العربي الاشتراكي إلى الحكم، عبر تغيير قادَته تنظيماته المدنية والعسكرية بالتعاون مع الضباط القوميين والناقمين على انحراف اللواء عبد الكريم قاسم عن أهداف ثورة ١٤ تموز/يوليو عام ١٩٥٨.

وخلال مباحثات الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق، والتي جرت في القاهرة وبحضور الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، وقاد الوفد العراقي فيها المرحوم علي صالح السعدي، نائب رئيس الوزراء وأمين سر القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، طرح المرحوم السعدي حق العراق في استعادة الكويت بوضوح تام وبوثائق قاطعة، ولكنّ الرئيس المصري رفض مجرد التفكير بدعم مطالب العراق، مستنداً في ذلك إلى ما يعتبره حقائق الاستراتيجية الدولية الجديدة، ودخول الولايات المتحدة كمستهلك للنفط العربي إلى جانب أوروبا، وموقف السعدي ينفي بشكل قاطع ما حاولت جهات كثيرة ترويجه عن صفقة سرية، جعلت الحزب يسكت عن قضية الكويت لزمن لم يستغرق طويلاً، وتقلبت نظم الحكم في العراق، لكنّ أحداً من رؤساء العراق لم يقم بزيارة إلى الكويت منذ قيام الدولة العراقية حتى الاحتلال في نيسان/أبريل عام ٢٠٠٣، هذه الصور تؤكد أنّ ساسة العراق، وعلى الرغم من الخلافات العميقة في وجهات النظر

السياسية، كانوا مجمعين من غير تحضيرات مسبقة، على عراقية الكويت، وحق العراق باستعادة الكويت والذي لن يزول بالتقادم.

هذا من جانب الحكومات العراقية، إلا أنّ أهل الكويت الذين يعون أكثر من حكامهم المستوردين لحمايتهم أنّهم عراقيون في التاريخ والجغرافية والعادات الاجتماعية والترابط الاقتصادي، فقد بذلوا جهوداً حثيثة من أجل تغيير وضعهم السياسي الذي أوجدته بريطانيا لهم رغماً عن إرادتهم، إذ لقيت المطالبة التي نشط فيها أبناء قضاء الكويت للعودة إلى الوطن الأم استجابة شعبية كبيرة تمثلت في إجبار الشيخ أحمد الصباح في أيار/مايو ١٩٣٨ على تشكيل مجلس تشريعي يمثل أهل القضاء، والذي طالب أعضاؤه في أول جلسة له بعودة الكويت إلى العراق، الأمر الذي جوبه برفض قاطع من جانب حاكم الكويت فأعلن في ٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٨ حل المجلس وملاحقة أعضائه وزجّهم في السجون.

وعاد البعث إلى الحكم من جديد عام ١٩٦٨، وجاء محمّلاً ببرنامج طموح على كل الأصعدة، ومع بداية انطلاقته في البناء الصناعي والزراعي والعسكري، ومع أول خطوة على طريق تحرير ثروته النفطية، تحركت القوى التي كانت تنظر بقلق إلى ما يحصل في العراق لتضع العراقيل في طريق نهوضه، ولم تكن بحاجة إلى طويل وقت، فأسباب التأزم جاهزة في الملف الكردي، الذي كان يظهر ويختفي تبعاً لدور القوى الدولية الكبرى فيه، ولم تكن القضية الكردية لتنال كل التعاطف المعلن معها لو أنّ الأمر كان مع بلد غير العراق، فالحكومة العراقية في عهد البعث حققت للأكراد أكثر مما كانوا يحلمون به، ثم إن بعض دول الجوار التي جعلت من أراضيها جسراً للتدخّل في الشأن العراقي تحت لافتة الوقوف مع أماني الشعب الكردي، في حين أنّ تلك البلدان لم تكن تعترف

أصلاً بوجود أكراد فوق أراضيها، وأشغل التمرد الذي قاده مصطفى البرزاني العراق كله، واستنزفه مالياً وبشرياً لعدة عقود، ولم تع الحركة الكردية المسلّحة أنّها مجرد منديل ورقي يستخدم مرة واحدة ثم يلقى به في سلة القمامة بعد استنفاد الغرض، وهذا ما حصل فعلاً ولعدة مرات، ولكن هذه الحركة بقيت على غفلتها المركبة، ووظفت نفسها لخدمة مخططات أعداء العراق الواحد، ولعلّ فتح أبواب العراق أمام التدخل الإيراني يمثّل أكبر إنجازات الحركة الكردية على الإطلاق، وكان من نتائج ذلك الدور نشوب الحرب العراقية الإيرانية التي خلّفت مآسيَ إنسانية ومادية هائلة.

خلال الحرب وقف العراق برجاله بوجه الرياح الصفراء التي تريد الإطباق عليه، وإلحاقه ببيت الطاعة للولي الفقيه تحت شعار تصدير الثورة سيّئ الصيت والذي رفعه الخميني، ووقف عرب الخليج العربي إلى جانبه دفاعاً عن أنفسهم وحماية لكياناتهم التي باتت قاب قوسين أو أدنى من مرمى البندقية الإيرانية الخفيفة، فأمدوه بالمال وخاصة بعد أنْ تم قطع صادراته النفطية من البحر الأبيض المتوسط بموجب قرار الحكومة السورية، وقدّم العراق مئات الآلاف من أبنائه بين قتيل وجريح، وكان المسؤولون في الكويت لا يتورعون عن استغلال انشغال العراق في حربه مع إيران، إذ كانوا يعلنون الرغبة في ترسيم الحدود مع العراق تحت دوي المدافع، وخرج من الحرب منتصراً كما لم يحصل في تاريخ العرب الحديث، ولكنّه كان مثقلاً بأعباء أزمات اقتصادية منها ما هو طبيعي لبلد خرج توّاً من حرب طويلة، ومنها ما هو مدروس ومرتّب من أطراف دولية لم تكن لتنظر بارتياح إلى النهضة الشاملة التي يشهدها العراق، مع وجود جيش قوي قادر على حماية هذه التجربة النموذج في بلدان العالم الثالث، فكان أنْ حوّلت الكويت

المنح التي كانت تدفع بها للعراق زمن الحرب إلى قروض، وبدأت تلح بسدادها والعراق في ضائقة خانقة، وأسعار النفط في أدنى مستوياتها في خطة مقصودة لحرمان العراق من خير ثروته النفطية، كان إلحاح الكويت لافتاً للنظر، ولم تتوقف عند هذا الحدّ بل راحت تستنزف ثروته النفطية في حقول تعود بالأصل إلى العراق، حتى في حال اعتبار الكويت دولة، ودارت عجلة التصعيد بأقصى سرعتها، فكان خطاب الرئيس الراحل صدام حسين وكانت اللقاءات المشتركة برعاية المملكة العربية السعودية، ولكنها تحطمت أمام إصرار أسرة الصباح وخاصة سعد العبد الله على المضي في خطة تدمير العراق إلى نهايتها.

وفي ٢ آب/أغسطس ١٩٩٠ دخل الجيش العراقي الكويت وفرّ حكامها، لأنّهم لا يجدون لهم معها رابطة تفرض عليهم الدفاع حتى عن مناصبهم على الأقل، وتحرّكت جيوش العالم صوب المنطقة، وكأنّ ساعته كانت منصوبة وجاهزة منذ أمدٍ بعيد لتعلن شارة البدء في تدمير قدرات العراق الاقتصادية والعسكرية والبشرية، في هذه الأثناء وجّه الرئيس الراحل صدّام حسين رسالة مستفيضة إلى هاشمي رفسنجاني الذي كان قد أصبح في هذا الوقت رئيساً للجمهورية في إيران، دعاه فيها إلى طيّ صفحة الماضي وبناء علاقات جديدة بين البلدين تنطلق من احترام حقّ كلّ بلد في اختيار نظامه السياسي والاجتماعي من أجل التصدّي المشترك «للشيطان الأكبر»، واعتبر أنّ إطلاق الأسرى أفضل بداية لهذه العلاقة. وحينما قرأ أبو لينة وهو عبد الأمير مهدي صالح من أبناء الناصرية - ويتولّى قراءة ما يردنا من أخبار وبيانات حزبية - الفقرة التي قال فيها الرئيس الراحل صدّام حسين لرفسنجاني: «وبهذا فقد تحقق لكم كل ما طلبتموه»، أجهش معظمنا ببكاء مرير، فبقدر ما شعرنا

بسعادة غامرة من قرب استرداد الحرية، شعرنا بغصة عالقة في الحلق، إن عودتنا لم تكن بذلك العزّ الذي أردناه أو توقعناه، وإن نصراً صنعه العراقيون بدمائهم في ثماني سنوات قد تبخر بين ليلة وضحاها، كان فرحاً ممزوجاً بحزن أقوى من فرح الحرية سحق كبرياءنا، وعلى عادتها لعبت الزعامة الدينية في إيران لعبة التقيّة التي تتقنها جيداً، وأعطت تعهدات وأضمرت نقيضها، وظلت تنتظر ساعة الصفر لتضرب ضربتها. المهم اتفق البلدان على إطلاق سراح أسرى الحرب على مبدأ الكل مقابل الكل، كان العراق حريصاً على هذه المعادلة، لأنّ أسراه في إيران أكثر مما يحتفظ بأسرى إيرانيين لديه، هذا أولاً، والأهم من هذا أنّه أفضل من يعرف نوايا الإيرانيين تجاهه، وما يضمرونه من نوايا شريرة ضدّ العراق، وأنّهم لا يمكن أنْ يلتزموا بعهد يقطعونه على أنفسهم، وهذا ثابت لهم على مرّ التاريخ، ليس مع العراق فقط وإنّما مع أي طرف آخر، ولكنّ العراق باعتباره بلداً مجاوراً لإيران ويمتلك مغناطيسية خاصة تجذب أطماع إيران إليه بسبب ثرائه الهائل، ولأهمية توظيف الرموز الدينية فيه ولعقد مركبة أخرى، فقد كان طبيعياً أنْ يكون نصيب العراق من تنصل إيران من تعهداتها النصيب الأكبر، ولهذا كانت معرفة العراق بنوايا إيران الحقيقية سبباً في اشتراطه أنْ يتم تبادل الأسرى العراقيين لدى إيران جميعاً بالأسرى الإيرانيين لديه جميعاً، وهذا مبدأ معتمد من طرف اللجنة الدولية للصليب الأحمر، فمبدأ التكافؤ أو التساوي لا يمكن اعتماده في قضية إنسانية كقضية أسرى طال أمد احتجازهم، وعلى نحو خاص ما كان الأسرى العراقيون يلاقونه على أيدي السجّانين الإيرانيين أو من سقط من الأسرى العراقيين في خيانة الوطن ورفاق المحنة فتفننوا في إلحاق الأذى بالأسرى أكثر مما فعل الإيرانيون، الحرب كانت قد انتهت منذ

عامين، والزمن الذي يمضي على الأسير بعد توقّف القتال أثقل بكثير من الزمن الذي قضاه الأسرى في معسكرات إيران في أثناء تواصل المعارك.

بدأت أفواج الأسرى تتحرّك نحو الحدود يوم ١٧/٨/١٩٩٠، لم نكن نصدّق ما نسمع، كانت نشرات الأخبار تردنا كل يوم من جهاز الترانزسستور البالي، وكنا نتابع أخبار العراق بقلق شديد، أمريكا بدأت تحشد ضدّه الجيوش وتجمع الحلفاء، حتى إذا كانوا مجرد أرقام لعب أقرب أشقّاء العراق: مصر والمملكة العربية السعودية أسوأ الأدوار ضدّه في خلق اصطفاف باسم الإسلام وما يمكن أنْ تتعرض له مقدسات المسلمين في مكة المكرمة والمدينة المنوّرة، هكذا صوّروا للمسلمين صورة التحالفات الجديدة، تنكروا لكل الوشائج القومية والدور العراقي في حمايتهم من خطر «تصدير الثورة الإسلامية»، ووقف الرئيس حسني مبارك بكل ما تحمله مصر من ثقل في المنطقة أمام أي حل عربي للأزمة الناشئة عن دخول الجيش العراقي للكويت، وقاد خطة الحل الدولي وهي الخطة التي صممتها الولايات المتحدة وأرادتها أنْ تأتي بلسان عربي، وقدّموا الصور والخرائط الكاذبة عن حشود عراقية على حدود السعودية من أجل تبرير اصطفافهم مع الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، فكانوا عوناً لهؤلاء على بلد مسلم كان سدّاً يحميهم، أو بلداً فتح ذراعيه لمن كان يبحث عن عمل ومصدر للرزق، دخل الأسرى في حوارات ساخنة فيما بينهم، هل يتعرض العراق لضربة عسكرية؟ وما هو نطاقها؟ وهل يتم حصرها في الكويت؟

كنت من الذين يعتقدون أنّ أمريكا لم تكن لتأتيَ بكل هذا الحشد العسكري لمجرد إخافة العراق، يضاف إلى هذه القناعة معرفة ما كان يخطط ضد العراق وخاصة مشاريع تقسيمه إلى ثلاث دول: كردية وسنية وشيعية، وهو المشروع الذي وضع خطوطه الأولى أول رئيس لوزراء إسرائيل دافيد بن غوريون، وتلقفته الولايات المتحدة فيما بعد نتيجة الالتقاء في الاستراتيجيات المشتركة بينهما، وخاصة بعد قرار العراق تأميم نفطه، ورسمه خطط التنمية الاقتصادية الشاملة. كانت خطوة تأميم النفط في ١٩٧٢/٦/١ ثورة كاملة، كان يمكن أنْ ينتشر إشعاعها على الكثير من الدول المنتجة للنفط في العالم، وحينها ارتفعت أصوات كثيرة من داخل الدول المنتجة للنفط وخاصة في الوطن العربي تطالب بإعادة النظر في الاتفاقيات النفطية، التي كانت قد وقّعت في ظروف غير متكافئة، وطفت على السطح دعوات المشاركة للرد على توجّهات التأميم الناجح بالتجربة الميدانية التي قادها العراق، رأت أمريكا في ما أقدم عليه العراق خطيئة غير قابلة للمغفرة، ولهذا ذهب كيسنجر إلى حدّ التحريض على ضرب العراق من وقت مبكر معتبراً ذلك الخطوة الأولى لتفكيك المنطقة برمتها وإعادة تشكيلها بعد نسف ركيزتها القوية، ولأنّ الولايات المتحدة ترى في إسرائيل قاعدتها المتقدمة في قلب الوطن العربي، فقد كان طبيعياً أنْ تندفع واشنطن في البحث عن الذرائع التي تمكّنها من تكوين تحالف دولي ضد العراق من أجل تدميره وضرب إنجازاته وما حققه من بناء قاعدة علمية واسعة وعميقة في آن واحد، فجاءت قضية الكويت وكأنّها هبة من السماء لمن كان يريد توظيفها في توجيه ضربة عسكرية تعيد العراق إلى عصر ما قبل الصناعة، على حدّ وصف جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكي في أثناء الأزمة في لقائه مع السيد طارق عزيز.

كان طبيعياً أنّ الأسرى الذي ن سجّلهم الصليب الأحمر سيأخذون سبقاً على من لم يعرض على هذه اللجنة، لكنّ إيران كانت تخطط لعمل قبيح ضد العراق، ولهذا فقد أعادت الكثير من الأسرى الخونة الذين سبق لها وأنْ أطلقت سراحهم في وقت سابق في الدفعات الأولى، وكلفتهم بواجبات محددة في إثارة الشغب والاضطراب في العراق، وعمليات الاغتيال للقادة الحزبيين والإداريين والعسكريين، لإيصال العراق إلى حالة شاملة من الفوضى خلال انشغال الجيش والحزب في مواجهة العدوان الثلاثيني، مما يفكك الجبهة الداخلية ويعطي إيران فرصتها التاريخية للثأر لهزيمتها في القادسية الثانية. إيران التي لم تحقق نصراً واحداً في ساحة الحرب طيلة تاريخها أرادت في الغدر طريقاً لتحقيق ذلك، وهي تظن أنّها لم تخسر شيئاً في كل الأحوال، هي ترسل عراقيين فقدوا شرف الانتماء إلى الوطن من أجل قتل عراقيين مشغولين في الدفاع عن وطنهم وعيونهم مشدودة نحو القوات الأمريكية ومن جاء معها من أكثر من ثلاثين دولة، ولهذا لم يركّزوا أنظارهم على عدو الأمس لأنّ العدو الجديد حشد كل قوة ليقتلع العراق من جذوره، وهذا ما ربحت منه إيران في المواجهة الجديدة، فمن يقتل من الطرفين لن تجد سبباً واحداً يدعوها للحزن، فحتى أولئك الأسرى الذين فقدوا بوصلة المواطنة العراقية وانضموا إلى المعسكر الإيراني تحمل لهم ذكريات مريرة من قتالهم لها يوم كانوا في جيش بلادهم، ولهذا تم وضع هؤلاء في الحافلات الأولى التي انتقلت عبر الحدود، كان العراق حينها يعي جيداً سجل الكثير ممن عاد في هذا الظرف الشاذ، ولكنْ لا سبيل حينها للحساب، كل شيء مؤجّل لحين انكشاف أرض المعركة عن نتائج لاحقة، لقد أرادت إيران أنْ تتخذ القيادة في العراق قراراً

صارماً في محاسبة من يستحق الحساب كي تزيد من مشاكل الملفات الداخلية، ثم إنّها حينما دفعت بهؤلاء فإنّها في واقع الحال قطعت الطريق على البقية المخلصة من الأسرى، هذا ليس معناه أنّ كل من عاد في الدفعات الأولى كان من الذين باعوا أنفسهم للشيطان الصغير، فعدد من سقط كان ضئيلاً، ولكنْ كانت لهم الأسبقية في الإرسال، كل يوم كنّا نجري عمليات حسابية لجمع أعداد الذين تم إطلاق سراحهم كانت الآمال تتزايد بقرب العودة كلّما مضت الأيام وارتفعت الأرقام.

كنّا نسمع أي استقبال يتم للأسرى الإيرانيين العائدين، وأي أبواب تفتح أمامهم في مجالات إكمال التعليم لمن حرم منه، وفي فرص العمل والحصول على تعويضات تمكّن الأسير العائد من الاندماج في المجتمع بعد طول انقطاع وضياع الكثير من الفرص، وتقدّم لهم القروض الميسّرة لإقامة مشاريع تفتح لهم باب الرزق واسعاً، ومنحوا أراضيَ زراعية وسكنية وتمَّ شمولهم بالتأمينات الصحية والضمان الاجتماعي، حتى إنّ الإيرانيين دفعوا بممثل عن الأسرى إلى البرلمان (مجلس الشورى)، وكان ينتظر قوافلهم عند الحدود كبار المسؤولين بمن فيهم نائب الرئيس والوزراء، وتدور بهم الحافلات في المدن الإيرانية وكأنّهم جاؤوا بما لم يستطعه الأولون، أمّا الأسرى العراقيون الذين تقلبوا على جمر العذاب، فإنّ حالهم في نقاط الحدود كان يدعو إلى الشفقة، فقد حرموا من كل شيء، ويبدو أنّ النظرة القاصرة ظلّت ترافقهم حتى النهاية، عانوا التعذيب في السجون الإيرانية، وعانوا بدرجة أقسى تجاهل وطنهم لهم ولتضحياتهم، وعانوا حينما صدموا بعد الملاحقات التي تعرضوا لها بعد الاحتلال، على الرغم من أنّهم لم يضحوا من أجل أنْ يعترف لهم أحدٌ بذلك أو أنْ يقدم لهم ثمناً لذلك، ولكنْ

أنْ يعزف الكثيرون عن التعامل معهم ويشيحون بوجوههم عنهم فتلك أقسى عقوبة واجهوها داخل الوطن.

مساء يوم ١٤/٩/١٩٩٠ جاء آمر المعسكر وأبلغنا بأنَّ هناك قوائم للحركة من هذا المعسكر، وجاء جنود قلم المعسكر، فنادوا على جميع الأسرى من غير المسجلين لدى اللجنة الدولية للصليب الأحمر، كان قاطعنا يضم عدداً متقارباً من الفئتين، ولم نكن لنتصور ما هي الخطوة اللاحقة، من المستحيل أنْ نُفَضَّل على أسرى مسجلين لدى الصليب الأحمر، هذه طبيعة الأشياء، ومع ذلك فكل فريق أوصى الفريق الآخر في حال وصوله إلى العراق بإبلاغ الأهل بظروف من كان يعتقد أنه سيبقى، ومع ذلك فالإيرانيون لا يمكن أنْ يتوقع أحد خطوتهم القادمة، ولذا لم نفقد الأمل بأنّ قطارنا يمكن أنْ يتحرك قبل الآخرين، كان مجرد التفكير على هذا النحو بصوت عال يمكن أنْ يثير مشاعر الطرف الآخر، حتى إذا كانت الأحاديث على خلاف ذلك من المجاملات.

ليلة الرابع عشر على الخامس عشر من أيلول/سبتمبر عام ١٩٩٠، خرج المعسكر عن السيطرة وعاش ترقّباً حماسياً لما سيأتي به اليوم التالي، لم يتمكّن أحدنا من النوم، حتى إذا حاول الانزواء في غفوة مطلوبة بإلحاح كان الآخرون يمنعون رقاده إمّا بقصد المشاركة في الحفل الغامض أو دون قصد نتيجة الأصوات المرتفعة التي كانت تصدر بإرادة أو من دون إرادة من الأسرى الذين يعيشون مناسبة ليست من قبيل المناسبات القابلة للتكرار في الحياة إلا ما ندَر، صحيح أنّ هذه العودة لم تكن بالصورة التي رسموها في أذهانهم لسنين طويلة، إلا أنّهم لن يستطيعوا تغيير شيء من معادلات الوضع القادم على بلدهم، وعلى غير عادة البعض ترك الجميع فُرُشهم وعاشوا ساعات الترقب المريرة وكأنّها دهور طويلة،

الأسئلة هي نفسها عند الجميع: هل سنعود حقاً ونخرج من هذا القبر الرهيب؟ إنّه حلم لم يكن بوسع أحد من أنْ يتخيل ذلك، خاصة وأنّنا نعرف أنّ الخميني أوصى بعدم إعادة الأسرى المشاكسين، إذن هو بعث ما بعد الموت، وولادة جديدة آلام مخاضها على المولود وحده، وتترى الأسئلة: كيف هي صورة الوطن الذي نحب بعد هذه الغيبة الطويلة؟ وهل نرى من نحب أم أنّ البعض قد رحل وأبقى لنا الذكريات الممزوجة بالأسى؟ وعلى الرغم من كثرة ما طرحنا من أسئلة وما دخلنا من نقاشات طويلة، فإنّ الشمس غيّرت سرعتها كثيراً، هل تباطأت في هذا اليوم بالذات؟

قبل منتصف النهار حضر آمر المعسكر العميد إسماعيل سباه دوست، حاملاً هراوة بيده، وتحيط به ثلّة من جنوده، ولأول مرة تسقط كل أقنعة الوقار التي كان سباه دوست يضعها فوق وجهه أو على كتفه مع الرتبة الكبيرة التي كان يحملها، وليظهر على حقيقته، كان يتولى ضرب الأسرى بنفسه ويأمر جنوده بالذي هو أقسى، وبدأت قراءة جديدة للأسماء وأبلغنا بالتهيؤ للنقل، وبدأت الحافلات بنقل الأسرى من دون أنْ نعرف أين سيذهب الأسرى، هل من المعقول أنْ ننتقل من مازدوان الواقعة في المثلث السوفيتي الإيراني الأفغاني، دفعة واحدة إلى خط الحدود الثنائية بين العراق وإيران؟ يا له من حلم قلق وصعب التصديق، وكما في كل مرة كان دور قاطع الضباط آخر من يغادر، مع سقوط قرص الشمس وراء التلال المحيطة بالمعسكر، كانت حافلتنا تتسلق بتثاقل، فشاهدنا لأول مرة معسكراً عشنا فيه أكثر من سنتين بصورة مستمرة، وفي عام ١٩٨٥ حوالي شهر ونصف، وكان لا بدَّ من أداء صلاة المغرب في الحافلة وهي تطوي الطريق، كنت أريدها آخر صلاة في هذا المكان.

الفصل العاشر

سفرة إلى قوجان

حينما وصلنا معسكر قوجان مساء يوم ١٥/٩/١٩٩٠، بدأت التساؤلات المكررة تفرض نفسها مرة أخرى على الجميع، لماذا جاؤوا بنَا إلى هذا المعسكر؟ وهل يصلح وهو الذي لا يبعد كثيراً عن المعسكر الذي كنّا فيه أنْ يكون محطة وسيطة للنقل إلى الحدود وما تزال الحدود تزيد على ألفي كيلومتر عن المنطقة التي انتقلنا منها والمنطقة التي جئنا إليها وارتفع سقف الهواجس والقلق إلى حدّ لم يكن ممكناً معه مجرد التفكير الهادئ والذي يمكن أنْ يدلّنا على أجوبة شافية، هذا هو ديدن الإيرانيين على الدوام، ولكن أول استنتاج تم التوصل إليه كان مرّ المذاق، لقد خدعنا حينما قالوا لنا ستسافرون إلى بلدكم، فجلبونا إلى هنا وأخذوا زملاءنا الباقين في مازدوان إلى الحدود، ولكنْ هل كان الإيرانيون يخافون من أسير أعزل فيقومون بكل هذه المناورات؟ لم يبق من الليل متسع لفكرة أخرى، كان علينا الاستقرار على أسرة قد نغادرها في غضون ساعات وقد نبقى عليها إلى آخر عمر كل واحد منا، ولهذا لم يحرص أي منّا على نوعية الفراش أو المكان، فالإحباط كان يحيط بنا من كل جانب.

عرفنا أنّ هذا المعسكر كان قد أخلي من الأسرى في أيام

التبادل الأولى، واكتشفنا أنّ من أقام فيه كان يحظى بمعاملة عادية للأسير أي بمقاييسنا ممتازة جداً بالمقارنة مع ما نحن فيه، فالكل مستلمون من لجنة الصليب الأحمر، ويتبادلون الرسائل مع ذويهم، وهذا الحال مستمر منذ أحداث عام ١٩٨٣ والتي سقط فيها عشرات الشهداء من الأسرى كانت جثامينهم ما تزال ترقد قرب تلة قريبة من المعسكر، اطلعنا على قوائم «الحانوت» الذي يجهز لهم، فوجدناها طويلة حافلة بالكثير مما لم نعرف منه شيئاً طيلة أسرنا، هذا المعسكر الذي شهد انتفاضة دموية قبل ثماني سنوات تعرّض بين آونة وأخرى إلى ضغوط وإغراءات وتنقلات حتى استقر الحال فيه على ما وجدناه عليه، كانت بقايا الصحف والمجلات متناثرة في أرجاء القاعة التي أودعنا فيها ومن بينها إحدى الصحف التي نشرت رسالة الخميني التي وافق فيها على قرار مجلس الأمن ٥٩٨، وترك الأسرى المغادرون الكثير من حاجياتهم، الدفاتر والأقلام متناثرة في معظم الزوايا، وجدنا أنّ تعلم اللغة الفارسية كان أمراً مباحاً للراغبين في ذلك، فالدفاتر المتروكة تنبئ أنّ الأسرى هنا كان متاحاً لهم ما كنا نعاقب بسببه بأكثر العقوبات قسوة وشدّة، لماذا؟ لأنّ بعضنا رغب في تعلم لغة البلاد التي شاءت أقدارنا أنْ نكون أسرى عندها، ولما كانت الخشية من خطط الفرار هي المحرك لكثير من دوافع السلوك العدواني لدى أجهزة الاستخبارات الإيرانية، فقد مورست علينا رقابة صارمة لمنع تعلمنا الفارسية، إضافة إلى أنّ المعسكرات المعاقبة كانت تخضع لبرامج خاصة، في مقدمتها عدم إتاحة الفرصة للأسير بالانشغال بشيء نافع، على العموم راودتنا أسئلة ماذا يمكن أنْ نقول لمن يسألنا عما إذا تعلمنا الفارسية بعد هذا العمر الضائع الذي أمضيناه في بلد الضياع، ومع ذلك تبقى اللغة الفارسية لغة متخلّفة إلى حدّ ما، فهي

من اللغات التي تفتقد أداة التعريف (ال)، كما أنّها لا تمتلك أدوات التمييز بين المذكّر والمؤنث، وهذه هي الصفات التي تمنح أية لغة رونقها وإغراء التخاطب معها، يمكن أنْ يكون للغتنا العربية وثرائها الواسع أثرٌ في مثل هذه المقارنة، إلا أنّ اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية، لغات فيها أدوات التعريف والتفريق بين المذكر والمؤنث في عبارات واضحة.

كان اليوم الذي جرت فيه عملية تسفير أسرى معسكر قوجان قد شهد بعض المفارقات التي بقيت آثارها قائمة على الأرض، كان القدر الذي توزع منه الأرزاق اليومية ما يزال مركوناً في موضعه، ولم يفقد إلا القليل من محتوياته، وصحون الأسرى بعضها فيه كمية قليلة من الطعام والبعض الآخر مركون جنب القِدْرِ وكأنه يقول: إنّ من تسلم وجبته ألقى بها من فوره حينما نودي على الجميع بترك القاعة والوقوف في صف الانتظار، يا لها من صورة تتلهف إليها قلوب من بقي من الأسرى، كنّا نلاحظ هذه المشاهد ونمني أنفسنا بأنّ ساعة الخلاص من الذل والاضطهاد ومعاناة الأسر قريبة منّا وربما في متناول اليد ولكنّ قوة الشك بنوايا الإيرانيين لا يمكن أنْ تسمح للفرحة أنْ تكتمل حتى داخل ضمائر الأسرى.

للّيلة الثانية على التوالي لم يشأ النوم أنْ يزورنا إلا خفيفه، لم تكن التعليمات بوقف التبادل قد وصلت إلى إدارة المعسكر بعد، ولهذا لم يتدخل الحراس في تفاصيل أيامنا ولياليناّ، ولم يشعر أحدٌ منهم بحقيقة انفعالاتنا، ووحشة ساعات القلق وانتظار المجهول، كنّا نحلم في يقظتنا أكثر مما كنّا نحلم في نومنا، بالحافلات التي ستتراصف في الطريق الداخلي للمعسكر، ويقف الأسرى في طابور الانتظار كي يلقوا النظرة الأخيرة على أرض لن يرغبوا برؤيتها ثانية أبداً.

انصرم الليل بتثاقل وأطلّ الصباح ببطء شديد، قبل أنْ يجري التعداد اليومي، بادر أكثرنا للخروج من القاعات، كان عددنا يزيد على ٦٠٠ أسير بقليل، وتم توزيعنا على عدد من القاعات المتوازية من بعضها، كانت الأسلاك الشائكة التي تفصل بينها واهنة ذلك اليوم، ولم يحاول الجنود الإيرانيون ولأيام لاحقة منع التواصل بين الأسرى، سواء بفتح ثغرات بين تلك الأسلاك أو بالقفز فوقها، كانت الزيارات متواصلة بحيث أوجدت عندنا تصوراً أنّ العودة قريبة، فهذا ليس من شيمهم أبداً، بل إنّهم كانوا يقمعون بكل قسوة محاولات أبسط بكثير مما يجري اليوم، كان معظم الأسرى على يقين أنّ ساعات معدودة هي التي تفصلهم عن قدوم حافلات الأمل، وما عزز هذا اليقين أنّ شاحنة كبيرة دخلت وهي محمّلة بالأحذية الجديدة التي سيعود بها الأسرى إلى بلدهم، وفعلاً بعد أن ارتقت الشمس إلى وسط السماء، كان الضابط الإداري يتولّى توزيعها علينا، وكأن حواراً على وشك أنْ يبدأ بين أقدامنا التي لم يلامسها حذاء منذ بداية الأسر حتى اليوم، وبين حذاء قد يحتل مكاناً مهماً في ذاكرة الأسير بعد عودته، لأنّ هذا الحذاء هو علامة الانطلاق إلى الحدود بل ربما أصبح رمزاً للحرية على الرغم من أنه حذاء إيراني، وعلى الرغم من الألم الشديد الذي اعترى الأقدام فقد تمسك الأسرى بارتدائه، كنوع من التمسك بسفينة النجاة من الجزيرة المتوحشة التي ألقتهم مقاديرهم السيئة إلى شواطئها، كانت أياماً حافلة بأحلام اليقظة، يكرر قصصها الأسرى في أثناء نهارات التمشّي الطويل والذي لن يزحزحهم عن معسكرهم هذا، كأنّهم عجلة سيارة غاصت وسط بقعة عميقة من الماء والطين، ولكنّ سؤالاً ملحّاً كان يدور في خلد الأسرى جميعاً: لماذا لم يوزعوا المبلغ النقدي الضئيل والذي تمّ توزيعه على أسرى

قواطع أخرى؟ فهذا المبلغ هو والحذاء أهم دليل قائم على أنّ الحرية ليست مستحيلة.

مرت بضعة أيام تضاربت الأنباء فيها حول مصير تبادل الأسرى، وبطريقة مزقت أعصاب الكثيرين ممن كان يعتقد بصدق إيران بما تقدمه من التزامات تجاه الدول الأخرى، كنّا نستفسر من الجهات التي تجهّزنا بالأخبار اليومية والتي يتم التقاطها براديو ترانزسستور، ولكنّ شيئاً قاطعاً لم يصلنا، إمّا بمواصلة الأمل أو بقطع الرجاء، وتدريجياً بدأت سلطة المعسكر تسحب من هامش ما منحتنا من حرية داخلية، سواء بالتمشي أو بغض الطرف عن التزاور بين القواطع، وغيّر جنود الحراسات من أسلوب تعاملهم ونزعوا أقنعة الإنسانية التي لبسوها أسبوعاً وبعض أسبوع، وعادوا إلى وحشيتهم المعهودة، وفي مرة كان أحد الأسرى الأكراد الوطنيين واسمه جهاد والذي يجيد اللغة الفارسية، قد رافق مريضاً إلى المستشفى القريب لعلاجه من وعكة طارئة ألمت به، وأدت إلى إبقائه ليلة في المستشفى المذكور، وفي تصرف خال من الحكمة أقدم هذا الجندي الكردي على تحطيم صورة الخميني في الغرفة التي أدخل المريض إليها، وعندما حضر المسؤولون الإيرانيون واكتشفوا هذه الفعلة، أوصلوها إلى مراجعهم، فتمت معاقبة هذا الجندي، واعتبروها لاحقاً سبباً في تأخير تسفيرنا إلى العراق، في محاولة منهم لإثارة أسباب للنزاع واللوم بين الأسرى.

كان يوماً حزيناً للجميع يوم دخل العسكري الإيراني وأمر بلهجة حازمة بجمع الأحذية من دون إبطاء، لم يغضب أي إنسان في حياته لفقدان حذائه كما مرّ بالأسرى ذلك اليوم، لقد تحوّل الحذاء إلى عنوان لحريتهم، ولو أنّهم لم يحصلوا عليه لما مرّوا بهذه المقارنة المؤلمة، ثم تقلصت فترات التجوال في الساحة

الخارجية، وعادت أجواء الضغوط إلى أول عهدها وكأنهم يريدون إشعار الأسرى بأنهم ما زالوا تحت سلطة القوة الآسرة، كي لا يقع أحدهم في وهم افتراض إنسانية طارئة حلت في ربوع إيران الجديدة، الحق أنّ ما حدث كان إحباطاً حقيقياً للجميع، ولكنّ التعامل معه لم يكن بمستوى واحد من الحكمة والواقعية، فأنْ تستمر المأساة بكل فصولها، فالإنسان يقدر على التكيف معها بمرور الزمن، ولكنْ أنْ يلقى حبل للنجاة من جب يوسف، ثم ينقطع الحبل عند منتصف المسافة بين القاع والفوهة العليا، فهذا تجديد لعزاء من دون ميت ولكنْ بدرجة أقسى مما لو أخذت المحنة طابع التواصل والاستمرار. انعكست معاناة الأسرى في الأحلام، وأجهش من لم يتحمل الصدمة في بكاء مرير، ولكنْ لا البكاء ولا الصمت ولا الصبر المفروض غيّر شيئاً من واقع الأسرى، باستثناء راحة البال إلى أنّ الله ﷻ لم يأمر بعد بحريتنا، وهنا تكمن طمأنينة من سلّم أمره لله وأحسن الظن بقضائه وقدَره وعدله ورحمته.

في يوم جاؤوا بنا إلى قوجان كان تبادل الأسرى بين العراق وإيران قد توقف تماماً بسبب الفرق الكبير في أعداد الأسرى، وانطلاقاً من حسن ظن عراقي بإيران في غير محله، فقد دفع العراق بكل ما لديه من أسرى في أقل من شهر واحد، وبقي عند إيران آلاف من تعساء الحظ الذين كان عليهم تجديد إقامة في بلد من لا يرقب فيهم إلاً ولا ذمة، نعم توقف التبادل في ١٥/٩/١٩٩٠، وحرصت إيران على تكرار مقولتها: إنّ العراق لديه أسرى وإذا لم يرسلهم فلن تطلق سراح أحد من أسرى العراق. كانت الحكومة الإيرانية تعي جيداً أنّ واحداً من أسراها لم يبق في العراق، ولكن هذه العقلية المناورة هي السمة البارزة لكل ساسة

إيران بصرف النظر عمن يحكم فيها، سواء ارتدى بزة عسكرية أو إمبراطورية أو عمامة دينية، فالكل مختلفون على كل شيء، ولكنّهم متفقون على عقلية المناورة واعتبارها رمز الشطارة التي اتسمت بها إيران عبر التاريخ، لأنّهم من دونها لا يحسنون حتى تناول فطورهم كل صباح، أو معاشرة زوجاتهم كل مساء، وقطعنا تذكرة لبقاء مفتوح في بلد يتلذذ بعذابات الإنسان ويرد كل شيء إلى الفتاوى الدينية التي استهلكها الزمن وباتت من مخلفات الماضي.

استمرت النشرة الإخبارية بالوصول إلينا ولكنْ على نحو متقطع من حيث التوقيت، وغير مستوفية لشروط النشرة الإخبارية المهنية، كنت أجد صعوبة في ملْء الفراغات الواضحة في النشرات التي تلتقط من غير متخصصين، وقد تمر على فلترات معينة لعوامل تتعلق باستقرار وضع المعسكر خشية من انهيارات نفسية قد يتعرض لها البعض، ومع ذلك فقد علمنا أنّ مجلس الأمن اتخذ سلسلة من القرارات ضدّ العراق، بصورة لم يسبق له أنْ اتخذ مثلها ضد أي بلد في العالم، كان أول قرار اتخذه مجلس الأمن يحمل الرقم ٦٦٠ في ٢ آب/أغسطس ١٩٩٠، وهو يوم دخول القوات العراقية إلى الكويت، ولكنّ مجلس الأمن وهو في قلب أزمة دخول القوات العراقية إلى الكويت لم يترك مخلّفات الحرب العراقية الإيرانية، إذ أصدر قرارين الأول برقم ٦٧١ في ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩٩٠، والثاني برقم ٦٧٦ في ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠.

وكان مفهوماً أنَّ القرار الثاني لم يعد له وجود حقيقي بعد يوم واحد من صدوره، فالقرار رقم ٦٧٨ والذي صدر بعد يوم واحد فقط أي في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠ وعالج موضوع الحالة بين العراق والكويت، أعطى التحالف الدولي الذي شكلته الولايات المتحدة لإخراج القوات العراقية من الكويت استخدام القوّة بموجب

الفصل السابع لتحقيق هذا الهدف، حدّد شكل الوضع العسكري في المنطقة، وأنّ هذه القرارات كانت مجرد ديكورات سياسية أريد لها أنْ تدخل في روع العراقيين أنّ بلادهم حتى في حال قيام الولايات المتحدة بهجومها مع قوات من ثلاثين دولة سوف تُصان من أي دور إيراني. لقد شرعنت القرارات التي صدرت ضدّ العراق بشأن قضية الكويت لأيّة دولة لها ثأر مع العراق أنْ تجد لنفسها منفذاً تتسلّل منه إلى الأراضي العراقية، وهذا ما حصل على الأرض، ويمكن أنْ تكون تلك القرارات وليدة حاجة أمريكية لإعطاء العراق بعض الأمل في أنَّ في الجو بارقة أمل لحلّ سلمي لقضية الكويت.

ودارت عجلة مجلس الأمن بسرعة أمريكية جنونية، وأصدر سلسلة متصلة من القرارات على مدى عدة شهور، ثم أصدر قراره المرقم ٦٧٨ في ١٩٩٠/١١/٢٩، والذي أجاز استخدام القوة ضد العراق، ولعلّ أكثر المواقف انتهازية ونفاقاً كان الموقف الصيني الذي كان بإمكانه أنْ يحجب الشرعية الدولية عن العدوان الذي قادته الولايات المتحدة على العراق بعد انتهاء المهلة الممنوحة له والتي انتهت في الخامس عشر من كانون الثاني/يناير ١٩٩١، ولكنّ الصين فضلت إمساك العصا من الوسط فلم تنصر مظلوماً ولم تدعم عدواناً من الناحية العملية، ولكنّها وفّرت للمعتدي مظلّة الشرعية الدولية في تنفيذ عدوانه حينما امتنع مندوبها عن التصويت على قرار إجازة استخدام القوة ضد العراق مادّةً بصرها بشهية مفتوحة لرضى أمريكي عن مدّ مصالح صينية في الشرق الأوسط والخليج العربي، صحيح أنّ الولايات المتحدة كانت مصمّمة على خيار الحرب، ولكنْ أنْ تذهب إليها من دون مظلة دولية شيء، وأنْ تذهب إليها وهي تبدو كمن ينفّذ قراراً دولياً شاملاً بإخراج العراق من الكويت بقوة السلاح شيء مختلف تماماً.

كنا نواجه بتساؤل كل صباح متى تبدأ الولايات المتحدة هجومها؟

قليلون هم الذين كانوا يتساءلون هل يقع الهجوم أم لا؟ فالصورة واضحة وضوح الشمس، وأمريكا كانت تبحث عن فرصة لتدمير ما أنجزه العراق من تقدم في مجالات العلوم والتعليم والطبّ والتكنولوجيا والاقتصاد والقوة العسكرية، في أثناء حرب الثماني سنوات وبدأت بيادرها ترتفع فوق الأرض.

تمّ فرض حصار مطبق على العراق من كل الجهات، حاول العراق أنْ يفتح ثغرة في هذا الجدار السميك والعالي، فلوّحت إيران بيد وأخفت بيدها الأخرى خنجراً مسموماً، ولمّا لم يكن أمام العراق خيارات أخرى، جاء السيد عزت إبراهيم نائب رئيس مجلس قيادة الثورة في زيارة رسمية لقي خلالها استقبالاً قلَّ نظيره، ومن بين المدن التي زارها كانت مدينة مشهد التي تضمّ مرقد علي موسى الرضا ثامن الأئمة عند الشيعة الجعفرية الإثني عشرية، ووقع العراق في فخّ الغدر الإيراني مرة أخرى، فبعد حرب طاحنة أتت على البشر والشجر والحجر، يبدو أنّ العراق اطمأنَّ إلى ما ادعته إيران من وحدة المعركة ضد الشيطان الأكبر، أو هكذا حاول أنْ يجرّ إيران إلى تطابق بين التطبيقات والشعارات المعلنة، ولضيق هامش المناورة السياسية والعسكرية، ولانعدام الفرصة أمام سلاح الجو العراقي للقيام بدور مؤثر في المعركة المقبلة، فقد صدرت الأوامر بإيداع الطائرات العسكرية المقاتلة وطائرات النقل، وكذلك طائرات الخطوط الجوية العراقية لدى إيران، وحتى ما تبقى من طائرات حربية تمّ استبقاؤها في العراق لتنفيذ بعض الواجبات القتالية الخاصة جداً، فإنّ الطيارين وحينما كانوا لا يجدون فرصة آمنة للهبوط في مطار عراقي بعد تنفيذ مهمة قتالية ما، فإنّهم كانوا

يتوجّهون إلى أقرب مطار إيراني وبموافقة البلدين، ومع ما في هذا الموقف من ثقة في غير محلها من قِبَل القيادة العراقية ومن موقف عاطفي بعيد تماماً عن حسابات السياسة، في زعامة إيرانية كان طعم السمّ الذي تجرّعه الخميني بقبوله لقرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ بوقف إطلاق النار، ما يزال عالقاً تحت لسان كل المسؤولين الإيرانيين الذين لا يجيدون شيئاً كإظهار ما لا يبطنون من قناعات، مع كلّ ذلك فغالب الظن أنّ القيادة العراقية لم تجد باباً آخر لتطرقه غير باب عدوّ الأمس اللدود، وجدت إيران في لجوء العراق إليها فرصة للثأر منه، وهي تعلم جيداً أنّ الحرب القادمة هي ليست من طراز الحروب التي شهدها العالم منذ الحرب الفييتنامية، وأنّ العراق لا يمكن وبقياسات العلوم العسكرية أنْ يكسب هذه الحرب، وأبطنت نية الاستيلاء على هذه الموجودات.

كانت السنة تقترب من نهايتها، ومع الوقت وخاصة في قوجان المنطقة الأكثر برودة في المدن الإيرانية، كانت درجات الحرارة تنخفض بوتائر متسارعة، ولكنّ الجو السياسي في العراق خاصة والمنطقة عموماً كان يشهد ارتفاعاً أكثر تسارعاً في درجات حرارته ويقترب حثيثاً من موقد النار المعّد بإحكام، فنسي أكثرنا محنة الأسر واتجهت أبصارنا وأفئدتنا نحو العراق، والموعد المضروب لبدء العمليات الحربية، وكانت ساعة الصفر على وشك أنْ تبدأ، لم نتوقع أنّ أمريكا ستسمح بانتصار العراق حتى لو لجأت إلى استخدام الأسلحة النووية، وهي صاحبة سجل معلوم في هذا الخصوص، فماذا يمنعها إذن؟ ولكنْ مجرد قبول العراق للمنازلة كان ينظر إليه على أنّه تحول في المواجهة التي بدأت مع أول قذيفة سقطت على بغداد، ولن تعرف التوقف ما لم يجد العالم طريقاً إلى نظام دولي جديد، تُخلي فيه الولايات المتحدة كرسي الاستقطاب

الواحد الذي انتزعته بضرب الاتحاد السوفيتي وإزاحته عن كفة التوازن الثانية.

كما ذكرت آنفاً كان الأسرى يقيمون في قاعات متوازية، يفصل بين واحدة وأخرى ساحة للعرض الصباحي للجنود عرضها حوالى خمسة عشر متراً، وبعد التشديدات التي تم فرضها على حركة الأسرى، ومن أجل ضمان تدفق الأخبار فقد أنجز بعض الأسرى ربط قاعتنا مع القاعة المجاورة بسلك معدني من مستويين بحيث يبدو وكأنه مخصص لنشر الملابس، ومن أجل إيصال «الفَّة» الأخبار تعلق بالسلك ثم تبدأ عملية تدويره تدريجياً حتى تصل بأمان، وكنّا نختار وقتاً قبل أذان الفجر لهذه العملية.

فجر يوم ١٧ كانون الثاني/يناير ١٩٩١م كان مختلفاً عما قبله، استيقظ جميع أسرى قاعتنا على هينمة وهمس مسموعيْن، بعد أنْ استعدّ الجميع لسماع الخبر القادم، بدأ أبو لينة بتلاوة ما ورد إليه، كانت الصواريخ تسقط على بغداد كالمطر، وكانت الطائرات الأمريكية الصنع والتي يقودها طيارون أمريكيون وسعوديون وكويتيون ومن جنسيات أخرى، وكذلك الطائرات البريطانية والفرنسية، تلقي بحمولاتها من رسل الموت على كل شيء يتحرّك في مدن العراق، وعلى مواضع الجيش العراقي في الكويت، كانت المعركة غير متكافئة بين الطرفين، ولكنّ بسالة الجندي العراقي ضربت أمثلة في اختزال المسافة التكنولوجية بين طرفي معادلة القتال، ولم يتردد الأمريكيون في العودة إلى لعبتهم المفضلة في استخدام السلاح الذري، ولكنْ هذه المرّة في ضرب العراق بأسلحة اليورانيوم المنضّب والفوسفور الأبيض، إذن بدأت الحرب وكان الإيرانيون أكثر الحكومات نفاقاً وانتهازية، فقد كانت قد حشدت قوات الحرس الثوري على حدود العراق، انتظاراً للفرصة

السانحة التي تستطيع فيها تحقيق ما عجزت عن تحقيقه طيلة ثماني سنوات من حرب طاحنة. ولعلّ أسوأ ما تصادف في تاريخ العلاقات بين الدول هو ما أقدمت عليه «الحكومة الإيرانية الإسلامية» حينما اعتبرت الطيارين العراقيين الذين هبطوا اضطرارياً في مطارات إيرانية نتيجة تدمير القواعد التي انطلقوا منها، اعتبرتهم أسرى حرب ومارست ضدهم أساليب التعذيب نفسها التي تعرّض لها الأسرى الآخرون وربما أسوأ من ذلك، لأنَّ الطيارين هم الذين أذلّوا كبرياءها الزائف ودمروا أهم منشآتها النفطية التي كانت تمثل لها شريان الحياة، في خطوة غير مسبوقة حتى من أكثر النظم السياسية تخلفاً في العالم.

كانت أخبار العمليات الحربية ترِدنا تباعاً مع يقيننا بأنّ العراق غير مسموح له بالصمود لوقت طويل، وكانت آمالنا بالعودة إلى الوطن تتلاشى تدريجياً، إيران مع انتصار العراق تتصرف كطاووس كسروي يرتدي العمامة، فكيف ستتصرف مع الذي يحصل للعراق الآن؟

بعد بضعة أيام من بدء المعارك زار معسكرنا «الحاج نظران» سكرتير مجلس الدفاع الأعلى في إيران ورئيس لجنة شؤون الأسرى، ومعه هيئة أركانه وفي مقدمتهم «رو نواز» أسوأ جلادي الأسرى ومسؤول استخبارات اللجنة والمكلف من قبل الزعامة الإيرانية بعملية تفكيك المعسكرات وتسقيط الأسرى بكل الوسائل المتاحة، أية تعاسة هذه التي تحلّ عند مجيء نظران؟ وأية تعاسة مركّبة تلك التي تأتي به وهو يكشّر عن أنياب الشماتة بما حلّ بالعراق، أخبرنا أنّه كان في العراق قبل بدء العمليات الحربية، وحاول تسريب رسالة للأسرى قد تهير معنوياتهم، فقال: وجدت العراق في حالة بؤس شديد، ويعاني الناس نقص الخبز، وأردف

ذلك بالقول: «احمدوا الله على أنكم تحصلون على خبز كثير في معسكرات الأسر»، وعندما سألناه متى نعود؟ قال: إنّ من يعرف ما حلّ بالعراق بعد بدء العمليات الحربية قد يصاب بالسرطان من هول الفاجعة، قد تكون صورة الوضع في بلد يواجه الولايات المتحدة هي كما رسمها نظران وقد تكون أسوأ، ولكن أنْ نكف عن حب بلدنا أو أنْ نشعر بالسعادة أنّنا بعيدون عنه لمجرّد عدم تعرضنا لخطر الحرب أو نقص الخبز فذلك ليس في قدرة نظران الوصول إليه مهما استخدم من وسائل الحرب النفسية، ومن بينها زيارته هذه التي ترمي إلى إسقاط عدد آخر من الأسرى المخلصين لبلدهم.

كانت الأخبار الواردة من مصادرنا تحمل صوراً مروعة عمّا يتعرض له العراق جرّاء القصف الوحشي الذي تنفّذه طائرات التحالف الدولي، العمليات البرية لم تبدأ فور بدء القصف الصاروخي والجوي الذي كان ينطلق من غواصات من البحر الأحمر أو من شرق المتوسط، أمّا الطائرات فكانت تتحمل بقنابلها من القواعد السعودية والخليجية الأخرى، في حين أنّ القاذفات الاستراتيجية من طراز B52 أو من طراز B1 وB2 فكانت تنطلق من قاعدة دييغو غارسيا جنوب المحيط الهندي، وكانت تحمل للعراقيين الموت والدمار، ومع ذلك فقد صمد العراقيون صموداً أسطورياً، وبعد أنْ أيقنت أمريكا أنّها أتت على معظم قدرات العراق العسكرية، وأنّ معظم طائراته خرجت من الخدمة، بدأت المعارك البرية بشراسة مع عدم التكافؤ في قوة الطرفين المتحاربين، لم تكن عندنا أوهام بشأن نتائج الحرب، ولهذا تعلّقت آمالنا بتقليص حجم الخسائر العراقية قدر المتاح، في خضم مأزق الحرب والدمار الذي لحق بالعراق، نسينا مأساتنا تماماً، وظننّا أنّ العراقيين أو معظمهم هم الآن أسرى مثلنا، ووطّنّا أنفسنا على قطع تذكرة أسر طويلة

هذه المرة، لأنّ إيران ستحصد نتائج الحرب لصالحها، وتبدأ مسيرة تساوم مع العراق لن تقف عند حدّ أبداً.

ومع كلّ الألم الذي تجسّده معاناة الحرب كنّا حريصين على استمرار وصول النشرة الإخبارية اليومية إلينا من القاعات الأخرى، لم نتمكّن من الهرب من مأساة أهلنا الذين وضعهم الأمريكيون في مختبر تجارب الأسلحة الجديدة التي لم تستخدم في أي حرب قبلاً، ضاعف الإيرانيون من ضغوطهم علينا، وكأنّهم قرؤوا المشهد بصورة خاطئة حينما ظنّوا أنّ من كان يحمينا قد تخلى عن مهمته هذه، وتعددت تصرفات الجنود الهادفة إلى الإساءة لكرامة الأسرى بأساليب رخيصة، وكانوا يحصون علينا حركاتنا وسكناتنا ويتصيدون أية فرصة يجدون فيها ثغرة يمكن أنْ تفسّر ضد الأسير من أجل إخضاعه لعقوبة يسمونها انضباطية، وهي في واقعها عملية انتقام وتفريغ لعقد الهزيمة التي حلّت بالقوات المسلحة الإيرانية في جبهات القتال.

يبدو أنّ معسكر قوجان يعيش سياق المواجهة بالدم بين أسرى عزل وجنود مدججين بالسلاح، ففي صباح الخامس من شباط/فبراير ١٩٩١، كان المعسكر يبدو على غير عادته، فالجنود منتشرون في طرقاته وبين القاعات بكثافة، وهو عندنا مؤشر على تفتيش عام لأسراه، أو هو بداية نقل إلى مكان آخر، بعد التعداد الصباحي بقليل اندفع عدد من جنود الحراسات الداخلية في المعسكر إلى داخل قاعتنا، أبلغونا بجمع جميع ما نمتلك وإخراجه وبأقصى سرعة، كان هذا شأنهم دائماً في أثناء التفتيش كي لا يتمكن أحدٌ من إخفاء شيء من الممنوعات، وفي مثل هذه الحالات يقع ما يجد فيه الإيراني فرصته لإيقاع الأذى بالأسير، إما لحديث مع زميل، أو للعثور على ممنوع، يومها كان الملازم

المرحوم عدنان عبد الرزاق العزاوي هدفاً مقصوداً من طرف الجندي الإيراني الذي كان يقوم بتفتيش موجوداته، وتصاعد الموقف بشكل فجائي، وتم إدخالنا إلى القاعة واستُبقِي عدنان ومعه عدد آخر من الأسرى من دون معرفة الأسباب الحقيقية، وبعد قليل سمعنا صوت صياح عال، تبين فيما بعد أنّ الجنود الإيرانيين ربطوا أيدي الأسرى وبدؤوا بحلاقة شواربهم، فما كان من عدنان وعلى الرغم من ربط يديه إلا أنْ ينتفض على الجنود ويشتبك معهم، وتتطور الأحداث بصورة متسارعة خرجت عن السيطرة. وما حصل مع قاعتنا حصل مع القاعات الأخرى وإنْ بدرجة أقل، لم يعد بالإمكان السيطرة على المشاعر بعد الإهانة التي تعرض لها بعض الأسرى من دون ذنب، فجأة امتلأت الساحات بالأسرى الغاضبين، وتَمَتْرَسَ الجنود وراء بنادقهم وتصاعدت الهتافات عالياً بحياة العراق والرئيس صدام حسين وكأنهما شيء واحد لا يقبل الفصل، اندفع عامر الدليمي واندفعت وراءه، لم أكن أعرف أية وجهة يقصد ولكنّه رفيق درب المحنة وصديق صدوق وأسير عراقي ولا يجوز تركه في لحظة انفلات الغضب، كانت أصوات العيارات النارية تتعالى في أفناء المعسكر، لم نعرف ما إذا كانت النيران مسددة نحو الأسرى أم أي مكان آخر، وهل وصل الجنون بالجنود إلى حدّ القتل العمد من دون سبب، وذلك بعد سنتين ونصف من نهاية الحرب؟ ومن تراه أصدر لهم الأوامر بذلك؟ وما هي حججه أمام الله والذات والتاريخ؟ تقدّم عامر ببسالة وقال للجندي الإيراني بلغة فارسية ركيكة: «اقتلني إذا كنت رجلاً» كان يفتح قميصه مشيراً إلى صدره لكي يعزز من معنى التحدي في حال إذا لم يفهم الإيراني كلماته، ولكنّ الجندي وقف متسمراً في مكانه لهذا المنظر، ثم تراجع إلى الوراء فظننته أنه سيطلق النار بعد التصويب

عن مسافة مناسبة، سحبت عامراً إلى الخلف وقلت له: «ماذا تفعل يا أخي؟ ولماذا نضحي بك من دون مقابل؟»، وبعد دقائق حضر آمر المعسكر الذي أصدر الأوامر لجنوده بالتراجع إلى الخلف وتعليق البنادق على الأكتاف إشارة لعدم النية بإطلاق النار مجدداً، ولكنّ الغضب كان قد وصل غايات لم يكن بالإمكان التحكم بالمشاعر معها، وبدأ الأسرى إضراباً مفتوحاً عن الطعام احتجاجاً على إهانة الأسرى وخاصة حلاقة شواربهم التي تأخذ معنى خاصّاً في العراق وفي التعامل مع أسير فقد القدرة على الدفاع عن نفسه، وتوالت الوفود الرسمية من قيادة الفرقة ٧٧، ومن الاستخبارات ومن المعممين في محاولة لفك الإضراب، وذلك من دون جدوى، علمنا أنّ عمليات التفتيش التي شملت المعسكر بكامله في وقت واحد تمت بناء على وشاية من أسير انتهى زاد طريقه، ففضل عبور الطريق إلى الرصيف الآخر، وأخبرهم عن وجود جهاز راديو يربط الأسرى مع الوطن والشخص الذي يستخدمه، وبالفعل كانت المعلومات دقيقة جداً، استشاط الإيرانيون لهذا الخرق الذي حققه الأسرى لجنودهم، كان عليهم أنْ يفتحوا تحقيقات معمّقة حول اسم الجندي الذي جلب الراديو، ومارسوا من التعذيب مع نزلاء القاعة التي كان الراديو بحوزتهم مما لا يستوعبه عقل عاقل في نهايات القرن العشرين، ولكنّ الأسرى صمدوا على نحو أذهل الإيرانيين، واستمر إضراب الأسرى وسقط بعض المرضى الذين أصروا على المشاركة فيه على الرغم من المحاذير الصحية وتحذيرات الأطباء العراقيين لمرضى الجهاز الهضمي والقلب والأمراض المزمنة من المشاركة في الإضراب، وعلى الرغم من إلحاح جميع الأسرى على المرضى للبقاء خارج الإضراب، إلا أنّ روح المشاركة مع المجازفة المؤكدة كانت سيدة الموقف، ليس في هذه المرة فقط وإنّما حيثما كانت

ساحة المنازلة بحاجة إلى فرسانها. كان العراقيون يتسابقون في الإيثار ونكران الذات والتضحية من أجل الوطن ومن أجل بعضهم بعضاً، كان علينا أنْ نتصرف لإجبار المرضى على تناول الطعام، وجدنا صعوبة كبيرة في هذا الشأن ولكنْ في النهاية كان لا بدَّ من أن يمتثل المرضى لطلبات الآخرين.

في كل يوم يأتي الجنود بالطعام ويتركونه أمام أبواب القاعات في عرض رخيص لكسر الإضراب، وعندما يخيب ظنهم يحملون «سلالهم» ويرحلون، وتتكرر الصورة ثلاث مرات في اليوم الواحد، وعندما استجاب المرضى لندائنا بكسر الإضراب تكفّل طبيب عراقي من بين الأسرى بتنظيم جلب الطعام لهم، وكان المرضى وهم في أشد حالات الحرج يتناولون القليل من الطعام ونقرأ في عيونهم الحرج الشديد من الخروج الإجباري على إجماع الأسرى، ومن وقت لآخر كان معاون آمر المعسكر أو ضابط من الاستخبارات يأتي إلى قاعات المعسكر ويسأل إلى متى سيستمر إضرابكم؟ كنّا نجيب إجابة واحدة: عندما تكفون عن الاعتداء علينا وجرح مشاعرنا وإهانة كرامتنا. وفي إحدى المرات طلبوا منّا إرسال ممثلين عنّا للتفاوض مع وفد إيراني كبير، اختارني الأسرى لهذه المهمة وجاء معي الأرشد والمترجم، ولكنْ المفاوضات لم تسفر عن شيء وإنْ أعطتهم تأكيداً عن إصرار الأسرى على موقفهم، وتوصل الوفد الإيراني إلى استنتاج بأنّ قاعتنا هي التي يتخذها بقية الأسرى قدوة في مواقفهم، ومع ذلك أعطى تعهدات غامضة عن عدم تعريض كرامة الأسرى للإهانة والكف عن مبدأ العقوبات الجماعية، وعدنا من دون أنْ نحمل جديداً، وتحدثنا بما جرى بالتفصيل عن كل ما دار بيننا وبين الوفد الإيراني، وحينما عرض الأرشد موضوع الإضراب وعما إذا كان علينا الاستمرار به أو التوقف عنه أصر الجميع على مواصلته.

في يوم ١٩٩١/٢/١٢ جاء آمر المعسكر إلى قاعتنا وكرر الطلب بوضع حد للإضراب وقال إنّ بقية القاعات تسلموا قدور الطعام وهم الآن يتناولون غداءهم، فلماذا تبقون وحدكم في ساحة الممانعة؟ ظننا أنّ آمر المعسكر كان يكذب علينا هذه المرة أيضاً كسابق عهده معنا، وحينما أقسم «بحليب أمه» وهو أغلظ الأيمان عند الإيرانيين، بدأنا نفترض شيئاً من الصدق في حديثه، ولكنّنا لم نسارع لإعطاء رأي فوري، كي لا نشمت بنا الأعداء، نعم الجوع أخذ منا الكثير من القدرة على الحركة، وهو جوع تراكم فوق جوع لازمنا مع أول خطوة في الأسر. ثم إنّ الإضراب بدأ جماعياً لكل قاعات المعسكر، فعلينا أنْ ننسق خطواتنا مع بقية رفاقنا الأسرى في القاعات الأخرى، صحيح أنّ هدفاً محدداً يراد تحقيقه من الإضراب لم يتم الاتفاق عليه مع القاعات الأخرى، إلا أنّ الإضراب حصل وعلينا الآن العمل على موقف موحد، ولا يليق بقاعة تضم الضباط وكوادر حزبية وإدارية أنْ تكسر قراراً من دون العودة إلى البقية، ولذلك طلبنا من آمر المعسكر أنْ نتأكد بأنفسنا من صحة إنهاء الإضراب في بقية القاعات، ومما أثار دهشتنا أنّه استجاب فوراً على الرغم من أنّ طلبنا كان يعد تشكيكاً بمصداقيته بل وتكذيباً له، ولكنْ على العموم لا يمكن أنْ يتوقع أحد نوعية الخطوة الإيرانية اللاحقة، فالمرونة تأتي وقت وجوب التشدد، والتشدد حدّ التعسف يأتي دونما سبب منطقي، وشكّلنا وفدنا من الأرشد ومعه اثنان من الأسرى، والتقوا مع أراشد القاعات الأخرى، فأكدوا أنّهم أنهوا الإضراب من ليل ١٩٩١/٢/١١، امتعض الكثيرون من انفراد بقية القاعات باتخاذ قرار كسر الإضراب من دون تشاور معنا، وربما لو كنّا نحن مَنْ كَسَرَ الإضراب لكنّا تعرضنا لكثير من اللوم وربما التشهير، ولكنْ الآن ليس وقت

التلاوم أو تحميل الناس فوق طاقتهم، وجاء طعام الغداء وأكلنا بعد أسبوع من جوع إرادي روضنا أنفسنا على تحمل الصعوبات، وخرجنا فيه من دون أنْ نضطر إلى تقديم تنازلات حتى بفرض أنّنا لم نحقق مكسباً في معركته.

ذهب كثيرون إلى أنّ اهتمام الإيرانيين بموضوع الإضراب ربما يؤكد أنّ بارقة أمل قد أشرقت في سماء الأسرى الملبدة بالغيوم السوداء، أو هو دليل على أنّ قيامة الأسرى من رقدتهم الطويلة قد نفخ في صورها، أو هو على وشك ذلك، وكانوا يقارنون بين موقف الإيرانيين بموضوع الإضراب وتعمّدهم قبل عدة شهور حينما ضرب زلزال متوسط إقليم خراسان، وخشية من وقوع هزات ارتدادية فقد أقفل علينا الحراس الإيرانيون أبواب القاعات، وتم إجلاء جميع عائلات العسكريين من القرية الملحقة بمعسكر قوجان إلى خيم في الحدائق العامة المنتشرة على أطراف المدينة، ومن وقاحة الجنود أنّهم لم يخجلوا من مصارحتنا بحقيقة الأمر، وقالوا لنا: إذا وقعت هزة ودمرت المعسكر ربمّا لن يخرج منكم أحد، وإذا صادف أنْ ينجو واحد منكم ونجح في الفرار فسوف لن نتمكن من معرفة ذلك، وحتى إذا حصل فإنّنا سنقول بأنّنا اتخذنا كل ما يجب علينا اتخاذه من إجراءات وتدابير، ولن يتعرض أحدنا للمساءلة، فغاية همهم أنْ لا يتعرض أحدهم للعقوبة، أمّا من يقتل من الأسرى فتلك قضية موكولة إلى الله وحده من جانب، ومن جانب آخر إلى طيش جندي إيراني يحمل في داخله أكثر من شخصية تتصارع بين الرفق بالأسرى أو البطش بهم من دون أن يحتاج ذلك إلى أكثر من ضغطة عابرة على زناد بندقية جاهزة للقتل، هذا هو الذي قاد إلى تفسيرات متفائلة، وربمّا كان الأسرى بحاجة إلى شيء منها زاداً لطريق طويل آخر. وعلى العموم فأفكار

مثل هذه تعكس مدى اليأس الذي وقع فيه الأسرى، وبحثهم عن أية قشّة يمكن أنْ تحملهم فوق بحر الأسر المظلم، ومع أنّ تجارب سابقة قد تؤكد فشل المراهنة عليها فالأسرى لا يتمكنون من مغادرة كوة أمل قد يأتي منها بصيص ضوء في نهاية النفق.

معسكر قوجان محاط بحدائق ومزارع ممتدة في أرض متموجة، وتتفرع داخل المعسكر قنوات إروائية يمرّ الماء فيها بسرعة، الماء شديد البرودة وصافٍ كأنه كريستال، ولكنّ طعمه مزيج متعادل من الملوحة والمرارة، ومنه نظمت شبكة الإسالة التي تخدم المعسكر وقريته السكنية، وعند فتح حنفية الماء يتدفق بقوة على شكل سائل مستحلب، يحتاج لبضع ثوان حتى يسترد شكل الماء الذي يوصف بأنه عديم اللون والطعم والرائحة، ولهذا كان استخدام الحمام مستحيلاً من دون أنْ يتم تشغيل موقده، وطيلة أحد عشر شهراً وبضعة أيام أمضيناها في قوجان كانت فرصتنا معدومة للاستحمام إلا بعد أنْ يسمح الإيرانيون بتشغيل سخاناته وجلب وقودها.

ويتم استخدام الجنود الإيرانيين في إدامة مزروعات المعسكر الواقعة خارج الأسلاك الشائكة، ويكلّف الأسرى بمتابعة الأمر في الداخل، كما تتم زراعة الحنطة في الأراضي الممتدة فيما جاور المعسكر، ووراء أحد التلال المحيطة ترقد جثامين العشرات من شهداء الأسر الذين سقطوا بنيران الجنود الإيرانيين أثناء انتفاضة الأسرى عام ١٩٨٣، كان الجنود الإيرانيون يتوارثون عن أسلافهم قصة الأسرى الذين واجهوا الرصاص بصدور مفتوحة، وكانوا يخوّفون النزلاء الجدد من مصير من سبقهم، كانوا يقولون: إنّ كل جثمان وضعت معه قنينة تحتوي على اسمه الكامل ومكان أسره وتاريخه والمدينة التي ينحدر منها.

مرت بنا موجة برد لم نشهد مثلها أبداً، إذ تدنت درجات الحرارة حتى وصلت إلى ١٩ درجة تحت الصفر المئوي، وبقاعات خالية من التدفئة، وغذاء لا يسدّ الرمق، وترافقت موجة البرد مع الإضراب العام عن الطعام، كانت الجدران تصبح وقد تحولت إلى كتل ثلجية تتدلى عليها من فرط شدة البرودة التي تجمّد بخار الماء المتطاير مع أنفاس الأسرى.

بمرور الوقت كانت أفكارنا عن تبادل سريع للأسرى تتلاشى تدريجياً، وعقدنا العزم على التعاطي مع حياة أسر طويلة الأمد على أنّها أهم حقيقة علينا أنّ نتعايش معها، ومع الوقت صارت جزءاً من تكويننا النفسي والفكري، من مجموع الأربعة وعشرين أسيراً جمعتهم مأساة مشتركة، ورحلة همّ واحد ونقاء في الموقف الوطني، وإيثار في الموقف الشخصي، بقي أكثر من ثلثيهم بقليل، حتى أوشكت هذه الرابطة أنْ تتحول إلى عصبية من نوع جديد وطريف تجمعهم، بحيث يجد أحدنا نفسه منحازاً عاطفياً إلى جانب رفيقه حتى ضدّ أبناء المدينة التي ينتمي إليها، بعد أنْ صمد جميع من بقي من هذه المجموعة حتى الشوط الأخير لم نعد في خوف من أنْ يختطف السقوط منّا أحداً، لأنّ ذلك كان يثير فينا حزناً حقيقياً على فقدان أحد، ولكن الموت سيدخل على خط الاختزال هذه المرة ويبدأ يقلص عديدنا.

أنْ يقترب الأمل ثم يقطع حبله فجأة أسوأ بكثير من ألا يأتي فيجدد للمحزون لواعجه، وحال الأسير المقطوع عن العالم الخارجي، بل المقطوع عن السياج الذي يحيط بقاعته وحياته المحدودة في تنوعها الفقيرة في تفاصيلها، بحاجة إلى قوة مراس كي توطّن النفس على نمط رتيب، فمعايشة اليأس فنّ لا يقدر عليه إلا من يعيش في حفرة عميقة من المعاناة التي يتصارع فيها اليأس

العملي مع الأمل الفكري والشعوري، حينذاك تمتزج الصور وتتوحّد بحيث لا يجد المرء فرقاً بين أنْ يتطلع إلى الخلاص، وهو واثق من أنّ الخلاص الوحيد غير متاح إلا بالموت، وبين أنْ يصرّ على ثقة غير محسوسة المصدر بأنّ الخلاص سيأتي بالحياة مجدّداً على طريقة أهل العراق وليس ما هو سائد في إيران.

كان علينا إذن أنْ نمارس دور الوعاظ لبعضنا البعض، ليس كل أحوالنا على سواء في كل الأوقات، يوم تتكهرب أجواء أحد الأسرى يهب المقربون منه للتخفيف عنه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، في يوم آخر يمكن أنْ تنعكس الصورة فيكون واعظ اليوم تلميذاً في مدرسة من كان في الأمس يلقي إليه بالمواعظ، ومن العجب أنّ الجميع مقتنعون بتبادل الأدوار بل ويمارسونها عن طيب خاطر من دون أنْ يشعر الواعظ بالتعالي على غيره ومن دون أنْ يشعر من يتلقى الموعظة أنّه عاد إلى مقاعد الدراسة من جديد.

وهكذا كانت أيامنا تمضي في قوجان بعد ضياع فرصة اقتربت كثيراً ولكنّها أفلتت وربّما إلى الأبد بالنسبة إلى بعضنا على الأقل وهذا ما كان حقّاً، ولكنّنا كنّا نستذكر الآية الكريمة التي تقول: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]، ونستمد منها القدرة على المطاولة وتحمل كل ما نواجهه من صعاب ومشاقّ. نعم كنّا نعتبر أنفسنا في جهنم وعذابها المتصل، ولا نرى فرقاً بين الحالين، إلا أنّ من يدخل جهنّم يخضع لحساب أعدل الحاكمين، وأنّ من أصبح أسيراً فإنّه سيكون ضحية لأظلم الظالمين وأكثر الحاكمين جوراً، وكما هو حالنا في كل معسكر كنّا نكرر أحاديثنا بلا ملل، ونجد سعادة كبيرة حينما نلتقي بأسير جديد لديه قليل من أخبار العراق التي نراها جديدة علينا حتى ولو كان عمرها يعود إلى خمس أو ست سنوات، فهي ذات نكهة خاصة ولها

وقعها الخاص على آذاننا، ويمكن أنْ نمضي معها عدة أسابيع، وهكذا تتحوّل مأساة مواطن فقد حريته إلى سبب بارتياح أسرى قدامى، يخضع مثل هذا الوافد الجديد لأكثر الاستجوابات تشعباً وبحثاً عن أدق التفاصيل بل وأتفهها أحياناً، من أجل تغطية نهمٍ لمعرفة أخبار الوطن البعيد جداً والقريب حدّ الالتصاق بالعين.

الآن عدْنا إلى قاعة معزولة عن قاعات المعسكر الأخرى، ولم يعد ميسوراً الاتصال بالأسرى فيها أو معرفة أخبارهم، وهذا ما كان يقطع عنا بعض الأخبار، فالجندي الإيراني يمكن أنْ يستسهل التعامل مع الجندي الأسير، ولكنّه كان يخشى من مجرد الحديث مع ضابط أو حتى التقرب منه، لفرط التحذيرات من أنّ ضباط الجيش العراقي يمكن أنْ يوقعوا بالجنود الإيرانيين ويستدرجوهم لأنشطة تقع تحت طائلة القانون حتى في الظروف الاعتيادية، فكيف وحالة الحرب بين العراق وإيران ما تزال مستمرة، أو على الأقل لم يتحول إطلاق النار إلى سلام اتفاقي مباشر أو برعاية الأمم المتحدة، وفي بلد مثل إيران كانت تهمة التجسس للعراق مثل مطرقة مرفوعة فوق رؤوس الإيرانيين، الموالين منهم للنظام والمعارضين على حدّ سواء، وللعسكريين زمن الحروب خصوصية في حالتي العقاب والثواب، وهذه حالة عامة لا تنفرد بها إيران فقط، وإنْ أخذت عندها بعداً أكثر وضوحاً من سواها، ومع إغلاق ملف العودة بالنسبة إلينا على الأقل لزمن غير محدد استعدنا الكثير مما كنا نقضي به وقتنا الثقيل، وبما ينفع في جوانب مهمة من حياتنا في «غربة الشرق» من العراق، كنّا نعتقد أنّ حشد الموقف الوطني عند الأسرى ليس هو حالة استعراضية أو شكلية وإنّما هو جزء من كرامة الإنسان إن لم يكن كلها، هي حالة ملحّة لأنّ الملل وطول الغربة يطلق أسئلة كثيرة، إذا لم يصرح بها

وتجد لها أجوبة مناسبة أو تقود إلى حوارات بناءة وناضجة فإنّها تبقى حبيسة داخل صدور أتعبها السفر الطويل إلى المجهول من دون أمل ببصيص نور في نهاية النفق المعتم، من هنا كنّا نبحث عن السداد الضعيفة أمام فيضان قوي، كنّا نبحث عن أقرب الأصدقاء الذين يؤثرون في من تكثر أسئلته المريبة عن مدى الصمود وأمده في معسكرات الأسر، ونحاول افتعال مناسبات لجلسات شاي أو غداء مشترك، وتبدأ الأجوبة عن الأسئلة التي نعلم أنّها حبيسة صدور ليست على استعداد للتساؤل عن حق الوطن على أبنائه أبداً، ولكنّ التساؤل يمكن أنْ يكون عمّا إذا تمّت إدارة ناجحة لعملية التبادل لأسرى العراق وإيران، خاصة وأنّ المسؤولين الإيرانيين كانوا حريصين على اختلاق قصص عن صفقات عقدها موظفون ضمن الفريق العراقي المشرف على عملية التبادل، وتقديمهم أسماء لأقارب لهم من أجل وضعهم على اللوائح الأولى للأسرى العراقيين المطلق سراحهم. كان كبار المسؤولين الإيرانيين الذين زارونا يعددون أمامنا أسماء بعض موظفي اللجنة العراقية المشرفة على التبادل الذين تمكّنوا من سحب أقارب لهم، على الرغم من أنّهم لم يكونوا مشمولين بالتبادل في المراحل الأولى، كادت الكذبة تنطلي على الكثيرين من الأسرى، خاصة وأنّ أسرى معسكرنا أعدوا أنفسهم للقفزة الأخيرة نحو الوطن، ثم إنّهم لم يكونوا على تماس مباشر مع تفاصيل عمل لجان التبادل، وكان الإيرانيون يبحثون عن أي حجة يمكن أنْ تحول النقمة من ساحتهم إلى ساحة أخرى، وهكذا تلقفوا قصة التواطؤ بين موظفين عراقيين لحذف معسكرات كاملة من التبادل وإدخال معسكرات لم تكن على اللائحة أصلاً، من أجل شمول أسير واحد قريب لموظف تدخّل لتغير قواعد عملية أخفق فيها بلد على الرغم من ثقله السياسي

والعسكري ونجح فيها موظف بسيط. كانت الشتائم التي تكال على أعضاء لجنة التبادل لا تشكل عندنا سبباً للتوقف، ولكنّنا كنّا نحاول ألا نفهم أنّ هذه الشتائم تنصرف لأشياء أخرى تحت لافتة لجنة التبادل، كلّ جهودنا انصبت على إقناع من اهتزت عنده الثقة بسلامة خطة التبادل من طرف الجانب العراقي، وعلى الفصل بين نوايا الحكومة العراقية وعمل اللجان، وكذلك على سوء نية الحكومة الإيرانية التي لم تحمل نوايا حسنة تجاه العراق سواء في هذه القضية أو أي قضية أخرى. والحق أنّنا لم نستبعد أنْ تقع حادثة أو أكثر في مجال التبادل فهذه مشاعر إنسانية من المستحيل إلغاؤها من قاموس التحرك أو المشاعر المكبوتة لدى الأفراد، وعلى العموم فإنّ هذه القضية أتعبتنا كثيراً ولزمن ليس بقصير، فحتى أولئك الذين كانوا يتصدون لها في الظروف الطبيعية نراهم يتبنونها في ظروف أخرى يمكن أنْ تطرأ على استقرارهم النفسي والعاطفي، وكنّا نحاججهم بأنّ التلميذ يمكن أنْ يكون معلماً في وسطه، ولكنّه لا يستطيع الانكفاء والتراجع ليعود أدراجه إلى موقع كان غادره من زمن بعيد. ومن مفارقات مشاهد كهذه أنّ من احتاج إلى إقناع تحول مع هدوء نفسه إلى محاجج مقنع لمن كان يحاججه قبل زمن في هذه النقطة بالذات.

مرّ بنا شهر رمضان المبارك هذا العام ونحن في معسكر قوجان، كانت قاعتنا واسعة وتكفي لإقامة صلاة الجماعة وصلاة التراويح، وهذا ما كنّا نفتقده في المعسكرات الأخرى إلا ما حصل لمدة قصيرة في أول سنة لأسرنا حيث بقينا زمناً قصيراً جداً في قصر فيروزة، حيث أقمنا صلاة الجماعة في ساحته الخارجية قبل أنْ يتم عزل القاعات عن بعضها نتيجة الأحداث التي مرّ ذكرها من قبل، ووجدنا راحة نفسية مزدحمة بالأمل والرجاء طيلة شهر رمضان

المبارك، على الرغم من كل المعاناة التي كانت تخيم فوق رؤوسنا والجوع وسوء المعاملة والاستهانة بحرمة الشهر الكريم من قبل السلطات الإيرانية، ومع إطلالة عيد الفطر الذي ظننا لبرهة وجيزة أنّنا ربّما أمضيناه في ربوع الوطن، تراوحت مشاعر الأسرى بين كمد مكبوت وفرح مصطنع وابتسامات تحامل الجميع على إظهارها. في هذا اليوم الذي ذكّر الأسرى بأطفالهم وأهلهم ومن يحبّون أضاف إليهم حزناً وجزعاً، على الرغم من أنّ هؤلاء لم يغادروا مكانتهم في قلوب وعقول الأسرى ولو للحظة واحدة.

أقل من عام واحد أمضينا من عمرنا في قوجان، ولكنّها كانت أياماً ثقيلة جداً علينا، لأنّها تنقلت بين الأمل واليأس، ولأنّ الإيرانيين نزعوا أقنعة الإنسانية التي لبسوها لساعة الفراق، مع ما تمليه الأوامر من هدنة فضفاضة مع الأسرى، فقد عانينا خلال الأشهر اللاحقة فيضاً متدفقاً من تسريبات ما يقع في العراق من أحداث أعقبت انسحاب القوات العراقية من الكويت، وخاصة صفحة الغدر التي شهدتها بعض مدن الجنوب نتيجة تسلّل الآلاف من أفراد الحرس الثوري الإيراني، وضرب أرتال القوات المنسحبة من الخلف، والسيطرة على أبنية الحكومة ومقراتها المدنية والعسكرية، والعبث بالممتلكات العامة، وإحراق السجلات والوثائق من دون تمييز، فضلاً عن أنّ مجلس الأمن الدولي أصدر وفي غضون زمن قصير جداً سلّة من القرارات العقابية والتي ستدخل العراق في مرحلة صعبة نتيجة العقوبات الظالمة التي فرضت عليه، ووضعته تحت طائلة البند السابع لميثاق الأمم المتحدة، هذه العقوبات جرّت العراق إلى حرب استنزاف وتآكل من الداخل، فالولايات المتحدة توسعت في القصف الجوي وبأحدث ما امتلكته الترسانة الحربية الأمريكية من طائرات قاذفة

استراتيجية من طراز B52 وB1، والطائرات القاصفة من طراز F-111 والطائرات من عائلة F، ووفق تقديرات الخبراء العسكريين فإنّ ما ألقي من عتاد حربي على العراق في بضعة أسابيع فاق بعدة مرات ما استخدم في الحرب العالمية الثانية خلال خمس سنوات، ودمّر الأمريكيون ١١٤ جسراً على دجلة والفرات، وقدموا الدعم المفتوح لقوى ارتبطت مع أجهزة المخابرات الأمريكية والبريطانية. ومن أكبر مفارقات العدوان الثلاثيني على العراق أنّ قوى دينية ولدت على يد قابلة إيرانية، ونشأت في كنف ولاية الفقيه، وترعرعت بدعم أجهزة الأمن الإيرانية، كانت أداة القوات التي تقدمت في عمق الأراضي العراقية في إحداث أكبر قدر من الدمار الذي لحق بالعراق عام ١٩٩١. وجد الإيرانيون في ما حلّ بالعراق فرصتهم التاريخية للتشفي به والاستقواء عليه، ولكنْ من اندفع بالحقد الموروث من الحكومات العربية، أو جرياً وراء وهم السراب الخادع، سرعان ما وجد حسابات ما بعد تدمير قدرات العراق غيرها، ما أطلق في مرحلة الاستدراج للمشاركة في وليمة ذبحه، ولا سيما أنّ إيران عادت إلى حلم قديم بطرح نفسها شرطياً على دول الخليج العربي، والتي في لحظة فورة الحقد على العراق منحت إيران كل أسباب التمدد في المنطقة، وحينذاك تم إدخال مشروع تصدير الثورة غرفة الإنعاش لإعادة الروح إليه بعد أنْ أوشك العراق أنْ يجهز عليه ويحطم آمال الخميني عام ١٩٨٨، وربما في تلك اللحظة ومع كل كشف عن خلية إيرانية أو من واحد من أجنحة حزب الله التي تنتشر في طول دول مجلس التعاون الخليجي وعرضها، كانت مشاعر الأسى تستيقظ في بعض النفوس التي قدمت الأرض أو المال لنحر العراق، وتعتقد أن الجدار الشاهق الذي كان يحول دون وصول السيل إليها قد ساهمت هي

بنفسها بنسفه من أسسه، حتى باتت أضيع من الأيتام على مائدة اللئام، ولكن العراق خرج من المعادلة، وعليها تحمل تبعات أخطائها التي ارتكبتها عن عمد وسبق إصرار، كما لم يحصل مع أية قضية أخرى في التاريخ العربي المعاصر.

كنّا نرى في عيون الحراس الإيرانيين وعيداً يوشك أنْ يطيح برؤوسنا إذا ما تحقّقت أهداف العدوان الأمريكي على العراق، ولمّا لم يتحقق ذلك فإنّ قرار تسليمنا للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق سيبقى معلقاً على شرط تحققه، كنّا نحس بأنّ أكثر من جهة تتربص بنا وتريد تقاسمنا وكأننا غنيمة أو تركة مشاعة بين ورثة غرماء، كل فريق من الأطراف التي استقر خيارها السياسي القلق على الانحياز ضد الوطن يظن أنّه أولى من غيره في تنفيذ حكم الزعامة الدينية بمن استعصى على المطاوعة والخضوع.

مرت المناسبات الدينية والوطنية علينا في المعسكر دون أنْ نتوقف عندها طويلاً، فالوطن يتألم وينزف بلا هوادة، وبعد أنْ التقت سكاكين الأمم عند رقبته كل يسعى لأخذ سبق الطعنة الأولى، ها هو ينهض من تحت الركام يواصل الليل بالنهار ليعيد بناء ما دمّره المعتدون في أكبر ورشة عرفها تاريخه، ونحن في ظرف هو الأصعب الذي مرّ علينا، لأنّ لقمة كادت أنْ تسقط في الفم فسقطت عنه، فترك ذلك حسرة تحتاج إلى زمن من أجل تجاوز آثارها، عكرت مزاجنا هذه الأجواء التي تداخل فيها الشخصي مع العام والتحم والتصق، ولأنّ الأخبار مقطوعة عنّا فلم نجد ما يشجعنا على الاحتفال بالأعياد الدينية والمناسبات الوطنية.

في الصباح الباكر من يوم ٢٠ آب/أغسطس تمَّ إيقاظنا على عجل، وأبلغنا بأنّ علينا إعداد أنفسنا للنقل إلى مكان آخر، تعودنا

ألا نسأل إلى أين، لأنّ هذا السؤال لا جواب عليه، وقد يسبّب متاعب لمن يطرحه، الجنود على عادتهم يصرخون بلا سبب ويتحركون في كل الاتجاهات، يراقبون حاجياتنا القليلة التي بدأنا بجمعها في صرّة واحدة، لم يمهلونا كثيراً لإنجاز «جمع الوسائل»، ووسط ضجيج عال أخرجنا الجنود من قاعتنا إلى الساحة الخارجية، واكتشفنا حينذاك أنّ الضباط وحدهم مشمولون بالنقل وأنّ بقية الأسرى في معسكر قوجان باقون فيه حتى إشعار آخر؛ فالضباط، على ما يرى الإيرانيون، هم المسؤولون عن تحريض بقية الأسرى على كل فعل لا يرضى عنه الإيرانيون، وكانت تلك لازمة رافقت الضباط طيلة زمن الأسر.

تترك التنقلات الكثير من الجروح والحروق في نفوس المغادرين والباقين على حدّ سواء، فالكل إلى مجهول، من يبقى يظن أنّ من نقل أفضل منه حالاً، والمنقول يعتقد أنّه ماض إلى تجربة مظلمة أكثر قتامة مما كان عليه، غير أنّ أسباب النقل اتضحت من بين كلمات الجنود الغاضبين، فقد تمَّ تحميل الضباط مسؤولية ما شهده المعسكر من «توترات واضطرابات» بداية العام، وظنّ الإيرانيون أنّ المعسكر سيشهد استراحة المحاربين، ووجدوا بعد تجارب طويلة أنّ الجنود يمكن أنْ يندفعوا بممارسات من أجل إرضاء الضباط، ينظر إليها الإيرانيون على أنّها تصرفات استعراضية، وبالتالي فإنّ معسكرات الأسر وكي تشهد استقراراً يجب ألا تجمع بين الضباط والجنود حتى ولو كان ذلك في قاعات مختلفة، ومع ذلك فقد شهدت تجربتنا الخاصة أنّ الضباط ظلوا مع الجنود حتى اليوم الأخير من الأسر، وبالتالي فإنّ إدارة شؤون الأسرى في إيران لم تستطع تحديد خيار واضح في كيفية التعامل مع الأسرى، لكنّ اللجنة الدولية للصليب الأحمر كانت

قد حددت مثل هذه الضوابط من عقود طويلة، لأنّها وجدت بالتجربة أنّ غياب الضبط العسكري يمكن أنْ يؤدي إلى تصرفات منفلتة يمكن أنْ ينظر إليها باعتبارها إساءات للضباط، ولكنّ دوافع الإيرانيين تختلف عن دوافع الصليب الأحمر في اعتماد مبدأ الفصل بين الفئتين.

بعد أنْ أكمل الجنود عملية التفتيش جاءت الحافلات التي عرفنا من نوعيتها وموديلاتها القديمة أنّها مخصصة لنقلنا إلى مكان قريب، وبعد أنْ تم شد وثاقنا بجامعات حديدية كل أسيرين بجامعة واحدة، وبعد أنْ تم عصب عيوننا بإحكام، اقتادنا الجنود إلى داخل الحافلات، ومضت في طريقها إلى مجهول جديد.

بعد حوالي ساعتين بدأ الطريق ينبئ عن ضجيج مدينة مزدحمة تئن تحت ضغط الفاقة والفقر اللذين تركتهما الحرب باديين في العيون وعلى الوجوه المتعبة، وتندفع الحافلة التي كنت فيها إلى جوف بناء كبير يعكس صدى محركها، وأخذت أصوات الحراس الإيزانيين بالتصاعد مرة أخرى، ثم فتحوا أعيننا من خرق بالية عصبت بها قبل حركتنا، وإذا نحن في محطة قطار مشهد عاصمة إقليم خراسان، حيث يزورها عشرات الآلاف من الشيعة من داخل إيران ومن خارجها يومياً، للتبرك بقبر ثامن الأئمة عند الشيعة الجعفرية الإثني عشرية، وحيث تقدم النذور هناك كما لم تقدم في أي مزار آخر. كانت أوضاع محطة القطار انعكاساً لمكانة المدينة عند الإيرانيين خصوصاً، تمّ حجز عربة كاملة لنا في القطار الذي سينطلق إلى طهران في الساعة الثانية بعد الظهر، كان الضابط المرافق لنا في رحلتنا هذه هو الضابط الإداري في معسكر قوجان الملازم الأول نجاتي، والذي كان بمعيته عدد من جنود الحراسة، كانوا يحملون البنادق وأكياساً كثيرة لم نستطع تبين محتوياتها إلا

بعد أنْ تحرك بنا القطار وتم تقديم وجبة الغداء المكونة من الخبز والجبن الأبيض.

القطار متجه إلى طهران، ولكنْ في أية محطة سننزل؟ وهل سنتجاوز طهران إلى محطات أبعد؟ رافقتنا هذه الأسئلة معظم وقت الرحلة، بل إنّ عمرنا الذي قضيناه في الأسر كان محطات سفر مستمر وأسئلة من دون أجوبة، قطار في حالة حركة أبدية حتى تقوم قيامتنا فإما إلى حياة جديدة أو إلى موت يدوّن برقم، وعندما حلّ الليل وكان القطار يطوي المسافات بهمّة المتعبين قدّم لنا الجنود وجبة العشاء من الخبز والجبن أيضاً، كانوا حريصين على محاصرتنا حتى في مثل هذه الظروف، كانت القيود تفتح في أثناء تناول الطعام أو الذهاب إلى المغاسل، ويبدو أنّ عربتنا كانت معزولة عن عربات القطار الأخرى تماماً، في ظروف مثل هذه يتمنى بعضنا أنْ يستقر في مكانه بالمعسكر ولا يبارحه أبداً حتى ساعة الحركة الأخيرة ولكننا سحْنا في إيران طولاً وعرضاً، ولكنّ التنقلات هي نوع آخر من التعذيب الذي كان الإيرانيون يدرسون بواسطته انعكاساته على الأسرى، كنّا نظن أنْ الإيرانيين يمكن أنْ يخضعوا كل خطوة يقدمون عليها مع الأسرى للدراسة والتحليل، وكنّا أحياناً نؤمن بأنّهم أسوأ من يستطيع استخلاص الدروس من تجربة الأسرى عندهم.

مع الفجر لم يعد النوم ممكناً على الرغم من كل التعب الذي نالنا منه الشيء الكثير، القطار يتحرك في مناطق متعرجة وملتوية كالتواء الأساليب الإيرانية بل مثل التواء النفسية الإيرانية، وعلى جانبي السكة المناظر نفسها التي كنّا غادرناها قبل تسع سنين، متى نصل ليس هو المهم، لأنّنا سنصل حتماً، ولكنّنا نستعجل الوصول من أجل أنْ نعرف أين سيلقي بنا قطار العمر في رحلتنا الجديدة،

وبدأت ضواحي طهران تلوح من البعيد القريب، وأخذ القطار يفرمل حركته ويقترب من المحطة، ثم توقف في آخر المطاف بعد رحلة مضنية، وأنزلنا الجنود من العربة بطريقتهم الهمجية، وكانت الحافلات في رصيف المحطة تنتظرنا، وألقينا فيها بقسوة، ومن جديد تمّ عصب أعيننا، وتحركت الحافلة في شوارع مدينة طهران قطعاً التي لم نرها هذه المرة، وبعد مسير قدّرنا أنّه ساعة تقريباً، توقفت الحافلة ومن جديد أيضاً ارتفع الضجيج، وبدأنا بالنزول الأعمى منها، وجلسنا على الأرض، ولما فتحنا أعيننا بدت المعالم وكأنّها معروفة من قبلنا، ولمّا أمعنّا النظر وحثثنا الذاكرة وشحذناها تأكد لنا بأنّ المعسكر الجديد هو معسكر قديم، وهو معسكر قصر فيروزة، نعم قصر فيروزة الذي حجزنا فيه بداية الأسر لبضعة شهور، ومحطة المسافرين من الأسرى العراقيين من المجهول إلى المجهول.

الفصل الحادي عشر

قصر فيروزة من جديد
ومنه إلى قصر كاشان

ونزلنا من الحافلات أو تمّ إنزالنا، ليس لهذا أهمية كبيرة، فالإيرانيون يعاملوننا كقطيع من الماشية، ومرة أخرى خضعت الحاجيات التافهة إلى تفتيش دقيق من قبل جنود المعسكر الذي نزلنا فيه، لأنّ الفريق الذي رافقنا من قوجان عاد أدراجه بعد أنْ تسلم آمر معسكر قصر فيروزة العدد كاملاً، وأعطى للملازم الأول نجاتي إقراراً بذلك، دخلنا يوم ١٩٩١/٨/٢١ إلى معسكر كنّا قد غادرناه يوم ١٩٨٢/٩/١ بعد أنْ مرت عليه أفواج وأفواج من الأسرى، لم نمرّ بالساحة الداخلية لقصر فيروزة التي كانت لنا فيها ذكريات مؤلمة، ولم نمرّ على القاطع الأول الذي عشنا فيه قبل حوالي تسعة أعوام، ولكنّهم جاؤوا بنا إلى القاطع الثاني، وأخلَوْا لنا غرفتين متجاورتين إلى جانب الغرفة المخصصة لغسل الموتى، وهذه على العموم إشارة تذكرنا بالموت خشية أنْ ينساه أحد وهو يدور حوله أو يعيش داخل جفنه، لم نعرف للوهلة الأولى أحداً من القاطنين في المعسكر الذي عاد إلى سابق عهده كمعسكر تسفيرات في حركة دائمة للتنقلات التي عانى ويلاتها الأسرى طيلة أسرهم.

كان قصر فيروزة مزدحماً بالأسرى هذه المرة أيضاً، وبعد أنْ استقر بنا المقام بدأت الاتصالات بين بعض المولعين بمثل هذا النوع من الممارسات وبقية الأسرى الذين كانوا يتجولون في الساحة الداخلية، وبدأت الأسئلة عن الكثير من الأصدقاء ورفاق الوحدات العسكرية أو وحدات الجيش الذين عملوا في مواضع واحدة، وافترقوا من دون وداع ومضوا من دون وصية، ومن عاش أخذ يبحث عن رفاقه حيثما وجد إلى ذلك سبيلاً، ولهذا كنّا في معسكرات الأسر وبمجرد وصول أسير جديد وحتى إذا كان قديماً في تاريخ أسره فهو جديد بالنسبة إلينا طالما أنّه لم يعش معنا، ولا بد من أنّه سيحمل لنا جديداً من الأخبار والمعلومات من خلال حصوله عليها من محيطه السابق، يتزاحم الجميع في طرح الأسئلة وبسبب ذلك تضيع الفرصة لسماعها أو الحصول على جواب، وبعد انتهاء هذا الفصل يعود البعض إلينا منطلق الأسارير لأنّه حصل على معلومات كان يبحث عنها منذ تسع سنوات من دون طائل، والبعض يعود وقد تضاعفت همومه، فقد علم بفقدان أخ أو صديق، نوع ثالث اختلطت مشاعر الفرح والحزن معاً حينما علم بأنّ شقيقاً أو ابن عم أو قريباً وقع في الأسر في وقت لاحق من أسره، وأنّ هذا الأسير موجود في معسكر آخر، وبرز على الفور قلق آخر هل يمكن رؤية هذا الأسير أم أنّه سيبقى وراء الغيب؟

في ٢٢/٨/١٩٩١ بدأنا يوماً جديداً مفترضين أنّ وجودنا في قصر فيروزة مؤقت وقصير جداً، فجميع الأسرى الموجودين في المعسكر أعلمونا بأنّ دفعات متعددة جاءت وخرجت منه تباعاً، وأنّ الكثير منهم جدّد فيه وأنّ كثيراً من رفاقهم توزّعوا على معسكرات أخرى، هنا لا تعداد خارجي فالجندي المكلَّف بأخذ الموجود يبلّغ الأسرى بالبقاء على أسرّتهم ويقوم بحسابهم، هذه

مؤشّرات على أنّ قصر فيروزة محطة لترتيب إجراءات النقل وتهيئة وسائط النقل والحراسات اللازمة.

وما كادت الساعة تقترب من منتصف النهار إلا وكان المعسكر يدخل في حالة طوارئ، فقد دخل رجل يرتدي الملابس المدنية، وجهه يتسم بالشحوب الشديد، وملابسه على العموم تبدو وكأنّها من مخلفات عهد الشاه، حيث ملابس «اللنكة» كانت تملأ الأسواق الإيرانية، وكان الإيرانيون الفقراء في عهد الشاه ـ الذي وجه موارد الدولة لتكديس الأسلحة وترك شعبه يسبح في بركة من الفقر والجوع، وكذلك في عهد آية الله الخميني الذي أصبحت فيه ميزانية الدولة كلها في خدمة المجهود الحربي ـ يجدون فيها ملاذاً من برد قارس، لم نستطع تبيّن ماذا يمكن أنْ يمثله هذا الرجل الرث الملابس، ولكنّ فطرتنا العربية تقول: «احذروا صفر الوجوه من غير علّة». كان برفقته عدد من الجنود يتحركون وفقاً لأوامره بآلية وطاعة عمياء، أخرج من جيبه ورقة وبدأ بقراءة عدد من الأسماء، كانت مرتبة حسب الحروف الهجائية، وقال بالفارسية وبلهجة جافة: «على من قرأت اسمه أنْ يجمع كل ما يملك ويتهيأ للخروج بعد ربع ساعة»، وشدد على كلمة ربع ساعة، كل الاحتمالات واردة بالنسبة إلى من عاش في ظروف الأسر، قد نلتقي مرة أخرى وقد يكون هذا آخر عهد لنا مع بعضنا، ولذلك تعجّل الجميع في جمع ما يمتلكون والذي لم يخرجوه عن صرته أصلاً، وأصبحوا جاهزين بعد أقل من خمس دقائق، وتفرغوا للوداع.

وفي اليوم التالي تكرر المشهد السابق وتمت قراءة أسماء الثلث الثاني، وودعناهم كما حصل في اليوم السابق، وجاء اليوم الثالث وكنّا آخر مجموعة ممن جاء من قوجان، وتوقعنا أنّ الرجل الأصفر الوجه سيأتي، ولكنّ انتظارنا طال ولم يأت، وبعد يومين

وحيث لم نتوقع قدومه جاء وبدأ بالطقوس السالفة، وتهيَّأْنا للسفر، ووسط حشد من الجنود المنتشرين في الساحة الخارجية، والذين تمت تعبئتهم بأنّ هؤلاء الأسرى هم خلاصة العداء لإيران، كنّا نرى في عيونهم الحقد الذي يوشك أنْ يتفجر من فوهات البنادق المشرّعة نحونا، ليس من العدل أو من حق أحد أنْ يطلب منّا أنْ نحب إيران، وخاصة بعد الذي لقيناه منها في سِنِي الأسر، وعلى الرغم من محدودية ما كنّا نحمل من مستلزمات، وعلى الرغم من أنّنا كنّا نرتدي ملابس الصيف الخفيفة، إلا أنّ ما صادفناه من تفتيش دقيق بل ومهين للكرامة لا يمكن تصوره، فهؤلاء الملوثة أيديهم بدماء أسرى العراق تلوثوا بكل الأعمال الوحشية في إلحاق الأذى بالأسرى، في الشمس المحرقة في أواخر آب/أغسطس وعلى أرضية إسفلتية، كنّا نتلوى من الألم والعطش، طال التفتيش أكثر مما يجب قياساً بعددنا وما نملك من متاع، لم نكن نعلم أنّ علينا البقاء في هذه الساحة حتى حلول الظلام، لأنهم لا يريدون أن نرى طرق مدنهم أو أن يرى الإيرانيون باصاً صغيراً يسير في شوارع طهران وفيه رجال وقد عصبت عيونهم، لا أعرف هل يخجلون من شعبهم إذا علم أنّ في إيران أسرى عراقيين حتى ذلك اليوم، في الوقت الذي تقول فيه الحكومة الإسلامية، بعدم وجود هؤلاء الأسرى، وبالتالي يخشون على مصداقيتهم؟ وهل يخجل من الكذب من ارتكب كل هذه الفظائع مع «ضيوف الجمهورية الإسلامية»؟

بعد أنْ مضى وقت غير قصير على مغيب الشمس دخلت الساحة الخارجية للمعسكر حافلة متوسطة من نوع تويوتا كوستر محاطة من داخلها بستائر لا تتيح فرصة للنظر، وكان مكان السائق معزولاً عن بقية أجزاء الحافلة، وبعد أنْ تم تكبيل أيدينا بالقيود

المحكمة تم دفعنا إلى باطن الحافلة، حمدنا الله على أنّهم لم يعصبوا أعيننا، ولكنّ آمالنا سرعان ما تبددت بعد أنْ صعد أحد الجنود وبدأ بعصب عيوننا وبشدة تنم عن حقد دفين. لاحظنا أنّ جندياً واحداً هو الذي يقوم بهذه المهمة، ويبدو أنّ الأمر كان مقصوداً بتأخير حركتنا نحو المجهول الجديد، وتحركت الحافلة وكانت الحراسة داخلها محدودة، ولكنّها وعلى ما بدا لنا من خلال أصوات المنبهات وأحاديث الجنود كانت في سيارات مرافقة تسير أمامها وخلفها، وبين آونة وأخرى كان الجنود يوزعون علينا الماء، عانينا كثيراً من العطش خلال هذه الرحلة التي ربما استغرقت ثلاث ساعات أو أكثر من ذلك، ربما هذا ما حصل، ولكنْ ما قيمة الزمن بالساعات والأيام لمن خسره بالسنين والعقود؟ على العموم بعد معاناة العزل عن العالم المحيط بكل واحد منّا، والقلق من مجهول جديد وحزن يبدأ من الصفحة الأولى، توقفت حافلتنا هذه المرة ليس كما توقفت أكثر من مرة خلال هذه الرحلة، وإنّما توقفت كي ننزل منها ولنجد أنفسنا في ساحة كبيرة، وبناية تشبه قلعة سنك بست، هل دارت رؤوسنا أم نحن في حلم جديد؟ ومن أين ذهب بنا الإيرانيون كي يعودوا بنا إلى خراسان؟ الرحلة إلى هناك تستغرق حوالي عشرين ساعة، ورحلتنا لم تزد على ثلاث ساعات، ونحن كنّا في قصر فيروزة، فهل كان معسكراً مثله تماماً وظننا أنّنا فيه؟ بل هل خدعنا من تحدث معنا من الأسرى حينما قالوا: إنّهم في قصر فيروزة؟ ربما لم يكونوا أسرى أصلاً، والموضوع برمته مسرحية محزنة، ولكننا وصلنا بالقطار إلى طهران، على العموم لا يضيرنا شيء أنْ ننتظر قليلاً لنتبيّن الحقيقة ونعرف أين نحن.

وسط جوّ من الإجهاد وافتقاد القدرة على التركيز كان الأسرى

المحبوسون في زنزاناتهم يلوحون بالأيدي وينادون على بعضنا بالاسم، أشعرنا ذلك بقليل من الاطمئنان، جلسنا على الأرض في الساحة الخارجية، وبدأ شخص يرتدي ملابس الأسرى بالحديث معنا بلغة عربية ركيكة، ورحب بنَا باعتباره أرشد المعسكر، وأمر بجلب الماء والطعام لنا، كان الأسرى ما زالوا ينادون علينا بحرية وطريقة لم نألفهما في أي معسكر آخر، وبعد مداولات بين آمر المعسكر والأرشد العراقي تم توزيعنا على قاعات المعسكر، وكان نصيبي في القاعة التاسعة، وحينما دخلت تلقفني الأسرى، بعضهم كان معي في مراحل سابقة من الأسر مثل النقيب غانم السامرائي، وهو رفيق درب مرحلة الأسر الأولى في معمل السكر ودار السينما في هفت تبة، وبعدها في مدرسة الأحواز، وآخر محطة عشناها معاً كانت معسكر قصر فيروزة. كان النقيب غانم مثالاً للعسكري المقاتل في جبل المشداخ، ومثالاً حياً للروح الوطنية الوثابة في مرحلة الأسر، وكان يعاني التهاب البروستات الذي دفع به إلى معاناة طويلة إلى أنْ أجريت له عملية لرفعها، وأمّا الآخرون فقد رحبوا بي من باب أنّي جئت إليهم ضيفاً جديداً فأدّوا موجبات الضيافة، ثم إنّني لاحظت وجود بعض زملائنا الذين غادرونا على دفعتين خلال الأيام الماضية، فالجميع موجودون إذن في هذا المعسكر، أين نحن؟ ما اسم المنطقة؟ أسئلة أخذت تتدافع بعد لحظات من السلام على نزلاء القاعة، وجاءت الأجوبة تباعاً، نحن في معسكر يسمى خرابة ناصر شاه، وهي شقيقة من حيث زمن البناء والهدف مع قلعة سنك بست، وهي تابعة للمحافظة المركزية، والتي مركزها آراك، والمنطقة التي يقع فيها المعسكر هي قمصر كاشان، وهي منطقة ثرية بالزهور ويستغلها الإيرانيون بإنتاج ماء الورد، وهم مولعون فيه إلى حدود بعيدة جداً، ويؤلفون حوله

قصصاً ويروون فيه أحاديث كثيرة، ولكنّ معسكرنا أقيم على أنقاض معسكر لتدريب حرس الثورة، ولما انتفت الحاجة إليه بعد نهاية الحرب تقرر تحويل أسرى من نوع خاص إليه، وحينما يرد مصطلح (من نوع خاص) فقد لا يكون المقصود أنّهم جميعاً مقصودون بأشخاصهم، وإنّما ينصرف الأمر لرتبهم العسكرية، أو لدرجات وظيفية أو حزبية، أو ربما تم اختيارهم فعلاً لأحد الأمرين أو لكليهما معاً، وقليل منهم من جاء به الإيرانيون لأمر يتصل بموقفه الوطني خلال سنوات الأسر، فقد لاحظنا وجود أعداد كبيرة من الجنود وضباط الصف قد لا تتطلب تجربتهم ولا مواقفهم جلبهم لهذا المعسكر المخصص للمعاقبين من كبار الضباط والدرجات الحزبية والمناصب الوظيفية، وقد تكون هناك أسباب وتقييمات خاصة بالإيرانيين لا نعرفها ولا يعلنون عنها هي التي دفعت بهم لجمع هذا الخليط غير المتجانس.

في اليوم التالي تبين لنا أنّ المعسكر مفتوح من حيث التنقل بين قاعاته طيلة ساعات النهار وشطراً من الليل وحتى ساعة إطفاء النور في التاسعة مساء. وفي اليوم التالي التقيت خلال التجوال الصباحي بعدد كبير من الأسرى، وكنت أراقب المعسكر من الداخل ووجدت أنّه يختلف في كثير من التفاصيل عن قلعة سنك بست، فتساءلت مع نفسي لماذا وقعنا في وهم أننا في سنك بست؟ هل هو التصور الذي يرسم صوراً نمطية تفرضها حالة سابقة على هيئة جديدة لتعطيها الأبعاد نفسها أم هو الإرهاق والإجهاد وطول السفر، بعد اختلاط مع الخشية من مداهمة أساليب البطش التي عانينا منها في سنك بست نحواً من ست سنين؟ على كل حال وجدت المعسكر الجديد والذي علمنا فيما بعد أنّه افتتح قبل خمسة شهور من مجيئنا إليه، وقد تدافعت فيه أمام سمعي وبصري أسماء

اللواء الركن دخيل الهلالي واللواء الركن علي العلكاوي والعميد الركن جميل أحمد حسين البياتي والعميد نظير التكريتي والعميد مهدي فاضل، والعقداء الركن نريمان بكر سامي وسردار بهاء الدين بابان وخميس مخيلف وخطاب عمر التكريتي ووطبان تركي الدليمي وإسماعيل القيسي وعمر الشريف وعبد الكاظم الأسدي وعبد المجيد العقيدي والمهندس عبد المنعم ولا أذكر اسم أبيه وهو من مدينة الموصل، وعبد الحق الطائي ومحمد الفاتح، إضافة إلى عدد من كبار الضباط من رتب مماثلة أو أصغر وحوالى خمسة عشر ضابطاً من الطيّارين، وشخصيات شغلت في حقبة ما من تاريخ الحزب مراكز قيادية متقدمة مثل السيد عطا محي الدين، الذي كان اسماً لامعاً في حزب البعث العربي الاشتراكي والحرس القومي، في تجربة حكم الحزب القصيرة التي استغرقت تسعة شهور عام ١٩٦٣، ومن هؤلاء الضباط من عرفته سابقاً عن قرب ومنهم من سمعت باسمه متداولاً في العراق أو في معسكرات الأسر، أو على شاشة التلفزيون من خلال مؤتمر أجبرهم الإيرانيون على عقده لبيعة الخميني، ظهر بعض الأسرى من معسكر الأحواز الذي يطلق عليه الإيرانيون اسم مبارزان، وقد كان له وقع سيّئ على الكثير من الأسرى، وخاصة أولئك الباحثين عن خطوط خلفية للتراجع والبحث عن الحلول السهلة أو أية حجة لقطع الطريق عن النفس عن تحمل الصعاب والتضحيات دفاعاً عن سمعتهم وكرامتهم الشخصية والعائلية وحب الوطن، فكان أولئك يحاججون بأنّ كبار الضباط وهم قادة قد أحنوا رؤوسهم أمام الضغوط الإيرانية وقدّموا تنازلات ربما لا تمس جوهر إيمانهم بوطنهم ولكنهم رأوا أن استمرار تحدي الإيرانيين يمثل مخاطرة بسلامتهم قد لا يقبل البلد بها، ثم إنّهم اجتهدوا وهم مسؤولون عما أقدموا عليها بعد عودتهم

إلى العراق. ومن هذه الزاوية بدأ الجنود وضباط الصف يطرحون تساؤلاتهم لماذا لا يجوز لنا الاقتداء بهم حماية لأنفسنا من دون أن نفرط بقيم المواطنة؟ كانت هذه التساؤلات تبدو في ظاهرها بريئة جداً ولكنها لا تنبع أبداً من تقدير للضباط بقدر ما ترمز إلى معنى الرغبة في طريق بلا تضحية أو معاناة لأن الإيرانيين لا يتعاملون مع الأسرى المعاملة المنصوص عليها باللوائح الدولية أو على أسس إسلامية حقيقية، إنها تريد تجنيدهم ضد بلدهم وتريد نزع ولائِهم لوطنهم بكل أساليب الترغيب والترهيب، وبالتالي فمن يظن أن الإيرانيين يتركون الأسير من دون ملاحقة تحريضية عبر استنهاض كل ما من شأنه إبعاده عن عراقيته، تارة بالعصبية الطائفية وتارة بممارسة أقسى درجات الضغط والتعذيب بدنياً ونفسياً، لا تدع أمام الأسير خياراً غير المقاومة إن أراد العودة مرفوع الرأس أمام نفسه وأهله، وآخر شيء أمام وطنه، وكثير ممن كان يريد اقتفاء طريق الذين ضعفوا من الضباط بحجة احترام القدم العسكري كانوا هم أكثر الناس خرقاً للضبط العسكري بل وحتى لقواعد الأخلاق في التعامل مع الضباط.

حينما استقر بنَا المقام في المعسكر الجديد وجدنا كثيراً من الأسرى ينظرون بعدم ارتياح وربما بعدوانية لمن ظهر في ندوة بيعة الخميني والتي قدمها بعض الضباط من ذوي الرتب الكبيرة وعرضها التلفزيون الإيراني، على الرغم من أن تلك التظاهرة الاستعراضية التي أقدمت عليها الاستخبارات الإيرانية كانت مفروضة على الضباط بالقوة والتهديد، وكان الهدف منها إسقاطهم بالدرجة الأساسية، وكذلك إهارة معنويات بقية الأسرى العراقيين، كان على العقلاء منّا أنْ يتعاملوا مع هذا الملف من عدة زوايا، لعلّ في مقدمتها أنّ الظرف الذي عاشه هؤلاء الضباط طيلة زمن الأسر وما

عانوه من إذلال وقهر وتعذيب، ربما يكون قد أوصل بعضهم إلى حد أنه جرف جانباً من قدرتهم البدنية على التحمل، خاصة مع آسر متوحش مثل الإيرانيين الذين تفننوا في إيذاء الأسرى وحمّلوهم أوزار تاريخ مملوء بالنزاعات والاختلافات بين البلدين والتي ظلّت تتقلب صفحاتها منذ أربعة عشر قرناً من الزمان. ثم إنّ بقية الأسرى لا يملكون حق إصدار الأحكام، لأنّهم سيكونون خصماً وحَكَماً في الوقت نفسه، وبالتالي ترك الأمر للسلطة الوطنية أنْ تحسم هذا الملف بعد العودة، وليس من حقّ الأسرى أنْ ينوبوا عن سلطة الدولة العراقية في تولي القضاء في قضية تحيط بها ملابسات وتعقيدات كثيرة، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإنّ الظروف التي مرّ بها أسرى مبارزان في الأحواز هم وحدهم الذين يعرفونها، إضافة إلى ذلك فإنّ وسط الأسرى فيه كثير من الظلم والتقولات والاتهامات والتي لا بدّ من أنْ تستدعي مكافئاً مضاداً، وبالتالي سيدخل معظم الأسرى في معارك من دون قضية، وإنّما لمجرد الموازنة في التهم المتبادلة بين المتخاصمين حتى لأسباب لا صلة لها بأمور المواطنة الصالحة، كان بالإمكان تغليب أكثر من عامل في تنظيم العلاقة مع الأشخاص الذين عليهم ملاحظات سياسية، خاصة وأنّ من ذهب لندوة البيعة التلفزيونية لم يكن مختاراً في تصرفه بل أرغم على حضورها ووجد أمامه ورقة كان عليه أن يقرأها، وهذا ليس دفاعاً عن أحد منهم، فهم وحدهم الذين تحمّلوا وزرها في ساحة الأسر وتبعاتها لزمن مفتوح قد لا يغلق ملفّها، وربما وجدت في قرارة نفسي بعض العتب على البعض منهم، ولكنّني في كل الأحوال لن أنصّب من نفسي قاضياً على أسير أعلم جيداً كيف كان يسير في حقل ألغام وهو مغمض العين، وأعرف أن زمن الأسر في إيران بالذات يمكن أن يكون

عامل تقييم لثبات الرجال على قيمهم ومبادئهم، ولكنه لا يصحّ مقياساً لإصدار أحكام متعجلة على كل شخص ما لم يضع الإنسان في اعتباره أن قابليات البشر تتراوح من رجل إلى آخر، من دون أن يعني ذلك إطلاق صفة التساوي على الجميع.

وفي هذا المعسكر لاحظنا أنّ زيارات لجان الاستخبارات كانت من الكثرة بحيث لم يكن بوسعنا الاستراحة من نتائج الزيارة السابقة إلا وتعلن حالة الاستنفار في المعسكر مجدداً استعداداً لزيارة جديدة، كان رو نواز رئيس دائرة استخبارات الأسرى يقود في كل مرة فريقاً جديداً من المسؤولين في زيارة معسكرنا، تارة تحت اسم لجان إدارية لمعالجة النواقص التي يعانيها المعسكر، وتارة باسم لجان طبية لإجراء فحوصات ميدانية للحالات المرضية التي يعانيها الأسرى، وخاصة بعد وفاة عدد كبير من الأسرى ولا سيما نتيجة نوبات قلبية لم تقدم خلالها الإسعافات الطبية المطلوبة، وثالثة باسم إجراء تقييم لأوضاع الأسرى من أجل تحديد من يمكن أنْ يشملهم أول تبادل يحصل بين العراق وإيران، كنّا نعرف أنّ نواز يأتي لغير هذه الأهداف، ولكنّه يحاول التعتيم على ذلك بإعطائنا جرعات تخديرية تضمن للمعسكر استقراره، كما كان يخطط لخرق صفوف الأسرى، لأنّه يعرف بما يصله من معلومات منتظمة أنّ قاعدته تكبر والثغرة التي أوجدها سابقاً أخذت بالتوسع.
في كل مرة يطل علينا كان كل من العميد مهدي والعقيد جعفر يطلبان الانفراد به، كان هذا التصرف كفيلاً بإثارة مشاعر الأسرى ضدهما وضد الأطراف التي تؤيدهما، وحينما يواجهان من قبل الأسرى بأسئلة الاستنكار كانا يدعيان بأنّهما طلبا من نواز إيجاد مكان موحد للصلاة في المعسكر، كنّا نعي أنّ هذا الطلب يخفي وراءه أكثر من هدف غير عبادة الله سبحانه، وكنّا على يقين أنّ هذا

المسجد في حال افتتاحه لن يكون إلا فتنة كالتي كاد مسجد ضرار أنْ يحدثها في صدر الإسلام لولا أنْ صدع التنزيل بوصفه بما يليق به، كادت الفكرة أن تموت، ولكنّ أسوار المقاومة كانت تفقد من مطاولتها بعض مكوناتها، حتى تم افتتاح هذا المسجد الفتنة بعد بضع سنوات، بعد أنْ تمّ تفريغ قاعة كانت تضم حوالى ستين أسيراً وتوزيعهم على بقية قاعات المعسكر، فأوجدت تكدساً وضيقاً في تلك القاعات، وخلق لنا هذا المسجد من أسباب الفتنة والخلاف الشيء الكثير.

نعم كان بالإمكان اعتماد معيار القيم العراقية والعربية في توفير قدر مناسب من الاحترام بموجب قانون العمر لمن زلت قدمه وحاد عن الطريق مضطراً، ثم انتهز أول فرصة لتعديل مسيرته والعودة إلى نفسه بالدرجة الأولى ومن ثم إلى الوطن، وهناك معيار الرتبة العسكرية الواجبة الاحترام حتى في حال عدم القناعة الشخصية بمن يحملها، فالاحترام لإرادة العراق وقراراته بمنح هذه الرتب واجب ولا مجال للخروج عليه لأنه يجسد قيم الجندية العراقية العريقة، وليس من حق أحدٍ أنْ ينزع رتبة ضابط أو تخفيضها من تلقاء نفسه من دون سلطة القانون العسكري، حتى لمن ضبط متلبساً في أي فعل مخالف للقانون، وحتى إذا كان في زمن الحرب، مهما كانت الأسباب إلا بعد العودة إلى الوطن، وخضوع الجميع لسلطة القانون والمعرفة الدقيقة قبل الإقدام على تجريد الخاطئ من رتبته، إلا من جاهر بتخليه عمّا منحه قانون بلده من حصانات وضمانات، وانحاز طوعاً إلى صفّ العدو، لكنّ درجات الوعي مختلفة بين الأفراد، وكذلك التعاطي مع إفراز أية مشكلة يكون جزء منها مرتبطاً بضابط من المتهمين ببيعة الخميني.

الحق أنّ الضباط الكبار كانوا يتعاملون مع الجميع، ضباطاً أو

مراتب بأعلى درجات الكياسة، قد تكون دوافع ذلك عند البعض منهم نتيجة الإحساس بضعف الموقف السياسي مقابل الآخرين، الوسط الذي نحن فيه يضم عينات تقبل الكثير من التفسيرات، وفيه متطوعون أو مدفوعون للإساءة إلى من هم أكبر منهم لمجرد المباهاة الفارغة واستعراض حالات الإساءة كجزء من مجد قديم وتاريخ شخصي في التطاول على الكبار، ومجتمع الأسر مزدحم بنماذج ترى أنّها تبقى تحت الرماد ما لم تدخل في مواجهات، كان الإيرانيون حريصين عليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، من أجل كسر هيبة الضابط العراقي وعلى أيدي جنوده، وبالتالي لمعاقبة جميع الأسرى تحت لافتة حماية الأسرى من بعضهم، فهم يزرعون شجرة الخلاف ومن ثم معاقبة أطرافه.

كان الأسرى يختلطون مع بعضهم من دون رقابة مباشرة، ويتزاورون في قاعاتهم من دون قيود، كان أرشد المعسكر ضابط قوات خاصة، من قرية عينكاوة المسيحية والتي تعتبر من ضواحي مدينة أربيل الكردية، وهو الرائد جبار فرنسيس والذي كان يتمتع بدعم استثنائي من آمر المعسكر الذي قيل لنا إنّه رائد في الجيش الإيراني أو في الحرس الثوري، واسمه «الحاج عباس بزرك نيا»، ووجهه شاحب ونحن العرب نعرف مثلاً يقول: «احذروا صفر الوجوه من غير علّة»، والرجل جسّد مخاوفنا هذه على نحو استثنائي، فقد كان ناعماً في سلوكه وفي أحاديثه ولكنّه ومن دون سابق إنذار يتحول إلى أفعى سامة أو عقرب صفراء. كان الحاج عباس يتحين الفرص للإيقاع بالأسير وتعريضه للعقوبة التي تتراوح بين الحبس الانفرادي في غرف محكمة الإغلاق تضرب الشمس بابها الحديدي صيفاً حتى تحولها إلى فرن شمسي، وفي الشتاء يتحول إلى مجمّدة لا ينفع معها دثار أو موقد نار، أو بالحرمان

مما بقي له من حقوق طبيعية، في الطعام والشراب والحق في تفريغهما عند نداء الطبيعة.

كان بين الأسرى أصدقاء قدامى جمعتني بهم ظروف عمل سياسي أو وظيفي، وجدتهم أمامي في المعسكر وجهاً لوجه، بعضهم كان يشعر بثقة عالية جداً بالنفس من خلال موقف وطني لامع في أي معسكر مرّ به، والبعض الآخر وجدتهم يشكون من سوء نظرة الآخرين إليهم نتيجة ما رافق الأسر من عنَت الآسرين والضعف الذي يمكن أنْ يمر به الإنسان أي إنسان، ولكنّ الناس لا ترحم من يضعف ولا تريد منحه فرصة العودة إلى روح المواطنة الصالحة، هل فكّر أحدنا كيف يعاني «المعاقون» في موقفهم الوطني من انكسار نفسي مدمّر حين يقرؤون في عيون الآخرين احتقاراً باطنياً؟ وفي أحسن الأحوال عدم اكتراث وقلة احترام يظهر جلياً في كل خطوة على مدار اليوم، كان هناك فرقاءُ متخاصمون في خرابة ناصر شاه مثل أي معسكر، ولكنْ في هذا المعسكر تجسّدت الصورة بوضوح وجلاء أكثر من أي معسكر آخر، فالأسرى هنا هم من أكبر الضبّاط رتبة ممن وقع في أسر القوات الإيرانية، أو من الدرجات الحزبية الكبيرة ممن شغل موقعاً قيادياً في ألوية المهمات الخاصة، ولم يتمكن من إخفاء صفته هذه، نتيجة وشايات من بعض الضعفاء الذين اختاروا أيسر الطرق وأسهلها لحماية أنفسهم أو لتفريغ أحقاد لم يكن بوسعهم التعبير عنها من قبل، فكان طبيعياً أنْ يتعرض هؤلاء لضغوط إيرانية من كل أجهزة الاستخبارات والإعلام الإيرانية من أجل وضعهم على واجهة الأحداث ولا سيّما وقت الهجمات أو الحملات الكبيرة التي كانت القوات الإيرانية تنفّذها خلال سنوات ميل الميزان لصالح إيران، ولمّا كانت قدرات الرجال تتفاوت من واحد إلى

آخر، بل حتى عند الرجل نفسه من وقت لآخر. كان طبيعياً أنْ يتمنّع أصحاب المواقف الأقوى من الانصياع لإرادة من هم أقل منهم صموداً ومطاولة، فكانت هذه الأحداث تؤثر سلباً على الاستقرار الداخلي والنفسي في معسكرنا المعزول نفسياً وسياسياً وجغرافياً، وحينما تكون المواجهات بين الرؤوس الكبيرة فإنّ خسائرها ستكون كبيرة من دون شك، أصبح الصراع الآن على مستوى القمة، ومن يخسر المواجهة سيتدحرج.

بعد أن استقر بنا المقام في معسكرنا الجديد، وتواصلت علاقاتنا مع الجميع، وجدنا تحريضاً وتحريضاً مضاداً بشأن علاقاتنا تلك كنّا نعي جيداً أنّ أحكام الأطراف المتخاصمة على بعضها البعض تحمل شيئاً من مرارة المعاناة المباشرة، وحتى في حال مصداقيتها فإنّنا يجب أنْ نتعامل مع الجميع بروح الحاضر الذي ينمّ عن سلامة موقف لا تشوبه شائبة، ونترك الباقي لحكم الوطن بعد العودة، وحتى هذا الموقف لم يكن ليترك ارتياحاً لدى كل الأطراف المتخاصمة، فكل طرف يريد منّا انحيازاً إلى جانبه، خاصة بعد أنْ علم الجميع بأنّنا نحمل ميراثاً ثرياً من المواقف الوطنية الصلبة، وسجلاً في مقارعة الإيرانيين ومن سقط في سلتهم، فانحيازنا إلى أي فريق سيعني اعترافاً بصواب موقفه وخطأ الطرف الآخر، وعلى الرغم من قناعتنا بأنّ هناك أخطاء ارتكبت على مستوى بعض القادة في معسكر مدرسة الأحواز (مبارزان)، ومعرفتنا بكثير من تفاصيلها إلا أنّنا آثرنا أداء دور التوفيق بين المتخاصمين، لكنّنا وجدنا جدراناً عالية تحول بيننا وبين مصالحة أطراف الخصومة.

هذا كله لم يمنع تعاملنا مع كل مفردة على حدة. كان التنظيم الحزبي في المعسكر يقوده السيد علي المشهداني، آمر اللواء التاسع

مهمات خاصة، والذي كانت له مواقف مشهودة طيلة مدة الأسر، وخاصة في أثناء تسجيل برنامج بيعة الخميني في التلفزيون، فعندما وصل الدور إليه ليقرأ النص المكتوب لمبايعة الخميني، أعلن وبعبارات قاطعة أنّه يبايع الرئيس صدام حسين قائداً للعراق والأمة العربية، وبعد أنْ أكمل جملته فقد وعيه نتيجة الضرب والركل ولم يسترد وعيه إلا بعد بضعة أيام، وتم وضعه في زنزانة معدنية وتحت شمس صيف الأحواز اللاهبة، ولكنّه صمد ولم يحاول استثمار تلك الواقعة للكسب السياسي، إذ لا كسب في الأسر أبداً، ومع ذلك فقد نظر جميع من بايع الخميني إلى وقفة المشهداني بعدم ارتياح، فقد ودّ الجميع أنْ يكونوا سواء في كل المواقف، فلمّا لم يكن بوسعهم أنْ يكونوا مثله فيجب أنْ يكون هو مثلهم والرجل، حينما وقف وقفته تلك لم يكن ليفكر أنّه يسجل موقفاً، فقد وضع الموت أمام عينيه، ولكنْ في الحياة لحظة تختبر إرادات الرجال فيتساوى فيها الموت مع الحياة، فحياة ما بعد الموت بالعزّ خير ألف مرة من حياة بانكسار نفسي هي الموت المتكرر في اليوم ألف مرة.

هذا ليس معناه أنّ جميع من كانوا في صف التنظيم الحزبي كانوا على الدرجة نفسها من النقاء والصلابة والحزم في التعامل مع محاولات الإيرانيين المستمرة لإحداث خرق في صفوف الأسرى، وتمزيق وحدة صفهم، فقد لاذ بالتنظيم بعض من أراد منه قارب النجاة من ملاحظات تطلق على الهواء بمناسبة ومن دون مناسبة، وأحياناً في تصرفات صبيانية لا تنم عن متانة مبدئية، سواء كان مصدرها من داخل جماعة التنظيم أو من الطرف الآخر.

لكن هذا ليس معناه أنّ جميع من رفض فكرة التنظيم في هذا المعسكر كان ذا موقف معادٍ للحزب، أو أنّه ارتكب خطأً ما خلال

مسيرة الأسر، هنا تدخل جوانب القناعات الشخصية، أو الرأي ببعض الرموز المتقدمة في العمل الحزبي، وفي كلا الطرفين تجد كل العينات وبدرجات مختلفة، هذا كان يقتضي منّا نحن آخر مجموعة متماسكة تصل المعسكر التعامل مع جميع الأطراف بروح المسؤولية الوطنية من دون الخوض في تفاصيل الصراعات، مع التشديد على انحياز مبدئي إلى جانب الوطن أولاً والحزب ثانياً بما يجسده من قيم رجولة وفروسية، وتفهّم الجميع هذا الموقف فكنّا قريبين من الجميع، وتقبّل الجميع تدخلاتنا للتقريب بين وجهات النظر المتباينة.

بعد وصولنا بفترة وجيزة اتصل بي السيد علي المشهداني وعرض عليّ تشكيل لجنة تعنى بالإعداد للفعاليات الوطنية التي يحتفل بها العراق، فوافقته على ذلك اعتقاداً مني أنّ تنسيق الفعاليات مركزياً يعد خطوة مهمة جداً لإظهار التقدير والاحترام لتلك المناسبات، ويمنع المبادرات الفردية التي قد تخطئ أو تصيب وتبدد الجهد وتشتت الأنظار عن الهدف الرئيس لإحياء مثل هذه المناسبات، وبالفعل فقد تم تشكيل اللجنة برئاستي وعضوية السادة مكي جبار وعامر الدليمي وعبد الأمير مهدي صالح، وكانت أول فعالية مهمة لها إحياء ذكرى البيعة للرئيس صدام حسين في ١٤/ ١١/١٩٩١، وأخذت الاستعدادات بالتكامل مع اقتراب اليوم الموعود، ولم تواجهنا صعوبات جدّية على الرغم من وجود محاور عديدة داخل المعسكر، فقد رجّح مجيئنا إليه كفة التنظيم الحزبي الذي يقوده السيد علي المشهداني الذي وجد في مؤازرتنا له قوة معنوية كبيرة على الرغم من أنّنا لم ننضم إلى المؤسسة التنظيمية بسبب اعتقادنا أنّها تضم عناصر دون مستوى الشبهات من جهة، وقد تكون سبباً في استمرار التصدّع داخل المعسكر، وتراجع

مستوى إظهار العداء لعناصر التنظيم الحزبي، وكفّ مؤيدو كتلة الضباط الكبار عن التهكم بالطرف الآخر، وبعد التعداد الصباحي ليوم ١٤/١١/١٩٩١ بدأت الاستعدادات لتنظيم فعالية خاصة بالمناسبة، كنت قد كتبت كلمة التنظيم الحزبي في المعسكر بالمناسبة، كما كتبت قسم البيعة للرئيس صدام حسين، وفي العاشرة صباحاً كنّا ننتقل إلى القاعات تباعاً، يبدأ السيد عبد الأمير مهدي صالح بإلقاء كلمة الحزب، وبعد أنْ ينتهي منها أرتقي أنا المنبر وأطلب من الجميع الوقوف والترديد ورائي قَسَمَ الولاء للعراق والبيعة للرئيس صدام حسين، حتى أكملنا جميع قاعات المعسكر، واستوى في ترديد القسم جميع الأسرى من دون استثناء، إلا من كان خارج المعسكر كأنْ يكون في المستشفى لعارض عاجل.

على العموم لقد جعلتنا فعالية يوم البيعة نعيش أجواء مفعمة بفضاء الوطن البعيد القريب، وكانت إدارة هذا المعسكر تتغاضى عن كثير من أية نشاطات داخلية، ظنّاً من الحاج عباس بزرك نيا أنّ الابتعاد المحسوب عن تفاصيل الحياة اليومية للأسرى يعد أقصر الطرق للاقتراب مما قد يطرأ من تطورات أكبر خطراً على أمن المعسكر، مثل التفكير بخطة للفرار من المعسكر، أو وقوع أزمة يمكن أنْ تنعكس بظلالها عليه شخصياً، وغالب الظنّ أنّ فلسفته في ترك الأسرى يفعلون ما يريدون لا يدع كثيراً من الأسرار خافية عليه، بل سيتمكن من رصد كل شيء عندهم، فالأسير حينما يطمئن إلى نوايا آمر المعسكر قد ينساق وراء وهم ثقة مفتوحة بما يحيط به، ربّما ستفضي فيما بعد إلى الوقوع في سلوك يكشف خفاياً يبحث عنها آمرو المعسكرات، ولكنْ كل على طريقته الخاصة، ومع الأسف الشديد كان بعض ذوي النوايا الحسنة من بين الأسرى يذهب بعيداً في حسن الظن بآمر المعسكر وتفسير تصرفاته على أنّها

تعكس واحداً من أمرين: إمّا أنّها تكون دليلاً على أنّ هناك تعديلاً في منهاج التعامل مع من تبقى من الأسرى، وذلك لن يكون إلا بقرار من أعلى المستويات السياسية والدينية والعسكرية، وبالتالي فهو دليل على قرب حلّ معضلة الأسرى ككلّ، وإمّا أنّ آمر المعسكر إنسان يحمل قيماً إنسانية عميقة الجذور، ولا يبيح أي نوع من الشدة والقسوة مع الأسرى، ولما كان الأسرى يكثرون من ترديد مثل هذه الاستنتاجات، وربما كانوا يتعمدون إيصالها إليه من خلال طرحها أمام الجنود الإيرانيين، فإنّه لا بدّ من أنْ يشعر بغبطة عالية أنّ خطته قد حققت أهدافها كاملة وتركت الانطباعات التي أراد إيصالها إلى الأسرى.

وفي المساء تمّت تهيئة أكبر قاعات المعسكر لإقامة حفل منوّع، تضمّن قصائد شعرية لشعراء الأسر والتي ألهبت حماسة الجميع، كما تمَّ تقديم عدد من الأغاني الوطنية وكذلك تمَّ تقديم بعض الأغاني العاطفية التي تحاكي مأساة الأسير، فبكى كثيرون لتذكر الأهل والأبناء والأحبة، وفي الختام تمَّ تقديم مسرحية كوميدية، ارتكبنا خطأ أنّنا لم نطلع على تفاصيلها، فقد أخذت حماسة الأجواء التي سادت في القاعة أحد الأسرى من الجنود الاحتياط وهو أحمد الدليمي والذي كان يؤدي دوراً فيها أنْ يضع على رأسه قطعة قماش بيضاء، وكأنّها عمامة رفسنجاني وانطلق في تقليد حركاته وكأنّه يلقي خطبة سياسية، ووسط ضحكات الحاضرين مرت أكثر الأوقات حرجاً في ذلك اليوم، وقد دفع الأسرى ثمناً له بعد بضع سنوات حينما سقط عدد من الأسرى وتركوا الوطن وأرادوا البحث لهم عن بديل، فوشوا بإخوانهم ونقلوا تفاصيل ما جرى في تلك الأمسية وما كان يحصل، واتضح في وقت لاحق أنّ من بين الأسرى من باع نفسه للشيطان في وقت مبكر، وكان يوصل

تفاصيل حياتنا الداخلية بانتظام لآمر المعسكر، والذي كان يتعامل معنا وكأنه داخلنا ولكنّه يتظاهر بخلاف ذلك، ويواصل طرح نفسه بقفاز حريري وملمس ناعم، على الرغم من أنّه كان يقول بأنّ سلوكه معنا قد ينقلب رأساً على عقب ويذيقنا مرارة المعسكرات السابقة.

حوالي السابعة من مساء يوم ١٩٩١/١٢/٩، تعالت أصوات إطلاق نار بغزارة، لم نسمع مثلها طيلة سنوات الأسر، هل هي اشتباكات تفجّرت بين أطراف متخاصمة في المنطقة أم هي مواجهات بين أجهزة الأمن ومهربي المخدرات في بلد كان يعد خططاً عسكرية كاملة، للحد من تنقّل بضاعة الموت بين أنحاء البلاد ومنها إلى دول المنطقة؟ على كل حال كان الحادث يشدّ الأسماع بقوة تفوق التقدير، وطفق الأسرى يبحثون عن حلّ لهذا اللغز الكبير، كان الراديو في متناول اليد وطغت فكرة الإلحاح بالأسئلة على أية فكرة أخرى، ولم يشأ الكثيرون ترك الأمر لليوم التالي، وتبين فيما بعد أنّ خافير بيريز ديكويلار الأمين العام للأمم المتحدة وجّه رسالة إلى مجلس الأمن الدولي وقد جاء فيها: «إنّ الهجوم على إيران يوم ١٩٨٠/٩/٢٢ لا يمكن تبريره في إطار ميثاق الأمم المتحدة أو أية قواعد أو مبادئ معترف بها في القانون الدولي أو أية مبادئ أخلاقية دولية، وهو ينطوي على المسؤولية عن الصراع». وتأتي رسالة ديكويلار خروجاً على منطوق الفقرة السادسة من قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٥٩٨ لسنة ١٩٨٧، والتي نصت على: «يطلب إلى الأمين العام أنْ يستطلع بالتشاور مع إيران والعراق مسألة تكليف هيئة محايدة بالتحقيق في المسؤولية عن الصراع وأنْ يقدم تقريراً إلى مجلس الأمن في أقرب وقت ممكن»، ومع ذلك فقد استجاب ديكويلار لنوازع مضادة للعراق لم يستطع

أنْ يكتمها طيلة تحركاته السابقة، فأطلق للإيرانيين خيالاً واسعاً من الآمال المريضة، وربمّا ظنوا أنّهم على وشك حصاد نصر من وسط رماد الهزيمة، ولهذا باشروا في احتفالية غير معهودة في مجتمعهم وهي عملية إطلاق النار وبهذه الغزارة التي لا يفسرها شيء سوى هدوء الجبهات وعدم وجود عدو.

لم نكن لنعبأ بما قاله ديكويلار، فرسالته لن تغير شيئاً من حقائق الحرب، ولن يضيف لإيران شيئاً من الغنائم التي تتطلع للحصول عليها بالحيلة والغدر بعد أنْ عجزت عن تحقيقها في ساحة الحرب، ثم إنّ رأي ديكويلار غير ملزم لا من الناحية القانونية ولا الأخلاقية لأي طرف سواء داخل مجلس الأمن أو خارجه، فضلا عن أنّ مجلس الأمن الذي بدأ يتحرك وفق قراءات أمريكية لأحداث المسرح الدولي لم يوفر مناسبة فيها قصد إساءة للعراق إلا ومضى إليها، وأصدر خلال أسابيع من القرارات ما لم يصدره خلال أعوام حيال أية قضية شهدها العالم، فهو ليس بحاجة إلى تحريض أكبر دبلوماسي أممي فقد حياديته في حرب الثماني سنوات وتصرف خارج حدود صلاحياته وكان مجاملاً لإيران في أكثر من واقعة، وفيما بعد تأكد أنّ هذه الرسالة هي الثمن الذي قدمته الأمم المتحدة نيابة عن الولايات المتحدة لإيران مقابل إطلاق الأخيرة سراح ٩١ رهينة غربية، كانت أذرع إيرانية في لبنان قد اختطفتها.

كان أرشد المعسكر العراقي الرائد جبّار فرنسيس متقلّب المزاج، لا يستقر في أمر على حال، ولا مانع عنده من أجل تمرير تعليماته من الاستعانة بالهراوة الإيرانية، كنّا نقول له: إنّ الأرشد يجب أنْ يكون سياجاً يحمي الأسرى لا هراوة بيد الإيرانيين عليهم، ولكنّه كان يتصرف بحماقة واضحة، وكان يستأثر

بمزايا موقعه في المأكل والمشرب والعلاج الطبي، وجنّد في خدمته عدداً من المنتفعين.

لقد عانينا في «قمصر كاشان» أحزان فراق الكثير من الأصدقاء ورفاق درب المحنة، حينمَا وَصلْنا عَلِمْنا أنّ العقيد الركن ناظم الخياط وهو آمر لأحد ألوية الجيش العراقي ومن أسرى المحمّرة، كان قد توفي أثر نوبة قلبية لم يحصل خلالها على ما ينبغي من عناية طبية، ففارق الحياة وكان إلى جانبه شقيقه المقدم قاسم الخياط مع كل تحمله هذه الوفاة من مرارة دائمة لمن بقي على قيد الحياة وهو يتذكر اللحظات الأخيرة التي كانت روح شقيقه ترتقي إلى معارج السماء لتحكي ظلماً لا مزيد عليه، كما توفي المقدم محجوب دخيل في معسكر مبارزان في الأحواز، وكانت سيرته بين ضباط الأحواز طرية فهو الرجل الشجاع والثابت على مواقفه الوطنية من دون خشية سواء من الإيرانيين أو من الذين كانوا معه في محنة الأسر ويحاولون التأثير فيه لثنيه عن مواقفه، وقيل: إن السيد علي المشهداني فقد برحيل محجوب أقوى سند له طيلة أسره، أمّا من كان يرسل إلى المستشفى المخصص للعسكريين الإيرانيين والذي لا يسمح بإدخال أحد إليه إلا في حال وجود غرف خالية فيه، فإنّ جميع من تم نقلهم إلى المستشفى لحالات طارئة كانوا لا يعودون إلينا أو يعودون مع تقرير طبي بسلامتهم من أي مرَض، وهكذا توفي ضمن ذلك الوصف المرحوم محمد جواد وهو عضو قيادة شعبة ومن قيادة التنظيم الحزبي في المعسكر، وكذلك توفي صديق الطفولة والصبا والشباب المرحوم المقدم مؤيد غازي البيرماني، وهو أصلاً من منطقة بيرمانة من محافظة بابل، ولكنّه من سكنة كرادة مريم، وكان والده المرحوم الدكتور غازي البيرماني طبيباً معروفاً في بغداد كما أنّ عمه المرحوم سعدون

البيرماني كان ممن اتهم بمحاولة اغتيال اللواء الركن عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء، وتباعاً ترجل عن صهوة جواده فرسان عراقيون كبار، فقد تعاقبت الجلطات القلبية على أعزّ أصدقائي، كان منهم الملازم الثائر ثائر عدنان الراوي، المعروف في أوساط الأسرى بأنّه رجل رياضي يجيد الكاراتيه والملاكمة، ويملك بنية رياضية لم يعتقد أحدُنا يوماً أنّه يمكن أنْ يسقط في جلطة قلبية تودي بحياته بعد مدة وجيزة، بل لقد أوكلنا له مهمة نقل وصايانا إلى أهلنا لأنّنا اعتقدنا أنّه أطول عمر منّا، حزنّا عليه وكأنّه ابن أو أخ، كان يحمل من الشهامة والمروءة والروح الوطنية والاستعداد للتضحية من أجل الغير والوطن ما لا يمكن تقدير مداه، ولكنّه غادرنا من دون وداع غريباً وسط محيط من الأعداء الذين لم يسارعوا في تقديم النجدة له وقت ضرورتها، كما رحل صديق آخر بمرض السكر هو الملازم عدنان عبد الرزاق العزاوي، كان مقداماً بلا حدود ويقارع بلا توقف كل أشكال النكوص والتخاذل، كان معه ابن شقيقته عمّار يساعده كلما احتاج إلى شيء على الرغم من أنّ الجميع كانوا على استعداد لتقديم هذه المساعدة، تراجعت أوضاعه النفسية كثيراً بعد بتر إحدى ساقيه ولكنّه لم يفقد قدرته على التفاعل مع محيطه، كانت الأدوية لا تفي بالحاجة بل ربما كانت الأدوية السبب الرئيس لوفاة الكثيرين، لأنّها إمّا أنْ تكون منتهية المفعول، أو أنّها أدوية غير مخصصة لأنواع الأمراض التي يعانيها معظم الأسرى، وكذلك الغذاء الخاص بمرضى السكر، ويقول عمار: إنّ خاله عدنان ألقى عليه نظرة الوداع لآخر مرة وكأنه يحمّله رسالة للأهل والوطن ثم جاد بروحه لترتقي مدارج السماء بعزم لا يلين، وكذلك رحل الصديق الرائد الركن أحمد شكر شاهين نتيجة جلطة قلبية لم يتم التعامل معها من جانب

الإيرانيين بمسؤولية إنسانية أو إسلامية كانوا يتداولونها معنا بسبب ومن دون سبب. لقد تحمّل الرائد الركن أحمد شكر شاهين ضغوطاً عالية من بداية الأسر حتى آخر رحلته إلى جوار ربه فقد علموا بأنه شقيق اللواء الركن محمود شكري شاهين أحد قادة الجيش العراقي الكبار قبل الحرب وأثناءها، وكان معنا النقيب إسماعيل الداغستاني (أبو أماني) ذلك الرجل المملوء مروءة وشهامة وحباً لمساعدة الأسرى، كان يعرف الإسعافات الأولية وقياس الضغط وزرق الإبر، فكان يسارع لنجدة زملائه على الرغم من أنّه خريج الكلية العسكرية، فلم يتكبّر على أصغر أسير معه، ولم نسمع شكوى من ألم في القلب، أو تعب مما يقدمه لإخوانه على الرغم من أنّه يعاني كما يعانون، حينما تركت المعسكر على أمل العودة إلى العراق أوصاني أنْ أزور عائلته في المقدادية، ففعلت ولكنّ صدمتي كانت كبيرة، بعد سنة حينما جاؤوا بجثمانه، فقد توفي بجلطة قلبية قديمة، لم يفصح عنها رغم معاناته الكبيرة منها وهي تسد شرايينه، كان يساعد الآخرين ويؤثرهم على نفسه بالعلاج المحدود الذي يمنح لمرضى القلب، كما رحل الصديق النقيب خليل موسى عكلة، كان يعاني مرض الربو، وجمعتنا رفقة معسكر التدريب ووحدة الموقع الذي تأسرنا فيه في جبهة المشداخ ووحدة المعسكرات الأولى في الأسر ووحدة السرية في لواء المهمات الخاصة ١١، كان طيب القلب بإفراط وحينما يتذكر بناته كان يعتصره الألم ويكرر على الدوام: لقد تركت بنات لا أحدَ لهن، كما رحل رائد المرور طلال مراد بالجلطة القلبية أيضاً، وبالإهمال الإيراني، كان طلال شقيق المذيع القدير المرحوم مقداد مراد، والذي عمل معي في عقد السبعينيات حينما كنت مديراً للأخبار ومعلقاً سياسياً في المؤسسة العامة للإذاعة والتلفزيون.

كان هذا المعسكر هو الوحيد الذي كان فيه فريق من المتطوعين للقيام بواجبات النظافة وتنظيف قدور الطعام، ومتابعة نظافة الحمامات والساحة الخارجية، كما أنّ للمعسكر طبيبه الخاص، وهو أسير عراقي اسمه خلف الجنابي وهو من أبناء الحلة، وكان يبذل جهوداً كبيرة من أجل الحفاظ على سلامة الأسرى، وكانت اتصالاته مع الجانب الإيراني تصادف نجاحاً مرة وتخفق مرات، ومع ذلك فهو يواصل مساعيه من دون كلل، على الرغم من الشقة الكبيرة بين ما يقدمه الإيرانيون وما يحتاج إليه الأسرى، وفي معسكرنا واجهنا عدوّاً من نوع جديد وهو القمّل، وهو ليس القمل المعروف بصغر حجمه، بل هو أشبه بالقراد، ويسميه الأسرى «تختة كالوس» واسمه بالفارسي «ساس»، هذه الحشرة تعيش وسط الخشب، ولكنّها تعتاش على دم الإنسان، تخرج من مكمنها ليلاً وفي أثناء العتمة في النهار أيضاً وتلسع الأسير وسرعان ما تختفي بلمح البصر قبل أنْ يراها أحد ليتمكن من الإمساك بها، وتترك في الجسم بقعاً متورمة ورائحة كريهة جداً وألماً شديداً وكأنّه حرقة بجمرة نار، كانت حفلات التخلص من هذه الحشرة تأخذ طابعاً استعراضياً على الطريقة الإيرانية المعهودة، فبدلاً من توفير الدواء اللازم للقضاء عليها يصار إلى مهرجان تغطيس الأسرة في بركة وضعت فيها كمية من «زيت الغاز» أو المازوت، ومع أنّ هذه العملية تتكرر بين آونة وأخرى إلا أنّ هذه الحشرة تسخر من هذه العملية وتعود أقوى من ذي قبل لتفتك بأجساد الأسرى وتعبث بأعصابهم، ويبدو أنّ هذه الحشرة تحظى برعاية الجهات الرسمية الإيرانية المسؤولة عن معسكرات الأسر، ولو أنّهم كانوا جادين في القضاء عليها ما احتاجوا إلى أكثر من بضع دقائق باستخدام الدواء الخاص بمكافحتها والمعروف من قبل

الإيرانيين جميعاً نتيجة الانتشار الواسع لها في طول إيران وعرضها، وعلى كل حال لم نعرف على وجه الدقة ما ينتج من أمراض من لسعات هذه الحشرة اللعينة، وترك الجهل الكثير من الهواجس لدينا وحتى الدكتور خلف لم يتوصل إلى استنتاج قاطع بشأن ما يصيب الأسير من أمراض منها ولعل أسوأ ما تتركه هو القلق المشروع، حتى تظهر الأعراض الفسيولوجية الأخرى.

تواصل الحصار الإعلامي علينا في هذا المعسكر أيضاً وبدأنا نتشبث لخرقه بالوسائل التي خبرناها في المعسكرات السابقة، ولكنّ مركزية الحاج عباس وسيطرته بل قسوته على جنوده كانت تصيبنا بالإحباط، فكيف نستطيع الوصول إلى من نظنه قادراً على نجدتنا وفتح نافذة الأمل، وإذا توفر مثل هذا الفرد فماذا عسانا سنقدم له؟ وهل بقي عندنا شيء يستحق الإغراء ليقدم جندي على مثل هذه المجازفة الخطيرة؟ وإذا توفرت كل هذه العوامل المساعدة كيف يستطيع إدخال الراديو عبر الحواجز المتعددة التي تربط بين الخارج والداخل؟ لكنْ إذا تضافر الطمع عند الإيراني أو الحقد على النظام لأي من أسبابه، طائفية أو عرقية أو سياسية، مع الحاجة الملحّة عند الأسير العراقي فقد تصبح كل الطرق ممهدة، ويصل إلينا الراديو، ثم نشدّ خيطاً متيناً مع الوطن.

بعد أنْ تسلمناه من جندي على وشك التسريح من الخدمة وينتمي إلى طيف يعاني اضطهاداً مركباً، وأصبح الجهاز الآن حقيقة مؤكدة لمس اليد، كنّا نترقب بحذر شديد نشرات الأخبار في معسكر يعج بعشرات الأسرى الذين تم اختراقهم من قبل الاستخبارات الإيرانية، ولهذا تراجعنا عن القراءة العلنية لنشرات الأخبار، وصار تداولها يتم على أنطقة محدودة وبالتتابع، ولكنّنا لاحظنا أنّ عيون آمر المعسكر بدأت تبحث عن السر، لا من أجل

سحبه فقط وإنّما لمعرفة مصدر إيصاله إلى الأسرى، فهذا خرق خطير لمنظومة أمنية كانت محل اهتمام الإيرانيين في كل المعسكرات، إلا ما كانوا هم أنفسهم يسمحون بتسريبه من أجهزة راديو بواسطة جنود من جهاز الاستخبارات نفسه، وذلك لسحب المقتنيات الثمينة مما تبقى عند الأسرى، وكذلك لمعرفة الأشخاص الذين يتعاطون بمثل هذه الأمور، كانوا يتطيرون من قيام أي أرشد بمثل هذه الأنشطة، ومثل كل مرة لم نتمكن من إدامة تشغيل الراديو، فالجندي الذي أحضره لنا تسرّح من الخدمة، ومع الاقتصاد في تشغيله فقد كان طبيعياً ألا يستمر عمله لفترة طويلة، نجح بعض الأسرى باستبدال بطاريات بعض الأجهزة الطبية المتوفرة لدى الدكتور خلف، ولكنّ هذا الأمر لم يكن مفتوحاً دائماً، وعلى الرغم من أنّ الدكتور خلف كان يساعدنا في هذا الشأن إلا أنّه لم يرغب بتعريض نفسه لمخاطر يعرف أنّ الأسرى سيتحدّثون بها وستصل إلى الجانب الإيراني، ثم إنّه بدأ بالتحوّل السياسي والابتعاد عن الأسرى الوطنيين في مراحل لاحقة ولذلك كان علينا أنْ نبحث عن مسالك مضمونة لتأمين اشتغال الراديو لأطول فترة متاحة قبل أنْ تدل عليه عيون الاستخبارات الإيرانية، ولما أصبنا باليأس من العثور على ممول إيراني لمعسكر أسرى عراقيين منقسم على نفسه، ويتقاذف ضباط الرتب الكبيرة الاتهامات فيما بينهم، ويتقاذفون هم كفريق واحد مع الطرف الآخر المرتبط أو المتعاطف مع التنظيم الحزبي التهم الكبيرة منها والصغيرة، عن تاريخ مضى منذ بداية الأسر ولكنّه بقي محرّكاً فعّالاً لكل عوامل الصراع، وبين هؤلاء الذين يتراصفون معاً في وجه التآكل الحاصل في الجرف الوطني الذي تنفذه عناصر أضعفها طول السفر، أو طول معاناة داخلية وتساؤلات عن وجه الحق في محاربة دولة الشيعة في

الأرض، ولمّا توقف الراديو عن التنفس طلع علينا مهندس كهربائي عراقي بفكرة أثارت سخرية البعض، وتحذّر البعض الآخر، عن قدرته على تشغيل الراديو من دون بطاريات، وحينما سألناه عن حقيقة ما يقول، أجابنا بثقة مطلقة بإمكانية تحقيق ذلك عن طريق عصير حامضي مركز يتم استخلاصه من طبخ الليمون المجفف والذي يسميه العراقيون «النومي بصرة» ويسميه الإيرانيون الليمون خشك، والعراقيون يشربون هذا النوع من المشروبات الساخنة بديلاً عن الشاي أو مرادفاً له، وخاصة في المقاهي، ولمّا لم تدخل الفكرة في عقول البعض فقد تأخر البدء بتجربة إمكانية نجاحها زمناً، وقلنا ماذا نخسر لو جربنا ما يقول المهندس الجريء، إذن كان على الأرشد أنْ يطلب لنا بين آونة وأخرى كمية ما من «النومي بصرة» كي يتم استخلاص كمية مركزة منه بعد غليه عدة مرات من أجل تركيز كثافته ومع المحلول الحامضي كان علينا أنْ نجمع بعض القطع النحاسية ومن معادن أخرى حدّدها المهندس، وهي أزرار كانت متوافرة في صناديق السكر الكرتونية من أجل إحكام مغاليقها، بعد أنْ استمرت عمليات طبخ الليمون الجاف، وبعد عدة عمليات لتجميع المحاليل المركز، ووضعها في حوض صغير، ولتتدلى منها قطع نحاسية غير متجانسة الأحجام، وتتصل بأسلاك كهربائية، ولترتبط في النهاية بجهاز الراديو الذي فقد غلافه الخارجي وأصبح مجرد أحشاء داخلية، كان الجميع ينتظرون نتائج التجربة العلمية العملية التي اعتبرناها امتداداً لما قام به المخترعون الأوائل، ولكن هذه التجربة تجري وسط خوف وقلق متعدد المحاور، خاصة وأنّ جهاز الراديو الصغير أصبح الآن كبيراً بمرفقاته وحوض المحلول الحامضي. كان المهندس النقيب عبد الحميد النعيمي وهو صاحب الفكرة ومنفذها يواجه بأسئلة كثيرة منها ما هو ساخر من جوهر

الفكرة والقدرة على تحويلها إلى حقيقة، ومنها ما هو متلهف ومتعجل الوصول إلى النتيجة، وبين هذه وتلك شدّ أعصاب للجميع، كانت التجربة تتطلب تغيير السائل الحامضي أو تركيزه بدرجة أعلى، في أحيان أخرى كانت كمية النحاس غير كافية لتفاعل منتج للطاقة الكهربائية على تواضع كميتها، كان المهندس النعيمي أحد ضحايا الأسر فقد أصيبت إحدى رئتيه بالتدرن الرئوي، وأوشك المرض أنْ ينتقل إلى الأخرى، لم يكن هو الوحيد الذي تعرض للإصابة بهذا المرض، تمّ عزل حوالي أربعة عشر أسيراً في قاعة واحدة للشكّ بحالتهم. كنّا نعرف أنّ من يصاب بهذا المرض يصبح حساساً إلى حدود بعيدة، ويعتقد أنّ الآخرين سينفرون منه، ولأنّ عبد الحميد وبقية الأسرى إخوة لنا ونحن أهل بعض حتى نعود إلى الوطن، فقد حرصنا على التواصل مع الجميع على الرغم من تحذيرات الطبيب، المهم كان مرض عبد الحميد قد وصل مرحلة لم يكن هناك خيار أمام الأطباء إلا رفع الرئة المصابة حفظاً للرئة الأخرى ولحياته بالنتيجة، وهذا ما تم فعلاً. وعاد عبد الحميد إلى حياته الطبيعية برئة واحدة وثقة عالية بالنفس، وعلى الرغم من أنّ عمليته الجراحية كانت قد أجريت منذ مدة وجيزة، إلا أنّ الرجل كان صادقاً مع نفسه وصادقاً مع الآخرين حينما كان يوصل الليل الآمن بالنهار القلق، في جهد مختبري دؤوب، وبعد عدة تعديلات على كميات المحلول والمادة النحاسية، انطلقت البشرى، لقد اشتغل الراديو وكأنّنا كنّا نعلن بصوت أرخميدس: وجدتها وجدتها، وربما ذهب بعضنا بعيداً وظن أنّه كان يراقب تجارب صحراء نيفادا الأمريكية لإنتاج القنبلة الذرية. نعم إنّ هذه التجربة كانت عندنا تساوي كل إنجازات عصر النهضة لأنّها نافذة مفتوحة للهواء الطلق وأشعة الشمس إلى الوطن

والأهل، بقدر ما كنّا نشعر بانبهار حول الفكرة ونجاحها، فإنّ النقيب المهندس عبد الحميد النعيمي كان ينظر إليها على أنّها أمر عادي جداً ولم يحاول توظيفها لأي هدف شخصي، كان ذا معنويات عالية على الرغم من الألم الذي يحمله بين ضلوعه، وضرورة التعاطي مع حالته الصحية بأعلى درجات الحذر والوقاية، لأنّ أيَّ خلل في منظومته التنفسية يمكن أنْ يؤدي إلى انتكاسة لرئته السليمة، وبعد أكثر من سنة وحينما وشى عملاء الاستخبارات الإيرانية من الأسرى بجهاز الراديو وكيفية تشغيله، فقد الإيرانيون أعصابهم، فهم كانوا يعرفون أنّ هناك جهازاً تمَّ إيصاله للأسرى، ولكنّهم ظنّوا أنّ البطاريات قد استهلكت وأنّ هذا الجهاز لم يعد أكثر من قطعة نائمة في مكان ما، أما وقد علموا بحقيقة ما نفذه النقيب المهندس، فقد زجوا به في زنزانة انفرادية، على الرغم من خطورة وضعه الصحي، وأصبح «الاختراع» الذي أنجزه وفق ما يصفون حديثاً يتداوله المسؤولون الإيرانيون فيما بينهم في إدارة المعسكر، أو مع الزوار الكبار من خارجه، بمناسبة وغير مناسبة، ويصفون المهندس بأنّه الرجل الذي شغّل الراديو بالماء.

في أكثر من نشرة أخبار مما كنّا نتسلم من مصدرنا الثمين، كنّا نعرف أنّ اتصالات مستمرة بين لجان عراقية ـ إيرانية مشتركة للبحث عن المفقودين، وكذلك البحث في تبادل الجثث بعد العثور عليها، كانت هذه الأخبار تصدِمنا حدّ الترويع، كيف يمكن البحث في مجهول لن تؤثر فيه الأيام والسنون، ونترك من يتآكل بفعل الزمن والمعاناة والفراق؟ هل هناك عاقل واحد يوافق على جدول الأولويات هذا؟ كنّا نطرح أسئلة غاضبة على الرغم من معرفتنا أنّ جواباً شافياً على أي منها لن يكون في متناول اليد أو الأذن، فكرنا أنّ تصفية قضية المفقودين ستعطي أملاً لعائلاتنا التي لم

تعرف عن مصيرنا شيئاً، إضافة إلى أنّ هناك قضايا شرعية معلّقة أمام القضاء، لا يستطيع البتّ بها ما لم يعرف مصيرهم، كنّا نطرح أفكاراً كي نقنع أنفسنا بوجاهتها ونستمد منها الصبر على فوات الفرصة تلو الفرصة، واستمر عمل اللجان وتمّ حفر المناطق التي يظن أنّها مقابر المنطقة الحرام بين المتقاتلين حينما كانت الأرض تلتهب تحت أقدامهم بكل أنواع العتاد الحربي، ومن أحدث ما صنعته يد الإنسان، وتمَّ تجميع الرفات والعظام مع بعضها كي تقول اللجان: إنّها أنجزت عملاً كبيراً، والكل يعرف استحالة التعرف على هويات القتلى في منطقة ظلّت تفور بتنورها دون توقف لثماني سنوات، ومن قبل لجان في بلدين لا يمتلكان حلقات المعرفة الدقيقة في مجال الحمض النووي، إذن كان عمل اللجان مجرد إسقاط فرض أو دفع حرج كي يقول البلدان: إنّهما انتهيا من موضوع المفقودين والقتلى الذين سقطوا أثناء المعارك ولم تتمّ عملية إخلائهم من ساحة المعركة، فتم دفنهم جماعياً أو ترك كثير منهم في المنطقة الحرام الفاصلة بين القوات المتحاربة، لاستحالة الدفن تحت نيران المدافع وعدم القدرة على التوصل إلى اتفاق بين الطرفين المتحاربين لهدنة تتيح الفرصة لدفن القتلى، وأخيراً شعر الموتى براحة الاستقرار في مكانهم الأبدي، وبقي الأسرى مجهولي المصير، وفيما إذا سيحتاجون إلى من ينبش قبورهم بعد اتفاقيات تتم بعد زمن لا يقدر أحدٌ على التكهن بموعده.

المعسكر كما ذكرت تمّ تحويره من استراحة قديمة لقوافل زوار مراقد أئمة الشيعة، إلى معسكر لإيواء أفواج المتدربين من متطوعي حرس الثورة (البسيج) وفي إحدى زواياه استقرّت قاعدة برج مرتفع للقفز الذي تنفذه عادة القوات الخاصة، ويتمّ تجهيز المعسكر من مصدرين مختلفين من الماء، الأول للاستخدامات

الخارجية، كالاستحمام وغسيل الملابس والتنظيف وغيرها، ويتمّ تزويد المعسكر بالماء لتلك الأغراض من بئر قريبة، وبشبكة موزعة على مرافق المعسكر المختلفة، والثاني وهو ماء الشرب وله مصدر من أنبوب واحد مرتبط بشبكة مدينة قمصر كاشان، وتم نصب حنفية واحدة داخل المعسكر لتغذيته بالماء النقي على ما كان يقال.

ولأنّ المنطقة متموجة وشبه جبلية، فإنّ آبارها عادة ما تكون عميقة جداً، ولذا فإنّ سحب الماء منها يحتاج إلى مضخات خاصة تعمل بالطاقة الكهربائية، وكذلك وصول الماء النقي لا يأتي بانسيابية بل يحتاج إلى مضخة لرفعه إلى المعسكر أيضاً، هذا معناه أنّنا في تفاصيل حياتنا اليومية سيتمّ أسرنا مرة أخرى لنكون تحت رحمة هذه المضخات في بلد لا تكترث حكومته لقيمة المواطن الإيراني نفسه، فهل تعطي أسيراً قاتلها بكل شراسة قيمة أو اهتماماً؟ كانت تلك المضخات في عمر ما بعد الخدمة القياسيّة، ولكنْ وجود العقيد المهندس عبد المنعم أسيراً معنا كان يمدّها بعمر إضافي، فكلما تعطلت مضخة جاء بها جنود آمر المعسكر إلى الساحة الداخلية للمعسكر ونادوا على العقيد المهندس، وتبدأ رحلة المعاناة والتزاحم على مصادر الماء، وتكررت الأعطال في مضخات الماء، وكنّا نرى في كل مرة نماذج جديدة منها حتى شككنا أنّ جميع مضخّات المدينة قد تمَّ جلبها لتصليحها ومدّها بعمر إضافي. كان البعض ينظر إلى دور العقيد على أنّه خطأ سياسي وربما أطلق هذا الرأي البعض ممن كان بحاجة إلى بضاعة تعوضه نقص ما في جعبته، إلا أنّ الواقع يؤكّد أنّ ما يقوم به كان خدمة مباشرة لحياة الأسرى في معسكر لا تصل مياهه إلا بواسطة مضخات قابلة للعطب، صحيح أنّ الإيرانيين يأتوننا ببعض المضخات من خارج المعسكر إلا أنّ مصلحتنا تقتضي القبول

بإصلاحها، لأنّنا لا نمتلك خياراً آخر، حتى ولو كان آمر المعسكر صاحب مصلحة مادية مباشرة من وراء هذه العملية.

كان هذا أول معسكر مزدحم بذوي النجوم الكثيرة، وربما تكون ثقيلة على أكتاف البعض منهم من دون أنْ يعطيها حقها من الاحترام، وفي واقع الحال شهد هذا المعسكر أكبر عمليات صراع على النفوذ بين الضباط الكبار والحزبيين الكبار، هذا أول وجه من وجوه التنافس، هناك صراع آخر بين ما يعتبره كل طرف يخاصم الطرف الآخر وهو نشر الغسيل أمام الملأ، كل فريق يتهم الآخر بارتكاب خطيئة ويجرده من حق إبداء الرأي وحق الاتّباع من بقية الأسرى، وثالث محاور الصراع هو الواقع بين الرتب الكبيرة من الضباط أنفسهم، كان العقيد نريمان بكر سامي يعتقد أنّه أقدم الضباط رتبة، فاللواء الركن دخيل علي الهلالي ـ على ما يقول العقيد نريمان هو ومن يدعمه بموقفه ـ أحيل على التقاعد منذ زمن بعيد، وهو حينما جاء إلى الجبهة إنّما جاء بصفته المدنية كمتطوع لألوية المهمات الخاصة، فهو لم يعد يحمل من العسكرية إلا ذكرياتها الحلو منها والمر على حد سواء، أما اللواء الركن علي العلكاوي، فهو وباعترافه (على ما راج في وسط مضغوط ولم يكن ليسمح بتصديق كل ما يقال) أقلّ قدماً من نريمان ومن سردار في آخر جدول بترقية الضباط، إذ جاء تسلسله بعدهما، وكان الرجل ينفي أنْ يكون قد نقل هذه الرواية، ولكنّه لم يتحدث بذلك بصوت عال، فترك مساحة عريضة من التأويلات، وتبين فيما بعد أنّ الحديث الذي نقله المقدم سعيد عبد الحميد الدوري ـ عن تعميم أصدرته الاستخبارات العسكرية بحق العقيد نريمان حذرت فيه من احتمال فرار عائلته إلى إيران، وكانت الأوساط المقربة منه تنفيه ـ كان صحيحاً تماماً.

المهم واجهنا هذا الجو الملبّد بالغيوم الداكنة لصراعات مفتوحة على كل الجبهات، بالمقابل كان التذمر من الأرشد جبار فرنسيس قد وصل مرحلة لم يعد بالإمكان التصدي لها، فالرجل كان يرغم الجميع على أنْ يسلطوا الضوء عليه ويراقبوه، فقد كان يستأثر لنفسه ولبعض المقربين منه بكل امتيازات الطعام في دورة الجوع الجديدة، وبأفضل ما يرد للمعسكر من الملابس في زمن البرد المتجدد، كان واجبه يقف عند حدود المصالح الخاصة والضيقة، ولم يكن ليدافع عن أسير إذا تعرض لمشكلة طالما أنّ ذلك يمكن أنْ يفقده وجاهة «المنصب» أو امتيازاته، ثم إنّ المزاج العام للعراقيين يميل إلى التغيير بصفة دائمة، ويراقبون كل من يأخذ شيئاً مما يعتبرونه حقّاً لهم، وهذا ما وسّع دائرة المطالبة بعزل الأرشد والمجيء ببديل، فوقع الخيار على العميد الركن جميل أحمد البياتي، والذي كان أُسر في معارك نهر جاسم عام ١٩٨٧، وكان قد حصل على تكريم من القيادة نتيجة استبساله في الجبهات، كان من نتيجتها أنْ حصل على رتبتين عسكريتين كقدم عسكري، فكان لافتاً للنظر أنْ نرى معنا في المعسكر ضباطاً من الدورة السابعة والأربعين في الكلية العسكرية من هم برتب مختلفة، فهناك الرائد وهو المرحوم غائب ياسين سهيل، وهناك المقدم الركن وهو ضرغام السامرائي، وهناك العقيد الركن وهو عبد الكاظم الأسدي آمر اللواء ١١١ والذي أُسر في الفاو، وهناك العميد الركن وهو جميل أحمد البياتي والذي جلب له حساسيات كثيرة، وكان يعاني جوَّ كراهية من مجموعة العقيد نريمان ومن المجموعات الأخرى، واتسمت مدة أرشديته بالكثير من الأحداث المفصلية في تاريخ المعسكر وحياة الأسرى فيه وخاصة تمكّن الإيرانيين من الوصول إلى جهاز الراديو، هذا الحدث أثار غضباً

عميقاً وتساؤلات عن الأسباب التي أدت إلى معرفة مكانه، على الرغم من أنّنا كنّا على يقين أنّ معسكراً كالذي نحن فيه لا يمكن أنْ نخفي فيه إبرة خياطة من دون اكتشافها من قبل الإيرانيين، ليس لفطنة الإيرانيين أو لقدرتهم الاستخبارية بقدر ما هو نتاج طبيعي لحالة الانقسام بين الأسرى بالدرجة الأولى واستغلال إدارة المعسكر لها وقدرتها على توظيف هذه الحالة لصالح اختراق المعسكر، وبعد هذا الحدث تمّ إعلان حالة الطوارئ في المعسكر، بحثاً عمّن أوصله إلينا ومن اشتراه، ومن أجل التعرف إلى الحقيقة تمّ عزل الأرشد العميد الركن جميل أحمد البياتي، وألقي به في زنزانة انفرادية، وظلّ هذا المعسكر هاجس قلق لإدارته أولاً ولمعظم المسؤولين الإيرانيين، واختار الإيرانيون العقيد عبد الحق الطائي وهو من أبناء الموصل أرشداً جديداً للمعسكر، وتقرّر توزيع الأسرى في قاعات المعسكر اعتماداً على أسلوب جديد، ففي السابق كانت الطرق مختلفة في هذا التوزيع، مرة يتم جمعهم استناداً إلى مبدأ القرعة بين الأسرى وهي قانون لا يستطيع أحد الاعتراض عليه، أو على وحدة المعسكرات السابقة وما كونته من أواصر. وأخيراً قرّر الإيرانيون ومن أجل تحكّم أقوى وفرض سيطرة مباشرة على الكامبات جمع الأسرى على أساس الرتب، فالجنود وضباط الصف وضعوا في قاعة واحدة، والملازمون والملازمون الأوائل وضعوا في قاعة، ووضع النقباء في قاعة صغيرة نسبياً هي القاعة الثالثة، ووضع الضباط من رتبة رائد وصعوداً في قاعة، ولكن هذا لم يخفف كثيراً من حالة الاحتقان التي كان المعسكر يعانيها، وربما برزت تناقضات جديدة لتضاف إلى رصيد الهموم اليومية لأسرى أتعبتهم التجارب القاسية التي وضعهم الإيرانيون في مختبراتها.

في هذا الوقت أراد الإيرانيون تنصيب أراشد على القاعات التي تم تجميع الأسرى فيها على الأسس الجديدة، جاءنا العقيد عبد الحق وأبلغنا أنّه اختار لنا أرشداً، ولكنّنا واجهنا الأمر على أنّ هذا من حقنا وليس له أنْ يقرر نيابة عنا، ولم يكن لدينا اعتراض على الشخص الذي قالوا إنّهم اختاروه، ولكنّنا رفضنا الفرض من حيث المبدأ، فما كان إلا أنْ حاول العقيد عبد الحق أنْ يتخطى حدود اللياقة في تعامله معنا، بل وهددنا بالرجوع إلى الإيرانيين في حال إصرارنا على رفض من اختاره لنا، فما كان من النقيب غانم السامرائي إلا أنْ يخرج من بين الصفوف ويشتبك معه ويطرحه أرضاً، وعندها دق ناقوس الخطر عالياً في المعسكر، واقتيد النقيب غانم إلى الزنزانة الانفرادية وأخضع لتعذيب قاس لم يمنعه تدهور وضعه الصحي، وعوقبت قاعتنا بالحرمان من فسحة الشمس والتنفس على محدوديتها.

مثل كل معسكرات الأسرى المعاقبين والمقطوعين عن العالم، كانت تجهيزاتنا من الألبسة والأحذية المطاطية (نعل)، محدودة جداً ولا تكفي لنصف موسم، وخاصة في «النعل»، كانت معالجة هذا النقص، ولا سيما الحاجة الملحّة إلى نعل يحمي القدمين في أثناء الذهاب إلى الحمام، تتم بواسطة لحام قطع بلاستيكية بالحرارة في أسفل النعل، فتصبح الحركة صعبة نتيجة هذه القطع غير المتجانسة، وكان محظوظاً من يحصل على قطعة بلاستيكية متجانسة كي يلحم نعله، والذين هم أقلّ حظّاً بقليل فيحصلون على بغيتهم من خرطوم الماء المطاطي لهذا الغرض، كنا ننتظر إعداد شاي العصر والذي يطبخ في قدر كبير ويستخدم لغليه موقد كبير أيضاً، فتنطلق المساعي لعدد من الأسرى الذين قرروا مساعدة زملائهم، فأعدّوا قطعة معدنية تمّ ربطها بوتد خشبي طويل، وتحمى على نار

موقد الشاي المتوهج حتى يستحيل لونها إلى الاحمرار، ثم يهرول بها إلى الساحة الداخلية للمعسكر، فيمررها بين قطعة النعل الأصلية وقطعة اللحام، فيتماسك لمدة ليست طويلة، فيتعامل من أنجز هذه المهمة مع الحدث بارتياح شديد.

كما قلت يضمّ المعسكر أكثر من لغم أو قنبلة موقوتة، قابلة للتفجير عن قرب بجهاز تحكم يمسك به الإيرانيون، كان من بين هذه القنابل جندي منبوذ اسمه عباس كعيد، تقلّب موقفه السياسي مراراً وبحسب الجو العام، كان معزولاً ولا يجد معظم الأسرى رغبة في الاختلاط به، لأنّه كان عندما يتوب عن توبته، يكشف كل الأوراق التي يحتفظ بها في جيبه، وكان يحرج أصدقاءه ويعقّد علاقاتهم مع الآخرين وخاصة حينما يكشف ما كتبوه من تقارير وشاية برفاقهم الأسرى، اللافت أنّ من كان يحرص على عزل كعيد هم الذين أثبت الزمن الثقيل أنهم الذين اتسمت مواقفهم بالضعف والتقلب والتذبذب لاحقاً، وربما كانوا أكثر الناس تقرباً منه وطلباً لرضاه ومدّ اليد إليه، وكان لحادثة لحام نعل عباس كعيد من قِبَل حيدر الذي كان يتولى الكثير من المهمات في المعسكر من قبيل إصلاح أنابيب الماء وخطوط الربط الكهربائي، ولحام نعال الأسرى أثرٌ بالغٌ في إثارة غضب الكثيرين لأنّ عباس كعيد كان مقاطعاً ويخشى من أي اتصال به، خوفاً من تسرب خبر ما عن وجود الراديو، فقد واجه الأسرى مجرد حصول هذا التعاون من قبل حيدر مع عباس على أنّه خرق لموقف الأسرى الموحد، على الرغم من أنّ حسين كطيف وحيدر ورضوان وهادي وذياب وغيرهم كثيرين يعدون مصدراً مؤكداً لتسرب الكثير من المعلومات إلى الجانب الإيراني، وتطوّرت الأحداث بسرعة، وبعد مشادة في ساحة المعسكر حصل شجار بالأيدي، وتطوّر الأمر إلى اشتباك

بالمتاح من العصي والأوتاد وغيرها، وتدخل الإيرانيون على عجل، وتم فرض حظر كامل للحركة في المعسكر، وأغلقت الأبواب علينا وسط أحاديث متداولة عن أنّ بعض الضباط الكبار من الذين ألغوا الحدود بينهم وبين الإيرانيين نصحوا الإيرانيين صراحة بالتخلص من حوالي ثمانين من الأسرى، وذلك بوضعهم في زنازين مغلقة ومنعهم من الاختلاط ببقية الأسرى، وعندها سيسود الهدوء والاستقرار في هذا المعسكر كنّا نعرف أنّ هذا قد وقع حقّاً ولكنْ ينقصنا الدليل قبل وقوعه، فما علينا إلا التصرف الاحترازي خاصة مجموعة الثمانين. كانت الخطوة الأولى التي أقدم عليها الحاج عباس قطع الأرزاق بشكل كامل عن المعسكر، والتضييق على الأسرى في استخدام الحمامات، ثم بدأت بعد ذلك «حفلات» التحقيق وما يرافقها من تعذيب، ورمي بالانفراديات الجماعية، ودار الزمن دورة كاملة وألقانا على بداية طريق الأسر مرة أخرى، بكل معاناته وعذاباته وبدأنا نتساءل بمرارة: متى يؤمن الإيرانيون أنّنا عراقيون لنا قناعاتنا ويكفّون عن معاقبتنا لمجرد كوننا عراقيين ويتوقفون عن التعامل معنا كما يتعاملون مع المعارضة الإيرانية؟ بعد عدة أيام أطلق الحاج عباس حصتنا من الطعام، ولكنّ الكمية خضعت للتقليص ولم تعد إلى سابق عهدها إلا بعد أنْ أخذت منّا جزءًا من مخزون المطاولة الذي كنّا نجمعه للأيام السود، كانت الزنزانة التي ألقينا فيها أنا والنقيب صباح العاني وعبد الستار العامري ومنعم كريم حسين ومعنا اثنان آخران صغيرة جداً، كنّا ستة أسرى في غرفة تقلّ أبعادها عن ثلاثة أمتار × ثلاثة أمتار، ولها باب حديدي محكم الإغلاق من دون نوافذ، أمضينا فيها حوالى سنة، كانت الشمس في شهور الصيف ترمي بكل ثقلها على الباب الحديدي الذي يتحول إلى فرن طبيعي فيذيقنا مرارة القيظ

والذباب والعرق والمعاناة والجوع مع مواقيت صارمة لمواعيد النوبة للمرافق الصحية، وما أكثر المرات التي كان الجنود الإيرانيون ينسون أو يتعمّدون تخطي غرفتنا إمعاناً في إلحاق الأذى بنَا فتتضاعف عذاباتنا مما أحيا في أبداننا استعداداً للإصابة بأمراض الجهاز الهضمي، كنّا قد عانينا منه في معسكر الفرقة ٧٧ في مشهد، إضافة إلى ما يتركه اقتصار وجبات الطعام على البقوليات والنشويات فلا خضر ولا فواكه، وحينما كان بعض المرضى الذي يؤكد الطبيب حاجتهم الملحّة إلى قليل من اللحوم، فإنّ المكلّف بتوزيع أرزاق الأسرى يبحث في القدر بعزم عن قطعة صغيرة وبعد سباحة في بركة (المرق) يرتد صواعه خائباً وهو حسير، ومرة طلب الأرشد نصف لتر من الحليب للواء الركن دخيل الهلالي أو كمية ضئيلة من الحليب المجفف، بعد أنْ تدهورت أوضاعه الصحية على نحو ينذر بخطر مؤكد، ولكنّ الطلب قوبل بالرفض بل والسخرية منه وراء تبريرات سخيفة، وفي المناسبات الإيرانية الدينية والسياسية ترد للمعسكر فضلات أسواق الخضر والفواكه مما تعافه النفس وبكميات أقرب إلى المزحة منها إلى تأمين حاجة طبيعية لإنسان.

أثّرت عوامل سوء التغذية في الأوضاع الصحية للأسرى من دون استثناء، ومع عدم انتظام إمدادات الماء النقي نتيجة عدم صلاحية البئر التي يجهز المعسكر من مياهها، للاستخدام البشري إضافة إلى أنّ بالوعات المياه القذرة الخارجة من المعسكر على ما علمنا، كانت قريبة جداً من البئر المخصصة للاستعمال البشري، مما يحولها إلى أسلحة جرثومية فتاكة، وفجأة أعلنت حالة الاستنفار القصوى في صفوف الأسرى حينَما تمَّ اكتشاف أول حالة إصابة بالإسهال الدموي، وفي غضون ساعات كان الإسهال الدموي ينتشر في حالة وبائية على الرغم من أنّ البعض أخفى إصابته

خجلاً، ونفدت كل أدوية الإسهال والإسهال الدموي، ووقف الدكتور خلف الجنابي عاجزاً عن تقديم أيّ مساعدة عملية نتيجة عدم تعاون إدارة المعسكر معه، فبدأ بإعطاء النصائح الوقائية للحد من تفشي هذا المرض اللعين، كان يوصي مثلاً بتناول الشاي الحلو شرط الحرص على غليهِ لوقت كاف، لكنّ الكثير من الأسرى كانوا يعتقدون أنّ السكريات مما يفاقم في مرض الإسهال، ولهذا فقد امتنع الكثيرون عن تناول شيء بما في ذلك الماء، مما أدى إلى التسبب بتيبس في الأمعاء وهذا ما أودى بحياة بعض مرضى الإسهال الدموي، فالنقص بمستوى الوعي الصحي أسهم بتعريض حياة كثيرين لخطر أو أودى بحياتهم فعلاً، كان الأسرى ينظرون إلى هذا المرض على أنّه أكبر تهديد لحياتهم بعد التهديد الإيراني بسبب تجاربهم المريرة معه، فقد عانت المعسكرات على مدى السنوات السابقة من نتائجه الكارثية، فقد حصد حياة العشرات وسط عجز الآخرين وذهولهم لهذه اللامبالاة التي يتعامل بها الإيرانيون مع حياة أسرى ضمنتها القوانين الدولية وخاصة اتفاقية جنيف ذات الصلة، غير أنّ الإيرانيين كانوا يجاهرون بعدم التزامهم بالقوانين الدولية، ويطرحون علينا أنّهم يتعاملون مع الأسرى استناداً إلى القوانين الإسلامية، وكانوا يلمّحون رمزاً أو مباشرة إلى الآية الكريمة التي تقول: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، ويؤكدون أنّ دولتهم هي دولة النبي الفتية التي لم تثخن في الأرض بعد، وبالتالي عليها أنْ تعاقب بالقتل كلّ من حمل السلاح بوجهها، المهم بدأ المصابون الأوائل يفقدون حيويتهم تدريجياً، وكانت الأنباء السيئة تنتقل بسرعة خارقة بين الأسرى، اليوم سقط واحد، وتعالت التساؤلات من هو؟ ويأتي الجواب سريعاً إنّه باسم الجراح، كان على وشك أنْ ينجز ختمة

قرآن ويهدي ثوابها لواحد من شهداء المعسكر، ولكنّه لم يكملها وتطوع أسير آخر لإكمال ختمتين لهما معاً، بعد قليل تتوالى الأخبار والإشاعات عن عدد من رحل على فراش المرض من دون صراع طويل ومن دون أنْ تمدّ له يد المساعدة بكبسولة تراسايكلين لوقف أسباب الإسهال الدموي، فالإيرانيون في شغل عن تطبيق القيم الإنسانية بشعارات صاخبة حدّ الصمم عن إسلام القرن العشرين، الذي ظهر من قم لأول مرة على يد نبي يبشر بالقتل وينبذ التسامح ويقتل الخصوم والمعارضين على الظن، واستمر الأسرى يتساقطون، وفي اليوم الثالث بلغ عدد المصابين أكثر من مئتين وكنت من بينهم، حينها تحركت إدارة المعسكر حتى تغسل يدها من الأرواح التي أزهقت ولكنّ السلحفاة التي حملت أنباء الكارثة إلى إدارة شؤون الأسرى في إيران لم تمنع سقوط آخرين، كانت المكروبات قد نهشت أمعاءهم وحولتها إلى فحم، وحينما وصل الرقم إلى أكثر من نصف الأسرى وصلت لجنة من طهران، وأجرت فحوصات على عيّنات محدودة منهم، وجدت أنّ أبسط حالة تمّ تحليلها كانت تحمل ستة أمراض قاتلة، وفي واحد من أهم التحولات الإدارية في المعسكر تمّ تغيير آمره الحاج عباس بزرك نيا بعد أن طبق على الأسرى أسوأ ما أصدره رو نواز وما قرأه في كتب التعامل مع السجناء وما شاهده في أفلام التعذيب، قيل لنا: إنّ عباس بزك نيا في إجازة، جاءتنا وعود بأنّ المعاملة ستشهد تحسناً، على الرغم من يقيننا أنّ معاملة الحاج عباس لنا كانت معلومة التفاصيل لجهاز استخبارات رو نواز، بل إنّ مذكرة بآليات التعامل مع جميع الأسرى المخلصين لبلدهم كانت تحدّد السقوف العليا والواطئة لمفردات التعذيب وأوقات الاستراحة بين فصل تعذيب وآخر، ومع ذلك دعونا الله بإخلاص أن ينقذنا من

هذه المحنة وليأت التحول ولننتظر حتى يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الكذب الإيراني، ولكننا فسرنا هذه التعهدات بأنها جزء من امتصاص نقمتنا بسبب وفاة عدد من الأسرى نتيجة الإهمال العمدي.

كان معسكرنا بحاجة إلى زمن ليس بالقصير من أجل أنْ يجتاز هواجس عميقة وقديمة من القلق تركت ندوباً عميقة في ضمائر الأسرى من دون استثناء بسبب مرض الإسهال الدموي، وقد تكون الخشية من مرض ما أكبر في إثارة أسباب القلق من المرض نفسه، وقد يكون التوقي من الموت أكثر إيلاماً من الموت نفسه، مما ولّد تصوّراً من الصعب تجاوزه بأنّ الإيرانيين يسعون إلى رمينا في دوامة متصلة من القلق، بحيث لا نخرج من واحدة إلا ودخلنا في جديدة أو أكثر. في هذا الوقت علمنا أنّ الحاج نظران، سكرتير مجلس الدفاع الإيراني الأعلى ورئيس اللجنة العليا لشؤون الأسرى لقي حتفه في حادث اصطدام مروري مروّع، سحقت سيارته بشاحنة على أحد الطرق الخارجية في خراسان بعد زيارة لواحد من معسكرات الأسرى، دخل في أثنائها في حوار ساخن مع الأسرى، فقرر معاقبة الأسرى جميعاً، وأمر بتخفيض أرزاقهم إلى الحدود الدنيا، وفي طريق عودته تعرض للحادث الذي أودى بحياته وحياة بعض مرافقيه، كانت مثل هذه الأخبار تردنا من المستشفى التي يؤمّها الأسرى من جميع المعسكرات فيتبادلون أخبار معسكراتهم بما تسمح به ظروف اللقاءات القصيرة، لم يخف الأسرى ارتياحهم للتخلص من أحد أبرز السيئين، على الرغم من أنّ الموت لا شماتة فيه، ولكنّهم تمنّوا بصدق لو أنّ «رو نواز» هو من كان قد رحل، أو لو أنّه كان بين المغادرين، ولكنّ رو نواز بقي حياً ليكون خنجراً مسموماً في صدور آلاف الأسرى الذين لم

تنجح طهران في تغيير قناعاتهم أو نزع أعينهم فحافظوا على جهاز تنفسي لا يروق له الهواء الإيراني، ولا يجدون في ولاية الفقيه رداء عزّ أو فخر لهم، فكان يزور المعسكر في أوقات متقاربة، وفي كل مرة كان يستدعي بعض زبائنه ممن تحوّلوا إلى آذان له وعيون، وبعد وقت من ذلك تبدأ الصفحة الثانية، إذ يرسل بطلب أسرى من نوع آخر، ويخضعهم لأسئلة تجعلهم يشكون بأنّ أسرى الفريق الأول أوصلوا معلومات لنواز، كانت هذه خطة استخبارية متعمّدة منذ البداية وقد تحصّن الأسرى ضدّها، ولكنّ الإيرانيين حافظوا على آلياتها في تحقيقاتهم، ولكنْ ما هي المعلومات التي يريدها نواز من أسرى استهلكت السنون كل ما لديهم من معلومات، وهل تستوجب ظروف المعسكرات كل ما يقع من تحقيقات، أم أنّ الهدف الأساس من هذه الممارسات هو زرع روح الشكّ بين الأسرى؟ بمن فيهم من انحاز إلى صف الإيرانيين، فهؤلاء ليس أكثر من عاهرة تفقد كل جاذبيتها بعد المضاجعة، ولا ترى فيهم إيران سلعة تستحق الاقتناء بعد العرض فهي للاستخدام مرة واحدة.

بدأ المعسكر يتدحرج في مواقفه، وكان الأرشد يتحمل في الواقع مسؤولية ذلك، فقد تم إخلاء القاعة السادسة من حوالى ستين أسيراً وتوزيعهم على بقية القاعات المكتظة أصلاً، وتمّ تحويلها إلى «جامع» لتأدية صلاة، الله وحده يعرف فيما إذا كانت له، أو رسالة انتهازية موجهة للإيرانيين محاكاة لهم في شعائر علنية، وكان لإصرار كل من مهدي وجعفر ومجاميع الخونة والانتهازيين الخائفين الدور الأكثر وضوحاً في تنفيذ هذه الفكرة، والتي وجدت لدى الإيرانيين استجابة لخططهم في إحداث شرخ في المعسكر وإثارة الفتنة والانقسام داخل معسكر أوصلوه إلى حافة

الانهيار، في البداية كان الذين عرفوا طريق مسجد ضرار يخرجون من قاعات مختلفة بحسب جدول وضعه لهم الإيرانيون، إذ لم يتم فصلهم عن بقية الأسرى لعدة شهور، في البداية كان العدد ضئيلاً وكان لدينا إحساس مؤكد بأنّ بعض الانتهازيين والمرتجفين من دون سبب، أو ليسوا على استعداد لتحمل أية تضحية تمسكاً بالموقف الوطني، حتى من أولئك الذين لم يذكروا الله قياماً أو قعوداً أو على جنوبهم، سراً أو علانية، ليلاً أو نهاراً، سيبادرون للانخراط في لعبة العبادة السياسية.

بدأت فتنة طائفية تطل برأسها تدريجياً مما لم يكن المجتمع العراقي يعرفه بتلك الحدة التي بذر غرستها الأولى معممون إيرانيون، أرادوا توظيف هذه الصفحة من أجل إحكام سيطرتهم على الأسرى الذين باعوا أنفسهم لهم، فالإيرانيون لا يثقون بأسير حتى وإنْ دخل بيت طاعتهم وقاتل معاركهم ضد إخوته وأبناء وطنه. كان الفصل الأول في هذه الفتنة قد بدأ من المغاسل في أثناء الوضوء، فقد اندفع بعض الغلاة من الشيعة في ممارسة أعمال لم يعهدها المجتمع العراقي في حياته، من قبيل إعادة الوضوء في حال لمس سني شيعياً حتى لو لمسة خاطفة وبمحض الصدفة، إذ يعتبر أنّ وضوءه قد نقض كناية عن نجاسة السني، ولأنّ السنّة في ظرف مكاني وسياسي غير متكافئ فقد قبلوا على مضض بهذا التعامل الفج بل والدنيء من زملائهم في جامع الصلاة السياسية، ولا سيما أنّهم كانوا ضمن جوقة «الجامع»، فهم معزولون من أسرى المعسكر، وهم أقلية ضمن جماعة الجامع. كان البعض يحتفظ بخطوط مواصلات مع الصف الوطني، ويتواصل مع بعض أصدقائه في القاعات الأخرى ولكنْ على نحو سري، لأنّ الإيرانيين إذا علموا بذلك فإنّ عقوبات مشددة ستفرض على الطرفين، كما أنّ

الوسط الوطني إذا علم بخطوط مفتوحة بين أحد أسراه وجماعة «الجامع» فإنّهم سيواجهون ذلك بردات فعل حادة جداً قد تصل إلى العزل.

حرص الإيرانيون على توسيع دائرة الداخلين للجامع بكل ما يملكون من وسائل، وأرادوا كسر الحاجز النفسي بين الأسرى والقاعة التي اتخذت مسجداً، والتي كانت حتى وقت قريب قاعة تضمّ عدداً من الأسرى، ولكنّها تحولت بعد أنْ صارت جامعاً إلى خط من نار يفصل الوطني عن بلده وأهله، وتعدّدت وسائل الإدارة الإيرانية لجذب الزبائن إلى المكان حتى في حال عدم الصلاة فيه، قد يبدو لافتاً للنظر أو ربما كان مستهجناً أنْ يقف أسرى عراقيون مسلمون هذه الوقفة الحادة ضد مكان خصّصه الإيرانيون للعبادة، وهو أمر ينظرون إليه على أنّه «تكليف شرعي»، ولكنّ التجربة المرة للأسرى العراقيين المتمسكين بوطنهم مع الإيرانيين لم تمنحهم هامشاً كبيراً لرفع سقف حذرهم إلى درجاته العليا، والنظر إلى كل خطوة يأتي بها الإيرانيون على أنّ هدفها الأساس هو إيقاع الوقيعة بين الأسرى، وإسقاط بعضهم في مستنقع اليأس من قدرة وطنهم على إنقاذهم أو قدرتهم على الصمود إلى ما لا نهاية له، فالجامع من وجهة نظرنا ليس لوجه الله أبداً وإنّما لإيقاع الفتنة والانقسام بيننا وتسهيل اختراقنا من الاستخبارات الإيرانية، ولهذا فحينما وجد الإيرانيون أنّ نسبة ضئيلة جداً من أسرى المعسكر هم الذين ذهبوا إليه بدأت تبحث عن وسائل إغراء جديدة، فنتيجة للحرمان من أي ترفيه بريء للأسرى سواء براديو أو تلفزيون، فقد قررت إدارة شؤون الأسرى عرض أفلام سينمائية منتقاة بواسطة الفيديو، ووجدت في «الجامع» المخصص على ما زعموا للعبادة صالة عرض سينمائي، ومن أجل الحفاظ على أعلى درجات العزل بين

الأسرى فقد تقرر أنْ يخصص كل يوم لواحدة من قاعات الأسرى لمشاهدة الفلم المنتقى بدقة استخبارية لكي يحدث تأثيراً تريده الجهات الإيرانية، يبدأ خطوته الأولى باستعداد الأسرى للذهاب إلى مكان رفضوا تأدية الصلاة فيه، ولكنّ الأسرى واصلوا صدودهم عن الإغراء الجديد، والذي أكد لهم أنّ الهدف من فتح هذا المكان إنّما لغرض كسر الحاجز النفسي بينهم وبين ما يخطط له الإيرانيون، فلو أنّ الإيرانيين يؤمنون بأنّ ما سمّوه جامعاً هو لعبادة الله لجعلوه خالصاً لله وحده، فالآية الكريمة جاءت قاطعة: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، فهل كانت الأفلام السينمائية وهي تحفل بكثير من التحلل والخلاعة جزءاً من طقوس العبادة على وفق ما تراه ولاية الفقيه أم هي طريق الهداية المعكوسة؟ كنّا نلاحظ ميلاً متزايداً من بعض الأسرى إلى مشاهدة الأفلام الأمريكية وغيرها من أفلام الجنس والإثارة والعنف خاصة وأنّ الأسرى الذين عانوا الكثير في المعسكرات الإيرانية صدمهم التناقض الحاد بين الشعارات المرفوعة، والتطبيقات الميدانية مما أدى إلى عزوف مؤسف لمعظم الأسرى عن العبادات المفروضة، مع ما يتركه ذلك من ردات فعل نفسية لدى أسير ممنوع من ممارسة حقوقه الإنسانية لسنوات طويلة، وربما تخلق دوافع عدوانية عند البعض نتيجة القهر بحيث يمكن أنْ يتم تفريغ المتراكم من المعاناة من أقرب ثغرة واهنة في جدار الأسرى. كانت الأفلام المخصصة لمعسكرنا منتقاة بدقة، وهي من أفلام الخلاعة والإثارة على ما تحدث البعض ممن سمح لنفسه أنْ يذهب مرة واحدة فقط، على الرغم من كل محاولاتنا لمنعه وعلى الرغم من التقريع اللاحق، فقد عاد وقص لبعض أصدقائه صور ما شاهده في قاعة تمّ تخصيصها كمسجد، ولكنّها تحولت إلى كابريه يعرض مشاهد

لا تسمح إيران بعرض أقل القليل منها في دور السينما العامة وإنْ كنّا لا ندري ماذا يدور وراء الجدران العالية والأبواب الموصدة سواء داخل بيوت كبار المسؤولين الإيرانيين دينيين وسياسيين وعسكريين؛ فالآيات الكبار يحللون ويحرمون على هواهم، هذا أثار تساؤلات عن الهدف من وراء مثل هذه الممارسات الخليعة، وبمرور الوقت استقر عدد رواد المسجد عند حدود يقل عن خمسين شخصاً، وتعمقت الهوة بين هؤلاء وبين بقية الأسرى، دخلت على خطها ضغائن شخصية، ودور الاستخبارات الإيرانية في التحريض.

بعد أنْ تحول «المسجد» إلى اختيار سياسي موالٍ للإيرانيين، تصور البعض أنّ ذلك سيكون سبباً في رص وحدة الطرف الآخر من أسرى المعسكر، وربّما هدأت جبهات الصراع والتنافس قليلاً، ولكنّ المشاعر بقيت على حالها، وكان رو نواز يزور معسكرنا بين فترة وأخرى ليستطلع ما حققه من إنجازات ميدانية، فهو لم ييأس من إسقاط المزيد. مرّة استدعى العقيد الركن نريمان بكر سامي آمر اللواء ٩٦ وهو كردي كما مرّ ذكره وحاول استمالته بالحديث عن اضطهاد الأكراد على يد الرئيس صدام حسين والبعثيين، وبعد لقاء استمر عدة ساعات عاد العقيد إلينا وهو أكثر عزماً وتصميماً على مواصلة التحدي حتى نهاية الشوط. كان العقيد نريمان عراقياً مليئاً بالوطنية ورفض كل المساومات والمقايضات وكتب في معسكرنا هذا أكثر من رواية كانت تحكي ببناء روائي متماسك في قياسات الأسر قصصاً من صميم مجتمعنا العراقي الذي كان يخوض الحرب مع إيران، وجنّد فيها مهاراته في الدفاع عن حقّ العراق في الدفاع عن نفسه حتى النصر ودحر المعتدين الإيرانيين، وكان يواجه بالازدراء مواقف الزعامات الكردية في الاصطفاف مع الإيرانيين ضدّ أبناء بلدهم، وبعد

استراحة قصيرة بدأ يتحدث عن لقائه مع نواز، قال: إنّ نواز واصل معه منطق التحريض القديم، وبعد أنْ استعرض كل ما قاله رو نواز بدأ يسرد لنا ردوده القاطعة عليه، ومن بين أهم ما ذكره لنا أنّ نواز سأله باختصار شديد عما إذا كان ككردي على استعداد للالتحاق بالكيان الكردي في شمال العراق، المنسلخ عن الحكومة المركزية في بغداد؟ وقال: إنّ نواز أبلغه أنّ تلك الزعامات قد طالبت به وبالعقيد الركن سردار بهاء الدين بابان، ولكنّه على ما ذكر لنا لم يرفض فقط وإنّما قال له بأنّه لا يطيق مجرد التفكير بأنّ هؤلاء الجهلة من أبناء الزعماء الأكراد الذين كانوا أطفالاً حينما كان هو ضابطاً كبيراً في الجيش العراقي يمكن أنْ يقودوا الشعب الكردي، وبالتالي فهو لا يشرّفه أن يخدم بإمرة من لا يصلح جندياً في لواء يقوده، وقال: إنّه أبلغ نواز أنّه على استعداد للقتال تحت قيادة صدام في أية معركة وفي أية جبهة، بما في ذلك مقاتلة البرزاني والطالباني. قوبل هذا التقرير بترحاب عالٍ من قبل الجميع وخاصة المجموعة المحسوبة على العقداء، وحقيقة تألم الكثيرون مما اعتبروه ظلماً لحق بالعقيد نريمان بسبب القرار المتخذ ضده في العراق، نتيجة لعدم وجود قنوات دقيقة لمسار المعلومات الواصلة إلى الاستخبارات العراقية حول حقيقة موقف الأسرى.

بدأ الزمن يأكل من أبدان الأسرى، وبدأ الوهن يعتري صحتهم، فاللواء الركن دخيل علي الهلالي أصيب بجلطة دماغية إضافة إلى مرض السكر القديم، ومرّ المعسكر بحالة شديدة من القلق على صحة الهلالي، فهو دمث الخلق مع الجميع، فضلاً عن كونه حافَظَ بقدر ما تسمح به ظروفه الصحية وعمره الكبير على شرف الجندية العراقية، فحظي باحترام الجميع، ولهذا فقد كان

لإصابته بالجلطة وقعٌ محزنٌ على عموم الأسرى الذين ظنوا أنّ حياته باتت مهددة بالخطر، ولا سيّما أنّ تجاربنا السابقة لا تعطي أملاً بعودة مريض من وراء الباب الخارجي للمعسكر، ثم إنّ الهلالي ونتيجة مرض السكر ومضاعفاته بدأت متاعبه في القلب والجهاز البولي على نحو دفع بالكثيرين إلى عرض خدماتهم له، فهذا يغسل ملابسه وذاك يعد له ما تيسر من طعام إيراني لا يسمن ولا يغني من جوع، وثالث يأخذه للحمّام ويساعده على الاستحمام، ولكنْ مع الوقت بدأ يفقد القدرة على الحركة من دون الاستعانة بمرافق وكان يوماً سعيداً للمعسكر حينما جاء له آمر المعسكر بعصا من غصن شجرة للتوكؤ عليها.

في هذه الأثناء توفرت لطبيب الأسرى الدكتور خلف الجنابي فرصة الحصول على أجهزة فحص البصر لعدد كبير من الأسرى الذين يعانون مشاكل في بصرهم، حينما جاءني الدور، وبعد استكمال الفحص أخبرني الدكتور خلف بأنّ عيني اليمنى قد قارب الماء الأبيض فيها على الاكتمال، وأنها تتطلب تدخلاً جراحياً عاجلاً من أجل إعادة البصر إليها وأنّ أي تأخير قد يؤدي إلى فقدان البصر فيها، أما العين اليسرى فبالإمكان تأجيل عمليتها لعام أو أكثر بحسب الظروف، وعند السؤال عن سبب الماء الأبيض قال الدكتور خلف: إنّه أمر طبيعي بالنسبة إلى العمر المتقدم، ومما يساعد على ذلك الكدمات والضربات التي تصيب الرأس، وما أكثر ما تعرض الأسرى الوطنيون للركل والرفس على رؤوسهم، في لحظة الصدمة يمر الإنسان بمشاعر متناقضة وقلق مشروع، الأسر وحده أكبر الأدواء ومحنته أكبر محنة يمكن أنْ تصادف الإنسان في حياته، وأنْ تضاف محنة أخرى إلى محنة الأسر فذلك ما لا طاقة لأحد بتحمله، لم أكن الوحيد الذي تم تشخيص حالة الماء الأبيض

في إحدى عينيه أو في كلتيهما، وحينما تتوسع دائرة المأساة فإنّ مصيبة الفرد تهون حينها، وبدأ الدكتور خلف بإعداد قوائم مستحقّي العمليات الجراحية بحسب خطورة الحالة، كان اسمي أول اسم في اللائحة، ولكنّني لم أكن أول من تم نقله إلى مستشفى العيون العسكري في طهران، وبعد انتظار ممضّ دام أكثر من عام ونصف أخذت بسيارة إسعاف عسكرية، كانت الإجراءات الأمنية نفسها تطبق على الأصحاء والمرضى وحتى الموتى.

كان عام ٢٠٠١ قد جاء إلينا بعد أنْ أمضينا في قمصر كاشان أطول مدة نقضيها في معسكر واحد، كانت المستشفيات العسكرية مختلفة التخصصات تحمل أرقاماً كلها من صنف الـ (٥٠٠) وكل رقم من الأرقام متخصص بنوع من الخدمات الطبية لأفراد الجيش الإيراني، ربّما كان رقم المستشفى المخصص للعيون هو (٥٠٤)، حينما وصلت إليه أجريت لي الفحوصات من قبل الطبيب المختص بأمراض العيون، كان المترجم ينقل تفاصيل الحوار فيما بيننا، سألني لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟ كان الصمت أصدق الأجوبة لسؤال من هذا القبيل، ترى هل يعرف هذا الطبيب ماذا يعاني الأسرى من هموم ومشاكل؟ ربما يعرف ولكنّه أراد أنْ يغسل يديه من مثل هذه المسؤولية، على الأقل ليكسب رضى أسير واحد، وربّما يقص هذا الأسير ما سمعه منه على رفاقه. أمر الطبيب بإدخالي إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية فورية لعيني اليمنى، كان آمر المعسكر ينتظر بفارغ الصبر عودة سيارة الإسعاف لمعاقبة المرضى العائدين اعتقاداً منه أنّهم متمارضون، وربما ضيعوا الفرصة على مستحقّي «الإعزام» وهي الكلمة الفارسية التي تعني الإرسال إلى المستشفى، وربما كان الطبيب العراقي يدفع هو الآخر ثمناً في حال أخطأ بتشخيص حالة أحد الأسرى. في اليوم التالي نقلت إلى

ردهة العمليات، بعد إجراء فحوص على القلب والدم طلبوا مني توقيع تعهد بأنّني أوافق على إجراء العملية الجراحية على مسؤوليتي، من غير شكّ أنّ هذا التوقيع يمكن أنْ يستدرج كل عوامل القلق، وتساؤلات شتى، من قبيل هل كتب علي الموت هنا؟ وهل سأدفن في مقبرة مجهولي الهوية أم أنّهم سيعلّمون قبري، ويضعون عليه أو فيه قنينة تحمل اسمي والمعلومات الكاملة؟ أو هل أنّ العملية تحمل خطر فقدان البصر؟ ولم أستطع الاسترسال في تداعيات هذه الأسئلة، فقد جاءتني الممرضة تحمل ورقة أخرى وطلبت مني التوقيع عليها، وحين سألتها أجابتني بإنكليزية ركيكة وكأنها تريد استعراض معرفتها بتلك اللغة على الرغم من أنّني سألتها بفارسية ركيكة هي الأخرى، إنّها عملية توثيق لصرف العدسة التي ستزرع داخل العين بعد نزع العدسة الطبيعية، إذن الأمر يرتبط بتكاليف العملية الجراحية بكل مفرداتها، وذلك لاستعادة قيمتها وقيم ما تم صرفه على الأسرى من نفقات في مجال الرعاية الطبية، وربَّما ستتولى اللجنة الدولية للصليب الأحمر دفعها أو تحمل جزء منها على الأقل، وربّما كان ذلك جزءاً من الأحلام المريضة لقادة إيران الإسلامية. وبعد أنْ استلقيت على المشرحة جاءت سيدة متوسطة العمر وقالت إنها الدكتورة المتخصصة بالتخدير، وحينما وضعت فوق أنفي قناع التخدير، تمنت لي نجاح العملية والشفاء العاجل واسترداد القدرة على البصر في أحسن الصور، شكرتها شكر يائس من كل شيء، حينها لم أفكر باستعادة البصر من عدمه، فكرت فقط بتوقيعي على تعهد تحمل المسؤولية في العملية الجراحية، ولم أكمل رحلتي مع هذه التأويلات، حتى رحت في غيبوبة طويلة لم أعرف كم ساعة استغرقت، ولكنّني حينما دخلت إلى غرفة العمليات كانت الساعة تقترب من الثامنة صباحاً، وحينما

استفقت كانت الشمس وراء الأفق، والظلام ينشر أجنحته فوق الطرقات والنوافذ، وجدت إلى جانب سريري جندياً، حينما نظرت إليه حياني بإيماءة من رأسه، وجاءني بشيء لآكله بعد يوم كامل كنت غائباً فيه عن عالم الأسر، كنت حتى ذلك الوقت معصوب العين التي أجريت لها العملية الجراحية، كم كنت أرجو أنْ يأتي الطبيب أو المضمد لفتحها كي أعرف ما إذا تكلّلت العملية بالنجاح أم لا، سألت الحرس فلم يجب لأنّه لا يعرف فعلاً وربَّما هذه هي المرة الوحيدة التي لم يكذب جندي إيراني على أسير عراقي، والموضوع لا يرتبط بموقف أخلاقي بقدر ارتباطه بموضوع طبي لا شأن له به. بعد حوالى ساعة جاء أحد العاملين في المستشفى وغالب الظن أنّه معاون طبيب، حاملاً معه وعاءً فيه بعض المعدات الطبية الجراحية، سألني كيف أمسيت، أجبت بخير والحمد لله، أخبرني أنّه سيفتح عيني وأعطاني جملة من النصائح والتعليمات، وبعد أنْ أنجز مهمته داهمتني حالة انبهار عاتية عن الفرق الحاصل في قدرتي على رؤية الأشياء بوضوح، يا له من عالم جميل أنْ يرى الإنسان الأشياء كما هي، وحينما أغلقت عيني «الجديدة» ونظرت بعيني اليسرى عرفت كم كنت أسير نحو فقدان البصر بسرعة كبيرة، فالفرق بين الرؤيتين لا توجد فيه فرصة للمقارنة أبداً، وفي المستشفى وجدت عالماً فيه إنسانية في إيران بعد تسعة عشر عاماً من العيش في غابة تفترس فيها الوحوش الضارية من لا يمتلك السلاح للدفاع عن نفسه، وبعد أنْ عشت احتفالية داخلية بعودتي إلى عالم الأحياء ونجاح العملية الجراحية، تساءلت متى تحين فرصة إصلاح العين الأخرى؟ ولم يكن ممكناً الاسترسال في السفر مع فسحة الأمل إذ أخرج الجندي الذي كلّف بحراستي من جيبه قيداً حديدياً، وقال لي: إنّ الأوامر تقتضي تقييدي إلى

السرير، وأخبرني أنّ التعليمات تفرض ذلك، يا لله! وحتى في مثل هذه الحال، لم يكن أمامي خيار آخر، استسلمت، ولكنْ كيف سأتحرك في أثناء النوم؟ قال لي: تلك مشكلتك. نعم هي كذلك، حينها استذكرت حوادث سابقة لنقل جثامين موتى من الأسرى، وكيف أنّ الإيرانيين لم يطمئنوا لهم على الرغم من أنّهم فارقوا الحياة، ولذلك وضعوا الأصفاد في أيديهم وربطوها بباب سيارة الإسعاف حتى استقرت في باب المقبرة فهانت عندي مصيبتي، وسألته متى أعود إلى المعسكر؟ نعم أصبح المعسكر المعزول أثيراً على مريض خرج قبل ساعات من غرفة العمليات، حينما يقيّد على سريره ولا يحصل ذلك في المعسكر، أخبرني أنّ الحالات المماثلة تقضي بعودتك غداً صباحاً عند مجيء سيارة الإسعاف من المعسكر، وإذا سارت الأمور بصورة طبيعية، متى يأتي الصباح؟ نمت قليلاً من الليل الذي بدا لي أطول من حقيقته بكثير.

في الصباح جاءني الشخص الذي فكّ ضمادي الليلة الفائتة، وأعطاني ثلاثة أنواع من القطرة مع توقيتات صارمة، وتكرار العمل في هذه الأنواع بعد نفادها، وذلك بالحصول عليها من طبيب المعسكر، اقتادني جنود المعسكر إلى سيارة الإسعاف، لكنْ هذه المرة بهدوء ظاهر، ولكنّهم كما في كل تنقل، لا بد من أنْ يعصبوا عيون الأسرى، وهذه المرة كان على الجندي مراعاة الوضع الصحي للعين التي أجريت لها العملية الجراحية، وكانت معصوبة أصلاً برباط طبي، ولكنّ الجندي وعلى الرغم من ذلك مرّر ما لديه من أربطة فوقها أيضاً، الطريق طويل نسبياً بين طهران وقمصر كاشان، وقد سبق أنْ مررنا عليه في نقلتنا إليه قبل عشر سنوات حينما جئناه من قوجان ثم مكثنا عدة أيام في قصر فيروزة في طهران، وبعد رحلة ترافقت فيها مشاعر متباينة من الضجر لطول

السفر مع أيدٍ مقيدة بقوة وعينين معصوبتين، إلى رغبة بزف البشرى لرفاق الدرب المتلهفين لمعرفة نتائج العملية الجراحية، أوشكت سيارة الإسعاف على التوقف بعد أنْ استدارت رسخت في الذهن قرب البوابة الخارجية للمعسكر، وبعد تدقيق روتيني لم يستغرق طويلاً، دخلت سيارة الإسعاف إلى الساحة الداخلية للمعسكر، وبعد أنْ استقرت فتح الجندي القيد عن يدي والعصابة عن عيني، وفتح الباب الخلفي وأنزلني منها، ومجرد أنْ ترجلت بادر جميع من كان في الساحة، حتى أولئك الذين ليس من حقهم الاختلاط بي، لمعانقتي والسلام علي والتهنئة بالسلامة والاستفسار عن نتائج العملية، لم يتدخل الجنود الإيرانيون لمنع هذه الممارسة، ولكنّهم لم يسمحوا باستمرارها طويلاً، وكان رفاقي في القاعة التي كنت فيها ينتظرون وصولي إليهم، حينما دخلت القاعة شققت طريقي بينهم بصعوبة، حتى استقر بي المقام على سريري، وسردت عليهم القصة وطمأنتهم على نجاح العملية وأنّني أصبحت أرى الأشياء بوضوح والحمد لله.

جرت العادة في معسكرات الأسرى على التكافل والتضامن بينهم في السرّاء والضرّاء، وكان الأسير المريض يحظى برعاية رفاقه، واحد يتولى غسل ملابسه وآخر يتولى شؤونه الغذائية فيتسلم له الوجبات في وقتها ومن ثَم يغسل صحونه، وعلى ضعف ذات اليد ووحدة الحصص التي يجهّز بها الأسرى فإنّ «الهدايا» تنهال على الأسير المريض أو العاجز، وحينما أقول: إنّ الهدايا تنهال فإنّ ذلك لا يتعدى القليل من مكعبات السكر أو قطع الملابس التي يضحي بها البعض من أجل صديق ورفيق أو سجائر.

كان يجب متابعة تمريض عيني، كان الدكتور خلف لا يمتلك الوقت الكافي ليفعل ذلك مع جميع من يحتاج إلى التمريض

وخاصة في أثناء الليل، ولهذا توصلنا إلى حلّ مناسب وهو أنْ يتبرع صديق المحتاج إلى التمريض للقيام بالمهمة، لذا أبدى أكثر من صديق عزيز استعداده لذلك، وبعد نقاش بينهم استقر الرأي أن يساعدني الملازم الأول حسين الجبوري، وهو من الخط الأول من أصدقاء زمن الأسر الأعزاء، وقد قدم لي خدمات لا يمكن أنْ تنسى أبداً.

الملازم حسين الجبوري ونتيجة وشايات بعض رواد «الجامع» تم التعامل معه باعتباره من المحرضين ضد ذلك الجامع ويحض على عدم الذهاب إليه، خاصة وأنّ حسين كان من المعروفين بالاستقامة والخلق الرفيع والتدين، فهو خريج قسم الدين في كلية الآداب جامعة بغداد، نعم إنّه كان يقف موقفاً قاطعاً ضد ذلك المكان الذي أراد الإيرانيون توظيفه توظيفاً سياسياً، كان حينما يتحدث عن الموضوع فإنّه يركز على البعد الديني بالدرجة الأولى، ولهذا كان يخيفهم أكثر من غيره، ومن أجل إسكاته وهذا ما كان حينما أودع هو ومجموعة من رفاقه في زنزانة ضيقة محكمة الإغلاق من دون نوافذ أو أية فتحة للتنفس، وبعد يومين ولمّا لم يلاحظ أحد أنّهم قد خرجوا أو طرقوا الباب لأي سبب، انشغل الجميع بمصيرهم فنودي على أحد الحراس، ولما فتح الباب وجد الجميع في غيبوبة أو شبه غيبوبة نتيجة انعدام الأوكسجين من الزنزانة، ونقل الجميع إلى خارج الزنزانة، فمنهم من أخذ إلى غرفة الطبيب، ومنهم من نقل خارج المعسكر، بعد أيام طويلة من القلق تماثل الجميع للشفاء، ولكنّ حسين الجبوري تعرض لأكبر ضرر من جريمة الإيرانيين، كان هو بالأصل يعاني ضعفاً نتيجةَ ضغوط الأسر والجوع والتعذيب وفقدان الرعاية الطبية، فقد حصلت شكوك بإصابته بالتدرّن، وفي نهاية المطاف شفي من بداياته، ولكنّه لم

يتحمل الضربة الأخيرة، فرافقته حتى بعد عودته وأصبح يسير على عكازة لمساعدة ساقيه على تحمل بدنه.

الأسر المفتوح من دون بارقة أمل في نهاية النفق، والاضطهاد، والتعذيب، ومحاولات الإذلال، والانقطاع عن الأهل والوطن والعالم، والتجويع وسوء التغذية، والقلق من المجهول، وانعدام الخدمات الطبية، وفي حال توفر القليل منها لا يتوفر الدواء إلا بأقل من الحدّ الأدنى وبأدوية انتهى مفعولها منذ زمن بعيد، كل هذه العوامل جرّت معظم الأسرى إلى أوضاع صحية سيئة لم يكن متاحاً معالجتها، فكبار السن كانوا يسيرون نحو النهاية حثيثاً، والمرضى تزداد أوضاعهم سوءاً، والأصحّاء يضعفون مع الوقت. في ظروف كهذه زار معسكرَنا العقيد عبد الله نجفي الذي أصبح رئيساً للجنة شؤون الأسرى، لم تكن هذه أول زيارة له منذ مقتل الحاج نظران، الرئيس السابق للّجنة، ولكنّه حينما لاحظ وضعنا هذه المرة أرسل إلينا إشارات بأنّ تغييراً سوف يطرأ على أوضاعنا. لم يكن ممكناً افتراض صدق هذه الوعود، ذلك أنّ قرار عزلنا لم يكن صادراً عن جهة فنية حتى يكون بإمكانها تعديله أو إلغاؤه، كان القرار صادراً عن أعلى سلطة دينية سياسية في إيران، وهي وحدها المسؤولة عما عاناه الأسرى في المعسكرات الإيرانية، صحيح أنّ المنفذين لجرائم التعذيب يتحملون جانباً من مسؤولية استعدادهم للتحوّل إلى وحوش بشرية، إلا أنّ المسؤولية الكبرى أخلاقياً وقانونياً تقع على عاتق الموجّهين بالدرجة الأولى، لم يكن متاحاً رصد كلّ الحالات التي أصابت الأسرى، ولكنّ أكبرها وأكثرها بقاءً في الذاكرة كان أكثرها إيلاماً وإثارة لمشاعر الأسرى في الجانب النفسي وامتهان كرامة الإنسان.

من دون مقدمات أصيب الملازم الأول حبيب حسن الحبيب

بجلطة قلبية حادّة أوشكت أنْ تودي بحياته، ولكنّ الله سلّم والحمد لله، كما أنّ النقيب منعم كريم حسين كان يعاني مشكلة تكوّن الحصى في الكلية، مما كان يوجب توفير حبوب من نوع بسكوبان، ولكنّ هذا النوع الذي كان مبتذلاً في العراق، كان نادراً ولم تتمكن إدارة المعسكر من توفير هذا الدواء أو ربّما كانت تتقصد عدم توفيره، وفي كلتا الحالتين فإنّها تتحمل المسؤولية الأخلاقية عن هذا العجز، كنّا نراه يتلوى بيننا من دون أنْ نتمكن من مدّ يد المساعدة له، وهذه أسوأ حالة يمر بها إنسان حينما يجد نفسه عاجزاً عن تقديم العون لأخ أو رفيق أو صديق، ومرّ الملازم عامر الدليمي بالظرف نفسه الذي واجه منعم كريم وإنْ كان بصورة مخفّفة، فنحن حينما يقع أحدنا في عارض صحي لا يمكن أنْ نتعامل معه في حدوده القائمة، وإنّما نعيش هاجسه في درجاته القصوى التي مرّ بها الآخرون، وربّما كان الإيرانيون يفهمون هذه المشاعر والمعاناة فأرادوا أنْ يلعبوا بها من أجل تحقيق أهداف سياسية.

كانت هزيمة إيران والتي تجرّع فيها الخميني كأس السمّ، وسقوط فرضيات قتال المهدي إلى جانب القوات الإيرانية، مناسبة لطرح أسئلة كثيرة عن هذه القضية التي أراد الزعماء الدينيون في إيران توظيفها لحشد معنوي مع الحشد البشري، ولم يفكّروا بحدّه السلبي في حال الهزيمة، فقد طرحت نتائج الحرب شكوكاً على مستوى المعارضة والمثقفين عن انحياز المهدي إلى جانب إيران في الحرب، أو حتى مجرد تعامله معها ميدانياً إنْ كان موجوداً حقاً في ساحاتها، فالمهدي على ما يصوّره فقه الشيعة عموماً، وعلى ما صوّره الخميني بأنّه قائد الدولة الإيرانية الإسلامية، وأنّه سيظهر ليملأ الدنيا قسطاً وعدلاً بعد أنْ ملئت ظلماً وجوراً، وأنّه كان

يتواجد في كل الجبهات، أما وأنّ الهزيمة قد وقعت وبحجم مدوٍّ فلا بدّ من أنْ يطرح ذلك تساؤلات ممزوجة بالمرارة عمّا إذا كان المهدي مع إيران في حربها حقاً؟ وإذا كان معها فلماذا خذلها إذن؟ أو أنّ اسمه استغل بصورة أساءت إلى موضوع المهدي كفكرة عقائدية في الخطاب الديني والسياسي في إيران على أوسع نطاق؟ إذ هل يعقل أن يقود المهدي دولة وهو يمتلك كل تلك القدرات الأسطورية لنصرتها في حربها، وفي اللحظة الحاسمة يخذلها ويسمح للطرف الآخر في الحرب بتحقيق أكبر نصر على دولته؟

بعد ثلاثة أعوام من ذلك المشهد الحزين بالنسبة إلى إيران، تم نقلنا إلى هذا المعسكر الذي نلوك الأيام فيه بمرارة، ولكنّنا لم نفقد الأمل بإشراقة شمس تبدّد ظلام السنين، وترمي بأشعة الحرية على أناس ألقاهم سوء الحظ في ظلمات التعاسة، فكان الزمن الذي أمضيناه فيه أطول زمن عن أي معسكر آخر، فقد مرّت عشر سنين بالتمام والكمال، تقلبنا فيها على جمر المعاملة اللاإنسانية التي تخيّرنا الإيرانيون لتطبيق فصولها علينا، ولكنْ لا بدّ من نهاية لكل قصة ومأساة، ففي الخامس والعشرين من شهر آب/أغسطس من عام ٢٠٠١، بدأت الحركة تدبّ في معسكر قمصر كاشان، وأمّلنا أنفسنا ألا نعود إليه مرة أخرى، فهاجس أنْ يحنث الإيرانيون بوعودهم كان همّنا المقيم بين أضلاعنا، ومع تكرار الوعود بقرب الفرج، كانت خيبة الأمل تضرب المشاعر بلا رحمة، وتترك في النفوس ندوباً عميقة، ومع ذلك فإنّنا لا نملك تغيير القرارات أو حتى مجرد تعديلها لا بالنوايا ولا بالأمنيات، ولذلك سلّمنا أمرنا إلى الله، وبدأنا نجمع أسمالنا البالية والتي أنهكها طول السفر وكثرة الاستعمال حتى ملّت رفقتنا المرة، ولو أنّها تستطيع التعبير عن مشاعرها لتمنّت فراقنا كما نتمنى ذلك، وفي كل مرة كنّا ننقل

فيها من معسكر إلى آخر، كنّا نرقق موجوداتنا من الملابس والحاجيات التي نراها غير ضرورية، على الرغم من أنّ الأسير يعتقد أنّ كل شيء يقتنيه هو ضروري جداً، ولكنّ ظروف النقل المملوءة بالمشاقّ والصعوبات، وكذلك الأوامر الإيرانية، كانت تتضافر مع بعضها لترغم الأسير على التخلي عن بعض حاجياته. وعلى العموم هي في مقاييسنا العراقية حَرية بأنْ تحرق من دون إبطاء.

لكنّ آمالنا هذه المرة بقرب الحُرية طغت على مشاعرنا اليائسة على الرغم من مرارة حوالى عشرين عاماً من اقتراب الفرص الظاهرة، والتي سرعان ما تتبدد مثل سراب في يوم قائظ، كانت أفكارنا تتزاحم وتتدافع، ماذا نخسر إذا تفاءلنا؟ وماذا نكسب إذا واصلنا فقدان الأمل بالفرصة التاريخية؟ وماذا يمكن أنْ يقدّم التفاؤل أو التشاؤم أو يؤخر في قرار الحكومة الإيرانية بشأن إطلاق سراحنا؟ لكنّ الحقيقة تؤشر على أنّ الإفراط بدنوّ لحظة الحرية يمكن أنْ يستنهض في النفوس إحباطاً يكون من العسير الخروج منه، لذلك لم نجد رغبة بالاحتفاظ بالكثير من حاجياتنا، وبدأت عمليات إجلاء الأسرى من المعسكر الذي فقدنا فيه أكثر عمرنا في الأسر، وفقدنا فيه أكبر عدد من شهدائنا، ولم يكن بمقدورنا أنْ نلقي عليه نظرة الوداع، فالعيون معصوبة، والأيدي مكبّلة، والضربات تنهال علينا من جنود يتلذذون بعذاباتنا، حينما ارتقيت الحافلة كنت أتعثر بأقدام الأسرى أو أجسادهم أو بصرر حاجياتهم، هذه المرة كانت أيدينا مقيدة إلى الأمام وهذا يعد بمقاييس التجارب السابقة مكسباً كبيراً، جعلنا نرمي بظهورنا على مساند المقاعد ونشعر براحة لم نألفها من قبل، لم نكترث كم ستستغرق الرحلة، فالوصول مضمون خاصة وأنّ الطرق الخارجية

التي نمرّ بها، والشوارع الداخلية يتم إخلاؤها من السيارات كجزء من الإجراءات الأمنية، والمعسكر لن تُغيّر من حاله الأمنيات، والبقاء فيه أو الرحيل منه مرهون بالمقادير، وبعد رحلة في الظلام وإلى المجهول، توقفت الحافلة لتلقي بنا في معسكر برندك، المعسكر القريب من طهران، والذي يقترن اسمه بكل عمليات التبادل السابقة، ويرتبط أيضاً بعذابات الأسرى وانتفاضاتهم وما نجم عن ذلك سقوط الشهداء، ولكنّه اليوم يحمل رائحة من نوع جديد أو هكذا تسحبنا آمالنا إلى الضفاف الدافئة والهادئة، برندك إذن له هذه المرة نكهة خاصة نريده فيها أنْ يكون آخر عهد لنا مع إيران، التي تمنى معظمنا أنْ تذهب إلى الجحيم، كي يتأكد زعماؤها أنّهم كانوا أئمة الكفر من دون زيادة أو نقصان.

الفصل الثاني عشر

معسكر برندك وبداية زمن جديد

إذن شهر آب خلال سنوات الأسر سجّل أكبر رصيد لتنقلات الأسرى أو لتنقلنا نحن، أو هكذا بدا الأمر في غمرة التفاؤل الذي كاد أنْ يأخذ بتلابيب المشاعر التي ألهبها حرّ آب. كان معسكر برندك وهو بالأساس معسكر مدفعية الجيش الإيراني يضم قواطع عديدة، تمّت تسميتها بأسماء قادة عسكريين قتلوا في تحطم طائرة نقل عسكرية في مراحل الحرب الأولى، مثل نامجو وكلاه دوست وفلاحي وفكوري وجهان آرا، كان هذا حين كانت المعسكرات مكتظة بعشرات الآلاف من الأسرى، يضم بين جدرانه حوالى عشرة آلاف أسير موزعين على تلك القواطع الثقيلة على الأذن، ولكنّه الآن خال من وجودهم، قاعاته فسيحة والأسرّة بطابقين فقط، والقاعة الواحدة بحكم التوزيع الأخير تضم أقل من ١٠٠ أسير. كانت عملية توزيع الأسرّة بين الأسرى تتم بهدوء لافت، وفي البداية تمّ تخصيص عدد من الأسرّة في الطابق الأرضي مساوٍ لعدد العجزة وكبار السن، كان معَنا في القاعة اللواء الركن دخيل الهلالي، الذي كانت صحته تتدهور بسرعة غير اعتيادية، مما اقتضى تخصيص سريرين مجاورين له لمن أبدى الاستعداد والرغبة في تقديم الخدمة للواء ومساعدته، كنّا حريصين على أنْ يكون من يتحمل هذه المسؤولية الأخلاقية والوطنية قادراً من الناحية البدنية

والنفسية للنهوض بأعبائها، وربّما يحتل الاستعداد النفسي الأهمية القصوى في تحديد الخيار، خاصة وأنّ بعض مفردات الخدمة تتضمن نقل اللواء الهلالي من فراشه إلى الحمّام أكثر من مرة على مدار اليوم وإلى الطبيب بحسب الحاجة وما أكثر ما تقتضي الضرورة الحتمية نقله إلى الطبيب. تبرّع كثيرون لتقديم المساعدة للواء الهلالي. كان في واقع الحال متقدماً في العمر كثيراً لتحمل ظروف أسر اعتيادية، فكيف الحال مع ظروف ضاغطة في معسكرات التعذيب الإيرانية التي لم تضع موازين للتفريق بين من لديه القابلية البدنية لتحمل التعذيب البدني، سواء بالضرب أو بحبس متصل في ظروف لا إنسانية، أو بتعذيب نفسي تفنّن الإيرانيون في ابتكار كل جديد في فنونه وساعدهم في تنفيذ أكثر فصوله وحشية وقسوة أسرى باعوا أنفسهم لإيران أطلقت عليهم اسم «التوابين»، على الرغم من أنّ الأصل بالنسبة إلى الأسير وفق ما رسمه الدين الإسلامي من تقاليد، أو ما حددته اتفاقيات جنيف ذات الصلة هو الحفاظ عليه بعيداً عن جبهات القتال والاكتفاء بالتحقيق معه في أمور عسكرية تتعلق بحجم القطعات العسكرية وقوة الهجوم المقابل ونوعية الأسلحة مما يدخل في إطار التوقي من أي رد فعل ميداني. ولعلّ أول نكسة صحية لحقت باللواء دخيل الهلالي الذي كان يعاني أصلاً مرض السكر، كانت انحباس البول لساعات طويلة مع كل المعاناة التي يخلفها ذلك لرجل اقترب من الثمانين حثيثاً، فقد أصيب بمرض التهاب البروستات المزمن مما حتم عليه أنْ يحمل كيس بوله معه بصورة دائمة، قد يكون لظرف العمر دور في المرض، ولكنّ الحقيقة تم تشخيصها من قبل الدكتور خلف الجنابي، وهي أنّ المنع الطويل من «حق» التبول للأسرى عموماً ولمرضى السكر خصوصاً، بسبب إجراءات عقابية

كانت إدارة المعسكر تفرضها على جميع الأسرى، حتى في حال وقوع مشكلة شخصية بين اثنين منهما، سيؤدي إلى مضاعفات كثيرة في المقدمة منها تعرّض الجهاز البولي للإصابة بسلسلة من الأمراض المعروفة حتى عند صغار السن وأقوياء البنية والأصحّاء، وهذا كان يؤكد لنا أنّ تلك الإدارة كانت تنظر بصبر نافد وقوع أية مشكلة لفرض عقوبات جماعية على الأسرى، وأخذت صحة الهلالي تتدهور بسرعة قياسية، إذْ أصيب بجلطة دماغية نتيجة ارتفاع ضغط الدم المزمن، كادت أنْ تطيح بحياته لولا رحمة من الله وتشبث منه بالحياة في الوقت الإضافي، فالرجل وعلى الرغم من عمره الثمانيني، كان يحمل روح الشباب ويسرد للأسرى الكثير من تجاربه الغنية، وما صادفه في قطار حياته من محطات فيها من ثراء التكوين الأول ما أصبح زاداً لرحلة طويلة مع متقلبات العمر، كان أول بريق لها مع الملك فيصل الثاني رَحِمَهُ اللَّهُ، عندما زار لندن مرة وكان فيها الهلالي يدرس في كلية سانت هيرست، حيث اصطحبه في سيارته في شوارع لندن وما صادفه الموكب من حفاوة من الشابات البريطانيات اللائي كن يلوّحن للملك الشاب بأيديهن، أو في زيارات رئيس وزراء العراق المزمن نوري سعيد باشا لمعسكرات الجيش وكيف نزل الباشا من الطائرة المروحية على كتف الضابط الفارع الطول دخيل علي الهلالي في أثناء زيارته لمعسكر جلولاء، ومحطات كثيرة حتى جاء القطار الجمهوري يوم أنْ أسهم في مهاجمة قصر الرحاب الملكي يوم ١٤/٧/١٩٥٨، وكيف شاهد مناظر السلب والنهب التي تعرض لها القصر، ومقدار ما أحزنه أنّ صورة زيتية رائعة للملكة عالية كانت معلقة في كبرى قاعات القصر قد تعرضت للحرق نتيجة الهجوم الذي شنته القوات الثائرة على القصر، ويسرد قصة أخرى كانت تعكس عنده شيئاً من

طبيعة الشخصية العراقية، وهي أنّ أحد الأشخاص الذين ساهموا بسلب محتويات قصر الرحاب، خرج منه وهو يحمل جهاز راديو كبير جداً، ولما عجز عن القفز به فوق ساقية ماء في حدائق القصر ألقى به عبر الساقية مما أدى إلى تحطيمه، وكان الهلالي يسرد هذه الحكاية ليقول: إنّ الإضرار بممتلكات الدولة يمثل هاجساً في أعماق الشخصية العراقية، حتى ولو لم تتحقق المنفعة منها.
ويمضي الهلالي في رحلة العمر وكيف ساهم بقوة في ثورة ١٤ رمضان/٨ شباط/فبراير ١٩٦٣ والتي قادها حزب البعث العربي الاشتراكي، ثم تقلبت الحكومات، وفي أثناء رئاسة المرحوم الفريق عبد الرحمن عارف، حينما قرر السفر إلى فرنسا في عهد الرئيس الفرنسي الراحل شارل ديغول، الذي كان يتمتّع بطول لافت، فاختارت القيادة العراقية حينها مرافقين للرئيس عبد الرحمن عارف من طوال القامة كان في مقدمتهم الهلالي، وبعد ثورة ١٧ تموز/يوليو ١٩٦٨ تقلّب في المناصب العسكرية، فكان قائداً للفرقة السادسة التي تمّ دفعها إلى الجبهة السورية على عجل خلال حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، فكانت ألويتها مضرب المثل في الشجاعة والاندفاع والبطولة والكفاءة القتالية وهي التي حمت دمشق من السقوط، وكان الهلالي نموذج القائد الميداني المقتدر، وكان يقصّ على رفاقه الأسرى تلك القصص بأسلوب مشوّق، ويعطي لهم ثمار تجربة جاهزة وناجحة معاً، وكان يقصّها عليهم بهدف تحفيز الجيل الجديد من الضباط على المثابرة والجدّ والاجتهاد للوصول إلى أفضل النتائج.

كانت حالات الإصابة بالجلطات الدماغية أو القلبية تترك تأثيرات نفسية مدمرة على عموم الأسرى، بل إنّ أية حالة مرضية كانت سبباً في قلق مشروع لدى جميع الأسرى، وكل واحد منهم

يضع نفسه على جدول الانتظار نتيجة الإهمال المتعمد الذي كان يواجه به الإيرانيون مثل هذه الأحوال، وهي كثيرة ولازمت الأسرى طيلة سنوات الأسر، وكان الإيرانيون قد عقدوا العزم على قتل الأسرى برصاص الأمراض المعدية للتخلص من المسؤولية القانونية والأخلاقية عن هذا النوع من الجرائم، التي ستقيّد في النهاية ضد كائنات مجهرية لا ترى بالعين المجردة، وحينما ضربت الجلطة الدماغية اللواء الهلالي، ذهل الإيرانيون لرد فعل الأسرى المتعاطف مع أحد قادة الجيش العراقي الكبار، على الرغم من أنّه جاء متطوعاً بعد إحالته إلى التقاعد، وتعيينه بمنصب رئيس المؤسسة العامة للنقل البري، وهي في زمن الحرب تحمّلت جهداً هائلاً لمدّ الجبهات بالسلاح والعتاد الحربي، والذي كان يبتلع على نحو مذهل كل ما يقدم في أفرانها من زاد، وكان لدور اللواء الهلالي في رسم مسار مؤسسته تلك نتائج مهمة في نجاحها في تأمين متطلبات جبهات الحرب المشتعلة، وبالتالي في تمكين القوات المسلحة من الصمود أمام الأطماع الإيرانية التي أخذت في الزمن الخميني بعداً دينياً كبير التأثير على المقاتلين الإيرانيين واندفاعهم بلا حدود للموت بعد عمليات شحن عاطفي ونفسي مستمدين من مناهج لا صلة حقيقية لها بالدين.

بعد أنْ استقر بنا المقام وهدأت النفوس من مشقة التنقل من معسكر إلى آخر، وجدنا في معسكرنا الجديد فرصة لمطاولة تبدأ من نقطة الصفر عند البعض، ومن ربع الطريق أو منتصفه عند البعض الآخر، فهذا المعسكر من حيث البناء وعفش المنام، يبدو مريحاً إلى حدود لا تمر بخيال أسير لم يعتد الحياة الإنسانية في إيران ليوم واحد أبداً، ولكنْ هل ستلتقي الحجارة والحديد مع سلوك المسؤولين في هذا المعسكر أم أنّ ما تغير هو المكان

وحده وستبقى معاناة الأسرى تدور في حلقة الألم؟

على الأرجح أنّ الإيرانيين سيحرصون على الإمساك بقوة بكل الخيوط وعدم السماح لنهايتها من الإفلات من أيديهم، لأنّهم يدركون أنّ حالة الضغط الطويلة قد تسبّب انفجارات غير محسوبة النتائج والعواقب، لذلك فقد كانوا يريدون مرحلة انتقال من قسوة مفرطة إلى تهيئة الأرض والنفوس لعودة الأسرى إلى بلدهم مع أقلّ قدر من الخسائر، ولذا فقد بدا الإيرانيون على استعداد لتغيير أساليب البطش المستمرة، إلى معاملة فيها قليل من التعاطي المهني مع تلويح مستمر بالسوط الذي لم يسقط من أيدي الجنود الإيرانيين، وبدأنا حياتنا في المعسكر برتابة وترقب لما تخبئه الأيام.

ولأنّنا كنّا وسط عالم مغلق من جدران سميكة ومحكمة فقد كنّا نستذكر آخر ما اختزنته ذاكرتنا، ونعيد سرده على بعضنا أو مع أنفسنا حينما نخلد إلى أسرّة النوم المريحة في معسكرنا الجديد، ولكنّ زلزالاً مدوّياً كان قد هزّ العالم من دون أنْ نشعر بتأثيراته، علمنا بآخر ما وصل من موجاته المتكسرة على سواحل الأمل المنتظر الممزوج باليأس المقيم معنا وفي دواخلنا وعلى أسرّتنا، يأكل ويشرب ويتجول معنا في كل مكان، فقد تعرضت الولايات المتحدة لتفجيرات طالت مركز التجارة العالمية والبنتاغون (مبنى وزارة الدفاع الأمريكية) من قبل طائرات مختطفة توجهت إلى أهدافها المنتخبة بإرادة وتصميم على الموت، مرّ هذا الحدث الكبير من دون أن نعرف عنه شيئاً وتراوحت مشاعرنا بين الشماتة ببلد كان قد دمر العراق قبل عشر سنين، وبين الخوف من جرح لا يميت الذئب، لم نجد الفرصة للتعبير عن شماتتنا ولا عن مخاوفنا، فالحدث كان قد مرّ قبل أسابيع.

وعندما أطل السابعُ والعشرون من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، كان الإيرانيون يستدعون الأرشد الملازم الأول الطيار أمجد القيسي ويسلمونه جهاز تلفزيون مخصصاً لقاعتنا بصفة دائمة، لا ندري هل نريد الآن معرفة ما جرى في النصف الغربي من العالم وانعكاساته على العراق والمنطقة والعالم أم أنّنا سنستغرق في تحليلات معمقة حول مغزى تسليمنا جهاز التلفزيون؟ المهم أنه جاء الجهاز ونقلنا خلال الساعات الأولى من قبرنا العميق إلى الفضاء الرحب على الرغم من أنّ عالم الفضائيات والصحون لم نكن نعرف عنه شيئاً حتى ذلك اليوم، بل وحتى عودتنا إلى العراق، فنحن كنّا في رقدة الأبدية نشعر بدوار عنيف كلّما سمعنا عن ابتكار جديد في عالم الإلكترونيات والتكنولوجيا، فما قطعه العالم خلال سنوات أسرنا العشرين يفوق ما حقّقه العالم من إنجازات خلال قرون من عمر الإنسانية، ويبقى كل ذلك حصيلة التراكم الكمي والنوعي لجهود المبدعين والعلماء والمخترعين، كنّا إذن نلتقط التلفزيون الرسمي الإيراني باللغة الفارسية، وأحياناً باللغة العربية لوقت محدود على قناة اسمها «سحر»، وهي المنبر الرسمي الذي توصل إيران صوتها من خلاله إلى الوطن العربي، كانت بمستوى هزيل وهابط، لا تستحق المال الذي ينفق عليها وهذا من حسن حظ المواطن العربي، ولمّا لم يكن لدينا الخيار البديل فقد تعاملنا معها على أساس:

«وإذا لم يكن إلا الأسنة مركباً   فما حيلة المضطر إلا ركوبها»

ويبدو أنّ إيران أحست بهزال ما تقدم من خطاب إعلامي عبر القناة المرهقة حتى السحر، فاستبدلتها بقناة العالم والتي لم تضف جديداً إلى رصيد أمّها الراحلة.

تعرضت الولايات المتحدة لأكبر هزة داخلية حينما تمَّ تدمير

برجي التجارة العالمية في نيويورك في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، أي بعد أكثر من أسبوعين من نقلنا إلى معسكر برندك، وقبل شهر ونصف تقريباً من جلب التلفزيون إلى قاعات المعسكر، وحينما شاهدنا حجم الدمار الذي لحق بأعلى برجين في العالم حتى ذلك الوقت، وأهم من كل هذا أطاح بروح الغطرسة الأمريكية المتعالية على جميع شعوب الأرض من شاشة التلفزيون يوم ٢٧/ ١٠/ ٢٠٠١ لم تساورنا شكوك بأن الجرح الأمريكي أكثر مما تحتمل أمريكا، كانت أفكارنا موزعة بين الشماتة بما حصل للولايات المتحدة في عقر دارها، وهي التي ظلّت تباهي دول العالم كافة أنّ الحروب الكبرى لم تنتقل إلى أراضيها، باستثناء الحرب الأهلية التي أعقبت حرب التحرير من الاستعمار البريطاني، ولهذا فقد أيقظت المجتمع الأمريكي من استرخاء واهم بأنّها وعلى الرغم من تدخلاتها العسكرية وأدوارها السياسية المعروفة على صعيد العالم، إلا أنّها كانت تجد من الموانع العسكرية والسياسية ما يمنع وصول النار إلى أقدامها، وبين إشفاق على بلدنا من أنْ يحوّل الثور الأمريكي الهائج قرنيه حول أي عدو يختاره أو يخترعه، كانت الولايات المتحدة كذئب جريح وعاشت هستيريا لم يألفها أحدٌ فيها، وبدت عورات ضعفها كاملة، فضعف الولايات المتحدة يكمن في غرور القوة وما ينتجه من استرخاء وإحساس فارغ بالطمأنينة، ولأول مرة عاش العالم قلقاً مشروعاً فكل بلد كان يتوقع الضربة الأمريكية فوق رأسه أو على مقربة منه، ارتفعت حرارة التهديدات الأمريكية وتجاوزت كل الخطوط الصفر والبرتقالية والحمر، كل المسؤولين الأمريكيين يهددون بالانتقام وكل أمريكي يبحث على الثأر للكرامة الأمريكية المهانة، وبالمقابل تقف دول العالم في قفص الاتهام كلّها من دون استثناء تقريباً تحاول دفع التهمة عن نفسها، سواء

بعرض لائحة دفاع عن النفس أو بتوجيه الاتهام لأطراف أخرى، ولكنّها جميعاً تضع نفسها في دائرة الاستهداف الأمريكي، فالعقل تعطّل تماماً وخرجت نوازع الشّر من أوكارها وتريد معاقبة العالم أجمع بفعل ارتكبه أناس محدّدون، ولهذا فقد طفق كل بلد يدفع عن نفسه شبهة المساهمة بالحدث أو العلم به أو حتى مجرد إبداء مشاعر الفرح بما وقع، كاد العالم يقترب من تفعيل قانون جديد للإنسانية يقضي بإصدار عقوبة الموت الجماعية على الشبهة والظنة، وقد تبحث أمريكا عن هيروشيما جديدة لتلقين العالم بها درساً بالأخلاق.

كانت إيران أكثر بلد تعامل مع الحدث بنفاق سياسي مستخرج من هلع ورعب مختزن في النفسية الإيرانية ومن تاريخ اخترع كل أشكال التقية وصدرها للعالم باسم الإسلام، ونتيجة ماض نشيط في أعمال مماثلة براً وجواً وبحراً ولم ينج منها قريب ولا بعيد، لم يقتصر أمر النفاق الرسمي الإيراني على وزير الخارجية أو المتحدثين باسم وزارته، دخل كل الإيرانيين في مهرجان انتهازي استنهضوا فيه كل ما رقد في الذاكرة الإيرانية من مخبوء التملق والتقية والتخاذل والانحناء حتى تمرّ العاصفة، علي خامنئي مرشد الجمهورية الإيرانية يشجب بأقوى العبارات الدينية والأخلاقية المتداولة ما وقع في نيويورك، حتى إذا استقبل في مهمة مرتبة على عجل فريقاً رياضياً أو وفداً نسوياً أو أي جمع لا يعرف أين تقع نيويورك كان يتحدث معهم وعينه تذهب بعيداً إلى ما وراء الأطلسي لتنشد قصائد الرثاء لقتلى مركز التجارة العالمية، والهجاء بأقذع الألفاظ لمرتكبي الحادث.

وهكذا دارت عجلة القيم الإيرانية الجديدة دورتها الكاملة، وليصبح حدث ١١ أيلول/سبتمبر موضوعاً لخطب الجمعة ولمواعظ

دينية وأخلاقية بعد كل صلاة وفي كل حسينية، وفي العاصمة والمدن الكبرى وفي أقصى القرى النائية في إيران، ومن دون سبب يتم حشر الموضوع كي تبعث طهران برسائل غير مباشرة لواشنطن أنّها بريئة منه كبراءة الذئب من دم ابن يعقوب، وعاشت إيران مزيج الفرح الخفي والحزن المعلن فيما حدث وأحست أنّ يد الغيب قد أخذت لها بثأر قديم من الشيطان الأكبر الذي استضاف الشاه السابق ورفض تسليمه لآية الله الخميني، ولكنّها وبفروسية على طريقة الأفلام الأمريكية لم تشأ ركوب عربة المبتهجين، بل فضلت مجالس العزاء والنواح ولطم الخدود والصدور والظهور جرياً على عادة تأصلت مع الزمن في الضمير الجمعي لإيران التشيع، وتحوّل الرجل القوي هاشمي رفسنجاني أيّام الخميني، والذي تم تصميم موقع قيادي له وعلى مقاساته تحت تسمية مجلس تشخيص مصلحة النظام، تحول إلى ما يشبه المعلق السياسي تستضيفه كل محطات التلفزيون ليدين «جريمة العصر»، ويفعل الشيء نفسه محمد خاتمي الذي أصبح رئيساً للجمهورية وتطرحه إيران واجهة جديدة لزمن الاعتدال والتسامح وحوار الحضارات وممثلاً لفريق الإصلاحيين، ويستقبل وزراء خارجية دول كثيرة وسفراء وممثلين لدول كانت ترى نفسها وقد تمَّ حشرها في مشهد علاقة حب جديد بين طهران وواشنطن يبحث عن شهود لتوثيق عقد زواج متعة سياسية، لا لشيء إلا من أجل أنْ يوصل لأمريكا رسالة الشجب والاستنكار، لما قام به طرف سبق أنْ تعرضت إيران «لشروره»، في محاولة لإلصاق التهمة بالعراق، أو تذكير الأمريكيين أنّ هناك بلداً عليهم ألا يحذفوه من قائمة الظنون اسمه عراق، كنت أعرف من قراءاتي لتاريخ إيران الكثير من هذه الممارسات الفجّة، ولكنّني لم أتوقع أنْ يصل سوء الخلق والتدهور في منظومة القيم إلى هذا الحدّ المفجع،

في كرنفالات اللطم على ما وقع لأمريكا في طول إيران وعرضها، على الرغم من أنّني واثق أنّ العالم كان يعي حقيقة الدوافع الإيرانية، وحتى وزراء خارجية الدول الأوربية، بريطانيا والنمسا وألمانيا ولا أذكر الآخرين فهم كثر، من الذين توافدوا بلا فاصلة على طهران لسماع البكائية الجديدة، كانوا يعرفون أنّ مسرحية دموع الزمن الساخن لن تغيّر من جلد الثعبان شيئاً مهما جاملوا، ومهما ذرفوا معه من دموع على قتلى مركز التجارة العالمية. لقد زايدت إيران في مهرجان الكذب حتى على أمريكا، وتطرفت في ذرف الدموع في ممارسات بكائية تجيد تمثيل أدوارها منذ زمن طويل، ولكنّها نجحت في مبتغاها على كل حال حينما حولت حزمة الشكوك من عدو أو أعداء مجهولين إلى جار جرّعها كأس السم فأرادت الانتقام منه بيد أمريكية، ولم تسمح للعالم وهو معلق أو منقسم بين نشوة الشماتة بأمريكا أو الغضب الجارف لما حلّ بها، أو المترقب الخائف من ردّ فعلها الذي تسعى من خلاله لإرهاب العالم، الذي لم يكن له علاقة بالموضوع، والانتقام ممن دعم أو ساند أو أيّد أو حتى فرح داخل نفسه بحدث ١١ أيلول/سبتمبر، لم تسمح له أنْ يسهو لحظة واحدة عن اتجاه سهم التهمة نحو العراق خاصة وأنّه ما يزال محلاً مخزون طافح من حقد أمريكي إيراني كويتي، يرسم لوحة تجريدية لمنطقة تزايدت أهميتها لوجود النفط فيها أكثر من تزايد دورها في السياسة الدولية، وبالمقابل فإنّ الأمريكيين الذين برعوا في إنتاج كل ما هو جديد في عالم التكنولوجيا والاختراعات، وفي تصدير الرعب لأرجاء العالم الأربعة، برزوا هذه المرة في صناعة الخوف وإعادة إنتاجه وتسويقه للمواطن الأمريكي، الذي عانى الخوف من المجهول أو الإرهاب، حتى بات مؤكداً أنّ الأمريكي يخاف من الخوف نفسه أكثر من خشيته من أي عامل آخر، وهذا

أسوأ ما يعيشه شعب من شعوب الأرض وخاصة مثل الشعب الأمريكي الذي ظن أنّه في منجاة من ردود الفعل المضادة لما ترتكبه حكومته من جرائم في مختلف بقاع الأرض.

ولم يكن بوسعنا أنْ نعرف بصورة دقيقة كيف تعامل العراق مع حادث ١١ أيلول/سبتمبر، الذي حرصت قوى اليمين الجديد في أمريكا على ربطه كلاً أو جزءاً بالعراق، وطفقت الصحافة الأمريكية المقروءة والمسموعة والمرئية تنسج من خيالاتها، أو مما تسربه أجهزة الاستخبارات المختلفة، عن علاقات بين العراق وشبكة القاعدة الدولية، وعن لقاءات تمت تحت رصدها في مدن أوربية بين مسؤولين عراقيين وبعض العناصر التي خططت لحدث ١١ أيلول/سبتمبر، أو من الذين ساهموا بتنفيذه، لكنّنا كنّا على معرفة دقيقة بأنّ القيادة العراقية لم يكن ضمن أساليبها التراجع المذل مما يوحي بأنّ الهلع قد انتقل إليها، لكنّ هذا النمط من التفكير لم يعد له وجود في عالم اليوم الذي تتقاذفه تيارات سياسية تعتمد أساليب ميكيافيللي في كل خطوة تخطوها، ولم يكن هناك ضير أو مساس بكرامة العراق أو سمعة القيادة وخاصة أنّها تعرف بيقين عدم صلة العراق بهذا الحدث لو أنّها اعتمدت فنّ التخاطب مع الإدارة الأمريكية بطريقة لا تحطّ من قدر العراق وقيادته، ولكنّها تتعامل مع الحدث بقدر من الحرص على تجنب المواجهة المؤكدة مع أمريكا والتي كانت مؤشراتها تتزايد مع الوقت، حينما كنّا نتناقش فيما يجب أنْ يكون عليه موقف العراق من هذا الحدث المدوي، كنت أتمنى أنْ نصوغ موقفنا على أساس أنّنا بعيدون عن أية صلة به، من دون أنْ نضع أنفسنا في قفص الذل الذي وضعت إيران نفسها فيه، ورأيت أنْ تصاغ رسالة القيادة العراقية إلى الرئيس الأمريكي ضمن المفاهيم الآتية: «إنّ الشعب العراقي الذي قدّم

للإنسانية الحرف الأول في أبجدية الكتابة، وقدم لها العجلة لتدور في ركب التطور، وأعطاها أول التشريعات القانونية، ليشعر بالأسف لما حصل، وهو يقدر عالياً الإنجازات العلمية التي قدمها الشعب الأمريكي للعالم، ويؤكد تعاطفه مع أسر الضحايا»، ولكنّنا أضعنا فرصة لاسترداد الأنفاس وتحاشي هياج ثور مثقل الجراح يحاول إشعار العالم أنّه ما زال محتفظاً بكل قوته.

بدأت تصلنا رسائل عن فرج يلوح في الأفق، ويضع حدّاً لعمر طويل في الأسر، فالإيرانيون خفّفوا من إجراءاتهم القاسية وأوقفوا عقوباتهم الجماعية، وحسّنوا من حصص الطعام كمّاً ونوعاً، وهذا من بين أكثر المؤشرات على خطوة في الطريق، ولكنّنا لم نكن لنثق في ما يفعله الإيرانيون حتى ندخل حدود بلدنا، ومع ذلك فإنّنا تعاملنا مع الترقب بتوازن بين هاجس الخوف والتطلع إلى الأمل، وفي ظروف كهذه يكون الانتظار قاسياً والزمن بطيئاً فوق قدرتنا على التحمل، ولكنّ التساؤلات تتزاحم من جديد، هل سأكون من بين المشمولين بالتبادل في حال تنفيذه؟ من حقائق الأشياء أنّ كل واحد من الأسرى لا يريد البقاء ساعة إضافية من المعاناة والعذاب، وقد يكون من المنطقي القول: إنّ كلَّ أسير يتمنى من كل قلبه أنْ يكون اسمه أول اسم في لائحة الأسرى المشمولين في التبادل، بدأنا نشغل أنفسنا بأمور حياتية تفصيلية مملّة، ونطلق لأنفسنا حرية الحلم بالغد الآتي بالحرية ونسأل أنفسنا ماذا ينتظرنا في قادم الأيام من خير مخبوء وراء الغيب.

وفي هذه الأثناء كانت صحة اللواء الركن دخيل الهلالي تسوء بسرعة، وحينما كان العام ٢٠٠١ يطوي آخر صفحة من أجندته، كان الجميع يسارعون لتقديم أكبر قدر من المساعدة له على أمل المدّ بحياته ومنع أي تراجع في مستوى أداء وظائف أجهزته، حتى

يصل إلى أهله ويراهم ويرونه، وبعد ذلك ليقع ما كتب الله الذي لا رادّ لقضائه لا بالأمنيات ولا بالخوف. كانت خشيتنا من أنْ يتوفاه الله في الوقت الضائع، ولذا فقد بذل النقيب إسماعيل الداغستاني كل جهده ليكون قريباً من الهلالي وتلبية حاجاته، وكذلك فعل المتطوعون لخدمته، وفي مثل ظروف الأمل هذه تتزايد عند الناس حالات الإيثار ونكران الذات.

جاء شتاء عام ٢٠٠١/٢٠٠٢ مبكراً حاملاً لنا الثلوج التي تكدّست في الساحات الخارجية لقاعتنا، ولم نحمل حماسة جدية للخروج في ممارسة التمشي، فرياضة العجائز هذه وعلى سهولتها بحاجة إلى مصدر معلوم من الطاقة، والغذاء المقدّم لنا وعلى الرغم من التحسينات التي دخلت عليه لا يوفر إلا أقلّ القليل من السعرات الحرارية، ومع ذلك فما نفكر فيه أكبر من ذلك بكثير، إنّه التمشي في شوارع بغداد وحتى أزقتها ومدن العراق الأخرى كل بحسب مخزونه من الحلم المتراكم وحسب ما استودعته نفسه من ذكريات سالفة. بدأت الإشاعات الوردية تتسرب إلينا بغزارة من وراء الغيب، كنّا نبذل جهداً لغربلتها وترشيحها، وأخذ القليل القليل منها ورد الباقي، كنّا كمن لسعته أفعى ولا يريد أنْ يقدم نفسه هدية مجانية لأفاعي الإيرانيين الجديدة والمغلفة بالحلوى، وعلى الرغم من أنّنا لم نكن لنخسر شيئاً، أو بدقة أكثر لن نقدم شيئاً أو نؤخر في حال تصديقنا أية قصة أو معلومة أو إشاعة، أو ردّنا لها فإنّنا كنّا على الدوام نأخذ بالجانب المظلم، لأنّ ذلك لا يقطع علينا طريق الأمل إذا فتحت أبوابه، ولكنّنا إذا أسرفنا في تفاؤل غير مدروس، ثم تبين بالدليل القاطع أنّه كان محض سراب، فذلك قد يخلق انكساراً نفسياً تصعب معالجته، ولهذا كنّا نرفض أخبار التفاؤل حتى في حال استقر بعضها في سويداء القلب، كان

هذا أسهل الحلول، وأثبت صوابه في تجارب الأسر، فكم ممن أخذته موجة تفاؤل في غير محلّها فحين حصحص الحق أصيب بردة فعل أثرت في توازنه النفسي، ولكنّ زمن الأسرى لا يركب عربة واحدة على طول الخط، لا بدّ من تغير في عرباته بين آونة وأخرى، وربما تأتي العربة التي توصلنا إلى أرصفة الوطن الدافئة.

حينما كان ٢٠٠١ يلفظ أنفاسه الأخيرة كان الأسرى قد امتلأت أجواؤهم بتفاؤل أوشك أنْ يقتحم عليهم قاعاتهم من كل منافذها ونوافذها وأبوابها الموصدة، لم نكن فيما مضى لنكترث لرحيل عام ومجيء آخر طيلة سنوات الأسر إلا بما يحذف من جرف العمر ويضيف إلى عذابات الأسر وحتى حينما ودّعنا القرن العشرين واستقبلنا القرن الواحد والعشرين والألفية الثالثة، ذلك الحدث الذي تعاملت معه شعوب العالم وتفاعلت مع ساعاته الأخيرة بل دقائقه وثوانيه، بمهرجانات وكرنفالات سمعنا عنها بعد أن نلنا حريتنا، ولم نطّلع على شيء منها لا بالعين ولا بالأذن، بل لم نكن لنعرف متى تمّ ذلك ولم نكن لنكترث لذلك، فمصيبتنا لا تمنحنا فسحة لفرح فائض عن حدّ الوهم، أو لأمل يتسلق جدران اليأس، ليصنع بسمة حزينة، أو ضحكة مفتعلة ومكابرة عابرة تداري مشاعر المحزونين، ولكنّ معرفة الشيء وقت حدوثه سواء كان حزناً أو فرحاً لا يرتبط بكيفية التعامل معه، ولم نكن لنسمح لذكرى تأسيس الجيش العراقي أنْ تمر مرور العابرين، كان لا بدّ من أنْ نتوقف عندها ونقف لها بتكريم يتناسب مع مكانة صاحب الذكرى، ولذا فقد عشنا يوم السادس من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢، عيداً معنوياً كبير الدلالات وإن افتقر إلى الكثير مما كنّا نحضر له في السنوات السابقة، ولكنّ الذكرى تبقى أكبر ممّا يقدم لها وفيها، وصاحب الذكرى أكبر منها قطعاً.

وتثاءبت الليالي بتتابع، ويوم الخميس ١٧/١/٢٠٠٢، بزغ الفجر الدافئ من رحم ليلة تساقطت فيها الثلوج بغزارة على معظم الأراضي الإيرانية، التي تشهد عادة مثل هذه الظاهرة، ومثل كل مرة وعلى غير انتظار ودونما سبب نودي علينا للخروج على عجل إلى الساحة الخارجية ولأمر في غاية الأهمية لم يكن بوسع أحدٍ منّا التفكير بجدية الأمر من عدمه، فنحن لا نمتلك الحق في الاعتراض على أي إجراء يأمر به الإيرانيون، بل حتى مجرد التأخر في وضعه موضع التنفيذ، انطلق كل منا في جمع «ممتلكاته» من حطام دنيا الأسر، ووسط صراخ الجنود كنا نخرج لنتكدس في ساحة مغمورة بالثلوج التي تساقطت بغزارة خلال الأيام الأخيرة، وبعد أنْ اكتمل عددنا بدأ الجنود حساب الموجود، ويبدو أنّ الأرقام لا تمرّ على ألسنة الجنود بمرونة، أو أنّهم من أنصاف الأميين أو محدودي المستوى التعليمي، ولهذا لم يكن ميسوراً للجنود إنجاز الحساب بالسرعة المطلوبة، وربما كانوا يريدون قضاء الوقت لحين مجيء آمر المعسكر، وبين آونة وأخرى كان يمر علينا ضباط وبرتب مختلفة لم يسبق لنا التعرف إلى أحدٍ منهم، هذا أنعش في نفوسنا بارقة أمل بأنّ شيئاً كبيراً على وشك الحصول، وبعد انتظار طويل جداً أو لعلنا شعرنا به هكذا جاء أحد مساعدي آمر المعسكر، ومثل كل إيراني، سواء كان صغيراً أو كبيراً يريد أنْ ينسب كل شيء إلى نفسه، ألقى فينا كلمة حذّرنا فيها من إضاعة الفرصة الأخيرة، وطلب التهيّؤ لاستقبال الزائر الخاص.

كانت مشاعرنا مثل أمواج الحجيج بين الصفا والمروة، تسرع وتبطئ، تهرول وتمشي، تصعد وتنزل، ولكنْ ليس في حيّز مكاني محدّد، ولكنْ بين الرجاء واليأس، بين الموت والحياة، والترقب حالة إنسانية لا سبيل للسيطرة عليه أو التحكم في تفاصيله،أو تغيير

قواعده أو نتائجه، ولكنّ العقل الإنساني يريد التحليق عالياً والتحرر من زنزانة الجمجمة، ما هي حقيقة الأشياء في هذا اليوم البارد؟ وهل سنخضع لمسرحية تبدو فصولها كوميدية في ظاهرها، ولكنّها تعالج أكبر تراجيديا ممتدة بين القرنين العشرين والواحد والعشرين، أم أن المؤلف والمخرج سئموا فرض عرضهم المسرحي على الجمهور الذي هو المشاهد والضحية والممثل في آن واحد؟

بعد زمن رأيناه طويلاً أطلّ علينا ضابط كبير تحفّ به مجموعة كبيرة من الضباط من مختلف الرتب، واستعرضنا بكبرياء وخيلاء مستمد من عصر عرش الطاووس، لم نكن لنكترث كيف سيتصرف، كنّا نترقب لحظة الخلاص ولتبن له حكومته ألف تمثال أو مزار، أما نحن فلن نجد في أنفسنا دافعاً لكراهية أو محبة تجاه أي من هؤلاء في تلك اللحظات بالذات.

بعد أنْ استعرض نفسه أمامنا بدأ المرحلة الثانية من خطته وهي استعراض الأسرى أنفسهم وذلك باختراق الفواصل فيما بينهم، وقتها كانت سحنته قد تبدلت وزال الوجوم والحزم عن وجهه وتفتحت أساريره، وهذا ما عزّز كفّة التفاؤل في النفوس القلقة من المجهول، وبعد أنْ أنجز هذه الصفحة وعاد إلى مكانه في مقدمة صفوف الأسرى، أمسك بقائمة وقال بلهجة حازمة: «من أقرأ اسمه يخرج من الصف ويتوجه إلى مكان حدده في الساحة»، وأوضح أنّ هناك عملية «إطلاق سراح» للأسرى ولم يقل تبادل، وعلى كل حال سواء كان الأمر بالتبادل أو بالإطلاق ليس هذا المهم، فالمهم عندنا هو العودة إلى الوطن والأهل، على الرغم من أنّنا نعرف وبالتجارب السابقة بأنّ إيران لم تستخدم مصطلح التبادل في أي وقت من أوقات التبادل بين البلدين، وبدأت الأسماء تترى.

وهنا بدأت التساؤلات المريرة من الأسرى جميعاً، هل المشمولون بالتبادل هم الذين قُرئت أسماؤهم أم أنّهم المستثنون؟ إنّه لحقٌ مشروع أنْ يتمنى كل واحد من الأسرى أنْ يكون في بداية ركب العائدين، وربّما هذه هي الأنانية الوحيدة المقبولة في التعامل الجماعي، فلا أحدَ يريد لنفسه أنْ يبقى قريباً إلى عدوّه حدّ التماس المباشر ولو لدقيقة إضافية واحدة، وبعد أن انتهى من قراءة الأسماء وكان اسمي من بينهم، أمر من لم يُقرأ اسمه بالعودة إلى القاعة التي كنّا فيها، وفوراً تحولنا إلى عالمين من غير المسموح لنا التحدث مع بعضنا البعض، انتعشت آمالنا كثيراً بأنّنا المشمولون بالتبادل حقّاً إلا إذا حصلت مفاجأة وما أكثرها في إيران، وبعد أنْ انتهى من قاعتنا انتقل إلى قاعة أخرى وقام بالشيء نفسه، وبعد أنْ أنهى عمله في كل قاعات المعسكر كان الليل قد ألقى بحجبه فوق السماء، وكانت درجات الحرارة تتراجع بسرعة بعد أن اطمأنت لرحيل الشمس، تم جمعنا في قاعات جديدة وتمّ جلب مجاميع من أسرى معسكرات أخرى، الآن أصبح التبادل يقيناً، لم نتمكن ليلتها من النوم، كنّا نحلم ونحن في كامل وعينا بلقاء الأهل والأحبة ومعانقة الوطن، والخلاص من الذل والجوع والمرض، وليلتها أيضاً سهر المستثنون أيضاً حتى الصباح حزناً وحرقة لزمن مفتوح من الأسر.

كان ذلك في الثامن عشر من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢، وبدأت عمليات تدوين الأسماء على قوائم رسمية، يستدعى كل أسير وبحسب الحروف الهجائية لتثبيت اسمه الكامل، ويتم تبليغه بالتعليمات الصارمة التي عليه التقيد بها، وإلا سيفقد فرصته حتى لو أعيد من الحدود. نعم هكذا كانوا يحذروننا، ولم نكن في أي يوم من أيام الأسر التي بلغت سبعة آلاف ومئتين وخمسة وأربعين

يوماً أكثر التزاماً منّا ذلك اليوم أبداً، أبلغونا بأنْ نترك كل ما كان عندنا وارتداء الملابس الجديدة فقط، وحينما اشتكى الكثيرون من أنّها لا تتناسب مع الجو البارد ولا تقي الأسرى لسعة البرد القارس، تذمر معظمنا من مثل هذه الملاحظة، فالعودة لا تترك مجالاً لشعور ببرد، ومع ذلك كان جواب المسؤولين الإيرانيين بأنّ الحافلات التي ستؤمن النقل مكيّفة ولا تدعو الحاجة لألبسة سميكة، حاول البعض الاستفادة من بعض الألبسة الصوفية، ولكنْ تمت مصادرتها منهم بعد محاضرات طويلة بأنّ المخالفة التالية ستعني الحرمان من فرصة التبادل ولا مجال للمجازفة، ولهذا تناصحنا جميعاً بضرورة تفويت الفرصة على الإيرانيين للتلاعب بأعصاب الأسرى المتعبين.

تواصل عمل لجان التسجيل ليلة الجمعة ١٨ على السبت ١٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢ وما بعدها، وكانت مجاميع من الأسرى تجلب من معسكرات أخرى حتى بلغ عدد دفعة التبادل نحواً من ٦٥٠ أسيراً عراقياً، وعلى الرغم من أنّنا لم نذق طعم النوم تلك الليلة فقد جاء الضباط الإيرانيون المشرفون على مرافقة القافلة يوم الأحد ٢٠ كانون الثاني/يناير مبكراً، وتمَّ تجميعنا في الساحة الخارجية وهي من المرات النادرة التي لم نتذمر فيها من البرد الشديد والثلج الذي يغطي الأرضية التي نقف عليها، كنّا كمن نفخ في أذنه صور القيامة فانشغل بنفسه عن كل ما يحيط به، ومن البعيد كنّا نرى في عيون أصدقائنا المتبقين أسى وحزناً مقيمين، وهذه مشاعر حقيقية ومشروعة لا يمكن تغليفها بأردية زائفة من الإيثار ونكران الذات، وبعد وقت بدا لنا دهراً، جاءت الحافلات المخصصة لنقلنا إلى الحدود، ولكنّ آمر القافلة أخبرنا بأنّ خط رحلتنا سيشمل السفر إلى الشرق لمسافة تزيد على ألف كيلو متر

ذهاباً ومثلها إياباً، أي السفر إلى مشهد عاصمة إقليم خراسان، لزيارة مرقد ثامن أئمة الشيعة الجعفرية الإثني عشرية، علي بن موسى الرضا، والذي يرقد إلى جواره الخليفة العباسي اللامع هارون الرشيد، الذي توفي هناك وهو يقود حملة لقمع الفتنة التي قام بها الخراسانيون ثورة على مركز الخلافة الإسلامية في بغداد. أذكر في منتصف الستينيات وخلال حكم الرئيس عبد الرحمن عارف أن الحكومة العراقية أرسلت وفداً لاسترداد رفاة الخليفة هارون الرشيد من قبره في مدينة مشهد، وحينما بدأت الاتصالات مع الجانب الإيراني من أجل هذا الهدف اعتذر المسؤولون الإيرانيون عن تلبية الطلب لأنهم لا يعرفون على وجه الدقة أي قبر هو للرشيد، وهذه الحجة إذا صدقت لتبرير موقف إيران إنما تؤكد أن مدافن الأئمة الإثني عشر يشوب معظمها شك كبير، وبالتالي فإن من يفرض هذه القدسية لمواضعها هو الذهاب واعتياد زيارتها لا أكثر، هل علينا أنّ نذهب كل هذه المسافة شرقاً ثم نعود إلى النقطة نفسها التي انطلقنا منها، بعد حوالى ٤٨ ساعة؟ وهل تتحمل أعصاب الأسرى هذا الاختبار القاسي؟ وهل هم بحاجة إلى زيارة أهلهم أم إلى زيارة الرضا؟ ولمّا لم يكن بوسع أحدٍ منهم تغيير مسار الأحداث، فما عليهم إلا التظاهر بقبوله والرضى به، وعلى كل حال هي ساعات وتمضي ونتجه غرباً مرة أخرى، تساءل بعضنا بمرارة هل كان على علي موسى الرضا أنْ يدفن في أقصى شرق إيران؟ لم يكن أحد لينزعج من زيارة مشهد حتى أولئك المتشددين تجاه المزارات، ولكنْ ليس هذا وقت مثل هذا العبث بأعصاب الأسرى المتلهفين لرؤية الأهل والوطن، ونحن في غمرة هذه التساؤلات التي لن تغير من النتائج شيئاً بدأت عملية إركابنا في الحافلات تباعاً، منذ عشرين عاماً لم نجلس على مقاعد مريحة

كالتي جلسنا عليها في رحلة مغادرة إيران، بعد أنْ اطمأن آمر القافلة إلى أنّ الجميع قد أخذوا مقاعدهم، وأنّ الحراسات المخصصة توزعت في سياراتها بين حافلات الأسرى، أصدر أمره بالانطلاق، من معسكر برندك الواقع على مسافة إلى الغرب من طهران نحو العاصمة ثم التوجه إلى شمال شرقي إيران حيث مدينة مشهد، عشنا فرحاً قلقاً لم نعشه من قبل أبداً، كانت عيوننا مفتوحة لأول مرة في إيران، كنّا نلتهم المناظر التي نمرّ عليها بشغف ونهم كي نزعم أنّنا رأينا إيران ذات يوم، كانت معاملة الجنود مختلفة تماماً عن كل الذي عانيناه طيلة عشرين عاماً، وقد تمّ تأمين إطعامنا في محطات وسطية، قدّم الإيرانيون أفضل ما لديهم من أرزاق وطعام وخدمات عكست مظهراً متحضراً، وفي مطاعم نظيفة على الطريق الرابط بين طهران ومشهد، والمكتظ عادة بعشرات الآلاف من سيارات الزائرين قاصدي مرقد الرضا، المقاهي والمطاعم على طول الطريق تعمل بلا توقف ليلاً ونهاراً، وبعد أنْ تناولنا أشهى طعام في إيران منذ عشرين عاماً وربما وجدناه كذلك لأنّ الجوع هو أمهر الطباخين على الإطلاق خاصة إذا كان جوعاً مزمناً وطويل الأمد، استأنفنا السفر ولا بد من مشهد وإن طال السفر، وكان من حقنا أنْ نتساءل هل هذه هي خراسان التي حللنا عليها «ضيوفاً» قبل أكثر من تسعة عشر عاماً؟ وهل هذه هي خراسان التي كانت تقدم لنا طعاماً ممزوجاً بأسوأ القاذورات؟ المهم كانت خراسان الجديدة تقدم لنا هذه الخدمات الخاصة ومن دون أوامر صارمة أو هراوات جنود مطيعين للأوامر الصادرة لهم أو ركلات من متدرّبي الكاراتيه.

استأنفنا رحلة الألف كيلومتر شرقاً حوالى الخامسة عصراً، كان الطريق متعرجاً وسط هضاب ومناطق جبلية وسهول غطتها

الثلوج التي كانت قد تساقطت بغزارة خلال الأيام الأخيرة، والشمس تودّع الأفق مبكّرة شتاءً، وغابت مع الضياء الأخير المناظر التي كنا نتسلى بها لقضاء الوقت الثقيل في الرحلة إلى الشرق، ثم لنعاود المسير غرباً بعد أن ننهي زيارة مفروضة إلى مشهد في أقصى شرق إيران، وصلنا مدينة مشهد بعد منتصف الليل بقليل، ووجدنا بانتظارنا خليطاً من إدارة الروضة الرضوية، ومحافظة خراسان وقيادة الفرقة ٧٧، ووجدنا أنّ مأدبة عشاء قد أعدت لنا في بهو ملحق بالروضة، كل فريق كان يتسابق لإظهار أنّه صاحب الوليمة الفاخرة، وبعد أنْ انتهينا من تناول الطعام أهديت إلينا سجادة للصلاة في حقيبة، ثم بدأت المرحلة الأخيرة من زيارة مشهد، وهي زيارة مرقد ثامن الأئمة عند الشيعة الجعفرية الإثني عشرية، علي بن موسى الرضا، كان المزار مفتوحاً على مدار ساعات الليل والنهار، ويستقبل يومياً عشرات الآلاف من الزائرين الوافدين من المدن الإيرانية، ولكنّ الحافلات التي توقفت متلاصقة كانت تحمل زواراً مكرهين على الزيارة، ويريدون إنجاز مفرداتها على جناح السرعة، وبرغبة صادقة صلى معظم الأسرى الفروض في المرقد مع حرص ألا يكون الضريح في الواجهة، وقد صليت فرض العشاء متكتّفاً ومستقبلاً الكعبة غير مكترث لنظرات المستغربين وخاصة مرافقينا الإيرانيين الذين رأوا في ذلك تحدياً أو استفزازاً، لم أكن الوحيد الذي صلى كما كان يفعل على الدوام، فليس الوقت وقت تنازلات، وليس الوقت وقت مجاملات على حساب القناعات الحقيقية، خاصة أنّها لم تقدّم في الظروف الصعبة والقاهرة، وأيّاً كان الأمر فقد أتممنا هذه الزيارة البروتوكولية، والتي يتمناها معظم شيعة العالم، وعندهم الاستعداد لدفع مبالغ كبيرة من أجل تحقيقها، من دون رغبة من الكثيرين منا أو حماسة

لها، اللهم إلا نظرنا إليها على أنّها سياحة في أرجاء إيران المختلفة، وليت الأمر توقف عند هذا الحد، فبعد أن انتهت زيارة هذا المزار المقدس عند الإيرانيين والذي أراه لا يغني ولا يسمن من جوع، لأنّ التوجه لغير الله والاستعانة بسواه شرك به واضح لا لبس فيه، بعد ذلك أبلغَنا الإيرانيون المشرفون على برنامج عودتنا إلى العراق أنّ الخطوة التالية هي زيارة لقبر الخميني في طهران، وتناول طعام العشاء في البهو الملحق به، حينما غادرنا مشهد صباح يوم الإثنين ٢١/١/٢٠٠٢، كنّا قد انتهينا من يوم كامل في تأخير عودتنا إلى الوطن بسبب هذا البرنامج الإضافي، هل حقاً نحن على استعداد لزيارة قبر المسؤول الأول والأخير عن مأساتنا ومحنتنا الطويلة وما لحق بنا من عذابات؟ بعض الأسرى نظر إلى الزيارة من زاوية أخرى، ماذا سيكون ردّ فعل المحقق في العراق بعد العودة إلى الوطن؟ وماذا سيكون تقييمه لمن ذهب إلى قبر يحتوي على كتلة من الحقد والكراهية للعراق ولكل أسير احتفظ بموقف وطني؟ سألني بعضهم ماذا تقول؟ هل نذهب لزيارة قبر الخميني؟ فهمت أنّ من سأل هذا السؤال كان يبحث له عن مظلة تقيه لهيب شمس العراق الحارقة يوم حساب ظنّه كثير منهم قاسياً إلى أبعد الحدود، لم أتردد أبداً، قلت: إذا اقتضى لعودتي إلى العراق أنْ أمر على كل مزابل إيران فسوف أفعل من دون تردد، على كل حال هذا جزء من ثمن العودة للوطن.

قبل أنْ يموت الخميني أوصى أنْ يدفن قرب طهران، وجاء في وصيته أنّه لا يريد وضع أكثر من أربعة عشر كيلوغراماً من الذهب في تزيين القبة الذهبية التي ستعلو القبر، لتضاهي الأضرحة الشيعية الأخرى، فهو إذن أمَر بوضع الذهب على قبّة قبره، وهو يعرف أنّ ضراوة الذهب وبمرور الزمن ستخلق لقبره القدسية التي

تتمتع بها المزارات الشيعية في العراق وإيران، وبالفعل وجدْنا أن قبر الخميني أصبح مزاراً، ليس بصفته قائداً للثورة على نظام الشاه ومؤسس نظام الجمهورية في إيران، أي زيارة بروتوكولية كما هو الحال مع قبر كمال آتاتورك، أو ماو تسي تونغ، أو المراقد المثبتة في جداول الزيارات الرسمية في عدد من دول العالم، وإنّما يزار في زيارات دينية، لتقدم له النذور وليطلب منه تحقيق الأمنيات التي يطلبها كل ذي حاجة، فهذا يتوسل إليه أنْ يوسع عليه في رزقه، وذاك يطلب منه أنْ يرزق بمولود ذكر، وثالث يريد منه التوفيق لذريته في التعليم والتدرج في دروب الحياة، ونسي هؤلاء جميعاً أنّ الرجل مات كمداً بعد عشرة شهور من تجرعه كأس السم حينما وافق على قرار مجلس الأمن ٥٩٨ ولم ينقذ نفسه من نهاية حتمية ولم يقدم لها نفعاً ولا ضراً، وحتى في اقتباس موضوع السم يبدو أنّ الخميني أراد أنْ يحاكي قصص موت أئمة الشيعة بالسم، ومع الزمن فإن القبر سيأخذ القيمة المعنوية والدينية نفسها التي تحتلها مراقد الشيعة في العالم.

كان في المزار من الفخامة والسعة وفنون الزخرفة وعمارة البناء ما يمكن أنْ يتفوق على كثير من المزارات والأضرحة الشيعية المعروفة في العراق وإيران، ومع أنّ أحمد الخميني وهو ابن روح الله الخميني والذي أصبح محافظاً لقبر والده قد مات في ظروف غامضة، لأنّه حاول أنْ يشق لنفسه طريقاً سياسياً مغايراً لتوجهات الزعامة الإيرانية التي خلفت والده، فإنّ الخميني ظل رمزاً للنظام الذي أقامه، حتى في حال التقاطع مع معظم توجهاته الفكرية والسياسية، ومن هنا نظر كثيرون إلى دور أحمد الخميني على أنّه محاولة لتكريس الخمينية كظاهرة ومدرسة تطبع الحياة كلها في إيران الجمهورية، منطلقاً من علاقة عاطفية مع والده، وليس

استناداً إلى ثراء تلك التجربة، والتي وجد فيها زعماء إيران اللاحقون ما يمكن أنْ يعزل إيران عن رياح التغيير في العالم.

لاحظ مراقبو المشهد الإيراني أنّ الخميني الذي كان أكثر زعماء العالم حديثاً عن الفقراء والحفاة والجائعين والمحرومين، لكنه كان قبل موته يعيش حياة لا تتوفر لأي من قادة الدول الغنية أو الفقيرة، الصغيرة أو الكبيرة، أو لأثرى رجال العالم وأكثرهم ترفاً وبذخاً، فالخميني كان يعتني بمأكله وملبسه على ما كان يتسرب من مكتبه، وضخامة الحاشية المطيعة إلى حدّ العمى، حتى إنّه حينما كان يطل من منصته العالية في حسينية جمران، ويضج جمهوره بهتافه المعروف: «خدايا خدايا تا انقلاب مهدي خميني را نكهدار» أي «إلهي إلهي حتى ظهور (أو ثورة) المهدي احفظ لنا الخميني»، كان يتفاعل مع هذا الهتاف بيقين ويستمد منه قوة للبقاء ليس حتى ظهور المهدي، وإنّما حتى يتحول هو تدريجياً إلى المهدي المنتظر، ولذلك فقد كان يجلس على كرسي كبير، وكأنه عرش الطاووس الموروث من زمن الشاه، ليس من حيث فخامته المادية، وإنما من حيث السطوة التي تنشر أجنحتها على الحاضرين بكبرياء يرتدي عمامة سوداء، يجلس عليه بتعال لا مزيد عليه، وتحت أقدامه كبار رجال إيران الخمينية، ابتداء من رئيس الجمهورية وانتهاء بالمقربين ومروراً بقادة الجيش وهم حفاة حقاً، يتطلعون بِذُلٍّ إلى التفاتة حنان ورضى من سيدهم الماسك بصولجان السلطة المطلقة والقادر على منح أي واحد منهم فرصة المجد والتحكم بمصائر الناس، ويبدو أنّه حينما أحسّ بدنو الأجل وعدم جدوى أدعية الهتّافين، رأى أنْ يستعاض عن استمرار وجوده بضريح فخم إلى أبعد الحدود لا تستطيع العين إنكاره، يقام له في طهران ليذكّر خلفاءه على مدار الساعة بأنّه موجود بينهم ويراقب من

وراء الغيب حركاتهم وسكناتهم، وكان لافتاً أنّه أمر بأنْ يدفن في طهران وليس في مشهد قرب ضريح ثامن الأئمة علي موسى الرضا، وكذلك ليس في قم قرب قبر فاطمة بنت موسى بن جعفر شقيقة الرضا، فهو يريد الانفراد بانتزاع الاهتمام حتى في الموت.

نعم بعد موته حصل على القبر الذي أراده لنفسه، قبر ومزار بقبة ذهبية لم يتوفر لأي قائد في العالمين الرأسمالي والاشتراكي على حد سواء، وهذه من أكبر تناقضات ذلك الرجل الذي صوّر نفسه وصوّره إعلام بلاده وإعلام التابعين له على أنّه الرجل الزاهد المتقشف في حياته، الراغب عن متع الدنيا وزخرفها، وإذا بقبره ينافس أكبر المزارات، فأي زهد لمن يوصي بوضع أربعة عشر كيلوغراماً من الذهب فوق قبة قبره؟

المهم بعد أنْ شاهدنا هذا الصرح العمراني ويذهول واضح وجدنا داخله ما هو أدعى لذهول أكبر، وسط تساؤل عمّا إذا كان هذا الصرح الممرد من قوارير قبراً لرجل أو متحفاً لمرحلة تاريخية كاملة ليؤشر نمط التبعية العمياء لقبور غير دارسة؟ المهم صلى بعضنا وأنا منهم المغرب والعشاء قصراً وجمعاً لدواعي السفر، وبعد أنْ تناولنا العشاء في بهو الضريح انطلقت رحلتنا الحقيقية نحو العراق.

كان كل متر نقطعه الآن على الطريق يقربنا متراً من العراق، كانت الثلوج ما تزال تتساقط، والطريق كان محفوفاً بمخاطر جمة، كانت وجهتنا الحدود الشرقية للعراق، ونقطة المنذرية بالذات ولكنْ من نقطة خسروي الإيرانية وعبر قصر شيرين، آخر قصور آيات الله، ولذا كان علينا أنْ نصل محافظة كرمنشاه مساء يوم الثلاثاء ٢٢/١/ ٢٠٠٢، هذه المحافظة تم تبديل اسمها قبل بضع سنوات إلى

باختران أي الغربية، ولكنّها استعادت اسمها القديم من دون إعطاء سبب للتغيير أو إعادة الاسم القديم، وسارت القافلة محفوفة بأدعية الأسرى المتلهفين للوصول قبل أنْ يغير الإيرانيون موقفهم! وفي الطريق علمنا أنّ هناك محطة جديدة سنتوقف فيها هي مقر إحدى قيادات الفرق العسكرية في همدان، لتناول طعام الغداء ثم مواصلة المسير، بالممارسة نحن نعرف أنّ كل طرف إيراني لا بد من أنْ يضع توقيعه على كل خطوة، كي يشعر بنشوة الدور الذي يريد رسمه لنفسه، ولذا كان بالإمكان اختزال الكثير من الخطوات التي اعتبرناها زائدة تماماً وثقيلة على أعصابنا المشدودة عن آخرها، ولكنّنا ما نزال تحت سيطرة الجانب الإيراني ولم يكن بوسعنا أنْ نفكّر بصوت عال أو أنْ ننقل هذه الأفكار من داخل رؤوسنا إلى خارجها، بعد أنْ وصلنا مقرّ الفرقة في همدان، رحّب بنا ضباطها متمنين لنا عودة سالمة إلى ربوع الوطن وأحضان الأهل، تناولنا الغداء على الرغم من وجود خطأ في المثابة التي كان علينا الوصول إليها، بسبب التضارب في اجتهادات ضباط الارتباط الإيرانيين المرافقين للقافلة، مما أدى إلى تأخير إضافي زاد على ساعتين، وكأن الأمر فلم مليودراما، كم كان هذا الوقت الضائع عسيراً على الفهم قاسياً على القلب مثيراً للمواجع.

بعد الغداء أبلغنا بضرورة التحرك بسرعة، لأنّ لجنة من الصليب الأحمر تنتظرنا في منطقة قصر شيرين التي لا تبعد عن الحدود كثيراً، وحوالى الساعة الخامسة عصراً كانت سياراتنا تصطف تباعاً أمام مسجد مدينة قصر شيرين، والذي توزع عليه أعضاء فريق اللجنة الدولية للصليب الأحمر، هذا الجامع رأيته قبل أكثر من واحد وعشرين عاماً، حينما جئت بفريق صحافي عالمي، في الأسابيع الأولى للحرب، ولكنّه اليوم يمثل بالنسبة إلي سفينة

ستبحر بي وبرفاقي، من عالم البرزخ إلى عالم الخلود في جنة الله في الأرض... العراق... وجدنا أنّ أعضاء فريق الصليب قد توزّعوا بحرص بالغ واهتمام على إنجاز مهمتهم بأسرع وقت، وقف الأسرى في طوابير متعددة، كان رجال الصليب الأحمر يتراكضون في كل الاتجاهات من أجل عدم إضاعة دقيقة من الوقت الذي ينظرون إليه كسيف يمكن أنْ يقطع مهمتهم لأي سبب أو دونما سبب، فالإيرانيون لا يمكن لأحد أنْ يتكهّن بخطوتهم اللاحقة، ويمكن أنْ يغيروا رأيهم في اللحظة الأخيرة ويلغوا التبادل بكامله، وهم يتحركون في ذلك ليس من استنتاجات وإنّما من تجارب ميدانية تجرعوا هم والأسرى العراقيّون مرارة ضياع فرصة وصلت إلى نهاياتها السعيدة لولا تقلب المزاج السياسي الإيراني، كان فريق الصليب يعي جيداً حجم المأساة التي سيخلّفها إرجاع أسير واحد عليه أو على زملائه وعائلته، وقد يفقد حياته نتيجة أزمة قلبية طارئة في مثل ظروف كهذه، لذلك كانوا يحثوننا على الانتهاء من الإجراءات الإدارية في تثبيت الأسماء الصريحة والرتب الصحيحة، مع العناوين الدقيقة، لأنّ سلطة الإيرانيين انتهت منذ الآن، وجاء دور التوثيق الدقيق للمعلومات بلا خوف أو حذر، حينما جاء دوري ورأيت الصليب الأحمر لأول مرة منذ أسري قبل عشرين عاماً، وتيقّنت أنّهم بشر مثلي تماماً، ويتحدثون ويسمعون ويرون ويأكلون الطعام، سألت السيدة المكلفة بتدوين معلوماتي، قلت: أين كنتم كل هذا الزمن؟ هل كان الأمر يحتاج إلى كل هذا الوقت؟ قالت بحميمية وحرارة: نحن هنا لإنجاز مهمة ترحيلكم بأسرع وقت قبل أنْ نشعر بندم مميت، أرجوك ساعدني ببياناتك بأسرع وقت وحينما تستقر في بلدك اسأل عن كل ما تريد معرفته عن دورنا وستجد أنّنا حينما نمنع عن زيارة معظم الأسرى، فنحن

نفضل تقديم خدماتنا لأي عدد متاح لنا، المهم أكملت تفاصيل اسمي وعنواني، ولأول مرة أعطيت اسمي الصحيح كاملاً مع اللقب ووظيفتي الحقيقية، وغادرت الغرفة الشبيهة بقاعة التصويت في الانتخابات في عالم الديمقراطيات الغربية.

حينما اقتربنا من الحدود العراقية بالحافلات الإيرانية كانت الساعة تقترب من التاسعة من مساء يوم الثلاثاء ٢٢/١/٢٠٠٢، وشاهدنا عن بعد حشود العراقيين الذين جاءوا لاستقبال العائدين من أسرى يعرفونهم أو لا يعرفونهم، وقد تحشّدت الجماهير على جانبي الطريق بل سدّت الطريق عن آخره، تواصينا وبرجاء حار. وكما أوصانا العاملون في اللجنة الدولية للصليب الأحمر أسرعوا في أثناء الانتقال من الأرض الإيرانية إلى الأرض العراقية، وقف جنديان، إيراني عند آخر نقطة إيرانية، وإلى جانبه جندي عراقي عند أول نقطة عراقية، ويتم التسليم باليد واحداً واحداً، كم تزاحمت الأفكار في الرؤوس، كم تعددت الصور أمام العين، ولكنّ الحقيقة كانت أكبر من كل خيال، وأجمل من كل الأحلام، حينما سلمني الجندي الإيراني للجندي العراقي، توقفت عن الحركة من دون إرادة مني ولكن وعيي المختزن في أعماق عقلي وضميري هو الذي يقودني إلى ما أقدمت عليه، إذ هل أتوقف عن المضي إلى أرض الوطن؟ وهل يمكن أن يحصل مثل هذا لرجل مثلي؟ تداعت الأفكار الواحدة تلو الأخرى، وتبين أنني لم أنتبه إلى زملائي المتلهفين مثلي للوثوب إلى أرض العراق، كانوا ينادون عليّ: تقدم يا نزار، ولما لم أعرهم انتباهاً هاج بحر الأسرى وماج غضبهم بالصياح: تقدم يا نزار، وربما ترافق مع بعض العبارات النابية، ولكنّني تسمرت في مكاني وبهدوء وبآلية قفزت إلى رأسي عند تلك اللحظة الحاسمة، بدأت أفتح خيط حذائي الإيراني الذي

كانت إدارة المعسكر قد سلمته لي قبل بضعة أيام، ونزعته عن رجلي كليهما، ووسط صياح متعال عبرت الحدود حافياً، بعد أنْ قدمت قدمي اليمنى على خلاف المشية العسكرية، لأنّ أبي رَحِمَهُ اللَّهُ أوصاني بأنْ أقدم رجلي اليمنى حينما أدخل مكاناً طاهراً من آخر بلا طهارة، ولأنّ الحذاء كان إيرانياً فقد وجدت من المستحيل أنْ أدخل أرض العراق الطاهرة بحذاء إيراني. أُسرت يوم الأربعاء ٢٤ آذار/مارس ١٩٨٢ وعدت بعد ٢٣٨ شهراً إلى العراق في ٢٢/١/ ٢٠٠٢، وعادت الروح والحياة إلى شراييني، حسبت عند اللحظة التي وضعت قدمي فوق أرض العراق كأن الأرض قد توقفت عن الدوران حول نفسها أو حول الشمس، كانت فرحتي وفرحة أهلي عظيمة ولا توصف وذلك ما يجعل جرحاً كبيراً يندمل ولكن مسيرة الأيام تمضي بنا من دون أن تفرق بين يوم وآخر.

ملحق الوثائق

أولاً
قرار مجلس قيادة الثورة باعتبار اتفاقية الجزائر بين العراق وإيران ملغاة

استناداً إلى أحكام الفقرة (أ) من المادة الثانية والأربعين من الدستور المؤقت وبالنظر لإخلال الحكومة الإيرانية باتفاقية ٦ آذار ١٩٧٥ والبروتوكولات الملحقة بها نصّاً وروحاً، وذلك من خلال عدم احترامها لعلاقات حسن الجوار وتدخلها السافر والمتعمد في شؤون العراق الداخلية وامتناعها عن إعادة الأراضي العراقية المغتصبة والتي جرى الاتفاق على إعادتها إلى السيادة العراقية الكاملة بموجب الاتفاقية المذكورة، الأمر الذي يدلّ على أن الجانب الإيراني يعتبر اتفاقية آذار ١٩٧٥ في حكم المنتهية، لذلك قرّر مجلس قيادة الثورة بجلسته المنعقدة بتاريخ ١٧/٩/١٩٨٠ اعتبار تلك الاتفاقية ملغاة وإعادة السيادة الكاملة من الناحية القانونية والفعلية على شطّ العرب والتصرف وفقاً لذلك.

وعلى هذا الأساس فقد قرر مجلس قيادة الثورة ما يلي:

١ ـ إلغاء القانون رقم ٦٩ لسنة ١٩٧٦ حول تصديق معاهدة الحدود الدولية وحسن الجوار المعقودة بين حكومة الجمهورية

العراقية والحكومة الإيرانية والبروتوكولات الثلاثة الملحقة بها مع ملحقاتها الموقع عليها في بغداد بتاريخ ١٣ حزيران ١٩٧٥ والاتفاقات الأربعة اللاحقة لها مع ملحقاتها الموقع عليها في بغداد بتاريخ ٢٦ كانون الأول ١٩٧٥ مع الرسائل المتبادلة والمحاضر المشتركة.

٢ ـ ينفذ هذا القرار من تاريخ صدوره وينشر في الجريدة الرسمية ويتولى الوزراء المختصون تنفيذه.

صدام حسين
رئيس مجلس قيادة الثورة

ثانياً

خطاب الرئيس صدام حسين في الجلسة الاستثنائية للمجلس الوطني العراقي يوم ١٩٨٠/٩/١٧ حول إلغاء اتفاقية الجزائر لعام ١٩٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة، أعضاء المجلس الوطني:

بناء على قرار مجلس قيادة الثورة فقد دعوناكم إلى هذه الجلسة الاستثنائية لإطلاعكم على قضايا مصيرية تهمّ الوطن والأمة، إيماناً من قيادة الحزب والثورة بدوركم الفعال في تصليب الإرادة الوطنية والدفاع عن حقوق الشعب وسيادة الوطن، وتأكيداً للممارسة الديمقراطية التي نعتز بها باعتبارها ركناً أساسياً من أركان تجربتنا الثورة، وتعبيراً أصيلاً عن الصلة العميقة بين الجماهير وقيادة الحزب والثورة والمؤسّسات الوطنية القيادية.

أيها الأخوة:

إنَّ قضايانا ومشكلاتنا الوطنية والقومية لا تنفصل عن تاريخنا الوطني والقومي، القديم والمعاصر، فلا بد من دراسة تاريخنا،

واستنباط الدروس الأساسية منه في التعرف على الحقائق الجوهرية في الوقت الراهن.

لقد استخدم الاستعمار عبر العصور الماضية كل الوسائل المتاحة لديه من أجل إضعاف الأمة العربية وإخضاعها لسيطرته، واستغلال أرضها وخيراتها، وكان أخطر ما فعله الاستعمار البريطاني والفرنسي، والإمبريالية الأمريكية، وكل القوى الإمبريالية في العصر الحديث ضد الأمة العربية، إيجاد الكيان الصهيوني في ظل ظروف تاريخية معروفة، من أجل الإبقاء على تجزئة الأرض العربية وإضعافها وبالتالي تسهيل مهمة استغلالها والسيطرة عليها.

وبعد أن قام الكيان الصهيوني في أرض فلسطين المحتلة، تكونت له مصالحه وأطماعه وسياساته الخاصة التي يلتقي بعضها مع مصالح الإمبريالية وأطماعها وسياساتها في حين يكتسب البعض الآخر منها خصوصية معينة.

ولم يكن الكيان الصهيوني منذ قيامه وحتى الآن محمياً من قبل الإمبريالية العالمية فحسب، وإنما كانت الصهيونية العالمية الممتدة في بلدان عديدة في العالم، والتي تمتلك وسائل خطيرة للنفوذ والتأثير، تخدم هذا الكيان وتمده بأسباب القوة، وتسهل له مخططاته التوسعية والعدوانية ضد الأمة العربية، فلم يعد الكيان الصهيوني مخفراً أمامياً للإمبريالية فحسب، وإنما صار في الوقت نفسه مخفراً أمامياً أيضاً للصهيونية العنصرية، ولأطماعها ومصالحها العدوانية والتوسعية، في هذه المنطقة الحيوية من العالم.

لقد أدى الكيان الصهيوني مهمته خلال السنوات الثلاثين الماضية، منذ قيامه حتى اليوم، في تكريس التجزئة في الوطن

العربي، وفي إضعاف قدرات الأمة على النهضة والتقدم، كما قام حيثما أتيحت له الفرصة بالعدوان والتوسع في الأرض العربية.

غير أن الطليعة الواعية في الأمة العربية التي تتابع بحرص ووعي مخططات الصهيونية العالمية، وتناضل ضدها باتت تدرك بأن القوى الإمبريالية، والصهيونية، لم تكتف بالتجزئة التي فرضتها على الأمة العربية في بداية هذا القرن، وإنما صارت تعمل على إعادة تجزئة الأقطار العربية، بحيث لا يكون أحد أجزائها القائمة في الوقت الحاضر، أو أي جزأين متحدين منها يشكل أحدهما عمقاً سوقياً للآخر، ويقعان على حدود التماس مع الكيان الصهيوني، قادرين على تهديد الكيان الصهيوني أو منع خططه التوسعية وأطماعه في الوطن العربي.

وكان العراق في مقدمة الأقطار التي استهدفها هذا المخطط الصهيوني الاستعماري الخبيث.

ولقد اختير العراق لأسباب تتعلق بموقعه الجغرافي ولأسباب سياسية واقتصادية وتاريخية، وبسبب طبيعة شعبه المقاتل، ودوره الذي أدّاه عبر التاريخ في الدفاع عن كرامة الأمة العربية وسيادتها، ولقدرته على النهضة والتقدّم عندما تتوفر له المستلزمات المطلوبة. لقد سعى الاستعمار والصهيونية إلى تجزئة العراق عن طريق إثارة التعارض بين الخصوصيات المحلية فيه، وبين انتمائه القومي العربي، بإثاره النعرات الإقليمية الانعزالية في أوقات من تاريخه الحديث، كما سعيا إلى خلق التعارض بين انتماء أبنائه إلى العواطف والديانات وبين انتمائهم إلى الوطن والأمة.

لقد كان العراق، أيها الأخوة، موضوعاً على طاولة التقسيم قبل ثورة السابع عشر من تموز ١٩٦٨، فلقد كانت القوى الاستعمارية

والصهيونية العالمية تسعى بكل الوسائل الخبيثة إلى تجزئة العراق إلى دويلات صغيرة وحقيرة، لو قامت لا سمح الله لكانت بالتأكيد عاجزة عن صيانة الحرية والاستقلال والشرف، ولمنعت العراق من الإسهام الجدي والفعال في الدفاع عن سيادة الأمة وكرامتها، واسترداد حقوقها والإسهام في رسالتها الإنسانية، ولحالت بينه وبين النضال ضد الكيان الصهيوني وامتداداته، والقوى الاستعمارية التي تقف وراءه، وتمده بأسباب الحياة.

ومع أنّنا ندرك أن شعب العراق قد ولد وعاش قبل ثورة تموز، وناضل ببسالة ضد كل أشكال المؤامرات والمخططات الاستعمارية والصهيونية، إلا أن الحقيقة التاريخية تؤكد أنه لولا ثورة تموز ونجاحها العظيم في ترسيخ الوحدة الوطنية، وما أنجزته على صعيد البناء الوطني، في كل الميادين الأساسية، لغدت احتمالات تجزئة العراق أمراً ممكناً، لما كان يعانيه قبل الثورة من حالات الضعف والتفكك والاختراق، من جانب القوى والشبكات الاستعمارية والصهيونية.

وفي إطار هذه الخطة سعت الدوائر الاستعمارية والصهيونية قبل الثورة وبعدها بصورة خاصة إلى إمداد القيادة الرجعية العميلة في شمال الوطن، بكميات هائلة من الأسلحة الحديثة، وإمكانات مادية كبيرة، حتى غدت خطراً داهما، يهدّد وحدة العراق ومستقبله، ورسالته الوطنية والقومية، ولقد قامت إيران بهذا الدور الميداني المباشر في دعم القيادة العميلة، بإسناد وتشجيع من الإمبريالية الأمريكية والصهيونية العالمية، التي وضعت في هذه الخطة إمكاناتها العسكرية والمادية والسياسية والإعلامية، وأجهزة مخابراتها المتطورة، وقد خاض العراق بأبنائه البررة من كل الطوائف والديانات والقوميات صراعاً شرساً ضدّ هذه الزمرة

العميلة، وضدّ من يقف وراءها، واستبسل الجيش العراقي استبسالاً رائعاً في المعركة، مستلهماً في ذلك شرف العراق وواجب الدفاع عن وحدة الوطن وأمجاد الأمة العربية ورسالتها، وقدّم أغلى التضحيات، وضرب أروع الأمثلة في الشجاعة والصمود، كما تحمل شعبنا كل التضحيات التي تطلبتها المعركة التي امتدت اثني عشر شهراً بين آذار ١٩٧٤ وآذار ١٩٧٥، والتي خسر فيها الجيش العراقي أكثر من ستة عشر ألف إصابة بين شهيد وجريح، وكان مجمل خسائر الجيش والشعب فيها ستين ألف إصابة بين قتيل وجريح.

ورغم استبسال جيشنا في قتاله ضد العملاء وضد من يساندهم من الصهاينة والأمريكان والسلطات الإيرانية، وبرغم ما كان يتمتع به من معنويات عالية، لم يكن بالمستطاع تجاهل المستلزمات المادية والموضوعية في المعركة، فهذه المستلزمات تبقى مهمة وحاسمة في بعض الأحيان في تحديد الكثير من النتائج السياسية والعسكرية، وكانت المشكلة الأساسية في معركتنا مع التمرد العميل هي استمرار تدفق الأسلحة والأعتدة بصورة خاصة إلى ميادين القتال بما يتكافأ على أقل تقدير مع الأسلحة والذخائر والتجهيزات غير المحدودة التي كان يضعها النظام الإيراني تحت تصرف الزمرة العميلة المرتدة، نيابة عن الإمبريالية الأمريكية والصهيونية.

ولقد بلغ الوضع العسكري حداً خطيراً، فقد وضع النظام الإيراني أحدث الأسلحة وأكثرها تأثيراً في مواجهة قواتنا الباسلة، بل اشتركت القوات الإيرانية مرات عديدة في قتال مباشر ضد قواتنا، كما كانت تقوم بالمناورات والتحركات والحشود على طول حدودنا الشرقية لإلهاء جيشنا في جبهات متعددة، وإسناد الموقف

العسكري للزمرة العميلة، وكان الهدف من ذلك إلحاق الهزيمة بجيشنا الباسل، أو جعله عاجزاً عن مواجهة التمرد المشبوه عندما تنفد ذخيرته وتقل تجهيزاته، وبذلك يمكن تنفيذ المؤامرة الإمبريالية ـ الصهيونية في تجزئة العراق وإضعافه، وإنهاء دوره القومي، وقد بلغ الأمر درجة خطيرة فعلاً **عندما بدأت تجهيزاتنا وذخائرنا الأساسية تتناقص على وجه خطير، وبخاصة في الأسلحة الحاسمة والأكثر تأثيراً، فلقد أوشك عتاد المدفعية الثقيلة على الانتهاء، ولم يبق من القنابل الثقيلة في سلاح الطيران سوى ثلاث قنابل.**

إننا نعرف أيها الأخوة أن بيع السلاح في عالم اليوم، وبخاصة الحلقات المتطوّرة منه، لا يخضع لاعتبارات تجارية، وهو غالباً ما يوضع في إطار التقدير السياسي والاستراتيجية الموضوعة في دولة المنشأ. إن تسليح جيشنا يعتمد بالدرجة الأولى على الاتحاد السوفياتي، وقد قدم لنا الاتحاد السوفياتي عبر السنوات الماضية أسلحة متطورة، ولكن تلك هي الحقيقة في ذلك الوقت، وفي أثناء نضالنا وقتالنا ضد الزمرة العميلة المرتدة في شمال الوطن، **ونحن عندما نكشف هذه الحقيقة التاريخية لا نستهدف لوم أحد ولا إيجاد التبريرات وإنما نستهدف إيضاح حقيقة تاريخية ووضع المسؤولية في إطارها الكامل،** وقد أخفينا حقيقة النقص الفادح في عتادنا الحربي في حينها، وأبقينا هذه المعلومات في إطار محدود جداً على صعيد القيادة، لكي لا يتعرف الأعداء على هذا السرّ ويتمادوا في مؤامراتهم وعدوانهم، ولكي لا تضعف معنويات قواتنا التي كانت تقاتل ببسالة وشرف، بما تيسر لها من الأسلحة الأخرى، **ولكن هذه الحقيقة كان لها انعكاس مهم على صناعة قرارنا السياسي في الصراع الذي كان قائماً بيننا وبين إيران.**

هذا جانب من المسألة، أما الجانب الآخر أيها الإخوة فهو

ظروف المعركة التي خاضها العراق، أثناء حرب تشرين عام ١٩٧٣.

لقد اندلعت الحرب مع الكيان الصهيوني من دون إخبار العراق بها، ومن دون إتاحة الوقت الكافي له لتهيئة قواته المسلحة، وانسجاماً مع موقف العراق ومسؤولياته القومية كان لا بدّ له من المشاركة في هذه المعركة، أياً كانت دوافع الذين خطّطوا لها وطبيعتهم، ومهما كانت طبيعة علاقاته بالأنظمة التي شاركت في الحرب، وفي ذلك الوقت كانت قوات العراق تقف محتشدة على الجبهة الشرقية، تحسباً من العدوان الإيراني على الأرض الوطنية، ولكي يوفر العراق الظروف الملائمة لمشاركة قواته في المعركة مع العدو الصهيوني، أصدر مجلس قيادة الثورة، في السابع من تشرين الأول عام ١٩٧٣، بياناً يؤكد فيه استعداد العراق لحلّ المشاكل مع إيران بالطرق السلمية، ثم أرسل قواته الضاربة إلى سوريا، والتي كان لها شرف المساهمة الفعالة في حماية دمشق من السقوط، وإيقاف الزحف الصهيوني على الأراضي السورية، وكان إصدار البيان يعني من الناحية الواقعية استعداد العراق للنظر في مطالب إيران في شط العرب، وفي عام ١٩٧٥، عندما بادر الرئيس بومدين رحمه الله بالاتصال مع العراق وإيران، مقترحاً التفاوض المباشر بينهما في الجزائر حول القضايا المختلف عليها، وافقنا على هذه المبادرة، واعتبرناها فرصة سانحة لإنقاذ أمن العراق ووحدته الوطنية وأمن الجيش العراقي، وعلى هذا الأساس اتخذت قيادة الحزب والدولة قراراً بقبول التفاوض مع إيران، وقبول خط «التالوك» كخط حدود في شط العرب، مقابل تراجع إيران عن الأراضي العراقية التي اغتصبتها في عهود سابقة خلافاً لبروتوكول القسطنطينية لعام ١٩١٣، ومحاضر جلسات قوميسيري الحدود

الملحقة به، لتأشير الحدود بين العراق وإيران لعام ١٩١٤، ومنها منطقة «زين القوس» و«سيف سعد» التي حررتها قواتنا قبل أيام، والامتناع أيضاً عن تقديم المعونات العسكرية وغيرها من المعونات للزمرة العميلة المرتدة في شمال الوطن.

وعلى هذا الأساس تمّ التفاوض مع إيران، وتم توقيع اتفاقية ٦ آذار عام ١٩٧٥.

لقد كانت تلك الاتفاقية في حينها حدثاً مهماً، فبعد إعلانها مباشرة انهارت قوات التمرد العميل، واستسلم المتمردون، وبلغت الأسلحة التي سيطر عليها الجيش (١٥٢,٠٠٠) قطعة سلاح، عدا الأسلحة الإيرانية الكثيرة التي سحبها الإيرانيون خلال أسبوعين من المهلة التي أعطيت لسحبها، ومع ذلك، وبعد انتهاء مدة الأسبوعين، بقي عدد كبير من المعدات والأسلحة الإيرانية، التي اضطر الجيش الإيراني إلى تركها، فاستولى عليها جيشنا.

أيها الأخوة:

لقد كانت اتفاقية آذار ١٩٧٥ في حينها قراراً شجاعاً، وحكيماً، قراراً وطنياً وقومياً.

إنَّ الشجاعة لا يعبّر عنها بالاستخدام المقتدر للبندقية والسيف في مواقع المواجهة الأمامية للعدو في الدفاع أو الهجوم فحسب، وإنما يعبر عنها كذلك، ومن موقع القيادة بوجه خاص، بالقرار السياسي الشجاع، في الدفاع عن الشعب والأمة، والحفاظ على السيادة، عندما لا يكون السيف وحده، والبندقية وحدها، قادرين على تحقيق هذه الأهداف.

لقد أنقذ هذا القرار في ضوء تلك الظروف العراق من مخاطر

جدية كانت تهدد وحدته وأمنه ومستقبله، وأتاحت الفرصة لشعبنا للمضي في ثورته، والمضي في عمليات البناء والنهوض، والوصول إلى مستوى عال من القوة والتقدم والرفاهية، يحفظ شرف العراقيين وسيادتهم، ويضع العراق القوي المقتدر على طريق خدمة الأمة العربية ورسالتها العظيمة.

ولم يكن القرار استسلاماً لواقع مرير «رغم أنَّ الواقع كان مريراً وخطيراً» وإنما كان اعتلاء لصهوة الواقع بفعل قيادي مقتدر ومتوازن مع حسابات الظروف والإمكانات.

لقد كانت اتفاقية آذار بنت ظروفها، وقد فهمها شعبنا، واعتبرها ـ في إطار تلك الظروف ـ انتصاراً عظيماً، واستقبلها بفرح عظيم، ورغم أنَّ جيشنا كان يقاتل ببسالة في الخنادق، ولا يعرف الحقائق المريرة التي أشرنا إليها عن النقص في عتاده الحيوي، وكان يلحق بالمرتدين الخونة الضربات الموجعة، فقد استقبل الاتفاقية هو الآخر بفرح عظيم، لأنّه أدرك مغزاها بالنسبة لوحدة الوطن ومستقبله، وقدر ظروفها الموضوعية.

أيها الأخوة:

بعد توقيع اتفاقية آذار جرت مفاوضات واتصالات عديدة من أجل وضع بنودها موضع التطبيق وبخاصة تلك التي تتعلق بتخطيط الحدود وتثبيت الدعائم الحدودية والشؤون الأخرى ذات الطابع الفني، وقد تم توقيع البروتوكولات الأساسية الثلاثة المستندة على الاتفاقية وهي بروتوكول تحديد الحدود النهرية، بروتوكول إعادة تخطيط الحدود البرية، وبروتوكول الأمن على الحدود، وقد استفاد الجانب الإيراني في وقت مبكر من اتفاقية الحدود النهرية في شطّ العرب، بينما تطلب الأمر وقتاً إضافياً بالنسبة لتطبيق البروتوكول

الخاص بالحدود البرية، وكان ذلك أمراً اعتيادياً، وقد تعطلت إجراءات تسليم الأراضي فيما بعد بسبب الظروف التي كان يعيشها النظام الإيراني السابق عامي ١٩٧٨و ١٩٧٩، ثم جاءت السلطة الإيرانية الجديدة وبقيت أراضينا تحت سيطرة الطرف الآخر، وقد قدّرنا بأن النظام الجديد يحتاج إلى زمن لكي ينفذ الالتزامات التي تترتب عليه بموجب الاتفاقية، غير أننا ومنذ اليوم الأول لوصول المجموعة الحاكمة في إيران إلى السلطة، لمسنا منها مواقف عدوانية، وإخلالاً بعلاقات حسن الجوار، وصرنا نسمع منهم التصريحات المتلاحقة عن عدم التزامهم باتفاقية آذار، وفي وقت مبكر جداً، خرقت المجموعة الحاكمة في إيران بنداً أساسياً من بنود الاتفاقية، عندما استدعت قيادة التمرد العميل من أمريكا إلى إيران، وكان العميل البارزاني وأولاده يتهيأون للعودة إلى إيران، واستئناف نشاطهم العدواني ضد العراق، ولكنه توفي عند أولياء نعمته الأمريكان، فعاد أبناؤه وقادة التمرد العميل إلى إيران واتخذوها منطلقاً لتهديد أمن العراق ووحدته الوطنية، بإسناد صريح من السلطات الحاكمة فيها.

إن كل تصرفات حكام إيران منذ وصولهم إلى السلطة وحتى اليوم تؤكد إخلالهم بعلاقات حسن الجوار، وعدم التزامهم ببنود اتفاقية آذار، لذلك فإنهم يتحمّلون المسؤولية القانونية الكاملة عن اعتبار هذه الاتفاقية بحكم المنتهية.

إن الاتفاقية ـ برغم الظروف الصعبة التي أحاطت بالعراق عند توقيعها ـ كانت تستند على عناصر متوازنة، وقد اعتبر الإخلال بأي عنصر من عناصرها إخلالاً بروح الاتفاقية.

ولما كان حكام إيران قد أخلوا بهذه الاتفاقية منذ بداية

عهدهم بتدخلهم السافر والمقصود في شؤون العراق الداخلية، وإسنادهم، كما فعل الشاه من قبل، وإمدادهم لرؤوس التمرد المدعوم من أمريكا والصهيونية، ولامتناعهم عن إعادة الأراضي العراقية التي اضطررنا إلى تحريرها بالقوة، فإنني أعلن أمامكم أننا نعتبر اتفاقية ٦ آذار لعام ١٩٧٥ ملغاة (وقد اتخذ مجلس قيادة الثورة قراره بذلك) وهكذا ينبغي أن تعود العلاقة القانونية في شط العرب إلى ما كانت عليه قبل ٦ آذار ١٩٧٥، ويعود هذا الشط كما كان عبر التاريخ عراقياً وعربياً، بالاسم، والحقيقة، مع كلّ حقوق التصرف بالسيادة الكاملة عليه.

أيها الإخوة:

لقد أثبت العراق علاقاته مع العالم أجمع أنه يلتزم التزاماً شريفاً بكل تعهداته، كما أثبت أيضاً أنه لا يمكن أن يقبل بأي شكل من أشكال التهديد والعدوان والانتهاك لسيادته وكرامته، وأن شعب العراق وجيش العراق مستعدان أتمّ الاستعداد لخوض كل المعارك الباسلة مهما غلت فيها التضحيات من أجل الحفاظ على الشرف والسيادة.

لقد اتخذنا قرارنا التاريخي باستعادة سيادتنا الكاملة على أرضنا ومياهنا، وسنتصرف بقوة واقتدار ضد كل من يتحدى هذا القرار المشروع.

إننا نؤكد لكم وللعالم أجمع كما أكدنا في السابق أننا نطمح إلى إقامة علاقات حسن الجوار مع البلدان المجاورة، ومنها إيران بالذات، وليست لدى العراق أية أطماع في الأراضي الإيرانية، كما أننا لا ننوي إطلاقاً شنّ الحرب على إيران أو توسيع دائرة الصراع معها خارج نطاق الدفاع عن حقوقنا وسيادتنا، وإننا نقول

لأولئك الذين أعماهم الغرور في إيران، وساقتهم دوافعهم المشبوهة، ومن يحركهم بالسرّ والعلن، من قوى الإمبريالية والصهيونية والانتهازية: إن عليهم أنْ يستفيدوا من دروس الأيام الماضية عندما انتزع جيشنا الباسل «زين القوس» و«سيف سعد» ومخافرنا الحدودية انتزاع الرجال الشجعان المؤمنين، وندعوهم إلى الاستجابة لصوت الحق والعقل، الداعي إلى الحفاظ على علاقات حسن الجوار، مع العراق والأمة العربية، والتخلي عن كل شبر اغتصبوه من أراضي العراق والأمة العربية، وبذلك وحده يمكنهم أن يخدموا شعبهم إذا كانوا مخلصين له حقّاً، وبذلك وحده يثبتون أنهم ثوار، وليسوا عملاء للقوى الاستعمارية والصهيونية، وعنصريين متخلفين يكنون الحقد ويضمرون العداء للأمة العربية ويسعون إلى إثارة الفتنة بين صفوفها، وتجزئتها، وإضعافها، تطبيقاً للمخطط الصهيوني.

إننا نقول أمامكم وأمام الأمة العربية والعالم أجمع بأننا كشفنا الستار المزيف الذي جاءت به الزمرة الحاكمة في إيران. إن هذه الزمرة قد استخدمت ستار الدين استخداماً مزيفاً للتوسع على حساب السيادة العربية، والمصالح العربية العليا، وإثارة الفتن والانقسامات بين أبناء الأمة، برغم الظروف الصعبة التي تجتازها الأمة العربية، والنضال الذي تخوضه ضد العدوان الصهيوني والقوى الإمبريالية.

إنَّ ستار الدعوة الدينية ما هو إلا ستار لتغطية العنصرية الفارسية والحقد الدفين على العرب، تستخدمه هذه الزمرة لإذكاء روح التعصب والحقد والتفرقة بين شعوب المنطقة، خدمة لمخطط الصهيونية العالمية، سواء علمت بذلك أم لم تعلمه.

إنَّ بعض الأوساط التي تحركها دوافع شتى لا نريد الخوض فيها الآن تقول بأن الخميني يختلف عن الشاه، فلماذا تتعاملون معه هكذا؟ ونحن نقول لقد تمنينا بصدق أن يكون الخميني مختلفاً عن الشاه في مواقفه إزاء قضايانا الوطنية والقومية، وإزاء احتلال الأرض العربية بوجه خاص، وأعطيناه الزمن الكافي ليثبت ما إذا كان مختلفاً عن الشاه، ولكنه هو ومن يتحمل معه مسؤولية الحكم في إيران اليوم قد أثبتوا بأنهم لا يختلفون عن الشاه في أطماعهم التوسعية وفي مواقفهم العنصرية من العرب، فلقد تمسكوا بخلاف الحق بكل الأراضي التي احتلها الشاه في العراق، كما تمسكوا باحتلال الجزر العربية الثلاث طنب الكبرى، وطنب الصغرى، وأبو موسى، وجددوا حتى الدعوات التوسعية التي تخلى عنها الشاه تحت ضغط الإرادة العربية، وبالنسبة للعراق فقد رفضوا حتى إعادة الأراضي التي وافق الشاه على إعادتها بموجب اتفاقية ١٩٧٥.

أيها الأخوة:

إننا عندما نتحدث بألم عن عنصرية النظام في إيران وعن مواقفه العدوانية لا ننسى أن نذكر مواقف الخيرين من أبناء الشعوب الإيرانية، ومنهم الفرس، فنحن نكن لهم عواطف المودة، ونقيم معهم علاقات الصداقة، ونتمنى لهم الخلاص من المحنة التي يجتازونها اليوم.

إننا نتوجه بالتحية الحارة إلى إخواننا عرب الأحواز، الذين يعانون من ظروف التنكيل والاضطهاد في ظلّ نظام خميني أكثر ممّا عانوا في ظلّ نظام الشاه، ونحيي المناضلين الشرفاء من الأكراد في إيران وكل الشعوب الإيرانية الصديقة، ونؤكد لهم أننا لا نطمع في شبر واحد من أرضهم، ولا نحمل لهم غير عواطف المحبة والود.

وإننا نأمل أن تكون إيران الجارة حرة ومستقلة، تسهم بدورها الإيجابي في المنطقة، وفي حركة عدم الانحياز، وفي نضال الشعوب من أجل الحرية والاستقلال والتقدم.

أيها الإخوة:

إنّنا نؤكد للعالم أنَّ العراق الذي كان يقوم بإدارة شؤون الملاحة في شط العرب طبقاً لحقوق السيادة الكاملة قبل آذار ١٩٧٥ ، قد أثبت قدرة وكفاءة حقيقية ومسؤولية عالية في ذلك، وأن العراق اليوم أكثر قدرة على تأدية واجباته في هذا الشأن، وأننا نأمل من جميع الأطراف المعنية ومنها الجانب الإيراني، أن تحترم سيادة العراق على شط العرب وأن تتعامل بموجب ذلك.

أيها الأخوة:

سألني أحد الرفاق في أحد الاجتماعات الحزبية: ما هو «الاحتياطي المضموم» الذي تحتفظون به لمواجهة العداء العنصري من النظام الجديد في إيران؟ وقد قلت لهذا الرفيق: إن القيادة قد عودت الشعب في العراق أن يكون لديها دائماً «احتياطي مضموم» لاستخدامه في اللحظات التاريخية لمفاجأة الأعداء، ولكنني أقول لكم وللعراقيين جميعاً وللشرفاء من أبناء الأمة العربية: إنَّ الاحتياطي الأساسي «المضموم» والمكشوف الذي فاجأنا به مخططات العملاء المشبوهين في إيران، الذين ينطلقون من عقليات متخلفة، ودوافع عنصرية، والذي سنواجه به كلّ المخططات المعادية الاستعمارية والصهيونية والعنصرية، هو الشعب العراقي العظيم بروحه الجدية، واستعداده اللامحدود للتضحية والبذل، وتمسكه القوي بحقوقه المشروعة، واستلهامه لتراثه التاريخي العظيم، تراث الرسالة الإسلامية العظيمة، وتاريخ الأمة العربية

المجيدة، وأمجاد العراق العظيم، وهو جيشنا العراقي الباسل الذي انبثق من هذه الروح، والذي يعيش مبادئ الثورة ويتمثل في حياته ومعاركه تاريخ أمته المشرق، وتاريخ العراق المجيد.

إن «الاحتياطي المضموم» والمعروف هو أنتم، وكل العراقيين الشرفاء البواسل من الضباط والجنود في جيشنا، وأبناء شعبنا رجالاً ونساء وشيوخاً وأطفالاً، هو الروح الشريفة للعرب الذين يناضلون ضد العدوان والاغتصاب والاستغلال والتبعية أينما كانوا، والذين يرفضون الرضوخ للاحتلال الفارسي البغيض، مثلما يرفضون ويناضلون بكل قوة وبسالة الاحتلال الصهيوني الغادر لفلسطين والأجزاء العربية الأخرى.

أيها الإخوة:

أحييكم تحية الشرف والعهد تحية طيبة، وأشكركم على حضوركم هذه الجلسة الاستثنائية، وإنني لواثق أنَّ شعبنا العظيم الذي تحمل مسؤولياته الوطنية والقومية عبر التاريخ بكفاءة واقتدار وشجاعة سيواصل هذا النهج، وسيعزز دوره الإيجابي الفعال في هذه المنطقة أو على الصعيد الدولي.

سيبقى العراق دائماً قلعة فولاذية صامدة بوجه كلّ غاصب ومعتد، وسيبقى العراق دائماً مركز إسناد لكل قوى الحرية والتقدم والخير في العالم، سيبقى العراق دائماً قلعة للأمة العربية... والمجد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أهم البيانات التي أصدرتها القيادة العامة للقوات المسلحة

(١)
بيان رقم ١

والذي أصدرته القوات المسلحة العراقية بعد الضربة الجوية التي وجهها سلاح الجو العراقي لأهداف عسكرية في إيران يوم ٢٢/ ٩/ ١٩٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

بناء على الظروف الدقيقة التي أحاطت بالموقف والتي أوضحها بيان مجلس قيادة الثورة الصادر هذا اليوم والذي أكد استمرار السلطات الرجعية الإيرانية باستخدام قواتها المسلحة ضد الأهداف الحيوية العراقية العسكرية والمدنية، فقد قامت قواتنا الجوية في الساعة ١٢:٠٠ من هذا اليوم ٢٢/٩/ ١٩٨٠ بالتعرض على القواعد والمطارات العسكرية في عمق الأراضي الإيرانية، وألحقت أضراراً بالغة بالأهداف العسكرية التالية:

١ ـ قاعدة مهر آباد الجوية قرب طهران.

٢ ـ قاعدة شيراز.

٣ ـ قاعدة بوشهر.

٤ ـ مطارات ديزة فول.

٥ ـ قاعدة شاروخي في همدان.

٦ ـ قاعدة خاتمي في أصفهان.

٧ ـ مطار تبريز العسكري.

٨ ـ مطار أوميدلي العسكري في أغا جاري.

٩ ـ المطارات العسكرية التابعة لقيادة كرمنشاه.

١٠ ـ مطار الأحواز في عربستان.

أما وحدات صواريخنا «أرض ـ أرض» فقد أصابت أهدافها بإصابات دقيقة وألحقت أضراراً فادحة بقواعد التموين الإيرانية الرئيسية في ديزة فول.

كانت خسائرنا..

١ ـ طائرة قاصفة سقطت بسبب خلل فني حدث داخل الأراضي الإيرانية حيث قفز أفراد طاقمها بالمظلات والقيادة العامة تؤكد مسؤولية السلطات الإيرانية عن سلامتهم.

٢ ـ طائرة مقاتلة أصيبت بالأسلحة الإيرانية واستطاع قائدها العودة إلى أرض الوطن إذ قفز بالمظلة سالماً وتحطمت الطائرة.

كما أسقطت مقاوماتنا الأرضية بعد ظهر أمس ستّ طائرات حربية إيرانية، وتم أسر ثلاثة من الطيارين الإيرانيين.

القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية

٢٢/ أيلول/ لسنة ١٩٨٠

(٢)

بيان ٣١٤٧ في ١٨/ ٤/ ١٩٨٨

وفيما يلي بيان القيادة العامة للقوات المسلحة المرقم (٣١٤٧) والصادر في ١٨/ ٤/ ١٩٨٨ والذي زفت فيه بشرى تحرير الفاو:

«بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الشعب العراقي العظيم، يا أبناء أمتنا العربية المجيدة، أيها الرجال النشامى في قواتنا المسلحة الباسلة، إنّه يوم مجيد هذا اليوم غرة شهر رمضان المبارك، إنّه يومكم.. يوم العراقيين يوم العرب.. هذا اليوم الذي بارك الله سبحانه جهاد القوات المسلحة وأظهر الحق على الباطل.. إنّ الباطل كان زهوقاً.

إنّه يوم من أيام الحق المتميزة وإنّه علم من أعلام المجد، يرف فوق هاماتكم، يبارك الله فيه مسعاكم وصبركم وتضحياتكم.

أيها المؤمنون العراقيون، لقد نصركم الله ﷻ ودخل أبناؤكم بعد أنْ حفظهم من كل مكروه مرفوعي الهام، مدينة الفاو العزيزة، محررين ترابها من دنس الغزاة الطامعين، راكلين بأقدامهم كل أثر من آثار الغزاة الذين لفظتهم صيحات المحررين ونيرانهم خارج أرضنا الطاهرة، يلعنون حظهم ويلعقون جراحهم على الضفة الأخرى الشرقية من شط العرب.. مبتعدين عن خط المواجهة مع العراقيين وغضبتهم، ويا ويلهم من عذاب الله ومن غضبة الحليم إذا غضب.

فلنردد معاً الله أكبر ..الله أكبر ..الله أكبر والشكر والحمد لله على نصره المبين.

وفي هذا اليوم المبارك وفي غمرة أفراحه وبعد أنْ أدينا جزءاً من واجبنا شاكرين الله على نصره لا بد أنْ نؤكد على جملة من

الحقائق ومن القضايا التي لا بد من التأكيد عليها ويقع في مقدمة ذلك القول بأنّ للحرب الطويلة قانونها.. وإنّ إفرازاتها ومن بينها المكاسب العسكرية على الأرض لا تأخذ طابع الثبات المطلق إلا بقدر ارتباطها بحقائق أكبر منها، ومن ذلك مدى مشروعية التصرف مقاساً على حقوق السيادة لأطرافها ومشروعية موقفهم من هذا أو ذاك من القوانين الإنسانية لهذا العصر.

وعلى أساس هذا الفهم والإيمان به حذّرنا حكام إيران منذ البداية بأنّ أوهام التوسع على حساب العراق والأمة العربية والأوهام الإمبرطورية قد عفا عليها الزمن.. وأنّ إرادة العراقيين وبتوفيق من الله ستكون قادرة على إفشال أحلامهم وأطماعهم الشريرة هذه.. وصموا آذانهم فلم يسمعوا بعد أنْ تيبست ضمائرهم وتيبس في نفوسهم كل منبت طيب.

وقد كبرت أطماعهم وازدادوا غروراً وصلفاً على صلفهم وغرورهم عندما احتلوا الفاو بعد معارك شباط وآذار من عام ١٩٨٦بموجب تسهيلات وخدمات في الاستشارة والعمل الاستخباري، ونحن نعرف وغيرنا يعرف من أين وكيف قدمت لهم، وقلنا لهم في حينه: لا تغرنكم هذه النتيجة المجتزأة عن النظرة إلى مجرى الصراع بأفق أبعد من هذا وبسعة أوسع مما تنظرون، وعليكم أنْ تتذكّروا ولا تنسوا أنّ احتلال الفاو لا يعني احتلال العراق.. وأنّ بغداد والموصل وأربيل والنجف وغيرها من المدن العراقية تبعد مئات الكيلومترات عن الفاو.

والأهم من كل الحقائق الجغرافية والنتائج المجتزأة في القتال هو أنّ إرادة العراقيين صلبة بما فيه الكفاية.. وأنّ إيمانهم بحقوقهم واستعدادهم للتضحية حفاظاً عليها أعمق مما يتصورون، وأنّهم

يؤمنون بأنّ الله سينصرهم عليكم لأنّهم يقفون مع الحق في الوقت الذي يغويكم الشيطان ويدفعكم لتكونوا طائعين له من دون الله.

وقلنا لهم بأنّنا قادرون على أنْ نحرر الفاو وأية قرية أو مدينة حدودية أو أي شبر من الأرض تحتلونه ولم يسمعوا نصيحتنا ولم يركنوا إلى الحق والعدل، فأعمى الله بصرهم بعد أنْ ضلوا طريق البصيرة فاتكأوا على جملة من الملموسات المجتزأة من مجرى الصراع وفي مقدمة ذلك الفاو.

ولذلك فإنّنا قد لا نستطيع أنْ نتكهن بكل الحقائق المرة التي سيواجهون بها أنفسهم وشعبهم والعالم بعد أنْ أخليت ظهورهم بتحرير الفاو.

ولكنّنا في كل الأحوال لن ننسى الحقائق التي أسلفنا، ولن يغوينا الشيطان كما أغواهم واستوطن عقولهم ولن نصاب بالغرور.. وسنبقى شاكرين لله على نصره.

وكتعبير عن كل ذلك فإنّنا نؤكد أنّ لا طريق للحياة الصحيحة غير السلام، وإنّ إقرار هذا يستوجب إقرار أنّ لكل من العراق وإيران شعباً وأنظمة فلهما الحق في ما يختارانه، ولهما الحق في سيادتهما على أرضهما ومياههما وأجوائهما بموجب القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة، ولهما الحق في العيش والاستقرار في المنطقة من دون أنْ ينغص غازٍ أو محتل هذه المبادئ أو يتجاوزها.

وإنّ الامتناع عن التدخل في الشؤون الداخلية للغير كبادرة حسن نية.. لا بد من تأكيدها قولاً وتصرفاً لتخدم استقرار دول المنطقة وفي مقدمتها دول الخليج العربي.

وإنّنا في العراق نؤمن إيماناً عميقاً بكل هذا، لا يدفعنا بعيداً عنه انتصار نسجله على الغزاة هنا أو هناك.

ولذلك لا طريق غير هذا الطريق وغير احترام الإرادة الدولية والمجتمع الدولي، ومن بين ذلك الموافقة على قرار مجلس الأمن الدولي (٥٩٨) بصورة علنية وواضحة ومن دون لفّ ودوران وبدون شروط وحسب تسلسل فقراته العاملة.

اللهم إني بلّغت

الله اشهد

مبروك نصر العراقيين

مبروك نصر العرب

مبروك نصر القوات المسلحة

والله أكبر وليخسأ الخاسئون»

القيادة العامة للقوات المسلحة
١٨/ نيسان/ ١٩٨٨م
الموافق ١ رمضان ١٤٠٨هـ

(٣)

وفيما يلي نص البيان العسكري الصادر عن القيادة العامة للقوات المسلحة في ٨/٨/١٩٨٨ والمسمى ببيان البيانات:

«أيها الشعب العراقي العظيم

يا أبناء أمتنا العربية المجيدة

أيها الرجال النشامى في قواتنا المسلحة...

إنّه يومكم، إنّه يوم الأيام، وهو في ذات الوقت بيان كل البيانات، في هذا اليوم صدر إعلان وقف إطلاق النار، وقد حدد

يوم الوقف الرسمي لإطلاق النار وساعته في العشرين من آب/ أغسطس ١٩٨٨، وقد جاءت موافقة إيران على هذا بعد قتال استمر ثماني سنوات قاوم فيها شعب العراق وقواته المسلحة الباسلة قوى البغي والعدوان بكل ما تجمع لديها من إمكانات فنية ومن خبرة الدجل والشعوذة في إطار تعبئة الشرّ واستنفار الحقد في أعمق مكامنه حتى ظن الأشرار وظن معهم كثيرون أنّ احتلال العراق والإطلالة منه ومن ركام الاحتلال على كل الوطن العربي قد يكون مجرد زمن ومجرد قبول درجة معينة من الخسائر وتجميع ما يقتضي من إمكانات وترتيب ما يستوجب من تحالفات، إلا أنّ الله وهمم الغيارى أبناء العراق رجالاً ونساء مدعومين بجهد ودعاء كل الخيّرين قد خيبت آمالهم ووصل حالهم إلى ما وصل إليه بعد طول منازلة وقد وضعتهم معارك رمضان المبارك وعمليات: «توكلنا على الله» وعمليات «محمّد رسول الله» في موضع الإعياء والعجز العام بصورة رسمية ومعلنة عن إمكانية تنفيذ شعارات التوسع والعدوان، وجاء قرار موافقتهم على وقف إطلاق النار كتعبير عن هذه الحقيقة بعينها...

إنّه الانتصار العظيم الذي يسجله العراق اليوم باسم كل العرب، وباسم كل الإنسانية، إنّه انتصار للحاضر والماضي والمستقبل، لذلك فإنّنا ندعوكم لتحتفلوا به كانتصار عظيم وبغض النظر عما ستكون عليه نتائج ما ينتظرنا من تطبيق للفقرات الأخرى من قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ والتي سوف لا تنفصل نتائجها عن هذه الحقائق وعن يقظة شعبنا واقتداره المتنامي ودعم العرب لهم بتفاعل أخوي عظيم من المحيط إلى الخليج، احتفلوا أيها العراقيون الأماجد... احتفلوا الآن بانتصاركم... احتفلوا بيوم الأيام... وليعبر كل عن الفرحة ويحتفل بطريقته... احتفلوا أيها

العرب إنّه يومكم... يوم الدعاء النقي ويوم الأصوات الشريفة... ويوم الأيدي البيضاء التي امتدت بالعون الأخوي إلى حيث البطولة والجهاد الملحمي، ويوم كل طلقة وقذيفة وسلاح وذراع وجدت طريقها في جبهة المنازلة إلى جانب قدرات العراق ورجال العراق... إنّه يوم كل الشرفاء في العالم من محبي السلام والحرية والتطلع الشريف والحضاري إلى أمام... وإنّه يوم كل إيراني رفض الحرب واكتشف وإنْ بعد حين أنّ طريق السلام واحترام الجيران وإرادة الأمم والشعوب هو الطريق الذي لا طريق غيره إلا طريق الهزائم والدمار والمهانة... وأنتم أيها الرجال في قواتنا المسلحة احتفلوا مع شعبكم وأمتكم أيضاً وبطريقتكم الخاصة.. من دون أن تفقد عيونكم اتجاهها إلى الشرق لحماية أرضكم... احتفلوا بنصركم الرسمي المبين، احتفلوا بقطوف أتعابكم وثمار عرقكم ودمائكم وما قاسيتم... احتفلوا أيها الشيوخ والشباب... أيتها النساء وأيها الرجال... أيها الأطفال يا زينة الحياة... وأنتم أيها الشهداء يا أسياد النصر وساريته وعنوانه... أيها الأكرمون إنّكم يقيناً ستحتفلون على طريقتكم الخاصة، لأنّ أرواحكم الطاهرة حفظت العراق ومنعت المعتدين من أنْ يدوسوا أرض العرب بعد أرضكم ومقدساتكم... إنّ أرواحكم بيننا وإنّنا نعلن عهد أصحاب العهد بأنّنا سنحفظ الأمانة وسنصون العهد... والله أكبر ...الله أكبر، والحمد لله على نصره المبين.... وليخسأ الخاسئون».

القيادة العامة للقوات المسلحة

بغداد في ٨/ آب/ ١٩٨٨م

الموافق ٢٥/ ذي الحجة/ ١٤٠٨هـ

(٤)

تصريح رسمي باسم القيادة العامة للقوات المسلحة

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الشعب العراقي العظيم:

يا أبناء أمّتنا العربية المجيدة:

أيها الصناديد في قواتنا المسلحة الباسلة:

هذا يوم آخر من أيامكم وعنوان آخر لاقتداركم يتحقق، إنه اليوم الذي يبدأ في صباح يوم غد السبت ١٩٨٨/٨/٢٠ ميلادية، الموافق الثامن من محرم ١٤٠٩ هجرية، ففي هذا اليوم وفي تمام الساعة السابعة من صباحه البهي سيحل موعد وقف إطلاق النار الكامل والشامل في البر والبحر والجو بين العراق وإيران، وستلتزم قواتنا المسلحة به التزاماً مسؤولاً وواعياً، وبه ستبدأ أول خطوة جوهرية على طريق السلام، ليخطو على الطريق خطوات واثقة وصحيحة، تضع العلاقات بين العراق وإيران في إطار جديد غير إطار شعارات التوسع والعدوان والأحقاد والشر، التي أشعل بها النظام الإيراني فتيل الحرب في وقبل الرابع من أيلول ١٩٨٠، واستمر أوارها طيلة ثماني سنوات، وإنكم لتعرفون أيها العراقيون الأماجد، وأيها العرب الشرفاء، أن هذه الخطوة الجوهرية التي فتحت المجال لاحتمالات سلام دائم وشامل، ما كانت لتتحقق لولا بطولة العراقيين التي تغلبت على كل حسابات الشر وتوقّعاته، ولولا مهارتهم الفائقة في شتى مناحي الحياة الفكرية والعملية وفي مختلف ميادينها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، إلى جانب ميادين الاقتدار والمهارة العسكرية التي كانت تلخص اقتدار العراقيين في كل ما ذكرنا من ميادين، في الوقت الذي تشكل عنوانها

وواجهتها الأمامية في المنازلة، وإننا وفي الوقت الذي نستذكر كل ذلك، لا بد أن نتعامل ونتفاعل مع أي واقع جديد يترشح عن إيران، على أن يكون نقيضاً لتصرفات الغدر والدسيسة والوقيعة والعدوان وشعارات التوسع والتدخل في الشؤون الداخلية التي أشعلت بها إيران فتيل الحرب، غير أن التجربة المريرة وبحر الدماء المتلاطم الذي سببه لبنائنا عدوان إيران، يجعلنا مثلما تقتضي مسؤوليتنا وبما يلتقي بخواص الشعب الواعي أن لا نتعامل على أساس التمنيات، وإنما على الواقع لكي لا يخدعنا أحد ويثلم انتصارنا العظيم.

أيها العراقيون والعرب الأماجد:

إن فرحتنا وسعادتنا أيها الأخوة وهي جزء من فرحتكم وسعادتكم، غامرة وعظيمة بيومكم هذا الذي يبتدئ بحلول الساعة السابعة من صباح الغد، ومن حق العراقيين في العراق وخارجه، ومن حق العرب في الوطن العربي الكبير وخارجه أن يعبروا عن فرحتهم وأن يحتفلوا بنصرهم هذا الذي حققه لهم أبناؤهم الغيارى في العراق، ومثلما فعلنا في ليلة ٨ ـ ٨/٩ والأيام التي تلت، على الجميع أن يحتفل ويعبر عن فرحته، كل بطريقته الخاصة، عدا إطلاق العيارات النارية لكي لا يتلطخ ثوب زفاف نصركم وفاتحة السلام بدم طهور من أبنائكم جراء الخطأ الذي غالباً ما يقع به الرصاص الأعمى.

أيها الإخوة العرب.. حيثما كنتم:

أيها العراقيون الأماجد:

عندما نحتفل بأيام النصر وهي زرع سواعد العراقيين الذين ارتوت أشجاره قبل أن تثمر هذا النصر بدمهم الطهور، فإننا نعرف ولا نحتاج إلى ما يذكرنا بأن الحرب لم تنته بعد من الناحية الرسمية بيننا وبين إيران، وأن وقف إطلاق النار فيها قد يفضي إلى ما يحقق

السلام الكامل والشامل وهو غايتنا، أو قد ينكص الناكصون عن السعي إليه، وأن كل هذا يقتضي التحسب وعدم الوقوع في الغفلة والتراخي.. غير أننا نعرف بعمق حقيقة شعب العراق ونعرف أن هذا الشعب ابن الحضارات التي علمت الإنسانية الكثير من مستلزمات التعامل الصحيح مع الحياة ومع الإنسان الباني للحياة، لا يمكن أن يقع في موقع القصور تجاه واجباته، وأن التحسب والاستعداد لكل ما يقتضي في الحياة ولكل ما يعترض طريقها هو حالة ترافق الفرح والابتهاج والمسرة، ولا تناقض عند العراقيين بين أن يفرحوا ويحتفلوا ويبنوا، وبين استعدادهم ليدافعوا عن الفرح والسعادة والبناء بسلاحهم المقتدر عندما يقتضي الأمر ذلك، بل إننا نعرف بأن من يتعامل مع الحياة بفرح وسعادة ويحتفل بالنصر والسلام، إنما هو قادر أكثر من غيره على مجابهة من يحاول تعكير السعادة واعتراض الحياة ووأد الفرح وتخريب السلام، إن الذين ينبشون القبور ويعمقون حفر الموت، هم الأكثر وهناً أمام محبي الحياة وأصحاب المبادئ الأصيلة، لأنَّ أصحاب الموت لا يقدرون على صنع الحياة، فيما يصنع العراقيون الحياة بكل تفاصيلها الحضارية المتطلعة إلى أمام، لذلك فهم حماتها الأمناء وأصحاب الاقتدار العالي في الدفاع عنها ورصد وتشخيص من يحاول الإساءة إليها.

أيها العراقيون الأماجد:

لقد راهن عدوكم منذ البداية على طريق الشر وأطل بشعاراته عبر بوابات الدجل والشعوذة، وتوهم بإمكانية التغلب عليكم عبر وسيلة إغلاق أبواب التفكير لمنفذي شعاراته العدوانية بعد أن عصب عيونهم وأعمى بصيرتهم، بينما اعتمدنا نحن على طريق الفضيلة والمبادئ الشريفة وأطللنا على شعاراتها عبر بوابات الحقيقة والحق وكل ما هو إيجابي من معطيات العصر، وكان دأبنا أن يفتح

أبناء العراق عقولهم ويشغلوها إلى أقصاها، وأن يفتحوا عيونهم على ما حولهم من حقائق الحياة ومستلزمات المنازلة، وكنا صريحين حتى مع أعدائنا ولم نبخل عليهم بنصيحة قد ترجعهم عن غيهم وعن طريق الهاوية والدماء الذي دفعوا شعوبهم إليه، لذلك لم يفاجأ شعبنا ولا قواتنا المسلحة رغم طول زمن المنازلة بما يجعلهم يرتدون عن منهجنا السليم وأهدافنا المشروعة، وبقيت الحياة وقوانينها وحقائقها وفضائلها ومستلزمات التعامل الصحيح معها والعيش فيها تغذي مواقع الاقتدار وطاقاته وتزيدها تأثيراً، وفي الوقت الذي كان فيه الشر ومنهج الشعوذة والدجل يتراجع، كان طريق الحقيقة والمبادئ الشريفة يتصل بأهدافه اتصالاً حيوياً ويتوصل إليها باضطراد مع الزمن، وهذا هو مفتاح الضمان الأساس للحاضر والمستقبل، مثلما كان هو الحامي الأساس في الماضي تتقدمه رعاية الله ﷻ كسند أعلى لأصحاب الحق والفضيلة والمبادئ، عندما يحتفل شعبنا العظيم بأعياد النصر والسلام، تتصاعد من إيران الدعوات إلى ما يسمى بالتعبئة على أمل أن يخدعوا شعوب إيران بإيهامها أن طريق الخديعة والدجل ما زال قادراً على أن يوصل إلى بعض غاياتهم الشريرة الدنيئة، من خلال استعراض القوة ووسائلها والتلويح بها، وإننا وفي هذه المناسبة نرى أن من واجبنا أن ننصح حكام إيران ونقول لهم بنفس الوضوح الذي اعتمدناه في تعاملنا معهم قبل الآن.. إذا ما أرادوا الاستفادة من دروس الماضي وهي كثيرة وعميقة فعليهم أن لا ينسوا الحقائق التي أشعلت الحرب، والتي أطالتها حتى مضى عليها ثماني سنين، وأن يدركوا ولا يتوهموا، فالعراق لا يقبل قعقعة سلاح على حدوده، وأنه لن يلين أمام التهديد واستعراض القوة، وأنه يتذكر ولا ينسى تحديدات الجغرافية في بلده وما تقتضيه من تصرف عسكري، وعلى من يريد التعامل مع العراق على طريق السلام أن

يتخلى عن أساليب وأهداف الظلم والمظلومية وطرقها ونتائجها غير المشروعة، وأن يتخلى عن أساليب التهديد والوعيد وقعقعة السلاح على الحدود، وأن يعتمد طريق السلام والحوار، لتعيش شعوب إيران بسلام في الوقت الذي يتمتع فيه شعب العراق بالسلام، وأن ينعكس هذا إيجابياً على شعوب المنطقة وفي مقدمة ذلك إخواننا وأبناء عمومتنا في الخليج العربي، وبهذا الطريق فقط يحافظ كل منا على حقوقه المشروعة وسيادته على أرضه ومقدراته. إن العراق العظيم وكما نعلم أن أبناء أمتنا العربية أيضاً سعداء بأن تقع أول خطوة على طريق السلام في العشرين من آب عام ١٩٨٨ وتنفتح الفرصة لحوار مباشر في الخامس والعشرين من هذا الشهر في جنيف بين من يمثل العراق ومن يمثل إيران، للبحث والاتفاق على خطوات السلام الأخرى وعلى ما تضمنه قرار مجلس الأمن الدولي من فقرات لإنجاز اتفاقية سلام كامل وشامل إن شاء الله.

وإن سعادتنا هذه لا يحجبها إدراك حقيقة أن طريق السلام بما يحقّق غاياته قد لا يكون يسيراً، وقد يمرّ بمنعطفات وقد تواجهه صعوبات، أخطر ما فيها هو أن يتوهم المتوهمون مرة أخرى ويتلاعب المتلاعبون، ولكن ثقتنا بالحاضر والمستقبل لا حدود لها، وتفاؤلنا بإمكاناتهما لا حدود لها وإيماننا بالسلام لا قيود عليه.

ولنذكر الله دوماً بكرة وأصيلاً ونشكره على نعمة النصر وبداية السلام، ولنترحم على شهدائنا الأبرار في الوقت الذي نحتفل فيه بأعيادنا البهية.

والله أكبر وليخسأ الخاسئون.

بغداد في ١٩/ آب/ ١٩٨٨م
الموافق ٧/ محرم/ ١٤٠٩هـ

ثالثاً
قرارات مجلس الأمن الدولي
بشأن الحرب العراقية - الإيرانية

(١)
قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٤٧٩
في ٢٨/ ٩/ ١٩٨٠

في الثامن والعشرين من أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠ أصدر مجلس الأمن الدولي قراراً برقم ٤٧٩ جاء فيه: (يدعو مجلس الأمن الدولي العراق وإيران إلى التوقف فوراً عن استخدام القوة، وحل النزاع بينهما بالطرق السلمية، وبما ينسجم مع مبادئ العدالة والقانون الدولي، ويحث المجلس البلدين لقبول أي عرض للتوسط أو المصالحة من جانب الوكالات الإقليمية أو أي ترتيبات بالوسائل السلمية الأخرى وحسب اختيارهما).

وقد قبل العراق هذا القرار من دون إبطاء، وأرسل الرئيس صدام حسين رسالة بهذا المعنى إلى السيد كورت فالدهايم أمين عام الأمم المتحدة نصها يأتي لاحقاً، وأعلن بشكل منفرد إيقاف القتال ابتداء من ٥/ ١٠/ ١٩٨٠ ولغاية ٨/ ١٠/ ١٩٨٠ كفترة اختبار

واستجابة لطلب الرئيس الباكستاني الجنرال ضياء الحق الذي باشر مساعيه لوقف الحرب بصفته رئيساً لمنظمة المؤتمر الإسلامي، لكنّ إيران رفضت القرار، ورفضت مساعي الرئيس الباكستاني، وواصلت القتال وأخذت ترفع من سقف شروطها وقدمت حزمة من هذه الشروط، من بينها إزالة نظام حكم الرئيس صدام حسين وتدمير حزب البعث، وتأسيس جمهورية إسلامية في العراق ودفع التعويضات. ويلاحظ عدم الانسجام بين تلك الشروط، إذ كيف تستقيم المطالبة بإقامة جمهورية إسلامية مع دفع التعويضات؟ بل كيف تستطيع إيران المطالبة بالتعويضات وهي التي رفضت قرار مجلس الأمن الداعي إلى وقف إطلاق النار؟

حينذاك كان على العراق أنْ يطرح شروطاً مضادة، وهذا ما حصل، فقد حدّد العراق شروطه التي ورد فيها استعداده للانسحاب الكامل وغير المشروط إلى الحدود المعترف بها دولياً، والتبادل الشامل والكامل للأسرى، وتوقيع اتفاقية سلام وعدم اعتداء بين البلدين، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية واحترام كل بلد لاختيارات البلد الآخر، وهذا ما سيجعل من البلدين عاملاً إيجابياً بما يؤمّن تحقيق الاستقرار والأمن للمنطقة، والخليج العربي بوجه خاص، وهكذا تبدو شروط العراق متطابقة مع القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة.

(٢)

نص رسالة الرئيس صدام حسين إلى الدكتور كورت فالدهايم أمين عام الأمم المتحدة

السيد كورت فالدهايم ـ الأمين العام للأمم المتحدة ـ نيويورك.

تحية؛

تسلمت رسالتكم المؤرخة في ٢٨ أيلول ١٩٨٠، وأودّ بهذه

المناسبة أن أؤكد لكم بأننا ـ وقبل أن يعقد مجلس الأمن جلسته في ٢٨ أيلول ١٩٨٠ بوقت قليل ـ أعلنّا بخطاب رسمي من شبكات الإذاعة والتلفزيون استعداد العراق لوقف القتال بينه وبين إيران فوراً إذا التزم الجانب الآخر بذلك، واللجوء إلى المفاوضات المباشرة أو عن طريق طرف ثالث أو أية جهة أو منظمة دولية نحترمها ونثق بها للوصول إلى حلّ عادل ومشرف يضمن حقوقنا وسيادتنا.

إنَّ قرارنا هذا يا سيادة الأمين العام ينسجم تماماً مع روح القرار الذي اتخذه فيما بعد مجلس الأمن رقم ٤٧٩ في الاجتماع رقم ٢٢٤٨ بتاريخ ٢٨ أيلول ١٩٨٠، لذلك فإنَّ من الطبيعي أن نقبل القرار المذكور لمجلس الأمن ونعلن استعدادنا للالتزام به إذا التزم به الجانب الإيراني.

وإننا نأمل أن يتخذ مجلس الأمن الإجراءات اللازمة لحثّ الجانب الإيراني على الالتزام بهذا القرار.

وبهذه المناسبة فإن حكومة الجمهورية العراقية تود أن تعبر عن تقديرها للجهود التي بذلتموها شخصياً ومجلس الأمن من أجل الحفاظ على الأمن والاستقرار في منطقتنا بما يخدم أهداف الإنسانية في السلام العادل.

صدام حسين
رئيس الجمهورية العراقية
٢٩/ أيلول/ ١٩٨٠

(٣)
قرار مجلس الأمن المرقم ٥٤٠ والمؤرخ في ١٩٨٣/١٠/٣١

إنّ مجلس الأمن، وقد نظر مرة أخرى في المسألة المعنونة (الحالة بين إيران والعراق)، وإذ يشير إلى ما يتصل بالموضوع من قراراته وبياناته التي تدعو في جملة أمور إلى وقف شامل لإطلاق النار وإنهاء جميع العمليات العسكرية بين الطرفين، وإذ يشير إلى تقرير الأمين العام المؤرخ في ٢٠ حزيران/يونيو ١٩٨٣ بشأن البعثة التي عينها لتفتيش المناطق المدنية في إيران والعراق والتي تعرضت لهجمات عسكرية، وإذ يعرب عن تقديره للأمين العام لعرضه الوقائعي والمتوازن والموضوعي، وإذ يلاحظ أيضاً مع التقدير والتشجيع المساعدة والتعاون اللذين أسدتهما إلى بعثة الأمين العام حكومتا إيران والعراق، وإذ يأسف مرة أخرى للنزاع بين البلدين الذي أدى إلى خسائر فادحة في الأرواح بين المدنيين وإلحاق ضرر واسع النطاق بالمدن والممتلكات والهيئات الأساسية الاقتصادية، وإذ يؤكد استصواب إجراء دراسة موضوعية لأسباب الحرب:

١ ـ يرجو من الأمين العام أنْ يواصل مساعيه للوساطة بين الطرفين المعنيين بهدف تحقيق تسوية شاملة وعادلة ومشرفة تكون مقبولة من كلا الجانبين.

٢ ـ يدين جميع انتهاكات القانون الإنساني الدولي، لا سيما أحكام اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩ بجميع نواحيها، ويدعو إلى الوقف الفوري لجميع العمليات العسكرية الموجهة ضد الأهداف المدنية، بما في ذلك المدن والمناطق السكنية.

٣ ـ يؤكد حقّ حرية الملاحة والتجارة في المياه الدولية ويدعو

جميع الدول إلى احترام هذا الحق ويهيب أيضاً بالبلدين المتحاربين أن يوقفا فوراً جميع الأعمال العدائية في منطقة الخليج، بما في ذلك جميع الممرات البحرية، والطرق المائية الصالحة للملاحة، والمنشآت المرفئية والمحطات والمنشآت البحرية وجميع الموانئ التي لها منفذ مباشر أو غير مباشر إلى البحر، وأن يحترما السلامة الإقليمية للدول الأخرى.

٤ ـ يرجو من الأمين العام أنْ يتشاور مع الطرفين بشأن السبل الكفيلة بتعزيز وقف الأعمال العدائية والتحقق منه، بما في ذلك إمكانية إيفاد مراقبين تابعين للأمم المتحدة وأنْ يقدم تقريراً إلى مجلس الأمن عن نتائج هذه المشاورات.

٥ ـ يهيب بكلا الطرفين أنْ يمتنعا عن القيام بأي عمل يمكن أنْ يعرض للخطر السلم والأمن فضلاً عن الحياة البحرية في منطقة الخليج.

٦ ـ يهيب مرة أخرى بجميع الدول الأخرى أنْ تمارس أقصى قدر من الانضباط وأنْ تمتنع عن أي عمل يمكن أنْ يؤدي إلى زيادة تصعيد النزاع وتوسيع نطاقه وأنْ تيسر من ثم تنفيذ هذا القرار.

٧ ـ يرجو من الأمين العام أنْ يتشاور مع الطرفين بشأن التنفيذ الفوري والفعال لهذا القرار.

(٤)

قرار مجلس الأمن الدولي المرقم ٥٥٢ والصادر في ١ حزيران/ يونيو ١٩٨٤

إنّ مجلس الأمن، إذ يأخذ بعين الاعتبار الرسالة المؤرخة في ٢١ أيار/مايو ١٩٨٤ والواردة من ممثلي الإمارات العربية المتحدة والبحرين وعمان وقطر والكويت والمملكة العربية السعودية، والتي

تشكو فيها من الاعتداءات الإيرانية على السفن التجارية المتجهة من وإلى موانئ الكويت والمملكة العربية السعودية، وإذ يلاحظ أنّ الدول الأعضاء تعهدت بأنْ تعيش معاً في سلام وحسن جوار وفقاً لميثاق الأمم المتحدة، وإذ يؤكد من جديد التزامات الدول الأعضاء بمبادئ ومقاصد ميثاق الأمم المتحدة، وإذ يؤكد من جديد أيضاً أنّ جميع الدول الأعضاء تلتزم بأنْ تمتنع في علاقاتها الدولية عن التهديد بالقوة أو استخدامها ضد السلامة الإقليمية أو الاستقلال السياسي لأية دولة، وإذ يأخذ في اعتباره أهمية منطقة الخليج للسلم والأمن الدوليين ودورها الحيوي في استقرار الاقتصاد العالمي، وإذ يساوره بالغ القلق للاعتداءات الأخيرة على السفن التجارية من وإلى موانئ المملكة العربية السعودية والكويت، واقتناعاً منه بأنّ هذه الاعتداءات تشكل تهديداً لسلامة المنطقة واستقرارها، وتترتب عليها آثار خطيرة بالنسبة للسلم والأمن الدوليين:

١ ـ يناشد جميع الدول بأنْ تحترم طبقاً للقانون الدولي حقّ حرية الملاحة.

٢ ـ يؤكد من جديد حقّ حرية الملاحة في المياه الدولية والطرق البحرية للسفن المتجهة من وإلى جميع موانئ ومنشآت الدول الساحلية التي ليست طرفاً في الأعمال العدائية.

٣ ـ يطالب جميع الدول بأنْ تحترم السلامة الإقليمية للدول التي ليست طرفاً في الأعمال العدائية، وأنْ تمارس أقصى قدر من ضبط النفس وأنْ تمتنع عن القيام بأي عمل قد يؤدي إلى زيادة تصعيد وتوسيع الصراع.

٤ ـ يدين الاعتداءات الأخيرة على السفن التجارية المتجهة من وإلى موانئ الكويت والمملكة العربية السعودية.

٥ ـ يطلب وقف هذه الاعتداءات على الفور وعدم اعتراض أية سفينة متجهة من وإلى الدول التي ليست طرفاً في الأعمال العدائية.

٦ ـ يقرّر في حالة عدم الامتثال لهذا القرار الاجتماع مرة أخرى للنظر في اتخاذ تدابير فعالة تتناسب مع خطورة الحالة من أجل كفالة حرية الملاحة في المنطقة.

٧ ـ يرجو من الأمين العام أنْ يقدم تقريراً عن التقدم المحرز في تنفيذ هذا القرار.

٨ ـ يقرر أن يبقي المسألة قيد النظر.

(٥)
قرار مجلس الأمن الدولي المرقم (٥٨٢) في ٢٤/ ٢/ ١٩٨٦

إنّ مجلس الأمن، وقد نظر في المسألة المعنونة (الحالة بين إيران والعراق)، وإذ يشير إلى أنّ مسألة الحالة بين إيران والعراق هي قيد نظر المجلس منذ ست سنوات تقريباً وأنّه قد اتخذت بعض المقررات بشأنها، وإذ يساوره بالغ القلق إزاء إطالة أمد النزاع بين البلدين مما يسفر عن خسائر فادحة في الأرواح وأضرار مادية كبيرة ويعرّض السلم والأمن للخطر، وإذ يشير إلى أحكام الميثاق وبصورة خاصة إلى التزام جميع الدول الأعضاء بتسوية منازعاتهم الدولية بالطرق السلمية وعلى نحو لا يعرّض السلم والأمن الدوليين والعدالة للخطر، وإذ يلاحظ أنّ كلاً من جمهورية إيران الإسلامية والعراق طرف في بروتوكول حظر استخدام الغازات الخانقة أو السامّة أو غيرها من الغازات في الحروب وحظر أساليب الحرب

البكتريولوجية، الموقّع في جنيف في ١٧حزيران/يونيو ١٩٢٥، وإذ يؤكد مبدأ عدم جواز الاستيلاء على الأراضي عن طريق القوة، وإذ يحيط علماً بجهود الوساطة التي يضطلع بها الأمين العام:

١ ـ يأسف للأعمال الأولى التي كانت السبب في نشوء النزاع بين إيران والعراق ويأسف لاستمرار النزاع.

٢ ـ يأسف أيضاً لتصعيد النزاع، وخصوصاً الإغارات على الأراضي وقصف المراكز المدنية المحض بالقنابل وشنّ الهجمات على السفن المحايدة أو الطائرات المدنية، وانتهاك القانون الإنساني الدولي وغيره من قوانين المنازعات المسلحة، وبالأخص استخدام الأسلحة الكيميائية الذي يتنافى مع الالتزامات المنصوص عليها في بروتوكول جنيف لعام ١٩٢٥.

٣ ـ يطلب إلى جمهورية إيران الإسلامية والعراق التقيد بوقف فوري لإطلاق النار ولجميع العمليات الحربية في البر والبحر والجو، وسحب جميع القوات بلا إبطاء إلى الحدود المعترف بها دولياً.

٤ ـ يحث على إتمام تبادل شامل لأسرى الحرب في غضون فترة قصيرة بعد وقف العمليات الحربية بالتعاون مع لجنة الصليب الأحمر الدولية.

٥ ـ يطلب إلى الطرفين أنْ يقوما فوراً بإخضاع جميع جوانب النزاع للوساطة أو لأي وسيلة أخرى من وسائل حلّ المنازعات بالطرق السلمية.

٦ ـ يرجو من الأمين العام أنْ يستمر في جهوده الجارية، وأنْ يساعد الطرفين في تنفيذ هذا القرار، وأنْ يبقي المجلس على علم بالتطورات.

٧ ـ يطلب إلى جميع الدول الأخرى أنْ تمارس أقصى قدر من ضبط النفس، وأنْ تمتنع عن الإتيان بأي عمل قد يؤدي إلى مزيد من تصعيد الصراع وتوسيع رقعته، فتسهل بذلك تنفيذ القرار الحالي.

٨ ـ يقرر أنْ يبقي المسألة قيد نظره.

(٦)
قرار مجلس الأمن الدولي المرقم ٥٩٨ في ٢٠ تموز/يوليو ١٩٨٧

إنّ مجلس الأمن إذ يعيد تأكيده لقراره المرقم ٥٨٢، الصادر عام ١٩٨٦ يعرب عن اهتمامه البالغ لاستمرار الحرب بين العراق وإيران بدون توقف بالرغم من نداءاته لوقف إطلاق النار، مع خسائر كبيرة في الأرواح والمعدات، ويعرب عن أسفه لاستمرار الحرب، وأسفه أيضاً لقصف المراكز السكانية المدنية الصرفة، ومهاجمة السفن المحايدة والطائرات المدنية وانتهاك القانون الإنساني الدولي، والقوانين الأخرى الخاصة بالنزاع المسلح، وعلى وجه الخصوص استخدام الأسلحة الكيمياوية وبصورة منافية لالتزامات بروتوكول جنيف عام ١٩٢٥.

يعرب عن قلقه العميق من تصعيد وتوسيع النزاع، مصرّاً على إنهاء جميع العمليات العسكرية بين العراق وإيران، مقتنعاً بضرورة إيجاد تسوية دائمة ومشرفة وعادلة وشاملة بين العراق وإيران، وبعد الاطلاع على بنود ميثاق الأمم المتحدة، وخاصة التزام جميع الدول الأعضاء لتسوية نزاعاتها بالطرق السلمية حتى لا يتعرض السلام والأمن والعدل الدولي للخطر، وبموجب المادتين ٣٩ و٤٠

من ميثاق الأمم المتحدة، فإنّ مجلس الأمن الدولي:

١ ـ يطالب كخطوة أولى باتجاه تسوية عن طريق التفاوض التزام العراق وإيران بوقف فوري لإطلاق النار، ووقف جميع العمليات العسكرية في البرّ والبحر والجوّ، والانسحاب إلى الحدود المعترف بها دولياً بدون تأخير.

٢ ـ يطالب الأمين العام للأمم المتحدة إرسال فريق من مراقبي الأمم المتحدة، لتحقيق وتأكيد والإشراف، على وقف إطلاق النار والانسحاب، كما يطلب من الأمين العام إجراء الترتيبات الضرورية بالتشاور مع الأطراف، وتقديم تقرير بعد ذلك إلى المجلس.

٣ ـ يحث على إطلاق سراح جميع أسرى الحرب، وإعادتهم إلى بلديهم بدون تأخير، بعد توقف العمليات الفعلية وفقا لمعاهدة جنيف في ١٩٤٩/٨/١٢.

٤ ـ يدعو العراق وإيران إلى التعاون مع الأمين العام للأمم المتحدة لتنفيذ هذا القرار، ومع جهود الوساطة لتحقيق تسوية مشرفة وعادلة وشاملة ومقبولة، لكلا الطرفين، ولجميع القضايا المعلقة استناداً إلى مبادئ ميثاق الأمم المتحدة.

٥ ـ يدعو جميع الدول الأخرى إلى ممارسة أقصى قدر من ضبط النفس، والإحجام عن أي عمل من شأنه أنْ يؤدي إلى تصعيد لتوسيع النزاع، لتسهيل إنجاز القرار الدولي.

٦ ـ يطالب المجلس الأمين العام ويتشاور مع العراق وإيران استكشاف إمكانية تشكيل هيئة محايدة للتحقيق في مسؤولية النزاع، وتقديم تقرير إلى مجلس الأمن بأسرع ما يمكن.

٧ ـ يعترف بمقدار الدمار الذي وقع خلال النزاع، والحاجة إلى جهود إعادة الإعمار، بمساعدة دولية مناسبة حال انتهاء النزاع، ويطلب من الأمين العام اختيار فريق من الخبراء لدراسة قضية إعادة الإعمار، وتقديم تقرير إلى مجلس الأمن.

٨ ـ يطلب من الأمين العام بالتشاور مع العراق وإيران والدول الأخرى في المنطقة إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة لتعزيز الأمن والاستقرار في المنطقة.

٩ ـ يدعو مجلس الأمن الأمين العام إحاطته علماً بسير عملية تنفيذ هذا القرار.

١٠ ـ يقرر الاجتماع ثانية عند الضرورة لمناقشة خطوات أخرى لضمان الالتزام بهذا القرار.

(٧)

قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦١٣ في ٩/ ٥/ ١٩٨٨

إنّ مجلس الأمن، وقد نظر في تقرير البعثة التي أوفدها الأمين العام للتحقيق في ادعاءات استخدام الأسلحة الكيميائية في النزاع بين جمهورية إيران الإسلامية والعراق، المؤرخ في ٢٥ نيسان/أبريل ١٩٨٨، وإذ يشعر بالجزع للنتائج التي خلصت إليها البعثة والمتمثلة في أنّ الأسلحة الكيميائية ما زالت تستخدم في النزاع بل إنّ استخدامها أصبح على نطاق أوسع من ذي قبل:

١ ـ يؤكد الضرورة الملحة للتقييد الدقيق ببروتوكول حظر الاستعمال الحربي للغازات الخانقة أو السامة أو ما شابهها،

ولوسائل الحرب البكتريولوجية، الموقّع في جنيف في ١٧ حزيران/ يونيو ١٩٢٥.

٢ ـ يدين بشدة استمرار استخدام الأسلحة الكيميائية في النزاع بين جمهورية إيران الإسلامية والعراق ممّا يتنافى والالتزامات المقررة بموجب برتوكول جنيف.

٣ ـ يتوقع أنْ يمتنع كلا الطرفين عن استخدام الأسلحة الكيميائية في المستقبل وفقاً لالتزاماتهما المقرّرة بموجب بروتوكول جنيف.

٤ ـ يطلب إلى جميع الدول أنْ تواصل تطبيق رقابة دقيقة على تصدير المنتجات الكيميائية التي تستخدم في إنتاج الأسلحة الكيميائية إلى طرفي النزاع، أو أنْ تفرض مثل هذه الرقابة.

٥ ـ يقرر إبقاء المسألة قيد النظر ويعرب عن تصميمه على استعراض تنفيذ هذا القرار.

(٨)
قرار رقم ٦١٩ في ١٩٨٨/٨/٩

ناقش المجلس البند المعنون (الحالة بين إيران والعراق)، وفي الجلسة ذاتها دعا الرئيس باسم المجلس ممثل جمهورية إيران الإسلامية ليحتل مكاناً إلى طاولة المجلس، وفي الجلسة ذاتها دعا الرئيس باسم المجلس ممثل العراق ليحتل مكاناً إلى طاولة المجلس، وفي الجلسة ذاتها أدلى الأمين العام بالبيان التالي:

«إنّ أعضاء مجلس الأمن على علم بأنّني قمت خلال الأسبوعين الماضيين بنشاط دبلوماسي كثيف يهدف إلى التوصل إلى

تنفيذ قرار المجلس ٥٩٨ لعام ١٩٨٧ المؤرخ في ٢٠ تموز/يوليو ١٩٨٧، ونتيجة لتلك الجهود وممارسة للولاية التي عهد بها المجلس إليّ، فإنّني أطلب الآن إلى جمهورية إيران الإسلامية والعراق أنْ تنفذا وقف إطلاق النار وأنْ توقفا جميع الأعمال العسكرية في البر والبحر والجو، بدءاً من الساعة ٣ بتوقيت غرينتش يوم ٢٠ آب/أغسطس ١٩٨٨، وقد أكد لي طرفا النزاع أنّهما سينفذان وقف إطلاق النار على هذا النحو في إطار التنفيذ الكامل للقرار ٥٩٨ لعام ١٩٨٧، كما أنّ حكومتي جمهورية إيران الإسلامية والعراق قد وافقتا على توزيع مراقبين تابعين للأمم المتحدة في الوقت والتاريخ المحددين لوقف إطلاق النار، وسأوجه إلى جمهورية إيران الإسلامية وإلى العراق دعوة رسمية لإيفاد ممثليهما إلى جنيف في ٢٥ آب/أغسطس لإجراء محادثات مباشرة تحت رعايتي، وأنا بصدد إرسال رسالتين بهذا الخصوص إلى الطرفين، وفي التاريخ المحدد لوقف إطلاق النار سأؤكد أنني بصدد الاضطلاع بالأعمال التحضيرية اللازمة الرامية إلى تنفيذ الولاية المسندة إلي بموجب فقرات القرار ٥٩٨ لعام ١٩٨٧، لا سيما الفقرات ٤، ٦، ٧، ٨، وإني ألاحظ أنّ النشاط العسكري قد انخفض في الأيام القليلة الماضية، غير أني أود بهذه المناسبة أنْ أناشد جميع الأطراف المعنية، كأقوى ما تكون المناشدة، أنْ يمارسوا أكبر قدر من ضبط النفس وأنْ يمتنعوا من الآن فصاعداً عن القيام بأي عمل عدائي في البر أو البحر أو الجو في الفترة السابقة على بدء سريان وقف إطلاق النار، وأود أنْ أعرب عن بالغ تقديري للجهود التي بذلها الطرفان وأعضاء المجلس وغيرهم خلال الأسابيع الماضية، وإني لواثق من أنّه سيكون بإمكاني أنْ أعوّل على استمرار التعاون من جانب ممثلي جمهورية إيران الإسلامية

والعراق عندما نجتمع في جنيف، وإنّ استتباب السلم من جديد سيتيح لشعبي البلدين كليهما إحراز انتصارات أعظم بكثير من الانتصارات الحربية».

وفي الجلسة ذاتها أدلى رئيس المجلس لذلك الشهر بالبيان التالي:

«بعد مشاورات أجراها المجلس أذن لي بالإدلاء بالبيان التالي: يرحب مجلس الأمن بالبيان الذي أدلى به الأمين العام لتوه فيما يتعلق بتنفيذ قرار المجلس ٥٩٨ لعام ١٩٨٧، والمؤرخ في ٢٠ تموز/يوليو ١٩٨٧، بشأن النزاع بين جمهورية إيران الإسلامية والعراق، ويؤيد المجلس ما أعلنه الأمين العام من أنّ وقف إطلاق النار الذي طولب به في هذا القرار سوف يصبح ساري المفعول في الساعة ٣ بتوقيت غرينتش من يوم ٢٠ آب/أغسطس ١٩٨٨، وأنّ محادثات مباشرة ستبدأ بين الطرفين تحت رعايته في ٢٥ آب/أغسطس، ويؤيد المجلس أيضاً النداء الذي وجهه الأمين العام إلى كلا الطرفين بممارسة أكبر قدر من ضبط النفس ويتوقع منهما الامتناع عن جميع الأنشطة العدائية في الفترة السابقة على بدء سريان وقف إطلاق النار، ويكرر المجلس تصميمه على تنفيذ قراره ٥٩٨ لعام ١٩٨٧ تنفيذاً كاملاً بوصفه كلاً لا يتجزأ، ويؤكد من جديد كامل مساندته للجهود المتواصلة التي يبذلها الأمين العام لبلوغ هذه الغاية».

«وفي الجلسة ٢٨٢٤، المعقودة في ٩ آب/أغسطس ١٩٨٨، ناقش المجلس البند المعنون «الحالة بين إيران والعراق» تقرير الأمين العام بشأن تنفيذ الفقرة ٢ من قرار مجلس الأمن ٥٩٨ لعام ١٩٨٧، وفي الجلسة ذاتها دعا الرئيس باسم المجلس ممثل

جمهورية إيران الإسلامية ليحتل مكاناً إلى طاولة المجلس، وفي الجلسة ذاتها دعا الرئيس باسم المجلس ممثل العراق ليحتل مكاناً إلى طاولة المجلس».

وهكذا ولد القرار ٦١٩ والمؤرخ في ٩ آب/أغسطس ١٩٨٨ والذي جاء فيه:

«إنّ مجلس الأمن، إذ يشير إلى قراره ٥٩٨ (١٩٨٧) المؤرخ في ٢٠ تموز/يوليو ١٩٨٧:

١ ـ يوافق على تقرير الأمين العام الوارد في الوثيقة s/20093 والمتعلق بتنفيذ الفقرة ٢ من قرار المجلس ٥٩٨.

٢ ـ يقرر أنْ ينشئ على الفور فريق مراقبي الأمم المتحدة العسكريين...

وقد تم تعيين اللواء سلافو جوفيتش من يوغسلافيا السابقة، كبيراً للمراقبين العسكريين على الحدود بين العراق وإيران، بعد مشاورات غير رسمية أجريت في ١١ آب/أغسطس ووافقوا على هذا التعيين.

(٩)
قرار مجلس الأمن رقم ٦٢٠
في ١٩٨٨/٨/٢٦

وواصل مجلس الأمن الدولي بحثه في موضوع استخدام الأسلحة الكيميائية في الحرب، فقد عقد اجتماعاً في ٢٦ آب/أغسطس ١٩٨٨ ليصادق على القرار ٦٢٠، والذي جاء فيه:

إنّ مجلس الأمن إذ يشير إلى قراره (٦١٣) في ٩ أيار/مايو

١٩٨٨، وقد نظر في التقارير المؤرخة في ٢٠ و٢٥ تموز/يوليو و٢ و١٩ آب/أغسطس ١٩٨٨، التي أصدرتها البعثات التي أوفدها الأمين العام للتحقيق في ادعاءات استعمال الأسلحة الكيميائية في النزاع بين جمهورية إيران الإسلامية والعراق، وإذ يساوره الجزع البالغ مما خلصت إليه تلك البعثات من نتائج تفيد بأنّ الأسلحة الكيميائية استعملت بصورة مستمرة في النزاع بين جمهورية إيران الإسلامية والعراق وأنّ هذا الاستعمال ضد الإيرانيين ازداد شدة وتوتراً، وإذ يشعر بعميق القلق إزاء خطر إمكانية استعمال الأسلحة الكيميائية في المستقبل، وإذ يضع في اعتباره المفاوضات الجارية في مؤتمر نزع السلاح بشأن الحظر التام والفعّال لاستحداث وإنتاج وتخزين الأسلحة الكيميائية وبشأن تدمير هذه الأسلحة، وقد عقد العزم على تكثيف جهوده الرامية إلى وضع نهاية لكل استعمال للأسلحة الكيميائية انتهاكاً للالتزامات الدولية الآن وفي المستقبل:

١ - يدين بكل شدة استعمال الأسلحة الكيميائية في النزاع بين جمهورية إيران الإسلامية والعراق، انتهاكاً للالتزامات الناشئة بموجب بروتوكول حظر الاستعمال الحربي للغازات الخانقة أو السامّة أو ما شابهها ولوسائل الحرب البكتريولوجية، الموقّع في جنيف في ١٧ حزيران/يونيو ١٩٢٥، وتحدياً لقراره ٦١٣ لعام ١٩٨٨.

٢ - يشجع الأمين العام على أنْ يقوم فوراً استجابة لأية دعاوى تصل إلى علمه من أية دولة عضو بشأن إمكانية استعمال أسلحة كيميائية وبكتريولوجية، مما قد يشكّل انتهاكاً لبروتوكول جنيف لعام ١٩٢٥ أو غير ذلك من قواعد القانون الدولي العرفي ذي الصلة، بإجراء تحقيقات بغية التثبت من الحقائق وأن يقدّم تقريراً بالنتائج.

٣ ـ يطلب إلى جميع الدول أنْ تواصل تطبيق رقابة صارمة، أو أنْ تنشئ أو تعزز مثل هذه الرقابة على تصدير المنتجات الكيميائية، ولا سيما إلى الأطراف في نزاع ما، حين يثبت، أو حين يكون هناك سبب وجيه يدعو إلى الاعتقاد بأنّ تلك الأطراف استعملت الأسلحة الكيميائية انتهاكاً للالتزامات الدولية.

٤ ـ يقرر أنْ ينظر فوراً، واضعاً في اعتباره التحقيقات التي يجريها الأمين العام، في اتخاذ تدابير ملائمة وفعالة وفقاً لميثاق الأمم المتحدة إذا حدث في المستقبل أي استعمال للأسلحة الكيميائية انتهاكاً للقانون الدولي في أي مكان وأيّاً كان مرتكبه.

(١٠)
قرار مجلس الأمن رقم ٦٥١
في ١٩٩٠/٣/٢٩

«إنّ مجلس الأمن، إذ يشير إلى قراراته ٥٩٨ والمؤرخ في ٢٠ تموز/يوليو ١٩٨٧، و٦١٩ والمؤرخ في ٩ آب/أغسطس ١٩٨٨، و٦٣١ والمؤرخ في ٨ شباط/فبراير ١٩٨٩، و٦٤٢ والمؤرخ في ٢٩ أيلول/سبتمبر ١٩٨٩، و٦٥١ والمؤرخ في ٢٩ آذار/مارس ١٩٩٠، وقد نظر في تقرير الأمين العام عن فريق مراقبي الأمم المتحدة العسكريين لإيران والعراق المؤرخ في ٢١ أيلول/سبتمبر ١٩٩٠، وإذ يحيط علماً بالملاحظات التي أبديت فيه، يقرّر:

أ ـ أن يطلب مرة أخرى من الطرفين المعنيين تنفيذ قراره ٥٩٨ لسنة ١٩٨٧على الفور.

ب ـ أن يمدد ولاية فريق مراقبي الأمم المتحدة العسكريين لإيران والعراق لفترة أخرى مدتها ستة أشهر، أي حتى ٣٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٠.

ج ـ أن يطلب إلى الأمين العام أن يقدم في نهاية هذه الفترة تقريراً عن التطورات في الحالة والتدابير المتخذة لتنفيذ القرار ٥٩٨».

(١١)
قرار مجلس الأمن رقم ٦٧١
في ٢٧/ ٩/ ١٩٩٠

إن مجلس الأمن، إذ يشير إلى قراراته ٥٩٨ والمؤرخ في ٢٠ تموز/يوليو ١٩٨٧، و٦١٩ والمؤرخ في ٩ آب/أغسطس ١٩٨٨، و٦٣١ المؤرخ في ٨ شباط/فبراير ١٩٨٩، و٦٤٢ المؤرخ في ٢٩ أيلول/سبتمبر ١٩٨٩، و٦٥١ المؤرخ في ٢٩ آذار/مارس ١٩٩٠، وقد نظر في تقرير الأمين العام عن فريق مراقبي الأمم المتحدة العسكريين لإيران والعراق المؤرخ في ٢١ أيلول/سبتمبر ١٩٩٠، وإذ يحيط علماً بالملاحظات التي أبديت فيه:

١ ـ يقرر تمديد ولاية فريق مراقبي الأمم المتحدة العسكريين لإيران والعراق لفترة أخرى مدتها شهران، أي حتى ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر١٩٩٠ حسبما أوصى به الأمين العام.

٢ ـ يطلب إلى الأمين العام أن يقدم خلال تشرين الثاني/ نوفمبر تقريراً عن مشاوراته اللاحقة مع الطرفين بشأن مستقبل فريق المراقبين العسكريين مشفوعاً بتوصياته فيما يتعلق بهذه المسألة.

(١٢)
قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦٧٦
في ٢٨/ ١١/ ١٩٩٠

بعد أن يشير قرار المجلس إلى قراراته السابقة، وبعد أن يشير إلى تقرير الأمين العام الذي رفعه إلى المجلس حول عمل المراقبين، فقد قرر:

١ ـ تمديد ولاية فريق مراقبي الأمم المتحدة العسكريين لإيران والعراق لفترة أخرى مدتها شهران أي حتى ٣١ كانون الثاني/يناير ١٩٩١ كما أوصى الأمين العام.

٢ ـ يطلب إلى الأمين العام أن يقدم خلال شهر كانون الثاني/يناير ١٩٩١، تقريراً عن مشاوراته اللاحقة مع الأطراف بشأن مستقبل فريق المراقبين العسكريين مشفوعاً بتوصياته فيما يتعلق بهذه المسألة.

رابعاً

نص الرسالة التي وجهها آية الله (روح الله الموسوي) الخميني إلى الشعب الإيراني وأعلن فيها قبوله بقرار مجلس الأمن الدولي رقم ٥٩٨

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

إنّ مدينة الله ومدينة عباده ما تزال رغم مرور عام على المجزرة المفجعة الرهيبة التي تعرض لها الحجاج العزل والزوار المؤمنون الموحدون، على يد عملاء أمريكا وسفاكي آل سعود، ما تزال في ذهول وفي حيرة.

إنّ آل سعود بقتلهم ضيوف الرحمن، وتضريجهم خير عباد الله بالتراب وبالدماء، لم يضرّجوا الحرم فقط، بل ضرّجوا عالم الإسلام كله بدماء الشهداء، وأحزنوا المسلمين والأحرار جميعاً.

في العام الماضي أقام مسلمو العالم أول مرة شعائر الأضحى المبارك بنحر أبناء إبراهيم ﷺ أبنائه العائدين من معارك كفاحهم مع ناهبي العالم وأذنابهم في (مذبح) حبّ الله و(منى) رضاه،

وقتلت أمريكا وآل سعود خلافاً لمقتضيات الشهامة والشرف الكثير الكثير من النساء والرجال، من أمهات الشهداء وآبائهم، ومن المعاقين العزل من الحماية، وبالكثير الكثير من الخسة والقسوة، حملوا على الأجساد نصف الميتة للشيوخ العجّز، وجلدوا بالسياط الأفواه العطشى الجافة من مؤمنينا الأبرياء المظلومين، وانتقموا منهم بوحشية حاقدة.

ألا ممن هذا الانتقام؟ وبسبب أي ذنب هو؟

أهو انتقام من الذين هاجروا من بيوتهم إلى بيت الله وبيت عباده؟ أهو انتقام من الذين حملوا سنوات طوالاً على عواتقهم ثقل الأمانة والجهاد أم هو انتقام من الذين كانوا كإبراهيم ﷺ عائدين من تحطيم الأصنام؟ انتقام من الذين كانوا قد حطموا الشاه؟ من الذين هزموا السوفيت والأمريكان؟ من الذين هشموا الكفر والنفاق؟ أهو انتقام من أولئك الذين طووا الطرقات الكثيرة البعيدة وحفاة الأقدام عراة الرؤوس، مستجيبين لصرخة ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧]، ليسرّوا إبراهيم (ﷺ) ويرضوه؟؟ أهو انتقام من الذين كانوا قد جاءوا لضيافة الله ليمسحوا بماء زمزم غبار السفر عن وجوههم، ويرووا بزلال مناسك الحج عطشهم، ويعودوا بقوة أكبر على تحمل المسؤولية، ويخلعوا في ميقات العمل خلال مسيرتهم الأبدية - لا في ميقات الحج وحده - لباس التعلق بالدنيا عن أجسامهم؟ أهو انتقام من أولئك الذين من أجل خلاص المحرومين وتحرير عباد الله، حرّموا على أنفسهم دعة طلاب الراحة، والذين أحرموا بإحرام الشهادة، وعزموا عزماً جارفاً، لا على عدم الرضوخ لعبودية ذهب أمريكا وروسيا فحسب، بل على عدم الخضوع لغير الله وحده، أولئك الذين كانوا قد جاءوا ليقولوا مرة أخرى لمحمد (ﷺ): إنّهم لم يتعبوا من الكفاح، وإنّهم يعلمون

جيداً أنّ أبا سفيان وأبا لهب وأبا جهل متربصون في أماكن للانتقام، قائلين لأنفسهم متسائلين: أما زال (اللات) و(هبل) على الكعبة؟ أجل وأخطر من تلك الأصنام، ولكنْ بوجه جديد وخدعة جديدة، إنّهم يعلمون أنّ الحرم اليوم حرم، لكنْ لا (للناس) بل لأمريكا، وإنّ من لا يقول لأمريكا (لبيك)، ومن يتجه إلى ربّ الكعبة فسيكون مستحقاً للانتقام، الانتقام من الزوار الذين أحيت جميع ذوات وجودهم وكل حركات ثورتهم وسكناتها مناسك إبراهيم، وسمت وتسمو حقاً حتى تقطر سماء أوطانهم وسماء حياتهم بالنداء العذب الشيق (لبيك اللهم لبيك): أجل إنّ من يريد أنْ يعلن البراءة من الكفر والشرك سيتهم هو - في منطق الاستكبار العالمي - بالشرك، وسيحكم عليه المفتون وأبناء المفتين من أحفاد (بلعم بن باعور) بالكفر وبالقتل.

وبعد فلا بدّ في تاريخ الإسلام أنْ تشهر مجدداً سيوف الكفر والعداء التي كانت مخبأة في ألبسة الإحرام الكاذبة لليزيديين ومأجوري بني أميّة - عليهم لعنة الله - من أجل قتل خيرة أبناء نبي الإسلام الأطهار - أعني أبا عبد الله الحسين عليه السلام وأنصاره الأوفياء - أجل لا بد أنْ تشهر مجدداً تلك السيوف من ألبسة ورثة بني سفيان أولئك، وأنْ تمزق الحناجر الطاهرة لأنصار الحسين عليه السلام، وفي ذلك الطقس اللاهب، في كربلاء الحجاز، وفي مذبح الحرم، وتوجه إليهم - لأنّهم سائرون على خطى أبناء الإسلام الصادقين الأولين - التهم نفسها التي وجهها اليزيديون إلى أولئك حين عدّوهم خوارج وملحدين ومشركين ومهدوري الدم.

إلا أنّنا سنطفئ غيظ قلوبنا بإذن الله في الوقت المناسب من أمريكا وآل سعود، وسنحوّل حلاوة هذه الجريمة الكبرى حرقة وحسرة في قلوبهم، وسندخل المسجد الحرام مع الاحتفال بانتصار

الحق على جنود الكفر والنفاق، وتحرير الكعبة من أيدي من ليسوا أهلاً، من ليسوا من محارمها وخاصتها.

ولا شكّ أنّ الحجاج الذين سافروا إلى مكة تحت رقابة دولهم وحكوماتها ومخابراتها سيفتقدون أصدقاءهم وإخوانهم وشركاءهم الواقعيين في الدفاع والجهاد. إنّ آل سعود، من أجل تبرير صدهم عن سبيل الله، ومنعهم الحجاج الإيرانيين من الذهاب إلى الحج، سيمطرون الحجاج بقنابل دعاياتهم الشريرة، وسيعمد رجال الدين البلاطيون في البلاد الإسلامية، وبخاصة الحجاز، ومشايخ الإفتاء الذين باعوا أنفسهم ـ لعنة الله عليهم ـ بواسطة وسائل الإعلام والمطبوعات، إلى إيراد الخطب والأضاليل، وسيضيّقون على الحجاج ساحة تفكيرهم وتعمّقهم في فهم رسالة الحج وإدراك فلسفته الحقيقية، وكذلك في التعرف على حقيقة واقعة قتل ضيوف الله المخطط لها سلفاً من قبل الشيطان الأكبر، وبديهي أنّ رسالة حجاج بيت الله في مثل هذه الأوضاع والظروف ثقيلة جد ثقيلة. إنّ أكبر ألم تعانيه المجتمعات الإسلامية هو أنّ أبناءها لم يفهموا بعد الفلسفة الحقيقية لكثير من الأحكام الإلهية، وأنّ الحج ـ على ما فيه من عميق الأسرار وعظيم الأهداف ـ ما يزال عبادة جامدة وحركة دون ثمرة أو مردود. إنّ من أهم والواجبات الكبرى إدراك: ما هو الحج؟ ولِمَ يجب أنْ يقفوا قسماً من إمكاناتهم المادية والمعنوية لأدائه وإقامته؟

إنّ ما ظهر حتى الآن من قبل الجهلة، أو الدارسين المغرضين، أو المرتزقة المأجورين على أنّها (فلسفة الحج)، هو أنّ الحج عبادة جماعية، وسفرة سياحية تعبدية، فما شأن الحج بأمور من قبيل: كيف يجب أنْ نعيش؟ وكيف يكون الجهاد؟ وبأي صورة يكون الصمود أمام عالم الرأسمالية وعالم الشيوعية؟ ما شأن الحج

بوجوب انتزاع حقوق المسلمين والمحرومين من الظالمين؟ ما علاقته بوجوب التفكير في إيجاد الحلول للضغوط الروحية والجسمية التي يتعرض لها المسلمون؟ ما شأن الحج بوجوب أنْ يظهر المسلمون كقوة كبرى ثالثة في العالم؟ وبأن يدفع بالمسلمين إلى الثورة على الحكومات العميلة التابعة؟ إنْ هو إلا سفرة ترفيهية لرؤية القبلة وزيارة المدينة فقط، هذا ما أظهره المتحجّرون والمغرضون، من أنّ الحج إنّما ليقرب الإنسان إلى رب البيت ويصله به.

الحج ليس حركات وأعمالاً وتمتمات فقط، فالإنسان لا يصل إلى الله بالكلمات والألفاظ والحركات الصماء، الحج إنّما هو أسّ المعارف الإلهية التي من خلالها ومن مفهومها ومحتواها يجب اكتشاف سياسة الإسلام في جميع مناحي الحياة.

الحج هو رسالة بناء مجتمع مجرد من الرذائل الماديّة والمعنوية، هو مظهر التجلي المتكرر لكافة الصور المولدة للحب في حياة إنسانٍ مثالي ومجتمع متكامل، ومناسكه إنّما هي مناسك أنْ يصبح إبراهيمياً حتى يتصل بأمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ويتحد بها ويصبح معها يداً واحدة، فإنّ الحج هو تنظيم وإعداد وصهر لهذه الحياة التوحيدية.

الحج هو ميدان استعراض طاقات المسلمين ومرآة اختبار قواهم المادية والمعنوية، هو كالقرآن يستفيد الكل منه، ولكنّ المفكرين والغواصين والخبراء بآلام الأمة الإسلامية إذا وجهوا قلوبهم إلى بحر معارفه، ولم يخافوا الاقتراب منه والغوص في أحكامه وسياساته الاجتماعية، فسيصطادون أكثر من أصداف هذا البحر جواهر الهداية والرشد والحكمة والحرية، وسيرتوون إلى

الأبد من زلال حكمته ومعرفته، ولكنْ ما العمل؟ وكيف التخلص من هذا الهمّ الكبير، همّ أنْ الحج قد غدا كالقرآن مهجوراً؟

وبمقدار ما خفي كتاب الحياة والكمال والجمال ذاك في حجبنا المصطنعة، وبمقدار ما دفن هذا الكنز من أسرار الإبداع في أعماق ركام أتربة أفكارنا المنحرفة، وبمقدار ما أنزل لسان الأنس والهداية والحياة والفلسفة الصانعة للحياة، ليغدو لسان الوحشة والموت والقبر، كذلك ابتلي الحج أيضاً بالمصير نفسه، مصير أنْ يحج ملايين المسلمين كل سنة إلى مكة، ويضعوا أقدامهم في مواقع أقدام النبي إبراهيم وإسماعيل وهاجر، ولكنْ دون أنْ يسأل سائل منهم: من كان إبراهيم ومحمد ﷺ؟ وماذا فعلا؟

ماذا كان هدفهما؟ ماذا أرادا منّا؟ لعلّ الشيء الوحيد الذي لا يفكّر به هو هذا.

إنّ حجاً دون روح، دون انتفاضة وتحرك، وحجاً دون براءة، وحجاً دون وحدة، وحجاً لا ينتج عنه هدم الكفر والشرك، ليس حجاً على الإطلاق.

والخلاصة أنّ على المسلمين جميعاً أنْ يعملوا على بعث الحج والقرآن الكريم وإعادتهما إلى ميادين حياتهم، وأنّ على المحققين الإسلاميين الملتزمين، بتبيانهم المعاني والأهداف الصحيحة والواقعية لحكمة الحج، أنْ يطرحوا في البحر كل أضاليل العلماء البلاطيين وبدعهم الخرافية.

أما ما يجب أنْ يعلمه الحجاج الأعزاء فهو أنّ أمريكا وآل سعود، إذا صوّروا حادثة مكة على أنّها صراع طائفي وتجاذب قوى بين الشيعة والسنّة، وصوّروا إيران وقادتها على أنّهم يحلمون بإمبراطورية واسعة يسعون للوصول إليها، إنّما أرادوا تضليل

الكثيرين من الغافلين عن مسير الحوادث السياسية في العالم الإسلامي، وممن يجهلون الخطط المشؤومة لناهبي الشعوب بتصوير صرختنا بالبراءة من المشركين، وكفاحنا من أجل حرية الشعوب على أنّهما يهدفان إلى تقوية سلطتنا السياسية وإلى توسيع الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية. طبعاً لا غرابة ولا تعجب عندنا وعند جميع المفكرين والمحللين والمعلقين على النيات القذرة لأجهزة آل سعود أنْ تتهم إيران والحكومة التي نادت منذ بداية النصر حتى الآن بوحدة المسلمين، والتي عدت وتعد نفسها في جميع حوادث العالم الإسلامي شريكة المسلمين في همومهم وأفراحهم، وأنْ تتهمها بالتفرقة بين المسلمين وتمزيق صفوفهم أو فوق ذلك، وأنْ تتهم الحجاج الذين دفعهم عشقهم لزيارة ضريح النبي والحرم الإلهي الآمن للسفر إلى الحجاز بالتجييش والتجهيز والتعبئة لاحتلال الكعبة وحرق حرم الله وهدم مدينة الرسول، جاعلين البرهان على ذلك اشتراك حرس وجنود ومسؤولين من دولتنا في مراسم الحج.

أجل، في منطق آل سعود يجب أنْ يكون الجندي والحارس في الدولة الإسلامية غريبين عن الحج، ومثل هذه الأسفار منهم إلى ديار الإسلام هي عند المسؤولين الحكوميين والعسكريين مدعاة للتعجب وسبب للتآمر يجب في منطق الاستكبار أنْ يكون ذهاب مسؤولي الدول إلى بلاد الفرنجة، إذ ما شأن هؤلاء والحج؟

إنّ عملاء أمريكا يعدون إحراق العلم الأمريكي بمثابة إحراق الحرم، ويعدون شعار (الموت لروسيا وأمريكا وإسرائيل) عداء لله والقرآن والنبي، ويصفون مسؤولينا وعسكريينا المرتدين لباس الإحرام بقادة المؤامرة.

الواقع أنّ دول الاستكبار الشرقية والغربية، وبخاصة أمريكا وروسيا، قد قسمت العالم عملياً إلى قسمين: قسم حر وقسم حجر سياسي، ففي القسم الحر من العالم، ثمة الدول الكبرى التي لا تعترف بأي مدى أو حدّ أو قانون، وتعتبر الاعتداء على مصالح الآخرين، واستعمار الشعوب واستثمارها واستعبادها أمراً ضرورياً ومبرراً ومنطقياً ومنطبقاً على جميع المبادئ والموازين الدولية والموضوعة من قبلها هي.

أما في قسم الحجر السياسي الذي تحاصر وتسجن فيه للأسف معظم شعوب العالم الضعيفة وبخاصة المسلمون منها، فلا وجود إطلاقاً لحق الحياة وإبداء الرأي. إنّ القوانين والمقررات والأنظمة جميعاً هي القوانين المفروضة والمنسجمة مع أهواء النظم العميلة والمؤمنة لمصالح المستكبرين، والمؤسف أنّ معظم متولي السلطات التنفيذية في هذا القسم هم الحكّام المفروضون أو أتباع النهج الاستكباري العام الذين يعدّون حتى صرخة الألم من داخل جدران هذه السجون والسلاسل جريمة لا تغتفر، فمنافع ناهبي الشعوب تمنع على أيّ كان حق التلفظ بأي كلمة يشتم منها إضعافهم أو تعكير صفو راحة نومهم.

وبما أنّ مسلمي العالم لا يتمكنون بسبب عوامل الضغط والسجن والإعلام من التعبير عن مصائبهم وآلامهم التي يفرضها عليهم حكامهم، فالواجب أنْ يسمح لهم بعرض مآسيهم وآلامهم في الحرم الإلهي الآمن بكل حرية، حتى يفكر سائر المسلمين في حلول لتحريرهم.

لذا فنحن نلح ونصرّ على أنْ يرى المسلمون أنفسهم في بيت الله والحرم الإلهي الآن على الأقل، أحراراً من جميع العتاة

وأغلالهم، وأنْ يعلنوا في مظاهرة كبرى براءتهم مما ينفرون منه ويستنكرونه، ويستفيدوا من كل وسيلة ممكنة لخلاصهم. لقد أخذت حكومة آل سعود على عاتقها مسؤولية حماية حجاج الله، ولهذا نقول بثقة: إنّ حادثة مكة ليست منفصلة عن السياسة الأساسية لناهبي الشعوب القائمة على إبادة المسلمين الأحرار واستئصال شأفتهم.

إنّنا مع إعلان البراءة من المشركين، كنّا وما نزال مصممين على تحرير الطاقات المكبوتة للعالم الإسلامي، وسيأتي يوم بعون الله يتحقق فيه هذا العمل على أيدي أبناء القرآن، كما سيأتي يوم إنْ شاء الله يصرخ فيه جميع المسلمين والمظلومين بوجه الظالمين في العالم كله، ويثبتون أنّ القوى العظمى وأجراءها ومرتزقتها هم من أبغض موجودات العالم.

إنّ مجزرة حجاج بيت الله هي مؤامرة لحماية سياسات الاستكبار ولمنع انتشار الإسلام المحمّدي الصحيح، وإنّ صحيفة الأعمال السوداء المخزية لحكام الدول الإسلامية العديمي الوجدان إنّما هي حكاية لتراكم الآلام والمصائب على الجسم المنهك للإسلام والمسلمين.

إنّ نبي الإسلام ليس بحاجة إلى المساجد الأرستقراطية والمآذن المزخرفة، نبي الإسلام كان همّه عزة أتباعه ورفعتهم، هؤلاء الذين ـ لشديد الأسف ـ أنزلهم الحكام العملاء إلى حضيض الذل، ألا هل يمكن أنْ ينسى مسلمو العالم فاجعة مجزرة المئات من العلماء والألوف من النساء والرجال من المذاهب الإسلامية المختلفة طوال حياة آل سعود المخزية، وكذا مجزرة حجاج بيت الله الحرام؟ ألا يرى المسلمون أنّ المراكز الوهابية في العالم اليوم قد

غدت مراكز للفتن والتجسس؟ مراكز يروج أصحابها لإسلام أبي سفيان، إسلام الفقهاء البلاطيين القذرين، إسلام المتظاهرين بالتدين والقداسة من عديمي الشعور في الحوزات العلمية الفقهية والجامعية، إسلام الذل والصغار، إسلام المال والسلطان، إسلام الخداع والتلفيق والتبعية، إسلام تحكم الرأسمال والرأسماليين بالمظلومين والحفاة، وبكلمة واحدة يروجون للإسلام الأمريكي من جهة ويمرغون جباههم على عتبة سيدتهم أمريكا الجشعة من جهة أخرى.

إنّ المسلمين لا يعرفون كيف يداوون جرح أنّ (خادم الحرمين) واجهة آل سعود يطمئن إسرائيل (إنّنا لن نستعمل أسلحتنا ضدك) ويقدم لأجل إثبات صحة تعهده على قطع علاقاته بإيران.

حقّاً كم يجب أنْ تكون الرابطة بين حكّام الدول الإسلامية والصهيونية قد بلغت من الحرارة والحميمية ليمحوا في مؤتمر القمة الإسلامي من جدول أعمالهم حتى موضوع عدائهم الصوري الظاهري لإسرائيل؟ لو كانت لهؤلاء ذرة من الغيرة والحمية الإسلامية والعربية ما كانوا يوافقون على مثل هذه الصفقة السياسية القذرة، وعلى بيع أنفسهم وبيع أوطانهم.

أليست هذه الأعمال عاراً للعالم الإسلامي ومدعاة للخجل؟ أليس الوقوف منها موقف المتفرج إثماً وجريمة؟

أصحيح منّا أنْ نجلس صامتين ليتجاهل حكام الدول الإسلامية أحاسيس مليار مسلم، ويضفوا الشرعية على تلك الفواجع الصهيونية الرهيبة كلّها، ويعيدوا إلى الساحة ثانية مصر وأضرابها؟

هل سيصدّق المسلمون في هذه الحال أنّ الحجاج الإيرانيين قد تحركوا لاحتلال بيت الله وحرم النبي، وأنّهم يريدون أنْ يسرقوا

الكعبة وينقلوها إلى قم؟ لو صدّق مسلمو العالم أنّ حكامهم هم أعداء حقاً لأمريكا وروسيا وإسرائيل لكانوا صدّقوا أيضاً دعايات حكامهم ضدنا.

لقد أعلنّا نحن بالطبع مرات كثيرة حقيقة واقعية في سياستنا الإسلامية الخارجية والدولية وهي أنّنا كنّا وما نزال نسعى لتوسيع نفوذ الإسلام في العالم، وتقليص سلطة ناهبي الشعوب.

فإذا كان خدام أمريكا، يسمّون هذه السياسة سعياً للتوسع وتفكيراً في تشكيل إمبراطورية كبيرة، فإنّنا لا نخشى هذا (الاتهام) ونتقبله بسرور.

إنّنا نعتزم إيباس الجذور الفاسدة للصهيونية والرأسمالية والشيوعية في العالم - لقد قررنا أنْ نستأصل بعون الله العظيم وعنايته الأنظمة القائمة على هذه القوائم الثلاث، وأنْ نشيع في عالم الاستكبار نظام إسلام رسول الله (ﷺ)، وستشهد الشعوب الأسيرة ذلك عاجلاً أم آجلاً.

إنّنا سنمنع بكل وجودنا وطاقاتنا توسع الابتزاز الأمريكي وتوسع حصانة عملاء أمريكا، حتى لو اقتضى الأمر منّا الكفاح بالقوة وإنّنا إنْ شاء الله لن ندع لحن التعاون والتوافق مع أمريكا وروسيا والكفر والشرك يعزف من الكعبة وأرض الحج، من هذا المنبر العظيم الذي يجب أنْ يعكس من فوق سطحه الإنساني أصوات المظلومين إلى جميع العالم، ونسأل الله أنْ يمنحنا القدرة على أنْ نجعل صرخة (الموت لأمريكا وإسرائيل) تنطلق لا من كعبة المسلمين فقط بل ومن كنائس العالم أيضاً.

ألا فليعتز مسلمو العالم ومحرومو المعمورة كلهم بهذا النفق الطويل إلى ما لانهاية، الذي أوجدته الثورة الإسلامية لجميع ناهبي

الشعوب، وليتنسموا أريج الحرية وليرفعوا شعار التحرير والتحرر في حياتهم ومصائرهم، وليمسحوا ببلسمه جراحهم، فقد شارف عهد القنوط واليأس في منطق الكفر على الانتهاء، وأزهرت حدائق الشعوب، وأملي أنْ يشهد المسلمون جميعاً تفتح براعم الحرية، ويتنشقوا نسائم عطر الربيع، ويتحسّسوا رقة ورد الحب، ويتذوقوا عذوبة زلال إرادتهم الفوارة كالينابيع الدفاقة.

إنّ علينا جميعاً أنْ نخرج من حمأة الصمت ومستنقع الهمود الذي بذر فيه عملاء السياسة الأمريكية والسياسة الروسية بذور الموت والعبودية، وأنْ نتوجه إلى البحر الذي فارت منه (زمزم) فنغسل بدموع عيوننا أستار الكعبة وبيت الله الذي لوثته أمريكا وأبناؤها بأيديهم النجسة.

أيها المسلمون في جميع أقطار العالم، بما أنّكم تحت سلطة الأجانب مبتلون بالموت البطيء، عليكم أنْ تنتصروا على الخوف من الموت، وأنْ تستفيدوا من وجود الشبّان المندفعين المتطوعين للشهادة، المستعدين لاختراق خطوط جبهة الكفر.

لا تفكروا في الإبقاء على الوضع القائم، بل فكروا في التخلص من الأسر وفي التحرر من العبودية والثورة على أعداء الإسلام، لأنّ العزة والحياة إنّما هما في ظلّ الكفاح، وإنّ أول خطوة في الكفاح هي الإرادة، وعاهدوا أنفسكم بعد ذلك على منع سيادة الكفر والشرك العالمي وبخاصة أمريكا.

ونحن سواء كنّا في مكة أو لم نكن، فإنّ قلوبنا وأرواحنا مع إبراهيم وفي مكة، وسواء أغلقوا أبواب مدينة الرسول أو فتحوها في وجوهنا، فإنّ حبل محبتنا للنبي لا ينقطع قط ولا يهن، نصلي ووجوهنا نحو الكعبة، ونموت ووجوهنا نحو الكعبة، ونشكر الله

على أنّنا بقينا ثابتين على ميثاقنا مع رب الكعبة، وأنّنا قد أقمنا قواعد البراءة من المشركين مرفقة بدماء الألوف المؤلفة من شهدائنا الأعزاء، ولم ننتظر مساندة أو تأييداً من فاقدي الشخصية من بعض حكام الدول الإسلامية وغير الإسلامية، إنّنا نحن المظلومين المحرومين الحفاة دائماً في التاريخ، ليس لنا غير الله، ولو قطعونا ألف مرة قطعة قطعة لن نتوقف عن محاربة الظالمين.

إنّ الجمهورية الإسلامية الإيرانية تشكر المسلمين الأحرار في العالم، الذين استطاعوا رغم الضغوط السياسية الخانقة عليهم تنظيم المحاضرات والمؤتمرات والخطب وأنْ يفضحوا أسرار جرائم أمريكا وآل سعود، وأنْ يظهروا للدنيا كلها الظلم الذي لحق بنا، ويجب أنْ يعلم المسلمون أنّه ما دام ميزان القوى في العالم لم يمل إلى صالحهم فإنّ مصالح الأجانب ستقدم دائماً على مصالحهم، وسيفتعل الشيطان الأكبر أو الروس كل يوم حادثة بحجة الحفاظ على مصالحهما.

إذا لم يحل المسلمون مشكلاتهم مع ناهبي الشعوب بصورة جدية، وإذا لم يوصلوا أنفسهم إلى حدود القوة العظمى في العالم، فهل سيكونون حقاً في أمان؟ إذا حوّلت أمريكا الآن دولة إسلامية إلى كومة خراب وتراب بحجة الدفاع عن مصالحها، فمن سيقف في وجهها؟ إذن فلم يبق أمامنا إلا الجهاد ويجب تهشيم مخالب الدول العظمى وأسنانها، وبخاصة أمريكا، وانتخاب واحدة من الطريقتين: إما الشهادة وإما النصر، وكلاهما نصر في مدرستنا، إلى أنْ يمنح الله تعالى جميع المسلمين القدرة على تحطيم أسوار سياسات التعسف والظلم التي يعتمدها ناهبو الشعوب، والجرأة أيضاً على إيجاد دروع لمحو الكرامة الإنسانية، ويعين الجميع على الخروج منه أفول الذل إلى صعود العزّ والسطوة.

إنّ البعض لم يدركوا قبل حدوث واقعة الحج المرة الحلوة في العام الماضي معنى إصرار الجمهورية الإسلامية الإيرانية على مسيرة البراءة من المشركين، وكانوا يساءلون أنفسهم وسواهم: ما الموجب في سفر الحج وفي ذلك الطقس الحار لتنظيم المسيرة وإطلاق الجهاد؟ وحتى إذا أطلقت دعوة البراءة من المشركين، فما الضرر الذي سيلحق بالاستكبار؟ وكم من السذج البسطاء كانوا يتصورون أنّ عالم ناهبي الشعوب الذي يوصف بالمتمدن ليس أنّه سيتحمل مثل هذه الأمور السياسية فقط، بل أكثر من هذا سيسمح لأخصامه بتنظيم المظاهرات والمسيرات، والدليل على ذلك النوع من الإذن بالمسيرات التي تنظم في البلاد الغربية التي توصف بالحرة، ولكنّ الواجب أنْ يكون واضحاً أنّ ذلك النوع من المسيرات لا يتضمن أي ضرر للقوى العظمى وغير العظمى.

إنّها مسيرة مكة والمدينة التي سيعقبها إغلاق أنابيب نفط الجزيرة العربية، إنّها لمسيرة مكة والمدينة التي ستنتهي بزوال عبيد روسيا وأمريكا، وتماماً لأجل هذا السبب بالذات تمنع هذه المسيرة بمجزرة جماعية للأحرار من النساء والرجال، وإنّه في ظلّ هذه البراءة من المشركين يدرك حتى البسطاء والسذّج أنّه لا يجب إحناء الرأس على أعتاب روسيا وأمريكا.

ألا فليثق شعب إيران العزيز الشجاع أنّ حادثة مكة هي بداية تطورات كبرى في عالم الإسلام، ومدخل صالح لاستئصال الأنظمة الفاسدة في الدول الإسلامية، ولطرد المتزيين بزي رجال الدين.

إنّ ملحمة البراءة من المشركين لم يمر عليها أكثر من سنة، ومع ذلك فإنّ عطر الدماء الطاهرة لشهدائنا الأعزاء قد ضمّخ العالم كله، ونحن نرى آثارها في أقصى نقاط العالم، فملحمة شعب

فلسطين ليست وليدة صدفة، ترى هل تتصور الدنيا من هم الذين أنشأوا هذه الملحمة؟ وإلى أية شعارات يستند شعب فلسطين حين يواجه دون رهبة وبأيد خالية هجمات الصهاينة الوحشية؟ هل هو نداء الوطنية وحده الذي من وجودهم أوجد عالماً من الصمود؟ أمِنْ أشجار لاعبي السياسة الذين باعوا أنفسهم تنهمر على الفلسطينيين أثمار الصمود وزيتون النور والأمل؟ كيف يكون ذلك وهؤلاء قد عاشوا سنوات طويلة في جدار الفلسطينيين وتعيّشوا باسم الشعب الفلسطيني؟

لا شكَّ أنّه نداء (الله أكبر)، نداء شعبنا الذي دفع الشاه في إيران ودفع الغاصبين في بيت المقدس إلى اليأس، وهو شعار تحقق البراءة نفسه الذي رفعه شعب فلسطين في تظاهرات الحج جنباً إلى جنب أخواته وإخوته الإيرانيين حين نادى بصرخة تحرير القدس، ورفع الصوت بشعارات: الموت لأمريكا وروسيا وإسرائيل، وسال دمه وسكن شهيداً على مهد الشهادة نفسه الذي سالت عليه دماء أعزائنا.

أجل إنّ الفلسطيني الذي ضلّ طريقه وجدها في طريق براءتنا، ورأينا كيف انهارت في هذا الصراع الأسوار الحديدية، وكيف انتصر الدم على السيف، والإيمان على الكفر، والصرخة على الرصاصة، وكيف خاب حلم بني إسرائيل في الحكم من النيل إلى الفرات، وشعّ مرة أخرى كوكب فلسطين الدرّي من شجرتنا المباركة اللاشرقية واللاغربية.

وكما تقوم اليوم في العالم كلّه مساع كثيرة لجرّنا إلى مهادنة الكفر والشرك، تقوم مساع على الصورة نفسها لإطفاء شعلات غضب شعب فلسطين المسلم.

هذا نموذج واحد لتقدّم الثورة، وإنّ أعداد المؤمنين بمبادئ ثورتنا الإسلامية تتضاعف اليوم في أرجاء المعمورة، ومثلهم أيضاً أولئك الذين يوقّعون بحبر دمائهم عرائض حمايتنا، ويقولون بألسنتهم وأجسادهم: (لبيك) لثورتنا، والذين سيرثون الأرض بعون الله ويمسكون بأيديهم مقدراتها.

اليوم بدأت حرب الحقّ والباطل، حرب الفقر والغنى، حرب الاستضعاف والاستكبار، حرب الحفاة والمرفهين فاقدي الضمير، أمّا أولئك الأعزاء في أرجاء المعمورة كلها، الذين حملوا في أرجاء المعمورة كلها نقل الكفاح على عواتقهم والذين صمموا على الجهاد في سبيل الله ومن أجل رفعة وعزة المسلمين، فإنّني أقبّل أيديهم وسواعدهم كما أوجه إلى كل براعم الحرية والكمال سلامي وإكباري الصادق.

وأمّا أبناء شعب إيران الأعزاء البواسل، فإنّني أقول لهم: إنّ الله ﷻ قد صدّر إلى العالم دويّ كرامتكم وآثارها المباركة، وإنّ قلوبكم وعيونكم الوضاءة قد غدت مراكز للدفاع عن المحرومين، وإنّ شرارة زمجرتكم الثورية قد أرعبت ناهبي الشعوب شرقيين وغربيين.

طبعاً، نحن جميعاً نعلم أنّ وطننا قد تحمل في الثورة وفي الحرب مشقات ومشكلات، ولا أحد يدعي أنّ الطبقات المحرومة والضعيفة المحدودة الدخل، وبخاصة طبقة الموظفين والإداريين، لا تعاني من الضائقة الاقتصادية، ولكن ما يفكر به أفراد شعبنا أبعد من ذلك، هو قضية الإسلام ومبادئ الثورة.

لقد أثبت الشعب الإيراني أنّه يتحمل الجوع والعطش، ولكنّه لن يتحمل أبداً هزيمة الثورة وضرب مبادئها، لقد صمد هذا الشعب

الشريف دائماً أمام أشرس الحملات التي شنها عالم الكفر كله على مبادئ ثورته، وليس المجال هنا الآن لذكر كل تلك الحملات، ولكنْ ألم يصمد شعب إيران الباسل أمام جنايات أمريكا المتعددة في الخليج الفارسي، سواء منها مساندتها العسكرية والاستخبارية للعراق، أو حملتها على المحطات النفطية العائمة والسفن والزوارق وإسقاطها الطائرات المدنية؟ ألم يصمد شعب إيران البطل أمام حملات العراق الاقتصادية والإعلامية والنفسية، وهجماته الوحشية على المدن، وإمطاره المناطق السكنية بالصواريخ، وقصفه المكرر لمدن إيران وحلبجة بالقنابل الكيميائية؟ ألم يصمد شعب إيران العزيز أمام مؤامرات المنافقين والعلمانيين والرأسماليين الجشعين المحتكرين والمحتالين المتظاهرين بالزهد والطهارة؟ ألم تكن هذه الأحداث والوقائع كلها لضرب مبادئ الثورة؟ إنّ كل واحدة من هذه المؤامرات كانت تستطيع لولا يقظة الجماهير وحضورها وتأهبها أنْ تنزل ضربة بمبادئ النظام، ولكنّنا نشكر الله على أنّه وفق شعب إيران ليعمل برسالته بثبات ولا يتخلى عن ساحات النضال.

إنّ أبناء شعبنا العزيز الذين هم المجاهدون الحقيقيون والمدافعون الصادقون عن القيم الإسلامية قد أدركوا جيداً أنّ الكفاح لا يتلاءم مع الرفاهية، وأنّ أولئك الذين يتصورون أنّ الكفاح من أجل الاستقلال وحرية المستضعفين والمحرومين في العالم لا يتنافى مع الرأسمالية والرفاهية، غرباء حتى عن ألف باء الجهاد، كما أنّ الذين يتصورون أنّ الرأسماليين والمرفهين الذين انعدمت ضمائرهم يتأثرون بالنصائح والمواعظ ويلتحقون بالمكافحين من أجل الحرية أو أنّهم يساعدونهم، إنّما يدقون الماء، إنّ الكفاح والرفاهية والانتفاضة والدعة، والإقبال على

الدنيا وطلب الآخرة، مقولتان لا تجتمعان أبداً، والذين سيتابعون معنا إلى آخر الطريق هم فقط الذين تذوقوا ألم الفقر والحرمان والاستضعاف، إنّ الفقراء والمتدينين المعدمين هم المسيّرون والحافظون الحقيقيون لثورتنا.

إنّ علينا أنْ نبذل كل ما بوسعنا حتى نحفظ بكل صورة ممكنة الخط الأساسي للدفاع عن المستضعفين. إنّ المسؤولين عن نظام إيران الثورية يجب أنْ يعلموا أنّ جماعة ممن لا يعرفون الله يبادرون من أجل الإطاحة بالثورة إلى اتهام كل من يريد العمل لأجل الفقراء والمعوزين والسير في طريق الإسلام والثورة، وكذلك اتهامه بالشيوعية والأفكار الغربية الهدامة، يجب ألا يخافوا من هذه التهم، ويجب أنْ يبقوا الله نصب أعينهم، وأنْ يصرفوا كلّ همّهم وجهدهم لرضاء الله ومساعدة الفقراء، ولا يخافوا أو يتأثروا بأي تهمة مهما كانت.

إنّ لأمريكا وللاستكبار في كافة الميادين أفراداً متسترين يعملون على الإطاحة بالثورة الإسلامية في المراكز الدينية والجامعية، متظاهرين بقدسية رجال الدين، فهؤلاء الذين أشرت مرات ومرات إلى تضليلهم وخداعهم، يهدمون الإسلام ومفهوم الثورة من الداخل، إنّهم باصطناعهم مظهر من يلازم الحق ومن يؤيد الدين والولاية يتهمون الجميع بالبعد عن الدين، ويجب أن نعوذ بالله من شر هؤلاء، وكذا آخرون يهاجمون كل روحاني ورجل دين، ويصفون إسلام هؤلاء بأنّه إسلام أمريكي، فإنّهم يسلكون طريقاً خطرة جداً تؤدي لا سمح الله إلى الإطاحة بالإسلام المحمّدي النقي الحقيقي.

إنّنا من أجل إحقاق حقوق الفقراء في المجتمعات الإنسانية* سندافع حتى آخر قطرة من دمائنا.

إنّ العالم اليوم متعطش للثقافة الإسلامية المحمدية النقية، وإنّ المسلمين عبر تنظيمات إسلامية كبيرة سيطيحون بزخارف القصور البيضاء والحمراء، إنّ الخميني قد فتح اليوم حضنه وصدره لسهام البلايا والحوادث الشديدة، وشرعهما أمام جميع مدافع الأعداء وصواريخهم، وهو كجميع عشاق الاستشهاد يعد الأيام ليحظى بالشهادة.

إنّ حربنا حرب عقيدة، وهي لا تعرف ثغوراً ولا حدوداً، وعلينا في حربنا العقائدية أنْ نوجه التعبئة الكبرى لجنود الإسلام إلى العالم كله.

إنّ الشعب الإيراني العظيم بمساندته المادية والمعنوية للثورة سيعوض إنْ شاء الله في الدنيا كلها، وأي حلاوة أعذب من أنْ يكون شعب إيران العظيم مثل صاعقة انقضت على رأس أمريكا؟ وأي حلاوة أعذب من أنّ شعب إيران قد شهد انهيار النظام الشاهنشاهي وأركانه وتنظيماته الظالمة، وأنهى وجود أمريكا في هذا الوطن؟ وأي حلاوة أعذب من أنّ شعبنا العظيم قد أيبس جذور التفرقة والقومية والتقليد، وسيتذوق إنْ شاء الله الحلاوة السرمدية الخالدة لكل ذلك في عالم الآخرة، لا أولئك الذين توصلوا إلى مقام الشهادة وتقديم الحياة والاشتراك في الجبهة فقط، بل كذلك أولئك الذين كانوا خلف الجبهة يقوونها بنظرياتهم الطافحة حباً وبأدعيتهم الخيّرة، فهؤلاء أيضاً قد نالوا نصيباً من مقام المجاهدين العظيم ومن أجرهم الكبير، ألا هنيئاً للمجاهدين، وطوبى لورثة الحسين (عليه السلام).

يجب أنْ يعلم أذناب أمريكا أنّ الشهادة في سبيل الله ليست مسألة يمكن تقويمها بمقاييس (النصر) أو (الهزيمة) في ساحات

القتال، إنّ مقام الشهادة في حد ذاته هو أوج العبودية والفناء في عالم المعنوية والروح، فلا يجب أنْ نهبط إلى درجة أنّ ثمن استشهاد أبناء الإسلام كان تحرير (خرمشهر) أو المدن الأخرى فقط، إنّ هذه جميعاً أوهام باطلة لدعاة القوميات، أما نحن فنقول: إنّه ما دام هناك وجود لكفاح فثمة وجود لنا، نحن لا خلاف لنا مع أحد على مدينة أو دولة، نحن مصممون على أنْ نجعل راية (لا إله إلا الله) تخفق على القنن العليا للكرامة والسؤدد.

إذن فيا أبنائي من الجيش والحرس ومتطوعي التعبئة، ويا أيتها القوى الجماهيرية، لا تعبّروا قط عن خسارة موضع بالانزعاج والتأثر، وعن الاستيلاء على مكان بالزهو والفرح، لأنّ هذه بإزاء هدفكم هي التفاهة والحقارة بمقدار الدنيا تافهة حقيرة بإزاء الآخرة، وليعلم الآباء والأمهات والأزواج والأقارب لشهدائنا وأسرانا ومفقودينا ومشوهينا أنّ ما ناله أبناؤهم لم ينقص منه شيء، إنّ أبناءكم بجوار النبي والأئمة الأطهار لا فرق عندهم بين نصر وهزيمة.

اليوم هو يوم هداية الأجيال القادمة، شدّوا أحزمتكم على اقتناع بأنّ شيئاً ما لم يتغير، اليوم هكذا أراد الله، وأمس كان قد أراد شيئاً آخر، وغداً سيكون إنْ شاء الله يوم نصر جنود الحق، أما نحن فخاضعون لمشيئة الله كيفما تكن، وتابعون لأمره مهما يكن، ولذا نحن طلاب شهادة، ولهذا السبب وحده نرفض الذل والعبودية لغير الله.

طبعاً نحن ملزمون أداءً للتكليف الشرعي أنْ نؤدي الأعمال والأمور المتعلقة بنَا على أفضل وجه وبدراية ودقة.

إنّ الجميع يعلمون أنّنا لم نكن البادئين بالحرب، ولقد دافعنا

عن أنفسنا حفاظاً على وجود الإسلام في العالم فقط، والشعب الإيراني المظلوم هو الذي كان يتعرض دائماً لهجمات ناهبي الشعوب، وكان الاستكبار يحمل علينا من جميع أوكاره السياسية والعسكرية والثقافية والاقتصادية.

إنّ ثورتنا الإسلامية قد فضحت حتى الآن أمام الشعوب وكر الشيطان، وفخ الصيادين، وناهبو الشعوب، والرأسماليون، وأتباعهم يأملون منّا أنْ ننظر إلى كسر البراعم الطالعة وإلى وقوع المظلومين في آبار الجبروت دون أنْ نحذر أو نحرك ساكناً، في حين أنّ أول واجباتنا وواجبات ثورتنا الإسلامية أنْ نجأر في كل أرجاء المعمورة أنْ: يا أيها الغارقون في سباتكم، ويا أيها الغافلون عن حقوقكم، استيقظوا وانظروا إلى ما حولكم فإنّكم قد اتخذتم لكم منازل في أوكار الذئاب، قوموا فليس هذا مكاناً للنوم، وأنْ نصرخ بهم: انهضوا سريعاً فالعالم ليس في أمان من الصياد، إنّ أمريكا وروسيا كامنتان لكم بالمرصاد، ولن تترككم قبل إبادة تامة، ألا، لو كان جيش التعبئة الإسلامية العالمي قد شكّل وأعدّ، هل كان أحد يجرؤ على كل هذا التطاول وكل هذا السوء نحو الأبناء الروحيين لرسول الله (ﷺ)؟

إنّ أحد المفاخر العظمى لشعبنا اليوم أنّه وقف متصدياً لأكبر عرض للقوة ولأساطيل أمريكا وأوربا الحربية في الخليج الفارسي، وأنا أحذّر الجيوش الأمريكية والأوربية أن اخرجوا من الخليج الفارسي قبل فوات الأوان وقبل أنْ تغرقوا في مستنقع الموت، ولن يكون شيئاً دائماً أنْ تسقط طائراتنا المدنية بقذائف بوارجكم الحربية، إنّ من الممكن أنْ يبعث أبناء الثورة الإسلامية ببوارجكم إلى قعر مياه الخليج الفارسي.

وأقول لدول المنطقة وحكوماتها، وبخاصة حكومة الجزيرة العربية والكويت: إنّكم ستكونون جميعاً شركاء في الأحداث والجرائم التي تفتعلها أمريكا، ولئن كنّا لم نقدم حتى الآن على عمل ما، منعاً لغرق المنطقة كلها في أتون من النار والدم والاضطراب الكامل، إلا أنّ حركات ريغان الجنونية ستفرض حتماً على الجميع حوادث غير متوقعة وعواقب خطيرة، تأكدوا أنّكم في هذه الورقة الجديدة خاسرون، لا تذلوا وتضعفوا أنفسكم ودولكم والمسلمين أمام أمريكا إلى هذه الدرجة، إذا كنتم بلا دين فكونوا أحراراً على الأقل.

لقد تفتحت بحمد الله من بركة ثورة إيران الإسلامية أبواب النور والأمل أمام مسلمي العالم كلهم، وهي تتابع تقدّمها حتى تنزل الرعود والبروق التي تولدها أحداثها، أمطار الموت والإبادة على رؤوس المستكبرين جميعهم.

إنّ الموضوع المهم الذي يجب أنْ نتنبه له جميعاً والذي يجب أنْ نجعله المبدأ والأساس لسياستنا مع الأجانب هو: إلى متى وإلى أين يتحملنا أعداؤنا وناهبو الشعوب؟ وإلى أي حدود يقبلون باستقلالنا وحريتنا؟ لا شكّ أنّهم لا يقبلون حداً دون عدولنا عن شخصيتنا وقيمنا المعنوية والإلهية كلها، إنّهم كما يقول لنا القرآن الكريم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]، إنّ الصهاينة وأمريكا وروسيا أردنا أو لم نرد، سيظلون يطاردوننا حتى يشوهوا هويتنا الدينية وشرفنا الرسالي.

إنّ بعض المغرضين ينعوننا باعتماد سياسة تولد الكره لنا والحقد علينا في المحافل الدولية، ويشمتون بنا ويقولون بحرقة لا داعي لها وبانتقادات صبيانية: إنّ الجمهورية الإسلامية قد غدت

سبباً للعداوات، وسقطت من أعين الغرب والشرق، فما أحسن أن يجاب عن هذا السؤال بالتساؤل: متى كان لشعوب العالم الثالث والمسلمين ـ وبخاصة للشعب الإيراني ـ احترام وكرامة عند الغربيين والشرقيين حتى تكون فقدتهما اليوم؟

أجل، إذا تخلى الشعب الإيراني عن جميع مبادئه وموازينه الإسلامية والثورية، وخرب بأيديه دار العزة والكرامة للنبي والأئمة المعصومين ﷺ، عندئذ يمكن أنْ يعترف به رسمياً عالم ناهبي الشعوب، شعباً ضعيفاً فقيراً بلا حضارة، ولكنْ أيضاً ضمن حد أنْ يكونوا هم أسياداً ونكون نحن عبيداً، أنْ يكونوا هم قوة عظمى ونكون نحن ضعافاً، أنْ يكونوا الأوصياء القيمين ونكون نحن المرتزقة الحراس لمصالحهم، لا إيران بهوية إيرانية إسلامية، بل إيران تصدر أمريكا وروسيا هويتها، إيران تجر عربة السياسة الأمريكية أو الروسية، وإنّ المصيبة الكبرى اليوم لأمريكا وروسيا، وللشرق والغرب، ليس أنّ إيران قد خرجت من سطوة حمايتها، بل إنّها تدعو الآخرين أيضاً إلى الخروج من سلطة الجبارين.

إنّ الدعوة لمراقبة الأسلحة المدمرة وإلغائها من العالم، لو كانت حقيقية وصادقة لكانت مطلب جميع الشعوب، ولكنْ هذه أيضاً خدعة قديمة، وهذا ما ظهر أخيراً بصورة صريحة من تصريحات مسؤولي أمريكا وروسيا وكتابات سياسييهم، فإنّ اللقاءات الأخيرة بين الشرق والغرب إنّما هي لترويض معظم العالم الثالث، بل في الحقيقة لمنع اتساع نفوذ الحفاة والمحرومين في عالم الرأسماليين ذوي الملكيات غير المحدودة، علينا أنْ نعدّ أنفسنا للكفاح إلى أنْ نقوم بمواجهة جبهة الشرق والغرب المتحدة، جبهة القوة الإسلامية الإنسانية، حاملة اسم الإسلام والثورة وشعاراتها نفسها، وإلى أنْ يحتفل بسيادة المحرومين والحفاة في العالم وباستقلالهم.

ثقوا أنّ قوى الشرق والغرب إنّما هي تلك المظاهر الفارغة للدنيا المادية التي ليست شيئاً أمام عالم الخلود السرمدي لعالم القيم المعنوية، إنّني أعلنها بصراحة أنّ الجمهورية الإسلامية الإيرانية تؤسس وتعمل بكل وجودها لإحياء الشخصية الإسلامية لمسلمي العالم كله، ولا ترى أيضاً سبباً لأنْ تمتنع عن دعوة مسلمي الدنيا إلى تأييد مبدأ امتلاك السلطة في العالم، وأنْ لا تقف سداً أمام مطامع طلاب الجاه والحكم وطلاب الكثرة والاستزادة من أصحاب القوة والمال والخداع، علينا أنْ نخطط ونضع المناهج لأجل تحقيق أهداف الشعب الإيراني المحروم وتأمين مصالحه، علينا بكل وجودنا أنْ نبذل ما في وسعنا من أجل التعاون مع شعوب العالم، وحل مشكلات المسلمين وقضاياهم، والدفاع عن المكافحين والجائعين والمحرومين، وأنْ نعدّ هذا الهدف من مبادئ سياستنا الخارجية، إنّنا نعلن أنّ الجمهورية الإسلامية الإيرانية هي إلى الأبد حامية المسلمين الأحرار في العالم وملجأهم، وأنّ دولة إيران بصفتها قلعة عسكرية منيعة ستؤمّن لجنود الإسلام احتياجاتهم وستعرفهم بالأسس الاعتقادية والتربوية للإسلام، وكذلك بمبادئ الكفاح وأساليبه ضد أنظمة الكفر والشرك.

أما بشأن الموافقة على القرار الدولي التي كانت حقّاً مسألة مرّة وكريهة جدّاً للجميع، وبخاصة لي أنا، فإنّني حتى أيام قليلة خلت، كنت أرى الالتزام بالنهج السابق نفسه في الدفاع وفي المواقف المعلنة في الحرب، وكنت أرى مصلحة الجيش والوطن والثورة في تنفيذها والعمل بها، ولكنّني بسبب حوادث وعوامل أمتنع الآن عن ذكرها ـ وستتضح في المستقبل بإذن الله ـ وأخذاً بآراء الخبراء السياسيين والعسكريين ذوي المستوى الرفيع في الوطن

ممن أثق بالتزامهم وإخلاصهم وصدقهم، وافقت على القرار الدولي وعلى وقف إطلاق النار، وأرى ذلك في المرحلة الحاضرة في مصلحة الثورة والجيش، والله يعلم أنّه لولا وجود الدافع الذي يقضي بأنْ تكون أنفسنا وعزتنا واحترامنا فداء لمسيرة مصلحة الإسلام والمسلمين لما كنت رضيت أبداً بهذا العمل، ولكان الموت والشهادة أطيب طعماً عندي، ولكنْ لا حيلة في اليد، ولا بدّ من الرضوخ جميعاً لما يرضاه الحق تعالى، ولا شكّ أنّ شعب إيران البطل الباسل كان وسيظل هكذا أيضاً، وأنا هنا أشكر وأقدر جميع أبنائي الأعزاء في جبهات النار والدم الذين ساهموا بنحو ما في الحرب منذ بدايتها حتى اليوم، وأدعو جميع الشعب الإيراني إلى اليقظة والصبر والصمود.

من المحتمل في المستقبل أنْ يطرح بعض الأفراد بين الناس عن علم أو جهل سؤالاً من قبيل: ما كان ثمن الدماء والشهادات والتضحيات؟

إنّ هؤلاء يجهلون دون شكّ عوالم الغيب وفلسفة الشهادة، ولا يعلمون أنّ من يذهب إلى الجهاد من أجل رضاء الله وحده، مقدماً حياته على طبق الإخلاص والعبودية، لا تؤثر حوادث الزمان على خلوده وبقائه ورفيع مكانه، وأنّ علينا أنْ نطوي مراحل طويلة لندرك قيمة شهدائنا وطرقهم بصورة كاملة، وأنْ نبحث عنها في عمر الزمان وفي تاريخ الثورات وفي الأجيال القادمة.

لا شك أنّ دماء الشهداء قد ضمنت الثورة والإسلام، وأنّها لقنت العالمين جميعاً إلى الأبد درس الصمود، الله يعلم أنّ طريق الشهادة لا تنتهي ولا تموت وستقتدي الشعوب والأجيال القادمة بالشهداء وتقتفي آثارهم، وستظل تربتهم الطاهرة إلى القيامة مزار

العاشقين والعارفين والمتألمين، والدار التي يجد فيها الأحرار بلسم شفائهم.

هنيئاً لأولئك الذين رحلوا شهداء، وطوبى لمن حلقت أرواحهم في أحضانها.

اللهم أبق كتاب الشهادة مفتوحاً إلى الأبد في وجوه المشتاقين، ولا تحرمنا أيضاً من الوصول إليه.

اللهم إنّ وطننا وشعبنا ما يزالان في بداية طريق النضال وفي حاجة إلى مشعل الشهادة فاحفظ يا رب هذا المشعل الوضاء.

هنيئاً لكم يا أبناء هذا الشعب، هنيئاً لكُنّ أيتها النساء، ولكم أيها الرجال، هنيئاً لمقدمي أرواحهم وللأسرى والمفقودين وأسر الشهداء، وتعساً لي أنا الذي ما أزال حياً، ومن تجرعت حتى الثمالة كأس قبول القرار الدولي المسموم، ومن أحس بالخجل أمام عظمة هذا الشعب الكبير وتضحياته.

تعساً لمن لم يكونوا في هذه القافلة، وتعساً لأولئك الذين عبروا بجوار هذه المعركة الكبرى من الصراع والشهادة والامتحان الإلهي العظيم، وظلوا حتى الآن صامتين غير مبالين أو انتقدوها وهاجموها.

أجل، أمس كان يوم امتحان إلهي مضيء، وغداً امتحان آخر يأتي، وأمامنا كلنا يوم محاسبة أكبر أيضاً نواجه.

ليتأكد الذين تهربوا خلال سنوات الجهاد والحرب الماضية بذرائع مختلفة من أداء هذا الواجب الكبير، وأبعدوا أنفسهم وأموالهم وأولادهم والآخرين عن نار الأحداث أنّهم تهرّبوا من المتاجرة مع الله، وأنّهم لحقتهم خسائر وأضرار كبيرة سيعرفون

حسرتها في اليوم الآخر وفي محاسبة الحق، إنّني أكرر تنبيه الناس والمسؤولين أنْ يفرقوا بين هذا النوع من الأفراد وبين المجاهدين في سبيل الله، لا تمكّنوا هؤلاء العديمي الخبرة اليوم، والقاعدين القصيري النظر بالأمس، من العودة إلى المسرح، وسواء كنت أنا أو لم أكن بينكم، فإنّني أوصيكم جميعاً أنْ لا تدعوا الثورة تسقط بأيدي الغرباء عنها والذين لا يستحقونها، ولا تدعوا الذين سبقوا إلى اكتساء ثوب الشهادة والدم، أنْ يطرحوا عبر التواءات حياتهم اليومية في زوايا النسيان.

وأوصي أبناء الشعب الإيراني العزيز بإلحاح أنْ يكونوا متنبهين يقظين، إنّ قبول الجمهورية الإسلامية الإيرانية بالقرار الدولي ليس معناه حلّ مسألة الحرب، إنّنا بإعلاننا هذا القرار ننتزع حربة دعايات ناهبي الشعوب ضدنا، ولكنْ لا يمكن التنبؤ بصورة قاطعة بما ستكون عليه الأحداث، والعدو لم يكف عن شروره، واحتمال افتعاله الذرائع ليستمر في حملاته العدوانية كبير، إنّ علينا أنْ نكون مهيئين ومستعدين لرد عدوانه المحتمل، ويجب في الوقت الحاضر أنْ يعد شعبنا المسألة منتهية.

طبعاً نحن نعلن رسمياً أنّ هدفنا ليس تكتيكاً جديداً في إدامة الحرب، فكم يريد الأعداء بذرائع مثل هذه أنْ يتابعوا هجماتهم، يجب أنْ لا تغفل قوانا المسلحة أبداً عن كيد الأعداء ومكرهم، إنّ البنية الدفاعية لوطننا في جميع الأحوال والأوضاع والظروف يجب أنْ تكون على أفضل حال، وأبناء شعبنا الذين لمسوا خلال سنوات الحرب والجهاد الطويلة أبعاد ما لدى أعدائهم وأعداء الله من حقد ووحشية وعداوة، يجب أنْ ينظروا بجدية أكثر إلى خطر هجمات ناهبي الشعوب بأساليبها وأشكالها المختلفة، وليستمر في الوقت الحاضر جميع العسكريين من جنود وحرس وأفراد تعبئة في

مأمورياتهم في الجبهات كما في السابق لمواجهة شيطنة الاستكبار والعراق، فإذا اجتزنا هذه المرحلة من قصة الثورة وفقاً للصورة والمقررات الخاصة بنا، فإنّ للمرحلة التي تليها ولبناء الوطن وسياسة النظام والثورة ملاحظات ولفتات نظر سأقولها في الوقت المناسب.

أمّا الآن فإنّني أطلب بجدية تامة من جميع الخطباء والعاملين في مرافق الدولة ومسؤوليها، ومديري وسائل الإعلام والمطبوعات أنْ يتجنبوا النزاعات ومسبباتها، وليحذروا من أنْ يصبحوا من حيث لا يدرون أدوات للأفكار والدعوات الحادة، وأنْ يترصدوا، يساند بعضهم بعضاً بصدر واسع أوضاع الأعداء وتحركاتهم، ومن المحتمل في هذه الأيام أنْ يتحدث أفراد كثيرون انطلاقاً من أحاسيسهم وعواطفهم، عن أنواع الـ(لماذا) والـ(يجب) و(لا يجب)، وهذا في حد ذاته شيء قيم وحسن جداً، ولكنّ الوقت ليس وقت مثل هذه الأقوال.

كذلك سيطرح أولئك الذين كانوا حتى الأمس يقيمون جبهة في وجه هذا النظام، والذين كانوا من أجل إسقاطه وإسقاط حكومة جمهورية إيران الإسلامية فقط، ينادون بالصلح وطلب الصلح، سيطرحون اليوم أيضاً لأجل الهدف نفسه أقوالاً خادعة أخرى، كما أنّ أجراء الاستكبار، هؤلاء الذين كانوا حتى الأمس، تحت قناع الصلح الكاذب، قد طعنوا من الخلف قلب الأمة، هؤلاء سيغدون اليوم من أنصار الحرب، ومثل أولئك وهؤلاء سيشرع دعاة القومية العديمي الثقافة من أجل هدر دم الشهداء الأعزاء والإطاحة بعزة المواطنين ومفاخرهم، ببث دعاياتهم المسمومة، إلا أنّ شعبنا العزيز ببصيرته ووعيه سيلقم كل هذه الفتن حجراً ويفشلها.

إنّني أقول مرة أخرى: إنّ قبول هذا القرار هو لي أكثر قتلاً من السمّ، ولكنّني راض برضاء الله، ومن أجل رضائه شربت هذه الجرعة، أما الألم الذي يجدر ذكره بشأن الموافقة على القرار الدولي فهو أنّ مسؤولي الوطن، هم الذين اتخذوا قرار الموافقة بأنفسهم، ولم يكن لأحد أو لدولة دور في هذا الأمر.

يا شعب إيران العزيز الشريف: إنّني أعدكم واحداً واحداً كأبنائي، وأنتم تعلمون أني أمحّضكم الحب كله، إنّني أعرفكم وأنتم أيضاً تعرفونني، إنّ ما أوجب الأمر في الأوضاع الحالية، كان تكليفي الشرعي الإلهي، أنتم تعلمون أنّني كنت قد عقدت معكم عهداً على أنْ أحارب حتى آخر قطرة دم وحتى آخر نفس، أما قراري اليوم فقد كان لأجل ما رأيته المصلحة فقط، وإنّني أملاً برحمة الله وبرضائه تجاوزت كل ما كنت قلته، وإذا كانت لي كرامة فقد ساومت عليها.

يا أعزائي: أنتم تعلمون أنّني قد سعيت في أنْ لا أجعل راحتي مقدمة على رضاء الله وعلى راحتكم، يا رب أنت تعلم أنّنا لا نعتزم ملاينة الكفر والانسجام معه، يا رب أنت تعلم أنّ الاستكبار وأمريكا ناهبة العالمِ قد مزقوا ورود حديقة رسالتك، يا رب إنّنا في عالم الظلم والجور والحيف إنّما نعتمد عليك أنت، ونحن وحيدون منفردون لا نعرف غيرك ولم نرد أنْ نعرف غيرك، أعنّا فإنك خير المعينين، يا رب عوض علينا مرارة هذه الأيام بحلاوة فرج بقية الله ـ أرواحنا لتراب مقدمه الفداء ـ والوصول إليك.

يا أبنائي الثوريين، يا من تأبون أنْ تتخلّوا لحظة واحدة عن عزتكم المقدسة، اعلموا أنّ عمري ينقضي لحظة لحظة في طريق العشق المقدس لخدمتكم.

أعلم أنّ الأمر شديد عليكم، ولكنْ أليس شديداً على أبيكم الشيخ؟

أعلم أنّ الشهادة أحلى من العسل عندكم، ولكنْ أليست هي كذلك أيضاً عند خادمكم هذا؟

ولكنْ تحملوا فإنّ الله مع الصابرين، احفظوا حقدكم وغيظكم الثوري في صدوركم، انظروا بعين الغضب والنقمة إلى أعدائكم، واعلموا أنّ النصر لكم.

وأؤكد لكم أنّني لست بعيداً عن مسار أمور الحرب ومسؤوليها، إنّني أثق بالمسؤولين فلا تشمتوا بهم بسبب القرار الذي اتخذوه، فقد كان مثل هذا الاقتراح صعباً ومرّاً عليهم أيضاً، أسأل الله أنْ يوفقنا جميعاً لخدمته ورضاه.

إنّني هنا أوصي شبان وطننا الأغرار، هذه الثروات والذخائر الإلهية العظيمة، هذه الورود العطرة الحديثة التفتح في عالم الإسلام، أنْ: اعرفوا قيمة اللحظات العذبة في حياتكم، وأعدوا أنفسكم لمعرفة علمية وعملية كبرى إلى أنْ تبلغوا الأهداف السامية للثورة الإسلامية.

وأوصي جميع المسؤولين والمساهمين في تسيير الأعمال أنْ: وفروا للشبان بكل شكل ممكن أسباب رقيهم الأخلاقي والإيماني والعلمي والفني، وساعدوهم على الوصول إلى أفضل القيم والإبداعات، وإلى إبقاء روح الاستقلال والاكتفاء حية فيهم.

حذار أنْ يحقّر الأساتذة والمعلمون الذين سافروا إلى العالم الذي يسمونه المتحضر وخالطوه، حذار أنْ يحقّروا أو يعيّروا شباننا المتحررين حديثاً من الأسر والاستعمار، أو أنْ ينحتوا من تقدم

الأجانب وإمكانات تطورهم صنماً ويلقحوا ضمائر الشبان بروح التبعية والتقليد والاستجداء، وبدلاً أنْ يقال: أين وصل الآخرون وأين نحن؟ لينتبهوا إلى هويتهم الإنسانية وليحفظوا روح القدرة والاستقلال حية في نفوسهم.

لقد استطعنا في ظروف الحرب والتضييق أنْ نحقق كل تلك الإبداعات والاختراعات والإنجازات، وسنوفر في الظروف الأفضل إنْ شاء الله مجالات كافية لتنمية الاستعدادات والقدرات في جميع المجالات.

إنّ الجهاد العلمي للشبان هو إحياء روح البحث وكشف الواقعيات والحقائق، أما جهادهم العملي فقد تجسّد في أسمى مشاهد التصرف والجهاد والاستشهاد.

ثمة نقطة أخرى أقولها للشبان انطلاقاً من وفير حبّي لهم هي أنْ: استفيدوا في مسيرة القيم والمعنويات من وجود علماء الإسلام ورجال الدين الملتزمين، ولا تعدّوا أنفسكم أبداً وفي أية ظروف في غنى عن هدايتهم ومعاونتهم. إنّ الروحانيين المجاهدين الملتزمين بالإسلام تقيّدوا دائماً عبر التاريخ الطويل، وفي أقسى الظروف، وبقلوب مليئة بالأمل وطافحة بالحبّ، بتعليم الأجيال وتربيتها وهدايتها، وكانوا دائماً رواد الجماهير ومجنّها الحامي من البلايا، لقد رفعوا على المشانق، وتذوقوا صنوف الحرمان، وأدخلوا السجون، وعانوا الأسر والنفي، وفوق هذا كله جعلوا هدفاً للتهم والمطاعن، وفي الظروف التي كان الكثيرون من المفكرين النيرين خلال مكافحة الطاغوت قد وصلوا فيها إلى اليأس، أرجع الروحانيون إلى الناس روح الأمل ودافعوا عن كرامة الجماهير ومعنوياتها، والآن أيضاً ها هم ـ سواء في خطوط الجبهة

الأولى أو في مواضع أخرى من جبهات النضال ـ بجوار المواطنين وقد قدموا في كل حادثة مفجعة شهداء كباراً منهم. إنّنا لا نعرف دولة أو ثورة، غير ثورة البعثة والرسالة المحمدية، وحياة الأئمة الأطهار عليهم السلام، والثورة الإسلامية الإيرانية، تعرض قادتها لهذا القدر من الحملات والأحقاد، وما كان ذلك إلا بسبب الصدق والإخلاص والأمانة المتبلورة في وجود العلماء الملتزمين بالإسلام.

إنّ تحمّل المسؤولية في دولة تواجه أنواعاً من الحصار ومن المشكلات الاقتصادية والسياسية والعسكرية لأمر عسير، طبعاً إنّ على علماء وطننا الروحانيين أنْ يعدّوا أنفسهم لصنوف أكثر من الفداء، وأنْ يستخدموا في مواقع الحاجة والضرورة كرامتهم واحترامهم لحفظ كرامة الإسلام وخدمة المحرومين والحفاة، وإنّه لممّا يستوجب الشكر والامتنان أنّ شعب إيران الناضج الباسل يعرف قدر خادميه الحقيقيين، ويلخّص فلسفة حبّه وإخلاصه لهذا القطاع المقدس بكلمة واحدة: أنّ علماء الإسلام الملتزمين لم يخونوا قط ولن يخونوا أبداً شعار الأمة وأصالتها وعقيدتها وهدفها الإسلامي.

طبعاً لا بدّ هنا من لفت النظر إلى أنّني في كتاباتي وأحاديثي كلّما ذكرت الروحانيين وعبّرت عن تقديري لهم، إنّما كنت أقصد العلماء الصادقين الملتزمين المجاهدين، ففي كل طبقة يوجد أشخاص غير صادقين وغير ملتزمين، وإنّ الروحانيين العملاء هم أكثر ضرراً من كل فرد خبيث آخر، ولقد كان هذا الفريق من الروحانيين دائماً مورد لعن من الله ورسوله والناس، إنّ الضربات الكبرى التي نزلت بهذه الثورة أنزلها وما يزال ينزلها بها الروحانيون العملاء المتظاهرون بالقداسة المتاجرون بالدين، وقد كان روحانيونا

الحقيقيون الملتزمون ينفرون دائماً من ناقدي المعرفة هؤلاء ويهربون منهم.

إنّني أقول بصراحة: لو كان دعاة القومية هم الذين يتولون الأمر لكانوا في المشكلات والمصاعب والضائقات سرعان ما مدّوا يد الذلة والمسالمة للأعداء، ولكانوا حطموا من أجل خلاصهم من ضغوط السياسة اليومية كل آنية للصبر والدفاع، وركلوا بأقدامهم كل مواثيقهم وتعهداتهم القومية والوطنية التي يدعون.

ألا لا يتوهمنَّ أحد أنّنا لا نعرف طريق الانسجام والتوافق مع ناهبي الشعوب، ولكنْ هيهات أنْ يخون خدّام الإسلام أمتهم، طبعاً نحن متأكدون في هذه الأوضاع أيضاً أنّ ذوي الحقد الدفين القديم على الروحانية الأصيلة الحقيقية، والذين لا يستطيعون كتمان حقدهم وحسدهم، سيتناولون الروحانيين الأصليين بالطعن والثلب والتشويه، ألا إنّ ما ليس في قدر الروحانية الواقعية هو المساومة والتوافق والتسليم أمام الكفر والشرك.

فلو فصلوا عظامنا مفصلاً مفصلاً، ولو رفعوا رؤوسنا فوق أعواد المشانق، ولو أحرقونا أحياء في شعل النيران، ولو سبوا وسلبوا نساءنا وأبناءنا ووجودنا أمام أعيننا، لن نوقع أبداً وثيقة الأمان والتسليم للكفر والشرك.

إنّ العلماء والروحانيين عارفون إنْ شاء الله بجميع أبعاد مسؤوليتهم وجوانبها، ولكنّني من باب التذكير والتأكيد أقول: إنّ كثيرين من الشبان والمفكرين يحسّون أنّهم في جو الحرية السائد في وطننا الإسلامي يستطيعون أنْ يعبروا عن أفكارهم في الموضوعات والمسائل الإسلامية المختلفة، فعليكم أنْ تستمعوا إلى أقوالهم بانفتاح وصدر رحب، وإذا كانوا في مسيرتهم على ضلالة فبالبيان

المفعم بالمحبة والصداقة اهدوهم الصراط المستقيم الإسلامي، ويجب أنْ تنتبهوا إلى أنّ من غير الجائز تجاهل عواطفهم وأحاسيسهم المعنوية والعرفانية، والتسرع بإلصاق تهم التقليد والانحراف بكتاباتهم، وإلقائهم دفعة واحدة في وادي الحيرة والشكّ. لا شكَّ أنّ هؤلاء الذين يطرحون اليوم هذه المسائل تخفق قلوبهم للإسلام ولهداية المسلمين، وإلا فلا موجب عندهم بطرحها لخلق المتاعب لأنفسهم، إنّ هؤلاء يؤمنون أنّ مواقف الإسلام في الأمور المتنوعة هي كما يظنونها هم، إذن فبدلاً من الفظاظة عليهم وإبعادهم واجهوهم بأبوة وألفة، وحتى إذا لم يقبلوا أقوالكم فلا تيأسوا، وإلا سيقعون لا سمح الله في شرك العلمانيين ودعاة القومية، أو اليسار والمنافقين، ووزر ذلك ليس أقل من وزر التقليد والتخليط.

إنّنا نستطيع أنْ نثق بالمستقبل ونؤمل بصانعي المستقبل عندما نجعل لهؤلاء قيمة في الموضوعات المختلفة ونتجاوز عن هفواتهم وأخطائهم الصغيرة، ونحيط بجميع الأساليب والمبادئ التي تنتهي إلى تعليمهم وتربيتهم بصورة صحيحة. إنّ ثقافة الجامعات والمراكز العلمية غير الدينية قد اعتادت في سبر الأمور على التجارب والحس الواقعي أكثر منها على الثقافة النظرية والفلسفية، يجب بالتوفيق بين هاتين الثقافتين واختصار الفواصل بينهما أنْ تذوب الحوزة الدينية والجامعة واحدتهما في الأخرى، حتى يزداد الميدان اتساعاً لنشر معارف الإسلام وبسطها.

الأمر الآخر الذي أريد قوله: إنّني أرى القيمة العملية لرجال الدين وزهدهم هما سبب معظم نجاحاتهم ونفوذهم في المجتمعات الإسلامية، واليوم أيضاً يجب أنْ لا تهمل هذه القيمة، بل يجب ممارستها أكثر من السابق، لا شيء أقبح من ميل رجل الدين إلى

الدنيا، ولا عامل يلوّث ويسيء أكثر من تعلق رجل الدين بالدنيا، وكم من أصدقاء جهلة أو أعداء خبيرين يريدون باصطناع الحب أنْ يحرفوا نهجهم الزهدي، كما أنّ فريقاً أيضاً يتهمهم عن جهل أو عن غرض بتأييد الرأسمالية والرأسماليين.

وفي هذه الظروف الحساسة والمصيرية التي يتولّى فيها الروحانيون مقاليد أمور الوطن ومصادرها والتي يحتمل فيها استغلال الآخرين لمقام رجال الدين، يجب أنْ ينتبهوا بشدة إلى تحركاتهم، إذ كم من أفراد في المؤسسات والمؤتمرات والتنظيمات السياسية وغيرها يظهرون بمظاهر إسلامية مئة بالمئة، يريدون أنْ يسيئوا إلى معنوياتهم واحترامهم، بل وعلاوة على تأمين منافعهم يدفعون رجال الدين ليجابه واحدهم الآخر.

طبعاً إنّ ما يجب أن لا يتوقف عنه الروحانيون أبداً، وما يجب أنْ لا يتخلوا عن ميدانه لحظة واحدة تحت تأثير دعايات الآخرين، هو حماية المحرومين والحفاة، لأنّ من يتخلّى عن ذلك فإنّما يتخلّى عن عدالة الإسلام الاجتماعية.

علينا في كل الظروف والأوضاع أنْ نعدّ أنفسنا لتولي هذه المسؤولية الكبرى، وإذا قصّرنا في تحقيقها فإنّنا نخون الإسلام والمسلمين.

وختاماً أحمد الله تعالى وأشكره على ألطافه غير المحدودة التي أغدقها على هذه الأمة، وأطلب بخشوع وتذلل من بقية الله ـ أرواحنا فداه ـ أنْ يعيننا ويرشدنا في مسيرتنا وفي هدفنا.

ليمنح الله أُسَرَ الشهداء الصبر والأجر، وليتفضل على الجرحى والمشوهين بالشفاء، وليرجع الأسرى والمفقودين إلى أوطانهم.

اللهم إنّا نسألك أنْ تقدّر لنا ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، إنك قريب مجيب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

الخامس من ذي الحجة الحرام
١٤٠٨ هجرية
روح الله الموسوي الخميني

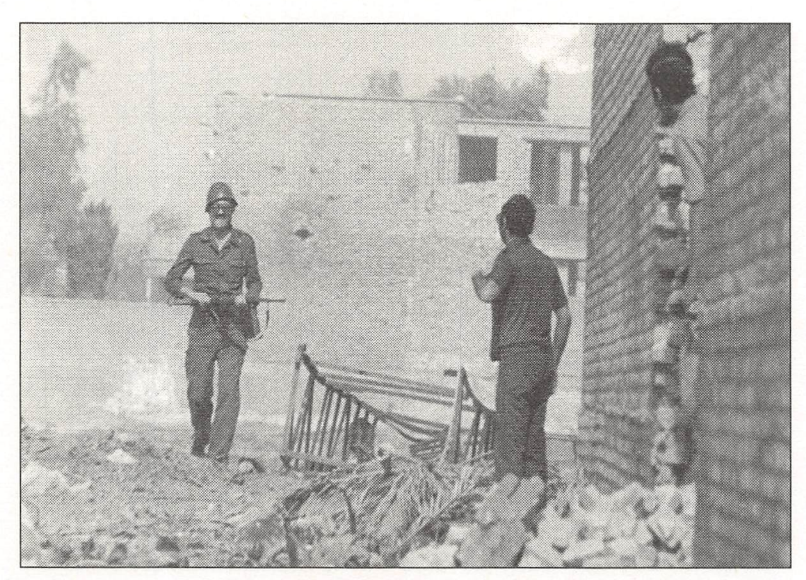
ملحق الصور



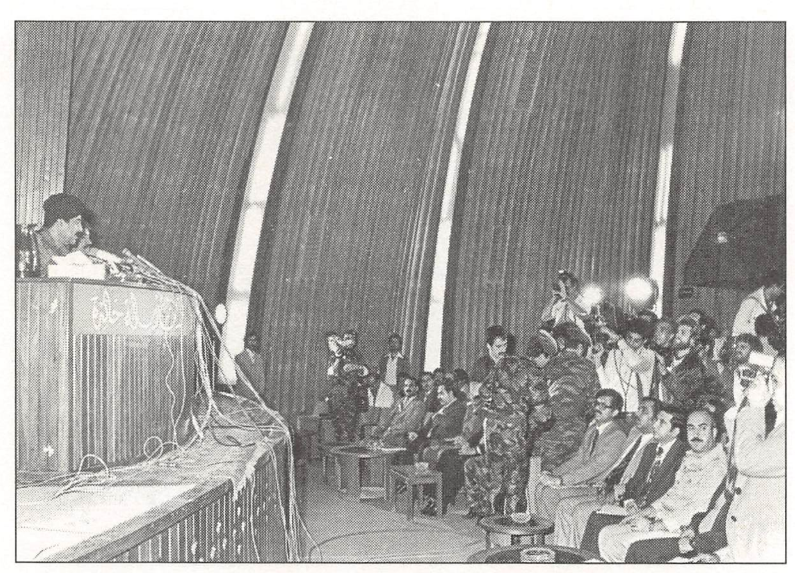
المؤلف في ميناء المحمّرة



جسر هندسي للجيش العراقي على نهر الكارون



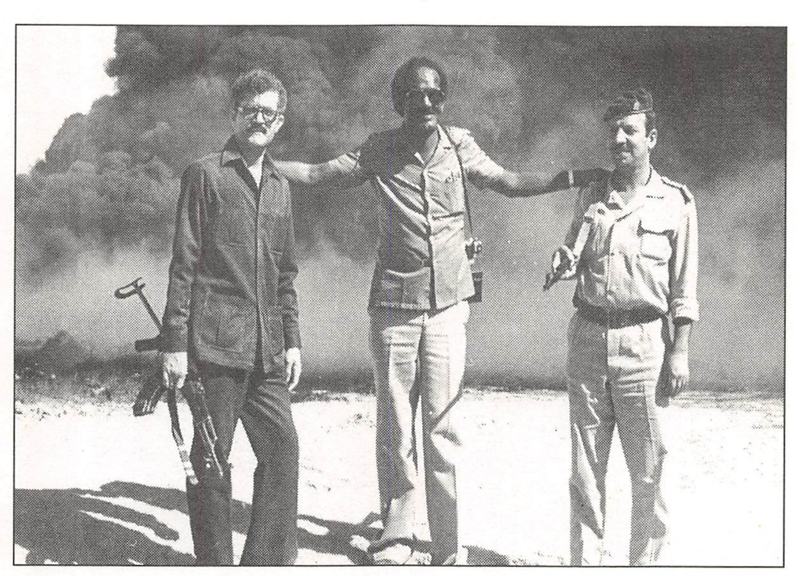
المؤلف في المحمّرة



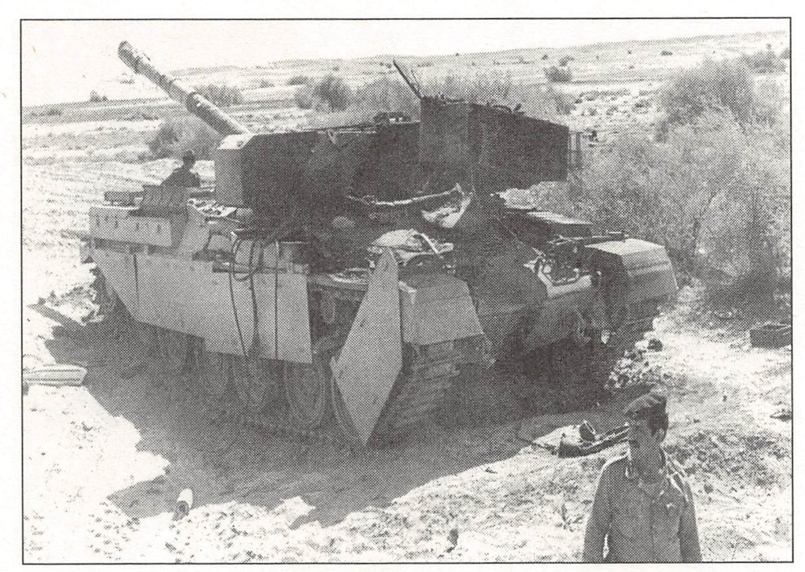
الرئيس صدّام حسين في مؤتمر صحفي بداية الحرب والمؤلف في الصف الأول



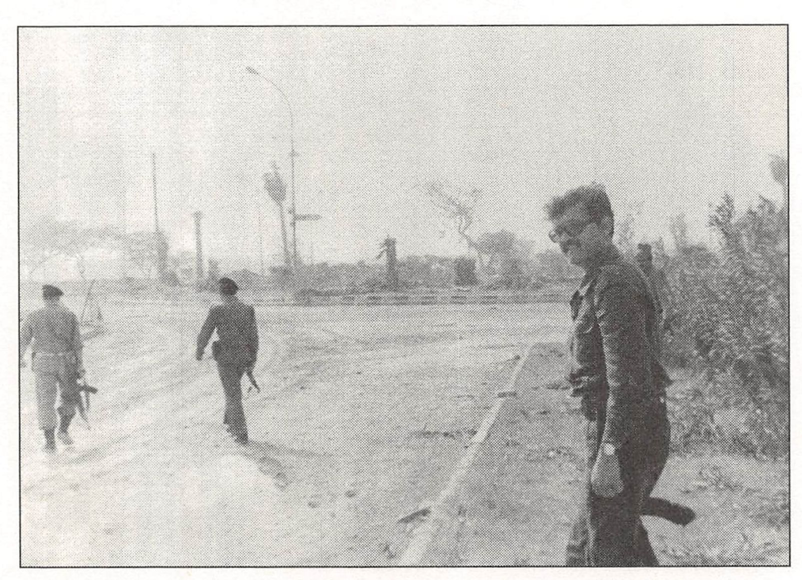
جنود عراقيّون يتقدّمون



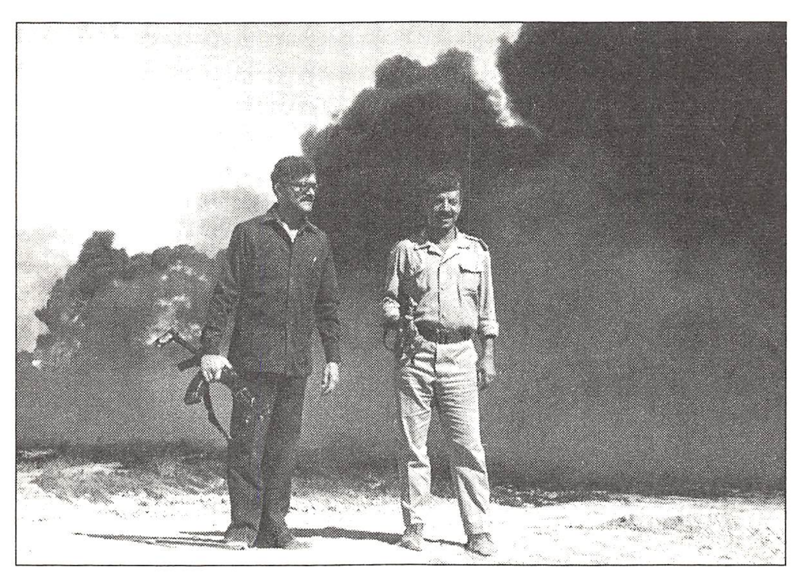
المؤلف مع عسكري عراقي وصحفي عربي



دبابة تشيفتن إيرانية مدمّرة في أرض المعركة



المؤلف في المحمّرة بعد دخول القوات العراقية



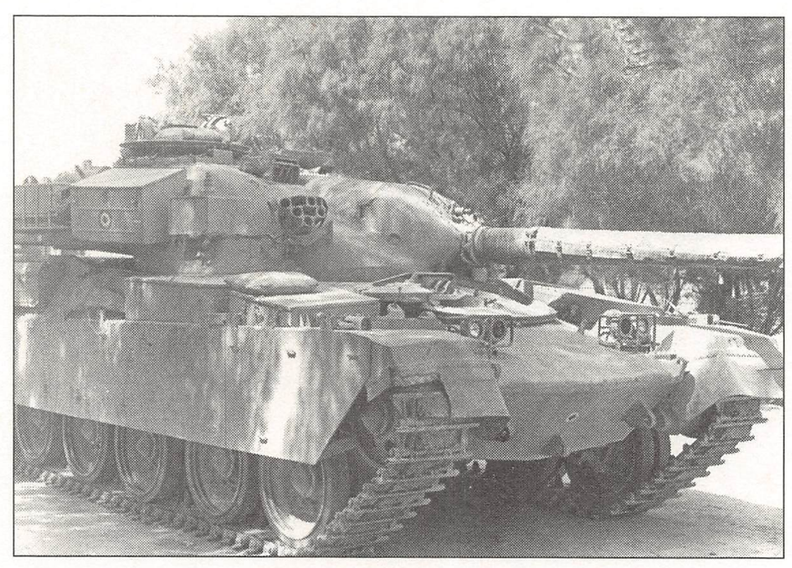
المؤلف على طريق عبادان والنار تشتعل في أنبوب النفط



جنود عراقيّون يلوّحون بشارة النصر



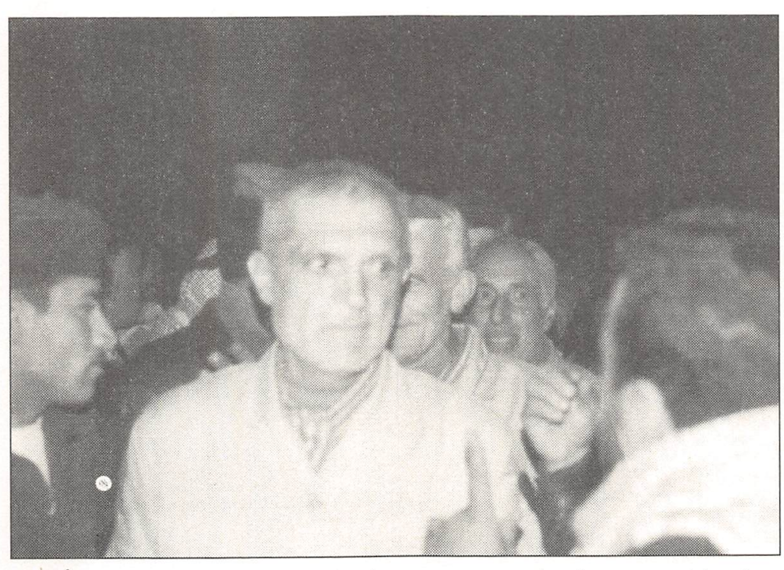
جنود عراقيّون يقفون عند مفترق طرق إيراني



دبابة إيرانية غنمها الجيش العراقي في الحرب



دبابة عراقية تتقدّم في أرض العدوّ



المؤلف يوم ٢٢/ ١/ ٢٠٠٢ في نقطة المنذرية عند عودته من الأسر

كيف سيبدو المشهد أمام كاتبٍ ومحللٍ سياسي ومديرٍ عامٍ في وزارة الثقافة حين تدفعه تقلبات الزمان وضرورات السياسة إلى أن يكون مقاتلاً وهو على تخوم سن الأربعين، ثم وبعد شهور من المعارك يقع في الأسر، ليبقى عشرين عاماً في سجون أعداء وطنه يعيش فيها كل عذابات هذه التجربة، ثم يدوّنها بعين الباحث القادر على قراءة المشهد بأبعاده السياسية والتاريخية، والأديب الماهر في وصف الأمكنة وتشخيص الظروف النفسية والاجتماعية، ليُخرج لنا ملحمة سردية هي من أجمل ما كُتب عربياً في أدب السجون.

الدكتور نزار السامرائي بقدرته البارعة على السرد والوصف استطاع أن يجعل قارئ هذه المذكرات وكأنه يُشاهد فيلماً سينمائياً. كل الألم والتيه، وصراعات اليأس من المستقبل، ومحاولات الاستقطاب والتجنيد، والتنقُّل المُنهك بين السجون، والتعذيب الجسدي والنفسي المُمنهج، وملاحم الصمود داخل المعتقلات، مع كل ما أحاط بذلك من وضع سياسي متغير، استطاع المؤلف أن يكتبه بلغة جزلة بارعة بين دفتي هذا الكتاب.

الثمن: ١٤ دولاراً
أو ما يعادلها

ISBN 978-614-431-795-2

